

مجلة كلية الآداب



المجلد التاسع عشر - الجزء الأول
مايو سنة ١٩٥٧

عدد خاص
في ذكرى
المرحوم الأستاذ عبد الوهاب عزام

مطبعة جامعة القاهرة
١٩٦٠

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر . وتطلب من مكتبة
جامعة القاهرة بالجيزة . وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية العلمية
الى الشرف على تحريرها السيد الدكتور محمد حنډى البكرى الاسناډ
بجامعة القاهرة وتمن الجزء الواحد من اى مجلد فلانون قرتسا مډريا

فهرس القسم العربى

صحيفة

- ٣ عبد الوهاب عزام بقلم تلميذه يحيى الخشاب
- ١١ كتاب بيان الأديان تأليف ابو المعالى محمد الحسينى العلوى - ترجمه
عن الفارسية دكتور يحيى الخشاب
- ٥٩ فى العلاقة بين السكان والتضاريس - دراسة فى جغرافية السكان
للدكتور جمال حمدان
- ٩٩ ضمير المتكلم المرفوع للدكتور خليل يحيى نامى
- ١١١ مكانة الفن الاسلامى بين الفنون للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق
- ١٣٥ كتاب عن الحسبة فى بيزنطة فى القرن العاشر الميلادى او كتاب والى المدينة
للدكتور السيد الباز العربى
- ١٨٩ المستقبل الاقتصادى لقناة السويس (١) للدكتور ابراهيم صقر حسن
- ٢٤٥ تطور صناعة الورق فى مصر للدكتور خليل صابى
- ٢٦٢ الفرسان والغروسيه فى ابوبيا فى العصور الوسطى للدكتور زاهر رياض
- ٢٦٢ النونيات السريعة والاسهاداب فى ظهر وثيقة الغورى للدكتور عبد المنطيف
ابراهيم على

كلمة المحرر

تعد جامعة القاهرة بحق الجامعة الأم لجامعات الجمهورية العربية المتحدة ، فهي أقدم هذه الجامعات وهي التي قامت عليها جميعا وتعهدها حتى ترعرع عودها ؛ ونحن حينما نصف جامعة القاهرة بالقدم فانما نرجع بالذاكرة الى عام ١٩٠٨ حينما نشأت الجامعة المصرية . وحينما لم تكن الجامعة المصرية سوى كلية الآداب . ولهذا تعد كلية الآداب بجامعة القاهرة أعرق الكليات الجامعية في الجمهورية العربية المتحدة ، ولا أدل على ذلك من أنها أصبحت تعد في سجل الخلود عددا ضخما من الجامعيين الذين أقاموا صرحها ، وثبتوا دعائمها ، وبلغوا بها أرقى ما بلغته الكليات الجامعية من مكانة .

ومن حق هؤلاء الخالدين على كلية الآداب أن تعترف بفصلهم بعد انتقالهم عن الدنيا ، ولا أقول بأن نخلد ذكرهم ، فقد خلدتهم أعمالهم ، ولكن بأن نذكرهم وذلك أضعف الإيمان .

ولهذا فإن مجلة كلية الآداب تصدر هذا العدد في ذكرى أحد هؤلاء الخالدين .

في ذكرى المغفور له الدكتور عبد الوهاب عزام ٢

المحرر

عبد الوهاب عزام

بقلم تلميذه يحيى الخشاب

درجاته العلمية :

- ١ — عالية مدرسة القضاء الشرعى ، وكان أول المتخرجين ، عام ١٩٢٠
- ٢ — ليسانس من الجامعة المصرية ، عام ١٩٢٣
- ٣ — درجة الماجستير من جامعة لندن ، مدرسة اللغات الشرقية ، عام ١٩٢٨
- ٤ — درجة الدكتوراه من كلية الآداب جامعة القاهرة ، عام ١٩٣٢

أعماله العلمية

التأليف :

- ١ — مدخل الشاهنامة العربية للبندارى ، ١٩٣٢
- ٢ — التصوف وفريد الدين العطار ، ١٩٤٥
- ٣ — مهد العرب ، دار المعارف ، ١٩٤٦ ، ١٩٥٥
- ٤ — الشوارد أخطرات عام ، كراتشى ١٩٥٣
- ٥ — الأوابد ، دار المعارف ١٩٤٢
- ٦ — اللغات (ضمنها الى ترجمة پیام مشرق) ، كراتشى ١٩٥١
- ٧ — محمد اقبال . مطبوعات باكستان ، ١٩٥٤
- ٨ — الأدب الفارسي بالاشتراك مع يحيى الخشاب ، ١٩٤٨
- ٩ — التصوف فى الشعر الاسلامى (صحيفة الجامعة المصرية) ، يناير

وابريل ١٩٣٣

- ١٠ — أوزان الشعر الفارسي (مقال بجلة كلية الآداب) ، ١٩٣٣
- ١١ — ذكرى أبى الطيب بعد ألف عام . بغداد ١٩٣٦ ، والقاهرة ١٩٥٦
- ١٢ — موقع عكاظ . دار المعارف ، ١٩٥٠

- ١٣ - نواح مجيدة من الثقافة الإسلامية • مطبعة المفتطف ، ١٩٣٨ ؛
 ١٤ - النفحات ، ١٩٥٣ ؛
 ١٥ - رحلات عبد الوهاب عزام • مطبعة الرسالة ١٩٣٩ .
 ١٦ - مقالات كثيرة في المجلات الأدبية ، وتحقيق أماكن بعضها في الجزيرة
 العربية •
 ١٧ - المعتمد بن عباد • (ظهر بعد وفاته سنة ١٩٥٩) •

الترجمة :

- ١ - فصول من المتنوى (عن الفارسية) ١٩٤٦
 ٢ - أيام مشرق ، اقبال (عن الفارسية) ، كراتشي ١٩٥١
 ٣ - چهار مقاله ، عروضى (عن الفارسية) بالاشتراك مع يحيى
 الخشاب ، ١٩٤٩
 ٤ - اتحاد المسلمين لجلال نورى (عن التركية) بالاشتراك مع حمزة
 طاهر ١٩٢٠
 ٥ - مقتطفات كثيرة من الشعر الفارسى والشعر التركى ، نشرت في مجلة
 الرسالة وغيرها •
 ٦ - ضرب الكلم ، اقبال • مطبعة مصر ١٩٥٢
 ٧ - ديوان الأسرار والرموز ، اقبال مطبعة المعارف ١٩٥٦ .

النشر :

- ١ - الشاهنامه التى قلها الى العربية البندارى ١٩٣٢
 ٢ - ديوان المتنبى ١٩٤٤
 ٣ - مجالس السلطان الغورى ١٩٤١
 ٤ - كلیلة ودمنة ١٩٤١
 ٥ - رسائل الصاحب بن عباد • بالاشتراك مع الدكتور شوقى ضيف ١٩٤٧
 ٦ - الورقة لمحمد بن الجراح • بالاشتراك مع عبد الستار فراج ، ١٩٥٣ .

وظائفه :

- ١ - عين معيدا عام ١٩٢٠ بمدرسة القضاء الشرعى على أثر تخرجه فيها .
 ٢ - اماما للسفارة المصرية بلندن عام ١٩٢٣

- ٣ - مدرسا بكلية الآداب ، جامعة القاهرة ، عام ١٩٢٧
- ٤ - أستاذا مساعدا بكلية عام ١٩٣٤
- ٥ - أستاذا بكلية عام ١٩٣٩ ، فعميدا لها عام ١٩٤٥
- ٦ - وفي هذه الفترة انتدب مرتين للتدريس بجامعة بغداد
- ٧ - عضوا بالمجمع اللغوي عام ١٩٤٦
- ٨ - عضوا بالمجمع العلمي العربي بدمشق وبغداد .
- ٩ - وزيرا مفوضا ثم سفيرا بوزارة الخارجية ، حيث مثل بلاده في المملكة العربية السعودية وفي باكستان ، ١٩٤٧

ولما عرض أمر قله من الجامعة الى وزارة الخارجية تمسكت به الجامعة وقرر مجلسها في ١١/٣/١٩٤٧ : « ان الجامعة لا يمكن أن تستغنى عن حضرة الأستاذ الدكتور عبد الوهاب عزام نهائيا وانما يوافق المجلس على ندب سيادته مؤقتا لمدة ثلاثة شهور يعود بعدها للجامعة » .

١٠ - ثم عين مديرا للجامعة السعودية ، وقد لحق بربه وهو يؤدي واجبه بها .

المؤتمرات :

- ١ - العيد الألفي للفردوسي الذي عقد بطهران ، عام ١٩٣٤ .
- ٢ - الاحتفال بالمتنبي الذي عقد بدمشق ، عام ١٩٣٦
- ٣ - مؤتمر المشرقين ببروكسل ، عام ١٩٣٨
- ٤ - مؤتمر أبي العلاء المعري بدمشق عام ١٩٤٤
- ٥ - الندوة العالمية للإسلاميات بلأهور عام ١٩٥٧

رحلاته :

ارتحل كثيرا الى البلاد العربية كلها ، ثم ارتحل مرات الى تركيا وايران وباكستان والهند . وشارك في النشاط العلمي والأدبي في البلاد التي زارها .

الأوسمة :

- ١ - النيشان العلمي من حكومة ايران ، عام ١٩٣٥
- ٢ - وسام الأرز الوطني من درجة قومندور من الحكومة اللبنانية ، عام ١٩٤٧

هذا بعض ما تبعه الذاكرة في هذه الساعة العصيبة التي أراني أكتب فيها شيئاً عن الرسميات في حياة أستاذي الجليل ، وصديقي الوفي الأمين ، وزميلي العالم الفذ والأديب العظيم ، عبد الوهاب عزام .

ولكن عبد الوهاب عزام لم يكن يشعرك بأنه يحمل هذه الألقاب كلها ، ولم يكن في حديثه المتواضع ، الهادئ ، الرصين ، يشعرك بأنه صاحب هذه الأعمال العلمية والأدبية كلها . ولم تكن تحس من الرجل الذي عرف هذا القدر من اللغات ، الشرقية والغربية ، والذي أقام في أوروبا سنوات وأقام في بلاد شرقية سنوات طويلة أخرى ، والذي كان مرهف الحس ، رقيق الذوق ، لم تكن تحس منه شيئاً جديداً غير ما ألفت فيه وهو شاب حديث التخرج في مدرسة القضاء .

انه نسيج وحده ، يتسع أفقه ، وتزداد ثقافته وتتوسع ، ويقرأ بالانجليزية والتركية والفارسية والأردوية ، وهو في هذه اللغات كلها يقرأ لخير كتابها ومتصوفها وفلاسفتها ، فلا يبعث هذا في نفس الأستاذ الا مزيداً من التواضع ، وشوقاً الى التطلع لمعرفة أكثر . وأشهد أنني ما رأيت عالماً ، فيه السباحة ، والتواضع ، واجلال العلم ، كما رأيته . وأشهد أنني ما جلست بمجلس علماء فيه الأستاذ الا وكان أميلهم الى الصمت وأحرصهم على السمع وأقلهم شوقاً الى الكلام ، ومع ذلك فكان هو الذي ترونو اليه الأنظار وتوجه اليه الأسئلة ، كان كلامه هو المرتجى وحديثه هو المنشود .

ان الذين أتيج لهم أن يتلقوا العلم كتلاميذ لعبد الوهاب عزام ، ثم أتيج لهم أن يكونوا له زملاء في الجامعة ، ثم أتيج لهم بعد هذا كله أن يصفو بينهم وبينه الود فتكون الصداقة الحققة التي لا تشوبها شائبة من دنيات مطالب الحياة ، ان هؤلاء يعرفون حق المعرفة أن عبد الوهاب عزام قد امتاز عن أقرانه الأساتذة بميزة خاصة هي أنه رسم لنفسه خطة منذ كان طالباً بانقضاء الشرعى ، وأنه ظل طوال حياته يسير في اتجاه واحد لتحقيق ما يقدر عليه من هذه الخطة . انها خدمة الاسلام والعربية . قل أن قرأ للأستاذ بحث أو كتاباً لا يكون مدار الحديث فيه الاسلام أو العربية .

والأستاذ أول من عمل في مصر على انشاء الدراسات الشرقية وأول من علم الفارسية والتركية وآدابها في الجامعة ، وهو أستاذ جميع من يعنون بهذه الدراسات في الجمهورية العربية المتحدة اليوم . وكان الأستاذ يهدف الى خدمة الثقافة العربية خاصة والثقافة الاسلامية بوجه عام بتعليم الدراسات الشرفية جنبا الى جنب مع اللغة العربية وآدابها .

وهو أول من قدم الى العرب شاعر الاسلام محمد عاكف . وقصة عزام وعاكف ، رحمهما الله ، تكشف عن القلب الكبير الذي كان يحمله فقيدها عبد الوهاب عزام . لقد كان حريصا الحرص كله على أن يشعر شاعر الاسلام بكنائسها وصادق دعوته الى تقوية روح المسلمين وتذكيرهم بماضيهم المجيد مثالا في حياة النبي الكريم صلوات الله عليه وحياة صحبه الذين حكموا العالم الاسلامي حكما يعد المثل الأعلى في الحياة السياسية الناجحة الهادفة العاملة . ومن ثم أتاح عزام لعاكف منبر الجامعة ، وجاء به يقدمه اليها ونحن طلاب ويزكر لنا رسالة محمد عاكف التي هي أصلح ما تكون لبث الوعي الاسلامي ولبث العزة في قلوب المسلمين ثم اذا به يحدثنا عن شعر محمد عاكف وتأثره الشديد بالثقافة العربية الغالية سواء من ناحية الفكر أو من ناحية الألفاظ أو من ناحية الهدف الذي يقصد اليه الشاعر .

وعرف عزام كيف يكون الطريق لبث آراء محمد عاكف ، فلم يكتف بما أتاح له من محاضرات لطلاب الجامعة ، بل عكف على أشعار عاكف و«صفحاته» يقلبها ويختار الدر منها وينشره على الناس كافة في مجلة الرسالة ليكون النفع بهذه الآراء أعم وأكثر شمولاً .

ويعمل عزام سفيرا لبلاده في باكستان ، وخطته دائما نصب غنييه ، فهو ينتهز فرصة اقامته في هذا البلد الاسلامي لكي يزور قبر صديقه اقبال فيتعرف على ابنه ومريديه ، وهناك ينكب على آثار اقبال درسا وبحثا وترجمة ، فيخرج الى العربية « بياض مشرق » ويوحى اليه هذا السفر أن ينظم « اللغات » فيلحقها بترجمته العربية ، ثم هو يزداد اقبالا على اقبال فيكتب عنه بالعربية كتابا يضمه آراءه ويشرح فلسفته في الذاتية . ولقد كان عزام معتزا بهذه « الذاتية » لأنها تدفع المرء الى أن يعتز بنفسه والى أن يطرح التواكل والتسليم

والى أن يعمل ويعمل لأن بناء المجتمع السليم هو نتيجة جهد كل فرد فيه ، وإذا أصيب مجتمع بتخاذل أفراده فإن الانحلال سرعان ما يعمل فيه هداما وتدميرا . وهكذا يقدم عزام « اقبالا » للعرب والمسلمين كما قدم من قبل صديقه الشاعر التركي العظيم محمد عاكف .

وإذا كان اقبال خصما عنيدا لشاعر التصوف الفارسي حافظ الشيرازي ، مع إعجابه به ، هذا الإعجاب الذي يجسم أهل الرأي عليه ، فإن عزاما كاقبال كان كذلك يخشى على المسلمين من تصوف حافظ . انه من هذه المدرسة المبلية التي تدعو الناس الى اطراح التصوف مع التقاني والاقطاع عن الدنيا والشروء في ملكوت الله . انه يدعو الى الزهد في زيف المظاهر ويدعو الى العمل على نهج عمر وأبي بكر ، هذا النهج العازف عن زخرف الدنيا والقائم في الوقت نفسه على تعمير هذه الدنيا وبث غاية العمران فيها .

وهذا هو التصوف عند عزام : ترك المظاهر الزائفة فهي قشور والتمسك بالجواهر الحق فهو سر الحياة .

ويعمل عزام سفيرا لبلاده في الجباز واليمن ، وخطته دائما نصب عينيه ، فهو يدرس الجزيرة العربية ، دراسة الجواب ، يجوب أرجاءها ويحقق مكان سوق عكاظ وغيره من هذه المواضع التي قرأ عنها والتي لها في ماضى العرب أطيب الذكريات . ثم هو يكف على تاريخ العرب قبل الاسلام ، ويترك البلاد التي عرفناها في الكتب « باليمن السعيدة » ، ليرى بنفسه آثار العمران التي يتحدث عنها المؤرخون وليحقق بنفسه مكان سد مأرب وكيف أدى صدعه الى هجرة عرب الجنوب الى الشمال . وتكون نتيجة هذا كله أبحاثا دقيقة وإعise تذكرنا بعلمائنا القدامى الذين كانوا يكملون ثقافتهم بالرحلات العلمية ويرون فيها مهلا للدرس لا غنى عنه .

والأستاذ حريص أشد الحرص على عروبه واسلامه ، غيور على لفته ، وقد انبرى للدفاع عن الحروف العربية يوم دعا الأستاذ الجليل المغفور له عبد العزيز فهمي الى الحروف اللاتينية . وقد خشى عزام أن تلقى دعوة عبد العزيز قبولاً لدى العرب ، ومنطق عبد العزيز فهمي وقوة بياحه وقدرته على الدفاع عن رأيه كل هذا كان كميلا بأن يقنع بعض الناس برأيه . ولكن « عزام » الأستاذ

الهاديء الوديع يعرف ما لم يكن يعرفه عبد العزيز فهمي . انه يعرف ماذا كان من أمر التراث الاسلامي في بلاد الترك بعد أن ألغى مصطفى كمال الحروف العربية واستبدل بها الحرف اللاتيني . وهو يعرف ما يعانيه الجيل الجديد في البلاد التركية من جهل بأصول ثقافته ومجد ماضيه ومن عجزه عن ايقاظ الروح الاسلامي في بلاد كانت يوما الطاغية للدين والتراث الاسلامي جميعا . وهو يقرأ أنات الترك المفكرين مما فرضته السياسة المضللة التي حكمت على أمة بأن تنسى ماضيها وأن تجهل تراثها . وهو يقرأ أيضا عن محاولات بذلت في ايران لنبد الحروف العربية ، محاولات باءت بالفشل لأن الأمة الايرانية المجيدة ذاتت عن لثمتها وعن نصيبها العظيم في التراث الاسلامي . فقام « عزام » خطيبا في قاعات المحاضرات وكاتبا في « الثقافة » فيند الحجب التي قدمها عبد العزيز فهمي، ويذكر تاريخ القضية والنتائج التي تربت على هذه التجربة الخاطئة في تركيا ، مستشهدا بأقوال الترك أنفسهم . وكان لجهد الأستاذ في هذا التوفيق ، فنامت فكرة الحرف اللاتيني ، وتنبه الناس الى ثقافتهم وتراثهم الخالد واستسكروا بلغة القرآن والحضارة الاسلامية في ثوبها الذي عرفت به قشيا مبرء من كل سوء .

هذا هو عزام صاحب الرسالة .

أما عزام صاحب الخلق فالحديث عنه مشوق يطول . شاركته في مؤتمر المستشرقين في بروكسل وكان قد جاء مع المغفور له أستاذنا الجليل أحمد أمين، وأشهد ما رأيت ودا ودودا كالذي رأيته من عزام نحو أحمد أمين . كان يخاطب « بالأستاذ » ويقدمه على نفسه في كل شيء ، في الوقت الذي كان أحمد أمين يكن له من الاكبار والاجلال ما لا يخفى على الحاضرين :

ومات صديقه وزميله وأستاذنا الجليل عبد الحميد العبادي ، فاذا به يرثيه في الجرائد واذا به يسهر الليالي ليكتب عنه مقالا ولكن المقال يطول ، والفكر يدأب ، والذكريات تتداعى ، فاذا المقام كتاب ، كتاب يوم ينشر يعرف الناس أن العالم الفذ والأديب العبقرى عبد الوهاب عزام ، كان انى جانب علمه وأدبه على خلق عظيم .

رحمه الله .

يحيى الخشاب

كتاب بيان الأديان

تأليف

أبو المعالي محمد الحسيني العلوي

ترجمه عن الفارسية الى العربية

يحيى الخشاب

مقدمة :

كتاب « بيان الأديان » الذي تم تأليفه في غزوة سنة ١٤٨٥ / ١٠٩٢ بعد أقدم نص فارسي عن الملل والنحل حتى الآن . وكتبه أبو المعالي محمد الحسيني العلوي سني تبدو ثقافته الواسعة من كتابه الذي تقدمه الى قراء العربية اليوم . فهو يذكر ضمن مراجعه :

البدء والتاريخ للمقدسي

أبد على على الأبد للعالم النسابوري

آراء الهند للبيروني

المقالات لأبي عيسى الوراق

المقنع في الغيبة السيد المرتضى

مما يدل على أن الكاتب يرجع في كتابه الى مصادر أصيلة في المواضيع التي يتناولها .

والكتاب على صغره شامل للأديان القديمة وما جد في الإسلام من مبادئ . وهو سليم المنهج لا يلمس فيه القارئ عصبية أو ميلاً لراي دون رأي . وقد أشار الى فرقة الناصرية أتباع ناصر خسرو ، لأول مرة فساد علم .

وقد عني المستشرقون بهذا الكتاب • نشره شارل شيفر Charles Schefer
في المجلد الأول من : Chrestomathie Persane سنة ١٨٨٣ ، ص ١٣٠ - ١٣١
وعني بترجمته الى الفرنسية هنري ماسيه Henri Massé ، وقد نشرت
ترجمة في : Revue de l'Histoire des Religions بالعدد ٩٤ سنة ١٩٣٦ ،
ص ١٧ - ٧٥ •

وترجمة ماسيه هي للنص ذاته الذي نشره شيفر من قبل • وهو يذكر في
ص ٧٢ أن ماسينيون أخبره أن بهمانى كان يملك نسخة أوفى من بيان الأديان
لأن بها اشارات للحلاج ولأبى هاشم الكوفي •

والواقع أن أبا المعالى يتحدث عن أصول المذاهب الاسلامية
ويقول انها لا تعدو الثمانية وهي : السنة والجماعة ، المعتزلة ، الشيعة ،
الخوارج ، المجبرة ، المشبهة والكرامية ، الصوفية ، المرجئة •

ولكن النص الذي بأيدينا لا يتناول سوى المذاهب الأربعة الأولى مما يدل
على أنه غير كامل • (ص ٣٢ من هذه الترجمة) •

وجاء عباس اقبال فنشر نص شيفر مرة أخرى مع تعديلات طفيفة ولكنها
قيمة ترجع في الأكثر الى التدقيق في فهم النص •

وفي عام ١٩٤٢ رأى أستاذنا الجليل المغفور له الدكتور عبد الوهاب عزام
أن يدرس كتاب بيان الأديان لطلاب معهد اللغات الشرقية وآدابها كنص جامع
للأديان القديمة ولأهم الفرق الاسلامية ، فقمنا بتدريسه ونقلناه الى اللغة
العربية حينذاك •

واليوم اذ نخرج هذا العدد من مجلة كلية الآداب احياء لذكرى الأستاذ
العظيم عبد الوهاب عزام نشر هذه الترجمة اعترافا بفضلته وحسن توجيهه •

يحيى الحشاش

بسم الله الرحمن الرحيم

ان علينا أن نشكر الله جل جلاله وعم نواله لما عرفنا عن ذاته وأظهر لقلوب
سريق معرفته لنعلم أنه موصوف بصفات الكمال فعظمته بغير منتهى وأوله وآخره
بغير ابتداء وانتهاء ، لا يجوز عليه انتشبه ولا الكيف ولا المكان ، خالق الماء
والنار والتراب والهواء والخلاء والملا ، ما هو بالساكن أو المتحرك وهو الذى
بختار ويبحث الأنبياء وخاصة أفضل الخلق محمد صلى الله عليه وسلم المصطفى
والمجتبى والمعلى الذى هدى الناس الى الحق ودعاهم الى العدل والصدق وعلم
أمته الطريق الى الحق والاسلام وأثار وأضاء شمع (الهداية) فى كل القلوب .
فصلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليما .

هكذا يقول مؤلف الكتاب الأمير السيد الأجل الامام العالم أبو المعالى
محمد بن عبيد الله بن على بن الحسى بن الحسين بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين
ابن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وتتمدهم برحمته أن ليس شيء فى العالم
أوجب سبعا طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والقيام بالثرائض والشرائع
من طاعة أولى الأمر الذين اختارهم الله من بين الخلق وولاهم أمر عباده ليرشدوا
خلقه الى العدل والصدق وليحفظوا الضعيف من القوى . والدليل على استقامة
هذا المعنى أن الله تعالى أمر بطاعتهم فى المصحف المجيد الشريف أمره بطاعته
ورسوله وهو قوله عز وجل : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر
منكم » (١) .

فاتحة الكتاب

أعلم أنه كان للملوك الفارين من عهد أبينا آدم عليه السلام حتى اليوم
نعم وتحف وطرف وأنها فئت جميعا ولم يبق لأى منها ذكر الا لما صنف لهم من
كتب العلم والحكمة أو ما قيل فى مدحهم من الأشعار الجميلة فهذه تبقى وتسب
على الألسن فيمتوتون ويبقى ذكرهم خالدا بين الناس . ومن جملة الحاجات التى
ضليها ابراهيم عليه السلام من ربه هى أن يبقى ذكره بين الناس قوله عز وجل :

« واجعل لى لسان صدق فى الآخرين » (٢) واللسان الصدق هو الثناء الحسن ،
فاستجاب الله تعالى لدعائه وقضى أن يذكر كل يوم فى الصلوات الخمس . « كما
صليت ، باركت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم انك حميد مجيد » .

موضوع الكتاب :

دار الحديث فى مجلس ملكى عن شرح الأديان والمذاهب الجاهلية
والاسلامية وفى معنى الخبر المروى عن النبى (صلعم) ومؤداه أن أمتى تختلف
الى ثلاث وسبعين فرقة يهلك اثنان وسبعون وتنجو فرقة واحدة . هذه الفرق
الثلاث والسبعون ما هى وما لقب كل منها وما مقالته وبأى شىء توصم كل منها
حتى يقرأ الناس مذاهب أهل الضلال ويعرفوا ضلالهم وحتى يعرف أهل السنة
قدر نعمة الله تعالى الذى عصمهم بتوفيقه من مثل هذه الضلالات . واذ ذاك
يشكرون تلك النعمة على قدر وسعهم (لقوله تعالى) : الحمد لله الذى
هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » (٣) ومن ناحية أخرى فانهم
(أهل السنة) يعرفون حجة خصومهم ويقفون على عثرات المذاهب وفضائلها ،
فيستطيعون افحامهم على أيسر وجه ويظهر حسن المذهب البنى اذا قوبل بغير
غيره فيعرف البنى أن اختياره كان خيرا عظيما وأنه يتبشى مع قالون البقل
ويصح عنده ، وعلى ذلك تزداد بصيرته ويزداد يقينه بمذهبه السديد .

وقد سمينا هذا الكتاب بيان الأديان وأوضحنا فهرست الأبواب هنا تسهلا
للباحث ، والله الموفق وصلى الله على محمد وآله .

(الباب الأول) فى بيان أن معظم الخلق فى جميع الأزمان والأقاليم يقرون
بالصانع عز وجل .

(الباب الثانى) فى بيان المذاهب قبل الاسلام .

(الباب الثالث) فى بيان الخبر بأن الرسول عليه السلام قال ان أمتى تفرق
من بعدى على ثلاث وسبعين فرقة ووجه ذلك الخبر واسناده وشرحه ومعناه .

(الباب الرابع) : فى بيان مذاهب الاسلام وظهور مقالة كل منها وشرح
ألقابها باستقصاء .

(الباب الخامس) : فى بيان حكايات ونوادير الفرق التى خرجت عن الاسلام
وادعت المحال ، ففرقة ادعت الألوهية وأخرى ادعت النبوة .

ولم تأت بما كتبناه في هذه الأبواب من عندنا وانما ذكرنا ما تعلمناه
 وقرأناه ، فمنه ما قرأناه على الأساندة أو الأئمة ومنه ما تلقفته الذاكرة وما
 التفتناه من كتب المشاهير وذكرنا غالبا أسماء الأساندة والكتب وأطنا عليهم
 الكلام حتى لا ينسب اليها قارىء ما لا يحلو له من هذا الكتاب فقد قيل :
 وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين الخط تبتدى المساويا

الباب الأول

في بيان ان اكثر الخلق في جميع الأزمان والأقاليم يقرون بالصانع

نبدا الكلام في هذا الباب بقول الله تعالى في محكم كتابه « ولئن سألتهم
 من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله » (١) . (٢) . (٣) .
 ذلك شرح فارسي للآية يقول المؤلف ان أقوال المفسرين مجمعة عليه . وعندى
 أن كلمة الله اسم مخصوص به تعالى والقول عن اشتقاقه اللغوي غير محقق .
 واسماء الله صنفان فبعضها من الأسماء المشتركة بحيث يجوز أن يسمى بها
 المخلوق مثل الحكيم والعليم وما شابه هذا ، والبعض الآخر يختص الله بمعناه
 بحيث لا يجوز تسمية مخلوق بها مثل الخالق والبارئ والمصور فهو مخصوص
 بمعنى هذه الأسماء فانه هو الخالق والبارئ والمصور ولا يجوز أن يسمى بهذه
 الأسماء مخلوق قط . وبعض هذه الأسماء يختص الله بلفظه كالرحمن والله وهما
 خاصان بالله تعالى ولم يسم العرب بهما انسانا أبدا الا جماعة من بنى حنيفة
 ست مسيلة الكذاب رحمن اليمامة وسنذكر ذلك في مكانه ان شاء الله . اما
 هذان الاسمان « الرحمن والله » فخاصان بالله تعالى عز من قائل : قل ادعوا الله
 أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى » (٤) والمقصود من هذا الكلام
 هو أن اسم الله كان مشهورا ومروفا عند العرب وأنهم ما كانوا يدعون بهذا الاسم
 أحدا غير الله وكانوا يذكرونه في الأشعار الجاهلية . وكانوا ، قبل الاسلام ،
 يكتبون في بدء رسائلهم « باسمك اللهم » كما نكتب نحن في الاسلام بسم الله
 الرحمن الرحيم . وفي الخبر أن النبي عليه السلام أمر حين نزلت هذه الآية
 « وقال اركبوا فيها بسم الله مجريها ومرسيها » (٥) أن يبدأوا كتاباتهم بكلمة
 بسم الله فلما نزلت هذه الآية « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن » (٦) أمر بكتابتها

« بسم الله الرحمن » ثم لما نزلت هذه الآية « انه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم » (٨) بقي (الاستفتاح) على هذه الصورة الأخيرة .

الفرس

ان الفرس (القدماء) سمو الله تعالى هرمزد وايزد ويزدان . وقد أقروا بوجود الصانع . وهذه الفرقة منهم كانت تعبد النار وكان مذهبها في عبادة النار كمذهب عباد الأصنام من العرب في الصنم وقد قال تعالى حكاية عن هؤلاء : « ما تعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (٩) ، وقد اعتقد عباد النار هذا الاعتقاد نفسه . وكل من ملك في العجم وتحققت له أعمال عظيمة كانوا يرون فيه شيئا يسمونه « فر ايزدي » أو « يزد فره » . وقد جاء في تاريخ المقدسى (١٠) أن في فارس معبدا للنار يقال انه قديم جدا وان به كتابا جاء به زردشت في ثلاثة أبواب : زند وپازند وأوستا . وقد بدأ هذا الكتاب بهذه الألفاظ « في كمان هي رستخيز هي بهستي هرمزد وامشا سپندان » . ومعناها : لا تترابن في يوم القيامة ولا تترابن في وجود الله وملائكته .

الفارسية العزقة

وهم يسمون الله تعالى بالفارسية خدای وبارخدای وخدأوند ويقولون أن معنى خدای أنه موجود بنفسه ولم يوجد له أحد وأنه ليس مخلوقا .

الفلاسفة

يقول الحكماء والفلاسفة المسمون أساطين الحكمة أن الله تعالى هو الخير الأول كما يقولون أنه واهب العقل وانه الباری . ولأبي الحسن العاصمى (١١) كتاب سماه « أبد على الأبد » ذكر فيه أن جالنيوس لم يكن يسمى حكيما أو فيلسوفا لأنه قال انى أشك في أوصاف الخير الأول قليل له ان من يشك في أوصاف خالقه لا يستحق اسم حكيم أو فيلسوف ، فعليك بالمادة ومعالجة المرضى . ومن هنا سموه الطبيب .

وذكر أبو الخير البخار (١٢) في كتابه أن أفلاطون صنف كتابا سماه استيطكين (١٣) يقول فيه : « اننا لا نبعد من الحق اذا قلنا عن الخالق أنه الخير الأول بحكم أنه مظهر الخيرات وأنه في الحقيقة هو المعطى وبعد ذلك نعرف أن كل ثناء منا عليه

مهما عظم فانه لا يليق بعظمته اذ ليس لنا قدرة على أن نثنى عليه ثناء لائقا به .
ونحن لا نستطيع ادراكه بالحواس وليس للعقل احاطة بذاته . فهو الذى أظهر
كل ما ظهر وعليه حفظ ما خلق ، ليس له ابتداء أو وسط أو انتهاء ولا شبيهه نه
ولا نظير » هذا هو مذهب أفلاطون وتلاميذه فى توحيد الله تعالى .

أما أرسطاطاليس فقد كتب الى الاسكندر حين ذهب لحرب دارا بن دارا
(دار الثالث) كتابا قرأت نسخه فى تاريخ المقدسى ، قال فيه : يا اسكندر قل
لدارا لا تفخر بجيشك وسلاحك وعدتك فانى ملايك بمسك قليل عددهم لكن
قوتهم عظيمة ، فان جندى يطلبون النصر من الخالق الواحد الذى لا أول له ولا
آخر ولا شبيهه له ولا نظير ، الملك الذى لا زوال للملكه ، القادر الذى لا يجوز
عليه المعجز ، السلطان الذى لا يجوز عليه الموت ، انى أطلب منه النصرة ، وبهذا
الجيش الذى وصفت سوف أحاربك *

فلما بلغ خبر الفتح أرسطاطاليس كتب له كتابا آخر قال فيه :
« يا اسكندر لا تحسبن ما لقيت من النصر والظفر من عندك ولكن اعلم أنه من
اتتأييد الالهى فأشكر البارئ جل وعز وقل ان الحمد والمنة فى الحقيقة لك ،
انى أعرفك وأرفع اليك حاجتى وأنتطلع الى استجابتك يا من لا ابتداء لالوهيته
ولا زوال للملكه ، خلقت الخلق ومن العدم خلقت الوجود ، أيها القوى الذى
لا يضعف أبدا ، أيها القادر الذى لا يعجز أبدا ، أيها الحكيم الذى لا يجد
الجهل طريقا اليه ، أيها الوهاب الذى لا يخل أبدا ، يا من لا تجوز عليه التجزئة
ولا الكيف ، يا من عجز فكر الخلق عن معرفته وادراك عظمته ، انا عن شكر
مواهبك وعطاياك عاجزون » .

الروم والتبسط والحبش

لنتهم السريانية فأكثرهم من النصارى . والسريانية قرية من العربية .
وهذا هو اسم الله تعالى فى لنتهم : « الاله ، مارا ، قودشا » ، يعنى الله ورب
وقدوس . أما باللغة العبرية ، لغة اليهود ، فيذكر اسم الله تعالى بهذه الأنفاظ :
« الوهيم آذوناي اياه اشراها » . وهذا هو أول التوراة : « بريشيت بارا
الوهيم » ولا شك أنهم يقررون بالصانع ولو أن بين مقالة اليهود ومقالة
المسيحيين اختلافا وسنذكر ذلك فى مكانه ان شاء الله تعالى .

* لم نستطع الرجوع الى النص العربى .

الترك

الترك يسمون الله تعالى تاكرى وبر تاكرى أى الله الواحد وكوك تاكرى
يعنى رب السماء وسمعت أنهم يسمونه أيضا ألغ بايات يبنى أكبر الكبار .

الهند

يقول المقدسى ان الهنود يسمون الله تعالى مرشتيا وإيت مهاديو . وقد أورد
المنجم أبو ریحان فى كتابه الذى سماه آراء الهند جميع طرق الهنود ومذاهبهم؛
وفى الباب الثانى من هذا الكتاب ذكر فصلا فى التوحيد أقله هنا .
قال : وللهنود كتاب يسمونه پاتنجل (١٤) الكلام فيه على طريقة السؤال
والجواب على هذا النحو :

قال السائل :

من هذا المعبود الذى ينال التوفيق بعبادته ؟

قال المجيب :

هو المستغنى بأزليته ووجدانيته عن فعل لمكافأة عليه براحة تؤمل وترجى
أو شدة تخاف وتتقى ؛ والبرىء عن الأفكار لتعالیه عن الأضداد المكروهة
والأنداد المحبوبة ، والعالم بذاته سرمداً ، اذ العلم الطارئ يكون لما لم يكن
بمعلوم وليس الجهل ينتجه عليه فى وقت ما أو حال .

ثم يقول السائل بعد ذلك :

فهل له من الصفات غير ما ذكرت ؟

ويقول المجيب :

له العلو التام فى القدر لا المكان فانه يحل عن التمكن ؛ وهو الخير المحض
التام الذى يشتاقه كل موجود ، وهو العلم الخالص من دنس السهو والجهل .

قال السائل :

أقتضيه بالكلام أم لا ؟

قال المجيب :

إذا كن عالماً فهو لا محالة متكلم .

قال السائل :

فاذا كان متكلماً لأجل علمه فما الفرق بينه وبين العلماء الحكماء الذين
تكلموا من أجل علومهم •

قال المجيب :

الفرق بينهم هو الزمان فانهم تعلموا فيه وتكلموا بعد أن لم يكونوا عاقلين
ولا متكلمين ونقلوا بالكلام علومهم الى غيرهم فكلامهم وافادتهم في زمان ،
واذ ليس للأمور الالهية بالزمان اتصال فالفه سبحانه عالم متكلم في الأزل وهو
الذى كلم ابراهيم (براهم) وغيره من الأوائل على أنحاء شتى ، فمنهم من ألقى
اليه كتابا ، ومنهم من فتح لواسطة اليه بابا ، ومنهم من أوحى اليه فقال بالفكر
ما أفاض عليه •

قال السائل :

فمن أين لهم هذا العلم ؟

قال المجيب :

علمه على حاله في الأزل ، واذا لم يجهل قط ، فذاته عالمة ثم تكتسب علما
فلم يكن له كما قال في بيذ الذى أنزله على براهيم : احملوا واملحوا من تكلم
بيذ وكان قبل بيذ •

قال السائل :

كيف تعبد من لم يلحقه الاحساس ؟

قال المجيب :

تسميته ثبت آيته فالخير لا يكون الا عن شئ والاسم لا يكون الا
لسمى وهو وان غاب عن الحواس فلم تدركه فقد عقلته النفس وأحاطت بصفاته
الفكرة وهذه هى عبادته الخالصة وبالمواظبة عليها ينال السعادة •

فهذا كلامهم في هذا الكتاب المشهور •

وقد أورد أبو ریحان في هذا الكتاب أسماء كتب الهند في التوحيد : كبتا
وبهارت وباسديو وسانك وارجن •

ويجربى الكلام فى هذه الكتب الخمسة على النحو الذى ذكرنا • ويسمى
بعض الهنود الله « أيشفر » (١٥) أى المستغنى الجواد •

الزئوج (١٦)

أما الزئوج فمع أنهم بين الآدميين كالسباع ، وانهم لا يشتغلون بشئ غير
المرح واللهو ، فانهم يقرون بالصانع • واسم الله تعالى فى لغتهم فلكوى حلوى •
والفرض من ذكر هذه الأسماء هو أن يقرر أنه مع ما كان ويكون بين الخلق
من تفاوت فإن أكثرهم يعترفون بالصانع ويذكرونه تعالى باسم مخصوص من
لغتهم ويرفعون اليه أكرمهم ضراعة وقت الشدائد ، وهذا أكبر دليل على وجوده •
وهكذا انتهى هذا الباب كما قلنا بمون الله ومنه •

الباب الثانى

فى بيان المذاهب قبل الاسلام

نبتدى بمذاهب العرب • حكى أبو عيسى الوراق (١٧) فى كتابه أن جماعة
من العرب كانوا يقرون بالصانع ويوم القيامة ولكن لم يؤمنوا بالربيل صلوات
الله عليهم وقد احتج بقول زهير بن أبى سلمى :

يؤخر فوضع فى كتاب فيلخر ليوم حساب أو يعجل قنينقم (١٨)

وكان بعضهم يعبد الأصنام ولا يعرف غير الصنم صانعا • وكان بعضهم
يضع هذه الأصنام فى الكعبة ويضع لكل صنم اسما •

وقد ذكر الله تعالى أسماء بعض الأصنام فى القرآن المجيد • وقوله تعالى :
« ولا تكذبنّ ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا » (١٩) « وقوله فى آية
أخرى : « أفرأيتم اللات والعزى ومنات الثالثة الأخرى » (٢٠) •

ولما كان الله تعالى قد ذكر أسماء بعض هذه الأصنام فلنذكر نحن الأصنام
المشهوره لكل قبيلة حتى يعرفها القارىء • كان سواع لبنى هذيل ، وود ابنى
كلب ، ويغوث لهمدان ، ونسر لبنى كلاع بأرض حير ، ويعوق لمنحج واليمن

وحده دومة الجندل ، واللوات لثقيف بالطائف ، والعزى لقريش وكنانة ،
ومناة للأوس والخزرج وغسان ، أما مهبل فقد وضعوه في الكعبة وهو أعظم
الأصنام ، ووضع اساف ونايلة على الصفا والمروة ، وسعد لبني ملكان بن كنانة*
وعدا هذه الأصنام أصنام كثيرة كل منها خاص بقبيلة كما ذكرنا (٢١) .

وقد اعتنق بعض العرب مذهب التعطيل فكانوا دهرين (٢٢) كما يقول الله
تعالى في القرآن حكاية عنهم : « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا
وما يهلكنا الا الدهر » (٢٣) وقد قال شاعرهم في انكار الحشر ويوم القيامة :
أيخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

وكان بعضهم يعبد الملائكة ويقولون انهم بنات الله . تعالى الله عما يقولون
علوا كبيرا . وقد قال الله تعالى عن قولهم : « يجعلون لله البنات سبحانه » (٢٤)
وكان بعضهم يقر بالقيامة كما يقول شاعرهم :

أبني زودني اذا فارقتني في القبر راحلة يرحل قاتر
للبعث أركبها اذا قيل اظعنوا مستوثقين معا لحشر الحاشر (٢٥)

وكان بعضهم على دين الاسلام فقد جاء في الأخبار أن رجلا يسمى متبع
ابن كليكرب الحميري آمن بالنبي عليه السلام قبل بعثه وقال شعرا في هذا
المعنى ، هذا نصه :

سهلت على أحمد أنه رسول من الله باري النسم
فلو مد عمرى الى عمره لكنت وزيرا له وابن عم

ومن هؤلاء قس بن ساعدة الايادي حكيم العرب . وقد قال النبي عليه
السلام اني أذكره فقد رأيته في سوق عكاظ على جمل أحمر وهو يعظ الناس .
وهذه قصة طويلة وقد أثني عليه الرسول عليه السلام .

* لا محل هنا لكلمة سعد ملكان التي جاءت بالنص الفارسي ، ص ١١ سطرا

* النص الفارسي هنا مضطرب ، والتصحيح من مفاتيح العلوم

للخوارزمي ، ص ٣٩

ومنهم أبو قيس صرمة بن أنس (٢٦) من بنى النجار فانه سُمَّ عبادة الأصنام وجعل يته مسجدا وقال انى أعبد رب ابراهيم ، فلما بعث النبى عليه السلام آمن به وبلغ فى الاسلام درجة عالية .

ومنهم خالد بن سنان (٢٧) من بنى عيس بن غيث فقد آمن بدين الاسلام قبل النبى عليه السلام ، بل ولما يولد النبى ، وقد مات مقتولا . ثم ان ابنته أدركت النبى وآمنت به .

ومنهم أمية بن أبى الصلت الثقفى وكان قد سُمَّ عبادة الأصنام وقال ان نبيا سيمث وان بمثه قريب وقد ظن أنه سيكون ذلك النبى ، فلما بعث النبى عليه السلام وظهرت رسالته ملأه الحسد فلم يؤمن به ومات على غير دين . وقد قرئ شعره أمام النبى عليه السلام فقال : « هذا الرجل آمن لسانه وكهر قلبه » .

ومنهم زيد بن عمرو بن ثعلبة (٢٨) وعامر بن الطرب العدوانى (٢٩) والحكيم وعمرو بن يزيد الكلبي (٣٠) فهؤلاء الثلاثة كانوا يودون لو امتد بهم العمر حتى يلاقوا النبى عليه السلام ويؤمنوا به ولكنهم ماتوا قبل ذلك .

وكان بعض العرب كهانا مثل سطيح وشق (٣١) وأخبارهم معروفة ، وكان بعضهم يهودا كاهل خبير ، وبعضهم نصارى كبنى غسان وبنى تغلب وبعضهم مجوسا كبنى تميم وبنى عيس .

واذ فرغنا من ذكر مذاهب العرب نشرح مذاهب الفلاسفة ان شاء الله تعالى .

مذاهب الفلاسفة

روى ارسطاطاليس عن معلمه أفلاطون الذى كان تلميذا لسقراط الحكيم أن سقراط قال : ان مذهب المتقدمين وأئمة الفلاسفة الذين كانوا حكماء زمنهم مثل أفلاذيون وهرمس وفيثقرس وغيرهم هو أن الله تعالى واجد ، أزلى ، كامل ، ليس بناقص ، وهو سبب الأسباب وعلة العلل ، وهو الخير المحض ، وصانع الموجودات الحقيقى ، وهو مبدع كل شئ ، ليس مركبا ولا مصورا ولا موضوعا ، لاند له ولا ضد ولا كمؤ ، ولا حاجة به الى نظير . وكانوا يفرضون على كل انسان أن يذكر الله تعالى بغاية التبجيل والتعظيم وكانوا يعطون

التطهر بالماء عند الحاجة اذ لا يضر به أحد ، وكانوا يفرضون الكسب والعمل على الأصحاء ، ويعاقبون من يرون فيه اعوجاجا ؛ ويفرضون فلاحه الأرض على أهلها ، وكان الفلاحون موضع احترامهم الكامل ؛ وكان تلقى العلم والحكمة من الفرائض عندهم ، وكانوا لا يقتلون من الحيوانات الا ما كان فيه خطر ؛ أذى للناس ، وكانوا يعظمون الملوك ويدفعون العشر والخمس . ومذهبهم في الأرواح هو أن الروح كلية وجزئية والروح الجزئية هي التي تحل في جسم الانسان لتتهذب ثم تخرج منه وتمود الى كلها ، وما خرج من غير تهذيب يظل في الأثير ولا يستطيع بلوغ الروح الكلية .

مذهب اليهود ١٣٢

اتفق اليهود على أن الصانع واحد . ولكن فرقة منهم مشبهة تقول بالتشبيه . وفرقة أخرى لا تقول بالتشبيه . ويعتقد اليهود في نبوة موسى وهرون ومن سبقهم من الأنبياء عليهم السلام ، ويؤمنون بالأنبياء الذين جاءوا على دين موسى وهارون مثل يوشع وأمثاله ، وينكرون عيسى ومحمدا عليهما السلام ويؤمنون بالتوراة والزبور وكتب الله جل جلاله التسعة عشر .

١ - السامرية (١٣٣) :

لا يؤمنون بغير التوراة والأنبياء الثلاثة : موسى وهارون ويوشع بن نون عليهم السلام .

٢ - العنانية :

كان من آل داود عليه السلام رجل يسمى عناني الزاهد ويسميه البعض اعاني وتسب اليه فرقة من اليهود .

٣ - الراعية :

تسب هذه الفرقة الى واحد منهم ظهر بينهم وادعى دعاوى عظيمة .

واس الجالوت :

هو اسم رئيس الهمود والعرف أن يكون من أبناء داود عليه السلام ، وعلامته عندهم أن تكون يده طويلة بحيث أن طرف أصبعه يمدو ركبتيه اذا مد ذراعه (الى أسفل) .

الحسير :

هم اسم العالم عندهم •

الراهب :

هو ساكن الصومعة وجميعه أجار ورهبان • والقسس هم الرهبان •
قال الله تعالى « اتخذوا أجارهم وrehبانهم ٠٠٠ » (٣١-٩)
توراة الثمانين :

وهي التوراة التي جمع لها ملك من ملوك اليهود ثمانين من الأجار والرهبان
وطلب اليهم أن يترجموا التوراة ، وأفرد لكل منهم حكايا بعيدا عن الآخرين •
فلما أتموا عملهم اجتمع كل منهم بزملائه (لمراجعة ترجمته) فلم يجدوا أي
تفاوت بين تراجمهم • وقد سبت هذه الترجمة « توراة الثمانين » وهم يعظمونها
ويقسمون عليها القسم العظيم •

مذهب النصارى

يقولون للصانع الجوهري وهو أقانيم ثلاثة ويفصلون هذه الأقانيم الثلاثة
بأنها : أبأ وبرا وروحا قوذشا (الأب والابن وروح القدس) وهم ثلاث فرق •
اليقوية والنسبورية والملكانية •

١ - اليقوية :

ينسبون الى رجل اسمه يعقوب وشارح مذهبه رجل من الأساقفة اسمه
متي بن التميم يعقوبى • ومذهبهم هو أن الصانع قديم من ناحية ومحدث من
ناحية ، له صفات اللاهوت أى أنه الله ، وله صفة الناسوت أى أنه آدمى •
تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا •

٢ - النسبورية :

ينسبون الى رجل اسمه نسطور • يقولون ان الابن وجد من الأب لا على
سبيل التناسل والتوالد ولكن كما يجيء النور من الشمس ، والشمس لا تكون
بغير نور أبدا • ويقول البعض أن المسيح كان عبدا حل فيه ملكوت الله تعالى
وقوته فهو اذا اله وهو آدمى أيضا ، هو ماسح وهو مسوح ، ومن هنا سمي
المسيح •

٣ - المكنانية (٣٤) :

ينسبون الى ملكا وأكثر النصارى على مذهب المكنانية وهم يقولون ان المسيح جوهر طاهر ، دخل في أذن مريم ثم خرج من جنبها الأيمن ولم يمتزج بها مطلقا . ويقولون ان الروح نثقت من مريم كما ينفذ الماء في الميزاب . ويقولون ان كل من يطهر نفسه من طعام الدنيا يرى الله جل جلاله .
الهيكل :

هو الاسم الذى يطلقونه على مكان عبادتهم ، وقد رسمت فيه صور الأنبياء وصورة عيسى عليه السلام .
مراتبهم في الدين والحرب :

صاحب المرتبة الأولى عندهم البطريق ولهم دائما أربعة بطارقة يقيم أولهم في القسطنطينية والثاني يقيم في روميه والثالث في الأسكندرية والرابع في أنطاكية . وهذه المراكز الأربعة تسمى الكراسى - جمع كرسى .
والجاثليق أقل مرتبة من البطريق وكانت اقامته في دار الخلافة ببغداد . وكان تابعا لبطريق انطاكية .

والمطران تابع للجاثليق ومقامه في خراسان ويتبعه أسقف في كل اقليم والشماس تلميذ القسيس .

ويسمون قيصر عظيم الروم وطاغية الروم وكلب الروم . وكان لا بد له من اثني عشر بطريقا أى اثني عشر قائدا يحكم كل منهم عشرة آلاف رجل ، وكان ستة من بين هؤلاء يبقون على الدوام الى جانب القيصر والستة الآخرون يتنقلون في الأقاليم .

والطرنكار تابع للبطريق ويسمونه أيضا فسطيار وينفذ أوامره ألف رجل .
والتومس أقل درجة من الطرنكار ويرأس مائتى رجل .
والمسطرّج أقل درجة من التومس ويرأس أربعين رجلا .
والزواج أقل درجة من المسطرّج ويرأس عشرة رجلا .

مذاهب المجوس (٣٥)

جاء في الخبر أن الرسول عليه السلام قال : « سنوا في المجوس سنة أهل الكتاب غير ناكحى نسائهم ولا آكلى ذبائحهم » . ومذهبهم أن كل الخير من

الله وكل الشر من الشيطان . وهم يسمون الله تعالى يزدان ويسمون الشيطان
أهرمن . ويقولون ان الله قديم وان الشيطان محدث . وعندهم أن أول الخلق
كيومرث . ويقولون ان الصانع لما كان بصيرا تفكر في بصره فظهر من تفكره
أهرمن . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وهم يعززون النار ويكبرونها ويخدمونها ولا يؤذون الماء أى أنهم
لا يلوثونه بشئ قط ، ويقصرون استعماله على الشرب ، وهم يلهون ويشربون
الخمر . ويسجد المجوس للشمس ثلاث مرات كل يوم وذلك حشما تكون
الشمس . وهم لا يتكلمون وقت الطعام ولكنهم يرون الزمزمة واجبة في هذا
الوقت . ويعتزون من الموتى . ويبعثون نكاح الأقارب كالأم والأخت والبنات .
ويرجمون اللوطى . ولا يضعون الموتى في القبور ولكنهم يودعونهم الدخنة (٣٦)
في الهواء . ويسون راعى النار هربذ .

مذهب زردشت (٣٧)

يقول المجوس كان لنا نبي اسمه زردشت هو الذى سن هذه الشرائع وله
ثلاثة كتب يسمونها الزند والپازند والأوستا . وفي هذه الكتب ألفاظ غير مفهومة
ولكن جماعة من المجوس وضعت لها تفسيرا وتأويلا .

مذهب مزدك (٣٨)

ظهر أيام قباد بن فيروزان رجل من مدينة نسا اسمه مزدك وقد ادعى النبوة
وحول بعض الناس عن شريعة زردشت ، وأباح الأموال والفروج للخلق ، وقد
اعتقد الناس فيه . ومذهبه أن هذا المال وهذه النعمة ملك للناس جميعا في
الأصل ، وهي لا تزال كذلك ، وظل يقوم بدعوته حتى نازله أنوشروان فأفحمه
وقتله .

مذهب مانى (٣٩)

كان مانى أستاذا في صناعة التصوير وقد ظهر بين المجوس أيام شابور بن
أردشير وادعى النبوة وكان يدعى ادعائه بالنقش والتصوير . وقال انه كان قد
رسم خطا على قطعة من الحرير الأبيض فما أن نزعوا خيطا من القماش حتى
اختفى هذا الخط .

وقد ألف كتابا بأنواع التصاوير يسمى أرزناك ماني ، وهو في خرائن غزنيين (٤) . وطريقته هي نفس طريقة زردشت فهو ثنوي كما ذكرنا من قبل .

مذهب الثنوية

وهم يقولون كما قال زردشت بأن الصانع اثنان ، أحدهما النور وهو صانع الخير والآخر الظلمة وهو صانع الشر . وكل ما في العالم من راحة وضياء وطاعة وخير يرجع الى صانع الخير ، كما يرجع الى صانع الشر كل ما في العالم من شر وقتنة ومرض وظلام . ولكنهم يقولون بقدم الصانعين . وهم يرون واجبا التصديق بالشر من أموالهم ويقتنون ثوبا واحدا في السنة كما يعملون لقوت يوم واحد ، ويرون الباقي حراما . ويصومون سبع عرهم ويصلون أربع صلوات . ويعترفون برسالة آدم عليه السلام ورسالتى شيث (ونوح) ثم برسالة رجل في هندوستان يسمى بدوه (بوذا) ورسالة زردشت في فارس . ويقولون ان ماني خاتم النبيين ويعجبون به إعجابا عظيما . وهذا مذهب الصابئة بعينه .

حكاية : أمر المأمون أن تجرى مناظرات بين جميع أصحاب المذاهب أملا . فأتى متكلم يدين بالثنوية وناظر على هذا المذهب فأمر المأمون بجمع التكلمين وفقهاء الاسلام لمناظرته . فلما بدأ ذلك الرجل كلامه قال : أرى عاملا للخير والشر والنور والظلمة والطيب والخبيث فما لا جدال فيه أن لكل من هذه الأضداد صانعا فالعقل لا يسيغ أن صانعا يعمل الخير ثم هو بعينه يعمل الشر . وأخذ يسوق حججا من هذا النوع . فارتفع صوت رجل من المجلس قائلا : يا أمير المؤمنين لا ينبغي أن تكون المناظرة مع مثل هذا الرجل بغير السيف . فأطرق المأمون هنيهة ثم سأله ما المذهب ؟ فقال الرجل هو أن الصانع اثنان صانع الخير وصانع الشر وفعل كل منهما وصنعه واضحا فالذى يعمل الخير لا يعمل الشر والذى يعمل الشر لا يعمل الخير . فقال المأمون : ألاهما بأفعاله قادر أم عاجز ؟ فأجاب الرجل كلاهما بأفعاله قادر والصانع لا يعجز مطلقا . قال المأمون : وإذا فلا يجوز العجز عليهما ؟ فقال الرجل كلا ! وكيف يكون المعبود عاجزا ؟ فقال المأمون الله أكبر يريد صانع الخير أن يكون له كل شيء وأن لا يوجد صانع الشر أو يريد صانع الشر أن لا يوجد صانع الخير أيكون ذلك بإرادتهما

ومرادهما أم لا يكون ؟ فقال الرجل لا يكون وليس لأحدهما سلطان على الآخر . فقال المأمون إذا فقد ظهر عجز كل منهما والعجز لا يجوز على الله . فتحير ذلك الثنوى وأمر المأمون بقتله (٤١) . وقد أثنى الحاضرون على المأمون .

منهـب عبـدة الأصنام

ولو أن الحديث عن عبادة الأصنام قد سبق مع بعض أسماء الأصنام المشهورة عند العرب فانا نريد أن نفرّد بابا خاصا لذكر عقيدتهم ، ذلك لأنه ليس من فرقة أشد حقا من تلك التي تنحت شيئا وتصوره وتتخذها لها وتعبده ، وكذلك فان طبقاتهم كثيرة جدا من هند وعرب وغيرهم . ويقال ان ابتداء عبادة الأصنام هو أنه كان هناك ملك اسمه هوشنك (٤٢) وكانت له ابنة يعشق صورتها وقد ماتت هذه الابنة ، فأمر بجعل صورتها في الهيكل وكان يذهب لرؤيتها كل يوم ، حتى اضطر الى سفر فلم يستطع صبرا على ترك هذه الصورة فأمر بصنع تمثال بصورة هذه البنت وكان يحمله أينما ذهب . فلما مضت الأيام على ذلك ومات هوشنك ظهرت عبادة الأصنام في العالم .

ويقول الهنود ان تلك الصور التي أقاموها في المعابد والهيكل انما هي للقريبى من الملائكة والكواكب ، فهم قد مثلوها بهذه الصور وعبدوها . وعندهم أن بيت مكة (الكعبة) منسوب الى زحل وأن نوبهار بلغ منسوب الى القمر وهكذا يسمون الهياكل السبعة أسماء تنسبها الى الكواكب السبعة .

ويسمى من يشتغل بخدمة الصنم « عابد الصنم » . وكانت عبادة الأصنام عند العرب في الجاهلية ، أما اليوم فلا يوجد عندهم دين آخر غير دين الاسلام . وقد قال النبي عليه السلام « لا يجتمع في جزيرة العرب دينان » . ولا جرم فان العرب قد تطهروا من كل نجس وذلك ببركة قرابتهم الى الرسول عليه السلام سواء في النسب أو في اللغة .

أما في الهند فعبدة الأصنام هم الأكثرون وسنذكر هنا مذاهبهم وفرقهم .

مذاهب الهنود (٤٣)

ليس لفرقة من المخالفين ما للهنود من الدهاء والذكاء فان علوم الطب والنجوم والحساب وأنواع الأدوية والسم والترياق والنجوم والطوائع والأحكام

دخلت من الهند الى خراسان والعراق وغيرهما . وهم مختصون بالحدس والفراسة الى حد أنهم يوقعون عدوهم في الحيرة ويهلكونه . وقد قرأت في هذا حكايات وأخبارا ، ولكن ايرادها لا يفيد وخصة في هذا الكتاب .

هذا هو مجمل حال ذكائهم وعلمهم وأما بلاهتهم في أمور الدين فهي الى حد أن جماعة منهم يعبدون الأصنام ويقتلون أنفسهم أو يلقون بها في النار من أجل الصنم . وهم مقرون بنبوة آدم عليه السلام ، ويقر بعضهم بنبوة ابراهيم عليه السلام ، وبعضهم ينكر الصانع ويدين بالدهرية وبعضهم يعبد الكواكب ، وبعضهم يعبد ما يبدو جيلا أمام عينيه وبعضهم يدين بالتناسخ ويقول ان الروح تنتقل من جسد الى جسد آخر . ويقول أبو زيد الحكيم ^(١٤) أن اسم الصنم في لغتهم قاقيط . وهم يحرمون اللحم على أنفسهم وخاصة لحم البقر وأكثرهم لا يشرب الخمر بل ويحرمونها على أنفسهم . وهم يأكلون من النبات ولا يأكلون الحيوان . وهم على درجة كبيرة من الأمانة والاستقامة . وزاهدتهم البرهمن .

مذهب التناسخ ^(١٥)

يقول أهل هذا المذهب ان الأرواح واحدة . والتناسخ أربعة أنواع : النسخ والمسخ ، والنسخ والرمسخ . فالنسخ خروج الروح من جسم آدمي الى جسم آدمي آخر ، والرمسخ خروج الروح من جسم آدمي الى جسم حيوان ، والنسخ خروج الروح من جسم آدمي الى جسم حشرة من حشرات الأرض وهوامها ، والرمسخ خروج الروح من جسم آدمي الى الشجر والنبات .

وفي الجبل فهم يقولون ان العالم لا نهاية له وان عقوبة الأرواح بقدر ما اقترفته من آثام فاذا كان الميت ظلما فان روحه — حينما يموت — تحل في جسد سائمة أو فار أو وحش ، واذا كان حميد السيرة فان روحه تحل في جسد رجل تقي أو ملك . وهذا المذهب أسوأ المذاهب كلها .

مذهب الصابئة ^(١٦)

يدين بهذا المذهب جماعة من فلاسفة بلاد اليونان وهم يسمون بالصابئة ، والصابئي في اللغة هو من ينتقل من دين الى دين . ولكن سميت هذه الطبقة صابئة . وكان على رأسهم أراني (Arane) * : أغاذيون (Agademon)

* أداني هي أراني ، وقد صحف هذا الاسم في العربية كثيرا فقبل اوادي وارادي . انظر حاشية Massé في مجلة R H R مجلد ٩٤

وهرمس (Hermes) وسولن (Solon) الذي كان جد أفلاطون لأمه وقد ذكرهم على هذا النحو أبو الحسن النويري في كتاب « الاختصارات » (٧)

والصائبة يصلون ثلاث مرات في اليوم الصبح والظهر والعشاء ويصلون تطوعا للكواكب الثابتة فكل يوم يصلون للكوكب الذي سمي اليوم باسمه فشلا يوم السبت يوم زحل وهكذا .. ويصومون كل سنة ثلاثين يوما كاملة ولكنها متفرقة ، فيصومون ثمانية أيام متواصلة من أول شهر آزار ثم يصومون سبعة أيام ثم ستة أيام متفرقة . وهم لا يأكلون اللحم في أيام الصوم ، وهم يقدمون القرابين الى الكواكب أربع مرات في الشهر فيذبحون الديوك ويدفنون دما ويحرقون ريشها وعظمها . وهم لا يأكلون لحوم الجبل والدراج والحمام كما أنهم لا يأكلون السك وهم يجيزون عقوبة الأرواح بما أثمت كما قدمنا قبل ذلك في مذهب الفلاسفة .

مذاهب القرامطة والزنادقة (١٧)

وجد في جميع الأزمان رجال اختاروا ، تخاذلا ، أن يكونوا بغير دين ، فألکروا الأديان جميعا ، والقرامطة والزنادقة والاباحية مجمعون على تهمي الصانع ، لعنهم الله .

وينسب القرامطة الى رجل اسمه أحمد بن قمرط .

وينسب الزنادقة الى زندك وهو رجل من فارس ، وجين عرب اسمه قلبت الكاف قافا ، ويسمى من يدين بمذهبه زنديق .

كذلك الخرمية (خرمديان) (١٨) — دين الملذات — وهم فرقة اختاروا راحة الجسد واللذة وأخذوا من كل مذهب ما راقهم .

وكذلك تقول الاباحية الا أنهم أقل فرق الكفار حمية ، فهم لا يمنعون نساءهم عن غيرهم . والمطللة هي تلك الطبقة التي قالت في هذه المعاني (الروحية) بالتعطيل والنفي .

السوفسطائية

ذكر أصحاب المنطق والفلاسفة في كتبهم فرقة تسمى السوفسطائية . ومذهبهم أن ليس لأى شيء مما نرى أصل ، وأن ما نراه في اليقظة هو بعينه

ما نراه في النوم • وقد سمعت أيضا أن هذا كلام وضعه أصحاب النطق • ولم
يذن بهذا المذهب انسان قط في أى عصر •

كانت هذه مقالة الذين عاشوا قبل الاسلام ودانوا بمذاهب مختلفة •
والآن نأتى الى مذاهب الاسلام فنشرحها •

الباب الثالث^(١)

في بيان ما جاء بالخبر ، ان النبي عليه السلام قال :

« ستختلف بعدي امتي علي ثلاث وسبعين فرقة »

ووجه اسناد هذا الخبر وشرح هذه الفرق الثلاث والسبعين وايضاح معانيها

أخبرنا القاضي الامام أبو الفتح عبد الرحيم بن عبد الله قال أخبرنا الشيخ أبو الفضل
عبد الصمد محمد الماصي قال حدثنا أبو عبد الله الحسين بن محمد الكوفي بككة
حرسها الله قال أبو الحسين الدينوري قال حدثنا هارون بن يزيد عن موسى بن
جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنهم عن أبيه عن جبيهه عن الحسين بن علي
رضوان الله عليهم عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال كنا مع رسول الله
صلى الله عليه وسلم في سفر وقد نزلنا على غدير يقال له غدير خُم* اذ خرج
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أن ينادى في القوم الصلاة جامعة فاجتمع
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وصعد على ربوة* من الأرض وأخذني
يمنى وقال « ان الله تعالى خلق الخلق من أشجار شتى وخلقني وعلياً من شجرة
واحدة وأنا أصلها وعلي فرعها والحسن والحسين أنمارها وأشياعنا أغصانها
وأوراقها فمن تعلق ببعض منها نجا ومن خلف عنها تردى » ثم قال : « ألسنت
أولى بكم وبالمؤمنين من أنفسهم ؟ » قالوا : اللهم نعم • قال : « اذا أنا كنت مولاه
فعلى مولاه ، اللهم وان من وآله وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله
وأدر الحق معه » ثم قال : « اختلف قوم موسى بعده على احدى وسبعين فرقة هلك
منها سبعون فرقة ونجت واحدة منهم وهم من قال الله تعالى فيهم « ومن قوم موسى

* في الترجمة الفارسية لهذا الخبر قال المؤلف : سعد على ربه وقيل اعد
اصحابه منبراً له من رجال الجمال •

أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » (١٥٩-٧) فهم الفرقة الناجية ، واختلف قوم عيسى بعده على اثنتين وسبعين فرقة هلكت منها إحدى وسبعون فرقة ونجت واحدة منهم وهم من قال الله فيهم : « وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة » . (٢٧-٥٧) فهم الفرقة الناجية ، وستختلف بعدى أتى على ثلاث وسبعين فرقة يهلك اثنتان وسبعون وتنج فرقة واحدة وهم من قال الله تعالى فيهم « الذين يتبعون الرسول النبي الأمي » (٧- ١٥٧) ، الا انى تارك فيكم الثقلين ان تمسكتم بهما لن تضلوا أبدا : كتاب الله جل مدود من السماء وعترتى أى أهل بيتى وانهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض » ققام القوم كلهم يهتوتنى بما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه بخ يخ يا أبا الحسن أصبحت مولى كل مسلم ومسلمة .

وقد روى هذا الحديث عن الرسول بطرق عديدة وقد سمعته على هذا النحو الذى ذكرته وأوردته بابسناده ورويته بلفظه ، وهذه الرواية أوفى الروايات وأحسنها . وقد ذكرتها باللغة العربية تبركا . (تلى ذلك ترجمة فارسية للخبر تشغل في طبعة اقبال من ص ٢٤ س ١٠ الى ص ٢٥ س ١٦) .

هذا شرح الخبر الذى ذكرناه والله أعلم بالصواب . وينبنى أن نشرح هذه المذاهب الثلاثة والسبعين ، حتى ترى رأى العين أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يقول كذبا قط وليس قوله الا صوابا .

فصل

ان أصول مذاهب الفرق الاسلامية لا تعدو الثمانية وهى :

مذهب السنة والجماعة ، مذهب المعتزلة ، مذهب الشيعة ، مذهب الخوارج ، مذهب المجبرة ، مذهب المشبهة والكرامية ، مذهب الصوفية ، مذهب الرزجة .

هذه هى أصول الاعتقادات والمذاهب ، ولكنها اقسمت الى فرق كثيرة وسيجيء شرح ذلك فى مكانه انشاء الله تعالى .

١ - مذهب السنة والجماعة :

اقسم أهل السنة والجماعة الى فرقتين .

(١) أصحاب الحديث وهم خمس فرق :

- (١) الداودية (٢) الشافعية (٣) المالكية (٤) الحنبلية (٥) الأشعرية * .
(٢) أصحاب الرأي وهم فرقة واحدة هي الحنفية .

٢ - المعتزلة :

- وقد انقسموا الى سبع فرق :
(١) الحنسية (٢) الهذيلية (٣) النظامية (٤) المعرية (٥) البشرية (٦) الجاحظية
(٧) الكمبية .

٣ - الشيعة :

- وقد انقسموا الى خمس فرق :
١ - الفرقة الأولى وقد انقسمت الى خمس فرق :
(١) الأبترية (٢) الجارودية (٣) الخثبية (٤) الذكيرية (٥) الخلفية .
٢ - الفرقة الثانية من الشيعة :
(١) الكيسانية (٢) الكرية (٣) المختارية (٤) الاسحاقية (٥) الحرية .
٣ - الفرقة الثالثة من الشيعة : الغلاة وهم تنوع فرق ** .
(١) الكاملية (٢) البائية (٣) المنصورية (٤) الغراية (٥) البزيفية
(٦) اليعقوبية (٧) الاسماعيلية (٨) الأزدرية .
٤ - الفرقة الرابعة من الشيعة : انقسمت الى فيقتين :
(١) الصباحية (٢) الناصرية .
٥ - الفرقة الخامسة من الشيعة هي الامامية الاثنى عشرية .

٤ - مذاهب الخوارج :

- وهم خمس عشرة فرقة :
(١) الأزارقة (٢) النجدات (٣) المجاردة (٤) البديعية (٥) الخازمية

* في النص الفارسي العشرية .
** لم يذكر المؤلف سوى ثمان فرق .

(٦) الثعالبية (٧) الحرورية* (٨) الصغرية (٩) الاباضية (١٠) الحفصية
(١١) اليزيدية (١٢) البيهية (١٣) الشراخية (١٤) الفضلية (١٥) الضجائية .

٥ - مذاهب الجبرة :

وهم ست فرق :

(١) الجهمية (٢) الأفطحية (٣) النجارية (٤) الضرارية (٥) الصنفائية
(٦) النواصبية .

٦ - مذاهب المشبهة :

وهم عشر فرق :

(١) التكلابية (٢) الكرامية (٣) الهشامية (٤) الشينائية (٥) المعتزلة
(٦) الزرارية (٧) المقاتلية (٨) المنهالية (٩) التبيضة (١٠) النعمانية* .

٧ - مذاهب الصوفية :

(١) النورية (٢) الحلوية .

٨ - مذاهب المرجئية :

وهم ست فرق :

(١) الرزامية (٢) البيلانية (٣) القومنية (٤) الصالحية (٥) الشيرية
(٦) الجهمية .

فجملته هذه المتبالات ثلاث وسبعون فرقة كما فصلنا وقد صبح ما قاله
الرسول صلوات الله عليه . أما وقد ذكرنا أصل هذه الفرق الثلاث والسبعين فالآن
نستقصي الكلام عن كل منها .

* في نعي شيفر : الخدرورية وقد اقترح اقبال الحرورية تصويبها لها
ومع ذلك وردت في القائمة الثانية للخوارج التي ذكرها المؤلف « الجرودية اصحاب
عبد الله بن جروود » وذلك في كل من نعي شيفر واقبال .

** لم يذكرها المؤلف أو استقطبها الناسخ وأضافها اجتهداه عباس اقبال .

ص ٢٧ هامش ٨

الباب الرابع

في بيان هذه المذاهب الإسلامية

وعرض مقالة كل منها وشرح أحوالهم باستقصاء

وستكلم بتوفيق الله تعالى ، عن الأديان والمذاهب علي هذا الترتيب الذي قدمنا حتى تم شرح الفرق الثلاث والبيعتين ، آملي أن نكون من الفرقة الناجية وان لا نكون من الهالكين بفضل الله تعالى .

١ - مذاهب السنة والجماعة :

قول ابن أصحاب السنة والجماعة هم الوسط بين أهل الاسلام فانك لا تجد من المسلمين جماعة لها مذهب الا وتقول اذا سألتها ان مذهبنا السنة والجماعة .

وأما قاعد هذا المذهب فهي أن الله تعالى بجميع صفاته قديم ؛ وأن القرآن غير مخلوق ، وأن الجنة والنار مخلوقتان وبوجودتان ؛ وأن رؤية أهل الجنة لله بالعين حقيقة ، وأن عذاب القبر وسؤال منكر ونكير حقيقة ؛ وهم لا يقولون بكفر مرتكب الكبيرة ولو مات بغير توبة ، بل يعاقب في النار بقدر اثمه ثم يذهب الى الجنة بشيعة النبي صلوات الله عليه ، وهم يقولون بمعراج النبي صلى الله عليه حتى قاب قوسين ، ويرؤيته ملكوت السموات ؛ وهم يرون القبض والقدر والخير والشر بارادة الله ولكن لا يبطل هذا أن يشاب المرء أو يعاقب حسب عمله ، ويقولون ان الخير والشر بارادة الله تعالى وابن الانبياء مختار لفعله ، وان الله تعالى بعلمه القديم خلق الفعل وفقا لاختيار كل انسان ، وهذا معنى كلمة القدر خيره وشره من الله . وهم يقولون ان توفيق الانسان أو خذلانه أزليان كما أراد الله وليس في يد الانسان بسوي الطاعة والجهد ، فالمخذول قد كتب عليه الخذلان منذ الأزل ، والمقبول قد كتب له القبول منذ الأزل ، وهذا هو قول الله تعالى « نحن قسنا بينهم » (٤٣ - ٣٢) وقول الرسول صلوات الله عليه : « السعيد من سعد في بطن أمه والشقي من شقى في بطن أمه » وهم مقرون باللوح والقلم والعرش والكرسى كما ذكرها الله تعالى ، ويقولون ان القلم يسيطر كل ما يقدر ولن يزد عليه شيء أو ينقص منه شيء ؛

والقضاء عندهم نوعان : مبرم ومعلق ، وهم يرون صلاة الجباعة حقاً ،
 وهم يبيدون عن القول بالتشبيه والتعطيل في صفات الله تعالى . ولا يوقموز
 بين الصحابة * ويقولون بخلافة أبي بكر الصديق رضى الله عنه ويجعلونه فوق
 منازعات أصحاب الفرق ، ومن بعده عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، ومن بعده
 عثمان بن عفان رضى الله عنه ، ومن بعده على بن أبى طالب كرم الله وجهه ، وهم
 يجبون الخلفاء الأربعة بدرجة واحدة .
 هذه هى أصول مذهب السنة والجباعة .

(١) أصحاب الحديث

وهم خمس فرق :

(١) الداودية : أصحاب داود بن على الاصفهانى ويسمونهم أصحاب
 الظواهر ، لأنهم يعملون بظاهر الأخبار والآيات وينكرون القياس .

(٢) الشافعية : أصحاب الامام عبد الله بن محمد ادريس الشافعى المطلبى
 رضى الله عنه . ومذهبه فى أصول الدين والتوحيد هو ما ذكرنا . وخلافه مع
 أصحاب الرأى يتعلق بالنروع (ولا خلاف فى الأصول) الا على شىء واحد هو
 حديث الايمان ، فان ضحكة الايمان فى مذهبهم تتحقق بشروط ثلاثة : الاقرار
 باللسان والتصديق بالجنان والعمل بالأركان ، وعلى هذا فالايان عنده يزيد
 وينقص بالمعصية . وهو يقول بصحة الاجتهاد والقياس *

(٣) المالكية : أصحاب مالك بن أنس بن مالك وهو امام العراق وصاحب
 كتاب الموطن ، ويعتق مذهب معظم المغاربة وسكان حدود اليمن ، وهم يتعلقون
 بالحديث ويأكلون لحم الحمير المستأنسة وييحون اللواط مع نسائهم .

(٤) الحنبلية : أصحاب الامام أحمد بن حنبل . وبعضهم مشبهة . وكان ابن
 حنبل شيخا حين دخل عليه الشافعى . وقد قام ابن حنبل بخدمة الشافعى وأمسك
 بمنان فرسه وقال « اقتدوا بهذا الشاب المهتدى » .

(٥) الأشعرية : وهم أصحاب على بن اسماعيل الأشعرى وهو من نسل أبى
 موسى الأشعرى . . . (فى الأصل بعد هذا كلمة غير مفهومة) .

* أى لا يطمنون فى احد الصحابة حبا فى غيره كما يفعل بعض فرق الشيعة
 بسبهم ابا بكر وعمر .

** فى نص شيفر بكويد وجاءت بالنفى خطأ فى طبعة اقبال .

(ب) أصحاب الرأي

هم أصحاب الامام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن المرزبان الكوفي الفارسي رضى الله عنه . وقد استتبط مسائل الفقة وصنف كُتبه . وظهر له تلامذة كُتبي يوسف القاضي ومحمد بن الحسن الشيباني وزفر وأبي مطيع البلخي رحمهم الله . والايان عنده اقرار باللسان وتصديق بالقلب . والتقص والزيادة فى الايمان غير جائزين عنده . وهم يجيزون القياس والاجتهاد . وفقهاء خراسان من أتباع أبي حنيفة يتبعون مذهب السنة والجماعة فى الأصول ، وبعض فقهاء العراق يتبع فى الأصول مذهب المعتزلة وفى الفروع مذهب أبي حنيفة .

٢ - المعتزلة :

قاعدة مذهبهم ان الله قديم بذاته لا بصفاته ، وفرقوا بين صفات الذات وصفات الفعل . فيقولون ان صفات الذات مثل العلم والقدرة ، اذ لا نستطيع القول بأن الله عالم حينا وغير عالم حينا آخر وأنه قادر حينا وغير قادر حينا ، فهذه صفة ذات ، ويقولون لهاتين الصفتين أمثالهما انها قديمة . وصفات الفعل مثل الخلق والتكلم وما أشبه ، وهم يقولون انها ليست قديمة بل هى محدثة وذلك لجواز القول بأن الله كلم موسى ولم يكلم فرعون فهو تكلم حينا ولم يتكلم حينا ، ولهذا السبب قالوا ان القرآن مخلوق وينكرون رؤية الله تعالى ويقولون انه تعالى ليس على هذا النحو الذى يمكن به ادراكه بالحواس أو رؤيته بالعين المجردة: « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » (٦ - ١٠٣) . وينكرون عذاب القبر وسؤال منكر ونكير ويقولون هذا سؤال من يحتاج الى أن يعرف اعتقاد هذا الانسان الميت ، والله عالم السر والخصيات وليس محتاجا الى أن يسأل . ويقولون ان الله تعالى لم يخلق الجنة والنار بعد وانما يخلقهما فى اليوم الذى ذكره ، فانه قال : « يوم تبدل الأرض غير الأرض » (١٤ - ٤٨) . وان الله تعالى لا يقضى بالمعصية ولا يخلق الزنا والكفر والبهتان ولكن هذه أفعال الناس وذلك حتى يستحقوا العقوبة بأعمالهم ، وان الانسان مستطيع قبل الفعل .

وعندهم أن مرتكب الكبيرة خرج من حد الايمان ولكنه لا يصير كافرا بل يصير فاسقا ، وهذه عندهم المنزلة بين المنزلتين . فاذا تاب يعود مؤمنا ، واذا مات بغير توبة فانه يخلد فى النار ، فكل من كان من أهل الجنة لا يرى النار ، ولا يخرج من النار من كان من أهلها ، بل يخلد فيها . ولا يقول المعتزلة بأزلية السعادة

والشقاوة ولكنها مرتبطتان بأعمال القباد . وهم لا يوقعون بين صحابة النبي صلوات الله عليه ، ولكن فرقة منهم تقول بتفضيل علي كرم الله وجهه .

والمتميزة متبع فرق :

- ١ - الحنيفة : وهم أصحاب الحسن البصري .
- ٢ - الهذيلية : وهم أصحاب أبي الهذيل العلاف .
- ٣ - النظامية : وهم أصحاب النظام .
- ٤ - المعرية : وهم أصحاب معمر بن عباد السلمي .
- ٥ - البشرية : وهم أصحاب بشر بن المتسر .
- ٦ - الجاحظية : وهم أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ .
- ٧ - الكعبية : وهم أصحاب أبي القاسم الكعبي البطنى .

٢ - مذهب الشيعة :

أساس مذهبهم أن علياً كرم الله وجهه ومن بعده ذويه أحق الناس بالامامة بعد النبي صلوات الله عليه . وهم يحسمون (الخلفاء) الآخرين الظالمين والبغاة . ويقولون أن امامة علي متصوص عليها بنصين ، أحدهما جلي وهو أن النبي صلوات الله عليه قال يوم غدير « خم » : إذا أنا كنت مولاه فعلى مولاه ، والثاني خفي وهو أن النبي صلوات الله عليه قال : وأفضلكم على وأنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي . والشيعة تفضل علياً على نظرائه . ويقولون أن الزمن لا يخلو من امام معصوم وهم يوالون أهل البيت ويرأون من أعدائهم . ويجيزون التقية ، والتمية لهم ، خشية الخلق ، يعملون أو يتكلمون في الظاهر على غير مذهبهم . وهم لا يجيزون المسح على الخفين (في الوضوء) ولكنهم يمسحون ظهر القدم ، عملاً بظاهر الآية : « وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم » (٥ - ٦) وهم يجيزون تكاج الصيفة . وهم لا يضمنون في الصلاة يداً على يد بل يرسلون أيديهم . وهم لا يجيزون السجود على التراب أو فوق ما يمينه التراب . ويقرأون القنوت عقب كل صلاة . وفي الركعة الثانية ، بعد أن يفرغوا من قراءة القرآن ، يرفعون أيديهم ويقولون :

لا اله الا الله الخليل الكريم ، لا اله الا الله اللطيف العظيم ، سنبعثك رب

السموات النصب وما فيهن وما يبتغين وهو الصميع العليم وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين . وفي الأذان يزيدون « حتى على خير العمل » يقولونها مرتين . ولا يجوزون الصلاة في ثوب الحر . وعندهم أن من يقول لفظة آمين في الصلاة يخرج منها ، فانهم يقولون ان هذا اللفظ ليس من القرآن . ويرون الأغتسال يوم الجمعة فريضة . ولا يقرأون القرآن وهم خلف الامام (امام المسجد) . وأكثر مذهبيهم في العبادات يتفق مع بعض قواعد مذهب الشافعي . وهم يرفعون أيديهم وقت القيام والركوع . ويجلسون (قليلاً) قبل القيام من الركعة الثانية : ولا يجوزون الاجتهاد (؟) أو القياس قط ، وهم كالمعتزلة في أصول مذهبهم ، وذلك في نفي الرؤية والتشبيه وخلق القرآن وحدث صفات الفعل والاستطاعة ، الا في أمر واحد وهو مركب الكبيرة الذي يقول المعتزلة انه « اذا مات ولم يتب فانه يخلد في النار » ، أما هم فيقولون انه لا يخلد فيها بل ان الله يرحمه ويخرجه من النار بفضلته ورحمته .

هذه هي أصول مذهب الشيعة وهم خمس فرق :

(١) الزيدية

وهم أصحاب زيد بن علي ، الذي خرج أيام دولة بني أمية ، فقبضوا عليه وقتلوه ، فهرب ابنه يحيى بن زيد الى خراسان ولكنهم قبضوا عليه أيضاً وقتلوا بامر نصر بن سيار في جوزجانان . وقبره بأوغوية .

وأساس مذهبهم أنه بعد علي والحسن والحسين يجوز لكل علوي معصوم أن يطالب بالامامة وينبغي لذلك أن يكون من نسل علي وأن يكون تقياً معصوماً . وهم خمس فرق :

١ — المغيرة : وهم أصحاب كثير النواء ولقبه الأبرار واسمه المغيرة بن سعيد .

٢ — الجارودية : وهم أصحاب أبي زياد .

٣ — الذكيرية : وهم أصحاب ذكير بن حلوان .

٤ — الخشبية : وهم أصحاب صرخاب الطبري ، وقد اتخذوا سلاحهم من الخشب حين خرجوا .

٥ — الخليفة : وهم أصحاب خلق بن عبد الصمد .

(ب) الكيسانية

وهم أصحاب كيسان الذى كان مولى لعلى بن أبى طالب كرم الله وجهه • ومذهبهم أن الخلافة بعد الحسن والحسين صارت الى محمد بن على الذى يسمونه ابن الحنفية لأن أمه كانت تسمى الحنفية • ويقولون أنه حتى لا يموت أبدا وأنه مختف فى شعب رضوى فاذا أتى وقت ظهوره يخرج ، فيملك العالم ويعمره بالعدل • وهم أربع فرق :

- ١ — المختارية : وهم أصحاب المختار بن أبى عبيد الثقفى •
- ٢ — الكرية : وهم أصحاب أبى كرب الضرر •
- ٣ — الاسحاقية : وهم أصحاب اسحاق بن عمر •
- ٤ — الحرية : وهم أصحاب عبد الله بن حرب •

(ج) الفالية

وشر فرق الشيعة فرقة الفالية وهم كفار كرام محضا وهم من الجماعة التى ذهب واحد منها الى على وقال : يا على الأعلى السلام عليك • فأمر على كرم الله وجهه بأن يحرقوه • ثم قال :

يهلك اثنان محب مفرط ومبغض مفترى •

وهم ثمان فرق :

- ١ — الكاملية : أصحاب أبى كامل •
- ٢ — السبائية : أصحاب عبد الله بن سبأ •
- ٣ — المنصورية : أصحاب أبى منصور المجلى •
- ٤ — الغراية : وهم يقولون بأن على بن أبى طالب يشبه الغراب •
- ٥ — التبزيفية : أصحاب بزيع بن يونس •
- ٦ — اليعتوية : أصحاب محمد بن يعقوب وهم يقولون ان عليا حسين يجيء الى الدنيا يخرج من بين السحاب •
- ٧ — الاسماعيلية : أصحاب اسماعيل بن على •

٨ — الأزدرية : وهؤلاء يقولون ان عليا أبا الحسن والحسين ليس عليا الامام
وانما الامام رجل يسمونه على الأزدرى ، وعلى الامام هذا لا ولد له فهو الصانع .
ملت أفواههم ترايا .

سمعت من السيد على أبى طالب : حين كنت فى الكوفة ، كان شيخ علوى
يدين بهذا المذهب ويظهره ويكتب (فى مكاتباته) فلان الأزدرى . ثم قال السيد
وقد مات هذا العلوى وأنا فى الكوفة ولأنه كان علويا معروفا فقد دفتوه
بجانب مشهد أمير المؤمنين على كرم الله وجهه . ففاحت فى ليلة دفنه رائحة كريهة
من قبره بحيث أهاجت أهل المشهد . فجاء رجال هذا العلوى وأولاده ففتحو
قبره وعبقوه عشرين ذراعا وأعادوا دفنه ، ففاحت الرائحة الكريهة فى اليوم التالى
أكثر مما كانت ، وهاج أهل المشهد وثاروا فجاء أبناءه خلفه فى الليلة التالية
وسرقوا جثمانه من هناك ودفنوه حيث شاءوا . وهكذا أثر اعتقاده فيه حتى
أنه فضح على هذا النحو بعد موته . نعوذ بالله من الخذلان .

للفرقة الرابعة من الشيعة

(د) الباطنية

أساس مذهبهم ظاهره التشيع وحب أمير المؤمنين كرم الله وجهه وباطنه كفر
محض ، وقد ظهرت هذه الفرقة فى مصر .

فقد اجتمع ثلاثة رجال ، أبو ميمون القداح وعيسى چهار لختان وفلان
الدينانى ، وثلاثتهم كافر وملحد ، وتصادقوا وكانوا يأكلون ويشربون
مما . قال أبو ميمون القداح ذات يوم انى أضيقت بدين محمد ، وليس عندى
جيش أحارب أهله به وليس لدى مال ، ولكنى فى الحيلة طويل الباع بحيث اذا
لفيت عونا من أحد قلبت دين محمد رأسا على عقب ، فقال چهار لختان ان لدى
نمما كثيرة أففقها ، غير آسف ، فى تلك السبيل . واتفقا على هذا . وكان لأبى
ميمون القداح ولد جميل الوجه مشهور بالجنائى حتى أنهم كانوا يرتكبون معه
انفحشاء . وادعى أبو ميمون القداح الطب والعلاج ، وأطاعه شر ابنه كما
يفعل العلويون وأمدّه چهار لختان بالمال حتى توفرت للولد أسباب الإهبة
ومظاهرها وأشاعوا أنه علوى وأنهم خدامه . ثم أحضروه انى مصر فى أبهة
عظيمة وكانوا لا يجلسون فى حضرته ، وكانوا يعظمونه ويجلونه فى مخاطبتهم

إياه ، ولا يسبحون لكل شخص أن يقابله ، حتى علا شأنه ، وحينذاك أعلنوا هذا المذهب وقنوا ان للشرعية ظاهرا وباطنا . والظاهر هو ما تعلق به المسلمون ومارسوه وقالوا ان لكل شيء باطنا والباطن (في الشريعة) كان يعلمه الرسول صلوات الله عليه ولم يقفه لأحد غير علي وأن عليا قاله لذريته وشيعته وخاصته ، وأن من عرف الباطن استرجع من غشاء الطاعة والعبادة . وهم يسمون النبي صلوات الله عليه الناطق ، وعليا الأساس . وعندهم مواضع وألقاب ، فيقولون للعقل السابق والأول أي أنهم يقولون ان النفس ظهرت من العقل وان كل شيء في الدنيا أوجدته النفس ، وهم يفسرون الآية « والتين والزيتون وطور سين » وهذا البلد الأمين » (٩٥ - ١) بأن التين هو العقل وهو لب كله ، وأن الزيتون هو النفي وكلها لطافة مخططة بكثافة شأن الزيتون مع النواة ، وأن طور سين هو الناطق يعني معنوا صلوات الله عليه الذي كان يشبه الجبل الوعر في الظاهر والذي كلم الناس بالضعف ، ولكن في باطنه أشياء كالجبل فيه الجواهر ، والبلد الأمين هو الأساس يعني عليا الذي أول الشريعة وبه أمن الناس من البلاء . وكذلك أولوا انهار الجنة الأربعة ، وغرضهم من ذلك ابطال الشريعة ، عليهم لعنة الله . ويقولون انه النبي عليه السلام أب المؤمنين وأن عليا أمهم ، وأن النبي خل في علي بالعلم والمعرفة فتولد عنهما سونا العلم الباطن . ويقولون ان أول شيء وجد هو عالم العقل وتلاه عالم النفس وحينئذ وجدت هذه المخلوقات كلها ، وأن الأدمي وجد بالنفس الجزئية فاذا مات عادت هذه النفس الجزئية الى (ههنا) الكلية .

ولو يستأنهم أحد من أي شيء وجد عالم العقل قالوا ظهر بالامر ، فاذا سئلوا بأمر من قالوا لا تعلم ، وليس لنا قدرة على معرفة الحق والباطن ، فتنح لا نقول انه موجود ولا نقول انه ليس موجودا ولكن المعتقد في مسائل التوحيد يقولون أن المعتد هو ذاك أي انه ليس موجودا (؟) . تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا .

وبهذه الطريقة أخرجوا المسلمين من الدين ، بعد أن يكونوا قد خدعواهم حديثا مأخوذا عن القرآن والحديث ، وحين تنعم النظر تجد أنهم ينكرون منجزة القبر . ويقولون ان مرجع تأييد النبي صلوات الله عليه ثلاثة أغبياء هي التجد

والفتح والخيال وهذه عندهم نجربل وميكائيل ورافائيل . ويقولون أن النبي أتى بهذه الشريعة من أجل البله والجهلاء وذلك حتى يشغلهم ويبلبل أفكارهم فيصرفوا عن التفؤول ، وليس في الشريعة شيء غير هذا . وقد وضعوا لكل حكم من أحكام الشريعة تأويلا وباطنا ولو أنعمت النظر اليهم رأيت أنهم جميعا حاولوا ابطال الشريعة ، لعنهم الله ، فمثلا يقولون في تأويل الخبر عن النبي صلوات الله عليه :

« القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النيران » انه القبر هتجر جسم الانسان الذي هو قبر لشخصه والنفس فيه ، فاذا كان هذا الانسان باطنيا ، أحل نفسه من أحكام الشريعة ، فانه لا يتعب ويكون جسده روضة الجنة ، فاذا لم يعرف باطن الشريعة وتأويلها فانه يتعب بالطاعة والعبادة ويكون جسده حفرة من حفر النار . ويقولون أن شجرة طوبى التي يقال عنها إن ليس في الجنة مكان لا تصل اليه أغصانها هي الشجعة التي تشمل العالم كله كل يوم والتي لا يوجد مكان في أية ناحية لا ينفذ اليه شعاع من نورها .

وقد أولئوا على هذا النحو ، القرائن والشريعة والعبادة والصوم والصبح والأيمان ، ولو شرعنا كل واحد منها لظال الكتاب ، ويكفى للايضاح القدر الذي ذكرناه .

وقد بنى مذهبهم على العدد سبعة . فهم يقرؤن ، في الظاهر بسبعة أنبياء ولو أنهم ينكرونهم جميعا في الباطن ، ويقولون أن هناك سبعة أئمة ، وهذا الذي لم يظهر بعد والذي ينتظرونه يسمونه ولي الزمان . يأخذون يوم عيد الفطر من كل انسان درهما ودائفا أى سبعة دوايق ولهم في كل قطر رجل يدعو نذهبهم يسمونه صاحب الجزيرة ، ويعمل تحت رياسته الدعاة في كل مدينة ، والشخص الذي يدعى الى المذهب يسمى المستجيب .

وفي زماننا غرف رنجلان بلقا منعت صاحب الجزيرة أولهما فاضر خسرير وهو يقيم في مكان وقد أضل الناس عن الطريق التوى ، وانتشرت طريقته هناك ، والثاني نخسن الصباح الذي كان في اصفهان ومن هناك جاء الى آمد ثم توارى ، وقد أضل الناس في خراسان والعراق ودعاهم الى هذا المذهب .

وكان في غزنين أحد هؤلاء ويسى محمد أديب ، كان داعى الفاطميين وقد
أضل أناسا لا حصر لهم في المدن والقرى .

وقد كتبنا في هذا (الموضوع) بهذا القدر حتى يعلم من يسع كلاما من
هذا النوع أنه كلامهم فلا يلتفت اليه ولا يفضل بضلالهم . وهم فرقتان :

١ - الناصرية : أصحاب فاصر خسرو وهو ملعون عظيم وصاحب تصانيف،
وكتاب وجه دين وكتاب دليل التحيرين من تصنيفه وهما في الكفر والالحاد ،
وقد ضل كثير من أهل طبرستان واعتنقوا هذا المذهب .

٢ - الصباحية : أصحاب حسن الصباح وهو رجل عربى اللسان وأصله
من مصر وكان داعيا عظيما .

الفرقة الخاصة من الشيعة

(هـ) الإمامية (الاثنا عشرية)

هم فرقة واحدة وليس في الشيعة فرقة أكثر منهم عددا وهم كثيرون في
العراق ومازندران وفي خراسان أيضا ومذهبهم هو مذهب الشيعة بعينه الذي
ذكرناه من قبل . وهم يصلون في اليوم إحدى وخمسين ركعة ، منها الفريضة
المعلومة وما بقى تطوع . وعندهم أن صلاة ركعة للشكر عقب كل صلاة واجبة .
وهم لا يتلون في الصلاة السور التي فيها آيات السجود ، حتى لا يجتمعوا بين
سجودين ، سجود الصلاة وسجود التلاوة . وهم يذبحون الضحية قبل صلاة
عيد الأضحى . ويعتبرون الققاع حراما كالخمر ويروون عن النبي صلوات الله
عليه أنه « نهى عن نبيذ الحقة ، والحقة الشمير » . ويحرمون لحم الأرانب .
ويجيزون النكاح بغير شاهد ولا ولي . أما الطلاق فلا يقع عندهم بغير شاهد
عدل ، وهم يحتجون بظاهر هذه الآية « فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن
بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم » (٦٥ - ٢) فيقولون ان الله سبحانه وتعالى
اشترط الاشهاد على الطلاق لا على النكاح ، ويقولون ان (بين) الثلاث طلاقات
دفعة واحدة لا يقع مطلقا لقوله تعالى « الطلاق مرتان » (٢٢٩ - ٢) ويكبرون
في صلاة الجنازة خمس مرات بحكم أن هذه ليست صلاة إنما هي دعاء .
ويجيزون صلاة الجنازة بغير طهر . ويقولون ان الإمامة بعد النبي صلوات الله

الاسم	اللقبة	اللقب	الوليد	المرقة	الاسم	اللقب	اسم التتال
علي	أبو الحسن	الزهد	سنة أربعين	٦٢	يكتوي مذكورة	لقبة بنت أحمد	بنت الحسن بن علي
الحسن بن علي	أبو محمد	الزهد	سنة سبع وخمسين	٤٧	بالقبة	لقبة بنت الرسول	جدة بن أحمد بن أبي
الحسن بن علي	أبو عبد الله	الزهد	ل سنة إحدى وستين	٥٧	بكنة	لقبة بنت الرسول	بنت رسول الله
علي بن الحسن	أبو إبراهيم	زهد السابغ	سنة ثمان مائة	٢٧	بالقبة	شهر بن بنت إبراهيم	حسام
محمد بن علي	أبو جابر	الزهد	سنة سبع وخمسين هـ	٦٠	بالقبة	الزهد بنت الهيثم	إبراهيم بن الوليد
جابر بن محمد	أبو عبد الله	الزهد	سنة ثمان مائة	٦٥	بالقبة	أبو محمد بن أبي بكر	الحسين
موسى بن جابر	أبو إبراهيم	الزهد	سنة أربع وستين	٥٦	بالقبة	حميدة البربرية	عبد الله
علي بن موسى	أبو الحسن	الزهد	سنة ثلاث مائة	٥٥	بالقبة	أبو الربيع	عبد الله
محمد بن علي	أبو جابر	الزهد	سنة ثلاث مائة	٥٥	بالقبة	بالقبة	عبد الله
علي بن محمد	أبو الحسن	الزهد	سنة أربع وستين	٦٢	بالقبة	بالقبة	عبد الله
الحسن بن علي العسكري	أبو محمد	الزهد	سنة أربع وستين	٦٢	بالقبة	بالقبة	عبد الله
محمد بن الحسن	أبو القاسم	الزهد	سنة أربع وستين	٦٢	بالقبة	بالقبة	عبد الله

عليه لأمر المؤمنين على والنبي محمد أفضل ممن تقدم من الأنبياء جميعا ، ومن بعد علي ذريته ، يقولون ان الامامة تظل فيهم حتى الامام الثاني عشر . ويذكرون أسماءهم بالترتيب مع شرح أحوالهم . ولكنهم لا يلقبون بأمر المؤمنين أحدا غير علي رضي الله عنه ، ويسمون الباقيين أئمة . ويقولون ان أبا بكر وعمر وعثمان ظلمة طغاة وان كل ما عملوه باطل . ويرون أن فداء ميراث لخدمة رضي الله عنها ، ويقولون انه ما من أمة الا وتحيا بعد موتها شأن العزيز وأهل انكف ومن شأبهم ويستدلون على ذلك بقوله تعالى « ألم تر اني الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم » (٢ - ٢٤٣) .

وعندهم أثر الدعاء لأصحابهم واجب وكذلك الدعاء السيء على مخالفهم وأعدائهم . ويسمون من كان من أهل مذهبهم « مؤمنا » لأن المؤمن هو من آمن بالظاهر والباطن ويسمون « مسلما » من آمن بالظاهر وفي باطنه غير ما يظهر . وذلك لأنه يسلم من (ضرب) السيف ولكنه لا يكون مؤمنا ، ويحتجون بهذه الآية :

« قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يخل الايمان في قلوبكم » (١٤ - ١٤٩) .

وهم يقولون ان الشر يصدر عن الله تعالى . ويقولون ببقاء الامام الثاني عشر وبطول غيبته وذلك بحكم ما نص عليه الأئمة السابقون . وقد قرأت في هذا الباب كتابا للسيد المرتضى (*) شرح فيه هذا شرحا تاما وسماه « المتقن في الغيبه » .

وقد عملنا جدولين فيما شرح لأسامي الأئمة الاثني عشر وأيامهم وأحوالهم وفقا لمذهبهم ليقف عليهما القارئ .

ومذهبهم أن الأئمة الاثني عشر معصومون وأن لكل منهم معجزة وكرامة . وكل منهم قد ظهر في حياته مع شيعته وكانت فتاواهم وأجوبتهم ظاهرة . وكان كل منهم أثناء حياته قد عين خلفه الذي أصبح اماما من بعده ، حتى كان الامام الحسن العسكري وقد نقل الامامة من بعده الى ابنه : وقال : انه المهدي وانه قائم الزمان . وكانت ولادته في سائر سنة خمس وخمسين ومائتين . وهاك سرداب يقال ان هذا الطفل (محمد بن الحسن) دخل فيه واختفى والناس يذهبون الى

هذا السرداب لزيارته ؛ وقد اقيض من تاريخ ولادته الى تاريخ تأليف هذا الكتاب مائتان وثلاثون سنة قمرية ؛ والله أعلم بالحقبة والىواب .

٤ - مذهب الخوارج

كان ابتداء مذهب الخوارج وظهور مقاتلهم من وقت حرب صفين التي كانت بين أمير المؤمنين على رضي الله عنه ومعاوية ؛ وقد هالت بدء هذه الحرب ؛ وسبب ملولها أن أصحاب على لم يبدؤوها وكان على إذا عاد أصحابه من قتالهم (قتال معاوية) يطلب منهم إيقافها والا لما هالت هذه الحرب ، الى أن اشتد القتال ذات يوم اذ تقدم مالك الأيبتر النخعي وكاد النصر يتم لعلي ؛ فيسأل معاوية عمرو بن العاص إذا كان لديه حيلة فأجابه عمرو بأن لدى حيلة وإحيلة وليس هناك غيرها ، وهي أن تأمر رجال الجيش بجمع المصاحف وبرفعها على أسنة رماحهم وبالنزاع بأن كتاب الله تعالى حكم بيننا وبينكم ونحن نرضى بها يحكم به كتاب الله تعالى . وهكذا فعلوا فتوقف أصحاب علي لهذا السبب عن الحرب رغم ما قال علي من أن الأمر خداع وحيلة فلم يستمعوا له وقالوا انا لا نحارب بأية حال من حكموا كتاب الله وكلفوه أن ينزع أنصاره عن القتال . وفي هذه الأثناء كان مالك الأشتر وأصحابه يقاتلون بنفس . فطلب أنصار على منه أن يستمعي مالك الأشتر ، فأرسل له علي شخصا ليكف عن القتال فقال له مالك الأشتر « إن الحرب بدأت منذ ساعة وينبغي التمسك بالصبر حتي يقرر مصيرها » فرفع أصحاب على سيفوفهم في وجهه وقالوا انا قتلناك إن لم ترجعه عن القتال . فأرسل على الى مالك رسولا يقول له « إذا كنت تطارب من أجل فكف عن الحرب لئلا يقتلوني قبل أن تصل فيضيع مجهودك » فلما سمع مالك هذا الكلام اغتم وكف عن القتال وجاء الى على ولام هذه الجماعة فجردوا سيفوفهم وتوجهوا اليه حتي تدخل بينهم على وأجيد الفتنة . وحينئذ أرسلوا الى معسكر معاوية رسولا يسأله ما يريد برفع المصاحف ؟ فأجاب أنه ألوفيا من المسلمين سيقتلون فينفخ ابتهاج حكميين من الجيشين وما يقضيان به في هذا الأمر يطاع فبقال أمير المؤمنين على أن هذا غير وتليس لا فائدة فيه ، فلم يثمن له أصحابه وقالوا ينبغي أن نعمل بما يقولون واتقوا على هذا . فاجتبر من ذلك الجانب عمرو بن العاص فقال علي أنا أرسل عبد الله بن عباس من جاني . فقتل قومه جميعا

نحن لا نرضى بهذا قط انه ابن عمك ، وينبغي أن ترسل أحدا ليس منك . واختاروا أبا موسى الأشعري قبل هذا وقام بالأمر بنير رضى من على رضى الله عنه ، ولولم يذعن لهذا الاختيار لبقى مستضفا بين أيديهم ، وكان يقول « لا رأى لمن لا يطاع » . وكان أبو موسى الأشعري رجلا طيب القلب يشا كان عمرو بن العاص من الدهاة ، حتى أنه خدع أبا موسى في أول مجلس . فقد بدأ بأن كان يقدمه على نفسه في البير والجلوس فكان على أبي موسى أن يتكلم أولا ومن بعده يتكلم عمرو فيقول حينئذ ما يشاء ، وهكذا جازته هذه الخدعة على أبي موسى ، فكان يتقدم عمرو بن العاص ولكنه يخضع له . ومضى على هذا مدة طويلة والأمور تسير على رغبة عمرو . ثم أخذ هذا يهين لمقصده في قلب أبي موسى فقال له ذات يوم يا أبا موسى لقد فكرت ودرت أمرا فيه مصلحة المسلمين وهو أنه لا شك في عظمة علي ولكن أهل الشام لا يريدونه وكذلك لا يليق معاوية للأمر وأحسب أن ليس أليق منك بهذا المنصب فإن لك بين الصحابة حقوق المهاجرين . فابستلم أبو موسى لهذا الحديث ، وقال لعمرو : أما وقد نصبت حكما فكيف لي باختيار نفسي ؟ فقال عمرو : لا تختار نفسك ، إن عليك أن تخرج صاحبك (عليا) من الأمر حتى أدخلك أنا فيه ، ففي ذلك مصلحة المسلمين . فقال أبو موسى هذا هو عين الصواب . واتفقا على هذا ، حتى إذا جاء اليوم المحدد واجتمع خلق كثير من الفريقين ، دخل أبو موسى ومن خلفه عمرو بن العاص ، ثم جلس . وقد تطلع الخلق لما سيظهر ، فوقف أبو موسى وخطب ثم أثنى على الله ورسوله (صلعم) وقال « لقد فوضتم الحكم إلينا ، نحن الاثنين ، وقد قلنا الأمر على جميع وجوه مدة شهرين ثم تدبرناه فوجدنا الصواب أن نخرج عليا من هذه القضية كما يخرج الخاتم من الأصبع » ثم خاض خاتمه من اليد اليمنى ووضعه في يسه . ووقف من بعده عمرو بن العاص فخطب ثم قال « كما خلق أبو موسى عليا من الأمر أنصب أنا معاوية » . وكان أبو موسى يطعم في أن يولييه عمرو الأمر كما وعده فلما لم يفعل ضاق صدر أبي موسى فصاح : يا غرار يا طرار لقد كذبت وغدرت وقد عناك الله تعالى في القرآن بقوله « مثله كمثل الكلب إن حصل عليه يلهث أو تركه يلهث » . (١٦٧-١٦٨) فقال عمرو : أنت الكذاب الطرار وقد عناك الله تعالى بقوله : « كمثل الحمار يحمل أسفارا » . (١٦٩-١٧٠) فأخذ الناس يتجادلون ويتعذر بعضهم ببعض

ثم تفرقوا . وانصرفت جماعة منهم الى شأنهم فتجمعت أثناء ذلك فرقة من أصحاب علي وقالوا لماذا رضى علي بحكم الحكيم هذا ولماذا أعرض عن حكم الله ، لقد كفر بما فعل ولزم علي أن نطاربه حتى يسلم مرة أخرى ويتوب عن هذا الاثم ، أو قتله . وصموا علي هذا وظهر منذ ذلك اليوم هذا المذهب وقد وضعت قواعده هذه الجماعة التي ابتدأت بذلك القول ، ثم دعوا الناس اليه وكان شمارهم فيما بينهم « لا حكم الا الله » حتى قوى أمرهم وبايعهم عليه ثلاثة أو أربعة آلاف رجل . ثم أخبروا عليا بالأمر فدعا أفاضلهم ونصحهم فلم يجد من هذا أية فائدة ولم يعملوا برأيه ، ثم قالوا ما دمتنا في جند علي فلن نحصل على ما نريد والرأى أن نفصل عنه حتى نستطيع أن نعمل ، فتركوا الجيش وتجمعوا في البهروان وأخذوا يفسدون فيها ، وصبر علي وتحمل ، حتى ضاق بهم ذرعا فبشار إليهم ودعا جماعة من رؤسائهم ومتكلميهم وقال « لقد كان ظهري قويا بكم وكنتم صحابتي فبأي حجة تعصوني ؟ » فقالوا « كنا صحابتك ما كنت مسلما ، فلما كفرت تركناك . فإذا اعترفت باثمك وتبت عنه وأسلمت تبعتك . والا فانا نهاربك ، فاما قتلناك وإما قتلنا جميعا » .

• فقال علي رضى الله عنه « أى اثم أئمت » ، قالوا : لقد رضيت بحكم المخلوق ووليت عن حكم الله والله تعالى يقول « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون » (٥ - ٤٧) فقال علي رضى الله عنه قد قلت لكم يوم الحكيم أن ما تعملون مكيدة ووهن فلم تسموا لرأى وأكرهتموني وصحابتي على الكف عن العرب ، فماذا تقولون في ذلك الآن . قالوا : بلى لقد كفرنا نحن أيضا في ذلك اليوم وأخطأنا كما أخطأت وقد تبنا الآن وعدنا مسلمين فأقر أنت أيضا بما قلت وعد الى الاسلام . فقال علي رضى الله عنه : سبحان الله لقد أسلست قبل الناس جميعا وهاجرت مع رسول الله تعالى وهزمت المبارزين أمامه ، واليوم في كهولتي أشهد بكفرى وأعود مسلما مرة أخرى وأضيع كل تعبى . ولو يحكمك رجل في حادث لمؤمن فلماذا يكفر ؟ أليس الله تعالى هو الذى أمر بالتحكيم في الخصومة بين الزوجة والزوج في قوله تعالى : « فابشوا حكما من أهله وحكما من أهلها » (٤ - ٣٥) أو لم يأمر الله بتحكيم مذوى عدل في تقويم ما يقتل من الصيد في الحرم في قوله عز من قائل « يحكم به ذوا عدل منكم » (٥ - ٩٥) ومع هذا فانا لم أرض تحكيم الحكيم وأتم حملتسونى عليه قهرا ، وقد

عرف ما عملوا وانه لغدر وتليس فان رضيع به أنا قسى فلماذا أكرم ؟ وأخذ يسوق لهم مثل هذه الأدلة حتى عاد اليه ألف وخمسة رجل عابدين وما ايتخرون ففد اُسرُوا على ذلك الاعتقاد السيء واتخذوا نهم في النهوض بمسكرا ، وقلوا بأن مرتكب الكبيرة ومرتكب الصغيرة كفران ، وكانوا يقتلون المسلمين : رجالا ونساء صغارا وكبارا . وكان على رضى الله عنه يحضهم وينصحهم كل يوم بلا جدوى ، حتى أخبر ذات يوم أن رجلين مع امرأتين وحمارين مروا بهم فمسكوكهم وسألوكهم عن مذهبهم فأخبرهم أحد الرجلين أنه نصراني وهذه زوجته فتركوكهما وشأنهما ولم يتعرضوا لهما وقأن الثاني انه مسلم فقتلوه وقتلوا زوجه (الحامل) وهلك مع حملها . فلما بلغ هذا الخبر أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه قال لا يجوز السكوت على هذا العمل فركب وتوجه لقتالهم واشترط لوقف القتال أن يقرأوا بالله تعالى وبالدين وبالشرعة فلم يجيبوه الى ذلك ، ولكنهم ازدادوا تمردا وابتدعوا يقاتلونه فقامت هذه الحرب وقتلوا .

وأما صاحب التدييه الذى كلم النبى صلى الله عليه وسلم عليا عنه فلم يجدوا له أثرا ، على كثرة ما بحثوا عنه وتلك قصة معروفة .

ومنذ ذلك الوقت ظهر هذا المذهب بين الناس ، والخوارج ينكرون عليا وكل من أتى بعده ، وظلت طائفة منهم قائمة فى كل زمان . وكان منهم فصحاء وخطباء ومبارزون عظماء مثل نافع بن الأزرق وقطرى بن الفجاءة التميمي والضحاك بن قيس وأمثالهم . وهم خمس عشرة فرقة .

- ١ — الأزرقية : أصحاب نافع بن الأزرق .
- ٢ — النجدات : أصحاب نجدة بن عامر الحنفى .
- ٣ — المجارده : أصحاب عبد الكريم (بن) عجرد .
- ٤ — الخازمية : أصحاب شعيب بن خازم .
- ٥ — الثعالبية : أصحاب ثعلبة بن عامر .
- ٦ — الجرودية : أصحاب عبد الله بن جرود .
- ٧ — الصفرية : أصحاب زياد (بن) الأصغر .
- ٨ — الاباضية : أصحاب عبد الله بن اباض .

- ٩ - الحفصية : أصحاب حفص بن المقدم •
 - ١٠ - البهسية : أصحاب أبي يونس بن هيصم •
 - ١١ - اليزيدية : أصحاب يزيد بن أنيسه •
 - ١٢ - السراخية : أصحاب عبد الله بن سراج •
 - ١٣ - الفضلية : أصحاب الفضل بن عبد الله •
 - ١٤ - الضحاكية : أصحاب الضحاك بن قيس •
 - ١٥ - البدعية : أصحاب يحيى بن الأصرم •
- والخوارج يشهدون أنهم ينقسمون الى ثمان فرق •

هذه هي فرقة الخوارج ومذهبهم واحد في الأصل ولكل من هذه الفرق التي ذكرنا قضية ولكل منها ثورة كبيرة • وجماعة من العامة يهتمون الجرودية بأنهم أكثر الفرق كرا وأنهم كانوا يقولون اذا فعل غضبا من على • ولكن هذا القول لا أساس له ، وقد جاء في كثير من الكتب أقوال كثيرة في بيان هذا المذهب ، وقد كتبت مجله الصحيح فمن أراد التفصيل فليرجع الى كتاب أحسن الكبار (٩) •

(انتهى النص)

(التعليقات)

- (١) سورة ٤ ، آية ٥٩
- (٢) سورة ٢٦ ، آية ٨٤
- (٣) سورة ٧ ، آية ٤٣
- (٤) سورة ٢٩ ، آية ٦١
- (٥) سورة ١٧ ، آية ١١٠
- (٦) سورة ١١ ، آية ٤١
- (٧) سورة ١٧ ، آية ١١٠
- (٨) سورة ٢٧ ، آية ٢٠
- (٩) سورة ٣٩ ، آية ٣

(١٠) يقصد كتاب البدا والتاريخ لظهر بن طاهر المقدسي المتوفى بمدة سنة ٩٨٥/٢٧٥

حواشي بيان الأديان ، طبعة اقبال ، ص ٥١ .

(١١) كذا في الأصل وهو أبو أنحن محمد بن يوسف العامري النيسابوري من تلاميذ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي (٢٣٤ / ٨٤٨ - ٢٢٢ / ٩٣٣ -)
وأستاذ أبي علي أحمد بن محمد مسكوية المتوفى سنة ٤٢١ / ١٠٣٠ . اشتغل بالفلسفة وسمى « صاحب الفلاسفة » أو « صاحب الفلسفة » وقد شرح بعض كتب أرسطو والف كتاب « الأبد على الأبد » . وكتب « النيك المقل » . توفي سنة ٢٨١ / ٩٩١

(حواشي اقبال ، ص ٥٢) حيث رجع الى :

معجم الأدباء ، ج ١ ، ص ٤١١ . وج ٢ ، ص ٨٩ ؛ والمثل والنحل للشهرستاني
ص ٣٤٨ ؛ وتاريخ الحكماء للشهرزوري ، والمقائبات لأبي حيان التوحيدي
ص ٦٠ ، ١٦٥ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٠١ - ٢٠٩

(١٢) هو أبو الخير حسن بن سوار بن بابا بهرام الخمار النصراني ، من الفلاسفة وأهل المنطق . ولد في بغداد في ربيع الأول سنة ٩٤٢/٢٣١ . كان من المترجمين الذين نقلوا من السريانية الى العربية . بعد أن اتم علوق ذهب الى خوارزم والتحق بخدمة أبي العباس مأمون بن محمد خوارزمشاه . ولما فتح السلطان محمود الغزنوي خوارزم سنة ١٠٨٨/١٠١٧ ، كان أبو الخير ضمن العلماء المقيمين ببلاط خوارزمشاه من امثال ابن سينا والبيروني . وقد صاحب هؤلاء السلطان محمود بعد خروجه من خوارزم .

(حواشي اقبال ص ٥٢ - ٥٣ ، حيث فصل المراجع) .

(١٣) استيطكين : ليس لافلاطون كتاب بهذا الاسم ، ولعله يقصد كتاب Phèdre الذي يتناول علم الجمال (Esthétique) (اقبال ، ص ٥٤) .

(١٤) باتنجل : اسم كتاب ذكره أبو ربحان في الصفحتين ١٢ . ١٤ حيث نقل أبو المعالي . وهذا الكتاب نقله أبو ربحان من السنسكريتية الى العربية . وقد نقلنا نص أبي ربحان كاملاً . وجاء في صفحة ١٤ :

وفي كتاب كيتا وهو جزء من كتاب بهارث فيما جرى بين باسديو وبين أرجن : اني انا الكل من غير مبدأ بولادة ومنتهى برفاة لا اقصد بفعلى مكافاة ولا اختص بطيقة دون أخرى لصداقة أو عداوة قد اعطيت كلا من خلقى حاجته في فعله فمن عرفنى بهذه الصفة وتشبه بى في ابعاد الطمع عن العمل انحل وتافه وسيل خلاصه وعناقه .

وفي السطر ٢٠ : وفي كتاب سائك قال الناسك : هل اختلف في الفعل والفاعل . فهذا قول خواصهم في الله تعالى ويسمونه ايشفر اى المستغنى الجواد الذى يعطى ولا ياخذ .

(١٥) جاءت في كتاب البيرونى « الهند » ايشفر ، لا « اسفر » كما جاء في النص الفارسى ، والمقصود بها Isavara ونص البيرونى عنها هو :

« ويسمونه (اى الخواص) ايشفر اى المستغنى الجواد الذى يعطى ولا ياخذ » .

(الهند ، ص ١٥) . (وحواشى اقبال ، ص ٥٤) .

(١٦) جمع الأستاذ M. Devia مدرس اللغة العربية بجامعة مونبلييه النصوص المتعلقة بالزنج والواردة في الكتب العربية في كتابه :

Le pays des Zendje ou La Côte d'Afrique au moyen-âge ... d'après les
Ecrivains Arabes. Paris 1883.

وراجع تعليقات Schefer ص ١٤٢

(١٧) المقصود هنا كتابه « المقالات » الذى كان من اشهر كتب المسلمين في المال والنحل . وقد هاش أبو عيسى الوراق في النصف الاول من القرن الثالث الهجرى ، وتوفى سنة ٢٤٧ / ٩٥٨ ونقل عنه كتاب الفرق الكثير في كتبهم .

(اقبال ، ص ٥٤ - ٥٥) .

(١٨) هذا البيت من معلقة زهير التى مطلعها :

امن ام اوفى دمنة لم تكلم بحسوماته الدراح فالتلتلم

(١٩) سورة ٧١ ، آية ٢٣

(٢٠) سورة ٥٣ ، آية ١٩ ، ٢٠

(٢١) عن اصنام العرب انظر كتاب الاصنام لابن الكلبي (نشر احمد زكى باتشا ، مطبعة دار الكتب المصرية) .

وذكر صاعد في كتاب « التعريف في طبقات الامم » انه كان العرب مذاهب عدة فكانت حمير تعبد الشمس ودليل ذلك حكاية الله تعالى في كتابه عن الهدهد اذ قال لسليمان واصفا حال بلقيس الحميرية « وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله » . قال أبو محمد الهمداني فلما ملك سليمان وتقلب على ايمان وغيرها رفضت حمير عبادة الشمس وتهودت . وقال هشام بن محمد الكلبي كانت حمير

نعبد الشمس ، وكثانة القمر ، وميسم الدبران ، ولخم وجذام المشتري ، وطى سهيلا وقيس الشعرى العبور ، وأسد عطارد .

وقال ابن قتيبة كتبت النصرانية في ربيعة وغسل وبعض قضاة ، وكانت اليهودية في حمير وبنى كنانة وبنى العارث بن كعب وكنده ، وكانت الجوسية في تميم . وكانت الزندقة في قريش أخذوها عن أهل الحيرة . وكانت عبادة الأوثان فاشية في العرب .

قال صاعد : وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة لله تعالى وإنما كانت عبادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب والأصنام المثلثة بها في الهياكل لا على ما يعتقد الجهال بديانات الأمم .

(٢٢) قال صاعد في كتابه « التعريف في طبقات الأمم » عن عبدة الأوثان من العرب :

« وإنما جاء نص القرآن بمخالفتهم في البعث والنشور ونبوة محمد صلى الله عليه وسلم فكان جمهورهم ينكر ذلك ولا يصدق بالعداد ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبید وأن كان مخلوقا مبتدعا .

(٢٣) سورة ٥ آية ٢٤

(٢٤) سورة ١٦ آية ٥٧

(٢٥) ومما روى في هذا المعنى قول خزيمه بن الأيثم يوصي ابنه :
يا سـمـعـد اما اهلكن فائى أوصيك ان أخ الوصاة الأقرب
لا تمركن إباك يعشى خلفهم تعباً ، يجر على اليدين وينكب
واحمل إباك على بعير صالح وثق الخطية : انه هو اصوب

(٢٦) أبو قيس صرمة بن انس الأنصاري الخزرجي من بني النجار . ترك عبادة الأصنام واعتنق النصرانية وبنى كنيسة كان لا يسمح لطامث أو جنب أن يدخلها . وفي أواخر أيام حياته ذهب إلى المدينة واعتنق الاسلام مع من كانوا معه وقد قال هذا الشعر في ذلك الوقت :

نوى بقريش بضغ شرة حجة يذكر لو يلقى صديقا مواليا
ويعمرض في أهل المواسم نفسه فلم يلق من يؤمن ولم ير داعيا
فلما اتانا وأنعمائ به النوى وأصبح مسرورا بطيبة راغبا
وأصبح لا يخشى عداوة واحد قريبا ولا يخشى من الناس باغيا
بذلنا له الأموال من جل مالنا وأنفسنا عند الوفى والتأشيا
أقول اذا صليت في كل بيعة حنائيك لا تظهر علينا الأعدايا

راجع كتاب « أسد الغابة » ج ٢ ، ص ١٨ ؛ وتاج العروس مادة مرم .

(٢٧) خالد بن سنان من بني عيسى ، واسم جده غيث . وقد جاء في كتاب الأغاني أن ابنه أسلمت حين سمعت النبي ينزل السورة الثانية بعد المائة وكانت تقول أنها سمعتها من أبيها .

(كتاب الأغاني ، ج ١٦ ص ٧١ - ٨٠) .

(٢٨) هو الذي سمع يقول لعامر بن ربيعة :

أنا انتظر نبيا من ولد اسماعيل ثم من بنى عبد المطلب ، ولا أراى ادركه : وأنا
أومن به وأصدقته وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرايته فأقرته منى السلام ،
وسأخبرك ما نعته حتى لا يخفى عليك . قلت هلم ! قال : هو رجل ليس بالطويل
ولا بالقصر ، ولا بكثير الشعر ولا بقليله ، وليست تغارث عينيه حمرة ، وخاتم
النوبة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد مولده ومبعثه ، ثم يخرج قومه منها
ويكرهون ما جاء به حتى يهاجر الى يثرب فيظهر أمره ، فإياك أن تخدع عنه ، فإني
طفت البلاد كلها أطلب دين إبراهيم ، فكل من أسأل من اليهود والنصارى والمجوس
يقولون هذا الدين وراعه وينعتونه مثل ما نعته لك ، ويقولون لم يبق نبي غيره .

قال عامر بن ربيعة : فلما اسلمت اخبرت رسول الله (صلعم) قول زيد بن
عمرو واقرائته منه السلام ، فرد عليه السلام وترحم عليه وقال : « قد رايتنه في
الجنة سحب ذبولا » .

(الطبقات الكبرى لابن سعد ، ج ١ ، ص ١٤٣ ، وفي سيرة ابن هشام أنه
وقف فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميثة
والدم والدبائح التي تذبح على الأوثان ونهى عن قتل المؤودة وقال أعبد رب إبراهيم
وبادى قومه بعيب ما هم عليه .

وروى عنه أنه رأى ، وكان شيخا كبيرا ، مسندا ظهره الى الكعبة وهو يقول :
يا معشر قرئش والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح منكم أحد على دين
إبراهيم غيرى . ثم يقول : اللهم لو أنى أعلم أى الوجوه أحب اليك عبدك به ولكنى
لا أعلمه . ثم يسجد على راحته .

وزيد بن عمرو بن نفيل هو عم عمر بن الخطاب .

(سيرة ابن هشام ، ص ١٤٣ - ١٤٥ ، ج ٢١ طبعة صحيح) .

(٢٩) هو حكم العرب في الجاهلية . قيل أنه لما أسن واعتراه النسيان امر
بنته أن تفرغ بالمصا اذا هو فنه عن الحكم وجار عن القصد . ويقال له ذو الحلم .

(البيان والتبيين ، ج ٣ ص ٢٧ ، طبعة السندوبى) .

(٣٠) لم تقف على تعريف له فيما لدينا من مصادر . ويرجح شفر أنه
عمرو بن يزيد المعروف بابن سمى (ص ١٥٥) .

(٣١) راجع الكامل في التاريخ لابن الأثير ، ج ١ : ص ٣٠١ - ٣٠٢

وانظر :

Gaussin de Perceval :

" Essai sur l'histoire des Arabes avant l'islamisme " , t. I, p. 97.

(٣٢) راجع التهرستاني ، المال والنحل ، ج ٢ ، ص ٤٠ وما بعدها على
هامش الفصل لابن حزم ، طبعة عبد الرحمن خليفة . وابن حزم ، الفصل فى المال
والنحل ، ص ٨٢ وما بعدها طبعة عبد الرحمن خليفة . القاهرة ١٣٤٧ هـ ..

(٣٣) عن السامرية انظر :

Dictionnaire des connaissances religieuses, J. Bricout, Paris 1928.

The Jewish Encyclopedia.

The Ency. of Religions and Ethics.

(٢٤) الملاكائية : هو الاسم الذي يطلق على النصارى الذين عاشوا خاضعين لندوة الاسلامية وتابعين للذهب كنيسة بيزنطية . وهم من الناحية الروحية موالون لبطركية روما الجديدة .

اما عن كلمة : بطريق : وشرتكار وفسطيار وعسطرثج وزاؤج :

فراجع شيفر ص ١٥٧

وقد رجعنا في الكلمات العبرية الى الزميل الدكتور حمدي البكري .

(٣٥) اصلها من الفارسية القديمة ماكو Magu وعرفت عند اليونان Magas . وفي الفارسية الحديثة أصبحت مخ ، وقد اطلق اسم المجوس على قبيلة كانت في ايران القديمة وهي التي ظهر فيها زردشت واصبح كهنة دينه من هذه القبيلة . وهذا رأى من أرجح الآراء في بيان كلمة مجوس وهناك من الباحثين من قال بغيره . وقد اصبح اسم المجوس فيما بعد علما يدل على اتباع الديانة الزردشتية وما تفرع عنها من مذاهب .

وازن بين ما ذكره الشهرستاني في الملل والنحل (ج ١٢ ، ص ٥٧ وما بعدها)

وبين ما كتبه أبو العالي .

وانظر ايضا : M. N. Dhalla : Zoroastrian Theology, New-York 1914

وكذلك كتب پور داوود عن كتاب الأوستا .

وانظر بالعربية : فصل في اسلام الفرس ، ليحيى الخشاب ص ١ - ٢٤ من كتاب تراث فازس القاهرة ١٩٥٩

(٣٦) الدخمة بناء اسطوائى مفتوح يضع الزردشتية فيه موتاهم في الجبال او الاماكن الخلوية لتتحلل في الهواء الطلق . لانهم يؤمنون بأنه لا يجوز ان تلوث الارض بدفن الموتى فيها .

(٣٧) لدراسة تاريخ زردشت انظر :

A. V. Williams Jackson : Zoroaster, the prophet of Iran.

نيويورك ، ١٩٢٦

(٣٨) عن مزدك ودموته . انظر : دائرة المعارف الاسلامية مادة مزدك (Guidi)

وانظر : Christensen في Le Regne du Roi Kawādh I et le communisme mazdakite, Copenhagen, 1926.

وانظر : فصل المزدكية في كتاب « ايران في عهد الساسانيين » ، الذي كتبه Christensen ونقله الى العربية يحيى الخشاب وراجعه عبد الوهاب عزام . القاهرة ١٩٥٨

(٣٩) انظر : تقي زاده « ماني ودين او » ، طهران ١٣٣٥

وانظر : وليم جاكسون في كتابه "Researches in Manichaeism" - نيويورك ١٩٢٢

(٤٠) عن تصوير ماني انظر الفصل الذي جاء عنه في كتاب « ايران في عهد

الساسانيين » من ماني .

(٤١) لم ترد هذه القصة في مصدر آخر . والمأثور عن المأمون انه كان متسامحا مع ارباب العقائد المختلفة . وقد رويت قصة عن احد رؤساء المانوية هو

يزدانيخت وكان المأمون قد احضره من الري بعد ان امنه فقطعه التكليمون فقال له المأمون : « اسلم يا يزدانيخت : فلو لا ما اعطيتك من الأمن لكان لنا ولك شأن » فاجاب يزدانيخت بقوله : « نصيحتك يا امير المؤمنين مسموعة وقولك مقبول ولكنك ممن لا يجبر الناس على ترك مذاهبهم » .

ابن النديم : الفهرست ، ص ٢٢٨ طبعة أوروبا .

(٤٢) هوشنك او اوشهنك او هوشهنك هو ثنائي ملوك الپيشداديين واول من لقب پيشداد .

راجع الشاهنامة العربية لمزام ص ١٧ من الحاشية في الجزء الاول .

(٤٣) راجع في مذهبهم كتاب الفهرست وكتاب البدء والتاريخ لأبي زيد البلخي وكتب الملل والنحل وكتاب الهند للبيروني .

(٤٤) هو أبو زيد احمد بن سهل البلخي (٢٢٤ - ٢٢٢) صاحب كتاب « صور الافانيل » وله كتب كثيرة وكانوا يسمونه جاحظ خراسان .

راجع الفهرست ص ١٣٨ ومعجم الأدباء الجزء الاول ص ١٤١ - ١٥٢

وراجع اقبال ص ٥٨

(٤٥) راجع كتابنا : *Nasir & Hosraw* في الصفحات : ٢٤٨ - ٢٥٨ حيث تكلمنا عن هذا المذهب بشيء من التفصيل ؛ ثم انظر حاشية ماسيه ص ٤٠ وهو يذكر رأى كريستنس الذي يرى أن المؤلف نقل التعريفات الأربعة عن البيروني في الهند (ص ٢٢) مع اختصارها وتعديلها تعديلا طفيفا .

(٤٦) انظر عنهم : بصرة العوام في معرفة مقالات الأنام (فارسي) ، ٢٧ - ٢٨

والمثل والنحل للشهرستاني ، ج ٢ ، ص ٧٦ ، طبعة عبد الرحمن خليفة .
والفهرست لابن النديم ، ص ٤٢ وما بعدها ، طبعة مصر . ودائرة المعارف الاسلامية .

وحواشي Schaefer ص ١٦٠ - ١٦٢

(٤٧) عن القرامطة انظر الفصل ٦ من سياستنامه . وانظر دائرة المعارف الاسلامية .

واما كلمة زنديق فليست كما يقول صاحب « بيان الاديان » . وانما اخذت الكلمة عن زندك وهو تفسير كتاب الأوستا . فالذي يتبع التفسير دون النص ، أى يجتهد في التفسير ولا يتقيد بالنص يسمى زندكيا وزنديقا . واطلقت الكلمة على اتباع ماني الذي تقدم ذكره وكان ماني قد اتي بتفسير جديد لبعض احكام الأوستا ، فلما قتل واضطهد اتباعه سموا بالزندقة ، ثم توسع في اطلاق هذا اللفظ بعد الاسلام ، فشمل المانوية والمزدكية والمزدية بشكل عام .

ورأى يقول ان كلمة زنديق مشتقة من الكلمة الآرامية صديق ، وهي اسم طبقه من المنديين من المانوية . وكانت الكلمتان زنديق وماتوى بمعنى واحد .

(٤٨) راجع سياستنامه ، فصل ٧

ثم غلام حسين صديقي في كتابه : *Les Mouvements Religieux Iranien* .

(٤٩) انظر تعليقاتنا على الفصل الثاني من الباب الثاني من كتاب مفاتيح
المعلوم للخوارزمي ، والتي نشرت بمجلة جمعية الدراسات التاريخية المجلد
السابع سنة ١٩٥٨ ، من صفحة ١٦٤ - ٢١٢
وقد اكتفينا بهذه التعليقات في هذا الباب .

(٥٠) هو علم الهدى الشريف أبو القاسم علي بن حسين المرتضى
(٣٥٥ - ٤٢٦ / ٩٦٧ - ١٠٤٤) وكتابه « المنع » من أشهر كتب الإمامية في مسألة
الغيبة .

حواشي اقبال رقم ٤١ ، ص ٥٩ .

(٥١) ذهب Schefer الى ان اسمه الكامل : « أحسن الكبار في معرفة
الأئمة الأطهار » تأليف محمد بن أبي زيد بن عريشاه الوراميني .

وقال اقبال ان محمد هذا متأخر جدا عن أبي المعالي فلا يعقل ان ينقل عنه .
ورجح ان يكون اسم كتاب عربي في اللل والنحل .

حواشي اقبال ، رقم ٥٠ ، ص ٥٩ - ٦٠ .

كشف الموضوعات

صفحة	الباب الثالث	صفحة	مقدمة
	في بيان « مختلف بعدى	١٢ - ١١	
٣٤ - ٣١	امتى . . .		الباب الاول
	فصل في اصول مذاهب		في بيان ان اكثر الخلق في
٣٢	الفرق الاسلامية . .		جميع الازمان والافاليم
	١ - مذهب السنة	٢٠ - ١٥	يقرون بالصانع . .
٣٣ - ٣٢	والجماعة . . .	١٦	الفرس ، الفارسية الدرية
٣٣	٢ - المعتزلة . . .	١٧ - ١٦	الفلاسفة . . .
٣٣	٣ - الشيعة . . .	١٧	الروم والقطب والحش
٣٤ - ٣٣	٤ - الخوارج . . .	١٨	الترك . . .
٣٤	٥ - المجبرة . . .	٢٠ - ١٨	الهند . . .
٣٤	٦ - المشبهة . . .	٢٠	الزنوج . . .
٣٤	٧ - الصوفية . . .		الباب الثاني
٣٤	٨ - المرجئة . . .		في بيان المذاهب قبل
	الباب الرابع		الاسلام . . .
	بيان هذه المذاهب	٢١ - ٢٠	مذاهب العرب . . .
٥٠ - ٣٥	الاسلامية . . .	٢٢ - ٢٠	مذاهب الفلاسفة . .
	١ - مذهب السنة	٢٣ - ٢٢	مذهب اليهود (السامرية
٢٧ - ٣٥	والجماعة . . .	٢٤ - ٢٣	العنانية ، الراعية) .
٣٦	(ا) اصحاب الحديث		مذهب النصارى
٣٧	(ب) اصحاب الراى .		(البعقوبية ، النسطورية
٢٨ - ٣٧	٢ - المعتزلة . . .	٢٥ - ٢٤	الملكانية) . . .
٢٩ - ٣٨	٣ - الشيعة . . .		مذاهب المجوس (زردشت
٣٩	(ا) الزيدية . . .	٢٨ - ٢٥	مزدك ، مانى ، التنوية)
٤٠	(ب) الكيسانية . .	٢٨	مذهب عبدة الاصنام .
٤١ - ٤٠	(ج) الفانية . . .	٢٩ - ٢٨	مذاهب الهند . . .
٤٢ - ٤١	(د) الباطنية . . .	٢٩	مذهب التناسخ . . .
٤٦ - ٤٤	(هـ) الامامية . . .	٣٠ - ٢٩	مذهب الصائبة . . .
٥٠ - ٤٦	٤ - الخوارج . . .	٣٠	مذاهب القرامطة والزنادقة
٥٧ - ٥١	التعليقات . . .	٣١ - ٣٠	السوفسطائية . . .

في العلاقة بين السكان والتضاريس

دراسة في جغرافية السكان

للدكتور جمال حمدان

للسكان في الدراسة الجغرافية وضع خاص ، فهي تصنف كجزء من الجغرافيا الحضارية. Cultural Geog. ، ولكنها في الحقيقة ليست عنصرا حضاريا ، بل بالأحرى صانعة الحضارة . ولهذا يفرد لها البعض وضعاً خاصاً مستقلاً بين الجغرافيا الطبيعية والحضارية (١) كغطاء مستقر Homosphere Anthrosphere . وهي في هذا الوضع تمثل مماساً لكل العناصر والعوامل الجغرافية من طبيعية وبشرية . وسندرس هنا من هذه الضوابط والقوى عنصراً واحداً هو التضاريس ، بل جانباً واحداً منها - التضاريس الموجبة . وتتضح أهمية هذا العامل فيما يقول راتزل :

“La carte topographique est l'expression la plus exacte et la plus fidèle en tous ses détails de la répartition de la population.” (٢)

ولكن لا بد أن نحذر حتماً طبعاً صارماً في السكان ؛ فنرى مع سوروكين (٣) أن العلاقة بين التضاريس والسكان ليست علاقة بسيطة مباشرة ثابتة ، بل هي مركبة ، مباشرة وغير مباشرة ، ومتطورة . بل حتى فكرة السهل كضابط سكاني هي فكرة معقدة : تتظم قوى وضوابط أخرى كالتربة والجيولوجيا (٤) . ولهذا ربما كانت العلاقة بين الكثافة البشرية والمرتفعات أكثر وضوحاً ومباشرة منها مع السهول .

Finch, V G., Trewartha, G.T., Robinson, A.H. & Hammond, E. (١)
Elements of Geog., 1957, p.p. vi, 501.

Brunhes, Jean, La Géog. Humaine, Paris, 1925, t.I., p. 142. (٢)

Sorokin, Pitirim, Contemporary Sociological Theories, N.Y., 1928, p. 166 (٣)

George, Pierre, Intro. à l'Étude Géog. de la Pop. du Monde, Paris, 1951, pp. 60-1. (٤)

وسنقسم بحثنا هذا الى أربعة عناصر - العلاقة العامة بين التضاريس والكثافة ، كثافة السكان داخل المرتفعات ، كثافة السكان بين خط العرض وخط الكنتور ، العلاقة السكانية بين الجبل والسهل .

اولا - العلاقة العامة بين التضاريس والكثافة

١ - اذا نظرنا الى خريطة كثافة السكان في العالم وجدنا أن المرتفعات والجبال عامة مغلظة في السكان ، فهي بمثابة جزر سكانية فقيرة تبدو « كبقع بيضاء Bare Spots » على الخريطة . ورغم أن تحديد كثافة السكان للمناطق الجبلية عملية صعبة غير مجدية لشدة تقطع السكنى وال عمران فان الأرقام الآتية توضح هذه الحقيقة . مثلاً لا تزيد الكثافة عن ٢-٤ في الكم في شمال غرب الألب الدينارية ، تنخفض الى ١٥-٢٥ في جنوبها الشرقى . وهي لا تزيد عن ٢٩ في كل التيرول . وفي « الإيلاندز » الاسكتلندية ١٦ ، ترتفع الى ١٩ في اقليم الـ Grofters أغنى وأكثف أجزاء « الهيايلاندز » . وقد تصل الكثافة الى ١٠٠ في بعض أودية الألب الفرنسية ولكنها لا تزيد عن ٢٠-٢٥ لكل هضبة فرنسية الوسطى (٥) . فلا شك إذن في ظل الحضارة البشرية الحالية أن المرتفعات مضادة لتكاثف السكان : مثلاً لاحظ راتزل على أيامه أن مدينة مائة ألفية واحدة هي التي تقع فوق كنتور ٥٠٠ متر في أوروبا - ميونيخ ، بينما الباقي أغلبه أسفل ١٠٠ متر بل بضعة أمتار فوق سطح البحر (٦) . صحيح أن العلاقة بين السكنى والتضاريس قد تطورت تاريخياً ، فكان السكان يتمون خطوط المرتفعات ويتأون عن السهول المنخفضة في بريطانيا ما قبل التاريخ مثلاً . ولكن الواقع في الوقت الحالي أن كثافة السكنى في الجبال تشبهها في أطراف المعمورة ، فان الجبال كأطراف العالم وهوامش القارات ، بل هي أطراف العالم - فقط رأسياً . . . ولا تختلف المرتفعات في السكنى اليوم فقط ، بل هي تختلف زمنياً أيضاً . فان سكنى الجبال أمت متأخرة نسبياً ، فلا تظهر البقايا الأركيولوجية القليلة للجنس الألبى في وسط أوروبا الا في تاريخ حديث بالنسبة لبقية القارة ، مما يدل على تأخر تمييز السلسلة الجبلية . بل ان سلسلة Mittelgebirge

Beaujeu-Garnier, Jacqueline, Géog. de la Population, Paris, 1966, t.I, p.127, (٥)
Sorre, Max., Fondements de la Géog. Hum., Paris, 1962, p. 202. (٦)

بألمانيا لم تتمر بالسكنى الا منذ العصور الوسطى ! كذلك يوضح شولى Cholley أن التعمير الحقيقى لجبال ساقوا لم يحدث الا فى القرنين ١١ ، ١٢ (٧) . نل هذا مع ملاحظة أن جبال أوروبا بالذات أقل أبعادا وأكثر تمزقا وتلفلا بالأودية الغائرة العديدة ، كما تقع فى محيط سكانى قديم وكثيف مما جعلها أكثر تأثرا بالغطاء البشرى من جبال أخرى كثيرة (٨) . كذلك فى تعمير أمريكا وصلت موجة السكنى غربا حتى ١٨٤٠ الى خط طول ١٠٠° بينما كانت الأديرونداك وكاتسكيل وأوزارك لا تزال من « البقع البيضاء » التقليدية (٩) .

والسؤال الآن : ما هى عوائق السكنى فى المرتفعات ؟ هذه ثلاث - ميكانيكية وطبيعية وحيوية .

فأما الميكانيكية فإن التضرس والصعود ضد الجاذبية عملية شاقة فى ذاتها. وتزداد هذه الصعوبة ان كان المنحدر عاريا من النبات فى ظل مطر فانه يكون صخوريا حادا ؛ ولكنه لا يقل صعوبة اذا اكتسى فى مستقبل المطر بالغابات الكثة اذ تتعذر الحركة Accessibility على السواء باجتماع خط الكتور والغطاء النباتى . فمثلا كما أدركوا هم أنفسهم ، لم يوقف الرومان شمالا مرتفعات جنوب ألمانيا المتوسطة العلو وانما الغابة النفضية شبه الصماء (١٠) . ولقد درس هنتجتون صعوبات النقل والحركة المترتبة على التضرس دراسة وافية : فبالنسبة للسكة الحديد مثلا : الطاقة الميكانيكية البحتة المضاعفة ، كثرة الانحناءات وتطويل المسافات أضافا ، سرعة استهلاك الآلات ، التكاليف الانشائية الباهظة فى التمهيد والأفاق والكبارى ، الأخطار الميكانيكية فى الانحناءات ، والطبيعة طوال الطريق من هيارات وانهارات landslides وفيضافات ... الخ (١١)

Pestie, Roderick "Height Limits of Mountain Economies". Geog. Rev., vol. XXI, No. 3, July, 1931, p. 427. (٧)

Beaujeu-Garnier, p. 119. (٨)

Semple, Ellen Churchill. Influences of Geog. Environment, Lond, 1911, pp. 522, 533. (٩)

Am. Raphael, "Forests & Hum. Progress", Geog. Rev., Sept., 1920, p. 111 & Semple, p. 521. (١٠)

Huntington, E., Williams, F. & Valkenburg, S. V., Econ. & Soc. Geog., N. Y. 1933, pp. 160 ff. (١١)

أما العوائق الطبيعية فتجد أن البرودة تشد مع الارتفاع (٢٠٠٠ درجة مئوية لكل ١٠٠ متر)؛ وأن المطر يتزايد حتى ارتفاع معين (القمم عند ٢٠٠٠ متر كما وجد هان (١٢) ثم تكثر الثلوج ، وأن الرطوبة المطلقة والضغط الجوي يتناقصان بالمراد حتى ليصل الضغط الجوي على ارتفاع ٥٠٠٠ مترا الى نصفه عند سطح البحر . وتخلخل الهواء هكذا rarified air يؤدي الى دوار الجبال Mal de Montagne, Mountain Sickness وصعوبة التنفس والأمراض الرئوية واختلال ضغط الدم حتى الانفجار وشدة الضغط على القلب والخفقان حتى الموت (١٣) . ولهذا نجد أن ارتفاع ٥٠٠٠ مترا هو الحد الأعلى الفيزيولوجي لاماكن السكنى البشرية : تخلخل الهواء : تخلخل السكان ؛ ولا تصل اليه السكنى فعلا الا في المناطق المدارية ، لا سيما في بيرو وبوليفيا . وتندر ان لم تستمع على الاطلاق في المناطق الباردة .

أما العوائق الحيوية فمرتبطة بإنتاج الغذاء ، فان التفرس يحدد كثيرا من الرقع القابلة للزراعة . ونسبة الجزء الصالح للزراعة والسكنى تقل كلما تعمقنا وتغلغلنا في الجبل . قدر كريس Krebs أن نسبة الاعمور incakumene في جبال الألب في النمسا القديمة تبلغ ستة أعشار المساحة الكلية ، ترتفع الى ٨٠٪ في الكتل الداخلية ، بينما لا تزيد عن ٥٠٪ للقدم préalpe . كذلك وجد دي مارتون نسبة الاعمور في الألب الدولومية Dolomites نحو ٨٠٪ (١٤) . يضاف أن التفرس يؤدي الى تفتيت وتشتيت الرقع الزراعية ، وبذلك يشق العمل الزراعي كثيرا . والخصوبة بعد هذا منخفضة لضحولة سمك الغطاء Regolith بما فيه التربة لقابليتها للانحيار ، وفي السفوح الجرداء تختفي التربة تماما بالتمرية الشديدة - الا اذا صنعت المدرجات . كذلك الارتفاع والبرودة قد تهبط بعد الثلج الدائم الى مجرى الوادي Thalweg ، والثلج عموما ضابط رئيسي في تحديد نطاق الغابات الجبلي ، كما أن الهارات تخرب وتهدد الزراعة الجبلية كثيرا . والواقع أن الامكانيات الحيوية للجبل تتحدد

Peattie, p. 418.

Dubot, Emile, Les Climats et l'Organisme Humain, Coll. Que Sais-Je ?, (١٢)

Paris, 1948, pp. 59-61.

Peaujeu-Garnier, p. 129.

(١٤)

نتيجة صراع كثير من الضوابط الطبيعية المتعارضة ، فالاشعاع الشمسى — بما
 يعنى من حرارة وضوء وأشعة فوق البنفسجية — يزداد مع الارتفاع اذا كان
 الهواء صافيا . هذا قد يجعل حرارة التربة في الكتتورات العالية أدفا منها في
 السفلى ، ما قد يجعل الزراعة على السفوح العليا في ميزة السفوح السفلى
 على الأقل — لولا أن العامل الفعال حقا هو التربة : فهي تزداد فقرا مع الارتفاع
 مما يقصر السفوح العليا على الرعى (١٥) . لكل هذا تنزلق الزراعة الى حرفة
 ثانوية في اقتصاديات المرتفعات ويكون للرعى اليد العليا . ولكن قد يعوض
 بعض هذا امتياز الجبال بالمعادن الوفيرة اذا ما قورنت بالمنخفضات والسهول ،
 فان بروز الجبال بطبيعتها عن سطح الأرض العام يقرب مكنون الأرض المعدنى
 من أعماق سحيقة الى أعماق معقولة للتعدين ، لا سيما بما تحتوى من فتحات
 الالتواءات وفوالق الانكسارات . وصحيح أن هناك التعدين القيسى fluvial
 mining في الأنهار ، ولكنه غالبا لمعادن لا فلزية قليلة الأهمية والحدوث ، أما
 التعدين الجبلى فهو الأغنى والأكثر انتشارا .

٢ — هذه عوائق السكنى الجبلية . هي اذن وظيفة مباشرة وغير مباشرة
 للتضاريس . لكن أكثر من هذا نجد أن هذه العوائق تناسب تناسباً طرديا
 مع الارتفاع كما وكيفا :

"Other structural features being the same, mountains are barriers...
 in proportion to their height; for, with few exceptions, the various
 anthropo — geographic effects of upheaved areas are intensified with
 increase of elevation." (١٦)

أى أن كثافة السكان تناسب عكسيا مع الكتتور والانحدار . Slope
 gradient (١٧) ، وهما اللذان يتوقفان على الموقع من الدورة التحاتية
 أى على ثالث ديفيز من البنية ، العملية ، المرحلة . Structure, process, Stage.

Peattie, p. 422.

(١٥)

Samuel, p. 411.

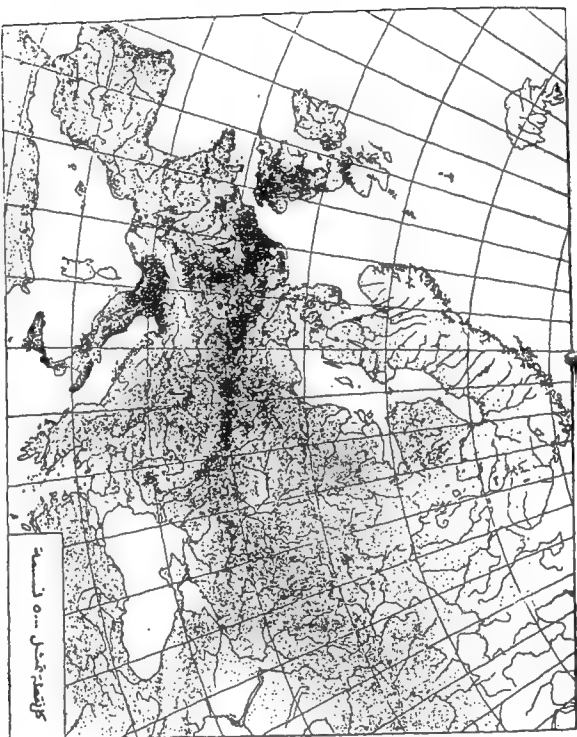
(١٦)

Brunhes, p. 228.

(١٧)

فأما عن الارتفاع فإن الهضاب المسطحة ، وهى ليست الا سهولا مرتفعة كما يدل الاسم الاسبانى *Altiplano* ، *Planalto* ، أعلى كثافة من الجبال العالية المضرة - قارن هضاب جنوب ألمانيا ووسط فرنسا بجبال الألب : هضبة رودوب بجبال الألب الدينارية ، وهضبة المكسيك *Anahuac* بجبال الانديز . ولكن لا بد أن ندرك دور عامل الكتلة *mass* : فكلما زادت كتلة المرتفع كلما كانت درجة الحرارة أعلى فى نفس الكتور ، ومن ثم طال موسم الانبات ، ولهذا فمن الحقائق العامة الهامة التى لا يمكن أن يخطئها حتى المسافر العابر أن حدود الزراعة على الهضاب الممتلئة أعلى منها على الجبال المدية (١٨) . ويتضح تناسق التدرج فى العلاقة العكسية بين الكتور والكثافة بكل اختصار فى التقسيم الثلاثى لامكتنسة : *Lowlands* (+ ٥٠٠ فى الميل ٢) ، *Uplands* (٥٠ - ١٠٠) *Highlands* (١٩) ؛ وتوضح فى الولايات المتحدة بين سهول البرارى *Prairie Plains* والسهول العظمى *Great P.* والمرتفعات الغربية (٢٠) . ولكن ليس معنى هذا الترابط المطرد أن كل الهضاب أفضل بالضرورة من الجبال . فهناك هضاب خالية أو شبه خالية من السكان لا لسبب التضاريس مباشرة ولكن بسبب المناخ . فالواقع أن الهضاب الجافة أكثر من الهضاب الرطبة وذلك اما لأن الارتفاع يترك فى الهواء قدرا ضئيلا من بخار الماء أو لأن الموقع بين السلاسل الجبلية *intermontane plateaus* يتركها فى ظل المطر (٢١) وبين الجبال أنفسها نجد أن الأكثر ارتفاعا أقل سكانا : فالكريات أكثر كثافة من الألب ، وشبه جزيرة ايطاليا والأينين أكثر كثافة من شبه جزيرة البلقان والألب الدينارية (شكل ١) ، وأورال أحسن حظا من القوقاز ، وتيان شان الأقرب الى السطح الهضبي أفضل من الهملايا ، والقطاع الأوروبى من الحلقة الاتوائية فى العالم القديم أفضل حالا من القطاع الاسيوى (٢٢) ، والأبلاش أكثر بكثيرة من الروكى ، بل لا تكاد تختلف كثيرا عن كثافة السهول المحيطة (٢٣) . وبعض

-
- (١٨) Penttise, p. 417.
 (١٩) Houston, J.M., A Social Geog. of Europe, Lond., 1958, p. 226 .
 & Brunhes, p.180 & Stamp, L. Dudley. Intermediate Geog, Lond, 1941, p. 90
 (٢٠) Finch and Trewartha, pp. 406-7.
 (٢١) Pierre George, p. 58.
 (٢٢) Huntington, Williams and Valkenburg. op. cit., p. 164.



كثافة السكان - ١٠٠ ٠٠٠ نسمة

شكل ١ - كثافة السكان في أوروبا
(من سيدروف فايجر) Sydney Wagners Methodischer Schulatlas

عنده التوارق في الارتفاع يرجع الى البنية - فالكريات والالب ، والابنين والالب الدينارية ، وان اشتركت أساسا في البنية الا أنها تختلف فيها ثانويا من حيث قوة حركة الرفع . والبعض الآخر يرجع الى اختلاف جوهرى في البنية ، فالابنين أحدث جيولوجيا فأعلى من البنين ، والروكى من الاپلاش . واخوقاز من الأورال . فالجبال القديمة لطول ما تعرضت للتعرية أوطأ وبالتالي أقل ارتفاعا ووعورة وعقبات سكنية . وليست التضاريس المخففة هى الميزة الوحيدة للجيولوجيا القديمة ، بل لها ميزة أخرى من حيث الجيولوجيا الاقتصادية Economic Geology ، فالثورة المعدنية الهامة تستدعى ثروة قديمة لكى تكون وتوجد ، كما أن شدة القدم والتآكل تجعل التعدين يتم على أعماق أقل وبذا يكون أيسر وأكثر اقتصادية .

أما اذا اتقلنا الى التلال (٣٣) (٥٠٠ - ٢٠٠٠ قدما) فان من الواضح أنها تقع في مرتبة وسط بين النهل والجبل من حيث السكنى البشرية . وتتوقف هذه المرتبة بالدقة على نوع التعرية وعلى موقع التل من دورة التعرية . ففى التعرية النهرية فى أوائل مراحل الدورة والتضج ومرحلة Submature dissection تستل المنطقة التلية على بعض مساحات مرتفعة مسطحة كالهضاب . فتمتكن للسكنى . ولو أنها تكون عادة منفصلة عن بعضها البعض وعن الأقاليم المجاورة بأودية شديدة الانحدار . ففى القطاع الغربى الأكثر انخفاضا من اقليم تلال الليجنى - كبرلند توجد الطرق والمزارع والقرى على المرتفعات وتقتصر فائدة الأودية التى تبدو كالخنادق على اتخاذها مسالك للسكك الحديدية فقط . وفى المرحلة التالية من الدورة تمتاز المناطق التلية بالأودية العريضة المفتوحة والانحدارات اللطيفة ما يقدم ميزات كبيرة للزراعة ، فتحتل الأودية المزارع ، والتلال المستديرة الملقوفة المراعى ، أما المنحدرات الشديدة فتترك تحت الغابات . وأخيرا فى المناطق التلية الناضجة التقطع لا نجدها تصلح للزراعة نظرا لقلة المساحة القابلة للزراعة حيث أن كلا من القيعان bottomlands والبيطوح المستوية على السواء تكاد أن تنعدم بينما يشتد الانحدار فى الجوانب (٣٣) . أما فى حالة التعرية الجليدية فنجد أن معظم المناطق التلية الرئيسية اتى عراها

الجليد يحدث أن تتفق في موقعها مع مناطق الصخور البلورية القديمة . هذا نجده في الأجزاء العليا من الكتلة الكندية وفي جبال الأديرونداك وأجزاء من نيوانجلند ومرتفعات اسكتلندة Highlands ومرتفعات اسكتلندة .
فهنا تكون التلال مستديرة ملفوفة عارية وليس لها قيمة زراعية البتة . ولكن الى الجنوب من هذا النطاق تعدى الجليد الصخور انبلورية الى الصخور الرسوبية أو المناطق التي تشمل كثيرا من الصخور الرسوبية . ولذلك فإن اتلال ليست عارية من الرجوليث والهشيم life بنفس الدرجة في مناطق الصخور البلورية ؛ مما يكسبها تربة أغنى للزراعة . مثل هذا نجده في تلال الپين وجبال جرين في فرمونت وتلال جنوب نيويورك (٢٤) . هذا كله عن علاقة الارتفاع بدرجاته المترتبة بالسكنى والعمران .

أما عن الانحدار فهو يبدو واضحا في قطاع الجبل في اللاندسكيپ . وهو أقرب الى فكرة الوعورة والتضرس ruggedness من عنصر الارتفاع . فهناك سهول مرتفعة ولكنها ليست وعرة مضرمة . وربما كانت العلاقة المكسية بين الكثافة والتضرس أقوى منها بين الكثافة والارتفاع (٢٥) . وكلما كانت كتلة الجبل أكبر كلما كان الانحدار ألطف ، وحينئذ تكون الطرق أسهل والقرى أعلى (٢٦) . والانحدار يفرق في الكثافة بين الجبال المختلفة أو بين السفوح المختلفة للجبل الواحد . فتمثل الحالة الأولى في الجبال البركانية الستيرية المخروط .
فنوع هواى Hawaiian type شديد التدرج جدا (مونا لوا Mauna Loa من أهم جبال جزر هواى البركانية ، ارتفاعه من قاع المحيط ٣٠ ألف قدم وقطره عند مستوى سطح البحر ١٠٠ ميل) . ولذا تسهل السكنى وترتفع الكثافة وتزحف على الجزء الأكبر من هذا المخروط . وعلى النقيض من هذا نوع Puyس الذى يبدو كمسلة عمودية بركانية Mt. Pelée — وتختفى منه السكنى . هذا والنوع الأول تشكل هكذا لأن الالفا الذى تكون منها تتألف من صخور ومعادن قاعدية basic تظل سائلة حتى قُطت تجدها دون أن تصبح غروية viscous ولذا تنساب لمسافات طويلة في انحدار لطيف شبه أفقى . أما النوع الثانى فعلى المكسر يتكون من لافا تتألف

Ibid, pp. 428-30.

Stamp. p 83.

Peattie, p. 418.

(٢٤)

(٢٥)

(٢٦)

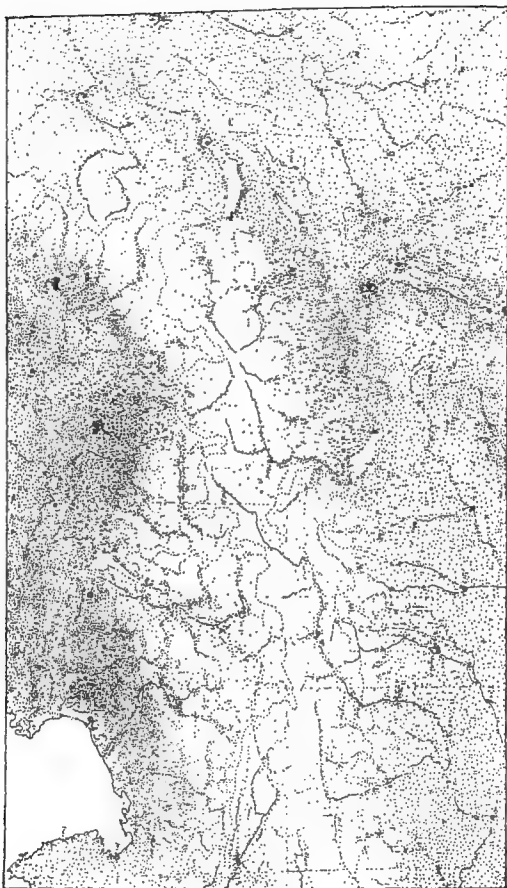
من معادن حامضية acidic تحول الى الغروية بسرعة اذ تبرد ،
ولذا تجمد حول الفوهة على شكل عمودى قائم . ومعظم يراكين العالم هى من
النوع الثانى الحامضى الشديد الانحدار ، ولكن رغم أنها أشد انحدارا من
النوع الأول ، الا أن بعضا منها يتكون غالبا من مواد رمادية ashy دقيقة
تذروها الرياح سريعا فيكون المخروط عريضا منخفضا (٢٧) . هذا بين الجبال
المختلفة .

ولكن الانحدار عامل تفرقة هام بين سفوح الجبل الواحد . فيندر
أن يكون قطاع الجبل مستريا . ولهذا كان الجبل عادة حكما متحيزا من وجهة
نظر الحركة والتوجيه والتوطن البشرى (٢٨) . فالسفح المتحدر بشدة يكون
أقل جاذبية وامكانية للسكان من السفح الأطول المتدرج (٢٨) . وفى حركة
عبور السلسلة الجبلية تكون الأفضلية للقادم من ناحية السفح المتدرج وتكاد
تعدر تماما على القادم من ناحية السفح المتحدر ، ومعنى هذا أن الأول يصبح
محطة ارسال ، والثانى محطة استقبال . ولهذا نجد أن سكان السفح المتدرج
تطنى على السفح المتحدر وتغزوه وخاصة على طول الأدوية أو المرات العرضية
كما فى حوض التيسينو على السفوح الجنوبية المتحدرة للألب : فقد استمد
كثافته من الشمال السويسرى لا الجنوب الايطالى (٢٨) . ويلاحظ أنه — فيما
عدا الجبال التى تقوم على سهل مستمر على الجانبين Inselberge — يرتبط
تحديد السفح المتدرج عادة بوجود هضبة تجاهه ، والسفح المتحدر بوجود سهل
منخفض تجاهه — كما فى الألب بين هضاب جنوب ألمانيا ووسط فرنسا وبين
حوض الپو ، وكما فى الهملايا بين التبت وحوض الجنج — السند . وفى هذه
الحالة تجتمع جاذبية السهل وطرده الهضبة مع سهولة الحركة على السفح المتدرج
من ناحية الهضبة ، ولذلك تكون مثل هذه الجبال محصورة بين كثافة أعلى
ناحية السفح المنحدر وكثافة أقل نسبيا ناحية السفح المتدرج ، كما أن هذا
الوضع يتأكد ويتبلور نظر الان ناحية السفح المتدرج — محطة الارسال — تفرغ
السكان باطراد ، فكثافتها منقوصة ، بينما ناحية السفح المنحدر — محطة
الاستقبال — تكثدس وتكثف باطراد ، فكثافتها مضاعفة (شكل ٢) .

Wooldridge, S.W. and Morgan, R.S., Physical Basis of Geog., 1987, (٢٧)
and Finch and Trewartha, pp. 269, 434. (٢٨)
Semple, pp. 512-3.

(من بعد خروج)

شكل ٢ - كثافة السكان في الالب



٣ - رأينا أن التضاريس لا تمثل عقبات سكنية فحسب ، وإنما هناك علاقة طردية وثيقة بين الطرفين . ولا تخرج طبيعة الأودية الجبلية (٢٩) عن أن تكون مظهرا من مظاهر هذه العلاقة . فإذا كانت الجبال في مجموعها تمثل في الاقليم جزرا سكانية مخلخلة ، فإن الأودية في الجبال تمثل واحات سكانية كثيفة نسبيا . كما أنها توجه وتقتل حركات السكان وبذا تعدد مناطق الاحتشاد وانتكاث عند نهاياتها في السهول . ويصر يرون على فكرة أثرية عنده وهي فكرة النطاء البشرى في الجبل كمنثور من « الواحات » المنفصلة عن بعضها البعض تماما ، ويشبهها بالواحة البشرية في فجوة الغابة وجزيرة البحر وواحة الصحراء (٣٠) . فالأودية همزة الوصل بين السهول والجبال لا في المعنى الفيزيقي فقط وإنما أيضا في المعنى السكاني . والأودية الجبلية خير مثال لأثر التضاريس المحلية Local Relief على السكاني . فالعمران والمساكن تتجاذب وتتظم على طول الأودية الجبلية « كبرادة الحديد على القضيب المغنطيسي » ، حتى لتأخذ أشكال السكاني في الحلة الواحدة أو في مجموع حالات الوادى نمطا خطيا شريطيا من صفيين وربسا صف واحد : *Etalissements en Espaliera* (٣١) . فتتخذ السكاني في الجبال نمط شبكة الأودية فيها الى حد بعيد ، وهذه تتأثر بدورها بنمط البنية غالبا (٣٢) .

ففى المناطق التالية التى تكونت عن تعرية الأنهار لهضبة سابقة مسطحة أفقية الطبقات نجد أن النظام النهري والوادى نظام شجرى *dendritic* أى تدرج الأنهار والأودية فى الحجم والعمق والاتساع باطراد من المسائل الى الجذع نظرا لتجانس الأساس الصخرى والطبقي ، ونجد أن نمط السكاني والسكان شجرى أيضا تدرج فيه الكثافة والعدد باطراد فى هيرارشية شجرية واضحة ، فتكسب القرى والمزارع والطرق فى الأودية الأولية ، وتخف نوعا فى الأودية الثانوية ، ثم تندر أو تتحدد الحالات فى أنماط خطية صارمة فى المسائل . الخ . مثل هذا واضح فى منطقة تلال الليجنى - كمبرلند فى الأيلاش ، وفى أوزارك وبوسطن ، والتلال التى نحف بجبال دراكنزبرج ، وكثير من هضبة الدكن ، وجنوب ألمانيا .

Ibid., pp. ٤٨٨-٤.

Brunhes, p. ١٦٥.

Ibid.

Finch and Trewartha, pp. 417-٢٣.

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢)

أما في المناطق التلية والجبلية الالتوائية فقد يأخذ التصريف نمطا بسيطا جدا : Ridge-and-Valley Pattern يتناوب فيه الوادى مع الحافة بصورة تتفق مع تناوب وتوازى المحذب والمقعر ، ومن أحسن الأمثلة جبال الجورا حيث المحور العام شمالي شرقي - جنوبي غربي وحيث نجد أن مزارع وطرق وتربى الاقليم كله تركز في الأودية فقط رغم أنها ليست عظيمة الجودة . ومن الأمثلة وادى الأيلاش العظيم ، فلو أخذنا قطاعا عرضيا في مجموعة الأيلاش لوجدنا حافة غاية تعمقها حافة غائية ، وبينهما أودية تختص بالحقول ورقع المزارع والطرق والقرى ، تتعاقب معها على الترتيب والتوالى .

وقد يأخذ نمط التصريف في التلال والجبال الالتوائية صورة مركبة نسبيا هي صورة التكمعية المستطيلة Gridiron ، Trellis نتيجة لوجود أنهار طولية على طول المقعرات تصل بها أنهار عرضية تجري عبر نواة الالتواء "across the grain" ، فيكون نبط السكنى بالمثل كالتكمعية . هذا نجده في جبال الأيلاش وفي القطاع الأوسط من جبال زاغروس في إيران .

ما هي اذن ميزات الوادى الجبلى العمرانية ؟ أيضا ميكانيكية ، طبيعية ، وحيوية . فالميكانيكية لأنها تمثل خطوط المقاومة الدنيا بما يجعل الوادى توا مرادفا للممر بالنسبة للعالم الخارجى و « للشوارع » بالنسبة للجبل . كذلك تعمل الأودية كخطوط العبور والترازيت عبر الجبال ، والواقع أن مدى قيام الجبل كمعبة يتوقف على مدى تغلغله بالأودية أكثر منه على الارتفاع المطلق كما يدل بيلاغة الفارق التاريخى الهائل بين الألب والبرانس . وكثيرا ما يتفاوت الانحدار بين أجزاء الوادى الواحد ، فعلى جانب الوادى حيث تبرز تسوءات outcrops من التكوينات الأصلب والأكثر مقاومة للتغرية يقوم قطاع شديد التحدر طارد للسكنى ، بينما توجد عند التكوينات اللينة التى تترى بسهولة رفوف benches كالمتبات ledges لطيفة الانحدار أو كالمدرجات . مثل هذه الرفوف تمكن للاستغلال الزراعى لجوانب الوادى حيث كان يسمنه الانحدار انعام (٣٣) . وثمة مظهر آخر من ميزات الوادى الميكانيكية يتمثل في المناطق

الجليدية والثلاجات ، فالأودية المعلقة ١٠ Hanging بطبيعتها الثلالية تمثل
بلا ريب أفضل وأبصر النقط لاستثمار القوى المائية (٣٤) .

أما عن ميزات الأودية الطبيعية فلأنها أكثر انخفاضا بالضرورة من مستوى
الجبـل ولذلك يكون مناخها أقل قسوة وبرودة ، لاسيما لأنها محمية وبنتأى
عادة عن مستوى الثلوج . كذلك هى تمثل خطوط الصرف وبالتالي تتوفر فيها
المياه للشرب والزراعة ، كما تتكـدس فى قيعانها التربة المنقولة والمجروفة التى
تهـدلت من المرتفعات المحيطة وتخـرها السفوح فتكسبها الأودية ، وبذا تتواجد
فيها عناصر ومقومات الاستقرار الزراعى لا سيما بفضل المدرجات والمصاطب
الجليدية — تلك التـبـات المهددة المدودة الصالحة للاستثمار فى السلاسل
الشمالية . كذلك الأودية تقرب الى الثروة المعدنية فى باطن الجبل لأنها — ردى
خدوش الطبيعة على وجهه — بمثابة الدهليز أو السرداب الأول للنجم shaft.

أما عن الميزات الحيوية أخيرا فهى ترتب على الميزات السابقة . فمناطق
الأودية الجبلية عامة فقيرة الموارد . ولكن افادتها من تجارة المرور سنواء بالجزية
أو بالسلب تزيد امكانياتها وقدرتها على التحمل بالسكان (٣٥) . ثم هناك
الامكانيات المحلية الزراعية الكثيفة اذ يوفر كل القطاع الحامل للتربة للزراعة ،
بينما تقام المساكن خارجه مباشرة على الصخور الجرداء ، وليس هذا اقتصادا
للتربة المنقولة فحسب بل فيه حماية للمساكن من أخطار تضخم المياه فى قاع
الوادي عند ذوبان الثلوج .

على أن أهمية الأودية من حيث السكنى تتفاوت بحسب بنية المرتفعات التى
تمتد عليها . فالجبال الالتوائية تمتاز عادة بالأودية الطويلة longitudinal
بينما الهضاب المقطعة تمتاز غالبا بالأودية العرضية transversal التى تؤدى من
القلب الهيدرولوجى الى حافة المرتفعات . فالأودية الطويلة عادة طويلة عريضة
مستوية القاع . أما الأودية العرضية فضيقة فى أغلب الأحيان وسفوحها شديدة
الانحدار قد ترقى مباشرة من حواف النهر . ولهذا كانت الأودية الطويلة أعظم
أهمية من الناحية البشرية — فى توجيه الحركة التاريخية ، وفى تكـدس القرى

والمدين أى فى تحديد كثافة السكان • ومن أمثلة الأودية الطولية الرون الأعلى، Hinter Rhine والآن والانجادين، والايزير والأورنط والليطانى أى وادى النابـ انبعاث ، ووادى الأيلاش العظيم (٣٦) • ومن أمثلة الأودية العرضية أودية جبال انكريات، ولذا كانت أودية الألب أكثف سكانا من أودية الكريبات (٣٧) • ويلاحظ أن اتجاه محور السلسلة الالتوائية التى يقع عليها الوادى له أثر فى تحديد أهميته : فإذا كان المحور شماليا جنوبيا كما فى السكوردبيريا الأمريكية وقعت الأودية الطولية بين الجبلية intermontane فى ظل المطر وقلت كثافتها ، بينما قد تستفيد الأودية العرضية - ولكن فقط تلك الواقعة على السفوح المواجهة لمصدر الرطوبة • أما إذا كان المحور شرقيا غربيا كما فى أوراسيا فانه يؤدى الى تحييد neutralize عامل المطر تاركا عامل البنية العامل المسيطر master factor.

على أن أهمية الوادى - سواء الطولى أو العرضى - من حيث السكنى تفاوتت من السفح الى السفح الآخر بحسب توجيه orientation الوادى بالنسبة للإشعاع الشمسى ، وهذا ما يعرف « بالوجهة Aspect » • ولما كانت الشمس أهم عنصر فى الجغرافيا البشرية للجبل ، فان تحديد السطح والوجهة لتوزيعها يوضح تماما كيف أن الطبوغرافيا المحلية أساس فى الجغرافيا البشرية للجبل (٣٨) (شكل ٣) •



شكل ٣ - « الوجهة » فى الأودية الجبلية (من سوديريا)

والتفرقة بين سفوح الأودية بحسب الوجهة مسألة جوهرية جدا فى حياة الجبلين الى درجة أن كل المناطق الجبلية فى أوروبا تدركها تمام الإدراك وتكاد كل لهجة محلبة تعرف هذا ، بل ان القرى قد تسمى أحيانا بحسب هذه

Sampe, pp. 532-5.
Houston, p. 223.
Pearnie, pp. 417, 423

(٣٦)
(٣٧)
(٣٨)

الفرقة . فالسفوح المواجهة للشمس ، وهى التى تطل نحو الجنوب تقريبا في نصف الكرة الشمالى ، هى السفوح المشمسة : باللاتينية *ad directum* ؛ بالفرنسية *adret* ، *l'endroit* ، *adra* ، فى فيمورج ؛ وبالإيطالية *adretto* ، وبالألمانية *Sonnenseite* ، *Sonnenberg* ؛ وبالكاتالانية *sola* ، *indritto* ... *soula* ، *solana* . هذه هى السفوح المشمسة وهى مشمسة لسببين : طول مدة سطوع الشمس ، وقوة الاشعاع الشمسى نظرا لوقوع الأشعة عليها قريبة من العمودية ، لا سيما مع ميل مستوى السطح نفسه . ولا ننس أن السفوح الشمالية للوادي هى فى السفوح الجنوبية لكتل الجبل ، فهو فى ظهرها يحميها من الرياح الشمالية القاسية .

أما السفوح المجاورة للشمس ، وهى التى تغطي ظهرها لخط الاستواء ، وبذلك تطل نحو القطب تقريبا في نصف الكرة الشمالى ، ولذلك فهى السفوح الظليلة : باللاتينية *ad opacum* ، بالفرنسية *ubac* ، *l'envers* ؛ وبالإيطالية *opaco* ، *inverso* ؛ وبالألمانية *Schattenseite* ، *Schattenberg* ؛ وعند الكاتالان *umbaga* ، *baga* ، *ubach* ^(٣٩) . وهى ظليلة لمكس الأسباب السابقة تماما . ولهذا نجد أن السفوح المشمسة تصل فيها الزراعة والسكنى والكثافة الى درجة أعلى وارتفاع أكبر بكثير منه على السفوح الظليلة ، وفصل الانبات فى الأولى أطول والنضج أسرع وموسم الصقيع أقصر وخط الثلج الدائم أعلى . أما السفوح الظليلة فقد ترك على غاباتها البكر دون تدمير أو سكنى . وغالبا يقتصر استغلال السطح الظليل على المراعى ، لا سيما أن الظل يعنى بخرا أقل مما على السطح المشمس وبالتالى عشا غضا ، هبذا ينبا لا يكفى الاشعاع مدة وحدة لنضج الزراعة . أما الحبوب والكروم فتحتل السطح المشمس - مقابل الغابات والأعشاب على السطح الظليل . وفى حدود كتورات ١٣٥٠ ، ١٦٥٠ مترا وجدت جارت أن الأرض التى تستقبل أقل من ٥٠٪ من قوة الاشعاع ترك للغابات ، ولكنها تستغل كمرعى اذا تلقت ٥٠-٧٠٪ ، وتحول الى الحبوب والجذريات

Penttie, pp. 423 et seq. : Houston, 223, 243, 249 ; Sondrillat, I. M., Géog. (٢٩) Agricole de la France. Coll. Que Sais-Je ?, 1960, pp. 18-9.

إذا زادت عن ٧٠٪، ولا يظهر الصبح إلا إذا وصلت إلى ٩٠٪/٤٠) • فكل المنزlia للسفح الشمس، والمثالب للظليل • بل إن السفح الشمس قد يكون أفضل من مجرى الوادى نفسه Thalweg لا فى الاشعاع فقط ولكن فى عدم تجمع الصرف الهوائى البارد فيه ليلا وفى عدم تعرضه للفيضانات التجافية (٤١) • لكل هذا فإن السواد الأعظم من مجموع السكان فى الوادى يتركز — بكل ما معنى من غطاء حضارى، من طرق ومواصلات وحلات وزراعة... — فى السفح الشمس • ومن المستحيل حصر الأمثلة على هذا كله : فكل دراسة اقليمية لجبل هى مثال • وسنكتفى هنا بعدة نماذج • فإذا وجدت أمثلة مضادة فهذا لأن الضوابط الطبيعية الأخرى قد تضعف أو تبنى عامل الوجهة محليا أو مؤقتا • فمثلا قد تكون المواصلات أفضل على الجانب الظليل بسبب التضاريس فتزيد به القرى عنها فى الجانب الشمس • ومثلا فى سيراينفادا تصل القرى إلى كتور ١٢٠٠ مترا مترا على السفوح الشمالية الظليلة بينما لا تعدو كتور ٩٠٠ مترا على السفوح الجنوبية المشمسة، ولكن هذا الشذوذ يرجع إلى صخور الكتلة الجرافيتية الجدداء (٤٢) • ولا تنس عاملا آخر يفرق بين السفحين فى الأهمية العمرانية، وهو عامل الانحدار، ويبدو بوضوح فى الأودية الطولية فقط • فكثير من الأودية الطولية تختطها أنهار تسيل إلى أن تحرك أوديتها وتنقلها إلى أسفل على جانب الطبقات المائلة sidewise عن طريق التآكل الجذرى undercutting فينتج عن هذا حافة كالكوستا وواد ذو حائط شديد الانحدار وآخر لطيف الميل • وعادة ينمكس اختلاف درجتى الانحدار فى اختلاف مظاهر الاستغلال والسكنى البشرية اختلافا كبيرا بين السفحين (٤٣) • ومن الواضح أن هذه التفرقة قد تختلف وقد تألف، تتأفر أو تتضافر، مع التفرقة التى تنشأ عن الوجهة والاشعاع الشمسى، أى أن هذا قد يبنى أحيانا بسبب الانحدار المضاد • ولكن فيما عدا هذه الحالات الشاذة المحببة :

Garnett, Alice, "Insolation, Topography and Settlement in the Alps", (٤٠)
Geog. Rev., vol. XXV No. 1, Oct., 1935, p. 611

Peattie. (٤١)

Peattie, p. 421; Taylor, G., Urban Geog. Lond., 1949, pp. 259 ff. (٤٢)

Finch etc, p. 441 and Garnett, 606. (٤٣)

ففاعلية الوجهة عالية في كل الجبال الشمالية الباردة ، وقيمة الشمس البشرية أساس في السكنى . فالقاعدة الأصولية أن الحالات تتحاشى بقدر الامكان ، أو تقع على حافة ، « منطقة ظل الظهر noonday shadowarea » ^(٤٤) ، وأن السكنى أعلى على السفح الشمس منها على الظليل كثيرا .

ويمكننا أن نرى اختلال ميزان توزيع السكان على جانبي الوادى في سويسرة حيث يعلو مستوى السكنى في السفوح المشمسة بحوالى ٢٣٠ قدما عنه في السفوح الظليلة . وفي وادى الرون الأعلى في Haut-Valais يتركز ٨٦٪ من السكان في السفوح المشمسة ، وفي Höhe Tauern تصل النسبة الى ٩٠٪ ، وفي Queyras في فرنسا حيث تصل السكنى الى ٢٠٠٠ متر تصل النسبة الى ٩٠٪ . فالوجهة ضابط أساسى في توزيع السكان في الوادى الجبلى ^(٤٥) . ولكن أكثر من هذا تؤثر الوجهة كذلك على الجغرافيا الاجتماعية البحتة للغطاء البشرى : فالسفوح المشمسة دائما أعلى في قيم الأرض وأعلى في قيم الايجار من السفوح الظليلة ، ولهذا تجنح الاولى الى الارتباط بالطبقات الغنية والثانية بالطبقات الفقيرة - نظام طبقات بحسب الشمس ، أو « أرستقراطية الشمس Aristocratie du Soleil » كما يسميها البعض ^(٤٦) !! هكذا ليس ثمة مثال أقوى لأثر السطح المحلى local relief على المناخ المحلى microclimate ولهذا بدوره على السكنى والعمران .

ثانيا - كثافة السكان داخل المرتفعات

١ - كما أن الجبل « تضاعف » في خطوط الارتفاع والحرارة والمطر والنباتات compressed isopleths فانه كذلك منطقة تضاعف من الوجهة البشرية والسكانية . فاذا كانت السلاسل الكبرى « تختزل » قارات برمتها من الجنوب الى الشمال ، فانها أيضا تجمع بين أعلى الكثافات وأقلها :

"... every degree of density from congestion to vacancy."^(٤٧)

Garnett, p. 607.

Brunhes and Houston

Brunhes, p. 161.

Sample, p. 558.

(٤٤)

(٤٥)

(٤٦)

(٤٧)

ومرجع ذلك أنه في الجبل الواحد كلما زاد الارتفاع كلما زادت عقبات التضاريس وبالتالي كلما قلت كثافة السكان — أى أن الكثافة تناسب عكسيا مع الكثتور . ويأخذ الانتثار السكانى فى هرم الجبل شكلا هرميا مترابيا . أو نمطا عنقوديا وهيراركية تنازلية كلما صعدنا (١٨) . وعلى هذا فإن نطاقات السكنى والكثافة فى الجبل هى أساسا نطاقات ارتفاعية vertical, altimetric zonation . ويمكن أن نميز منها ثلاث طباق tiers — القمة والسفح والحفيض .

فأما القمة فهى نطاق الثلج الدائم الذى يعلو خط الثلج الدائم ، والذى يتفاوت ارتفاعه بحسب خط العرض ، فيرتفع فى المدارين ويقرب من سطح البحر ناحية القطب ؛ وبحسب المطر فاذا تساوت الحرارة كان منخفضا حيث المطر غزير ومرتفعا حيث يقل ؛ وبحسب الاشعاع فهو مرتفع على السفوح المعرضة لاشعاع الشمس ومنخفض على السفوح المجاورة له . والنتيجة العامة أن مستوى خط الثلج الدائم عند المدارين يتراوح بين ٢٠ ، ١٤ ألف قدم ، وفى العروض الوسطى بين ١٠ ، ٥ آلاف قدم ، وعلى هوامش المنطقة القطبية بين ٢٠٠٠ قدم ووسطح البحر (١٩) . ومعنى هذا أنه قد يتداخل فى تحديد السكنى فى العروض المدارية ودون القطبية ، بينما يندر هذا فى العروض الوسطى . وعلى العموم فإن القمة كنطاق تخرج توا من المصور الى الاعمور .

أما السفح (٢٠) فهو النطاق الذى يتلو خط الثلج الدائم ويعلو حدود الحفيض . ولكن السكنى لا تنتشر فى جميع أجزائه الا حين تصل السكنى الى الحد الأعلى الفيزيولوجى كما فى الانديز وبعض جبال آسيا حيث يصل الى ١٥ ألف قدم . على أن هذا أمر نادر . كذلك قد لا يكون لخط الأشجار tree-line دلالة سكنية هامة وذلك اذا لم تصل السكنى الى الحد المناخى الكافى كما فى أوروبا . ومن هنا لم يكن من الضروري أن يترادف خط الشجر وحد

Smailes, A. E., Geog. of Towns, Lond., 1958, p. 55

(١٨)

Finch, etc., p. 416

(١٩)

Houston, p. 220.3.

(٢٠)

الغابات. forest limit . وعموما يتحكم ارتفاع القمم المطلق في ارتفاع حد الغابات - كما يلي - بالأقدام :

حد الغابات	متوسط الارتفاع
٦٥٠٠ - ٨٦٥٠	٨٠٠ ١٢
٣٠٠٠	١٦٠ ٤

فهذا الفارق يؤثر في حدود السكنى البشرية . ولقد وجد فليكجر Flückiger في دراسته التفصيلية للألب السويسرية - ذلك المتحف الطبوغرافي الحي للجغرافيا البشرية (٥١) - أن حدود السكنى تقع عادة تحت خط الغابات بحوالى ٣٠٠٠ قدم ، وتحت خط الثلج الدائم بحوالى ٢٥٠٠ - ٢٨٠٠ قدم . وعموما فكلما زاد المطر انخفض خط الثلج الدائم وحد الغابات وكلما قل ارتفاعه ، ومن هنا يتوقف اتساع الأعشاب الألبية .alp .mayen على كمية المطر (٥٢) . على أن من الواضح أن خضوع النباتات لمركب من العوامل الأولية يجعلها أساسا ثانويا . أن لم يكن أقبل بحيث لا تحسن التعميمات . بل أن نوربرت كريس يشك فيما إذا كان للمناطق النباتية دلالة هامة كفكرة نظرا لكثرة الفروق المحلية . على أن مشكلة تحديد الجد الأعلى للسكنى على الجبل تنقد أكثر إذا ما فرقنا بين السكنى الدائمة والسكنى المؤقتة ، فإن بينهما منطقة متذبذبة تأرجح من موسم إلى موسم - الترانس هيومانس - من عام إلى عام بل ومن فترة تاريخية إلى فترة أخرى . فنسبة كبيرة من سكنى الجبال ليست استقرارا بقدر ما هي ترحل nomadism - ترحل راسى أو جلى ؛ ليست settlement ولكن occupance (٥٣) . ففى الترويج مثلا يأتي ثلث مجموع محاصيل العلف الحيوانى fodder crops من مراعى الستير Saeter أى مراعى الصيف . وفى سويسرا قدر فالزر Walsen أن نصف المساحة الكلية مسكونة سكنى دائمة (٥٤ ٪) ، وأن ربما آخر يسكن موسميا فقط (٢٤٫٢ ٪) . بل أن نسبة المساحة المسكونة

Brunhes, p. 168.

James, Preston E., A Geog. of Man, Boston, 1949; An Outline of Geog.

James, Preston E., "Terminology of Regional Description". A.A.A.G., June 1934, p. 81.

موسميا فقط قد تتراوح محليا بين ٣٢٢/ كما في غاليه ، ٦١٦/ كما في سارين Gummennen ، Sarine . وعلى هذا فإن حد السكنى الأعلى ليس خطأ على الإطلاق ، وإنما هو- منطقة مذبذبة يطلق عليها الجغرافيون الفرنسيون من تخصصوا في مدرسة جرينوبل ودراسات الألب والرون Etudes Rhodaniennes في جغرافية الجبل ، يطلقون عليها اسم « سقف السكنى plafond » . ومن أهم أسباب تذبذب هذه المنطقة أنها منطقة صراع Zone of Strife بحيث سماها رانزل Kampfssaum . وهذا الصراع يقوم بين الضوابط الطبيعية من ناحية والقوى الاقتصادية والاجتماعية من ناحية أخرى . وقد كانت نتيجة هذا الصراع تناقص سكان الجبال وارتبط بهذا انخفاض حد السكنى الأعلى . ورغم أن السقف لم يكن قط ثابتا في يوم ما كما توحى أدلة العصور الوسطى في الألب الفرنسية إلا أن حركة تهاوى هذا الحد اشتدت منذ منتصف القرن ١٩ خاصة فأصبحت الحالات العليا الدائمة مؤقتة ، بينما هجرت المؤقتة كلية . وقد ارتبط بهذا التناقص في السكان والانخفاض في السكنى انخفاض حدود الجيوب في الألب والكروم في البرانس والاپنين . فإذا أضفنا العوامل المحلية البحتة كالتهرض للرياح . أو الثلوج أو الهيارات الجليدية أو الفيضانات ، انضحت ديناميكية الحدود العليا للسكنى . وقد يكون للتضاريس أثر واضح صارم على هذه الحدود . فحيث أن توزيع السكان يتبع عادة الأودية ، فإن حد السكنى الدائمة يتوقف على درجة ارتفاع الوادى فوق سطح البحر . فمثلا في مقدم الألب الفرنسية foreland يبلغ هذا الحد ارتفاع ٢٥٠٠ قدم فقط ، بينما في الألب الوسطى في سافوا ودوفينه حيث الأودية أعلى يبلغ ارتفاع ٥٢٠٠ قدم بل يصل الى ٥٩٠٠ في الألب النسوية . أما أثر المناخ فعام بدرجة أكبر ولذا فهو أقل صرامة ووضوحا في التفصيلات . وقد يبدو أن التقدم نحو الجنوب يصحبه زيادة في كثافة السكنى في الجبال ، ومع ذلك فإن السيرات الاسبانية والبرتغالية قليلة السكان جدا ولا يرضع سقف السكنى فيها كثيرا (٥٤) . وعلى العوم فإن مافوق حد السكى الدائمة في أغلب الجبال هو من قلب الجبل الحقيقي وفيه تصبح السكى قاصرة على « سكان الطوارىء »

Emergency « مثل حراس الطرق والغابات ورجال الانقاذ والدين وكلاب
الانقاذ ... الخ (٥٥) »

ويمكننا أن نستعرض أثر اجتماع خط العرض وخط الكنتور على حد
السكنى الدائمة فى المجموعات الآتية (٥٦) :

ملاحظات	بالأقدام	المنطقة
		اسكنناوه :

١٦٠٠	لايلاند
------	---------

١٩٠٠	الترويج (متوسط)
------	-------------------

٣٠٠٠	Dalecarlia
------	------------

٥٥٠٠ — ٣٨٠٠	Storefjelds (جنوب الترويج)
-------------	------------------------------

ايريا :

٣٣٠٠ أندورا أعلى حلة فى ايريا	جبال ايريا (البرانس)
-------------------------------	------------------------

٤٥٠٠	السيرات الوسطى
------	----------------

٤٨٠٠ — ١٧٥٠ Trévez	سيرافادا
--------------------	----------

Alpujarro

الأعلى بعد أندورا :

بالأقدام	شمال أوروبا :
----------	---------------

٤٠٠	شمال الجزر البريطانية
-----	-----------------------

٦٠٠	جنوب الترويج — السفوح الغربية المحيطة
-----	---------------------------------------

١٠٠٠	جنوب الترويج — السفوح الشرقية المشمسة
------	---------------------------------------

وسط أوروبا :

١٠٠٠ — ٨٠٠	مقدم الألب الشمالى (متوسط)
------------	------------------------------

١٦٠٠ — ١٤٠٠	مقدم الألب الشمالى (حد أقصى)
-------------	--------------------------------

١٨٠٠	الألب النمساوية
------	-----------------

١٠٧٠	التيرول (متوسط)
------	-------------------

١٩٢٧	التيرول (حد أقصى)
------	---------------------

٢٠٠٠	أعلى قرى الألب
------	----------------

Sample, p. 649,

Houston, loc. cit. and Beaujeu-Garnier, p. 130.

(٥٥)

(٥٦)

الخصيف . أو أقدام الجبل - الپيدمونت piedmont . أو متقدم الجبل
 avant-pays montagnard . premontagne , avant-mont , alpine foreland
 إذا كان الجبل يمثل منطقة انتقال من حيث السكان ، فإن الپيدمونت يمثل منطقة
 الانتقال وحلقة الاتصال بين السهل والجبل - معاً في المعنى الطبيعي والمعنى
 الايكومينى . فالپيدمونت عادة أقل كثافة من السهل ودائماً أكثر من الجبل
 كما يبدو جلياً في شرق أوروبا . فهو أكثر نطاقات الجبل سكاناً تحقيقاً للتناسب
 انعكسى بين الكثور والكثافة . والپيدمونت بطبيعته منطقة تدرج وتليد في
 التضاريس ، ومن هنا قيمته البشرية الخاصة : فالأرض ككل تدين بكثير من
 قابليتها للسكنى *habitability* بهذه المنحدرات التدريجية الطويلة . بل أن المناطق
 والتارات التي تخلو منها تعاني من ذلك النقص الذي يمد عليها قطعة ضعف -
 مثل سواحل جنوب افريقيا وشرق استراليا ، بينما على النقيض من ذلك
 الواجهة الاپلاشية بهضبتها المثالية پيدمونت التي تعد بحق اسماً على مسمى .
 والأسباب التي تجعل من الپيدمونت قاعدة الجبل سكانياً كما هو طبيعياً
 ترجع الى أن قوة الجاذبية تطأ كل ما تواضع من سطح الأرض : فها سهولة
 التضاريس المتدرجة ، وتكدس التربة المتهذلة والمنهارة ، وتكون المراوح
 الفيضية *cônes de dejection* ، *alluvial fans* وتفرعها في جميع الجهات ، وهنا
 تعدل المناخ تمعدلاً جوهرياً للانخفاض ، وهنا مجمع الثروة الهيدرولوجية
 والهيدروليكية للجبل جميعه حيث تصب كل الروافد ومخارج الأنهار وحيث
 يسهل ضبط المياه أكثر منه في أى نقطة أخرى من المجرى بدرجة جعلت الاسبان
 في المكسيك يطلقون على مخرج النهر من الكوردييرا اسم « فم الماء *Boca del*
Agua » وحيث تنبجس المياه الباطنية المتجمعة من ذوب الثلوج أو المياه الهاربة
 تحت مكدسات الرمال والحصى على شكل ينابيع وعيون طبيعية *Fontanili*
 أو آبار اصطناعية (٥٧) ، وهنا الموضع الطبيعي لضبط واستغلال القوة المائية
 في شكل شلالات ومساقط لتوليد الكهرباء والقوة المحركة وخاصة في الجبال
 الحديثة والجليدية ، وهنا يتركز تعددين معظم الثروة المعدنية الجبلية وخاصة

(٥٧) La Blache, P.V., *Principles of Hum. Geog.* Lond., 1926, p. 85.
 قد يؤدي تجدد نشاط التعرية في مراوح الپيدمونت الفيضية الى تكوينها على
 شكل سلم من المدرجات. وهنا يصبح للمدرجات قيمة بشرية كبيرة في توزيع القرى
 والظروف والزراعة لارتفاعها عن مستوى الفيضان في السهل المحيط . راجع
 de Martonne, M., *A Shorter Physical Geog.* Lond., 1946, pp. 157-8.

في الجبال القديمة ؛ وما قد يترب عليها مخليا من صناعة ثقيلة أو خفيفة ، وهنا تتركز الأهمية الأسطراتيحية للجبال (٥٨) ؛ ونقطة الارتكاز لكن أنواع النشاط عبر - الجبلي كالتجارة والمروء ، فمثلا نجد أن الحاملين الجبلية وان غلوا عبر الجبل أساسا ألا أن منازلهم الدائمة تتجمع هنا ، كما نجد الأسواق والحقائق والفنادق والنزل - وحتى قبل العصر الحديث حوانيت الخدادين لهذوة الخيل ! (٥٩) - وذلك لخدمة التجار والمسافرين . وتأخذ مراكز هذه الحوانات بالضرورة ، هي وما قد يستج الثروة المقدية من صناعة ، شكلا مدنيا ، أي أن المدن تكثر ونسبة المدينة ترتفع عند أقدام الجبال ، بل حتى حيث تكون كثافة سكان الريف والسكان عامة منخفضة نسبيا (٦٠) . ومعنى هذا أن الـيدمونت في الواقع « نقطة مرحلة امتدت » *a stage-point stretched* أو هي « نقطة انقطاع اتصلت » *break-of-bulk* : من كل هذا يبدو بوضوح أن معظم موارد الجبل عامة تطرق هنا في الـيدمونت ، أي أنها لا تنشر في موضعها بصورة *in situ* ، وإنما *en-bu-situ* كما يجوز لنا أن نسميها . من هنا ارتفاع كثافة السكان النسبي *relative over-density* فمثلا في مقاطعات النسا الألبية الخقة الثلاث - التيرول وسالزبورج وكاريتيا - حيث تغلو نصف المساحة العامة من السكنى تماما ، وتقتصر الأراضي الزراعية على $\frac{1}{3}$ المساحة تصل عليها الكثافة إلى ٧٥ في الميل ^٢ ، تضاعف الكثافة تماما خارج الجبال مباشرة أي في الـيدمونت . وهذا الوضع يشبه كثيرا الوضع في الجزر والاوخييلات حيث تطرق موارد مجموعة كبيرة من الجزر بالتركيز في جزيرة واحدة - *uni-situ* - كما قد نقول - مما يرفع كثافتها إلى مستوى غير عادي . ونظرا لهذه الكثافة المزايدة فإن الـيدمونت يصبح أغنى أجزاء الجبل أو المنطقة الجبلية وبالتالي أقواها سياثيا . من هنا كان من المعوم في المناطق الجبلية انتشار مقاطعات الـيدمونت على بقية المقاطعات الجبلية وقيادتها في موضوع التوحيد السياسي : مثلا سويسرا ، وبيدمونت في إيطاليا (٦١) .

Pierre George, Introduction, p. ٤٨.
 Sample, p. ٥٣١, ٥٥٠.
 Ibid., p. ٥٢٧.
 Sample, p. ٥٢٧.

(٥٨)

(٥٩)

(٦٠)

(٦١)

٢ - هذه اذن هي نطاقات السكنى فى المرتفعات : ونبينها الآن ان نستعرض بعض أمثلة اقلية لها (٦١) ؛ اعطى واتول هذا المل القديم ليجتال ارزخبرج بختنب انشرايح الارهاعية المترية المنوية (٦٢) .

١٢٠٠-١١٠٠ مترا	١٥ نسمة	٤ فى الكم ٢
١٠٠٠-١١٠٠	١٥٠٧	٥٦
٩٠٠-١٠٠٠	٦٤٤٠	٥٢
٨٠٠-٩٠٠	٣١٢٩٣	٤٤
٧٠٠-٨٠٠	٦٣٢٩١	٦٢
٦٠٠-٧٠٠	١٢٨٥٣٤	١٢٩
٥٠٠-٦٠٠	١٧٢١٩٠	١٢٣
٤٠٠-٥٠٠	٢٨١٢٦٢	١٩١
٣٠٠-٤٠٠	٥١٢٣٤٦	٢٩٠

كذلك فى سويسرة فى ١٨٨٨ كان ٥٪ فقط من مجموع السكان القام يتوزع فوق خط كتور ١٠٠٠ متر ، وحتى فى كاتون - مقاطعة - جبلية بختة مثل فاليس Valais كان ٤٪ من السكان يتعدون هذا السقف . وفى مقاطعة Grischone فقط كان ٥٪ من السكان يفيتون فوق كتور ١٠٠٠ متر ، ولكن حتى لهذا لم نؤد نسبة السكان عن الخمس فوق كتور ٢٥٠٠ متر . وثمة حالة ارتباط أعم وأهم : الكتور والكثافة فى أوروبا (٦٣) فى المتوسط ، حيث نجد أن التناسب يكاد يكون عكسيا باطراد ، وأن كثف أجزاء القارة ما قل عن ١٠٠ متر ارتفاعا ، وأن متوسط الكثافة على ارتفاع ٣٠٠ - ٤٠٠ يهبط الى نحو ٥/١ ما هو عليه تحت كتور ١٠٠ متر .

الارتفاع بالمتر	الكثافة فى الكم ٢	الارتفاع بالمتر	الكثافة فى الكم ٢
١٠٠-١٠٠	٢٣٤	٩٠٠-٨٠٠	٤٤
٢٠٠-١٠٠	٢١٦	١٠٠٠-٩٠٠	٢٣
٣٠٠-٢٠٠	١٣٤	١١٠٠-١٠٠٠	١٨
٤٠٠-٣٠٠	٦٦	١٢٠٠-١١٠٠	١٣
٥٠٠-٤٠٠	٧٩	١٣٠٠-١٢٠٠	٨
٦٠٠-٥٠٠	٣٤	١٤٠٠-١٣٠٠	٥
٧٠٠-٦٠٠	٥٣	١٤٠٠+	٥
٨٠٠-٧٠٠	٤٢		

وفي آسيا نجد وسطها مشهورا بثالث الطبقة الحضارية السكانية ولكل
 كثافته : اسبتس - رعاة رحل منترون ، ويديمونت - رى وزراعة مستقرة
 وتركز في مدن عقدية تجارية وصناعية ، وجبل - جماعات مخلطة من الزراعة
 والرعاة . وتبدو نص الطباقية في جبال أطلس حيث تشتد وتبلور على السفوح
 الجنوبية بسبب الفارق الكبير بين كثافة الپيدمونت وتخلخل طوارق الصحراء
 جنوبا وبربر المرتفعات شمالا . وفي كلمنيارو : شريط ساحلى من الاسبتس
 والصحراء يسكنه بقارة السواحلى ، ثم يديمونت ١٠٠٠ - ٢٤٠٠ قدم يمثل
 منطقة غنية من الأبديات والحدائق كثيفة السكان ، ثم فوق ٦٠٠٠ قدم رعاة
 البقر المازاى الذى يغيرون على الشريط الساحلى للحصول على الأبقار ،
 ويحصلون على كل غذائهم من الخضروات من نطاق الپيدمونت الزراعى . كذلك
 في الأيلاش نجد في أودية الأنهار : نطاق الموانى البحرية والزراعة المدية ، ثم
 نطاقا تليا يمتاز بزراعة خاصة ، ثم نطاق المزارع المرتفعة وصناعات القوى المائية
 وتعدن المجارى العليا . ومثل هذا يوجد في المنحدرات البحرية الطويلة لفرنسا
 وألمانيا وشمال إيطاليا . وقد تعدل هذه الطبقة في الحالات والمواقع المختلفة .
 ففى جرينلند تقتصر الحياة والسكنى على الشريط الپيدمونتى الساحلى ، ولا يعلو
 ذلك الا صحراء الحقول الجليدية . وفي الترويج نجد حضيضا مديا tide-washed
 يحمل الأغلبية العظمى من السكان ، يعلوه منحدر عنيف مخلخل السكان ، يعلوه
 قمة هضبية برية موحشة يسكنها فقط الرعاة الرحل أو لابل الرنة المهاجرون . وفي
 الألب تظهر هذه الطباقية في الاقتصاد الزراعى . فعلى المنحدرات السفلى يقوم
 نطاق الكروم والزراعة الكثيفة ووفرة المائد وتكاثف السكان . يعلو ذلك
 نطاق الزراعة الحقلية وهو أقل انتاجية وسكانا . يعلو ذلك نطاق عريض من
 زراعة الدبس وتربية الماشية يحمل سكانا مخلطة شبه ترحلية مع بعض القرى
 التى تقل وتضاءل الى أن تختفى عند ارتفاع ٢٠٠٠ مترا . وعلى مخروط بركان
 اتنا ميز الباحثون طويلا بين ٣ نطاقات واضحة - نطاق الزراعة فالنابات فالقمة

الصحراوية . على أن الاقتصاد الزراعى فى نطاق الزراعة هنا يبدى طباقية داخلية
 تينب : فهناك من أسفل الى أعلى شريط البرقش والليون ثم شريط الكروم
 رزيتون حتى ٨٠٠ مترا ، ثم شريط المحاصيل الصيفية حتى ١٥٥٠ مترا ،
 ثم شريط آجام الفسل حتى ١٨٥٠ مترا . وعلى طول كل هذه النطاقات تزيد
 الكثافة بانتظام الى ٤٠٠ نسة فى الميل المربع قرب الساحل (١٦) .

ثالثا - كثافة السكان بين خط العرض وخط الكنتور

رأينا أن القاعدة العامة فى سكنى المرتفعات هى تناسب المكس بين
 الكنتور والكثافة . ولكن هل هى حقا قاعدة عامة ؟ صحيح أنها صادقة فى
 الغالبية العظمى من الحالات والمناطق . ولكنها تنقلب رأسا على عقب فى حالات
 ثلاث معينة ، لا تقل أهمية ، بحيث يمكن اعتبارها قاعدة ثانية أكثر منها
 شذوذا للقاعدة الأولى . هذه الحالات الثلاث هى العروض السفلى ، والمناطق
 المناقمية ، ومناطق الحماية والالتجاء .

١ - فى العروض السفلى يجعل المناخ من السهول مناطق طرد ، وذلك فى
 حالتين - إذا اجتمعت شدة الحرارة والرطوبة ، أو إذا اجتمعت شدة الحرارة
 والجفاف .

فإذا اجتمعت شدة الحرارة والرطوبة تكونت الغابات المدارية الكثيفة التى
 تعوق الحركة وتاد الحضارة والسكنى وتطرد مستقعاتها السكان . فهنا تصلح
 التضاريس ما أفسد المناخ ، وتصبح المرتفعات قطب الجاذبية لتلطف الحرارة
 وتخلخل الغطاء النباتى وتحسن البيئة الصحية . فان ارتفاع قدم واحد رأسيا
 يعادل الانتقال شمالا ميلا أفقيا (١٧) ، فكأنما ينقل الجبل موقعه « بالقوة »

Semple, pp. 524, 558-60.

(١٤)

Fairgrieve, J., Geog. in School, Lond, 1949, p. 43.

(١٥)

بضع عشرات من الدرجات البردية بعيدا عن خط الاستواء . والمثلث
الكلاسيكي هو أمريكا المدارية حيث يخلق الارتفاع ثلاث طباق ارتفاعية بـ
مناخية - نباتية - سكانية :

البتاط الحار $Tierra Caliente$ = الپيدمونت الساحلي $La Costa$ - ٣٠٠ قدما
والغابي لاموتانيا

النطاق المعتدل $Tierra Templada$ = المنحدرات العليا ٣٠٠٠ - ٧٠٠٠ قدما

النطاق البارد $Tierra Fria$ = الهضبة + ٧٠٠٠ قدما

ولقد ثبتت أفضلية المرتفعات للسكنى قبل كولمبس وبعده . فإن السكى
الهندية منذ فجر التاريخ تجمعت فى النطاقين العلويين . بل ان حضارة العالم
الجديد لم تصل الى قمتها الا على القمم - والقمم المدارية فقط . وبعد
كولمبس تجانى الاسبان المنخفضات الغاية الملتمة - مقبرة الرجل الأبيض ،
ولنذكر أن مدينة مثل فيراكروز توصف بأنها مدينة الموتى $Ciudad de los muertos$ ،
وتتأججوا مع الهنود على المرتفعات :- مصحات الميادين $sanatorio$ و $sanatorios$
المعاصرة النفسية . بينما أدى جلب الزنجير وتبولد الجلاسيين $negros$
الى رفع كثافة الپيدمونت والموتانيا (٧) . ولكن السكى الحقيقية لا تبدأ
الا عند كتور ٢٠٠٠ مترا ، أى تستثنى النطاق الحار بينما يضم النطاقان
العلويان تسعة أعشار السكان ، بينما قد تصل الكثافة على الهضبة الى مثلها
فى فرنسا ، لا يحتل الپيدمونت الا فلور من الهنود المشتين . وفى إكوادور
يتراحم ٢ السكان فى أحواض الهضبة المحصورة بين الجبال على ارتفاع
٢٥٠٠ مترا (٨٠٠٠ قدما) . ومثل هذا فى بيرو حيث يصل التكاثر الى مستوى
٣٥٠٠ مترا (١١٠٠٠ قدما) - ولو أن شريطها الساحلى يختلف عن كل سواحل
أمريكا المدارية فى أنه صحى جاف غنى نسيا بجارى مياه الرى وبالتالى فى
أنه كثيف السكبان نسيا . أما فى بوليفيا فإن ٧٢ ٪ من السكبان يعيشون على
ارتفاع ٦٠٠٠ - ١٤٠٠٠ قدما ، بينما هج خبى من أكثف المقاطعات سيكاتا فوق

١١٠٠٠ قدما (١٨) . وفي المكسيك يتركز ثلثا السكان جميعا بها فيهم الهامية مكسيكو سيتي (٣ مليون نسمة) في الهضبة الوسطى على ارتفاع يتأرجح بين أعلى النطاق المعتدل وأسطل النطاق إليارد . هنا إذن مدين العالم وسكانه « المعلقة » . وإذا كانت الياهير هي « ييقف العالم » ، فهنا في أمريكا المدارية « سقوب البشرية » . وفي كل هذه الحالات نجد أن كل المدن الكبرى بل والصغرى معلقة على ارتفاعات لا تقل عن ٢٠٠٠ مترا . والجدول الآتي يلخص هذه الحقيقة — بالمتر (١٩) .

المدينة	الارتفاع	المدينة	الارتفاع	المدينة	الارتفاع
كولومبيا	برو	بوليفيا			
Ibarré	٢٢٢٢	اركيبا	٢٤٠٠	كوتشابامبا	٢٥٦٠
كيو	٢٨٥٠	كوتزكو	٢٤٠٠	سكوي	٢٧٠٠
Guengá	٢٥٨٠	Sicuani	٢٥٣٢	لاباز	٢٧٠٠
Loja	٢٢٢٠	أوروبا	٢٦٣٥	أوروروي	٢٧١٥
		Puno	٢٨٦٠	بوتوسي	٤٠٠٠
المكسيك		Crucero	٢٦٥٠	Huaychaca	٤١٠٠
ميكسيكو سيتي	٢٣٥٦	كريوي باسكو	٤٢٥٠		

وفي العالم القديم نجد صورة مشابهة في جزر جليية مدارية أو دون مدارية عديدة . ففي الحبشة يميز بين ٣ طباق ارتفاعية — جوية : الجلا ، والقوينا ديجا ، والديجا . فنجد الطبقة المعمورة الحقيقية معلقة بين الديجا والقوينا ديجا ، وتحصر بين كنتوري ١٨٠٠ ، ٢٥٠٠ مترا ، فتشمل كل المدن الهامة مثل (٢٩) :

هرر	١٨٥٦	اديس ابابا	٢٤٢٤
عدوة	١٩٥٠	انكوبز	٢٦٠٠
غيندار	٢٢٤٧		

ونطاق الصحارى في العالم القديم غنى بالأمثلة : اليمن حيث صنعاء ٢١٥٠ مترا (٧٥٠٠ قدما) (٣٠) ، وهضبة إيران حيث طهران ١١٣٠ مترا ، همدان (اكباتان القديمة) ٩٨٠٠ مترا ، اصفهان ١٥٨٥ مترا ، كابول ١٨٠٠ مترا ، وهضبة التبت حيث لايا ٣٥٥٠ مترا ، Chigatze ٣٩٢٠ ، Gyauhtse ٤٠٠٠ ،

Ibid.

Brunhes, pp. 226-6.

Fishpf, W.B., The Middle East, Lond, 1950, pp. 284-235.

(٦٨)

(٦٩)

(٧٠)

Pheri ٣٥٠ متر؛ وفي هضبة يونان مدينة يونان فو على ارتفاع ١٩٠٠ متر (١٧). هذا في العالم القديم . وهنا يبرز الفارق في كثافة السكان بين أجزاء السلسلة الاتوانية الألية في كل من العالم القديم والجديد . فكما رأينا في انالم القديم يتناثر انقطاع الأوربي عن القطاع الاسيوى بأنه أكثف وذلك لأنه أقل ارتفاعا — فالفارق تضاريسى وليس مناخيا ، وذلك لأن المحور الشرقى الغربى انعم بوحده خط العرض الى درجة كبيرة . أما في العالم الجديد فان الانديز أكثف من الروكى ، لا لفارق تضاريسى ، وانما للفارق المناخى الذى يخضع السلسلة لقانونين سكانيين مختلفين تماما ، وذلك لأن المحور الشمالى الجنوبى يجعل السلسلة « تفرس » مناخى شديد التنوع والتباين .

ماذا اذا اجتمعت شدة الحرارة والجفاف ؟ هنا تكون الصحارى الحارة ويصبح عامل الطرد هو تهريط المطر لا افراطه كما في الحالة السابقة . فتصبح المرتفعات كمصاد فمسايد عليا للأمطار الأوروجرافية . ويعوض من صعوبة التضرس تعديل الحرارة . وبذا تصبح المرتفعات بحق جزرا طبيعية وبشرية . فاذا كانت جبالا شديدة الارتفاع تجمع كل السكان المستقرين على ضلوعها السفلى وكما تكثر المدن عند أقدام الجبال في العروض المعتدلة تكثر هنا القرى المختلفة أى يصبح الپيدمونت منطقة الكثافة العظمى . أما اذا كانت جبالا منخفضة فان طبيعتها كعقبة تلاشى وتصبح في جبلتها مركزا للسكان . فجبل مرة البركانى أغنى جهات دارفور مطرا وسكانا . فارتفاعه ٦٠٠٠ قدما ، وتوجد به المياه الجارية ابتداء من ٤٠٠٠ قدما كحد أعلى الى ٣٢٠٠ قدما كحد أسفل . وتحت هذا الأخير تختفى المياه من على السطح ولا يمكن الحصول عليها الا بالآبار التى يزداد عمقها وينضب معينها كلما زادت المسافة من قلب الجبال . ومثل هذا نجده أيضا فى وادى . وفى قلب استراليا الميت تمثل سلسلة مكدونل نواة الجزء الشمالى من منطقة الأراتسا ، والى الشمال منها تكون سلسلة مرتشيزون النية بميون المياه ملجأ وقلعة قبيلة الوارامونجا Warrumunga (١٧)

٢ — الحالة الثانية التى تتمكس فيها العلاقة العكسية بين الكثور والكثافة هى مناطق المستنقعات . فحيث تساحل الجبال الساحل فى العروض المدارية أو

شبه المدارية تنتهي مياه الأمطار على شكل « دافق run-off » الى أقسام
الجبلى الساحلية حيث تجري كمفيضات فجائية مفرقة ، أو تركد في صورة
مستنقعات ملحية يهرب منها السكان الى سئوح الجبل الأقل حرارة والأضئ
محميا . وقد تزحف السكنى الى أسفل لتغطئ السهول الملحية في فترات التطهير
والاستصلاح ثم تنحسر عنها مرتدة الى أعلى مرة ثانية في فترات الاهمال .
أى قد تحدث دورة سكنية ما بين تعمير وتناقص سكائى depop. and repop.
فى السهول بينما تمثل السكنى فى الجبل عاملا ثابتا constant (٣) . وهنا
تبرز فائدة الجبال اذا قارنا بمستنقعات السهول الداخلية مثل پربت Pripet
Marshes بمستنقعات السهول الساحلية الجبلية مثل Pontine M. ففى الأولى
لا معوض لقله كثافة السكان . ويمكننا أن نضرب من مستنقعات پوتئين مثلا
فذا لظاهرة الدورة السكنية فى السهول الملحية . وأبرز ما تضح الحقائق السابقة
فى حوض البحر المتوسط الشبه مدارى والذى تغلفه وتطوقه حلقة جبلية . فنسبة
كبيرة من السكان على طول سواحه تتركز على المنحدرات التلية بين ارتفاع ٦٠٠ ،
١٢٠٠ قدما حيث تزرع أيضا معظم المحاصيل الشجرية . ففى توسكانيا مثلا
يقع ٢ السكان بين كتور ١٠٠ ، ١٦٠٠ قدما ، وفى انا بصقلية تحمل التربة
اللائية الخسبة كثافات تتراوح بين ٩٠٠ ، ١٥٠٠ فى الميل المربع على ارتفاع
٢٥٠٠ - ٣٠٠٠ قدما ، بينما لا تزيد الكثافة عن ١٠ فى الميل بين ٣٠٠ ، ٦٠٠ قدما
وفى كورسيكا التى يبلغ متوسط ارتفاعها ١٨٠٠ قدما ، حدث تركز تقليدى
للسكان بين ٩٠٠ ، ٢٥٠٠ قدما ، مع وصول الكثافة أحيانا الى ٢٥٠ للميل
(شكل ٤) . وفى الشمال الشرقى من الجزيرة فى منطقة Chataignerie أى منطقة
الكستناء لا زال هناك تركز واضح للقرى بين ١٨٠٠ ، ٢٥٠٠ قدما (٢٤) ورسم
أنفوسى Anfosى عدة رسوم بيانية تبين العلاقة بين كثافة السكان والارتفاع فى
فئات مختلفة من كورسيكا وكذلك للجزيرة كسكل . وفى كل الحالات ترسم
المنحنيات سوكا ممبنا واحدا : ففى لا تمثل : وزرا « مسقما فى مثل قائم
الزاوية ولكن بيز فى وسطها « كف » أو عة أكثاف وسلمات . أى أنه بعد

أن تبدأ الكثافة بتنايية عكسيا مع الكنتور تعود في منتصف الطريق الى تناسب طردى حتى ارتفاع معين بعده يعود العلاقة العكسية . . .



شكل ٤ - العلاقة بين الكنتور وكثافة السكان في كورسيكا (١٩١١) (جين انغوسى)

٣ - مناطق الالتجاء والحماية الجبلية تنقض العلاقة العكسية بين الكنتور والسكان . ففيها يلعب عامل الطرد البشرى الدور الرئيسى . ففي فترات الحروب والأخطار والصراع والقرصنة الساحلية في الماضي كان لعامل الحماية اعتبار هام في توقيع السكان . فكانت الجماعات المهددة أو المستضعفة أو الأقليات تفرع من السهول والوديان الى الجبال ابتغاء الحماية ، ويتحول المنفى الى ملجأ . فالجبال كما رأينا أطراف العالم رأسيا ، فكما تطرد العناصر المستضعفة بحركة ضد اعصارية الى الخارج الى هواميش القباريات ، تطرد كذلك بحركة لولبية spiral الى أعلى - الى سفوح الجبال . ففي لذلك مناطق طرد والبتقاء . ويرتبط على هذا ، عدا أن تصبح الجبال متاحف إثنولوجية فريدة ، أنها في النهاية تتحطم بعدد من السكان فوق طاقتها الحقيقية ، أي يحدث إفراط الكثافة over-density - كثافة وتكتيف بالقهر والدفع densité par refoulement كما يسميها فيدال . ومع إفراط الكثافة يأتي إفراط السكان overpop. الذي يبدو دليلا في سيادة القهر العام والبؤس بين السكان ، كما يمثل جليبا في جبال البلقان (٣٥) . ولكن كما يلاحظ بير جورج لا يصدق قانون الالتجاء على جميع أجزاء الينفج ، وإنما على أيسله - على اليدمونت - على جهة الالتحام بين السهل والجبل ، فإن دور الملجأ سواء لمته الجبال أو المستنقعات

أو الغابات إنما يتم على جوانبها *lisières* دوز اغيب . وقد يعود الإلجئون بعد انبثاء البخر إلى النزول إلى السهول وبهذا تتحقق دورة رأسية للسكنى تتألف من مرحلة حثيد ومرحلة تفرينغ وتبني الدورة المرتبطة باستصلاح واهمال السهول الساحلية الجبلية الملائمة . وتؤكد الدوران مبدأ ارتفاع بعبدل التناوت *variability* في حجم سكان اليدمونت وفي كثافتهم ارتفاعا كبيرا بالنسبة لكل من السهل الأصيل وقلب الجبل العلوى . وتتضح هذه الظاهرة بعمق في شرق وجنوب شرق أوروبا (٢٦)؛ وعموما فبين الواضخ أن ظاهرة الالتجاء قد قُلت أهميتها في العصر الحديث مع استقرار النظام والبلد؛ ولو أن الإستمبار الأوربي خلقها في مناطق جديدة .

ويمكننا الآن أن نتعرض ببعض أمثلة للالتجاء الجبلي . ففي إيطاليا تدل الأبحاث الأركيولوجية على أن السكنى بدأت أول ما بدأت على الجبال وبعد مدة أخذت تزحف تدريجيا إلى السهول . وفي إنجلترا في العصر البرنزي أدى غزو الجماعات الأحدث إلى إزاحة العناصر البدائية إلى الجبال حيث «تخفرت» قراها في مدرجات المنحدرات . وفي شرق أمريكا الشمالية ميز الهنود الحر جيدا بين دلالة البسهل والجبل ولجأ الشيروكي *Sherokee* إلى جسد أتهم فوق الجبال نظرا لاجتماع جماعات عديدة معادية . وفي هضبة أرمينيا نجد أن سيفوج الجبال اكتفب سكامنا من الأودية ، لأن الموقع المسيطر والجبالية أوفر في السفوح ولذا لجأ إليها الإكراد الأثدياء الأحدث بينما تركبوا الأودية الزراعية للآرمن المستضعفين الأسبق ، ولذا نجد هنا قلبا للترتيب المعهود حيث يحتل الأحدث الأقوى المناطق الأسهل الأغنى (٢٧) . وفي البلقان أدى اجتياح الأتراك إلى التجاء الوطنيين المسيحيين إلى الاعتصام بالجبال هربا من الفرائب ومن التبشير بالاسلام . وفي حوض البحر المتوسط الغربي عرفت السواحل في صقلية وإيطاليا وبروقانس وإسبانيا أخطار قراصنة المور وجيوش الاسلام فلتوا إلى الجبال . وفي اللقانت أدى اضطهاد الأقليات الدنشة قديما من الدروز والموارنة والعلوين إلى تكثيف السكان على جبل الدروز وجبل لبنان والنصيرية .

وفي المغرب أدى التجاء البربر إلى جبل النفوسة والقبائل ونوراس في الماضي ثم انتزاع المستعمر الفرنسي حديثا لأرض الخصبة في السهول وطردهن الوطنيين منها إلى هذه الجبال - أدى كل هذا تكثيف السكان بدرجة غير ممكنة أو منتظرة لولا ذلك (٧٨) .

رابعا - العلاقة السكانية بين الجبل والسهل

١ - بين الجبال والسهول علاقة عمرانية وثيقة ، ومتبادلة . تشبه العلاقة بين الصحارى ومناطق الاستقرار في أنها تؤكد « تكامل » البيئات الطبيعية المتناقضة التركيب تكاملا وظيفيا . وتأخذ ثمرة هذا التكامل شكل ارتفاع كثافة السكان على جبهة الالتحام بين التقيضين . فكما لاحظ فيدل أن كثافة السكان ترتفع عند التقاء الصحراء بالسفانا أو بالعباب ، فكذلك نلاحظ أن اليبدمونت ، وهو نطاق الالتحام الرأسي لا الأقمي ، ترتفع عليه الكثافة لدرجة تفوق أيا من الطرفين . وفي علاقة التكامل هذه بين السهول والمرتفعات تختلف نظرة كل منهما للآخر .

فأما السهول فتتنظر إلى الجبال على أنها أساسا مناطق عبور ، وكل اهتمامها بها هو فقط في المرات والأودية . فلا تأتي علاقة السهول بالجبال عن طرد أو جذب طبيعي - إلا في الحالات الشاذة المحددة كالعروض السفلى والسهول الملارية والترانس هيومانس ، ولكنها تأتي غالبا عن طرد بشرى كما في مناطق الحماية والالتجاء أو لحدوث إفراط السكان في السهل ، ففي الظروف العادية لا يبدأ سكان السهول في الزحف إلى أقدام وضلوع المرتفعات إلا تحت ضغط إفراط السكان . وحيث أن هذا الضغط ما أسهل أن يصل إليه في فترة ما ، فقد كاد تسلك سكان السهول للجبل وتسريهم عليهم أن يكون القاعدة العامة بحيث لا نخشى إذا افترضنا في أي جبل أن سكانه الحقيقيين كانوا في الماضي أو طأ ثم انكشفت منطقتهم وتقلصت إلى أعلى نتيجة لاحتلال سكان السهول لمساكنهم السفلى بالتدريج ، مما يعطى اليبدمونت صفة التحرك على المصور Shifting (٧٩) .

(٧٨) عزرة النص . أحوال السكان في العالم العربي . القاهرة ١٩٥٥ ص ٥٥

(٧٩)

أما علاقة الجبل بالسهل فترجع الى عوامل التضاريس والجذب الطبيعي ، وهى لذلك علاقة أكثر حدوداً وانتشاراً من علاقة السهول بالجبال . فالجبل عند فليز مثلاً « مناطق أصعبه » Regions of Difficulty وعى تصدرا انجذاباً وتشكل فواصل تاريخها حركة من نزول السكان Downhill, Valley-ward Movement (٨٠) أى أن الحركة الى أسفل قد تكون أكثر شيوعاً من الحركة الى أعلى . مثلاً بين القرنين ١٧ ، ١٨ هاجرت ٢٠٠٠ أسرة من سافوا ووادي آوستا الى بافاريا والنمانيا السوداء وسويسرا والراين واللورين . وفى البلقان أدى احتلال الأتراك للجبال الى نزول سكان الألب الدينارية الى كل السهول المحيطة . وفى العصور الوسطى انصرف سكان غسقونية ولانجدوك الى استعمار وتعمير كامل الريف الاسباني فى سهول ابرو وذلك مع طريق الحج الشهير (٨١) . وقد أدى تقدم الحضارة الى جذب سكان الجبال الى السهول من « الألب » الى اليمدونت والوديان ، وخاصة بعد الانقلاب الصناعى - تماماً كما جذب تقدم الحضارة الموانئ من الحافة الخارجية Outer Edge الى الحافة الداخلية للسواحل Inner Edge (٨٢) . وفى هذا الصدد يعتقد موجل Mougeolle فى « قانون الارتفاع » a law of latitude عام بمقتضاه تنزل مناطق كثافة السكان والمدن باطراد الى كتلتورت أو طاً كلما ارتفعت الحضارة ، من الجبال والهضاب الى السهول ... وإذا كان البعض يشك فى هذا « القانون » ، فليس من شك فى تحرك نطاقات الكثافة بالنسبة للارتفاع (٨٣) . والملاحظ أن بعض الجماعات التى لزمّت فى حركتها الجبال أظهرت فى القرنين الأخيرين حركة تفرغ سكانى فى السهول المجاورة - مثل العناصر الأصلية فى وسط أوروبا . ومن الضرورى أن ندرك أن كثافة السكان فى الجبال قد تكون أعلى مما يمكن للموارد الموضعية أن تملأ ، وذلك بصرف النظر عن حالات التكثيف بالقوة والقهر أو تحت ضغط الالتجاء ... الخ ، وحينئذ فالسبب هو السهول - هو المكاسب الاقتصادية التى يجنيها سكان الجبال من الهجرات المؤقتة أو الموسمية للعمل فى السهول المحيطة ، كأن السهل قاعدة سكانية غير منظورة أو جزئية لسكان الجبل . فلقد كانت هذه التغيرات

Fleury, H. J., "Regions in Hum. Geog.", Geog. Teacher 1917-8 (٨٠)

72 36-5 and Scot. Geog. Mag. March, 1919, pp. 105 ff

80-1 Garnier, p. 115

(٨١)

81-2 p. 563.

(٨٢)

82-3 p. 109

(٨٣)

قانونا منتظما في منظم جبال أوربا حتى الأهلاب الصناعاتي (٨٤) : من ألب سافوا
 إلى جنوة وميلانو مع المزارع الجبلية . وإلى جنيف مع طريق التجارة المبر
 قارية التقليدية ، ومن السفن les Cévenols إلى لانتجندوك لجمع التكرور ، ومن
 الأوترون إلى القويج لقطع الأخشاب ، ومن الجورا والهفبة الوسطى وليتوزان (٨٥)
 إلى باريس ، ومن سافوا والبرانس للحضاد في أكتين وروستيون وفاربتون
 بل وفي أسبانيا . وقد كانت هذه الحركات الموسمية ضحلة حقا : قلز حجم
 الهجرة الشتوية من سافوا وحدها في القرن ١٨ بنحو ١٥٠ ألفا ! ولكنها كانت
 قد حبطت في بدء القرن ١٩ إلى نحو ١٠ آلاف لكل البرانس ، ١٥ ألفا للآلب ،
 ٥٠ ألفا للهفبة الوسطى .

٢ - ولقد بدأ التطور الخطير في العلاقة بين الجبل والسهل منذ الأقلاب
 الصناعي (٨٥) . ولكن عادت فانعكست مرة أخرى في العقود الأخيرة المعاصرة .
 ولهذا ينبغي أن نميز بين مرحلتين : مرحلة الأقلاب الصناعي ، والمرحلة الحديثة
 المعاصرة .

فأما مرحلة الأقلاب الصناعي قبلها كما أن الجبلين يخلقون لمشاكلهم
 السكانية والخطايا باستصلاح وزراعة كل واد متروك ، وبالترانل حينئذ
 والهجرة القسرية والمؤقتة إلى السهول . ولكن هناك أدلة على أنهم كانوا قد
 وصلوا إلى آخر امكانيات التوسع الزراعي الجبلية لا منذ القرن ١٨ ، بل منذ
 القرن ١٥ ، وأن التوسع أحيانا تمسح الحدود السليمة فارتد عنها إلى أسفل و
 كما أن إعادة تنظيم الاقتصاد السهل بعد الأقلاب الصناعي والمخضبات التي
 نظام البور قامت مع الترانل حيوانات والحضر الجبلية في حدود يستلهم التبع
 لم تعد قبل التوسع ، كذلك لا تسحق لولا اشتراك عناصر التربة الجبلية بسببنا
 كثرة عتل الرية والألبان في الجبل بدون تمويه من التخفيف مما هذا يضعف
 التربة ونقص الغذاء وبالتالي أدى إلى نرد السكان وضغطهم ، وفوق هذا فإن
 الضائقة الحديثة الآتية كما وأدت الضائقات الرفيعة الضئيلة وأدت الصناعات
 الجبلية التقليدية . وهكذا أصبح هناك فائض من زراع وصناع الجبال لا محل

Demangeon, A., Problèmes de Géog. Hum., Paris, 1953, La Montagne (٨٤)
 dans le Limousin, pp. 289 ff. (X٥)
 Beaujeu-Garnier, pp. 126 ff.

له من اقتصاد الجبل : فالأقلام العناني أدنى التي افتار وافتار الجبال : من هنا بدأ « الهروب من الجبال » *mountain exodus* « كالهروب من الزحف » *total exodus* « وإذا كانت الهجرة النهائية التي الشهيرة تحف من مستحفظ السكان وترك مستوى المعيشة المظلم أرقى ، فهذا مؤقت : فالأتمشاش الناتج لا يلبث أن يؤدي إلى ترايد سزيع للتشكاف فيسكن الوضع وتبدأ انتفورة من جديد . وكثيرا ما أدى هذا إلى تناقص المواليد ، وهذا منع الهجرة خفض الكثافة في بعض الالطاب الجبلية تخفيفا شديدا : بنسبة ٥٠ ٪ في الالب الفرنسية ونسبة أكثر من ٦٠ ٪ في مخطبات منها ، ونسبة ٤٧ ٪ في الابلاندز في اسكتلند ، ونسبة ٧٢ ٪ في السفن ٥٠٠ : على أن هذه الحركة الطردية لم تبدأ في كل الجبال في كل الوقت وبنفس السورة : منذ ١٨١١ بدأت لمرتفات اقبلوا تفرغ سكانها ، واشتد التمدد منذ ١٨٦١ حتى الوقت الحالي حيث اتقل قلب ويلو إلى اللامعمور . وفي الالب الديتارية استمرت الحركة التي بدأت منذ القرن ١٥ واشتدت في القرن ١٨ ، فأصبحت أشد في القرن ٢٠ . وفي الالب الفرنسية بدأت الهجرة منذ ١٨٤٦ . أما الالب النمسية فلم تعرفها الا منذ أواخر القرن ١٩ ، واشتدت منذ ١٩٢٠ وماسة « النمسا الصغرى » . وفي ايطاليا تأخرت الحركة كلما اتجهنا من الشمال إلى الجنوب - منذ ١٨٧١ في الالب ، ومنذ ١٩٢٧ في الالبين الشمالية ، وأبروزي بين ١٩١٠ ، ١٩٢١ ، أما أقصى الجنوب « الصقليتان » فقد ظلت تنمو باستمرار تقريبا ولم تعرف تناقصا شأنها في ذلك شأن مرتفات اسبانيا والبرتغال الا منذ عقد أو اثنين على الأكثر . هذا وقد وجد في كل هذه الحالات أن معظم هذه الهجرات الجبلية لا تذهب بعيدا جدا ، بل على قرب من الجبل الأصلي ، كما أن نسبة أقل مما نعتقد هي التي تتجه إلى المدن ، فالغالبية تستقر في الأرياف المجاورة أو مقدم الجبل وأندام اليدمونت أحياء . أما الهجرة إلى الخارج فظاهرة حديثة إلى حد بعيد .

أما عن المرحلة الحديثة المعاصرة فيسكن القول أن التطور الديموغرافي الجبلي حاليا في كل غرب أوروبا قد دخل في مرحلة جديدة : فقد كف السكان عن التناقص ، وبدأوا في بعض الحالات في التزايد ، ذلك بفضل التغيرات الاقتصادية الجارية . فنبير باتريك جديس P. Geddes (٦) ،

إذا كان الانقلاب الصناعى الفحشى الپاليوتكنى palaeotechnic قد فرغ
الجبال من سكانها ، فإن الانقلاب الصناعى الجديد الكهربى النيوتكنى
neotechnic قد جعل الأومنيوم معدن الجبال فى أوربا الغربية وأعاد إليها
لموها وأبنائها . فقد فتحت الكهراء الجبال للصناعة خاصة المعادن الكهرية
والكيميائيات الكهرية ، لا بالضرورة كمدن مركزة ولكن كوحدات ومصانع
فى صميم الوسط الزراعى والمراعى ، ولكن الأغلب على الپيدمونت . ثم كانت
السياحة الجبلية التى أصبحت «خدمات الجبال» والتى لا يمكن المبالغة فى قيمتها
الديوغرافية لها^(٨٧) . وهكذا انتهى عصر الاقتصاد المعاشى • Subsistence econ
والكفاية الذاتية autarchy فى الجبال ، وبدأ الجبليون يعتمدون على
الاقتصاد التبادلى ، ولهذا تحول التركيز من إنتاج الغذاء الى منتجات الألبان ،
فأخذت حدود الحبوب والكروم تهبط تدريجيا ، وأحيانا تعود الكروم الى
الصعود والزحف ثانيا إذا ارتفعت الأسعار^(٨٨) . ومثل هذه الظاهرة تعرفها
جيدا سفوح المرتفعات المحيطة بحوض سوفا Suwa basin للتوت فى
اليابان^(٨٩) .

Beaujeu-Garnier, p. 119.

Penttie, p. 427.

Grassie, G. Asia's Lands and Peoples, 1963, p. 213.

المصادر

1. Beaujeu-Garnier, Jacqueline, Géog. de la Population, Paris, 1966.
2. La Blache, P. Vidal, Principles of Hum. Geog. Lond., 1926.
3. Brunhes, Jean, La Géog. Hum., Paris, 1925.
4. Cressey, G., Asia's Lands and Peoples, 1962.
5. Démangeon, Albert, Problèmes de Géog. Hum. Paris, 1992.
6. Dabot, Emile, Les Climats et l'Organisme Humain, Coll. Que Sais-Je ? Paris, 1948.
7. Fairgrieve, James, Geog. in School. Lond., 1949.
8. Fleure, H. John, "Regions in Hum. Geog.", Geog. Teacher, 1917-8 and Scot. Geog. Mag., March, 1919.
9. Fisher, W. B., The Middle East, Lond., 1960.
10. Finch, V. C., Trewartha, G. T., Robinson, A. H. and Hammond E., Elements of Geog., 1967.
11. Garnett, Alice, "Insolation, Topography and Settlement in the Alps", Geog. Rev., vol. XXV, No. 4, Oct., 1935.
12. Geddes, Patrick, Cities in Evolution, Lond., 1915.
13. George, Pierre, Introduction à l'Etude Géog. de la Population du Monde, Paris, 1961.
14. Houston, J.M., A Social Geog. of Europe, Lond., 1963.
15. Huntington, E., Williams, F. and Valkenburg, S. V., Economic and Social Geog., N. Y., 1963.
16. James, Preston E., A Géog. of Man, Boston, 1949.
17. James, Preston E., An Outline of Geog.
18. James, Preston E., "Terminology of Regional Description", Ann. Assoc. Amer. Geog., June, 1934.
19. De Martonne, E., A Shorter Physical Geog., (trans.) Lond., 1948.
20. Peattie, Roderick, "Height Limits of Mountain Economies", Geog. Rev., vol. XXI, No. 3, July, 1931.
21. Semple, Ellen Churchill, Influences of Geog. Environment, Lond., 1911.

22. Smailes, Arthur E., *Geog. of Towns*, Lond., 1938.
 23. Soudrillat, J.-M., *Géog. Agricole de la France*, Coll. *Que Sais-Je?* Paris, 1950.
 24. Sorokin, Pitirim, *Contemporary Sociological Theories*, N. Y., 1925.
 25. Sorre, Maximillian, *Fondements de la Géog. Hum.*, Paris, 1952.
 26. Stamp, J. Dudley, *Intermediate Geog.*, Lond., 1941.
 27. Taylor, Griffith, *Urban Geog.*, Lond., 1949.
 28. Wooldridge, S. W. and Morgan, R. S., *Physical Basis of Geog.*, Lond., 1937.
 29. Zon, Raphael, "Forests and Hum. Progress", *Geog. Rev.*, Sept., 1926
٣. - عزة النص . أحوال السكان في العالم العربي . القاهرة ١٩٥٥

ضمير المتكلم المرفوع

للدكتور خليل يحيى ناصي

١ - لم نثر على ضمير المتكلم المنفصل المرفوع في النقوش العربية الجنوبية (١) ، وكذلك في النقوش والكتابات النبطية (٢) والصفوية (٣) ، ولكنه وجد في الكتابات الشمودية (٤) وفي الكتابات اللحيائية (٥) ، وكان ضمير المتكلم المنفصل المرفوع يكتب في هاتين الكتابتين الباهليتين بالهمزة والنون فقط (أى أن) ، ويقال انه كان ينطق تلك اللهجتين العرييتين الباهليتين بألف لينة بعد النون أى (أنا) . وقد ورد الضمير بصورته الموجودة في اللغة العربية في النقش العربي المعروف باسم قهش حران اللجا (٦) المكتوب سنة ٥٦٨ م . ويفهم من تلك الكتابات الباهلية أن ضمير المتكلم المنفصل المرفوع كان يكتب وينطق في شمال الجزيرة العربية قبل الاسلام كما يكتب وينطق في اللغة العربية لغة القرآن الكريم ولغة الشعر العربي .

وقد يعترض على ذلك بالقول لماذا لا يظن أن بعض العرب القدماء كانوا يكتبون وينطقون ضمير المتكلم المنفصل المرفوع ألفا مهوزة ونونا (أى أن) كما يشاهد ذلك في النقوش الشمودية واللحيائية ، وأن بعض العرب كان يكتبه كما كان ينطقه بألف لينة بعد النون ، كما يشاهد ذلك في قهش حران اللجا .

Maria Höfner, *Altäthdarabische Grammatik*, 2.30-31. (١)

Enno Littman, *Safaitic Inscriptions* (Leiden 1943) p. XV, XVI (٢)

J. Cantineau, *Le nabatéen*, T.I, p. 51. (٣)

ALB. Van den Branden, *Les Inscriptions Thamoudéennes*, p. 35. (٤)

ALB. Van den Branden, *Les Textes Thamoudéens de Philby*, Vol. 1, p. 25, Vol. II, p. XXXII.

Werner Caskel, *Lihyan und Lihyanisch*, S. 63. (٥) انظر

René Dussaud, *mission de la Syrie moyenne*, p. 324, 325. Répertoire (٦)
D'Épigraphie sémitique, Tome 1 N. 485, P. 367. J. Cantineau, *Le Nabatéen*, Tome II, p. 50.

ولرد على ذلك الاعتراض نقول ان الثموديين والحبانين الذين كانوا يكتبون ضمير المتكلم المنفصل بألف مهيوزة ونون فقط كانوا كمعظم الأمم السامية يعتمدون في كتاباتهم على الحروف الصامتة التي يكتبونها من غير الحركات على اختلاف أنواعها ، أما نقش حران اللجا الموجود فيه الضمير منتها بألف لينة بعد النون فهو نقش عربي مكتوب بالخط النبطي ، والخط النبطي كما نعرف هو خط آرامي اتخذ النبط خطا لهم ، كما اتخذوا اللغة الآرامية لغة رسمية لهم يتكلمونها ويكتبون بها كتاباتهم ، وكان الآراميون ومنهم النبط يعرفون الألف اللينة ، كما كانوا يعرفون الألف المهيوزة بدليل أنهم كانوا يستخدمون الألف اللينة في آخر الأسماء لتعريفها ويتضح ذلك من النقوش النبطية المكتوبة في القرنين الأول قبل الميلاد والأول بعد الميلاد . واتخذ العرب الخط النبطي بخصائصه وقواعده الآرامية خطا قوميا لهم بعد أن سقطت المملكة النبطية سنة ١٠٦ م ، وبعد أن ضم الرومان أملاك النبط الى المملكة الرومانية كما يتضح ذلك من النقوش النبطية المكتوبة في القرنين الثالث والرابع الميلاديين . ولذلك نجد العرب يستخدمون الألف اللينة في ضمير المتكلم (أنا) لأن الألف اللينة كانت معروفة في الخط النبطي ، كما يظهر ذلك من نقش حران اللجا الذي كتب سنة ٥٦٨ م .

٢ - واختلف العرب في ضمير المتكلم فكان بنو تميم يشتون ألف (أنا) في الوصل كما كانوا يشتونها في الوقف وكان غيرهم كما يقول النحاة واللغويون لا يشتونها في الوصل الا في الضرورة (٢) ، كما كان بعض العرب يقفون على نون الضمير بالسكون (٣) ، كما كان بعضهم يقف على الضمير بها السكت أى (أنه) للإبابة بالهاء عن فتحة النون (٤) ، ويقولون ان ضمير المتكلم فيه خمس لغات أفصحها أثبات ألفه وقفا وحذفها وصلا والثانية أثباتها وصلا ووقفا وهي لغة

(٧) الجزء الثاني من شرح الكافية للاسترابادى ص ٩

(٨) الجزء الثاني من شرح الكافية ص ٩

(٩) الجزء الثاني من شرح الكافية للاسترابادى ص ٩ وشرح الفصل لابن

بميش ص ٢٤

تميم كما سبق أن بينا ذلك والثالثة (هنا) بإبدال همزة الضمير (أنا) هاء
والرابعة (آن) بد بعد الهمزة والخامسة (أن) كمن حكاها قطرب (١٠) .

واختلف البصريون والكوفيون في أصل الضمير فقال الكوفيون إن أُرلف
بعد النون من نفس الكلمة أى أن الضمير هو عبارة عن مجوع الأحرف الثلاثة
التي يتكون منها الضمير . وقال البصريون إن ألف الضمير زائدة والاسم هو
الهمزة والنون وأتى بالألف الزائدة في الوقف لبيان فتحة النون لأن فتحها
تسقط في الوقف فكتب الضمير بالألف خوفا من أن تلتبس بأن الحرفية لسكون
النون في الوقف (١١) . وجاء في ص ٦٠ من الجزء الأول من كتاب هجع الهوامع
للسيوطي ما يلي : وقيل أنا مركب من ألف أقوم ونون قوم . . . الخ . وقال
الاسترابادى في ص ١٠ من الجزء الثانى من شرح الكافية ما يلي : وأما أنت الى
أنتن فالضمير عند البصريين أن وأصله أنا . وكان أنا عندهم ضمير صالح لجميع
المخاطبين والمتكلم ، فابتدأوا بالتكلم وكان القياس أن يبينوه بالتاء المضمومة
نحو أنت إلا أن المتكلم لما كان أصلا جعلوا ترك العلامة له علامة ، وبنسوا
المخاطبين بتاء حرفية بعد أن كالاسمية في اللفظ وفي التصرف . اهـ .

ويفهم من كلام الاسترابادى السالف الذكر أن ضمير المتكلم مجرد من
العلامة الدالة عليه ، بينما توجد التاء في ضمير المخاطب أنت للدلالة عليه ، وقد
علل العرب خلو ضمير المتكلم من العلامة الدالة عليه بأنه أصل ولذلك فخلوه
من العلامة علامة له لأن القياس يقتضى أن تلحق به التاء المضمومة الموجودة في
الفعل كبت ، وقد يدل ذلك رأى على أن علماء العرب كانوا يرون أن الضمائر
المنفصلة المرفوعة مركبة من مقطع أب ومن حرف أو ضمير يدل عليه ، غير أن
وجود الألف اللينة في نهاية الضمير أنا وسقوطها منه في حالة الوصل جعل
العلماء البصريين يظنون أن الألف اللينة زائدة ، وأن الضمير مجرد من العلامة
الدالة عليه ، ويخالف هذا القول ما يتيته الدراسات التاريخية المقارنة وهو أن
ضمير المتكلم أنا مكون من مقطع أن ومن الهمزة المفتوحة الموجودة في الفعل

١ (١٠) الجزء الأول من شرح الاشمونى ص ٩٠ - الطبعة الثانية مطبعة

مصطفى الحلبي سنة ١٩٣٩

(١١) الجزء الثالث من شرح المفصل لابن يعيش ص ٩٣ - ٩٤

المضارع أكتب (١٢) ، وقد خففت الهمزة المفتوحة النهائية لوقوع همزتين في أول مقطعين متالين (١٣) ، وقد قائل علماء العرب أن الضمير المتصل أو حرف التاء قد دغم (١٤) أو كثر (١٥) ، وأن ، وقال الأستاذ برجستراسر في ص ٨٤ من كتاب التطور النحوى : أن مقطع أن يحتمل أن يكون من أدوات الإشارة .

٣ - قائل علماء العرب في ضمير المتكلم المتصل المرفوع أن التاء قد ضمت في المتكلم لمناسبة الضمة لحركة الفاعل (١٦) ، وخصوا المتكلم بالضممة لأن القياس وضع المتكلم أولاً ثم المخاطب فالفائب (١٧) ، ولما كان ضمير المتكلم المتصل المرفوع يتشابه مع ضمير المخاطب المتصل المرفوع في التاء فرقوا بينهما بالحركات فجعلوا الضم للمتكلم لأنهم أنزلوه وهو أول قبل غيره منزلة الفاعل (١٨) ، وقيل أنه الزم الحركة الثقيلة مع اسمه لأنه إذا أخبر لا يكون إلا واحداً ، وإذا خاطب فقد يخاطب أكثر من واحد (١٩) ، وخصوا المخاطب بالفتحة لأنهم أنزلوه منزلة المفعول ، أو أنهم حركوا ضمير المخاطب بالحركة الضخيفة لأن خطاب المذكر أكثر فالتخفيف به أولى من المؤنث الذى حرك بالكسرة (٢٠) ، وقال أبو حيان : وهذه التعاليل لا يحتاج إليها لأنها تمليل وضعيات لاتعمل (٢١) ، ونقول نحن أن تعليقات النحويين العرب لضم ضمير المتكلم المتصل المرفوع قد تكون صحيحة من جهة أننا نجد ضم الضمير في اللغة العربية وفي اللغات

(١٢) انظر كتاب برجستراسر : التطور النحوى للغة العربية ص ٢٦ و ٨٠
وكتاب : Jacob Barth, Pronominalbildung, s. 3. Carl Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik der semitischen sprachen

- المجلد الأول ص ٢٣٩ و ص ٢٩٧
(١٣) انظر كتاب برجستراسر : التطور النحوى ص ٢٥ - ٢٦
(١٤) انظر شرح الكافية ج ٢ ص ١٠
(١٥) انظر الجزء الأول من حاشية الصبان على الأشمونى ص ١٠١
(١٦) انظر شرح الكافية ج ٢ ص ٧ و ابن يعيش : شرح الفصل ج ٢ ص ٨٦
والسيوطى : همع الهوامع ج ١ ص ٥٦
(١٧) انظر : شرح الكافية ج ٢ ص ٧
(١٨) شرح الفصل ج ٣ ص ٨٦
(١٩) همع الهوامع ج ١ ص ٥٦
(٢٠) انظر شرح الفصل ج ٢ ص ٨٦
(٢١) انظر شرح الكافية ج ٢ ص ٧
(٢٢) انظر كتاب : السيوطى : همع الصوامع ج ١ ص ٥٦

لأكادية (٣١) وفي اللغة الحبشية القديمة (٣٢) ، غير أن العلماء المحدثين قد لاحظوا أن تاء الفعل فعلت غير موجودة في ضمير المتكلم المنفصل ، وقد قان علماء العرب أن ضمير المتكلم المنفصل كان يجب أن تكون فيه التاء الموجودة في النصب الماضي كبت ، ولكنهم جردوه من العلامة لكي يميزوه عن المخاطب الذي فيه التاء (٣٣) ، ولكن الفرض الذي فرضه العرب غير صحيح لأننا إذا تتبعنا ضمير المتكلم في اللغات السامية القديمة والحديثة لا نجد أى أثر للتاء في أى صورة من صور الضمير الموجودة في تلك اللغات بينما نجد أن بعض اللغات السامية كانت تستخدم الكاف ضميرا للمتكلم المرفوع ، وتوجد هذه الكاف في ضمير المتكلم المنفصل المرفوع في بعض اللغات السامية كاللغات الأكادية (٣٤) ، واللغة الأبريتية (٣٥) ، واللغة العبرية (٣٦) ، وكذلك في اللغة المصرية القديمة وفي اللغة القبطية (٣٧) ، وما لا شك فيه أن استخدام الكاف ضميرا متصلا للمتكلم المرفوع مع وجود الكاف في ضمير المتكلم المنفصل المرفوع في بعض اللغات السامية يدل على أن التاء الموجودة في الفعل (كبت) غير أصيلة بين الضمائر المتصلة ، كما يدل على أن الجماعات السامية القديمة كانت تستخدم الكاف ضميرا متصلا للمتكلم المرفوع ، وقد بقى ذلك الاستعمال وعاش في اللغات الأكادية وفي اللغات الحبشية وفي اللغة الحميرية كما تصورها الكتب العربية (٣٨) ،

(٢٣) انظر كتاب : Wolfram von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, S. 98.

(٢٤) انظر كتاب, Carl Bezold, Ethiopie Grammar, p. 205 (London 1807).

(٢٥) انظر كتاب : محمد بن حسن الرضى : شرح الكافية ج ٢ ص ١٠.

(٢٦) انظر كتاب : Wolfram von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik, S. 41.

(٢٧) انظر كتاب : Cyrus H. Gordon, Ugaritic manual, p. 30.

(٢٨) انظر كتاب, Le P. Paul Jotou, Grammaire de L'Hebreu Biblique.

p ٩٠.

(٢٩) انظر كتاب : Jacob Barth, Pronominbildung, s. 4.

وكتاب Alan Gardner, Egyptian Grammar

وكتاب عبد المحسن بكر : قواعد اللغة المصرية ص ٢٤

(٣٠) جاء في كتاب تاريخ صنعاء اليمن لاسحاق بن جرير الصنعاني لوحة ١٦٧ أن أم وهب بن منبه قالت : رأيتك بنحلم كولدك ابنا من طيب ، والطيب الذهب بالحميرية ، قالت : رأيت كاني ولدت ولدا من طيب (نسخة مصورة من مخطوطة بلدية الاسكندرية رقم ٣٦٨٢ ج) وجاء في الجزء الثامن من الاكليل =

وفي بعض لهجات جنوب بلاد العرب الحديثة كالمصرية والشحرارية والسقيرية والبتاحارية والحرسوسية (٣١) ، وكذلك في قضاء حراز الواقع في غرب صنعاء وفي قضاء الطويلة الواقع في شمال غربي صنعاء (٣٢) ، ولكن اللغات السامية الأخرى ومنها اللغة العربية عدلت عن استخدام الكاف كضمير للتكلم المرفوع . واستخدمت التاء قياساً على تاء المخاطب الموجودة في الفعل الماضي كتبت ، وضير المخاطب أنت ، وقررت اللغة العربية وتلك اللغات بين تاء التكلم وتاء المخاطب بالحركات فضت تاء التكلم وفتحت تاء المخاطب ، كما أن بعض الجماعات السامية الأخرى استخدمت الكاف ضميراً متصلاً للمخاطب المرفوع قياساً على كاف التكلم التي كانت موجودة قديماً في تلك اللغات واللهجات ، أي أن اللغات السامية القديمة كانت تفرق في أول الأمر بين التكلم والمخاطب بالحروف فجعلت الكاف للتكلم والتاء للمخاطب ، ثم جائست تلك الجماعات العربية القديمة بعد ذلك بين المخاطب والتكلم في الحروف وقررت بينهما بالحركات فاستخدمت اللغة العربية وغيرها من اللغات السامية الأخرى التاء للتكلم وللمخاطب وقد ضمت تلك اللغات تاء التكلم في الفعل الماضي كتبت ، كما فتحت تاء المخاطب في الفعل الماضي كتبت ، وجائست بعض الجماعات السامية الأخرى بين التكلم والمخاطب في الحروف فاستخدمت الكاف للتكلم وللمخاطب وقررت بينهما بالحركات فضت كاف التكلم في الفعل الماضي (كتتك) بمعنى كنت وفتحت كاف المخاطب في الفعل الماضي كتك = بمعنى كنت .

وتوجد في كتب اللغة والنحو العربية بعض التواضعات التي تدل على أن بعض القبائل العربية كانت تستخدم الكاف كضمير متصل مرفوع للمخاطب فقد جاء في الجزء الحادي عشر من كتاب تاريخ أنساب الأشراف وأخبارهم

= (طبعة القاهرة) ص ١٨٢ وكذلك في كتاب ملوك حمير وأقبيل اليمن ص ١٦٠ (وهو شرح قصيدة نشوان الحميري) وفي RES رقم ٢١٨٢ ما يلي : أنى سمعة (أو شمعة) بنت ذى مرادك كنت إذا رحمتك = كنت إذا اشتيت .

(٢١) انظر Marcel Cohen, Philological Note, in the book of Bertram

Thomas, Four Strange Tongues, p. 105

وكتاب Bittner, Mehri-Sprache ص ٥٥ من ٢٢ وكتاب Bittner, Shauri-Sprache

ج ٤ ص ١٢

(٢٢) انظر : خليل يحيى نامى : من اللهجات اليمنية الحديثة - (الجموعة انشائية) مجلة كلية الآداب المجلد ١٥ الجزء الأول ص ١٠٧ - ١٠٨

للسيخ الامام أبي الحسين البلاذري ص ٨٠ ما يلي : وجعل أهل الشام يقولون
وهم يرمون :

يا ابن الزين طالما عصيكا ، وطالما غيتنا اليكا ، لتحزنن بالذي أميكا .
ومعنى طالما عصيكا هو طال ما عصيت ، أي أن الكاف في هذا الرجز ضمير
للمخاطب المتصل المرفوع وروى هذا الرجز أيضا في كتاب النوادر في اللغة
للأبي زيد سعيدين أوس الأنصاري ص ١٠٥ وهو منسوب لراجز من حمير ،
غير أن المصراع من ذلك الرجز يروى هكذا : لنضرين بسفينا قفيكا ، كما جاء
هذا الرجز أيضا في الجزء الأول من سر صناعة الاعراب لابن جنى ص ٢٨١ ،
وقد قال ابن جنى في ذلك الكتاب بعد ذلك الرجز ما يلي : أبدل الكاف من
التاء لأنها أختها في الهمس وكان سحيم إذا أنشد شعرا جيدا قال : أحسنتك
واش ، يريد : أحسنت . وجاء ذلك الرجز أيضا في شواهد خزانة الأدب
لعبد القادر البغدادي في باب الاضافة ، وقد روى عن أبي علي في المسائل
العسكرية أن أبا الحسن الأخفش قال : ان شئت قلت أبدل من التاء الكاف
لاجتماعها معها في الهمس ، وان شئت قلت أوقع الكاف موقعها وان كان في
أكثر الاستعمال للمفعول لا للفاعل لاقامة القافية .

وروى البغدادي أيضا أن ابن هشام في المغني قال : ليس هذا من استمارة
ضمير النصب مكان ضمير الرفع كما زعم الأخفش وابن مالك ، وانما الكاف
بدل من التاء بدلا تصريفيا .

٤ - صاغت اللغة العربية ضمير المتكلمين على غير نسق صيغة المتكلم
الفرد واستخدمته للذكر والمؤنث وللشئ وللجمع على السواء ، وعلى لغويي
العرب ونحوييهم ذلك بقولهم ان صيغة (نا ونحن) ارتجلت لشئ المتكلم
وجمعه لأنه لم يرد ضم متكلم الى متكلم : كما أن التثنية هي عبارة عن ضم
اسم الى اسم ولذلك لم يضعوا في الضمير ألفا للشئ وللجمع واوا كـ ' هـ
الحال في شئ المخاطب وجمعه وشئ الغائب وجمعه لأن شئ كل ضمير منعدا
هو عبارة عن اسم ضم اليه لفظ آخر مثله ، أما الضمير (نحن) فليس كل أفراد
تكلسا أي (أنا) بل ان مثاه وجمعه يشلان المتكلم والمخاطب والغائب فتقول

في المثني مثلاً (أنا وزيد) أو (أنا وأنت) كما تقول في الجمع مثلاً (أنا وأنت وهو أو أنا وزيد وعمر) لذلك نم يثنوا الضمير ولم يجمعوه وفق ما أجرى عليه سائر الجموع والمثنيات بل ارتجل العرب القدماء صيغة لثنى المتكلم وأشركوا الجمع فيها للأمن من انغلب بسبب القرائن (٣٢) .

هـ — واختلف علماء العرب في علة بناءه على الضم فقال القراء وتعلب انه بنى على الضم لأنه تضمن معنى التثنية والجمع فقوى بأقوى الحركات وهي الضمة (٣٤) ، وقال أبو اسحق الزجاج ان (نحن) للجماعة ومن علامة الجماعة الواو ، والضمة من جنس الواو ، وهي أقرب الحركات الى معنى الجمع (٣٥) ، وقال أبو الحسن الأخفش الصغير ان الضمير (نحن) للمرفوع لذلك حُكِرَ بحركة المرفوع (٣٦) ، وقال أبو العباس المبرد ان ضمير نحن شبه يقبل وبعد لأنه متعلق بشيء هو الاخبار عن اثنين فأكثر لذلك حرك بالضم كما حركت قبل وبعد لأنهما يصلحان للشيء وللتثنية فما فوقهما لذلك صارت (نحن) غاية كقبل وبعد (٣٧) .

وما سبق أن ذكرناه هو عبارة عن أهم الآراء التي قيلت في تحريك ضمير المتكلمين بالضمة ، وأقرب هذه الآراء الى الحقيقة والصحة هو رأى أبى اسحق الزجاج الذى يقول ان الضمير (نحن) حرك بالضمة لأنها أقرب الحركات الى معنى الجمع لأن الضمة من جنس الواو التي هي علامة الجمع ، لأن المقارنات التاريخية للغات السامية تدل على أن ضمة الضمير (نحن) أصلها ضمة مشبهة أى واو وقصرت بعد ذلك الى ضمة لوقوعها في نهاية الاسم ووقع النبرة عليها . وتحريك الضمير (نحن) بالضمة أو بالضمة المشبهة أى بالواو التي هي علامة الجماعة يشبه تحريك ضمير المخطئين (أتم) وضمير الناصبين (هم) بالضمة أو بالواو في حالة الوصل ، أى أن الضمير (نحن) عندما استخدمت

- (٣٢) انظر : شرح المفصل لابن يعيش ج ٢ ص ١٤ وشرح الكافية لمحمد ابن حسن الاسترأبادى ج ٢ ص ٧ وتاريخ التطور النحوى لبرجستراسر ص ٤٩ .
(٣٤) انظر همع الهوامع للسيوطى ج ١ ص ٦٠ .
(٣٥) انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٢ ص ١٤ و همع الهوامع ج ١ ص ٦٠ .
(٣٦) انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٢ ص ١٤ و همع الهوامع ج ١ ص ٦٠ .
(٣٧) انظر شرح المفصل لابن يعيش ج ٢ ص ١٤ و همع الهوامع ج ١ ص ٦٠ .

الجماعات القديمة للدلالة على جمع ضمير المتكلم أضافت إليه العلامة التي أضفت إلى جمع ضمير المخاطب والغائب ، أي أن الواو التي قصرت إلى ضمة فيما بعد كانت عند الجماعات السامية القديمة علامة من علامات جمع ضمائر المتكلم والمخاطب والغائب .

ومن الجائز أن يقال أيضا أن ألف ضمير المتكلمين المتصل (نا) هي التي جعلت علماء العرب يقولون أن ضمير المتكلمين (نحن ونا) أرتجل للثنى وأبترك الجمع فيه للأمن من اللبس بسبب القرائن كما ذكرنا ذلك من قبل ، وذلك لأن الألف هي علامة التثنية في ضمير المخاطبين (أتما) وفي ضمير الغائبين (هما) .

وألف (نا) موجودة أيضا في ضمير المتكلمين المنفصل في بعض اللغات السامية وفي بعض اللهجات العربية الحديثة فنجد مثلاً (أنحنا) في آرامية العهد القديم وفي آرامية أوراق البردي المصرية ، كما توجد (نحنا) في الترجموم (٣٨) . (نحنن) في اللغة الحثية القديمة (نحنا) في لغة تيجرانيا (٣٩) ، (انحنا) في اللهجات العربية الحديثة في مصر وفي سوريا وفي العراق (٤٠) ، كما يقال أيضا (نتحنا و نتحنا) في سوريا وفلسطين (٤١) . وضمير المتكلمين المتصل في معظم اللغات السامية هو (نا) كما هو في لغتنا العربية ، غير أنه عبارة عن لون مضمومة ونون مكسورة في اللغات الأكادية ، ونون وواو في اللغة العبرية ، وقد يدل ذلك على أن الحركة النهائية للضمير في اللغات السامية لا تتفق مع حركة الضمير المتصل .

٦ - توجد في اللغة الأوجرتية صيغة لثنى ضمير المتكلم المتصل وهي عبارة عن نون وياء (٤٢) ، وتستخدم هذه الصيغة أيضا في اللغة المصرية القديمة لثنى ضمير المتكلم المتصل ، وهذا مما قد يدل على أن المصريين القدماء

(٢٨) انظر كتاب : Jakob Barth, Pronominal Bildung in den Semitischen

Sprachen ; Carl Brockelmann, Grundriss der vergleichenden Grammatik

der semitischen Sprachen ص ٢٠٠

(٣٩) انظر كتاب بروكلمان السالف الذكر ص ٢٩٩

(٤٠) انظر كتاب بروكلمان السالف الذكر ص ٢٩٩

(٤١) انظر كتاب : G. R. Driver, A Grammar of the Colloquial Arabic

١ Syria and Palestine, p. 25.

(٤٢) انظر كتاب : Cyrus H. Gordon, Ugaritic manual ص ٢١ وكتاب

Joseph Aistleitner, Untersuchungen zur Grammatik des Ugaritischen ص ٢٧ و٢٦

والأوجرتين كانوا يشنون كل الضائر ولا يقصرون التثنية على ضميرى المخاطب والغائب كما فى اللغة العربية (٤٢) .

٧ - وما سبق أن ذكرناه قهون أنه من الجائز أن الجماعات السامية القديمة كانت تستخدم صيغتين لثنى ضمير المتكلم وجمعه وهما :

(١) صيغة منتهية بواو بعد النون كما فى اللغة العربية ، أو منتهية بنون مضمومة وهى موجودة فى اللغة العبرية وفى اللغة الكنعانية القديمة كالفينقية .

(٢) صيغة منتهية بآلف لينة بعد النون أو بنون مفتوحة وهى موجودة فى اللغات الآرامية وفى اللغات الحبشية وفى بعض اللهجات العربية الحديثة ، وقد كانت هذه الصيغة فى القديم عبارة عن ياء ساكنة مسبوقة بفتحة .

واستخدمت الجماعات القديمة الصيغة الأولى وهى صيغة (أنحنو ، نحنو ، نحنن) (nenu) لجمع ضمير المتكلم كما استخدمت الصيغة الثانية وهى صيغة (أنحنأ ، نحنأ ، نحنن) لثنى ضمير المتكلم ، وكان الضمير المتصل لثنى المتكلم هو عبارة عن نون مفتوحة فياء وصار بعد ذلك نونا مفتوحة فالنأ لينة أى (نا) . وكان الضمير المتصل لجمع ضمير المتكلم هو عبارة عن نون مضمومة فواو ساكنة ، وقصرت بعد ذلك الى نون مضمومة ، أى أن تلك الجماعات السامية القديمة كانت ثنى ضمير المتكلم كما كانت ثنى ضميرى المخاطب والغائب ، وما يؤيد ما قوله أن الأوجرتين وكانوا من الجماعات السامية القديمة ، قد ثنوا ضائر المتكلم والمخاطب والغائب ، وكان يفعل كذلك المصريون القدماء الذين كانت تربطهم بالجماعات السامية صلات قريى وعلاقات عديدة .

٨ - وأخلت فكرة ثنية ضمير المتكلم تضعف عند الجماعات السامية القديمة وتتلأى من الاستعمال للتخفيف أو لأسباب أخرى نجلها ، غير أن

(٤٣) انظر كتاب : Cyrus H. Gordon, Ugaritic manual ص ٣١

(٤٤) انظر كتاب: Wolfram von Soden, Grundriss der Akkadischen Grammatik

ص ٤١ و ٤٢ صيغة nenu موجودة فى اللغة الآشورية القديمة وفى اللغة البابلية أى من سنة ١٩٥٠ الى سنة ١٥٣٠ قبل الميلاد ونجد فى البابلية المتوسطة وفى الآشورية المتوسطة صيغا عديدة أخرى هى nenu nini و nenu nini وذلك من سنة ١٥٣٠ الى سنة ١٠٠٠ قبل الميلاد ، ونجد فى البابلية الحديثة صيغة anenu وهى تقابل صيغة انحنأ الآرامية وكان ذلك من سنة ١٠٠٠ الى سنة ٦٢٥ قبل الميلاد .

فكرة ثنية ضمير المتكلم ظلت آثارها باقية عند تلك الجماعات حتى القرن الرابع عشر قبل الميلاد كما يتضح ذلك من اللغة الأوجريّة التي احتفظت بالضمير المتصل لثنى المتكلم ، وكان ذلك لكثرة استخدام الضمائر المتصلة ولكثرة شيوعها على ألسنة الجماعات وتداولها بينهم .

٩ - استخدمت بعض الجماعات السامية القديمة صيغة الضمير المتصل لثنى المتكلم للدلالة على الجمع أيضا لأن صيغة المثنى كانت شائعة بين الناس لخفتها وسهولتها ، كما كانت كثيرة التداول على ألسنتهم مثل ni و ne في اللغات الأكادية القديمة (٤٥) . استخدمت بعض الجماعات القديمة صيغة الضمير المنفصل لثنى المتكلم وهي (أنحنا ونحنا ونحن) وأشركت الجمع فيه ، كما احتفظت بعض الجماعات الأخرى بصيغة الجمع وهي (nīnu ونحن وأنحنو) وأشركت المثنى فيه . استخدمت اللغة العرية صيغة الضمير المتصل لثنى المتكلم وهي صيغة (نا) للدلالة على الجمع أيضا مع أنها احتفظت بصيغة الجمع لضمير المتكلم المنفصل وهي صيغة (نحن) للدلالة على الثنية أيضا ، وكذلك كان يفعل الأكاديون القدماء والبابليون والآشوريون (٤٦) ، فقد كان ضمير المتكلم المنفصل الجمع عندهم هو nīnu وكان الضمير المتصل لثنى المتكلم عندهم هو ni و ne ، وبهذا القول نكون قد انتهينا من مناقشة آراء العرب في ضمير المتكلم الجمع والادلاء برأينا فيه .

(٤٥) انظر كتاب Von Soden السابق الذكر ص ٤٣ و ٤٤
(٤٦) انظر كتاب Von Soden السابق الذكر ص ٤١ و ٤٢-٤٤

مكانة الفن الاسلامى بين الفنون

للدكتور محمد عبد العزيز مرزوق

لا شيء مثل الفن الجميل يصفى الذوق ، ويرهف الحس ، ويذكى فى النفس حب الجبان . وتصفية الذوق ، وارهاف الحس ، واذكاء حب الجمال أمور لا غنى لأى أمة عنها ان شئت أن تتبوا مكانا كريما بين الأمم الراقية .

ولقد أدرك أجدادنا من المسلمين هذه الحقيقة فوجهاوا للفن نصيبا وفيرا من عنايتهم ، وكان من أثر هذه العناية أن أصبح لهم فن جميل أبدعوه أيام عظمتهم هو ذلك الفن الذى اصطلح على تسميته بالفن الاسلامى .

ولقد أتى حين من الدهر لم يكن فيه هذا الفن شيئا مذكورا ، ولم تكن له بين فنون الفراعنة واليونان والرومان والساسان والبيزنطيين وغيرها من فنون الأمم التى سبقت المسلمين أو لحقت بهم مكانة ملحوظة . ولعل ذلك راجع الى أن معرفتنا بالحضارة الاسلامية كانت حتى فجر القرن التاسع عشر الميلادى لا تتجاوز ما سجلته كتب التاريخ ، فلما ولد علم الآثار واستقام عوده (١)

(١) دراسة الآثار القديمة لم تعرفها الأمم القديمة ولم تهدف اليها ، بل هي ثمرة من ثمار المدنية الأوروبية الحديثة . وقد تجلت أولى خطوات هذه الدراسة في افتتاح المتحف المختلفة التى ابدعتها الأجيال القديمة ، وكان المسلمون أول من عنى بجمع هذه المتحف وترتيبها في مكان واحد فكان لهم بذلك فضل انشاء أول متحف 'نرى' ، وخير مثال نسوقه لبيان ذلك هو متحف الخليفة الفاطمى المستنصر بالله الذى كان يعيش في القاهرة في القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) .
وتمد كان لهذا المتحف اهم الخصائص التى للمتحف الأثرية كما نعرفها اليوم ولم يختلف عنها الا في الغرض من انشائه . فقد انشاء المستنصر للمباعدة والافتخار في المتاحف اليوم . ولم يعرف الغربيون المتاحف الا بعد أن عرفها العرب بنحو خمسة مرون اى قبيل القرن السادس عشر الميلادى عندما استيقظوا من سباتهم في تلك الفترة التى اسطلىح المؤرخون على تسميتها بعصر 'نهضة الأوربية' . واخذوا ينظرون الى التراث الفنى لليونان والرومان نظرة اعجاب امتزجت فيها عوامل التقديس =

انصرف فريق من العلماء الى دراسة الفن الاسلامى كما يتجلى فى الممار
والتحف المنقولة دراسة علمية صحيحة ، وبدأت بعد ذلك تظهر مكاتبه بين
اغنون فى وقت كان المسلمون أنفسهم فيه فى غفلة عن هذا التراث وأهميته •
ترى كيف نشأ هذا الفن ؟ وأين تقع مكاتبه بين الفنون التى سبقت له أو
لحقت به ؟

الجواب على ذلك يقتضينا أن نعود الى الوراء لنرى الاسلام الذى ينسب
اليه هذا الفن عند أول اشرافه على الوجود ثم نمضى عبر السنين مع الذين
اعتنقوه لنرى كيف أخذ يتكون حتى نصل الى العصر الذى اكتسبت فيه
شخصيته ، وبدأ يفصح عن نفسه ويترك فى المحيط الذى قدر له أن يعيش
فيه أثرا واضحا •

والعرب الذين ظهر الاسلام بينهم عرف معظمهم منذ نشأتهم بالبداوة
والسذاجة ، وجاء الاسلام معبرا بأصوله ومبادئه عن هذه الصفات التى انعكست
بأوضح صورة فيما أقاموه فى فجر حياتهم بعد الاسلام من مساجد وفيما
أخرجته أيديهم حينئذ من مصنوعات •

• التى اكتسبها هذا التراث بحكم القدم مع عوامل التقديس التى استحقها لانه من
صنع أولئك الذين اتخذوهم لهم قادة فى حياتهم الجديدة يسرون على هديهم ،
وينسجون على متوالهم • وفى القرن الثامن عشر الميلادى فى عهد الثورة الفرنسية
التي هدمت الحواجز الفاصلة بين طبقات المجتمع الفرنسى أصبحت قصور الملوك
والاشراف بما حوته من تحف أثرية ملكا للشعب ، وانقلب قصر اللوفر بما فيه
من نفائس شتى جميعها ملوك فرنسا فى المصور المختلفة الى متحف أهلى عظيم ،
وفى هذا القرن بالذات بدأت الخطوة التالية من خطوات دراسة الآثار إذ أخذ فريق
من العلماء يعمون بالبحث فى هذا التراث القديم فوله بذلك علم الآثار بين جدران
التابوت ، ولولا ثم استعصم تأثيره فشمعت دراسة للمعاني القديمة ، ثم وادت أسلحة
فاتيحه للعلماء الى التنقيب عن آثار الماضى فى مبان وجوهره ، ثم ظهر التخصص
فى هذا العلم واتجه فريق من الباحثين الى دراسة التراث للفنى للمسلمين والى
التنقيب عنه ولم يتركوا جانباً من جوانب هذا التراث الا قتلوه بحثاً ، ومؤلفاتهم
وحفائرهم ومؤتمراتهم ومعارضهم ومتاحفهم خير دليل على ذلك •

وفيمما يتعلق بالتحف التى خلفها المستنصر راجع خطط القرى (طبعة بولاق)
ج ١ ص ٤٠٨ - ٤٢٥ وكنوز الفاطميين للدكتور زكى محمد حسن (من مطبوعات
المتحف الاسلامى بالقاهرة ص ٢٧ - ٦٥ - وفيما يتعلق بالتهنئة الأوربية راجع
كتاب سيدنى دارك الذى ترجمه محمد بدران (من مطبوعات بيت المغرب) •
وفيمما يتعلق بنشأة المتاحف الأوربية راجع كتابه Sir Fredric Kenyon, Libraries
and Museums, pp. 54-55., London, 1930.

خرج العرب من صحرائهم غزاة فاتحين ، وارتفعت أعلام الاسلام فوق ربوع فارس والعراق والشام ومصر والمغرب والأندلس واستطاعت هذه الأمة التي خرجت وليس عندها من مقومات الحياة الاجتماعية الا عاصر بسيطة - أن تستمر ببقائها القليلة وحضارتها الساذجة على تلك الأمم العريقة في الحضارة . ولم تستخفها ثنوة ذلك النصر المبين فتدفع بها الى تقويض دعائم النظم التي وجدت قائمة في تلك البلاد التي فتحتها ، ولا أغرتها حلوة الفقر بالقضاء على ما لم يكن مألوفاً لديها أو متفقاً وآراءها ، أو منسجماً ومذاهبها في الحياة ، بل هدتها فطرتها السليمة ومروتها المحمودة الى تثبيت النظم التي كانت سائدة في تلك البلاد ما دامت لا تتعارض والمبادئ العليا التي أتى بها الاسلام . وتلك لا شك ميزة من مزايا العرب اكتسبوها - أغلب الظن - من بيئةهم الجغرافية الفقيرة ، فتلك الصحارى القاحلة التي عاشوا في جنباتها والواحات القليلة التي لم تكن حاصلاتها لتسد رمق أهلها ، والحشائش الذابلة المنبتة هنا وهناك لتكفي في سر لرعى حيواناتها مما دفع بالعرب الى الاشتغال بالتجارة مع الرعى . وقد مهد لهم الاشتغال بالتجارة سبيل الاختلاط بغيرهم من الأمم والاطلاع على حضارتهم الأمر الذي علمهم احترام أديان غيرهم قفل تمصمهم ، كما اكتسبهم أيضاً مرونة في أخلاقهم فصار لهم استعداد واضح لقبول الجديد اذا ما اقتنعوا بفائدته (٢) .

وما كاد العرب يضمنون عن كواهلهم عتاد الحرب ، ويخلدون الى السكينة والسلم حتى تدفقت عليهم الثورة من كل حلب وصوب ، وهوا يخرجون من بدواتهم ولكن أبابكر وعمر كانا لهم بالمرصاد فكبجا جياحهم ما استطاعا الى ذلك سبيلا ، وجاء عثمان وكان حياً لنا لم يرزق قوة أبي بكر ولا حزم عمر

(٢) لعل هذه الميزة تبدو واضحة جلية اذا ما قارنا بين العرب والأتراك ، فالعرب كما ذكرنا اضطروا بسبب فقر بيئتهم الى الاشتغال بالتجارة ، أما الأتراك فقد اكتفوا بالاشتغال بالرعى لأن بيئة المراعى التي نشأوا فيها قد أغنتهم بخيراتهم عن الاشتغال بغير الرعى فاستقلوا في جميع شؤونهم عن العالم الخارجى وأصبحوا متمصين لدينهم وعقائدهم ، شديدو المحافظة على عاداتهم ، يحتقرون غيرهم ويؤمنون بهم افضل الأمم . والتاريخ خير ما يؤيد هذه الحقيقة الجغرافية فالعرب انقذونا في مصر ألفتنا ودين الأغلبية منا ، وطبعونا بظانهم بينما الأتراك دخلوا وخرجوا منها وكنهم لم يقضوا بها تلك الحقبة الطويلة التي قدر لهم أن يحكموا فيها بلادنا .

فأفلت الزمام من يده ، وكانت البيئات الجديدة التى استقر بها العرب قد أثرت فى نفوسهم فاندفعوا إلى الترف يأخذون منه بأوفى نصيب وحرصوا على الاستمتاع بالحياة ومتعها المشرقة فتأقوا فى مأكلمهم وملبسهم واستبدلوا دورهم القديمة الساذجة بقصور فخمة شاهقة ، رشيقة التكوين ، موزونة الأبعاد ، منقمة الجدران ، وكأنما أحسوا وهم يستمتعون بهذه الحياة الجديدة التى رقت عليهم فيها ظلال الدعة والترف - بما بين بيوتهم وبيوت الله من بون شاسع وفارق عظيم ، وتذكروا قول الله عز وجل : « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » (١) فأقبلوا على المساجد يرفعون من شأنها بتشيدتها وتتميقها أجلا لها وتطيها لقدرها ، وبمدا بها عن مواطن الاستهانة إذا ما قودرت بيوتهم الجميلة أو بتلك الكنائس الفخمة التى شاهدها فى البلاد التى أخضعوها لسلطانهم . وقد كان مسجد المدينة المنورة أول مسجد يلبس على يدى الخليفة الثالث عثمان بن عفان ثوبا من الجمال قشيا إذ بناه بالحجارة المنقوشة والقصة (أى الجص) ، وجعل عمده من حجارة منقوشة وسقفه بخشب الساج وحسنه (٢) .

وتزين المساجد والباسا حلة من البهاء والأبهة مسألة يحاول بعض المستشرقين وعلماء الآثار من الأجانب أن يرجعوها إلى عوامل شتى فى ظروفها إلى ذلك الدور الذى كانت تلعبه المساجد فى الحياة السياسية فى صدر الإسلام إذ فيها كان يسطر الحاكم سياسته ، ويدعو الناس إليها طورا بالترغيب وأما بالترهيب ، ولكى يذيع وجهة نظره فى الحكم ، ويؤيدها ويقم الدليل على صلاحيتها أمام أكبر عدد ممكن من الرعية عمل على تجليل مسجد العاصمة ليستهوى النفس وبروق فى العين وينرى المسلمين بالسعى إليه تاركين وراءهم مساجدهم المحلية الساذجة البسيطة (٣) .

(٣) سورة النور - آية ٣٦

(٤) Oraswell (R. A. C.), Early Muslim Architecture, Vol. 1, p. 31.
(The University Press, Oxford, 1922).

والمراجع التى يشير إليها .
(٥) انظر ما كتبه كرزل فى كتابه المذكور فى الفقرات السابقة (ص ٣٥) والمراجع التى يشير إليها فى تلك الصفحة .

على أنه ان صح أن للعامل السياسى أثر فى ذلك فإنه وحده لا يكفى لتعليل هذه المسألة ولا ينهض بنفرده دليلا عليها ، بل هو لا يكذب يعدو أن يكون عاملا مساعدا فحسب ، ذلك لأن مسألة زخرفة المساجد لا نرى فيها من انتقيد ما يحصل على التأسى الملل لها ، بل هى أمر طبيعى اقتضته سنة النشوء والارتقاء ، فلقد أذن الله أن ترفع المساجد أى تعظم بيوتها ، ومن وسائل هذا التعظيم تشييدها على أحسن وجه ممكن وزخرفتها فى أبهى صورة مستطاعة لتسلأ أقطار العين بروعتها وجمالها ، وتفرض على النفس اجلالها واحترامها (١) .

وهكذا ولد الفن الاسلامى فى عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان الذى خرج بمسجد المدينة عن بساطته القديمة وجعل منه أثرا جبيلا يبربره الناظر .

ولقد شجع المسلمون على العناية بالتجميل أو بعبارة أوضح على العناية بالفن الجميل وأنغرامهم به ما وجدوه فى الاسلام من تسامح فى كل ما يتصل ببهاج الحياة وممتتها ما دامت لا تتعارض مع أصوله فى شئ ، وما دامت لا تخرج عن دائرة الاعتدال . ولقد وقف الاسلام على طبيعة الإنسان ، وعلم ما يضطرب بين جنبه من نزعات ، وما ركب فيه من غرائز وميول فلم يحاول كبتها بالزامه الوقوف عند حد الضرورى اللازم لبقائه بل تركه يلبى ما تنطوى عليه نفسه من غرائز السرود أن يعترض سبيله أو يحد من نشاطه فنهده له بذلك سبيل الوصول الى ذروة التقدم المادى . لقد ذكره القرآن الكريم بالحياة الدنيا وما لها عليه من الحق : « وإبتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله اليك » (٢) ولقد بصره القرآن بما فى الوجود من زينة وحبيها اليه . « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق » (٣) . فليس الاسلام اذن دين خشف وخشونة كما يذهب

(٦) راجع كتاب مساجد القاهرة قبل عصر المماليك لكاتب هذا البحث - الطبعة الثانية ص ٢١ - ٢٢
(٧) سورة القصص آية ٢٧
(٨) سورة الاعراف آية ٣٢

الى ذلك بعض الناس ، وليس المثل الأعلى فيه هو الزهد في زينة الحياة الدنيا ، بل هو يدعو مع العبادة الى العمل على الرقى ، والى اتهاج كل سبيل الى التقدم المعنوى والمادى .

لقد نلت القرآن أنظار المسلمين الى ما يحيط بهم من المخلوقات ، ودعاهم الى النظر اليها والى التأمل فى شأنها . « قل سبروا فى الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق » (١) . « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شئ » (٢) . وهو بهذه الدعوة لنا يشعذ فيهم قوة الملاحظة وقوة التفكير وقوة التدبر وهى جميعا عماد الحضارة والفن فلا عجب اذا اندفع المسلمون فى سبيل الفن بنفوس راضية وأقبلوا عليه بقلوب مطمئنة . نعم لقد كان النبى صلوات الله عليه — وهو المثل الأعلى للمسلم الصحيح — شديد الزهد فى الماديات ، ولكنه كان على زهده شديد الحرص على أن يحيط بهذه الماديات ويلم بها ، كان زاهدا فى اللباس ولكن هذا الزهد لم يمنعه من أن يرتدى فى بعض الأحيان من أقمشة الين لباسا فاخرا ، وكان متشفا فى طعامه ولكن تقشفه هذا لم يحل بينه وبين أن يأكل — فى بعض الأحيان — من فاخر الأطعمة كالعسل وزبد الخروف والحلوى . على أنه لا ينبغي أن تنسى هنا أن النبى الكريم كانت له حكمة بالغة فى أن يغلب زهده على تمتعه بطيبات الحياة ، فقد اخشوشن فى معيشته لكى يضرب للناس المثل الأعلى فى السيطرة على متع الحياة الدنيا سيطرة لا يتسرب اليها ضعف أو وهن .

فالمسلمون اذن لم يجدوا فى دينهم ما يحول بينهم وبين الاقبال على الفنون الجميلة فى شتى صورها . والواقع أن الاسلام قد وقف من تلك الفنون موقفا يختلف عن موقف اليهودية أو المسيحية . فاليهودية قد وقفت من بعض مظاهر الفنون الجميلة موقف العداء السافر فحرمت على معتققيها مزاولة فن النحت والتصوير (١) . والمسيحية دعت الى ترك الدنيا والتجرد منها والانتقال الى

(١) سورة المنكوت آية ٢٠

(١٠) سورة الامران آية ١٨٥

(١١) جاء فى التوراة الأصحاح العشرين من سفر الخروج « لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض . ولا تسجد لهن ولا تعبدن لأنى انا الرب الهك اله غيور » .

الآخرة والاقبال عليها ومثل هذه الدعوة ليس فيها ما يشجع على قيام الفنون الجيلة وازدهارها لأن تنكر جمال هذه الدنيا وتطالب بكبت ما في الانسداد من ميول وغرائز لذلك لم تبتدع المسيحية فنا جميلا الا اذا سمينا الرموز التي رسمها المسيحيون الأوائل في السرايب والكهوف Catacombs كالسكة والحمامة والراعي فنا . ولكن المسيحية عندما ثبتت أصولها واعترفت الدولة الرومانية بها وأقبل الناس على اعتناقها استعانت بالفن الروماني في نشر عقائدها وتقريبها الى معتققيها (١٢) . أما الاسلام فلم ينكر الفنون الجيلة كما أنكرتها اليهودية ولم يستفد بها في نشر دعوته كما استخدمتها المسيحية ولكنه تضمن توجهات مختلفة كان لها أبعاد الأثر في تكوين الفن الاسلامي وفي نفوذه (١٣) .

وقد ازداد انصراف المسلمين في عصر الدولة الأموية الى الحياة المدنية ، وأبدعوا فيما أبدعوا فنون العمارة والنقش والخط والحفر والنحت والتصوير والزخرفة وما إليها ، واستعانوا في ذلك - في أول أمرهم - بمن وجدوه بين أيديهم من فنانين وصناع الأمم التي خضعت لهم ، فعمل هؤلاء في تشييد المساجد والقصور وفي صناعة الخزف والمنسوجات وفي نقش المعادن والماج والأخشاب . والتأمل فيما وصل إلينا من الأبنية والتحف التي ترجع الى هذا العصر لا يترك مجالا للشك في أنها جميعا تزدهر بفن هو مزيج من فن الروم في يزنطة وشمال افريقية ، وفن الفرس في ايران والعراق ، وفن القبط في مصر ، وفن القوط في

(١٢) راجع الاسلام والفنون الجيلة لكاتب هذا البحث ص ٩ مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٤٤ . وراجع أيضا بحث الأستاذ أحمد محمد عيسى أمين مكتبة جامعة القاهرة في مجلة الأزهر - شوال ١٣٧ (سنة ١٩٥١) بعنوان « المسلمون والتصوير » .

(١٣) هذه التوجهات بعضها إيجابي مثل تشريف الخط ، وتفصيل الزخارف النباتية والهندسية ووصف قصور الجنة . وبعضها سلبي مثل تحريم الربا وكرامة التصوير وتنظيم استعمال الذهب والفضة والحريز . وبعضها عوامل مساعدة استمدت أصولها من الدين وكان لها أثر فعال - وإن كان غير مباشر - في تكوين الفن الاسلامي مثل النقابات والحسنة والوقف (راجع ص ١٠ - ٢٥ من كتابنا « الاسلام والفنون الجيلة ») ونستطيع ان نضيف الى ما تقدم عامل آخر لم نذكره من قبل هو الحج الذي هو في الحقيقة أمر صادر الى الأغنياء للسفر الى مكة حيث يجتمعون بغيرهم من المسلمين في الاقطار الأخرى فيتبادلون السلع المختلفة عن طريق التجارة أو الإهداء ويحملون هذه السلع الى بلادهم فتؤثر في مصنوعياتهم . وقد يكون الحجاج أنفسهم من أهل الصناعة فيتناقشون في شؤونها وقد يتبادلون أسرارها .

الأندلس . فالفن الاسلامى الذى شاهدنا مولده فى عهد عثمان بن عفان قد شب
الآن عن الطوق ولكن شخصيته لم تتحدد بعد .

وسقطت الخلافة الأموية فى الشرق وقامت على أنقاضها الخلافة العباسية
فى العراق ، وقام الى جانب هذه خلافة ثانية فى الأندلس وخلافة ثالثة فى مصر .
وإذا كان الفن الاسلامى لم ينضج فى عهد الدولة الأموية الشرقية كما قدمنا فهو
الآن قد استقام عوده وتحدت معاله واكملت شخصيته ، اذ سرعان ما حظى
المسلمون ما أخذوه من فنون الأمم السابقة عليهم وتمثلوه وأضافوا اليه وهذبوا
فيه ثم أخرجوا لنا بعد ذلك فنا جنيلا فيه للفكر متعة وللعين روعة ، وللنفس
لذة وغبطة ، أبدعوا ذلك الفن الذى أثر فى فنون أوروبا أثرا اعترف به علماء
الآثار ومؤرخو الفن من الغربيين قبل أن تظن اليه نحن معشر الشرقيين . فالفن
الاسلامى قد اعتمد فى نشأته على فنون الأمم التى سبقت الى الوجود ولكنه
ما كاد يتفتح عن أكمامه ويتفوق غيره حتى أخذ بدوره يؤثر فى الفنون الغربية
عاصرته أو أتت بعده ويسمى ليأخذ مكانه بينها .

ولكننا قبل أن تفصل القول فى مدى هذا التأثير وبيان هذه المكانة نرى من
الضرورى أن نقف قليلا متسائلين كيف تسرب الفن الاسلامى الى أوروبا
واستطاع أن يؤثر فى فنونها ويأخذ مكانه بينها .

الواقع أنه نفذ اليها عن طريقين رئيسيين : طريق السلم وطريق الحرب .
أما عن طريق السلم فقد عرفه الحجاج الأوروپيين عند زيارتهم لقبر السيد
المسيح فى بيت المقدس ، ولا ينبى عن الذهن أن عدد هؤلاء الحجاج لم يكن
فى المصور الوسطى قليلا فقد كانت سيطرة الدين حينئذ على النفوس قوية
عظيمة ، وكان الناس أكثر اشتغالا بأمور دينهم عما هم عليه الآن . كما عرفه
أيضا التجار من الأوروپيين عندما تبادلوا سلعهم مع سلع التجار من المسلمين
الذين وفدوا الى بلادهم يحملون اليها أجمل ما أخرجته مصانع بلادهم (١٤) من
شتى المصنوعات الشرقية وأفخم ما أبدعته أفواههم من أجمل المنسوجات
والطنافس (أى الأبسط ذات الخمل Pile Carpets) وثمت وسيلة أخرى قد

(١٤) Kramers (J. H.), Geography and Commerce, p. 100. The Legacy of Islam, Oxford University Press, 1947.

تكون أقل شأنًا من الوسيطتين سالفتي الذكر ولكن من العسير اغفالها تلك هي الهدايا التي كان يبعث بها الخلفاء والسلطين في المناسبات المختلفة الى ملوك أوروبا وأمرائها .

وهكذا عرف الأوروبيون الفن الاسلامى مثلاً في التحف المختلفة التي قتلوها من الشرق أو قتل اليهم ، ولكنهم في الواقع قد ازدادوا معرفة بهذا الفن عندما غزت جيوش المسلمين بعض أنحاء قارتهم : ففي الأندلس ، وفي جنوب فرنسا ، وفي صقلية ، وفي جنوب ايطاليا ، وفي بولنדה ، وفي اليونان عاش المسلمون رجحا من الزمن ليختلف مدته باختلاف الظروف التي أحاطت بهم ، وشيدوا لأنفسهم في تلك البلاد العمارات المختلفة من مساجد وقلاع وأستوار وفصور ضباع الكثير منها ولم يبق الا القليل ، وقد طعموا الفن المجلى الذي كان سائدا وقت سيطرتهم بالكثير من عناصر فنهم ، ولقد توفر لبعض علماء الآثار من الغربيين والشرقيين على دراسة تلك العناصر المعمارية التي تميزت من الفن الاسلامى الى فنون أوروبا ، وجلوها على الناس في صورة واضحة لا تسيب اليها الشك (١٥) .

ومن خير الأمثلة على عناية الأوروبيين بدراسة العمارات الإسلامية خروج المهندس الإنجليزي جوت (Owen Jones) من إنجلترا عام ١٨٣٤ الى أسبانيا لدراسة قصر الحمراء القائم في مدينة غرناطة بالأندلس حيث قضى مدة طويلة مواصلا دراسة هذا القصر العظيم من حيث التصميم والزخرفة ، وقد أخرج لنا بعد دراسة استغرقت ثمانى سنوات مؤلفه العظيم عن هذا الأثر الاسلامى المنعدم النظير الذى تتجلى فيه دقة التصميم ، وجمال الصنع ، ورقة الزخرفة ، وبهجة المنظر (١٦) .

(١٥) كتب برتو في سنة ١٨٩٥ عن الفن الاسلامى في جنوب ايطاليا .
Bertaux (E.), Les Arts de l'Orient Musulman dans l'Italie Meridionale
وكتب الدكتور أحمد فكرى في سنة ١٩٢٤ بالفرنسية عن الفن الاسلامى في جنوب فرنسا

Fikry (A.), L'Art Roman de Puy et les influences Islamiques.

ونشر ماتكوسكى بحثا عن الفن الاسلامى في بولنده في مجلة جامعة متشجان
Mankowsky (T.), Influences of Islamic Art in Poland, Ars Islamica. Vol. II
pp. 93-117.

Jones (O.), Plans, Elevations, Sections and details of the Alhambra, (١٦)
London, 1842-1848, 2 vols.

ولقد لعبت الحروب الصليبية في هذا الصدد دورا هاما ، فقد غزت جيوش أوروبا بلاد الشرق ، ورأى الأوربيون عن كثب معالم الحضارة الاسلامية ، والآثار العظيمة للفن الاسلامي ، وآمنوا عن يقين أن العرب قد وصلوا الى ذروة التقدم والرقي ، وليسوا برابرة متأخرين كما كانوا يظنون . فمن طريق هذا الاتصال وعن طريق الإمارات الأوربية التي أسسها الصليبيون كنتيجة لتلك الحروب في بيت المقدس وفي بعض مدن الشام والتي استمرت فترة من الزمن اتسعت دائرة معرفة الأوربيين بالفن الاسلامي اتساعا عظيما .

ولا يتسع المجال الآن لكي نتقصى جميع النواحي التي تلمس فيها أثر الفن الاسلامي في فنون أوروبا حتى نقف على مكائده بين هذه الفنون ولذلك سنكتفي بالإشارة الى البارز منها فحسب ، ويمكن للقارئ الراغب في الاستزادة في هذا الموضوع أن يرجع الى الفصل الذي عقده الأستاذ ميجون في آخر الجزء الثاني من كتابه الجامع عن الفن الاسلامي (١٧) . والى الفصل الذي عقده الدكتور زكي محمد حسن في كتابه « فنون الاسلام » عن أثر الفنون الاسلامية في فنون الغرب والمراجع القيمة الكثيرة التي أشار إليها في هذا الكتاب عن هذا الموضوع (١٨) .

ولعل في استعراض فنون العمارة والخط والزخرفة والخزف والمنسوجات ما يجلو علينا هذا الأثر بصورة واضحة لا لبس فيها ولا ابهام .

أما العمارة فقد بلغ المسلمون فيها شأوا بعيدا ، وربما كان للدين الاسلامي بعض الفضل في هذا التقدم فقد وصف القرآن جنات النعيم التي أعدت للمتقين وصفا شيقا لعله كان مبعث الوحي للمسلمين فيما شيدوه من عمائر ، فعلى سبيل المثال لا الحصر تشير الى ما جاء في سورة النكبات « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لبئسهم من الجنة غرفا تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نعم أجر العاملين » (١٩) . وما جاء في سورة الزمر « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف

(١٧) Migeon (G.), Manuel d'Art Musulman, Paris, 1927, p. 403-411.

(١٨) راجع ص ٦٥٥ وما بعدها - ثم المراجع المختلفة الواردة في ص ٧٠١ من هذا الموضوع .

(١٩) سورة النكبات آية ٥٨

من فوقها غرف مبنية تجرى من تحتها الأنهار ، وعد الله ، لا يخلف الله الميعاد» (٢٠) وتسير الكتب العربية القديمة الى المدن الاسلامية التي ازدهرت في العصور الوسطى ، وتصف لنا ما كان في هذه المدن من قصور شاهقة . وقد كنا في فجر هذا القرن نتقبل هذا الوصف بكثير من الحيرة والحذر لما عرف عن كتابنا القدامى من المبالغة والاطناب ، ولكن عندما تقدم علم الآثار الاسلامية وظهرت بعض هذه القصور بفضل الحفائر الاثرية عدلنا عن موقفنا السابق وازدنا ثقة بمؤرخينا السابقين عندما ثبت لنا أنهم فيما وصفوه لم يتخطوا سياج الصدق والاعتدال . وقد أفلت من يد الدهر ذلك القصر العظيم الذى شيده بنو الأحمر في مدينة غرناطة بالأندلس ، وهو برفه الفسيحة ، وقبابه الرشيقة العالية ومياهه المتدفقة الجارية ، وحدائقه البانعة ، وزخارفه الرائعة خير شاهد على تقدم فن العمارة ونضوجه عند المسلمين . ولقد ابتسوا كثيرا من المفاسد المعمارية ، كما حسنوا في كثير من العناصر التي ورثوها عن تقدمهم ثم أثروا بهذه وتلك في فن العمارة عند الأوربيين ، ويكفى أن نذكر أن بعض أنواع العقود والشرفات والمآذن التي لا تزال قائمة في بعض المباني الأوربية في جنوب فرنسا وفي صقلية وفي بعض نواحي اسبانيا تشهد بهذا التأثير وتنتطق به .

أما فن الخط فقد سما به الفنان المسلم الى أعلى درجة من الاجادة ، ولا غرو فهو وثيق الصلة بالدين ، أقسم به الحق في كتابه الكريم في سورة القلم « ن والقلم وما يسطرون » وشرفه عندما أضاف تعليمه الى نفسه إذ يقول في سورة العلق « اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الانسان ما لم يعلم » . وقد نسب علماء التصوف - على حد قول ابن خلدون في مقدمته - الى الحروف العربية أسراراً خفية ، فهي تجلب - كما يقولون - الخير والبركة (٢١) وقد دفعت هذه العقيدة بالفنانين من المسلمين الى تزيين ما أخرجته أيديهم من المصنوعات وما شيده من العمارات والآيات القرآنية وبالعبارات الدينية ، وبالصيغ المختلفة للمدح أو الدعاء . وقد ترتب على ذلك أن أصبح الخط العربي مضروباً مشتركاً في جميع فروع الفن الاسلامي : فراه على الخزف وزراه على الخشب ،

(٢٠) سورة الزمر آية ٢٠

(٢١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٣٩ - ٤٤٥ (المطبعة البهية المصرية) .

وزراه على العماح وعلى الزجاج ، وزراه على المنسوجات وزراه على جدران المساجد والقصور . ولقد استطاع الفنان المسلم بحذقه أن يخلق من الحروف العربية ذات الأشكال النباتية والأوضاع المختلفة طرازا زخريا تبدو فيه صور من الجبال شتى : بعضها يفيض بالقوة وبعضها يفيض بالركة . وعندما شاهد الفنانون الأوروبيون هذا الخط في أوروبا وفي الشرق أعجبوا به فقلدوه ، ونقلوا بعض العبارات العربية نقلا صادقا دون أن يعرفوا ما تحمله وراءها من المعاني ولم ينتمهم جهلهم هذا من أن يتخذوا من هذه العبارات أداة لتزيين مصنوعاتهم . ولقد أشار كريستي في مقاله عن الفنون الإسلامية وتأثيرها في الفنون الأوروبية المنشور في كتاب تراث الإسلام (٣) إلى مثال عرّف في هذا الصدد هو ذلك الدينار الذهبي الموجود في المتحف البريطاني والذي يحمل على أحد وجهيه كتابة كوفية نصها « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ويختل على الوجه الآخر كتابة لاتينية نصها « Offa Rex » أي الملك أوفّا (٣) ، وتجرى على خافة هذا الوجه من الدينار كتابة كوفية قرأ فيها « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » . ونهى من النصّون (٤)

Christie (A. H.), *Islamic Minor Arts and their influence upon European Work, (Legacy of Islam, p. 13).*

ومن ١٧ من ج ٢ من الترجمة العربية لبعض فصول هذا الكتاب بقلم الدكتور زكي محمد حسن ومبارة . Minor Arts . الواردة في عنوان هذا البحث أصبحت اليوم في الواقع غير مقبولة لأن الفنون الجميلة عند المسلمين ونمى بها هتسا فنون العمارة والزخرفة والنقش والنحت والتصوير . ليس فيها ما هو فرعى major وما هو أصلى minor بل كلها في الأهمية لدى الفنان سواء وذلك على مكرس الحال عند الغربيين . وهم الذين وضوا أسس دراسة هذا التراث الفني كما رأينا في هذا البحث . الذين يفرقون عادة بين مظاهر الفنون الجميلة ، فنون النحت والتصوير هي عادة من إنتاج فنانين artists لهم في الهيئة الاجتماعية مكانة ملحوظة أما ما عدها من فنون زخرفية الأمتعة المنقولة فهو من عمل صنّاع artisans وهي لذلك في المحل الثاني من الأهمية ولا تعتبر في نظر الأوروبيين تحفا نفيسة بمعنى الكلمة . ولكن المسلمين قد جمعوا بين الفن والصناعة في كل ما أخرجته أيديهم بستیى منذهم في ذلك آتية الأمر المتخذة من النحاس المطعم بالذهب والفضة وآنية القبر المصنوعة من الفخاز . وأصل أصدق عبارة تستبدل بها كلمة minor arts هي decorative arts أي الفنون الزخرفية .

(٢٣) كان الملك أوفّا يحكم مملكة مرسيا Mercia إحدى الممالك الصغيرة التي كانت تنقسم إليها الجزائر البريطانية في العهد الأنجلو سكسوني .
(٢٤) هذا النص مأخوذ من عدة آيات وردت في القرآن الكريم .

لتى كانت تنقش على الدينار الإسلامية في عصر الدولة الأموية وفي عصور أخرى كثيرة (٢٥) . وأغلب الظن أن الصانع الأوربي انذى ضرب هذا الدينار والملك الذى أمر بضربه مجهلان مدلول هذا النص ولو عرفا ذلك ما رضى بنقشه لتنافره مع عقيدتهما الدينية ، ولكنه الفن الإسلامى كما يتجلى في الكتابة الكوفية المنقوشة على الدينار الإسلامية التى كانت معروفة لديهما قد دفع بهما إلى التقليد فزينا العملة الإنجليزية بذلك النص . وإذا كان من الفنانين الأوربيين من أحسن قهل العبارات العربية قهلا صحيحا فان كثيرا منهم قلدوا الحروف العربية تقليدا يشعرك لأول وهلة بأنها كتابة عربية ، فإذا ما دقت النظر فيها لم تجدوها كذلك . كما أن بعض هؤلاء الفنانين قد حاول أن يكتب الحروف اللاتينية بصورة تقرب فى شكلها العام من صورة الحروف الكوفية ونصحت هذه المحاولة وتجلت أروع ما تكون فى الكتابة القوطية التى شاع استعمالها فى أوروبا فى العصور الوسطى .

ولقد أخذ رجال الفن فى أوروبا عن المسلمين تلك الزخرفة التى تتم باسمها عن أصلها العربى ألا وهى « الأرابسك » أو كما عبر عنها الأستاذ بشر فارس بكلمة « الرقص » (٢٦) . ونفضل نحن أن نستعمل كلمة « التوريق » وهى تدل فى تاريخ الفن على نوع معين من الزخرف ابتلعه الفنان المسلم . حقا أنه لم يبتكر وحدات زخرفية جديدة بل استعمل ما وجده بين يديه من مختلف الفنون السابقة على الإسلام إلا أنه لا سبيل إلى انكار مقدورته فى طريقة رسم هذه الوحدات وتوزيعها ، والتأليف بينها وتنسيقها تنسيقا يجعلها تبدو كأنها اخترعت لأول مرة وما هى كذلك ولكنه صهرها فى بوتقته ، ومزجها بفلسفته ، وسلط عليها أشعة عبقرية فخرجت من بين يديه فنا جديدا لا يخفى عليك أصله ولكنك

Laue-Poole (S.), Catalogue of Arabic Coins in Khedivial Library (٢٥)
at Cairo, 1897.

(٢٦) أصدر المعهد الفرنسى للآثار الشرقية بالقاهرة هذا العام (١٩٥٢) بحثا شريفا بالفرنسية والعربية للأستاذ بشر فارس ، عنوانه : « سر الزخرفة الإسلامية » .
Essai sur l'Esprit de la Decoration Islamique . وعن جدير بعناية المشتغلين بالآثار الإسلامية لا اشتمل عليه من اصطلاحات وآراء قيمة .

لا تستطيع أن تتكرر عليه شخصيته القوية الواضحة . انه لم يخترع أشكالا هندسية جديدة لكنه بالغ في تسميها وتحليلها حتى ليصح لنا أن نقول في المثلثان أنه بحث في هذا النوع من الزخرف وروحا من لدنه فبدأ في ثوب من الجبال لم يكن له قبل الاسلام ، وهو لم يبتكر وحدات نباتية أو حيوانية بل رسم الأزهار والأشجار والأوراق والسيقان والطيور والحيوان بمد أن حورها تصويرا كانت أن تتقد معه شخصيتها كوحدة نباتية أو حيوانية ولكنها وإن بعادت عن الطبيعة فقد دلت على سعة خيال مبدعها وصفاء قريحته . ولقد درس الفنانون الأوربيون في عصر النهضة قوانين الزخرفة الاسلامية ، وبدأوا يطبقون هذه القوانين على ما تخرجه أيديهم من تحف ، وانتشرت بين الصناع والفنانين الأوربيين في ذلك الوقت كتب بها نماذج من الزخارف الاسلامية (٣) لكي يستعينوا بها على تزيين مصنوعاتهم ، ولقد وصلت إلينا كراسة للمصور الإيطالي المشهور ليوناردو دافنشي Leonardo De Vinci بها تخطيط لزخرفة اسلامية من رسم هذا المصور مما يدل على مدى عنايته بهذا النوع من الزخرف .

وتعد الطنائس الشرقية التي ساهم في صناعتها الفنانون والصناع المسلمون ما تحفا فنية بكل ما يحتله هذا التمييز من معنى : فيها الفكرة الكامنة ، وفيها التوازن والمنسجام ، وفيها التنوع بين الألوان وفيها اليد الصناع الماهرة ، فيها كل ما يتمتع الحواس ويفذها : مرآها يسحر العين ، وملبسها ترتاح اليه النفس ، وتصميمها وزخرفها يثيران التفكير ويعتشان على التأمل . ولقد أدرك الأوربيون ما في هذه الطنائس الاسلامية من جمال وفن ، وقدروا هذا الجمال الفني حق قدره ، فأقبل الأغنياء منهم على اقتنائها ليزينوا بها قصورهم وكنائسهم ، وقد انعكس هذا التقدير بأجلى صورة في لوحات فنانيهم فاذا هؤلاء الفنانون يرسمونها في صورهم فبنت الطنائس الاسلامية مصورة فوق العروش أو مفروشة على الأرض ، أو منشورة من النوافذ والشرفات ، أو مبسطة فوق الموائد ، وإذا صنعهم يقلدون هذه الطنائس ويحاولون اقتان هذا التقليد .

(٢٧) Christie (A. H.), Islamic Minor Arts and their influence upon European Work, p. 149, (The Legacy of Islam, Oxford University Press 1947)

والخزف من أقدم المصنوعات التى عرفها الانسان فى جميع درجات تطوره وهو يعد عند علماء الآثار من أهم الوسائل التى تقاس بها حضارة الأمم ودرجة تقدمها ، ولقد حظى المسلمون صناعته ، وتحلى عبيرتهم أروع ما تتجلى فى نوع معين منه هو المعروف عند المشتغلين بالآثار الاسلامية بالخزف ذى البريق المعدنى Lustre pottery واعتداء المسلمين الى هذا النوع من الخزف انما جاء بتوجيه سلبى من الدين الاسلامى الذى حرم اتخاذ الأواني من الذهب أو الفضة ، والواقع أن القرآن لم ينص صراحة على هذا التحريم ، والآيات التى ورد فيها ذكر الأواني الذهبية أو الفضية انما تشير الى أنها مما يستمتع به المتقون فى الجنة ، ففى سورة الزخرف مثلاً قرأ « يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذ الأعين وأتم فيها خالدون » (٢٨) . وفى سورة الانسان قرأ « ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة قدروها تقديرا » (٢٩) . ولكن الأحاديث نصت صراحة على هذا التحريم ، ويكفى أن نذكر على سبيل المثال حديثين وردا فى هذا الصدد الأول يقول فيه الرسول الكريم « لا تلبسوا الحرير ولا الديباج ، ولا تشربوا فى آنية الذهب والفضة ، ولا تأكلوا فى صحافها فأنها لهم فى الدنيا ولنا فى الآخرة » (٣٠) . وفى الثانى يقول « الذى يشرب فى اناء الفضة انما يجزى فى بطنه نار جهنم » (٣١) . وقد انعقد اجتماع فقهاء المسلمين على تحريم الأواني المصنوعة من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة التى تستعمل فى حمل الطعام أو الشراب أو الماء للفنل أو الوضوء ، وقد كان هذا التحريم سببا فى اعتداء الخزاف المسلم الى تلك الطريقة التى استطاع بها أن يوفر للأواني الخزفية جمال الذهب أو الفضة ، وخرجت من بين يديه تلك الأمثلة الرائعة من المصنوعات الخزفية التى امتزجت فيها مهارة الصانع بعقيرة الفنان والتى يتستع من يستعملها بجمال الذهب أو الفضة وروقتها دون أن يخرج على أحكام

(٢٨) سورة الزخرف آية ٧١

(٢٩) سورة الانسان آية ١٥ و١٦

(٣٠) صحيح البخارى ، كتاب الأطعمة ب ٢٧ ص ٢٧ ج ٢ من طبعة برلى

سنة ١٣١٤ هـ .

(٣١) صحيح البخارى كتاب الاشرية ب ٢٧ ص ١١٢ ج ٧

الدين . وقد انتشرت صناعة هذا النوع من الخزف في العالم الاسلامى ، وبلغت درجة الكمال فى العراق ومصر والأندلس ، ومن هذه الأخيرة تسربت الى أوروبا ، وأقبل صناع الغرب على تقليد هذا الخزف ، واقتنوا هذا التقليد حتى لقد زينوا أوانهم بما يشبه الكتابة الكوفية امعانا فى صبغها بالصبغة الاسلامية ، وظلت الأندلس بعد أن خرج منها العرب تخرج من هذا النوع الشئ الكثير ومن اليسير على الناظر اليه أن يدرك مدى التأثير الاسلامى فيه .

وتحت ضغط تحريم الأوانى المصنوعة من الذهب أو الفضة امتدى الصناع المسلمون الى طريقة تطعيم أوانى النحاس بالذهب أو بالفضة أو بهما معا ، واستطاعوا بذلك أن يخرجوا قطعاً فنية رائعة تنتزع الاعجاب من كل من يراها وتتضاءل بجانبها الأوانى المتخذة من الذهب الخالص أو الفضة الخالصة . وقد أقبل بعض أمراء أوروبا على اقتناء هذه التحف ، واتخذوا منها نماذج قلدها وقتها وغفوا فى هذا التقليد الى حد بعيد .

ولقد ازدهرت صناعة الأقمشة على يد المسلمين فى العصور الوسطى ازدهاراً منعدم النظير ، ولقد كان فى تقاليد المسلمين وميولهم مثل كسوة الكعبة ، وإعادة منح الخطم ، والميل الى التكتير من الثياب ، وتفضيلهم للمسوجات عن الاهداء ، والتصديق بالأقمشة على الفقراء فى المواسم والأعياد ، كان فى هذه التقاليد والميول مجال واسع لتقدم صناعة الأقمشة الأمر الذى يتجلى فى ظهور أنواع جديدة منها لم تكن معروفة من قبل . ولقد شاع استعمال الحرير قبل الاسلام شيوعاً أخاف رجال الكنيسة ودفع بهم الى العمل على منع الناس من استعماله (٣) ولكنهم فشلوا فى محاولتهم هذه ، واشتد اقبال الناس على لبس الحرير ، وعندما جاء الاسلام واجهته هذه المشكلة فوقف منها موقفاً كان من أثره أن تقدمت صناعة الحرير على أيدي المسلمين ، فهو لم يحرم استعمال

الملابس الحريرة كما يدعى كريستي خطأ^(٢٢) ولكنه نظم استعمالها فباحها للنساء من غير قيد ولا شرط^(٢٣) ، ورخص للرجال في ارتدائها عند الضرورة^(٢٤) ، كما رخص لهم أيضا في ارتداء الثوب اذا كان به من الحرير قدر أصبعين أو أربعة أصابع^(٢٥) ، ولم تكن الرغبة الجامحة في الاستتاع بها حرمه الله - كما يتوهم كريستي - هي التي جعلت المسلمين يعنون بالحرير واتجاهه ويملكون زمام صناعته ، وينشرون هذه الصناعة في مشارق الأرض ومغاربها ، ويصبجون بحق زعماء تجارته في المصور الوسطى ، ولكن هذا التنظيم الذي أتى به الاسلام هو الذي جعل للمسلمين هذه المكانة المتأخرة في صناعة الحرير وتجارته . وقد وجلت المنسوجات الاسلامية طريقها الى أسواق أوروبا ، وأثارت في نفوس القوم هناك دهشة عظيمة عندما تأملوها وقارنوها بينها وبين ما كانت تخرجه مناسجهم ، وخرجوا من هذه المقارنة يتساءلون عن موضع السر في هذه الأقمشة ، أهو جمال الزخرفة أم هو التناسق بين الألوان ، أم هو في دقة النسيج ، أم هو في هذه جمينا ؟ وأقبلوا عليها اقبالا شديدا ، وسوها في لغاتهم باسماء البلاد التي نسجت فيها ، ثم أطلقوا هذه الأسماء العربية الأصل على ما أخرجته أيديهم من منسوجات قلدوا بها تلك المنسوجات الاسلامية ، ولا تزال كلمة المسلمين Muslin مثلا المأخوذة من اسم المدينة العراقية « الموصل » ، أو الجراندين Grandine المأخوذة من اسم المدينة الأندلسية غرناطة Grenada ، أو كلمة « ركامو » Ricamo المشتقة من الكلمة العربية

(٢٢) يقول كريستي Christie في مقاله الذي أسلفنا الإشارة اليه ص ١٢٢

"Although silken garments have been specifically prohibited by the Prophet, the Muslims not only encouraged existing silk factories but established new ones whenever they went. So shameless and unrestrained was their interest in the forbidden luxury that they rapidly and surely gained a dominating position as leading silk-mercers in the medieval world."

(٢٣) صحيح البخاري كتاب اللباس ب ٣٠ ص ١٥١ من ج ٧ طبعة بولاي

سنة ١٣١٤ هـ .

(٢٤) نرى المرجع السابق ب ٢٩ ص ١٥١ من ج ٧

(٢٥) نفس المرجع السابق ب ٢٥ ص ١٥٠ من ج ٧ وراجع أيضا :

Joy, Dictionnaire De Vêtement Arab, pp. 5, 6, and 11111, Cotton
Medieval Textiles of the Near East, p. 105. Paris, 1937

« رقم » . هذه الألفاظ وغيرها تتردد على السنة الأوربية وترد في ثنايا كتبهم (٣٧) ، ولقد تقدمت صناعة النسيج في جزيرة صقلية على عهد المسلمين قدما عظيما ، وخرجت من أنوالها أقمشة قيمة كانت ولا يزال ما بقى منها - موضع الاجلال والتكريم من الأوربيين . ولعل أروع مثال لأقمشة صقلية هو عباءة التوزيع التي كان يتوارثها أباطرة الدولة الرومانية المقدسة والموجودة الآن في متحف الكنوز بمدينة فينا ، وهي تزدان فوق زخارفها الجميلة بنص عربي منسوج على حافتها بالخط الكوفي بخيوط من ذهب ، وقد يكون في إثباته هنا فائدة لمن يعنون بالأدب العربي في صقلية في القرن السادس الهجري « مما عمل بالخزانة الملكية المعبورة بالسعد والاجلال والكمال ، والطول والإفضال ، والقبول والمقبال والساحة والجلال ، والفخر والجمال ، وبلوغ الأماني والآمال ، وطيب الأيام والليالي بلا زوال ولا انتقال ، بالمز والدعاية والحفظ والحماية ، السعد والسلامة والنصر والكفاية بمدينة صقلية سنة ثمان وعشرين وخمسائة » (٣٨) . ومن صقلية سرت تلك النهضة الصناعية في المنسوجات الى المدن الإيطالية مثل لوكا وفلورنسا والبندقية فأخرجت مناسجا أقمشة قرينة الشبه مما أنتجه المسلمون حتى لقد يصعب في بعض الأحيان التفرق بين الأصل والمقلد .

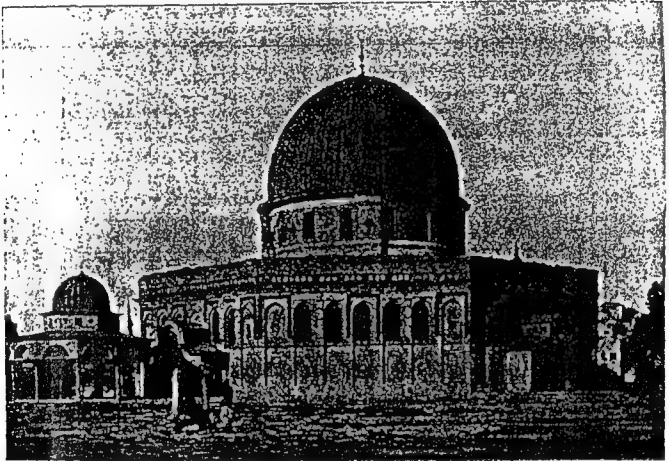
وهكذا لعب الفن الاسلامي في فنون أوروبا دورا لا سبيل الى انكاره ، ولقد أدرك الأوربيون الذين توغروا على دراسة هذا الفن ، واختصوا أنفسهم به ما له من أثر واضح في فنونهم فافسحوا لتحفه المختلفة مكانا بارزا في متاحفهم ، وقبلنا نجد اليوم دولة غربية ليس بين متاحفها متحف أو جزء من متحف تنطوى جوانحه على أمثلة رائعة من بدائع الفن الإسلامي .

ففى بلاد اليونان نجد متحف بناكى (٣٩) في مدينة أثينا وهو يابى في المحل الثاني من الأهمية بمد متحف الفن الاسلامي في القاهرة الذي يعد أكبر المتاحف

Kramers (J. H.), Geography and Commerce, op. cit., p. 104 (٣٧)

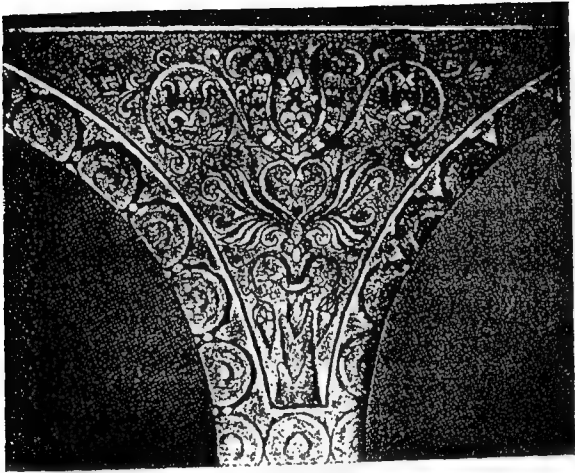
Wiet and others, Repertoire Chronologique d'Epigraphie Arabe, (٣٨)
Tome VIII, p. 184

Benachi Museum



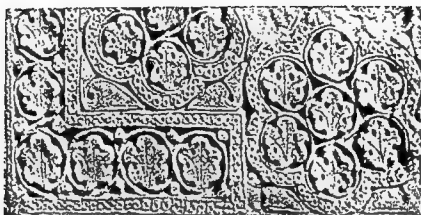
قبة الصخرة بالقدس من الخارج
(وهي من أقدم العمائر الإسلامية القائمة سنة ٧٢ هـ)

اللوحة الثانية



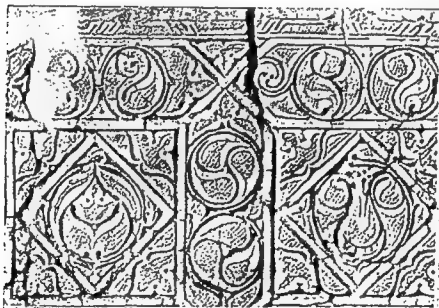
قبة الصخرة بالقدس من الداخل
يتجلى في زخرفة الفسيفساء - مدى اعتماد الفن الإسلامي
في أول انشائه على الفنين البيزنطى والساسانى

اللوحة الثالثة



زخارف جصية من مدينة سامراء بالعراق
من القرن الثالث الهجري (٩ م)

اللوحة الرابعة



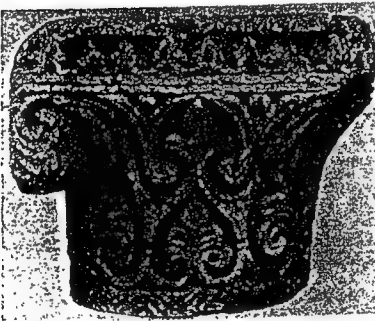
زخارف جصية من مدينة سامراء بالعراق
من القرن الثالث الهجري (٩ م)

اللوحة الخامسة



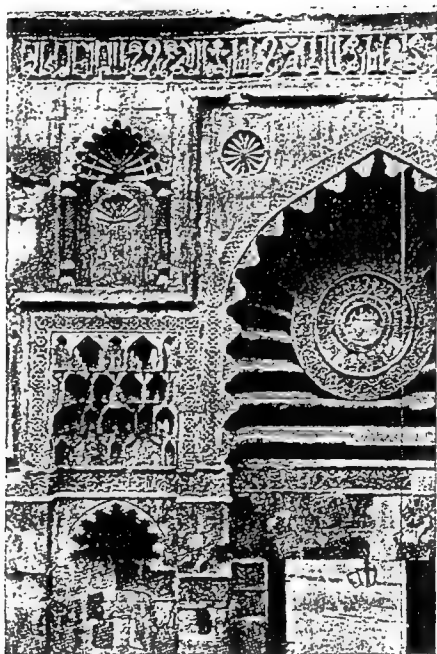
تاج عمود من الرخام عثر عليه في العراق
يتجلى فيه الفن الاسلامي بعد ان وضحت شخصيته
من القرن الثالث الهجري (٩ م)

اللوحة السادسة



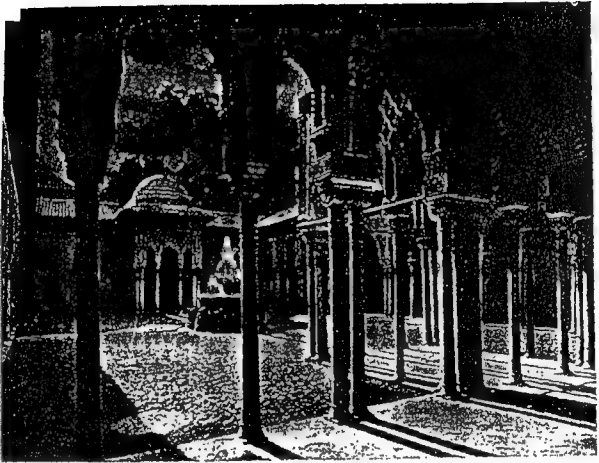
تاج عمود من الرخام عثر عليه في العراق
من القرن الثالث الهجري (٩ م)

اللوحة السابعة



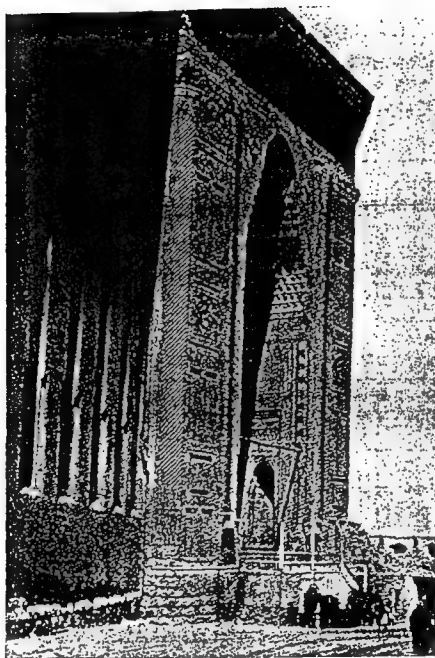
واجهة الجامع الأزهر بالقاهرة
من القرن السادس الهجرى (١٢ م)

اللوحة الثامنة



قاعة السباع في قصر الحمراء بقرنطة بالأندلس
من القرن الثامن الهجرى (١٤ م)

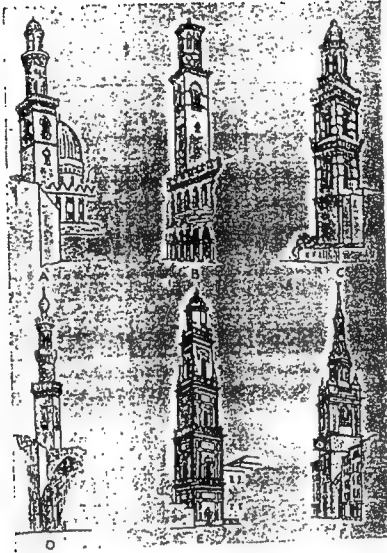
اللوحة التاسعة



واجهة مدرسة السلطان حسن بالقاهرة

من القرن الثامن الهجرى (١٤ م)

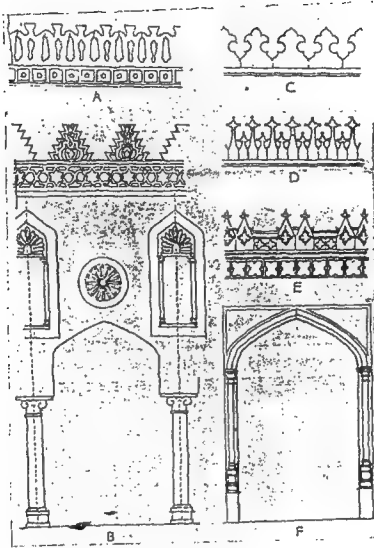
يتجلى فيها خصائص الفن الاسلامى بعد ان وصل الى ذروة نضوجه



التر العمارة الاسلامفة فف العمارة الاورفة

- A - مدرسة سئجر الجاولف بالقاهرة
- B - برج كمفون فف ففرونا بافطالفا
- C - برج فف قبة سولففو بافطالفا
- D - مثذنة برقوق بفدافن المالفك
- E - برج فف قبة لفكف بافطالفا
- F - برج فف كفسة سانت مارف لوباف فف لئد

اللوحة الحادية عشرة



انتر العمارة الاسلامية في العمارة الاوربية

- A - في جامع ابن طولون بالقاهرة
- B - في الجامع الأزهر بالقاهرة
- C - في جامع زين الدين يوسف بالقاهرة
- D - في قصر كادورو بالبندقية
- E - في كنيسة كرومر بنورفلك
- F - في بيو كنيسة المسيح في اكسفورد

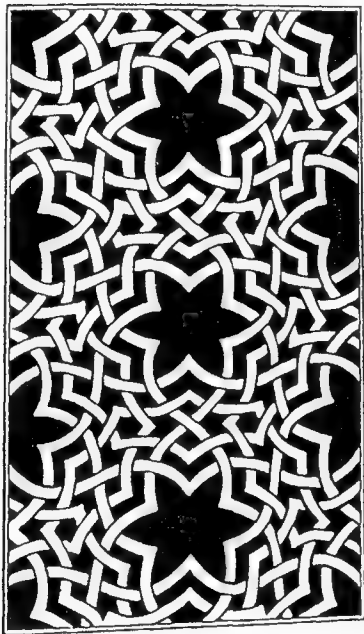


علبة من العاج الأندلسي من القرن الرابع الهجري (١٠ م)
تتجلى فيه زخرفة النوريق (الارابك) بصوره رائعة

اللوحة الثالثة عشرة

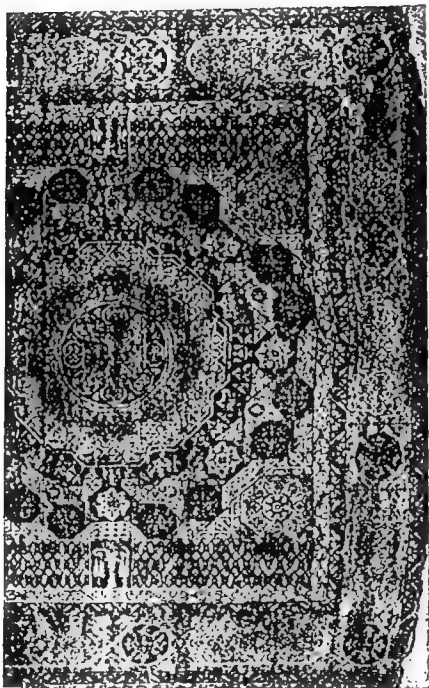


كأس من الزجاج المذهب والمزين بالفضة من القرن السابع الهجرى (١٢ م)
تجتمع فيه دقة صناعة الزجاج وجمال الزخرفة الاسلامية



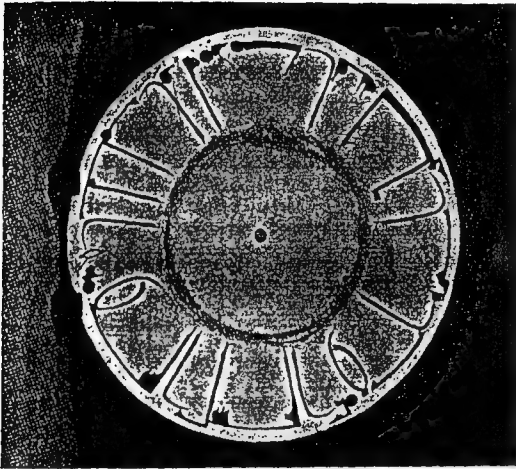
زخرفة اسلامية اساسها رسم لليوناردو دافنسى
(انظر ص ١٢٤ من البحث)

اللوحة الخامسة عشر



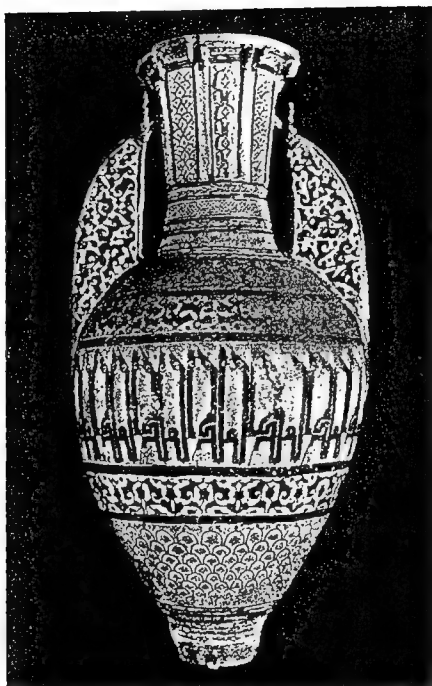
شقة من صناعة القاهرة في عصر المماليك
من القرن العاشر الهجري (١٦١ م)

اللوحة السادسة عشر



آنية من الخزف الإيراني من القرن الرابع الهجري (١٠ م)
تزدان بزخرفة كتابية قوامها بيت من الشعر نسه :
العلم أوله مر مذاقته لكن آخره أحلى من العسل
وبلاحظ وجود كلمة السلامة بعد آخر هذا البيت من الشعر .

اللوحة السابعة عشر



قدر من الخزف ذي البريق المعدني من صناعة الأندلس
في القرن الثامن الهجري (١٤ م) تزدهن بالكتابة الكوفية وبزخرفة التوريق



إناء من النحاس المطعم بالفضة من صناعة إيران
في القرن السادس الهجري (١٢ م)
تزدان برسوم آدمية وكتابات كوفية ونسخية

اللوحة التاسعة عشر



فن النحت الاسلامي

تمثال من الجص عشر عليه في قصر هشام بخرية المفجر في شرق الاردن
(من عصر الدولة الاموية)

اللوحة العشرون



فن التصوير الاسلامي
صورة شخص مرسومة على الجص في قصر عمره بشرى الاردن
(من عصر الدولة الاموية)

اللوحة الخادية والعشرون



فن التصوير الاسلامي
صورة تمثل صيادا مرسومة على الجص
في قصر الجوسق الخاقتاني في سامراء بالعراق
(من عصر الدولة العباسية)



فن التصوير الاسلامى
صورة مرسومة على الورق في مخطوط لكتاب « منافع الحيوان »
من القرن السادس الهجرى (١٢ م)



فن التصوير الاسلامى

صورة مرسومة على الورق في مخطوط لكتاب «مقامات الحريري»

من القرن الثامن الهجرى (١٤ م)

في العالم لهذا الفن لما تطوى عليه جوانحه من مجموعات كبيرة متنوعة من شتى البلاد الاسلامية ومن شتى العصور (٤١) .

وفي بلاد المجر نجد أهم المتحف الاسلامية في المتحف الأهلي بمدينة بودابست حيث نشاهد بعض الأمثلة الجميلة للطنافس والخزف الايراني كذلك (٤١) .

وفي ايطاليا توجد أهم المتحف الاسلامية معروضة في مدينة فلورنسه في المتحف الأهلي (٤٢) ، وفي متحف بارجلو (٤٣) ومن أجل ما نراه فيهما المتحف المصنوعة من العاج أو الزجاج .

وفي فرنسا توجد كثير من المتحف الاسلامية في مدينتي ليون وسيفر ، ففي الأولى نرى في متحف الغرفة التجارية مجموعة قيمة من المنسوجات الاسلامية (٤٤) وفي الثانية نشاهد مجموعة رائعة من الخزف الاسلامي (٤٥) . أما في باريس فسمها فهناك خمسة متاحف عظيمة بها مجموعات قيمة من شتى المتحف الاسلامية هي متحف جوبلان ومتحف كلوني ومتحف اللوفر ، ومتحف الفنون الزخرفية ، والمتحف الحربي (٤٦) . كما أنه يوجد في المكتبة الإهلية (٤٧) أنيس مجموعة من المخطوطات المصورة الاسلامية لاسيما الفارسية .

وفي أسبانيا نجد في مدريد وحدها ثلاثة متاحف في كل منها مجموعة من الخزف والأسلحة والأحجار والأقمشة الاسلامية هي متحف الآثار ، والمتحف

(٤٠) لم أذكر في هذا التثبت المتاحف الموجودة في البلاد الاسلامية مثل الباكستان وإيران والعراق وتركيا والشام ومصر وتونس والجزائر ومراكش لأن وجود المتحف الاسلامية في هذه البلاد أمر طبيعي ، وإنما اقتصر على ذكر متاحف أوروبا التي أتيت لي فرصة زيارتها ودراسة مجموعاتها ، أما غيرها من المتاحف الأوروبية أو متاحف الهند ومتاحف أمريكا الشمالية فقد أثرت عدم الإشارة إليها .

The Hungarian National Museum. (٤١)

Museo Nazionale, Florence. (٤٢)

Museo Bargello. (٤٣)

Musée de la Chambre de Commerce de Lyon. (٤٤)

Musée de Sevres. (٤٥)

Musée des Gobelins, Musée de Cluny, Musée de Louvre, Musée (٤٦)

des Arts decoratifs. (٤٧)

Bibliothèque Nationale. (٤٧)

الحربى ومتحف دون جوان أو فالنسيا دى أسما كما كان يسمى من قبل (١٨) .
ونجد كذلك في المتاحف المحلية لبعض مدنها الأخرى مثل برشلونه وفيش
وسرقطة وطيطة وغرناطة وأشبيلية والمرية قطع هامة من الفن الاسلامى (١٩) .

وفي النمسا نجد في ثلاثة من متاحف فيينا مجموعات اسلامية عظيمة نخص
بالتذكر مجموعة الطنافس الاسلامية التى لا نظير لها في العالم والتي نشاهدها في
المتحف النمساوى للفن والصناعات (٢٠) ، ومجموعة الزجاج والبللور الصخرى
والأسلحة في متحف تاريخ الفن ، ومتحف التاريخ الطبيعى (٢١) . وفي المكتبة
الأهلية بمدينة فيينا مجموعة قيمة من أوراق البردى الاسلامى وبعض
المخطوطات الاسلامية المصورة (٢٢) .

وفي ألمانيا يستطيع الانسان أن يجمع بين مشاهدة أمثلة رائعة للفن
الاسلامى وللتنون الزخرفية على السواء . ففي القسم الاسلامى بمتاحف
الدولة ببرلين (٢٣) أثر لا نظير له في العالم أجمع هو واجهة قصر المشتى (٢٤)
الذى شيد في عصر الخليفة الأموية الوليد الثانى (١٢٥ - ١٢٦ هـ / ٧٤٣ -
٧٤٤ م) في صحراء البلقاء على بعد عشرين ميلا الى الجنوب من مدينة عمان
وقد كشفت أطلاله في سنة ١٨٤٠ م وتم الكشف عنه سنة ١٨٧٣ م ، ووجه أحد
علماء الآثار نظر غليوم الثانى امبراطور ألمانيا الى هذا القصر فاهتم به اليقظ
شخصيا واستطاع بلباقته أن يعزى السلطان عبد الحميد سلطان تركيا الذى
كانت تبنيه هذه البلاد حيثئذ - أن يعديه واجهة هذا القصر المتهدم ولم
السلطان لهذه الأحجار قيمة فأهداها اليه وكان ذلك عام ١٩٠٣ فنقلت هذه
الواجهة حجرا حجرا الى برلين حيث أعيد بناؤها في القسم الاسلامى وهو

Museo. Arqueologico, Museo des Ejército, y Museo Valencin (٢٨)
de Osma .

Barcelona, Vich, Saragosa, Toledo, Grenade, Cordova, Seville y (٢٩)
Almarya .

Oesterreichisches Museum für Kunst und Industrie. (٣٠)

Kunsthistorisches Museum, und Naturhistorisches Museum. (٣١)

Nationalbibliothek, Wien, (٣٢)

Islamische Kun-Abteilung. Staatlichen Museum. (٣٣)

Kubnel (E.), Machatta' Berlin, 1933. (٣٤)

لا تزال قائمة هناك حتى اليوم تشهد للفن الإسلامي بالشؤون والارتقاء ، ففى الجانب الأيسر من هذه الواجهة تجلى تقاليد الفنين البيزنطى والساسانى اللذين اعتمد عليهما الفن الاسلامى فى نشأته ، وفى الجانب الأيمن منها تشهد فنا جديدا قوامه زخرفة الترويع النباتية المنسقة فى رسمها تسيقا يتعد بها عن الطبيعة بمض الشئ مما يشعر بأننا هنا أمام فن جديد بدأ يشق طريقه ويخرج الى حيز الوجود . وفى القسم الاسلامى من متاحف برلين نشاهد كذلك قطعا كثيرة من الجص المزخرف الذى كشفت عنه الحفائر الأثرية التى قام بها الألمان فى مدينة « سرمن رأى » (٥٥) بالعراق . وهى التى أسسها الخليفة العباسى المعتصم ابن هارون الرشيد سنة ٢٢١ هـ ولم تدم أكثر من خمسين عاما ثم هجرت سنة ٢٧٩ هـ وبقيت عمائرها رهينة الإهمال واندرست معالمها وظلت مطمورة تحت الرمال حتى انكشفت على أمتة معاول علماء الآثار من الألمان فاذا هى جدران مبشرة ترينها تلك الزخارف الجصية التى أشرفا عليها . وفن الزخرفة الاسلامية الذى رأيناه وليدا فى الجانب الأيمن من واجهة المشتى قد شب الآن عن الطوق وأفضح عن شخصيته فى هذه الزخارف الجصية التى كانت ترين قصور سامراء . وهكذا يند القنم الاسلامى بمتاحف برلين من أهم المتاحف التى تساعد على دراسة الفن الاسلامى ، على أن أهميته لا تقف عند حد الأثرين الممارين سالتى الذكر بل أن به الى جانبها مجموعة من الطينافس والخزف والأقمشة والأسلحة وغيرها ترجع الى العصور والممالك الاسلامية المختلفة . وقد كان فى برلين متاحف أخرى بها الكثير من التحف الاسلامية القيمة من أقمشة وأسلحة وبللور صخرى وصور مرسومة على الجص أهمها متحف القصر والمتحف الحربى ومتحف علم الشعوب (٥٦) أصابها الحرب الأخيرة بأضرار كثيرة . وفى متحف الفن والصناعات (٥٧) فى كل من مديتى هونفر ودسلدورف ، وفى متاحف مدينة ميونيخ (٥٨) نشاهد مجموعة متنوعة من التحف الاسلامية الجبيلة .

Sinnarra, Islamische Abteilung, Berlin.

(٥٥)

Schloss Museum, Zeughaus und Museum für Völkerkunde

(٥٦)

Museum für Kunst und Gewerbe

(٥٧)

(٥٨) مثل المتحف الحربى ، والمكتبة الأهلية ، ومتحف الشعوب .

وفي بلجيكا نرى في مدينة بروكسل في المتحف الخمسينى ، ومتحف بورت
دى هال بعض التحف الاسلامية (٥٩) .

وفي الجزائر البريطانية عدة متاحف تضم جوانحها الكثير من التحف
الاسلامية الهامة فخص بالذكر منها المتحف البريطانى ومتحف فيكتوريا والبرت
في لندن (٦٠) ، ثم متحف قزوليم في كبرديج (٦١) ، وفي متحف أسمولى في مدينة
أكسفورد (٦٢) .

وليست المتاحف الأوروبية وحدها هي التي تشهد فيها التحف الاسلامية
بل أن كثيرا من الكنائس الكبيرة في أوروبا فيها - ضمن كوزها - تحف
اسلامية رائعة فلقد اقتن المسيحيون بجمال هذه التحف فحفظوا فيها ما يترون
به من مخلفات دينية أو زينا بها أقدس البقاع عندهم في الكنائس فوجدت
بذلك طرقها الى هذه المؤسسات الدينية حيث استقرت هناك في حرز أمين بعيدة
عن عبث العابثين . وكأننا شاءت الأقدار أن يبقى لنا هذا التراث الفنى محتفظا
بروعته لكي نرى فيه شاهدا صادقا على سمو الفن الاسلامى . ومن أشهر هذه
الكنائس في ايطاليا كنيسة سان مارك في البندقية ، وفي فرنسا كنيسة سنت آن
بمدينة آبت ، وفي أسبانيا كنيسة بنبلوه وكنيسة جيرونا .



وبعد هذا فليس هناك من شك في أنه الفن الاسلامى لم يصل في فن النحت
أو بمباراة أدق في صناعة التماثيل الى الدرجة التي سمت اليها كثير من الفنون
التقديمة السابقة عليه كالفن اليونانى مثلا ، وقد يتبادر الى الذهن أن في هذا
التصور ما يعد مأخذا على الفن الاسلامى ودليلا على تأخر المبدعين له ، ولكن
الواقع غير ذلك اذ ليس فيه ما يزرى بمكانة هذا الفن بين الفنون الأخرى لأن
لكل فن بيئته التي نشأ فيها ، والعوامل التي تحكمته في نشأته ، والمصادر التي
استمد منها عناصره . فاليونان القدماء نشأوا في بيئة يتوفر فيها الرخام فاتخذوا
منه مادة لأعمالهم الفنية ، وقد هدامهم تكبرهم الى أن تخيلوا أنهم على هيئة

Musée du Cinquantaire; Musée Porte de Hal, Brussel.

British Museum; Victoria and Albert Museum.

Fitzwilliam Museum.

Ashmolean Museum.

(٥٩)

(٦٠)

(٦١)

(٦٢)

الانسان فتحوا من الرخام تماثيل لهذه الآلهة . وأفرغوا جلودهم في نحتها فخرجت من بين أيديهم رائعة جميلة متناسقة الأبعاد موزونة الأجزاء حتى لتعتبر اليوم المثل الأعلى في فن النحت . أما العرب فلم يكن في يديهم الصراوية التي نشأوا فيها ما يشجع على نحت التماثيل ، ولم يكن في حياتهم الفكرية ما يحفزهم على نحتها كما كان الحال عند اليونان . وقيل ظهور الاسلام كان يسود البلاد المحيطة بهم فنان هما الفن البيزنطي والفن الساساني ولم يكن كلاهما يعنى بالتماثيل عناية الفراغة أو اليونان أو الرومان بها . وعندما جاء الاسلام وخرج المسلمون من جزيرتهم ينشرونه في ربوع الأرض ، ويتأثرون بحضارة البيزنطيين كما وجدوها في الشام ومصر وشمال أفريقية ، وبحضارة الفرس كما وجدوها في العراق وإيران ، وشاهدوا الآثار الفنية لهذين الفنين لم يعنوا بدورهم بعمل التماثيل خصوصا وقد أعلن الاسلام الحرب على الوثنية ، واعتبر القرآن الكريم الأنصاب رجس من عمل الشيطان على المؤمنين أن يجتنبوه (١٣) ، وفصلت الأحاديث النبوية القول في هذا الأمر فبينت اثم من يصنع هذه التماثيل (١٤) . وقد أدرك أسلافنا أن التحريم منصب على التماثيل التي تعبد من دون الله وحدها ، أما تلك التي تتخذ لغير هذا الغرض فلم يتهرجوا من استعمالها فزينوا بها قصورهم وصنعوها على هيئة الانسان تارة وعلى هيئة الحيوان أخرى ، ونذكر منها على سبيل المثال ما كشفت عنه دائرة الآثار الفلسطينية في قصر هشام أحد خلفاء الدولة الأموية الشرقية القائم في « خربة المفجر » حيث عثر على تماثيل من الجص لأشخاص آدمية بعضها كامل وبعضها غير كامل كما عثر أيضا على تماثيل جواد فقد معظم جسمه ولم يبق الا الرأس وجميع هذه التماثيل مصنوعة من الجص (١٥) . وفي القسم الإسلامي بمتحف برلين وفي متحف

(٦٢) راجع سورة المائدة آية ٩٣ والأنصاب . كما نشرها النسخي . هي الأصنام التي تعبد من دون الله .

(٦٤) كتاب اللباس باب ٨٩ ص ١٦٧ ج ٧ من صحيح البخاري طبعة بولاق سنة ١٣١٤ هـ . وهناك أحاديث كثيرة في هذا الصدد . راجع مفتاح كنوز السنة للدكتور ا . ي . فنسك ترجمة محمد فؤاد عبد الباقي (مطبعة مصر سنة ١٩٣٦ م ، ص ٨٢ ، وراجع أيضا البحث القيم للاستاذ أحمد محمد عيسى في « الاسلام والتصوير » في مجلة الأزهر عدد رجب وشعبان وشوال سنة ١٧٣٠ هـ وصغر وجمادى الأولى سنة ١٣٧١ هـ .

Barmaki, Guide to the Umayyad Palace at Khirbet Al Mafjar, figs (٦٥)

المثروبوليتان بنيويوردك تماثيل آدمية من الجص كذلك ، وفي متحف اسطنبول، وفي قصر الحمراء في مدينة غرناطة بالأندلس تماثيل حيوانية من الحجر . وجسج هذه التماثيل لا يتوفر فيها الاتقان الفني الذي نشاهده في تماثيل القراعة أو اليونان أو الرومان .

والتصوير في الفن الاسلامي كالتحت لم يصل الى المستوى الرفيع الذي اصطلح عليه الباحثون في الفنون . واذا كان القرآن الكريم قد خلا من نص صريح أو غير صريح بصدد هذا الفن فان الأحاديث النبوية تناولته من زوايا متعددة ليس هنا مجال تفصيلها (١٦) ، ويكفي أن نقول أن بعضها يترخص في التصوير على الفرش وما أشبهها ، وبعضها يبيح تصوير ما ليس فيه روح ، والكثير منها يلزم للصورة ويمنع بيع الصور ، وقد فر الفقهاء هذه الأحاديث تفسيراً ألقى شيئاً من الشك حول مزاولة هذا الفن أو العناية به ، ولكن على الرغم من ذلك فقد غزا الفنانون المسلمون بالتصوير جميع فروع الفن الاسلامي من مخطوطات وأخشاب وعمارة وزجاج ومعاذن وعاج وخزف ومنسوجات ، وقد تجلت عبقرتهم في الصور الصغيرة التي ترين المخطوطات اذ شغف المصورون المسلمون بتوضيح كتب العلم والدين والأدب والتاريخ بصور تفسر بعض ما تضمنته من بحوث وأحاديث (١٧) . ولعل من الحق علينا هنا ونحن نختم هذا البحث أن نبرأ الدين الاسلامي من تهمة تحريم التصوير التي ألصقتها به بعض المتزمتين من الفقهاء الذين أخطأهم التوفيق في فهم حقيقة الاسلام . فالأمر الذي لا شك فيه أن القرآن ترك أمر التصوير لنا لندرج فيه الى حكم العقل وسنن التطور والرقى ، والدين الذي لم يتعرض لنظام الحكم وشئون السياسة وهي أشد خطراً في حياة المسلمين من التصوير بل تركها لهم يسيرون فيها على النهج الذي يتلاءم وظروفهم ويستعينون فيها بتجارب من سبقهم من الأمم — هذا الدين أسى من أن يتعرض بالتحريم لأمر يتصل بسو الحياة البشرية وتطورها . ويكفي أن تذكر الدور الخطير الذي يلعبه التصوير في الحياة العلمية وفي الشؤون الاجتماعية للأفراد والجماعات .

(١٦) راجع بحث الأستاذ أحمد محمد عيسى سالف الذكر .
(١٧) راجع مقال « الصور الإسلامية » في مجلة الهلال عدد أبريل سنة ١٩٤٣
كتائب هذا البحث .

كتاب عن الحسبة في بيزنطة

في القرن العاشر الميلادي

أو

كتاب وإلى المدينة

THE BOOK OF THE PREFECT

بقلم الدكتور السيد الباز العريني

المقصود بالحسبة عند الفقهاء المسلمين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهذا واجب على كل مسلم . وإذا كان أساس الوجوب هو القدرة ، فإن رجال الحكومة أقدر من غيرهم على القيام بهذا العمل . ولذا ترجع بداية وظيفة المحتسب إلى قيام الدولة الإسلامية ، وتولاها الخلفاء أنفسهم أو أتابوا عنهم من يتولاها كيما يتحققوا من تنفيذ القانون (١) . ثم جرى توزيع الأعباء العامة على عدد من الموظفين . والراجع أن وظيفة المحتسب لم تصبح مستقلة إلا في نهاية القرن الثاني للهجرة (القرن الثامن الميلادي) ، بعد أن ظهرت المذاهب الأربعة (٢) ، وقامت المدن الإسلامية وانتظمت بها الأسواق (٣) ، وما ترتب على ذلك من ازدهار التجارة ، وتعدد دور الضرب ، ومهارة الذميين في التبادل النقدي ، وظهور النقود الزائفة ونظام المصارف ، فضلا عن طوائف أرباب الحرف والصنائع (٤) . وصار منصب المحتسب في القرن الرابع (العاشر الميلادي) من المناصب الوطيدة في الدولة . وكان محتسب بغداد في جملة أصحاب المخاطبات المعروفة للكتاب ، وتعددت اختصاصاته حتى أصبحت تشمل الإشراف على سوق الرقيق ودار الضرب ، وإثبات اسم الخليفة على ما يضرب ذهباً وفضة ، وقشه أيضاً على ما يعمل من الثياب والفرش والأعلام (٥) .

ومنذ أن استقرت وظيفة المحتسب تضمنت بعض الكتب فصولا تتعلق بالحبة ووظيفتها (١) ، ثم جرى تصنيف كتب مستقلة الغرض منها مساعدة المحتسب في تأدية واجباته (٢) .

وحاول بعض المستشرقين أن يربطوا بين وظيفة المحتسب وكتب الحبة عند المسلمين بما يقابلها عند البيزنطيين ، واعتمدوا في ذلك على ما لمسوه من أوجه التشابه بين وظيفة المحتسب وكتب الحبة عند كل من الدولتين الإسلامية والبيزنطية (٣) .

وحرصت على أن أتعرف إلى هذه العلاقة ، واستطعت أن أحصل على صورة شمسية من كتاب والي المدينة (٤) الذي جعلوه أساس دراستهم ، وتوافرت على ترجمته إلى اللغة العربية ، وجعلت له مقدمة ، وأضفت إليه حواشي كما يستطيع الدارسون أن يفتقروا على مدى العلاقة بين الوظيفتين في الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية .

ذلك أن الدولة البيزنطية قلت من البصور القديمة إلى فجر المصور الحديثة أثرا تجاريا متصلا غير مقطوع . وهذا الأمر يتشبه فيما هو معروف باسم الأصناف أو النقابات . ففي كل المدن الرومانية ، الصغيرة منها والكبيرة ، كان الصانع وأرباب الحرف نوعين ، نوع يعمل لسد حاجات الأسواق المحلية ، وتوفير أسباب الحياة للناس مثل الخبازين والجزارين والخباطين والحدادين وغيرهم . أما النوع الآخر فيعد صناعته للتصدير . وتدخلت الحكومة الرومانية لتنظيم العلاقات بين الجمهور وأرباب الحرف ، وسيطرت على الحياة الاقتصادية والاجتماعية في البلاد ، فألزمت الابن بممارسة مهنة أبيه ، وجعلت أرباب الحرف والصناعات ينتظمون في نقابات خاضعة لسلطان الدولة ، وهي المعروفة باسم collegia (٥) . وكان والي المدينة Prefect of the City من هيئة كبار الموظفين ويلى في الرتبة والى الاقليم ، وهو مسئول عن الاشراف على الأسواق وتموين السكان بالقمح ومراقبة النقابات (٦) .

ولما سقطت الدولة الرومانية الغربية ، غلت الأنظمة والوظائف قائمة في الدولة البيزنطية ، واتخذت الألقاب التي كان يحملها الموظفون أسماء يونانية ، فأصبح يطلق على والي المدينة لقب Bparch (٧) . وكتاب والي المدينة الذي

نُشِبت الإشارة إليه (١٦) يتضمن القوانين واللوائح التي تتعلق بالنقابات وأرباب الحرف والصنائع في القسطنطينية في القرن العاشر الميلادي ، فهو بذلك يساعد على ربط طوائف الامبراطورية الرومانية بنقابات المصور الوسطى ، ويسر لنا دراسة النظام الاقتصادي الذي خضعت له أوجه نشاط الفرد لمصالح الدولة. اذ أنه يتألف من مجموعة المرسومات التي تتعلق بالتجارة والتي يصح اعتبارها مبلجاً لما احتوته تشريعات ذلك العصر من أحكام ونصوص (١٧) .

ولما كانت الحرف تركز معظمها في أيدي طوائف أو نقابات ، فإن الكتاب اهتم اساساً بتنظيم أوجه نشاطها . على أن نصوص الكتاب لم تمس من حياة الطوائف الا ما يتعلق منها بالحياة الاقتصادية بالعاصمة البيزنطية . يضاف الى ذلك أن هذه المرسومات انما أصدرتها الدولة للنقابات ، ولم تصدر عن النقابات ذاتها أو عن رؤسائها ، فهي تتناول علاقات النقابات بالاحتكارات الحكومية ، وبأهل القسطنطينية وبالغريباء النازلين بالعاصمة ، وبما ترتبط به النقابات بعضها مع بعض من علاقات وصلات . فمن النقابات ما يخضع بطريق مباشر لسلطة الحكومة وسيطرتها ، وهذا النوع يرتبط بالصناعات التي تتعلق بالسياسة الاقتصادية للدولة ، ويتمثل في النقابات التي تقوم بصناعة الحرير وما يتصل بها من الحرير الخام وتجهيزه وصباغته ونسجه وإعداده للبيع أو التصدير فضلاً عن المنسوجات الحريرية المستوردة من الخارج (١٨) .

فالمنسوجات الحريرية التي تعتبر من أهم السلع التجارية في العالم وقتذاك لم تكن مجرد سلعة ، بل كان لها أهمية خاصة ، اذ أن ملابس الامبراطور والبطريرك الأرستقراطية تعتبر رمزا للسلطة السياسية ، يضاف الى ذلك ما كان لهذه المنسوجات الحريرية من أهمية في ملقوس الكنيسة والعلاقات مع التبريرين (١٩) . فالسيطرة على هذه المنسوجات القيمة تعتبر من الأسلحة القوية في يد الأباطرة ، الذين استخدموها حسبما تقتضيه خططهم السياسية ، فأجازوا أو منعوا ، كيفما شاءوا ، تصدير المنسوجات الحريرية أو المصبوغة باللون الأرجواني أو الموشاة بالذهب (٢٠) . وأصبح يمارس الصناعات المتعلقة بالحرير طوائف امبراطورية وطوائف خاصة فضلاً عن أفراد لا ينتمون لكلا النوعين من الطوائف . وكل من هذه الطوائف تحدد وضعها بقوانين واللوائح ، تحول دون طغيان طائفة على نشاط

طائفة أخرى ، ومنع تسرب أسرار الصناعة ، فأخذت تعمل جنباً الى جنب تحت اشراف موظفين معينين من قبل الحكومة^(١٨) . ويتضح ذلك من تصدير كتاب والى المدينة حيث جاء فيه : ان الله سبحانه وتعالى هو الذى وضع القوانين ، ليهتدى بها الناس فى أعمالهم ، فلا يتعدى أحدهم على الآخر ، ولا يتناول القوى على الضعيف ، فيجرى بذلك كل شئ، فى الحدود المرسومة له ^(١٩) .

فالتقابات الامبراطورية وهى المعروفة بالتقابات العامة تتولى الحكومة الاشراف عليها ، وتقوم بصناعة وصباغة المنسوجات الحربية اللازمة للامبراطور ورجال البلاط والأصدقاء ، وهى التى تتج من المنسوجات العالية الثمن ما كان يوزع بانتظام على كبار والموظفين على أنها جاب من مرتباتهم ^(٢٠) . على أن هذه التقابات ظلت وراثية حتى القرن السابع الميلادى ، ثم صار الالتحاق بالتقابة امتيازاً ، فلا يشغل الوظائف الخالية بالتقابة ، وفقاً لقانون هرقل ، الا من يجتاز امتحاناً يمتد رؤساء الحرف وموظفون من قبل الامبراطور ، وظل هذا القانون سارياً الى أن اندمج فى تشريعات الأسرة المقدونية فى مجموعة الباسيليكا ^(٢١) .

وقام الى جانب التقابات الامبراطورية خمس تقابات خاصة تشمل تجار الحرير ، وغزالي الحرير ، وتجار الملابس المصنوعة من الحرير المحلى ، وصناع الأقمشة الحربية والصباغين ، وتجار المنسوجات الحربية المستوردة ^(٢٢) . وتقوم هذه التقابات بصناعة وتجارة المنسوجات القوية التى تلى فى الرتبة المنسوجات الامبراطورية ، وتتولى بيعها للسكان ، ولها أهميتها فى تجارة يزنطة الخارجية . ويتحتم عليها أن تؤدى للدور الامبراطورية ضريبة نوعية من هذه المنسوجات . ولم يكن المشتغلون بها مستخدمين حكوميين ، بل كانوا أبواب حرف وتجاراً مستقلين ، شأنهم فى ذلك شأن سائر التقابات ، ولذا لم يرد لها ذكر فى مجموعة الباسيليكا ، بل أشار اليها كتاب والى المدينة ، وهذا دليل على أنها بلغت من النشاط ما تحتم جعلها تخضع لاشراف خاص على الرغم من أنها أعمال تجارية خاصة ^(٢٣) . غير أن فى ذلك دلالة أيضاً على انهيار الاحتكار الحكومى لصناعة الحرير ، وأصبح للسكان الحق فى ارتداء ما يشاءون من ^(٢٤) الملابس . على أن حقوق وواجبات التقابات الخاصة وردت فى كتاب والى المدينة ، فمن القيود المفروضة على صناع الأقمشة الحربية والصباغين ، ألا

يصبغوا الحرير الخام بالأرجوان ، لأنه يجوز أن يصنع منها ما يشابه الأنواع المحرمة من القماش ، أما إذا لم تستخدم في صناعة الملابس المنوعة ، من أنواع المنسوجات المخصصة للامبراطور ورجال بلاطه ، جاز لهم أن يفعلوا ذلك . وتضمن كتاب والى المدينة قوائم مفصلة عن هذه المنسوجات من حيث النوع واللون والحجم (٢٥) .

أما الأشخاص الذين يجوز لهم ، وفقا لما ورد في كتاب والى المدينة من نصوص ، أن يشاركوا في صناعة الحرير وتجارته ، فلا يتنزهون الى هابة من النقابات ، ومن بين هؤلاء جماعة من طبقة النبلاء ، جاز لهم أن يصنعوا لأقسم بعض أصناف من القماش الأرجواني والملابس الحريرية ؛ وجاز لهم أن يبيعوها لنقابة تجار الملابس المصنوعة من الحرير المحلي، وأن يشاركوا هابة تجار الملابس السورية من الأجانب ، غير أنه لا يجوز لهم أن يشتروا الحرير الخام من السوق، وترتب على ذلك أنه حرم عليهم صناعة الأقمشة المنوعة (٢٦) . على أن الامبراطور بإجازته لهؤلاء النبلاء أو السادة المقطعين أن يقيموا المصانع في ضياعهم ، لا يستطيع أن يتدخل ليمنعهم من صناعة المنسوجات المنوعة الا اذا أوقف نظام الاقطاع ونمو الضياع الكبيرة (٢٧) . واستطاع هؤلاء النبلاء أن يمارسوا عمليات تجارية ضخمة بفضل ما لجأوا اليه من تربية دودة القز وإنتاج الحرير الخام ، وبفضل ما توافر عندهم من أيدي عاملة رخيصة تشمل فيما يتكونون من الرقيق (٢٨) .

وأشار كتاب والى المدينة الى حماية قراء التجار الذين يتسبون في الحرير الخام، وهم المروفون باسم metaxarioi ، وقراء غزالي الحرير katartarioi بأن أجاز لهم أن يشتروا بالتجزئة ما يحتاجون اليه من الحرير الخام من أعضاء النقابات الخاصة بذلك . وربما كان أرباب هاتين الطائفتين من القراء المنحدرين من أعضاء النقابات ، أو أنهم تنازلوا عن حقهم في الشراء الجماعي للمادة الخام (٢٩) .

وعلى الرغم من أن تشريع النقابات اشتمل على مبادئ تؤدي الى الاستقرار التجاري ، والرقابة على السلع التجارية ، وتهيئة الفرص لاتساع التجارة ، والابتكار وتركيز الصناعة والتجارة ، فإن تجار الحرير الخام وصناع الأقمشة

الحريرية صارت لهم السيطرة على النقابات الأخرى ، ومثال ذلك أن غزال الحرير لا يستطيع أن يبيع ما ينزله من الحرير مباشرة الى صناع الأقمشة الحريرية ، بل ينبغي أن يسلمه الى تاجر الحرير الخام ، كما أنه لا يستطيع أن يشتري الحرير الخام من المستوردين الا بعد أن يستأذن تجار الحرير الخام . وللحصول على هذا الاذن ينبغي أن يثبت أنه ليس عبدا ، وأنه يستطيع أن يخرج عن قدر كبير من رأس المال كيما يسهم به في الاشتراك في عملية الشراء الجماعي ، يضاف الى ذلك أنه لا يستطيع أن يحصل الا على الكمية التي يحتاج اليها في صناعته (٣٠) .

وإذا نجح غزال الحرير في زيادة رأس ماله ، وأراد أن يثبت اسمه في نقابة تجار الحرير الخام ، جاز له أن يفعل ذلك بشرط ألا يكون عبدا ، وألا يشتغل بفزل الحرير ، غير أنه من الناحية العملية لم يستطيع بعض الغزالين أن يفعلوا من هذه الفرصة لأنهم كانوا أرقاء ، كما أنه لم يستطيع جمع المال المطلوب الا فية قليلة منهم ، وعندئذ كان من اليسير على الغزال أن يتخلى عن استقلاله ، وأن يدخل في خدمة أحد تجار الحرير الخام (٣١) .

ومن الناحية النظرية لا يجوز لتاجر الحرير الخام أن يشتغل بغير بيع المادة الخام وشراؤها ، غير أن هذا القيد الذي تكرر ذكره في كتاب والي المدينة لم يكن له أهمية ، لأن تاجر الحرير الخام يستطيع أن يشتجر عمالا يدفع لهم الأجر عاجلا ، وأجاز له القانون في أن يكون له رقيق ، وأن يجعل مكانه منهم من يمارس تجارته ، فلا يخضع بذلك للقيود المفروضة على غزالي الحرير من الرقيق (٣٢) .

ولصناع الأقمشة الحريرية serikerioi ما لتجار الحرير الخام من الامتيازات ، فيستطيعون أن يشتجروا عمالا ، وأن يدفعوا لهم الأجور مقدما ، وأن يقيموا مكانهم أرقاءهم لمباشرة الصناعة ، فجعلوا بذلك بين صناعة القماش وصباغته وبيعه (٣٣) ، على الرغم من أن القانون منعهم من بيع الملابس ، لأنهم بذلك يمتثلون على مجال مخصص لطائفة التجار المشتغلين ببيع الثياب الحريرية vestiopratai ، ومنهم من شراء الحرير الخام الا عن طريق تاجر الحرير الخام ، ومنهم من دفع بجانب من الثمن لتاجر الحرير الخام ليشتري لهم خروا (٣٤) .

وتمت رقابة أخرى - الى جانب رقابة صناع الأقمشة الحريرة ، حاولت أن تغطي على أعمال تجار الملابس المصنوعة محليا ، وهذه الطائفة اشتهرت باسم prandiopratai ، وتقوم باستيراد وبيع المنسوجات الحريرة المصنوعة في الشام والبلاد الأجنبية . والمعروف أن القانون يحرم عليهم القيام بهذا العمل ، غير أن الادارة ، فيما يبدو ، تناضت عن مخالفة هذه الطائفة لما هو مرسوم من الحدود ، وليس لذلك من تعليل سوى قوتها وقدرتها على شراء صفقات كبيرة من السلع من الأجانب (٣٦) .

ومن الطوائف التي ورد أيضا ذكرها في كتاب والي المدينة تجار الجواهر والمشتغلين بالصرف ، وتعتبرها السلطات الحاكمة من أهم النقابات ، فلم يكن مفروضا عليهم فحسب أن يحولوا النوميزات الى عملات صغيرة أيام الأسواق والأعياد، بل تحتم عليهم أيضا أن يتولوا تحديد الأسعار والأثمان، ولا يجوز لهم أن يبيعوا المادن الثمينة الى الأجانب لتصديرها (٣٧) . ويجعل كتاب والي المدينة للمشتغلين في تجارة الجواهر من الأعمال ما يجوز أن يقوم بها الصيارف ، ولا يعدد لهم أعمالا ووظائف معينة (٣٨) .

أما الطوائف الأخرى فاهتمت بحاجات الحياة اليومية ، فتجار المطور يبيعون المعطر والصباغة فضلا عن التوابل التي تعتبر من ضروريات الحياة في العصور الوسطى . وما كاد يستهل القرن العاشر حتى طغى المطارون على الصيادلة ، وتولى المستوردون جلب ما يحتاجون اليه من السلع ، ولا يتم البيع الا في أوقات معينة حتى يسهل الاشراف عليه (٣٩) .

أما صناع الشمع والصابون فلمهم رقابتان مستقلتان ، ويشتري صناع الشمع ما يحتاجون اليه من المادة الخام من الخارج ، ومن الكنائس والأديرة ، ويجعلون منها شموعا ، ويمارسون أيضا تجارة الزيت الذي يرسم الاضياء ، ويعتبر رسم الالتحاق برقابة الصابون أعلا الرسوم ، اذ بلغ ٦ نوميزات تدفع لخزانة الدولة ، وست نوميزات تدفع للرقابة (٤٠) .

واختص بتجارة الجلد ثلاث رقابات ، الجلادون الذين يجهزون الجلود الخام ، والداغون ثم السروجية الذين يبيعون الجلد بعد تجهيزه واعداه .

وتؤدى النقابات ما يطلبه الامبراطور من خدمات ، اذا اقتضت الأحوال ذلك ،
مقابل دفع تعويض لأربابها (٤٠) .

وقابة المتسبين فى المواد الغذائية تضم البقالين الذين تشمل سلعم ،
الى جانب أصناف البقالة والخضراوات ، الدجاج والسك الملح والأواني
الفضارية والقوارير والمسامير . والبقالة من الحرف المربحة . وجاز للبقالين أن
يتقاضوا من الربح عن كل نوميزما ملياريزين أى نحو ١٦٦٦ / (٤١) .

أما الجزارون، وجزارو الخنازير فلم هابتان مستقلتان، فالجزارون يبيعون
لحم الميول والضأن، وحتب عليهم الأحوال أن يخرجوا لتلقى قطعان الأغنام
القادمة من آسيا الصغرى الى شاطئ نهر Sangarius (سينكاروس) فيجرى شراؤها
بين بغيين . أما الأغنام التى يجلبها أصحابها الى العاصمة فيتم بيعها فى أماكن
وأوقات معينة . وينبغى بيع الأغنام منفصلة عن حملاتها ، ويدفع صاحبها ضريبة
عن كل نوع منها . ويصحبها الى قصابين معروفين ، ويشهد عليه ذبح الأغنام
موظفون من قبل الحكومة . وللخنازير سوق خاصة بها فى القسطنطينية ، ولباعة
انسك أسواق عديدة ، لما للسك من أهمية غذائية ، فيشتره التجار من المئات
والسفن وفراشيها ، وينبغى ألا يشتغلوا فى بيع السك الملح (٤٢) .

ولللخنازير حقوق واستيازات خاصة . وبلغ من أهمية قابة الخنازير فى
رعاية المدينة ، أن أعضاءها لا يلتزمون بتأدية خدمات وواجبات عامة ، بل
يشترى القمح ويتولون طعنه ، ويتقاضون من الربح قيراطا واحدا وملياردين
عن كل نوميزما . فالقيراط هو الربح الخالص ، أما الملياردين فهما أجرة
العمل . وينبغى تشييد الأفران من الأجر لمنح الخراف (٤٣) .
وللأرباب الحانات قابة خاصة ، وليسوا بالتجار للنبيذ ، وينبغى أن تطلق
الحانات أبوابها عند الغروب (٤٤) .

وتضمن كتاب والى المدينة أيضا لوائح تتعلق بمقاولى المسائر والمباني
وما يتصل بها من أبواب الحرف مثل التجارين والبناءين والحدادين والمبشرين ،
على الرغم من أنه لم يرد لهم قابة خاصة . ولا يجوز لمن يمارس البناء أن
يتحول عن حرفه ، ولا يجوز تغيير عقود البناء الا بعد أن يقوم مثل والى

المدينة بفحص البناء وتقدير قيمته ، فإذا تداعت البيوت المشيدة من الآجر قبل مضي عشر سنوات على بنائها ، تحتم على الما قول أن يعيد بناءها على نفقته الخاصة ، إلا إذا كان نسب انهيارها يرجع الى القضاء والقدر . أما المنازل المشيدة من الطين فلا يتحمل الما قول مسؤوليتها إلا لمدة ست سنوات (٤٦) .

وللقنابات أحياء خاصة بالمدينة ، غير أن قنابات عديدة تقع بالسرا ع الرئيسي المتمد وسط المدينة . وللجزارين وباعة السك أسواق خاصة . أما البقالون والخبازون فانتشرت حوانيتهم في سائر أنحاء المدينة حتى لا يشق على الناس الوصول اليهم . واتخذت طائفة العطارين أماكنها بالقرب من الباب البرونزي للقصر الإمبراطوري . ولا شك أن تركيز كل حرفة في مكان خاص يسر لمندوب الوالي أمر الاشراف عليها . وإذا لم تتحدد أسعار السلع وأرباحها في قوانين النقابة ، جاز لوالي المدينة أن يحددها حسبما تقتضى الأحوال (٤٧) .

وكل الأوزان والأكيال ينبغي أن تحبل ختام والى المدينة ، ولابد من التفتيش عليها من حين الى حين . وكل نزاع أو اختلاف يحدث بين المستخدم والمستخدم أو بين البائع والمستهلك لا يعرض على محاكم النقابات ، بل ينظر فيه مجلس الوالى . ويراعى والى المدينة كل ما تنطوى عليه لوائح النقابات من نواحي دينية ، ينبغي تنفيذها وأداؤها . ومثال ذلك أنه ينبغي اغلاق المحلات التجارية يوم الأحد ، على أن كثرة الاشارات الى مراعاة ذلك تدل على أن القاعدة تعرضت للاهمال في أحوال كثيرة . وينبى أيضا أن يتوقف النشاط التجارى أيام الأعياد ، وألا تفتح المحلات أبوابها قبل الساعة الثامنة صباحا في أيام الآحاد والأعياد ، وألا يستخدم صناع الصابون دهن الحيوان أيام الصيام ، وأن يوضح الصاغة ما باعوه من التحف المقدسة ، حتى لا تسرب المخلفات المقدسة الى خارج الامبراطورية ، اذ أن تهريب المخلفات الدينية كان تجارة رابحة . فالكنائس والحكومات بغرب أوروبا كانت تدفع أثمانا عالية مقابل الحصول على بعض مخلفات القديسين الأوائل (٤٨) .

ويتصل بموضوع النقابات مشكلة الرق . فالمعروف أن استخدام الرقيق في الدور والبيوت ظل مستمرا في الدولة البيزنطية . على أن هؤلاء الأرقاء كانوا من أسرى الحروب ، وقل عددهم في القرن الثانى عشر ، ويمترو ن أعلا

مكافئة من الأرقاء الذين تمتلكهم الدولة . والدليل على ذلك أنه إذا ارتكب العبد من الذنوب ما يقتضى عقابه ، قرر إرساله ليكون من عبيد الدولة . ويجوز استخدام الأرقاء في التجارة والصناعة ، ويصح بذلك أن يكون عضوا في النقابة ، وعندئذ يقوم سيده بتحويله مقابل أن يؤدي له نسبة معينة من الأرباح ويستطيع آخر الأمر أن يشتري حريته (٤٩) .

أما الأجانب ، ومن بينهم اليونانيون الذين يسكنون أقاليم الدولة البيزنطية فلم يلقوا معاملة طيبة . فإذا جاء أحدهم الى العاصمة ببضعة من السلع فلا يقبض بالعاصمة أكثر من المدة التي يقررها والى المدينة ، وهى لا تزيد على ثلاثة شهور ، ويخضع أثناءها لمراقبة شديدة من قبل موظفى الدولة . وتحتم عليهم ألا يشتروا إلا أنواعا معينة من الملابس والمنسوجات ، حتى لا يقوموا بتصديرها الى البلاد الأجنبية . وما ورد في كتاب والى المدينة من نصوص عديدة عن الأجانب تدل على حرص الامبراطورية على توفير ما تحتاجه المدينة من السلع ، وحماية النقابات في العاصمة من منافسة الصناعات الاقليمية (٥٠) .

وتعرض اليهود لما تعرض له الأجانب من قيود ، إذ جرى منهم من شراء الحرير الخام حتى لا يقوموا بتصديره . وللتمييز العنصرى أهمية في هذا القرار فالمعروف أن اليهود في الدولة البيزنطية وغرب أوروبا لم يجز لهم الالتحاق بالنقابات ، بينما جاز لهم ذلك في الدولة الإسلامية ، وللصانع اليهودى في القرن العاشر الميلادى شهرته بالمهارة في الصباغة (٥١) . وأقام اليهود في أعالي الامبراطورية البيزنطية على أنهم جاليات أجنبية يقيمون في أحياء معينة ، وينتشر سائر الأجانب في جهات بعيدة عنهم (٥٢) .

وتطلبت مراقبة الأجانب أن تشتري الحكومة أو تستأجر في العاصمة وكالات (خانات) mitata ، لينزل بها التجار الأجانب ، حيث يودعون مبالغهم ويدفعون ما هو مقرر عليها من رسوم، ويمارسون بها تجارتهم ، غير أنه لا يجوز للتاجر الأجنبى أن يبقى بها أكثر من المدة التى يحددها مندوب والى المدينة، وهى لا تزيد عادة على ثلاثة شهور. ويمارس التاجر الأجنبى نشاطه على قاعدة المقاصة ، إذ لا يجوز أن يخرج الذهب من البلاد ، فإذا تجاوز التاجر الأجنبى الحدود المرسومة له ، تعرض للعقوبات البيزنطية ، كالجلد وحلق الشعر

ومصادرة السلعة، والطرء من المدينة. ويتعاون والى المدينة مع مندوبيه فى مراقبة التاجر الأجنبى (٥٣) .

وكان لزاما على والى المدينة أن يستخدم عددا من الموظفين ليقوموا بما تتطلبه طبيعة رقابة الحكومة من الاشراف الدقيق على ما تمارسه النقابات من أعمال . وهؤلاء الموظفون يشملون مندوبين أو مراقبين legatarios ومتومين ، ومفتشين على الموازين والمكاييل ، ومفتشين على النسيج ، وموظفين آخرين لم تكن لهم أعمال محدودة . فاختص المراقب بالاشراف المباشر على الأجانب ، ومن واجباته فحص سلمهم ، ومنع تخزين البضائع برسم تجار المدينة . أما القوموسون فيتولون التفتيش على النقابات المختلفة ، ويجوز منها ما هو مقرر عليها من الرسوم ، ويراقبون أعمالها بمختلف الوسائل . يضاف الى ذلك أن والى المدينة لجأ الى استخدام رؤساء النقابات ، وهؤلاء يعينهم من بين أفراد الطوائف بمقتضى ما له من سلطان . ويعتبرون وسطاء بين والى المدينة والنقابات ، ويضطلعون بمسئولية مراعاة أن ارشادات والى المدينة قام بتنفيذها أعضاء النقابات (٥٤) .

والواضح من هذا المجل عن العلاقة بين والى المدينة والنقابات أن عنوان « كتاب والى المدينة » هو عنوان مناسب للقانون الذى اشتمل على كل المرسومات التى تولى تنفيذها والى المدينة فى علاقاته مع هذه الطوائف . غير أن هذا الكتاب لم يشتمل على كل ما فى القسطنطينية من نقابات . والراجح أن هذا التحديد كان متعمدا . فلم يتناول القانون الا أهم الحرف التى تؤدى خدمة كبيرة للدولة والمدينة ، وترتب على ذلك أنه لم يرد بالكتاب من الحرف الا تلك التى تلزم بتأدية خدمات هامة ، وتلك التى تمارس من الحرف والصناعات ما يتعلق باحتكارات الدولة ، أو تلك التى تعتبر نواحى نشاطها من الأمور الجوهرية لتزويد المدينة بالمواد الغذائية (٥٥) .

والنقابات التى تناولها القانون هى النقابات التى خلفت ما كان بالامبراطورية الرومانية من طوائف التجار والصناع ، فأسمائها تطابق فى حالات كثيرة أسماء الطوائف المتقدمة . أما علاقاتها بالدولة فظلت فى جوهرها على ما كانت عليه ، على الرغم من أنه جرت فى هذه الناحية تغييرات هامة . منها أن العضوية فى النقابة لم تكن ، فيما يبدو ، وراثية ، وأن قبول الأعضاء بالنقابة أضحي اختياريا

بعد أن كان اجباريا ، وأن الدولة صارت تعرض رقابة بالغة الشدّة على الأشخاص الذين جرى قبولهم بالنقابات ، وعمدت الى طرد أولئك الذين تبين أنه غير مرغوب فيهم . على أن نظام الخدمات الاجبارية ظل باقيا لم يتغير ، على الرغم من أن إلغاء النظام الذى يقضى بمنح سكان القسطنطينية مقادير من الخبز والنيذ والزيوت أدى الى التخلّى عن بعض هذه الخدمات (٢٦) .

وفيما يلي ترجمة عربية « لكتاب والى المدينة » قلا عن النص الذى أورده الأستاذ بورك الذى سبقت الإشارة اليه (٢٧) .

كتاب والى

تصنيف

إن الله ، بعد أن خلق ما هو كائن من الأشياء ، وكفل للعالم الأمن والوفاق ، خط بأصبعه على الألواح القانون ، ونشره علنيا حتى لا يتناول الناس ، وقد اعتدوا به ، بعضهم على بعض ، ولا يظن القوي على الضعيف . بل ينبغي أن تسير كل الأشياء وفق ما هو مقدر لها من نظام .

ولذا كان من ضالّح سلامتنا أيضا أن نصير الأوامر التالية على أساس القوانين كيما يخضع الناس لحكم سليم ، وحتى لا يتعدى شخص على الآخر .

الفصل الأول

للولاكون :

١ - كل من يريد أن يكون موثقا ، ينبغي أن يجرى انتخابه بموافقة وقرار كل من رئيس نقابة الموثقين (٢٨) ، ومن يعمل معه من الموثقين ، حتى يطمئنا الى درايته بالقوانين وفهمها ، والى تفوقه فى الكتابة ، والى أنه ليس ثرثارا كثير الكلام ولا وقحا ، ولا يعيش حياة فاسدة ، انما يشتهر فى طباعه بالاتزان والجد ، ولا يشتهر فى أفكاره بالخداع ، معروف بالقصاحة والطلاقة والذكاء ، وأنه قارىء مطبوع ، دقيق فى الأداء ، ويحترزون بأنه لا يسهل اهتياده لأن يؤدى معنى كاذبا فى المواضع التى يكتبها ، أو أن يضمن كتابته عبارات خادعة ، وإذا ظهر أن موثقا يقوم بما يخالف القانون واللوائح المدونة المقررة ، تحمل مسؤولية ذلك ، أولئك الذين شهدوا له .

٢ - ينبغي على المتقدم لهذه الوظيفة أن يكون قد وعى موضوعات مجمل القانون (١١) ، وأن يكون قد حفظ أيضا الستين كتابا التي تألفت منها « الباسيليكا » (١٢) ، وأنه تلقى من التعليم ما يجعله لا يخفى في صياغة وثائقه ، ولا يقع في خطأ في قراءته . وينبغي أن يكون قد توافر له من الوقت ما يكفي لاثبات قدرته العقلية والبدنية ، فيطلبون إليه أن يعد وثيقة يحررها بخط يده في اجتماع للنقابة ، حتى لا يرتكب فيما بعد أخطاء لا يتوقعها ، حتى اذا حدث بعدئذ ما أدى الى اكتشاف خطأ ارتكبه ، تقرر طرده من النقابة .

٣ - يجرى انتخاب المرشح على النحو التالي : بعد الاستماع الى الشهود ، وبعد اختباره ، ينبغي عليه أن يتقدم مرتديا عباءة للشول أمام السيد الأمجد والى المدينة ، ومن بصحبته من طائفة الموقنين ورئيس الطائفة ، فيحلف هؤلاء أمام الله ، وبحياة الأباطرة ، أنه تقرر الحاق هذا المرشح بالطائفة ، لا عن محسوبة أو تحت تأثير معين ، أو لسبب عائلي أو صداقة ، بل بسبب سلوكه الطيب ومعرفته وكفايته وصلاحيته العامة . وبعد أن يتم أخذ الأيمان ، حسبما تقرر ، يقوم والى المدينة ، بإشارة منه ، بإعلان انتخابه عضوا في إدارة المدينة ، وبذلك يلتحق بالنقابة ، ويصير من الموقنين . ثم يذهب بعدئذ الى أقرب كنيسة لمسكنه ، مرتديا عباءته يزينا شريط أبيض ، بينما يرتدى جميع الموقنين عباءاتهم ، حيث يكرسه القس بما يتلوه من أدعية . ويصحبه في طريقه كل الموقنين مرتدين عباءاتهم ، بينما يحمل رئيس الطائفة مبخرة ، ويحول ما ينبعث من البخور من أدخنة نحوه ، ذلك الذى جرى انتخابه حديثا ، والذى يحمل الانجيل مفتوحا أمامه ، والمقصود من ذلك أن طريقه سوف يكون مستقيما مثلما ارتفع دخان البخور عاليا أمام وجه الله . وفى هذه الهيئة الرائعة يتقدم الى الجلوس على المقعد الذى تخصص له ، ثم يعود الى يته على هذه الصورة من الأبهة والجلال ، فيشارك زملاءه الطعام والسرور .

٤ - وكل موقت يعتمد أن يتغيب عن الموكب الملكى أو الاحتفال الملكى في ميدان السباق ، أو كل اجتماع يدعو اليه السيد الأجل والى المدينة ، أو عن أى اجتماع من هذا القبيل ، تحتم عليه أن يدفع ٤ قراريط (١٣) الى موظفى والى المدينة ، وأن يدفع مبلغا مماثلا لأعضاء النقابة . أما اذا أبدى سببا

واضحاً مقبولا يبرر غيابه ، الذى لم يحدث ليحقق من ورائه كسبا خاصا ، قرر اعفاؤه من العقوبة ، اذا وافق رئيس النقابة •

٥ - واذا استدعى رئيس النقابة أحد الموثقين لأمر ضرورى ، ولم يستجب (الموثق) لدعوته للمرة الأولى والثانية والثالثة ، تحتم عليه أن يدفع عن عدم حضوره للمرة الأولى قيراطين ، وعن الثانية أربعة قيراط ، وعن المرة الثالثة ستة قيراط ، أما اذا فعل ذلك بدافع الغطرسة وروح الازدراء ، قرر بناء على أمر والى المدينة ، انزال العقوبة به ، بأن يصير جلده •

٦ - واذا تم استدعاء الموثق لتحرير عقد ، وتحتم بعدئذ دعوة موثق آخر ، قرر أن يشترك الاثنان سويا فى العمل ، وأن يتقاسما الأجر بالتساوى • أما اذا جاء أحدهما دون أن توجه اليه دعوة بالحضور ، فانه لا يكفى طرده فحسب دون أجر ، بل ينبغى أيضا مجازاته بالجلد • واذا ترك أحدهما العمل باختياره ، بعد أن أوثقه على التمام ، فلا يجوز أن يحصل على نصيبه من الأجر •

٧ - واذا حدث أن أراد الموثق الذى تم استدعاؤه لكتابة العقد أن تخلى عن العمل لسبب معقول ، ودعا موثقا آخر ، فإن هذا الموثق الذى استدعاه يتقاضى ثلثى الأجر ، على حين يأخذ الثلث الباقي الموثق الذى جرى استدعاؤه أول الأمر •

٨ - واذا تم استدعاء موثق وقام بانجاز العقد ، ثم حدث أن استدعى موثق آخر ، وأبجز الاثنان العقد وأتما العمل ، حصل للموثق الثانى على الأجر كله ، اذا لم يكن يعلم بأن هذا العمل سبق أن قام به الموثق الأول • أما اذا جاء وهو يعلم ذلك ، فلا يحصل الا على ثلث الأجر ، بينما يحصل الأول على الثلثين • واذا جرى استدعاؤهما معا ، فينبغى أن ينصاع الأصغر لمن يكبره فى المكانة ، غير أنهما يقتسمان الأجر بالتساوى •

٩ - واذا أقبل موثق على مجلس به موثق آخر ، ولم يؤد الثانى له من التحية ما يليق باحترامه ، أو اذا جلس أحدهما الى مائدة دون مراعاة للمكانة والأسبقية ، أو اذا صار اتهام أحدهما بالامساءة الى الآخر ، تحتم على المذنب أن يدفع عن كل حالة من هذه الحالات ستة قيراط ، واذا تناول أحدهما بيديه على الآخر ، تولى والى المدينة انزال العقوبة به •

١٠ - وإذا حدث نزاع بين كاتب عقود^(١٤) وموثقين آخرين بسبب وثيقة من الوثائق أو الحصول على الأجر ، تولى رئيس الطائفة الفصل في الموضوع إذا كان بسيطا هينا ، أما إذا ارتبط الأجر بمبالغ كبيرة ، صار والى المدينة هو القاضي الذى يفصل في النزاع ؛ فيرفع اليه رئيس النقابة هذا الموضوع ، وإذا لم يستجب الطرف الذى صدر الحكم ضده : لقرار رئيس النقابة ، تقرر تغريمه ثلاث نوميزمات^(١٥) .

١١ - إذا وقع الاعتداء على موثق من موثق آخر ، فعليه أن يتقدم بدعواه أولا الى رئيس النقابة ، ثم الى المحكمة العليا التى يرأسها والى المدينة ، وإذا لم يفعل ذلك ، خسر قضيته .

١٢ - ينبغى على الموثق أن يبادر ، في حضور الشهود والطرفين اللذين استدعياه ، الى تأدية ما يتطلبه القانون من اجراء صياغة خاتمة العقد ، وأن يبلغ في تحريرها ما يجعل العقد سليما صحيحا . وإذا تبين أنه أغفل هذا العمل ، تحتم بناء على أمر الوالى ، جلده وقص شعره^(١٦) .

١٣ - وبناء على أمر السيد الوالى الأمجد ، يصير تعيين مدرسى^(١٧) القانون وسائر المعلمين في الوظائف الدائمة ، بعد موافقة نقابة الموثقين : ابتداء من رئيس النقابة حتى مدرسى القانون وسائر المعلمين . ويدفع مدرس القانون نوميزمتين لرئيس النقابة ، كما يدفع للنقابة نوميزما واحدة رسما للاتحاق بها ، بينما يدفع المعلم العادى لرئيس النقابة نوميزما واحدة ، وللنقابة نوميزمتين .

١٤ - والموثق الذى تم انتخابه حديثا ، ينبغى عليه أن يدفع لرئيس النقابة ثلاث نوميزمات على أنها رسم الالتحاق (بالنقابة) ، بينما يدفع كل من الآخرين (مدرس القانون والمعلم العادى) نوميزما واحدة ، ويسهم أيضا في نفقات المائدة بدفع ست نوميزمات .

١٥ - وإذا حرر مدرس القانون عقودا دون أن يحصل على تفويض من الوالى ، وموافقة الموثقين وتصديقهم ، تقرر جلده وطرده من وظيفته .

١٦ - ولا يجوز لمدرسى القانون أو الدراسات الأخرى ، أن يقبلوا صيبا من مدرسة أخرى ، الا اذا أتهم (الصبى) مقرر الدراسة الذى دفع عنه الأجر .

أما إذا أراد والداه استعادته بسبب الإهمال ، جاز لهما أن يفعلا ذلك ، بعد أن يخطرا ورئيس النقابة .

١٧ - ينبغي ألا يعمل مساعدو الموقنين ما هو مخالف لرغبة سادتهم ، وإذا جرى ضبطهم يفعلون ذلك ، حل بهم العقاب ، وحرر طردهم ومنع الموقنين الآخرين من استخدامهم .

١٨ - ولا يجوز لمساعدى الموقنين أن يضيفوا للعقود الصيغة الختامية ، لأن هذا يعتبر من حقوق الموقنين .

١٩ - ويدفع الموقن لمساعده عن كل تمييزاً من أجره ، قيراطين .

٢٠ - وإذا اتخذ موقن مكانه المعتاد في دار من الدور المقدسة ، أو من الدور العامة ، أو في دير من الأديرة ، أو في ملجأ من ملاجئ كبار السن ، وحاول موقن آخر أن يخرج منه ، تقرر تغريم الثاني عند اقتضاح أمره ، بأن يدفع عشر توميزمات .

٢١ - إذا عجز رئيس النقابة عن مباشرة واجبات وظيفته بسبب المرض أو كبر السن ، أو العجز فينبغي أن يتمزل الخدمة ، وأن يحصل على ما هو مقرر له باعتباره رئيساً سابقاً للنقابة ، ويحل مكانه في الوظيفة من يليه في الرتبة .

٢٢ - وإذا تقرر تعيين رئيس للنقابة ، قام والى المدينة بترقية أعلا الموقنين مكانة الى هذه الوظيفة ، بشرط أن تشهد الطائفة كلها بأنه جدير بهذا المنصب . أما إذا تبين أنه لا يستحقه ، تقدم لشغل هذه الوظيفة من يليه مباشرة في المكانة ، ثم الذى يتلو . ويتعتم عليه مقابل هذا أن يتقدم بالشكر الى الموقنين الذين يعملون تحت إدارته .

٢٣ - ينبغي ألا يزيد مجموع عدد الموقنين على أربعة وعشرين موقناً ، وليس لوالى المدينة من السلطة ما يجعله يدرج أكثر من هذا العدد في النقابة ، متذرعاً بحجة أنه إنما يعين مندوبين أو لوابا عنه ، وإذا تبين أنه فعل ذلك ، تقرر تجريده من حزامه ومن وظيفته (١٨) . وينبغي أن يكون عدد الموقنين مساوياً لعدد وظائفهم .

٢٤ - لا يجوز للموثق أن يتخذ مساعدا له دون أن يقدمه أول الأمر الى النقابة ورئيس النقابة ، ويقرر أنه شخص مستقيم ، ولا يستخدم الموثق الا مساعدا واحدا .

٢٥ - ويتقاضى الموثوقون عن تحرير العقود أجورا قدرها اثني عشر قيراطا اذا لم يتجاوز مقدار العقد ، مهما كانت أهميته وقيمته ، مائة نوميزما ، واذا زاد على ذلك ، تقاضى (أجرا اضافيا قدره) نوميزما (٩) . واذا زاد مرة أخرى ، صار الأجر الاضافى نوميزمتين . ولا يجوز لهم أن يسعوا الى الحصول على أجور مرتفعة . ولا يجوز لهم أن يفرقوا في المعاملة بين الأفراد عند اعداد وثائقهم : عقود البيع ، وعقود الزواج ، والوصايا ، والعقود . واذا حدث أن اقتضح (أمر) أحدهم بأن طلب أجرا مرتفعا ، تقرر طرده من وظيفته ، وجرى جلده بناء على أمر والى المدينة . أما اذا تلقى الموثق هدية من شخص دون أن يطلب ذلك (منه) أو يسعى الى (الحصول عليها) ، جاز له أن يقبلها ، ولا يجوز استدعاه لمناظرته ، لأنه اذا ازداد عبء الأجر على العملاء ، عبدوا الى أن يتركوا عقودهم في أيدي الموثقين ، وكلما مضى الوقت ، وجرى نسيان هذه العقود ، حدثت المشاجرات والمناقشات بين الأفراد .

٢٦ - واذا مات الموثق ، اجتمع زملاؤه مرتدين عباةاتهم وشيعوا جثمانه الى القبر ، حتى يتناسب جلال تشييمه مع روعة انتخابه ، وكل من تخلف عن الحضور لمصلحة خاصة ، دون أن يبدى عذرا مقبولا ، تقرر تغريمه (بأن يدفع) مئة قرايط .

الفصل الثاني

تجار الجواهر :

١ - بناء على أمرنا ، يجوز لتجار الجواهر أن يشتروا ، اذا دعاهم شخص من الأشخاص ، مايتصل بحرقهم من الأشياء كالذهب والنفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة ، غير أنه لا يجوز لهم أن يشتروا البرونز ، والمنسوجات الكتانية ، وسائر السلع التي يختص بشرائها غيرهم . ومع ذلك لا يجوز منعهم من أن يشتروا ما يريدون لاستعمالهم الخاص .

٢ - ينبغي ألا يخفصوا أو يزيدوا ثمن الأشياء المعروضة للبيع ، بما يضر البائعين ، غير أنه ينبغي عليهم أن يقوموا بقيمتها الصحيحة • وإذا عمد أحدهم إلى فعل ذلك على سبيل الخس ، تحتم عليه أن يدفع للبائع ما تقرر من القيسة للسلع •

٣ - ووفقا للعرف القديم ، ينبغي على تجار الجواهر أن يتخذوا في أيام انعقاد الأسواق أماكنهم في داخل دكاكينهم ، ويكون معهم من المباشرين من يتأهون مواعيد مبيعاتهم • وينبغي أن يكون حساب قدهم بالمليارات (١) ، حتى إذا أراد أحد الأشخاص أن يبيع لتجار الجواهر شيئا من سلهم ، استطاعوا أن يشتروه •

٤ - إذا اكتشف تاجر الجواهر أن امرأة تعرض للبيع أشياء مصنوعة من الذهب أو الفضة أو اللؤلؤ أو الأحجار الكريمة ، تحتم عليه أن ينهي لوالى المدينة بخبر هذه الأشياء ، فيحول دون تصديرها إلى الأجانب •

٥ - إذا عمد أحدهم إلى التهجم على معبد غير مسكوك ، وصنع منه أشياء يقصد بيعها ، تقرر قطع يده •

٦ - إذا باع أحد الأجانب ذهبا أو فضة ، مصنوعا أو غير مصنوع ، جرى التحقيق معه عن أصله ، وإخطار رئيس النقابة بغيره ، حتى يتم اكتشاف هذه السلع المروقة •

٧ - إذا تبين أن أحد تجار الجواهر اشترى قطعة من المخلفات الدينية ، سواء كان بها خدش أو كانت سليمة ، دوز أن يرضها على والى المدينة ، تقرر مصادره ومصادرة البائع (٣) •

٨ - تأمر بأنه ينبغي على الصائغ سواء كان عبدا أو حرا ألا يشتري لعمله أكبر من رطل واحد من الذهب غير المسكوك ، سواء كان مصنوعا أو غير مصنوع •

٩ - إذا حصل (صائغ) لعمله من صائغ آخر على أكثر من رطل ذهب غير مسكوك ، ولم يادر بإخطار رئيس الصاغة عنه ، قامت الحكومة بمصادره إذا كان عبدا ، أما إذا كان حرا ، تحتم جلده ، وتقرر تغريمه ظلما من الذهب •

١٠ — وإذا أقام عبد بذكأن تاجر جواهر ، ينبغي أن يكون ذلك بموافقة سيده ، إذا كان (هذا السيد) موفور الثراء ، أما إذا كان حرا فينبغي أن يشهد بأمانته وصدقه خمسة أشخاص ، يخضعون لمثل ما يخضع له ذلك الذى رشحوه من الثراء .

١١ — وأمر أنه ليس للصانع الحق فى أن يصنع الذهب والفضة فى بيته ، بل يقوم بذلك فى الدكاكين المنصوبة بشارع الميز (٣) . ولا يجوز لأحد أن يكون حائفا الا يعلم والى المدينة .

١٢ — لا يجوز لتجار الجواهر أن يقوموا بتقدير قيمة المعادن الا يعلم والى المدينة ، ولا يجوز أن يقع بينهم ، عند تهويم المعادن ، شئ من النزاع والشجار . فإذا جرى ضبطهم يفعلون شيئا من هذه الأمور ، تقرر جلدتهم ، نوقص شعرهم ، وحذف اسمهم من سجل النقابة .

الفصل الثالث

الصيارف :

١ — ينبغى على كل من يرغب فى أن يمارس الصيرفة ، أن يركبه رجل مشهود له بالاحترام والأمانة ، يضمن بأنه سوف لا يعمل ما هو مخالف للرسومات ، ويشهد بأنه لا يقطع أطراف التوميزمات أو الملياريزات ، أو يجعل عليها قهشا زائفة ، أو يقيم مكانه عبدا من عبيده ، إذا حدث ما دعا الى انصرافه الى بعض الأعمال الطائفة ، حتى لا يتطرق الى عمل المهنة ما يلغى الى العبث باستخدام الحيل . وإذا ضبط أحدهم يفعل هذه الأمور ، تقرر مجازاته بقطع يده .

٢ — ينبغى على الصيارف (٣٤) أن ينهوا الى والى المدينة بخبر المزيين الذين يتخذون مواضعهم بالميادين والشوارع ، حتى يمنعهم من المضى فى الأعمال المخالفة للقانون ، وإذا علموا بأمر هؤلاء (المزيين) ، ولم ينهوا بخبرهم (لوالى المدينة) ، تعرضوا للعقوبة التى سبق ذكرها .

٣ — ولا ينبغى للصيارف أن ينقصوا من قيمة ملياريزيا خالصة سليمة تحمل الخاتم الامبراطورى الصحيح ، غير أنه ينبغى عليهم أن يقبلوها على أنها

مساوية لأربعة وعشرين فلسا . ومنع ذلك ، اذا اختلفت حالة النقد عن ذلك ، فلا بد من تقديره تبعا لهذا الاختلاف . ومن لم يراع ذلك منهم ، تقرر جلدتهم وقص شعورهم ومصادرتهم .

٤ - ينبئ على كل صيرفي أن يكون عنده مساعدان يتوليان فرز النقود . وينبئ أن يكون ضامنا لهما . فاذا جرى ضبط أحدهما يرتكب ما يخالف القوانين ، تعرض ، هو ومن عينه (لهذا الغرض) ، للعقوبات التي سبق ذكرها .
٥ - وكل صيرفي يتلقى نوميذما أو ملياريزة زائفة ، ولا ينبئ عنها ، وعن حائزها ، والى المدينة ، تحتم جلده وقص شعره وبقية .

٦ - ينبئ على الصيارف ألا يعطوا مساعدتهم دفاتر حسابات أو قودا ، أو يقيموم في الميادين أو الشوارع ، ليحصلوا من وراء نشاطهم على أرباح ، وينبئ عليهم أن يلزموا بمصارفهم وألا ينفادوها حتى في الأحوال التي يجري فيها توزيع الصدقات ، أو تأدية الصلوات للامبراطور ، واذا ضبط أحدهم يفعل ذلك ، تقرر ضربه ، وقص شعره ، ومصادرته .

الفصل الرابع

تجار الملابس الحريرة^{١٧٥}

١ - يجوز لتجار الملابس الحريرة أن يشتروا أثوابا حريرة ، غير أنهم لا يشترون من السلع الا ما يسد حاجتهم الشخصية ، (ولا يجوز) أن يبيعوها الى غيرهم من الناس ، ولا يجوز لهم أن يعطوا للأجانب شيئا من السلع المتنوعة : مثل السلع المصنوعة من الحرير الأحمر أو الأرجواني التي من الحجم الكبير ، حتى لا تنتقل الى الأجانب . وكل من ينتهك هذه اللوائح ، تعرض للجلد ومصادرة السلع .

٢ - واذا اشترى تجار الملابس الحريرة ، سواء كانوا أحرارا أو أرقاء ، من الأثواب ما يساوي ثمنها عشر نوميذمات من أشخاص ، أيا كانت صنعتهم ، ولو كانوا أمراء أو من نساخي الحرير ، فينبئ عليهم أن ينهوا لوالى المدينة بخبرها حتى يعرف أين يجري بيعها . ومن يخالف ذلك منهم ، تعرض للعقوبة التي سبق ذكرها .

٣ - وكل من لا يخطر والى المدينة بما لديه من العباءات أو الأثواب الزرقاء اللون ، أو التى يختلط فيها اللون الأحمر بالأرجوانى ، تعرض للعقاب (٣) .

٤ - وكل من لا يطلع منهم والى المدينة على ما ينبى تصديره من السلع للأجانب ، حتى يحصلوا بذلك على موافقة ، حل بهم العقاب .

٥ - وينبى لمن يجرى ادراجة فى نقابة تجار الملابس الحريرية ، أن يعلن خمسة من أعضاء هذه النقابة ، فى حفرة والى المدينة ، بأنه « أهل لأن يكون فى هذه الحرفة » . وعندئذ يصير ادراج اسمه فى سجل النقابة ، ويفتح له دكانا ، ويمارس التجارة ، ويدفع للنقابة ست توميزمات .

٦ - وكل من يريد أن يكون له حانوت يبيع به الأثواب الحريرية ، ينبى عليه أن يدفع ست توميزمات ، وينبى أيضا أن يحصل على موافقة والى المدينة .

٧ - ومن كان تاجرا لأثواب حريرية ، وكان تاسجا للحرير فى آن واحد ، ينبى أن يختار احدى هاتين الحرفتين ويتخلى عن الأخرى . وإذا تبين أنه يمارس الحرفتين معا ، دخل تحت طائلة العقوبة الموضحة بعاليه (٣) .

٨ - ومن يقيم من الأجانب بخانات المدينة ، ينبى الاهتمام بنمهم من أن يشتروا ما هو ممنوع من قطع الملابس ، أو الملابس المنسوجة من قطعة واحدة ، الا ما كان منها لاستخدامه خاصة ، أو تلك التى جرت صناعتها بمدينة الأمبراطور . وينبى عليهم عند مغادرة المدينة أن يعلنوا والى المدينة بخبر تلك السلع ، حتى يعلم ما اشتروه من السلع . وكل من يساعدهم على اخفاء هذه الأشياء ، تعرض للجلد ومصادرة السلع .

٩ - وكل تاجر من تجار الأثواب الحريرية يسعى سرا أو علنا لرفع الايطار الذى يدفعه غيره من التجار ، تعرض للجلد وقص الشعر ومصادرة السلع .

الفصل الخامس

تجار المنسوجات الحريرة السورية :

١ - ينبغى على تجار المنسوجات الحريرة السورية أن يخضعوا لاشراف رئيس يمينه والى المدينة . وينبغى ألا يمارسوا حرفة تجار الملابس الحريرة ، وألا يشتروا من السلع سوى أصناف الملابس المستوردة من سوريا ، وما ورد من السلع الحريرة من سلوقية . وكل من يخالف هذه الأوامر تعرض للجلد وقص الشعر والطرء من النقابة .

٢ - وما استورده تجار المنسوجات الحريرة السورية من السلع ، ينبغى ايداعها فى خان من الخانات ، فتظل به حتى يجتمع (التجار) سويا لاقتسامها ، ويرى هذا على ما يرد من سوريا من السلع الاسلامية ، سواء كانت ملابس داخلية وعباءات مخططة ، أو سلما مختلفة الألوان ، أو من حرير بالوان الطيف ، أو أثوابا بأكمام ، أو أثوابا بغدادية ، وكلاهما من أوزان خفيفة وثقيلة . وينبغى على جميع التجار أن يجتمعوا بهذا الموضع ، وأن يتقاسموا السلع مع التجار السوريين الذين بلغت اقامتهم بالعاصمة عشر سنوات متصلة ، وينبغى أن يقيموا جميعا فى قطاع واحد بالخان (الفندق) ، وألا يتفرقوا فى أنحاء المدينة لبيعوا سلعهم . ومن يرفض منهم القيام بذلك ، تعرض للعقوبة السالفة الذكر .

٣ - وعند انعقاد السوق ، ينبغى على كل أعضاء النقابة أن يلغفوا تأمينا (عربونا) ، بحسب موارد كل منهم ، ويتولى والى المدينة تقسيم السلع بينهم حسبما أسهم به كل منهم .

٤ - وينبغى على تجار المنسوجات الحريرة السورية أن يشتركوا معا فى شراء كل ما ورد من سوريا من السلع التجارية ، أيا كانت صفتها وكميتها ، طالما اشتملت على ملابس ، سواء كانت كبيرة أو صغيرة . أما اذا اشتملت السلع على عطور أو مواد صباغة ، فينبغى على تجار العطور أن يشتروها . واذا أراد أحد النبلاء ، أو شخص من سائر الناس ، أن يشتري شيئا من السلع المستوردة ، فلا يجوز لأحد منهم أن يشتري من هذه السلع الا ما كان للاستهلاك فى النار .

٥ - وينبغي على التجار السوريين الذين يجلبون المتاجر ألا يقيموا في الخانات أكثر من ثلاثة شهور . وفي أثناء هذه الفترة ينبغي عليهم أن ينجزوا بيع سلعتهم ، وشراء متاجر أخرى . وما بقى من السلع المستوردة ولم يبيعها أولئك الذين يتاجرون فيها ، ينبغي على هؤلاء (التجار) أن ينهوا بخبرها الى والى المدينة ، حتى يقوم بإجراء ما يلزم للتخلص من هذا الفائض . وكل من يجرؤ على تجاوز هذه الأوامر ، تعرض للجلد وقص الشعر ومصادرة سلعة .

الفصل السادس

تجار الحرير الخام :

١ - لا يجوز لتجار الحرير الخام أن يمارسوا حرفة أخرى ، بل ينبغي عليهم أن يمارسوا حرفةهم علنا بالموضع الذى تحدد لهم ، ومن يخالف ذلك منهم تعرض للجلد وقص الشعر والنقى .

٢ - وكل من يستخدم من تجار الحرير الخام عاملا بأجر ، ينبغي ألا يتعاقد معه لمدة تزيد على شهر ، وألا يعطيه من الأجر الا ما يقابل عمل ثلاثين يوما ، وهو الأجر الذى يناله المستخدم اذا عمل شهرا كاملا . فاذا أعطى أحدهم أجرا يزيد على المدة المقررة ، تعرض لضياح هذا الأجر بسبب ما ارتكبه من مخالفة .

٣ - لا يجوز لتاجر الحرير الخام أن يستأجر عاملا كان بخدمة تاجر آخر ، حتى يؤدي هذا العامل جميع الخدمة التى تقاضى عنها أجرا . ومن يفعل هذا ، جرى تعزيره بأن يدفع ما أخذه العامل من أجر لم يؤد عنه عملا .

٤ - ينبغي على تجار الحرير الخام أن يدفعوا لرؤسائهم قيراطا عن كل مازته مائة رطل (قنطارا) من الحرير الخام . وكل من يحرز منهم موازين وأقالا غير موسومة بخاتم والى المدينة ، قرر جلدهم وقص شعرهم .

٥ - ومن يقدم منهم الى الفنادق بحري خام حصلوا عليه من أقوام أجاب ، فلا يدفعون عنه ضريبة الوارد ، انما يدفعون فقط أجور سكنهم واقامتهم ؛ ويعنى أيضا من ضريبة البيوع ، أولئك الذين يشترون منهم هذا الحرير الخام .

٦ - وينبغي على المتقدم للالتحاق بنقابة الحرير الخام أن يكون لديه توصية من رجال اشتهروا بالأمانة والمكانة ، يشهدون بحسن سيرته وسلوكه . وبعدئذ يجرى (قبوله) بالنقابة بعد أن يدفع توميزتين .

٧ - وإذا أراد تاجر من تجار الحرير الخام أن يقيم مكانه عبده لممارسة هذه الحرفة ، فينبغي أن يجعل من نفسه ضامنا له ، وأن يخضع لكل ما يتعرض له العبد من جزاء ، إذا ارتكب خطأ من الأخطاء .

٨ - وعند انعقاد السوق ، ينبغي على كل أفراد النقابة أن يدفعوا تأمينات بحسب موارد كل منهم ، ويصير توزيع السلع بينهم حسبما دفع كل منهم .

٩ - وإذا حدث أن اشترى تاجر غنى من تجار الحرير الخام كمية من الحرير من الأجانب ، وجب عليه أن يبيعها الى زملائه الفقراء بربح لا يتجاوز أوقية (٢٨) عن التوميزما .

١٠ - وإذا استورد تاجر باسمه حريرا خاما ، لحساب صاحب تفوذ و سلطان ، أو يرسم رجل ثرى ، أو ناسج حرير (٢٩) قرر جلده وقص شعره وطرده من النقابة .

١١ - وكل من يقبل تأمينا عن بيع حرير خام ، ثم عمد ، تمويهها وغشها ، إلى رفع السعر ، قرر تفريره بأن يدفع مقدار التأمين .

١٢ - إذا جرى ضبط تاجر يسافر الى الخارج ، لبيع حريرا خاما ، تحتم طرده من النقابة .

١٣ - ينبغي على التجار ألا يبيعوا في دورهم من الحرير الخام ما كان غير مشغول ، وينبغي أن يبيعوا الحرير الخام بالسوق حتى لا يجرى شحنه خفية الى أولئك الذين تقرر منهم من شرائه . وكل من يبيع في داره ، تحتم عليه أن يدفع للنقابة خمس عشرة توميزما .

١٤ - ليس للتجار الحق في أن ينزلوا الحرير الخام ، انما يجوز لهم أن يشتروه أو يبيعوه . وكل من يجرى اكتشافه منهم يتجاوز هذا القيد ، تعرض للجلد وقص الشعر (٣٠) .

١٥ - ينبغي على أولئك المعروفين باسم تجار منقلمات الحرير الخام Melatbrarioi (١٨) ، ألا يشتروا حريرا خاما خفية أو علانية ، وإذا خالفوا ذلك ، تعرضوا للعقوبة السالفة الذكر .

١٦ - ينبغي على تجار الحرير الخام ألا يبيعوا منه شيئا لليهود أو للتجار الذين يبيعونه من جديد خارج المدينة ، ومن يفعل منهم ذلك ، تعرض للجلد وقص الشعر .

الفصل السابع

عن غزالي الحرير :

١ - يجوز لأولئك الذين ينزلون الحرير الخام أن يشتروا من الكميات المستوردة منه ، كل ما أرادوا شراءها لاستخدامها في عملهم . فإذا جرى ضبطهم يبيعون (حريرا) غير منزول ، أو إذا اشتروه يرسم شخص غنى وقاموا بتسليمه اليه ، تحتم جلدهم وقص شعرهم وطردهم من مهتهم .

٢ - وينبغي على الفقراء من غزالي الحرير ، والمستغلين بتجارة الحرير الخام الذين لم يجر اثباتهم في سجل النقابة ، سواء كانوا رجلا أو نساء ، إذا لم يستطيعوا أن يشتروا مباشرة شيئا من الحرير الخام ، فاشتروه من التجار المقيدين بسجل النقابة ، أن يدفعوا عمولة قدرها مليارزيون واحد عن كل نوعيما من ثمن الشراء ، الذي يدفعه غيرهم من المشترين (١٩) .

٣ - وإذا أراد أحد النزالين أن يثبت اسمه في نقابة تجار الحرير الخام ، بشرط ألا يكون عبدا ، تقرر عرض حالته على والي المدينة ، وينبغي أن يقدم من الشهود والأدلة من يثبت أنه كف عن الاشتغال بالحرير الخام . وعندئذ يجري اثباته في سجل النقابة ويدفع الرسم المقرر ، وهو نوعيما .

٤ - لا يجوز للنزالين أن يشتروا ما شاموا من كميات الحرير الخام ، انما يجوز لهم ، بناء على دعوة تجار الحرير الخام ، أن ينضموا الى (تجار الحرير الخام) ويشتروه وفقا للشروط التي تم الاتفاق عليها ، دون زيادة أو نقص .

٥ - والنزالون الذين يرغبون في أن يشتروا من كميات الحرير الخام ما يلزمهم للنزل ، ينبغي عليهم أولا أن يعلنوا بحضرة والي المدينة أنهم ليسوا

عبداً أو فقراء محتاجين ، أو ذوى سمعة سيئة ، بل انهم أمناء • والمقصود بهذا
الآىجرى تقسيم الحرير الخام الى كميات صغيرة الحجم ، وألا ينتقل الى ملكية
من لا يستحقه من الأجانب •

٦ - وكل من يضبط من الغزاليين يمارس بيع الحرير الخام بالتجزئة ،
فاتتهك بذلك حرمة (القانون) ، أو يفتضح أمره بكثرة ثروته ، أو يعمد الى
التعالى والتفاخر ، أو يثير القلق والاضطراب ، تقرر طرده من النقابة مشيعاً
بالضرب واللعنات حتى يستمتع عن بيع الحرير (الخام) •

الفصل الثامن

عن نساجى الحرير :-

١ - لا يجوز لنساجى الحرير أن يصنعوا ما تقرر منع نسجه من العباءات ،
وهى الأثواب الفوقائية ، كبيرة الحجم ، ذات اللون الواحد ، والأثواب
الداخلية ، كبيرة الحجم ، ذات اللون الأرجوانى المشوب بلون أصفر خفيف ،
أو ذات لون أرجوانى مشوب بلون أخضر غامق • على أنه يجوز لهم أن يصنعوا
أثواباً ذات لون أزرق غامق بمختلف درجاته ، وأن يصنعوا المعائم الصقلية
المروفة مع شاشاتها الحمراء • غير أنه ينبغى أن يعلنوا لوالى المدينة بخبر
ما لديهم من الثياب ذات اللون الأزرق الغامق والعباءات القصيرة التى لاتتجاوز
شبرين ، وكذا كل الأثواب التى تزيد قيمتها على عشرة نوميزمات ، ولو كانت
بمتعددة الألوان (٨٣) •

٢ - نحن نمنع أى أمير أو أى شخص من أن يصنع من الأثواب الأرجوانية
ما يبلغ الواحد منها ستة أو سبعة عروض ، غير أنه يجوز لهم أن يصنعوا منها
ما يبلغ الواحد منها عشرة عروض أو اثني عشر عرضاً ، بشرط أن يكون لونها
أرجوانياً خالصاً ، وأن تكون خفيفة الوزن ، وأنها ليست من النوع الذى قصر
والى المدينة استخدامه على البيت الامبراطورى • ويحرم عليهم أيضاً أن يصنعوا
من الثياب المستديرة فى أسفلها التى اختص بها الامبراطور ، سوى تلك التى
من حجم متوسط ، والتى تتألف منها ثياب السترة ، والتى تشتهر بالوان
عديدة ، وتبلغ على الأقل عشرة عروض (٨٤) • وإذا تبين أن فرداً من الأفراد

يقوم بصناعة هذه الأنواب الممنوعة ، تحتم مصادرة سلعه ، وارغامه على التخلي عن حرفته .

٣ - وكل من يمنع الموظف الموكل بملاحظة الاختتام والأنواب من دخول حانوته ، وكل من يبيع للأجانب ثوبا تزيد قيمته على عشر نوميزمات ، تقرر ضربه وقص شعره .

٤ - وكل من يصنع الحرير الخام بالأرجواني ، أو يجعل منه عباءات بلونين أو ثلاثة ألوان ، أو كان ثلثاها أحمر اللون ، تقرر قطع يده .

٥ - كل من يبيع للأجانب سلعة دون علم والى المدينة ، تعرض لمصادرة سلعه .

٦ - اذا حدث أن فاسج الحرير يعمل أيضا تاجرا للملابس الحريرية ، صار له الحق في أن يختار احدى الحرفتين ، على أنه ينبغي أن يتخلى عن الحرفة الأخرى .

٧ - وكل من يبيع عبدا ، أو أجيرا ، أو مباحرا ، الى أشخاص خارج المدينة أو الى الأجانب ، تقرر قطع يده .

٨ - ينبغي على نسايج الحرير أن يشتروا حريرهم الخام من التجار ، فاذا جرى ضبطهم يشترون الحرير من الأجانب ، تقرر ضربهم وقص شعرهم وطردهم من الحرفة .

٩ - ينبغي مصادرة ما تكدس بالمخازن من الثياب التى لا تحمل خاتم والى المدينة ، وتقرر مجازاة أمناء المخازن بالمقوبة السالفة الذكر .

١٠ - اذا تعمد نسايج حرير أن يلحق بخدمته مستخدما عند نسايج آخر ، قبل أن ينجز المستخدم جميع العمل الذى تقاضى عنه الأجر ، تقرر تغريمه بأن يدفع قيمة ما تبقى من الأجر الذى لم يؤد عنه خدمة .

١١ - كل من يودع بمخزن السلع الامبراطورية سلعا مصنوعة بالخارج ، تقرر ضربه وقص شعره .

١٢ - واذا جاء نسايج بعامل أجير الى مصنعه ، ينبغي ألا يجرى معه عقدا يزيد على شهر ، وألا يعطيه من الأجر ما يزيد على ثلاثين يوما ، بل يعطيه من

الأجر ما يقابل ما يتقاضاه من أجر عمل شهر كامل ، وكل من يدفع مقدما من الأجر ما يزيد على المدة المقررة ، فقد كل ما دفعه .

١٣ - وإذا أراد أحدهم أن يقيم مصنعا ، ينبغي أن يركبه خمسة أشخاص إذا كان حرا ، أما إذا كان عبدا ، فإن سيده هو الذى يضمه ، بشرط أن يكون هذا السيد معروفا بوفرة موارده (وثروته) . ويكون للضامنين مثمنا للطلاب من الثروة . وينبغي على الشخص الذى التحق حديثا بالنقابة ، أن يدفع الرسم المقرر ، وهو ثلاث فوميزات .

الفصل التاسع

تجار المنسوجات الكتانية :

١ - يجوز لتجار المنسوجات الكتانية أن يشتروا من الكتان المنسوج ما يشاءون أيا كان المصدر الذى يرد منه ، سواء جاء من سترميون أو بولفس أو كيراسون أو أية جهة أخرى ، كما يؤدوه الى تجار الملابس الحربية ليعملوا منه بطائن للسترات ، والى جميع الذين يرغبون فى شرائه منهم ، الا اذا قصدوا بيعه بالتجزئة لأناس آخرين . وإذا أراد أحدهم أن يشتري هذه المنسوجات الكتانية من المستوردين لاستخدامه الخاص ، فلا يمنعه من ذلك هذا القانون .

٢ - وإذا خدع تاجر منسوجات كتانية بالسوق رجلا ، جعل عنده تأمينا على بيع سلعة ، وعقد معه اتفاقا على أن يسترد (هذا التأمين) ، قرر جلده وقص شعره ومصادرة سلعه .

٣ - وعند شراء الكتان ، يدفع كل أفراد النقابة من التأمين ما يتفق مع موارد كل منهم ، ويصير تقسيم السلع حسبما يدفعه كل منهم من التأمين .

٤ - وإذا عمد تاجر منسوجات كتانية الى الغش ، بأن دفع ايجار دكان تاجر آخر ، قرر ضربه ، وقص شعره ، ومنعه من ممارسة حرفته .

٥ - لا يجوز لتجار المنسوجات الكتانية أن يختزلوا النقد كيما يستخدموه عند لدرته ، بل ينبغي أن يحملوه عند المصارف . ولا يجوز أن يمنحوا من التداول من قطع النقد ما كان من فئة $\frac{1}{4}$ فوميزما أو $\frac{1}{3}$ فوميزما ، وتحصل خاتما امبراطوريا صحيحا (٨٦) ، ومن ضبط منهم يفصل ذلك ، تعرض للعقاب الذى سبق ذكره .

٦ - وإذا حدث أن جاء البغار وغيرهم من الأجانب بمنسوجات كثائية أو عسل ، لمبادلتها بسلع من أصناف أخرى ، فإن تجار المنسوجات الكثائية والمستغلين بالمواد الغذائية ، ينبغي عليهم أن يختاروا مندوبين عن أرباب الحرف الأخرى الذين يشتغلون في السلع المطلوبة ، سواء كانت عباات أرجوانية تبلغ ستة عروض أو أقل^(٨٧) ، أو أثوابا سورية أو سلعا حريرية أخرى ، فيذهبون معا للاجتماع بالأجانب ، بناء على تعليمات والى المدينة ، فيعقدون سويًا الصفقة معهم ؛ ويأخذ الذين يتسبون الى الحرف الأخرى من هذه السلع المستوردة كل ما يحتاجون اليه ، وما تبقى يتركونه لتجار المنسوجات الكثائية ، ويأخذون مقابل خدماتهم قيراطا عن كل ما ثمنه نوميذما . وإذا ضبط أحدهم يخالف هذه اللوائح ، تقرر ضربه وقص شعره وطرده من النقابة .

٧ - ولا يجوز للذين يصنعون أثوابا في المدينة أن يمرضوها من تلقاء أنفسهم في حوانيتهم ، أو على موائد البيع ، بل ينبغي أن يحملوها على أكتافهم ، وأن يبيعوها في اليوم الذي يتعقد فيه السوق . وهذه القواعد يصير تطبيقها أيضا على صناع الأقمشة الكثائية ، وعلى أولئك الذين يشترونها من الضادق أو يجلبونها من الخارج . وإذا عثر بمن يعمل منهم ما يخالف هذه القوانين ، تعرض للعقوبة السالفة الذكر .

الفصل العاشر

تجار العطور والروائح :

٨ - ينبغي على كل تاجر من تجار العطور أن يلتزم مكانه ، ولا يتجاوز الحد المرسوم له ، وينبغي أن يراقب كل منهم الآخر حتى يمنعه من تخفيض الأسعار أو الاسراف في بيع كميات بالغة القلة ، أو اختزان مواد المؤونة والغذاء أو سائر السلع المعروفة ، لأن الرائحة الكريهة لا تجتمع مع الرائحة الطيبة . ويبيعون القفل والسنبل الرومي ، والدارصيني ، والد ، والعنبر ، والمسك ، والبخور ، والمر ، والبلسم ، والبنجر البري ، والبلسان ، والحلتيت ، والأدياس والأشنان ، وسائر السلع المشهورة عند المطارين والصباغين . وينبغي عليهم أن ينصبوا الموائد التي يعرضون عليها سلعهم ، بما عليها من السلع ، وأن يجعلوها متراسة ، على الطريق الممتد من صورة سيدنا المسيح المقدسة ، والمرفوعة على

الباب البرونزى (للقصر الامبراطورى) ، الى العلامة التى ينتهى اليها الطرق
الامبراطورية ، فينبعث منها من الروائح الطيبة ما يناسب الصورة المقدسة ،
ويؤرجح أبواب القصر . وكل من يخالف هذه القوانين ، تقرر جلده ، وقص
شعره ، ونفيه .

٢ - وما يرد من السلع التى تهم تجار العطور ، سواء عن طريق خالديا
أو اطرايزون ، أو من جهات أخرى ، يحصل عليها العطارون من المستوردين
بالسر الجارى لكل نوع من السلع . غير أنه ينبغى ألا يخزنوها لأوقات
الشدة حتى يجنوا من وراء ذلك ربحا فاحشا ، (وينبغى أيضا) ألا يرفعوا
السعر حتى يتجاوز الحد الضرورى . وينبغى على المستوردين ألا يكتفوا فى
المدينة مدة تزيد على ثلاثة شهور ، بل يجب أن يبادروا ببيع ما لديهم (من
السلع) فى سرعة ، وأن يرتجلوا الى بلادهم . وكل من يخالف هذه اللوائح
تعرض للعقوبة السالفة الذكر .

٣ - اذا جرى ضبط تاجر عطور يرفع ايجار دكان تاجر آخر خفية أو علنا
تقرر مجازاته بالضرب وقص الشعر والطرء من النقابة .

٤ - واذا حدث أن اكتشف تاجر عطور يمحو قهوش التوميزمات ، أو
يقص أطرافها ، أو يمنع من التداول أرباع التوميزمات أو أنصافها التى تحمل
خاتم الامبراطور ، أو يستبدل القطع الكبيرة من العملة بما اختره من العملات
الصغيرة ، ولم يعول هذه العملات الصغيرة الى الصيارف ، فادعى بذلك
لنفسه ما يعتبر من عمل الصيارف ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها .

٥ - واذا ضبط تاجر عطور ، أو أى تاجر يمارس حرفة أخرى ، ينش
مشتريا أو دفعه تأمينا عن ثمن ما يبيعه له ، بأن عهد الى رفع سعر السلعة ، التزم
بأن يدفع للمشتري من أمواله التأمين الذى دفعه المشتري . وليس لأحد منهم
الحق فى أن يشتري من السلع التى يجرى وزنها بالقبان أو يشتري من المواد
الغذائية ، الا ما يصير وزنه منها بالميزان ، وكل من يخالف هذه اللوائح تعرض
للعقوبة التى سبق ذكرها .

٦ - واذا حدث أن تاجر عطر اشتغل أيضا فى تجارة المواد الغذائية ، جاز
له أن يختار احدى هاتين الحرفتين . على أنه ينبغى أن يتخلى عن المهنة
الأخرى .

الفصل الحادى عشر

صناع الشمع :

١ - ينبغى على أولئك الذين يمارسون صناعة الشموع أن يؤدوا عملهم فى داخل حوانيتهم . وينبغى ألا يقيموا موائد البيع على امتداد الشوارع فى مواضع غير ملائمة ، يقوم عليها اما أرقاء أو تلاميذ الصناع . وينبغى ألا يستوردوا خلسة الشمع سواء كان خاما أو مشغولا . وينبغى عليهم عند إقامة حوانيتهم أن يراعوا أن يفصل بينها مسافة قدرها ثلاثون ذراعا ، مع استثناء الحوانيت المشيدة فى كنيسة القديسة صوفيا . أما أولئك الذين ليس لهم دكاكين ، انما يمارسون هذا النوع من الباعة بالتجزئة ، بأن يتخذوا مواضعهم فى السوق أو زوايا الشوارع ، فينبغى الزامهم بالثول أمام والى المدينة ليتلقوا جزاء ما ارتكبوه من مخالفة .

٢ - ينبغى ألا يدخل صناع الشمع فى حرفة أخرى أو يمارسوها ، فلا يشتغلون الا فى حرفتهم فقط . ومن يخالف منهم ذلك ، تقرر ضربه وقص شعره ومصادرته .

٣ - يجوز لصناع الشمع أن يشتروا ما يشاءون من الشمع دون قيد ولا شرط ، ويجوز لهم أيضا أن يشتروا ما يشاءون من الشمع الذى تقوم الكنائس بالتجارة فيه . ويجوز لهم كذلك أن يشتروا من الزيت كل ما يحتاجون لعملهم ، غير أنه ينبغى ألا يختزنوه الى الوقت الذى يشح فيه من الأسواق ، ومن يفعل ذلك منهم ، تقرر ضربه وقص شعره ومصادرته .

٤ - وكل صانع شمع يفش من أودعه من المشترين تأمينا لشراء شمع أو زيت ، بأن عمد الى رفع السعر ، تقرر أن يدفع غرامة قدرها اثنتا عشرة لوميزما .

٥ - وكل صانع شمع يعرض نفسه للعقاب اذا لم يخطر والى المدينة بخير أولئك الذين يعتمدون النش ، بأن يلجأوا الى تغيير حجمها بأن يقوموا بتسخينها ، فيتحم جلدتهم وطردهم من المهنة .

٦ - وإذا ضبط صانع شمع يرفع خفية أو صراحة ابجار حانوت صرائم آخر ، تقرر جلده ، والزامة بدفع توميزمتين .

٧ - اذا حدث أن اقتضح أمر تاجر مواد غذائية ، بأنه يشتري شماغه مشغول (سواء كان من المستوردين (١)) ، أو من الكنيسة ليبيعه بالتجزئة ، يصير رفع أمره الى المدينة ، وتعرض للمصادرة .

٨ - وكل من حاز من صناع الشمع موازين مغطوشة غير مختومة بنظام والى المدينة ، أو منع من التداول قطع التوميزما فئة الربع أو النصف التى تعطل خاتم الامبراطور صحيحا ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها .

الفصل الثماني عشر

صناع الصابون :

١ - كل من يلقن ، فون علم والى المدينة ورئيس النقابة ، شخصا لا يتم لنقابته أصول حرفتها ، تقرر أن يدفع غرامة قدرها أربع وعشرون توميزما .

٢ - وإذا أراد شخص أن يندرج اسمه فى سجل صناع الصابون ، تحتم عليه أن يقدم اسمه الى والى المدينة ، ثم يلى ذلك قبوله بالنقابة . على أن لا يجوز له أن يفتح حانوتا الا بعد أن يقدم من الشهود ، ويعرض من الضامين من يؤكدون بأنه سوف لا يعمل ما يخالف القوانين . وتحتم عليه أن يدفع للخزانة العامة ست توميزمات ، وأن يؤدى الى الخزانة الخاصة ست توميزمات . وكل من يتجاسر على أن يلتحق بالنقابة بطريق مخالف لهذه اللوائح ، تحتم طرده .

٣ - وكل من يريد أن يفتح حانوتا لصناعة الصابون ، جاز له أن يفعل ذلك ، على أن يراعى أن يفصل بينه وبين من يشغل حانوتا قديما ، مسافة طولها سبع أذرع واثنين عشرة قدما . فاذا حاول أن يفتح حانوتا فى نطاق هذه المسافة ، تحتم عليه أن يدفع غرامة قدرها أربعة وعشرون توميزما ، وتقرر طرده من النقابة (٢) .

٤ — ينبغي على صانع الصابون ألا يبيع الصابون الغالي Gallic (١٦) ، ولا يجوز أن يبيع صابونا لتجار التجزئة الذين لا يتسعون الى نفس الحرفة ، وكل من يخالف هذه الناحية تعرض للعقوبة التي سبق ذكرها .

٥ — واذا جرى ضبط أحدهم يغش شخصا في شراء فتات ، انزم بدفع غرامة قدرها اثنا عشرة نوميزما .

٦ — اذا اشترى شخص لا يتسنى لبقابة صناع الصابون . صابونا من أولئك الذين يستوردونه لبيعوه من جديد ، تعرض لمصادرة كل ما اشتراه .

٧ — اذا ضبط شخص يقدم سائل ماء التلى (محلول قلوئى) لشخص آخر ، أيا كان هذا الشخص ، على سبيل المجاملة ، أو الاحترام ، أو رغبة في الكسب والربح ، أو لأى سبب من الأسباب التى تؤذى وتضر شخصا آخر ، تعرض لنفس العقوبة التى يتعرض لها ، من يقتل شخصا من الأشخاص .

٨ — اذا جرى ضبط شخص يصنع الصابون من دهن الحيوان أثناء الصيام الكبير ، أو فى أيام الصيام الصغير ، فيؤدى بذلك الى ازال الضرر برجاله ، تقرر جلده وقص شعره وارغامه على التخلّى عن حرفته .

٩ — كل من يبيع صابونا ببزان غير مختوم بخاتم والى المدينة ، اذا كان عبدا ، تقرر الحاقه بسبيد الأمباطور ، واذا كان حرا تقرر مصادرته .

الفصل الثالث عشر

باعة المواد الغذائية (١٧) :

١ — ينبغي عليهم أن يفتحوا دكاكينهم فى الميادين والشوارع فى سائر أنحاء المدينة حتى يتيسر (للناس) الحصول على ضروريات المعيشة . ويتحتم عليهم أن يبيعوا اللحوم ، والسكك الملح ، والحليب والجبن ، والعسل وزيت الزيتون ، وجميع أنواع الخضراوات ، والزبد ، والقار (الزيت) ، والراتنج ، والكتان ، والضادات ، والأوعية الفخارية والقوارير ، والمسامير وكل ما يجرى بيعه بالقبان لا بالميزان . ويحرم عليهم أن يدخلوا فى حرف المطايرين وصناع الصابون أو تجار الكتان ، أو أرباب الحانات ، أو الجزارين ، مهما تضاءلت درجة

اشتغالهم بها • وإذا حدث أن عثر بمن يفعل منهم ما يخالف هذه اللوائح ، قرر جلده وقص شعره وقيه •

٢ — وإذا حاز تاجر من تجار المواد الغذائية من الأوزان والمكاييل ما ليس مختوما بخاتم والى المدينة ، أو إذا عمد الى قص أطراف النقود الذهبية ، أو إذا منع من التداول ما كان من فئة الربع أو الربعين من التوميزات التى تحمل خاتم الامبراطور الصحيح ، تقرر ضربه وقص شعره وقيه •

٣ — وإذا ضبط تاجر المواد الغذائية يفتش تاجرا آخر فيما يشتري ، بأن عمد الى رفع السعر المتعارف عليه ، تقرر أن يدفع غرامة قدرها عشرة توميزات ويتعرض لهذا العقاب أيضا كل من يعرض سلعة خارج دكانه فى يوم عيد المسيح أو فى أى يوم من الأيام المقدسة •

٤ — وينبى على تجار المواد الغذائية أن يهتموا بسا يختص بهم من الواردات ، حتى اذا عمد شخص ، لا يتنى الى قابتهم ، الى تخزينها ، متظرا الوقت الذى تشح فيه ، دفعوا أمره الى والى المدينة فيتولى النظر فى أمره •

٥ — ينبى على تجار المواد الغذائية أن يبيعوا سلمهم فى كميات صغيرة ويربح قدره ملياريزان عن كل ما يبلغ ثمن يبعه توميزما واحدة ، وإذا تبين عند تقدير أرباحهم القانونية ، أنهم حصلوا على ربح فاحش ، تقرر جلدهم وقص شعرهم وارغامهم على التخلّى عن مهتهم •

٦ — اذا لجأ أحدهم مرا أو علنا الى دفع إيجار حاوت تاجر آخر ، تعرض للعقوبة التى سبق ذكرها •

الفصل الرابع عشر

عن صناعة الجلود (١٥) :

١ — ينبى على المشتغلين بصناعة الجلود أن يلتزموا أوامر والى المدينة وأن يخضوا له فى تأدية ما هو مطلوب منهم من الخدمات العامة • غير أنهم لا يعتبرون من الطوائف الخاضعة له ، على الرغم من أنه هو الذى يمس رئيسهم • ولما كانوا يؤدون للامبراطور ما هو مفروض عليهم من التزامات •

فانهم يخضعون لرئيس الاسطبلات ، على أن يحيط والى المدينة علما بذلك ، ويتقاضون من الأرباح ما يئذله لهم الامبراطور وفق مشيئته ، ولا يجوز لهم أن يستوردوا من الجلود ما يزيد على الحد المقرر ، أى لا يجوز لهم أن يحصلوا الا على كل ما يحتاجون اليه من صناعة السيور الجلدية .

٢ - لا يجتمع المشتغلون بالمصنوعات الجلدية مع المشتغلين بتجهيزها في نقابة واحدة ، وانما يكون لهم رئيسهم الذى يعينه مجلس والى المدينة ، وكذلك يكون شأن المجهزين . ويجوز لهؤلاء المجهزين أن يعملوا مع المشتغلين بالمصنوعات الجلدية، غير أنهم لا يصنعون الا ما يقدمه الدباغون من السلع ، فيعدون الجلود اللازمة لصناعة الأحذية ، لا لصناعة سروج الدواب التى تجر العربات . وينبى أن يكون للدباغين هيئة منتظمة مستقلة ، لأنهم يشتغلون فى الجلود الخضراء ، على الرغم من أنهم يخضعون لنفس الرئيس ونفس الثمن ، ذلك لأنه تمت اختلاف بين الفتين ، فالطائفة الأولى معروفة باسم المجهزين ، والطائفة الثانية معروفة باسم الدباغين . ومن يتجاوز منهم هذه القوانين ، لا يتعرض فعسب للعقوبة البدنية ، بل يصير أيضا طرده من الحرفة التى يتنى اليها .

الفصل الخامس عشر .

عن الجزارين :

١ - لا يجوز للجزارين أن يشتروا الخنازير ، بل ينبى عليهم أن يتوجها الى Strategion بعد أن يحيطوا والى المدينة علما بذلك ، فيشترون بالنوميزات (١٦) كل ما حدده لهم (والى المدينة) من الماشية .

٢ - فاذا انتهى الجزارون من شراء ما أرادوا وقفا لحالة الحيوانات ، فعليهم أن يمضوا فى بيعها . وينبى عليهم أن يذبحوا ماشية من هذه المواشى ، ويقصبوها فى حضرة والى المدينة . وينبى عليهم أن يراعوا بالأ يتجاوز ربحهم آكارع الماشية ورأسها وأحشائها ، وينبى أن يبيعوا ما تبقى من الماشية بسعر يتوقف على الثمن الذى اشترت به الماشية .

٣ - ينبى ألا يخرج الجزارون لتلقى تجار الماشية الذين يجلبون قطعانهم ليعرضوها للبيع اما فى فيقومبديا أو سائر المدن الواقعة وراء نهر صغارى

Sangarius (٩٧) (بل ينبغى أن يبقوا) بالقسطنطينية) ، حتى يبيعوا اللحم بأسعار أكثر اعتدالا ، ويكون الربح من نصيب أولئك الذين يذبحون الغنم لا من نصيب أولئك التجار (٩٨) .

٤ - ينبغى على تجار الغنم أن يستخلصوا أشخاصا يتولون لهم شراء الحيوانات ، فيقوم هؤلاء بشراء ما يطلبون ، غير أنه ينبغى ألا ينهوا من يرغب من الفلاحين من القدوم الى العاصمة لبيعوا ما يريدون بعه .

٥ - ويجوز لتجار الأغنام أن يبيعوا أغنامهم حتى اليوم الأول من الصوم الكبير في ستراتيكون ، وأن يبيعوا الحملان ابتداء من عيد السكر Passover حتى يوم عيد النصره ، في طاوروس (٩٩) . ووالى المدينة هو الذى يأمر بما ينبغى تحديده وتهديه للبيع من عدد الماشية ، ويجرى بيع الأغنام بالنوميزما ، ينما يصير بيع الحملان بفئة المائينية من النوميزما .

٦ - وليس للجزائرين الحق في أن يشتروا الخنازير ، وأن يختزنوا لحومها ، وكل من يجرى ضبطه منهم يخالف هذه القوانين ، تقرر ضربه وقص شعره وتقيه .

الفصل السادس عشر

باعة لحوم الخنازير :

١ - ينبغى على الذين يبيعون لحم الخنزير ، قبل السماح لهم بممارسة حرفتهم ، أن يقدموا من الأدلة والشواهد ما يثبت حسن فيتهم ، فيجوز لهم بعد ذلك أن يباشروا مهنتهم .

٢ - ومن يشتري منهم الخنازير ويذبحها ويبيها ، ينبغى أن يشتريها في (سوق طاوروس) . وكل من يجرى ضبطه منهم يتلقى تجار الخنازير خارج المدينة ويشتريها منهم ، أو يفعل هذا خفية في أى مكان بالمدينة (القسطنطينية) ، فيتسبب بذلك في رفع سعر الخنزير ، تعرض للجلد وقص الشعر والطرده من المهنة .

٣ - واذا عمد أناس الى جلب قطعان الخنازير من خارج المدينة ، فينبغى على رؤساء تجار لحوم الخنزير أن ينهوا الى والى المدينة بخبرهم ، وأن

يقدّموا من الضمانات ما يكفل عدم بيعها لأرباب الحوانيت ، بل أنهم سوف يبيعونها في طاوروس للجمهور ، ومن يخالف ذلك منهم يتعرض للضرب وقص الشعر .

٤ - وإذا ضبط تاجر لحم خنزير ، يخفى خنازير في دار نبيل من النبلاء ، ويبيعه سرا ، تعرض للعقوبة التي سبق ذكرها .

٥ - وأولئك الذين يذبحون الخنازير بقصد بيعها ، ينبغي ألا يخفّوها ما عندهم من اللحوم إلى الوقت الذي يعز فيه وجودها . وإذا جرى اكتشافهم يفعلون ذلك ، تعرضوا لنفس العقوبة .

٦ - وإذا ضبط تاجر خنزير ، يحوز من الموازين ما ليس مختوما بخاتم والى المدينة ، أو يغش في الميزان ، تعرض للعقوبة التي سبق ذكرها .

الفصل السابع عشر

باعة السمك :

١ - ينبغي على باعة السمك أن يتخذوا أماكنهم فيما هو معروف بالطاقات الكبرى بالمدينة لبيعوا بها أسماكهم . وينبغي أن يكون لكل طاقة من هذه الطاقات مشرف يلتزم برعاية ثمن السمك بعد صيده ، وملاحظة ثمنه عند بيعه بالتجزئة ، ويتقاضى رسماً قدره مليارزيون عن تمييزاً من ثمن البيع .

٢ - ولا ينبغي للذين يبيعون السمك أن يملحوه أو ييموه للأجانب لتصديره ، إلا إذا كانت ثمت فائض منه ، فيفعلون ذلك حتى لا يفسد .

٣ - ويعقد باعة السمك صفقات الشراء على الشواطئ أو عند مراعى القوارب حيث تفرغ شحنتها . وينبغي ألا يذهبوا وحدهم إلى أحواض الصيد ، أو إلى غيرها من مواطن الصيد ، مع أولئك الذين يسرون إلى البحر ، بل ينبغي أن ينتظروا ما يقدمه لهم أولئك الذين يذهبون إلى البحر . والمقصود من هذا هو منع بيع السمك في كميات بالغة القلة . ويتقاضى بائع السمك من الربح فلسين عن كل تمييزاً من ثمن البيع . ويتقاضى رؤسائهم نفس المقدار (١٠٠) .

٤ - ينبغي على رؤساء باعة السمك أن يتوجهوا كل يوم الى والى المدينة ، وأن ينهوا اليه بخبر مقدار ما جرى صيده ليلا من سمك التونة ، حتى يتم البيع للسكان فى المدينة وفقا لأوامره وتعاليمه . وكل من يجزئ على مخالفة هذا الرسوم ، وجب جلده وقص شعره ، وطرده من النقابة .

الفصل الثامن عشر

عن الخبازين :

١ - لا يجنى الخبازون من الأرباح الا بحسب ما يشترونه بأمر والى المدينة من القمح . ويشترون من المثن ما هو مقدر لهم من الجبوب بالنوميزما ، حتى اذا فرغوا من طحن (القمح) وعجنه ، ينبغي أن يحسبوا بأن يتقاضوا من الربح قيراطا ومليارزيان عن كل نوميزما ، فالقيراط هو الربح الخالص لهم ، أما المليارزيان فيرصدان لمساعدة صناعهم ولغذاء دواب الطاحون ، ووقود الأفران والأضائة .

٢ - ويصير اغفاء الخبازين من سائر الكلف ، ذلك أنهم مع دوابهم لا يتحملون منها شيئا كما يتم اعداد الخبز دون أن يحدث أى اضطراب .

٣ - ينبغي أن تقع المخازن فى مناطق مأمونة ، فلا يشيدونها فى أسفل البيوت لما يرتبط بها من الوقود والنار ، وينبى على سكان المدينة أيضا أن يجعلوا ما لديهم من التبن والخلق من الملابس والورق فى مواضع غير مسقوفة ، ومبطنة من الداخل بالصجارة ، حتى لا تشتعل الحرائق بالمدينة بسبب هذه المواد القابلة للاشتعال .

٤ - واذا زادت كمية القمح أو نقصت ، يتقدم الخبازون الى والى المدينة (ويطلبون) أن يتولى المثن تحديد أوزان الأرغفة على أساس ثمن شراء القمح .

٥ - وينبى أن يسود النظام فى كل الأمور (١١) ، حتى اذا جرى بعدئذ أن افتضح أمر شخص ، يدفع ايجار مخبز شخص آخر ، أو يحوز سلعة ، بأن عند

الى خفض اثمانها عن السعر المقرر ثم اشترائها ، أو يدخل في مهنة شخص آخر ، وصار يمارس المهنتين ، دون أن يتخلى عن المهنة التي يمارسها بعلم والى المدينة ، تقرر انزال العقوبة به ، بأن يجرى جلده وقص شعره وتجرسه وتهي من البلد .

الفصل التاسع عشر

أرباب الحانات :

١ - ينبغي على رؤساء أرباب الحانات أن ينهوا الى والى المدينة بخبر موعد ورود النبيذ ، حتى يقرر كيف يجرى يمه . ومن واجب المثلث أن يلزم أرباب الحانات بأن يجعلوا الأوعية والقذور التي يبيعون فيها النبيذ تتفق مع قواعد الشراء ، فينبغي أن يحتوى الاياء على ثلاثين لترا ، وأن يحتوى المن على ثلاثة التار (١٠٢) .

٢ - ومن يجرى ضبطه من أرباب الحانات يعمل على دفع ايجار دكان غيره كيما يمتلكه ، تقرر جلده وقص شعره .

٣ - ينبغي منع أرباب الحانات من أن يفتحوا حاناتهم لبيع النبيذ أو الطعام ، قبل الساعة الثانية من ساعات (١٠٢) النهار في أيام المواسم الكبيرة أو أيام الأحاد . وينبغي أن يملقوا حوانيتهم ليلا ، وأن يطفئوا الأنوار متى حانت الساعة الثانية (ليلا) ، كيما يمنعوا روداها ، الذين تحتم عليهم أن يعودوا الى دورهم ليلا ، من الافراط في الشراب ، ومن الاشتباك ، دون وجل أو حياء ، في مشاجرات وفي أعمال العنف والمضاربات .

٤ - ومن يضبط من أرباب الحانات ، يحوز من الأوعية ما لا يوافق الرسم الذي سبق ذكره ، أو أوعية لا تحمل خاتم والى المدينة ، تقرر جلده وقص شعره وطرده من النقابة .

الفصل العشرون

مندوبو الوالى (١٠٤) :

١ — يعين والى المدينة مندوبا عنه وهو المعروف باسم ليجاتاريوس ، legatarios يتولى تقديمه للامبراطور . ومن واجبات هذا الموظف ، أن ينهى الى والى المدينة بخبر أولئك الذين يدخلون المدينة ، المحرومة بعناية الله ، بالمخارج أيا كان نوعها ، والجهات والبلاد التى جاءوا منها ، ويفحص ما جلبوه الى المدينة من السلع ، وأن يعلمهم بشروط البيع ، وأن يجعل لهم أجلا معيناً يبيعون فيه سلمهم ، فإذا انقضى هذا الأجل ، قدم بهم الى والى المدينة ، ومعه سجل يحوى كل ما اشتروه من السلع ، فيمتنع بذلك تصدير السلع المنوعة من المدينة الامبراطورية (القسطنطينية) .

٢ — لا يسمح والى المدينة للأجانب الذين دخلوا المدينة بسلع أيا كان نوعها ، بأن يكتثوا بالمدينة أكثر من ثلاثة شهور ، بل ينبغى أن يخطرهم بأن يبيعوا كل ما اشتروه ، وأن يتاعوا ما يحتاجون اليه ، وأن يفادروا (المدينة) فى أثناء هذه الفترة . ومن يتجاوز منهم الزمن المحدد ، تقرر جلدتهم وقص شعورهم ، ومصادرة بضائهم وطردهم من المدينة .

٣ — ومن واجبات المندوب أن ينهى الى والى المدينة بخبر من يشر عليهم يختزنون السلع المستوردة انتظارا للوقت الذى تشع فيه (من السوق) ، ويمارسون تجارتهم على حساب (مصلحة) الجمهور ، فيجرى جلدتهم ، وقص شعورهم ، ومصادرة ما اختزنوه من السلع .

الفصل الحادى والعشرون

عن مفتشى سوق الماشية :

١ — تتجلى مهمة مفتشى سوق الماشية من الاسم الذى يحملونه (bothroi) لأنهم يخلصون من الفائض من الماشية (١٠٥) ومن وسخ السوق . لا يجوز لهم مطلقا أن يعمدوا صفقة شراء الا فى حالة وجود بقية من المواشى ، انصرف عنها المشترون . وينبغى أن يتحققوا من حالة كل نوع من أنواع الماشية ، لأن مهمتهم

تطلب منهم ذلك . وإذا تم شراء ما شية ، أراد الشخص شراءها ، وفقا لما أوصى به (المفتشون) ، فإن المفتش الذى قام بالوساطة يتقاضى عن كل مائشة قيراطا من الأجانب وأهل المدينة على السواء .

٢ — وإذا حدث أن قام المفتش نفسه بأخذ المائشة ، دون أن يعلم الشخص الذى يريد أن يشتريها من البائع ، ثم سلمها المفتش له (للمشتري) ، فتقاضى المفتش ست فلسات عن كل نوميزما من ثمن البيع .

٣ — لا يجوز أن يتم الشراء فى خارج سوق اماستريون *Amastriion* وفى زوايا الطارات بالمدينة ، سواء قام بالشراء المفتشون أو غيرهم (من الأشخاص) الذين يمارسون نفس المهنة . ينبغى أن يجتمعوا سويا لمباشرة هذا النوع من التجارة ، فيمتنع بذلك ما يعجرى معه خفية من الموائى المبروقة أو المنهوبة .

٤ — ويؤمر المفتشون أن يكونوا بسوق المائشة للسبب التالى : وهو أن يكشفوا للقادمين للشراء عن عيوب المائشة ، وأن ينهوهم اليها . فإذا أنهى أحدهم للمشتري بخبر كاذب ، وعمد الى غشه ، حرر أن يدفع غرامة قدرها ثمن المائشة .

٥ — وينبغى على الباعة أن يعلنوا ما ظهر من عيوب ما شيتهم وما خفى منها ، فإذا حدث أن امتنع أولئك الذين يرغبون فى الشراء عن دفع الثمن الذى تم الاتفاق عليه ، صار من حقهم أن يعيدوا المائشة يوم انعقاد السوق التالى ، بعد أن يظهروا العيب الذى بمقتضاه أعادوا المائشة . أما اذا دفعوا الثمن الذى تم الاتفاق عليه ، صار المقدد صحيحا .

٦ — اذا ثبت أن بالحيوان عيبا خفيا بعد تمام البيع ، جاز إعادة هذا الحيوان فى مدة ستة شهور . فإذا أهفت الشهور الستة ، ينبغى تخفيض الثمن ، ما لم يكن المشتري من الأجناد .

٧ — ينبغى أن يثبت فى سجل والى المدينة عدد المفتشين ، فإذا أراد أشخاص آخرون ينتمون الى الحرف الأخرى ، أن يمارسوا هذه الحرفة ، منهم والى المدينة من ذلك .

٨ - وإذا أراد أفراد من حرف أخرى أن يشتروا حيوانات لمصلحتهم وخدمتهم ، جاز لهم ذلك ، وليس ثمت ما يمنهم من (الشراء) .

٩ - لا يجوز للمفتشين أن يتلقوا وحدهم أولئك الذين يجلبون الماشية من خارج المدينة ، فيحتكرون لأنفسهم تجارتها ، حتى يشتروا بسعر رخيص ، ويبيعوا بسعر مرتفع . وليس لهم الحق في أن يخرجوا من المدينة لتلقى الماشية وشرائها ، بل ينبغي أن يجعلوا كل المشتريات في سوق اماسريون .

١٠ - ويتقاضى رئيس المفتشين في السنة اثني عشر فلسا فقط من كل مفتش ، لصيانة الحاجز والمجرى (المستخدم) . ويتقاضى أربع مئاريات عن كل ماشية من المواشي المسروقة التي استطاع أن يستردها . وفي قضايا المتخاصمين الذين يلجأون إليه ليحكم بينهم ، لا يتقاضى أكثر من ست مئاريات: أيًا كان المبلغ الذي سوف يستخلصه للدائن من المدين . وكل من يجروء على مخالفة هذه القوانين تعرض للجلد وقص الشعر والمصادرة .

الفصل الثاني والعشرون

في أمور تتعلق بالمتهدين أمثال السباكين . والمزخرفين . والمزخمين وصناع الأقفال والطلائين ومن إليهم :

١ - جميع أرباب الحرف أمثال السباكين . والرخامين والطلائين وغيرهم الذين يقدون اتفاقا ، ويتقاضون تأمينا (عربونا) مقابل القيام بأي جزء من أجزاء العمل ، ينبغي عليهم ألا يتخلوا عن هذا الجزء من العمل ، لتأدية عمل آخر قبل أن ينجزوا العمل الأول . أما إذا حدث التأجيل بسبب قلة المواد (اللازمة للعمل) ، أو خطأ من الشخص الذي أجرى العقد ، ولم يستطع الصانع أن يحصل على الأشياء اللازمة لاستكمال العمل ، تحتم على هذا الصانع ، أيًا كانت الحرفة التي ينتمي إليها ، أن ينهي إلى صاحب العمل بخبر هذا شفويا أو عن طريق شاهد . فإذا تأخر صاحب العمل عن اصلاح النقص ، جاز للمتهم أن يرجع إلى وإلى المدينة ، وفي هذه الحالة يجوز له ، بناء على قرار وإلى المدينة ، أن يقوم بعمل آخر .

٢ — وإذا عمد المتعهدون ، الذى سبق ذكرهم ، بسبب مآدوجوا عليه من الميل الى الشر والطمع ، الى التخلي عن العمل الذى تعهدوا أن يقوموا به : فينبغى على صاحب العمل ، أن يقيم البيئة عليهم فى حضرة المجتمعين . بأن يذكرهم بما تم من عقد مكتوب أو غير مكتوب ، وإذا رفضوا أن ينجزوا العقد على ما هو محرز ، جاز له أن يتهمهم أمام والى المدينة ، ثم يستلعى متعهدا آخر . على أن المتعهدين الذين لا أمانة عندهم ، ينبغى إزال العقوبة بهم ، بأن يجرى جلدهم وقص شعرهم وتقيهم . وينبغى أن يردوا أيضا ما أخذوا من تعويض من المستخدم بعد طردهم من العمل دون أن ينالوا أجرا . أما إذا كانت المواد قليلة عند المستخدم (صاحب العمل) ، جاز للصناع ، بعد أن يخطروه ، أن يشروعوا فى القيام بعمل آخر حتى لا يمانوا العوز والحاجة بسبب تطلهم عن العمل .

٣ — ومن يسعى من الصناع للحصول على عقود عديدة كيما تصبح الحاجة اليه شديدة ، إذا لجأ تارة الى غش رجل ، وتارة الى التدليس على رجل آخر ، واستطاع بفضل لباقة واستخدامه سبلا من الألفاظ الجوفاء ، أن يحصل فى أحوال كثيرة على زيادة فى أجره ، بما قام به مثلا من مساومة غير شرفه ، تحتم على والى المدينة أن يجرى الفحص والتحرى ، حتى اذا تبين له أن العملية كانت فى الواقع بالغة الضخامة ، وتنطوى على خسارة للصانع ، أو أن (صاحب العمل) لجأ بعد أن تم الاتفاق الى تغييرها الى أحسن أو الى أسوأ ، أو أن قيمة العملية لم تكن محددة ، فعندئذ يقوم بتقدير العملية صناع مترسومون ، يتدبهم والى المدينة حسبما يترأى له ، ليقرروا ما حدث من تغييرات أو تطورات لم تكن متوقعة . وفى حالة العقود ينبغى ألا يختلف قانونها عن قانون البيوع والمشتريات . فاذا تبين أن العقد تم تنفيذه حسبما جرى الاتفاق ، غير أن التعويض لا يبلغ نصف التكاليف ، صار الاتفاق باطلا ، وتحتم إعادة تقدير العملية . أما اذا زاد التعويض على النصف ، تحتم دفع الأجر حسبما تم الاتفاق عليه . وإذا حدث فى العمل زيادة جديدة أو (طرا) شئ من التغيير ، فينبغى تقدير ذلك ومراعاته .

٤ — وأولئك الذين يشيدون الأسوار والقباب أو الطاقات الضخمة ، ينبغى عليهم أن يراعوا فى عملهم العناية والمهارة حتى لا يصبح الأساس ضعيفا ،

فيتعرج البناء ولا يصير مستقيما . لأنه اذا تداعى (البناء) فى أثناء عشر سنوات ؛ ما لم يحدث ذلك من قبل القضاء والقدر ، تحتم على البناء أن يشيد بديلا من على نفقته الخاصة . واذا كانت العملية ضخمة ، تكلف مبالغ كبيرة ، فينبغى على المتعهد الذى قام بها أن يعيد بناءها بالاشتراك مع زملائه من العمال ، دون أن يتقاضوا أجرا ، غير أنه ينبغى على المستخدم (صاحب العمل) أن يقدم لهم ما يحتاجون من المواد . وينبغى أن تبقى المباني المشيدة من الطين ست سنوات تحت الملاحظة ، حتى اذا تداعى البناء فى خلال هذه المدة بسبب اهمال البناء ، تحتم عليه أن يعيد بناءه ، دون أن يتقاضى أجرا . وهذه القاعدة ينبغى أن تسرى على كل المتعهدين . واذا جرى ضبط جماعة منهم يعملون ما يخالف هذه المرسومات ، تقرر ضربهم وقص شعرهم ومصادرتهم .

التعليقات والمراجع

- (١) انظر الماوردي: الأحكام السلطانية - طبعة الحلبي - ص ٢٤٩ . السقطي :
آداب الحسبة . بشر ليفي بروقنسال - باريس ١٩٣١ ص ٢ القلقشندي : صبح
الأعشى ج ٥ ص ٥٢
- (٢) انظر ، ابن الأخوة : معالم القرية في احكام الحسبة - نشر روبن ليوى -
كمبردج ١٩٣٨ مقدمة الناشر ص ٥ Gibb Memorial Series. New Series XII.
- (٣) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد - مطبعة السعادة - القاهرة ١٩٣١
ج ١ ، ص ٨٠ - ٨١ . ابن عذاري المراكشي : البيان المغرب في حلى المغرب . لندن
سنة ١٨٤٨ . ج ١ ، ص ٦٨
- (٤) برنارد لويس النقابات الاسلامية - ترجمة عبد العزيز الدوري - مجلة
الرسالة سنة ١٩٤٠ ، العددان ٣٣٥ ، ٣٥٦
- (٥) متز ، آدم : الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري - ترجمة
محمد عبد الهادي أبو ريذة . القاهرة ١٩٤١ - ج ٢ ، ص ٢٢٤ .
- (٦) ومن اشهرها كتاب الأحكام السلطانية للماوردي .
- (٧) من هذه الكتب : نهاية الرتبة في طلب الحسبة لعبد الرحمن بن نصر
الشيذري - نشره السيد الباز الميرني - القاهرة ١٩٤٤ ، ونهاية الرغبة في طلب
الحسبة لمحمد بن أحمد بن بسام - مخطوط بالخزانة التيمورية بدار الكتب
المصرية رقم ٢٥ اجتماع . ومعالم القرية في احكام الحسبة لابن الأخوة - نشره
دوبن ليوى - انظر حاشية رقم ٢ ، وكتاب في آداب الحسبة للسقطي . نشره
ليقى برفنسال - باريس ١٩٣١ وثلاث وسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحاسب
نشرها ليفي برفنسال . مطبعة المعهد العلمي الفرنسي بالقاهرة ١٩٥٥
- (٨) انظر : Gustav von Grunebaum : Medieval Islam Chicago, 1947
p. 218 note 122.
- (٩) كتاب والى المدينة وهو المعروف في اليونانية باسم
Epanchikon Biblion صنفه الامبراطور البيزنطي ليو السادس بين سنتي ٩١١ ، ٩١٢ ، واستند في
تصنيفه على ما كان معروفا قبله من قوانين وعرف وتقاليد ، غير ان الكتاب في
صورته الحالية تضمن نصوصا ترجع الى عهد الامبراطور ثقفور فوكاس . والنص
اليوناني لهذا الكتاب عثر عليه سنة ١٨٩٢ J. Nicol في مخطوطا في جنيف فنشره
سنة ١٨٩٣ مع ترجمة لاتينية ومقدمة ، ثم نشره من جديد ، عن طبعة يقول ،
Zappas في (المجموعة المعروفة باسم Jus Graeco-Romanum ، ثم ترجمه يقول الى

الفرنسية وأضاف إليه تعليقات ونشره في جيف سنة ١٨٩٤ بعنوان :

Le Livre du Préfet ou l'Edit de l'Empereur Leon le Sage sur les corporations de Constantinople.

وجرى نشر الكتاب مرتين في ترجمة انجليزية الاولى قام بها الأستاذ

Journal of the Economic History and A. E. H. Honk في المجلة المعروفة باسم Business I. 1929.

وهذه الترجمة هي التي نقلها هنا الى اللغة العربية بعد ان حصلت عليها

بمساعدة صديقي الدكتور محمد احمد الفنام (بجامعة كولومبيا - كلية التربية -

نيويورك والمدرس بكلية التربية بجامعة عين شمس .

اما الترجمة الانجليزية الثانية فقام بها E. Freshfield ونشرها بعنوان :

Roman Law in the Later Roman Empire (Cambridge 1908).

Restoritzeff : The Social and Economic History of the : انظر (١٠)

Roman Empire p. 168.

Bury : History of the Later Roman Empire Vol. I. p. 28. (١١)

Cambridge Medieval History Vol. IV pp. 780-781 (١٢)

(١٣) انظر ما سبق حاشية ٩

(١٤) يعتبر الامبراطور ليو السادس اكبر مشرع بعد جستنيان بفضل ما تم

في عهده من جمع وتصنيف القوانين . لعمتها المجموعة المعروفة باسم الباسيليكا

Basilika التي اشتملت على ستين كتابا وتقع في ستة مجلدات ، وتضمن

القانون الكنسي والقانون المدني والقانون العام . والى جانب الباسيليكا مجموعة

اشتملت على ١١٣ مرسوماً ، والمعروفة بالتجديدات ، وهي التي جعلت كل السلطة في

أيدي الامبراطور وفي يد الامبراطورية انظر : Vasiliev : History of the Byzantine

Empire. Madison 1952 pp. 242-243.

Ostrogorowsky : History of the Byzantine State. Oxford 1956 p. 218.

Ostrogorowsky : op. cit. p. 294. (١٥) انظر

Lopez : Silk Industry in the Byzantine Empire. Speculum : انظر (١٦)

Vol. XX. 1945 p. 1.

Ibid p. 1. (١٧)

Cambridge Economic History. Cambridge II. 1962 p. 106. (١٨)

(١٩) انظر تصدير الكتاب في ترجمته الآتية بعد

Lopez : op. cit. p. 4. (٢٠) انظر

Lopez : op. cit. p. 5. (٢١) انظر

(٢٢) هذه النقابات ورد ذكرها في كتاب والى المدينة في الفصول من ٩ الى ١٢

Lopez : op. cit. p. 9. (٢٣) انظر الحاشية السابقة ، وكذا

Cambridge Economic History. II p. 108. Lopez : op. cit. p. 14. (٢٤) انظر :

- (٢٥) انظر الفصول من ٩ الى ١٢ في كتاب والى المدينة. Lopez: *op. cit.* p. 16.
 (٢٦) انظر Cambridge Economic History II p. 108.
 Lopez: *op. cit.* p. 15
 وما ورد في كتاب والى المدينة في الفصل الرابع فقرة ٢ ، والفصل الخامس فقرة ١ والفصل السادس فقرة ١٠
 Lopez: *op. cit.* p. 16. (٢٧) انظر
 Lopez: *op. cit.* p. 20. (٢٨) انظر :
 Lopez: *op. cit.* p. 16. (٢٩) انظر :
 كتاب والى المدينة الفصل السادس فقرة ٩ ، الفصل السابع فقرة ٢
 (٣٠) انظر كتاب والى المدينة الفصل السابع ، الفقرات ١ ، ٤ ، ٥
 Lopez: *op. cit.* p. 19. (٣١) انظر :
 (٣٢) انظر : كتاب والى المدينة الفصل السابع الفقرة الثامنة ، الفصل السادس الفقرات ١ - ٢ ، ٦ ، ٧ ، ١٤
 Lopez: *op. cit.* p. 19.
 (٣٣) كتاب والى المدينة الفصل الثامن الفقرات ١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ - ١٥
 (٣٤) كتاب والى المدينة الفصل الثامن الفقرات ٦ ، ٨ الفصل السادس .
 الفقرة ١٠ والفصل الرابع الفقرة ٧
 (٣٥) كتاب والى المدينة الفصل الثامن ١ - ٣ ، ٤
 Lopez: *op. cit.* p. 20. انظر :
 Cambridge Economic History II pp- 108-109 (٣٦) انظر :
 كتاب والى المدينة الفصل الثاني فقرات ٢ ، ٣ ، ٦
 Cambridge Economic History II. p. 109. (٣٧)
 (٣٨) كتاب والى المدينة الفصل العاشر .
 Cambridge Economic History II. p. 109. انظر :
 (٣٩) كتاب والى المدينة الفصلان الحادى عشر والثانى عشر .
 Cambridge Economic History II p. 109.
 (٤٠) كتاب والى المدينة الفصل الرابع عشر : فقرة ٢
 Cambridge Economic History II. p. 110 (٤١)
 كتاب والى المدينة الفصل الثالث عشر فقرة ١ ، ٥
 (٤٢) كتاب والى المدينة الفصول ١٥ ، ١٦ ، ١٧
 (٤٣) عن مقادير العملة انظر ما يلى حاشية ٦٣
 (٤٤) كتاب والى المدينة الفصل الثامن عشر ، الفقرات ١ ، ٢ ، ٣
 (٤٥) كتاب والى المدينة الفصل التاسع عشر .
 Cambridge Economic History II p. 110. (٤٦)
 كتاب والى المدينة الفصل الثانى والعشرون .

(٦٠) *Prinicipia* رئيسى نقابة الموتى .

(٦١) *Manual of Law* المجمل الذى أصدره الامبراطور باسيل الاول بين

سنتى ٨٧٠ ، ٨٧٨ ، ويشمل أربعين موضوعا ، وهو المعروف باسم Procherion
(Ostrogorowski : History of the Byzantine State. p. 216.

(٦٢) انظر ما سبق فى حاشية ١٤

(٦٣) إلتقود البيزنطية الواردة فى هذا المرسوم تشمل ما يأتى :

١ - النوميزما *nomisma* - نقد ذهبى ، يقابل فى القيمة الصوليد
(Solidus) الذى كان معروفا فى العهد المتأخر للإمبراطورية الرومانية ،

ويساوى نحو ٣.٥ من الدراكات أى نحو ١٢٥ قرشا مصرى .

ب - المليارزيون *Miliarision* - نقد فضى يساوى ١/١٢ من النوميزما
ويقابل ٢٥٤٤ سنتاى نحو ١/٢ من القروش .

ج - القراط *keration* نقد فضى أيضا يساوى ١/٢٤ من النوميزما ،
ويقابل ١٢٧٢ سنتاى نحو خمسة قروش .

د - الفليس *obol, follis* نقد نحاسى ومقداره لا يزيد الا قليلا عن
سنت واحد ، أى نحو نصف قرش .

انظر Carlo M. Cipolle : Money, Prices, and civilisation in the
Mediterranean World. Princeton University Press 1966. p. 20, 21, 41.

Robert Lopez and Irving Raymond : Medieval Trade in the Mediterranean
World. New York 1955. P. 20 note 6.

(٦٤) هذا مجرد اسم آخر للموتى ، وليس اسم عضو جديد بالنقابة .

انظر Stockle : *op. cit.* pp. 18-19.

(٦٥) انظر ما سبق فى الحاشية ٦٣

(٦٦) هذه العقوبة التى تقضى بقص شعر الرأس واللحية تعتبر من الأمور
المهينة المذلة ، لأن المروف أن من دلل شهرة الرجل الاحتفاظ بشعر رأسه ولحيته .

انظر Book : *op. cit.* p. 603 note 9.

(٦٧) صار تعيين هؤلاء المدرسين لتعليم الطلاب واجبات وأعمال الموتى .

انظر Book : *op. cit.* p. 602 not.

(٦٨) الراجع أن هذه إشارة الى أنزال العقاب بوالى المدينة ، وهذه العبارة

تنطوى على أمور ترجع الى ما بعد عصر ليو السادس ، ولذا تعتبر من العبارات
الدخيلة فى كتاب والى المدينة ، فالمعروف أنه لم يكن من تقاليد هذه الوظيفة أن
يكون لصاحبها حزام أو منطقة .

انظر Stückle : *op. cit.* pp 76-77.

(٦٩) لم يرد فى النص الحد الأعلى للمقدار الوارد فى العقود التى يتقاضى الموتى

عنها نوميزما .

(٧٠) تجار الجواهر هم المروفون باسم *Arginopratai* ، والمعنى الحرفى

لهذا اللفظ « تجار الفضة » . على أن هذا الاسم يطلق أيضا في هذه الفقرة على الصاغة ، وعلى الذين يمارسون تجارة الحجارة الثمينة والألؤلؤ فضلا عن الذهب والفضة . انظر . Book : op. cit. p. 603, note 5.

(٧١) من المليارزيون انظر ما سبق في حاشية ٦٣
(٧٢) لم يرد تحديد لقدر المصادرة في هذه الحالة وسائر الحالات . انظر
Book : op. cit., p. 604 note 5.

(٧٣) الميز ، Meze ، هو الشارع الذي يمتد وسط القسطنطينية ، وهو الشارع الرئيسي المتاجر والصناعات بالمدينة . Blockle : op. cit., pp. 71-72.
(٧٤) اللفظ اليوناني Katalakioi مصطلح آخر للصيارف trepezetai

وما ترجمه Book بلفظ الميزين ورد في اليونانية باسم Bakkonlerioi وجعلها تقول Nical في الترجمة الفرنسية بما يقصد به الصيارف المتجولون انظر : Book op. cit., 604 Note 8.

(٧٥) تجار الملابس الحريرية وهم المعروفون باسم Vestiarprtai وهم الذين يمارسون تجارة الملابس الجاهزة . فيخالفون بذلك أولئك الذين يتاجرون في الحرير الخام أو غير المفزول . على أن ما ورد في القصول الخمسة (٤ - ٨) من صناعة الحرير لا يتبع في النظام ترتيب العمليات الصناعية . انظر : Book op. cit., p. 605 note 8.

(٧٦) هذه هي ترجمة النص الوارد في كتاب يقول : « على أن الأستاذ Book يرى أن العبارة ينبغي أن تكون المياعات والأقواب الأرجوانية ، والمياعات ذات اللون الأزرق ، أي أن يكون للناها أحمر اللون » .

(٧٧) أي الواردة في الفقرة الأولى من هذا الفصل وهي تنص على « الجلد ومصادرة السلع » .

(٧٨) الأوقية هنا تساوي ١/١٣ أي مليارزيون واحد ، فيصير بذلك الربح المقرر مساويا ٨ ١/٢ %

(٧٩) « الأقوياء » هم طبقة كبار الملاك الذين حاولوا أن يجعلوا صفار الفلاحين يعتمدون عليهم . لم يكن هؤلاء « الأقوياء » من طبقة النبلاء التي استملت نبلها عن طريق النسب ، إنما استمدوا نفوذهم وسلطانهم بما حصلوا عليه من امتيازات مالية وقانونية . أما نساجو الأقمشة الحريرية (Serikeorioi) ، فيتمتعون إلى نقابة أخرى . وحاول كثير منهم أن يخضعوا كل صناعة الحرير لأشرافهم .

انظر Lopez : op. cit., p. 19 : Lopez : Medieval Trade in the Mediterranean World p. 21 note 16.)

(٨٠) قارن هنا بما في الفقرتين ١ ، ١٣ . كل لائحة نقابة غزالي الحرير على إن النقابة كلها أصبحت تحت إشراف تجار الحرير الخيام ، إذ تعتم على غزالي الحرير أن يبيعوا لهم كل الحرير المشغول . انظر

Lopez : op. cit., pp. 19-19. Lebas. Medieval Trade p. 22 note 20.

(٨١) والفرق بين هؤلاء التجار وبين التجار المشتغلين بالحرير الخام والمعروفين باسم *metaopratai* ، هو أن هؤلاء التجار المشتغلين بالحرير الخام لا يشترون من الحرير إلا ما كان تقياً نظيفاً ، أما الآخرون فالتزموا بالألا يشتروا من الحرير إلا ما كان وسخاً وبه عيوب ، أو مختلطاً بخيوط من القطن والكتان .

Lopez: *Medieval Trade* p. 22 note 21.

(٨٢) وتجار الحرير الخام الذين لم يدرجوا في النقابة اشتهروا باسم *metaxoroi* وهو اسم عام للمشتغلين بهذه المهنة . أما أولئك الذين اندرجوا في النقابة فلم اسم خاص هو *metaxopratai* الذي جرى ذكره في الفصل السادس . انظر

(٨٣) هذه القيود المفروضة على نساجي الحرير يرجع سرها الى وجود احتكار امبراطوري لاستخدام الأرجوان والنيشب ذات اللون الأرجواني ، اذ يقوم عمال الإمبراطور بصباغتها في مصانع الصباغة . وهؤلاء العمال يتسلمون من الفزائين الحرير الطبيعي بعد غزله ، وبعد صبغه يتولى نساجو الإمبراطور اعداد الملابس اللازمة لحاشية الإمبراطور ورجال القصر . غير أن أعضاء نقابة النساكين يتسلمون أيضاً من المصانع الإمبراطورية الحرير المفزول بعد صبغه ، فيصنعون منه المنسوجات الملونة التي يجوز لهم أن يبيعوها لتجار الأقمشة الحزيرية ، التي يبيعونها بدورهم للجمهور . انظر (Stockle: *op. cit.*, pp. 28-31) وانظر أيضاً ما ورد في ص ٦

(٨٤) المعروف أن « المروص » هن قطع من المنسوج جرت حياتها سويًا حتى يتكون منها ثوب . وكلما قل عدد القطع ، كلما ازدادت قيمة الثوب . انظر

(Boak: *op. cit.*, p. 609 note 7.

(٨٥) ويعرفون باسم *mitabaneis* أو *otthoniopratai* ويمارسون تجارة المنسوجات الكتانية التي يستوردونها ويبيعونها ، أما أقمشة أو ملابس أو أشياء أخرى . انظر

Boak: *op. cit.* p. 10 note 8 .

(٨٦) الواضح أن هذه نقود منخفضة القيمة ، سكتها الحكومة الإمبراطورية لأغراض خاصة . انظر

Stöckle: *op. cit.*, p. 146

(٨٧) انظر ما سبق في حاشية ٨٤

(٨٨) تجار المطور *marepsoi* والواقع أن هؤلاء لم يكونوا إلا تجارا لا صناعاً ، وربما كان أحسن اسم يطلق عليهم هو تجار المقامر .

Stöckle *op. cit.*, p. 28.

(٨٩) الباب البرونزي أو الطاقة التي تعتبر جزءاً من القصر الإمبراطوري . أما علامة الطريق فهي مسقيفة أو طاقة تعتبر النقطة التي تنتهي عندها الطرق الإمبراطورية . انظر

Boak: *op. cit.*, p. 611 note 8

(٩٠) الإشارة يقصد بها الاقليم البيزنطي المعروف باسم خالديا على الساحل الجنوبي للبحر الاسود - أما ترابيزوس الواردة في الأصل فهي المرونة الآن

باطرابزون ، كانت عاصمة خالديا ، وتعتبر محطة على حدود الدولة البيزنطية
تنتهى إليها القوافل القادمة بالسلع من الصين والهند وفارس . انظر
Lopez : op. cit. p. 26

(٩١) الاضافة عن نيقول - المتن ص ٤٥ .

(٩٢) الواضح ان المقاييس مضطربة في هذا الموضع ؛ وتمعرض النهر
للاضطراب . فاذا كان الذراع ١٨ بوصة ، صار مقدار ١١ ذراعا عشرة اقدام ونصف
قدم . واذا قدرنا الذراع بمشرين بوصة ، كان مقدار ٧ اذرع احد عشر قدما وثماني
بوصات اى نحو ١٢ قدما . وهذا التقدير اقرب الى الصواب . وهذا الحظر انما
الغرض منه منع الحريق ، ولم يكن المقصود منه منع التنافس بين الجيران (انظر
Book : op. cit. p. 618 note 8.

(٩٣) هذا النوع من الصابون اقتصر استخدامه على الدور الامبراطورية
انظر Stockle : op. cit. p. 89

(٩٤) هذا العنوان وارد في النص اليوناني باسم Balgamarior Saldamarior
والمعنى الحرفى للفظ الاول « الذين يصنعون . المخلل » ، اما اللفظ الثانى
فيقصد به التسببون في بيع الطعام ، والواقع انهم يمارسون التجارة في سلع
مختلفة . واذا جاز لهم ان يبيعوا اللحم ، فالمعروف ان هذا اللحم يمسكود
انظر Book : op. cit. p. 618 note 1.

(٩٥) ورد في النص باسم Lorotomoi والمعنى الحرفى « الذين يقطعون
السيور الجلدية ، ويجوز ترجمتها بصناع السروج » .
انظر Book : op. cit. p. 614 note 1.

(٩٦) المقصود انهم يحصلون من كل نوميذما يدفعونها ، على كمية معينة من
اللحم ، وتختلف هذه الكمية باختلاف احوال السوق . وسترايجون موضع سوق
كبير يقع على القرن الذهبى
Book : op. cit. p. 616 note 2)

(٩٧) هذا النهر معروف في المصادر العربية المعاصرة باسم نهر صفارى او نهر
عمورية (انظر ابن خرداذبه : كتاب المسالك والممالك - طبعة دى غوبه ص ١٠١)
(٩٨) قصد نيقول انه لا يجوز للجزائريين ان يشتروا الماشية في نيقوميديا او
غيرها من المدن ، بل يجوز ان يشتروا ما يحتاجون من الماشية فيما وراء نهر
صفارى . وهو في هذا يناقض نفسه ، ويتعارض مع الفقرات الاخرى التى تقصر
نشاط الجزائريين على القسطنطينية وحدها
Stockle : op. cit. pp. 42-48.

(٩٩) وطاوروس من اسواق القسطنطينية ، انشاها الامبراطور تيودوسيوس
الكبير (٣٧٨ - ٣٩٥ م) .
انظر Book : op. cit. p. 616 note 4.

(١٠٠) المقصود هو ما يتقاضاه الرؤساء من الربح عن التمييز ، اذ جرى
تقديره باربعة فلوس عن كل نوميذما - انظر حاشية (٩٣) .

(١٠١) المعروف ان هذا الامر يسرى على جميع الحرف ولا يقتصر على حرفه
الخبازين .

(١٠٢) اللتر Litra ، رطل ، والأصل اللاتيني libra ، ويشمل ١٢ أوقية
والمعنى المقصود ، هو ان الأوعية لابد أن تكون ذات حجم واحد ، غير ان الحد الذى
يصل اليه التبيد يختلف بحسب ما هو موجود من كمية التبيد بالمدينة أى بحسب
قيمتها (انظر Stockle : op.cit., p. 110) .

(١٠٣) تقابل بالتوقيت المصرى الساعة العاشرة صباحا .

(١٠٤) مندوب الوالى — انظر Stockle : op. cit., p. 80.

(١٠٥) الإشارة هنا ترجع الى ما يقوم به هؤلاء المفتشون من التخلص من
الحيوانات التى بقيت بالسوق دون أن يشتريها أحد . وكلما العمل على إزالة
وسخ السوق (انظر Book : op. cit., p. 618 note 9)

(١٠٦) لعل المقصود بالعاجز هو السور الذى يحيط بسوق الماشية ، أما
المستخدم والمجرى فهو القناة التى تجرى بها الأوساخ والأقذار .

المستقبل الاقتصادى لقناة السويس

(١)

للدكتور ابراهيم صقر حسن

مقدمة :

كان لعصر الكشف البحرية آثار بعيدة المدى فى العالم ، وما تقوم به من صلات وعلاقات . وكان اختراع البوصلة البحرية وانتشار استعمالها ، وما حدث من تقدم فى صناعة السفن ورسم الخرائط ، وفى فن الملاحة البحرية — كانت كل هذه العوامل قد أخذت تعين بالتدرج على تقليل مخاطر الملاحة البحرية ، ومن ثم على تشجيع هذه الملاحة مما دفع إلى محاولة الافادة بقفل التجارة عن طريق البحر لخص النقل البحرى ، إذا قيس بغيره من طرق النقل الأخرى .

ولما كانت الملاحة البحرية السائدة إذ ذاك هى الملاحة الشراعية ، فقد كان الملاحون يحاولون الافادة من نظم الرياح السائدة التى شاركت من ناحية كمال طيبى فى زسم اتجاهات الطرق البحرية السائدة نشداناً من الملاحين للطرق الأسهل والأقل تكلفة ، وانتهى الأمر بزيادة النشاط البحرى فى المحيط الاطلسى وكشف العالم الجديد ونحول مركز النقل فى النشاط التجارى إلى المحيط المذكور والدول التى تحف به بعد أن كان البحر المتوسط والشرق الأدنى يصنع هذه الميزة وبذلك أخذ الستار يسدل على فصل فى قصة الانسانية والتاريخ ، ويتبقى رويدا رويدا عن فصل جديد .

وإذ ننقل من هذا الكلام العام إلى شئ من التفصيل ، فاننا نجد أن الملاحة الشراعية فى البحر الأحمر وخاصة فى الأجزاء الشمالية منه على درجة من الخطورة لعوامل منها عدم انتظام الرياح وكثرة الصخور . وكان لا بد فى استعمال الطريق بين الشرق والغرب عبر مصر^(١) من قطع وتغيير فى طرق النقل ووسائله إذ كانت التجارة تستعمل البر والنقل

(١). خمس السكاب الطريق عبر مصر بالذكر لأنه هو الذى يهنا فى الموضوع قيد البحث .

النهرى في انتقالها بين البحر المتوسط والبحر الأحمر ، الأمر الذى كان يؤدى إلى ارتفاع تكلفة النقل بسبب استعمال طرق ووسائل أكثر تكلفة ، وبسبب الاضطراب إلى تكرار عمليات الشحن والتفريغ ومصاريف التخزين وفى كثير من الأحوال تحدد المبادلات . هذا بالإضافة إلى ما كان يجنى من مكوس على استجارة المارة ، فضلاً عما كان يلاقيه التجار من متاعب ومصاعب .

ولقد كان السعى إلى كشف طرق جديدة بين الشرق والغرب أكثر مواتاة من طرق الشرق الأدنى دافعا هاما أدى إلى قيام عصر الكشوف وما صاحبه ، وانبثق عليه من تطورات ونتائج .

وكان الطريق البحرى حول رأس الرجاء الصالح من الطرق البحرية الهامة التى اكتشفت إبان ذلك وأحدث اكتشافه واستعماله انقلابا خطيرا فى طرق التجارة بين الشرق والغرب والوسائل التى تعملها وبالتالي فى تكلفة النقل للسلع المتبادلة وفى طبيعة التجارة المتقولة كما وكيفا .

فبالرغم من أن طريق مصر إلى الشرق كان أقصر من طريق الرأس إلى حد كبير جدا إلا أن الطريق الأخير كان يفضل كثيرا . فالى جانب ما ذكرنا سابقا من قائص الطريق عبر مصر ومصاعبه كان طريق الرأس يتمتع بعدة ميزات رغم طول المسافة المقطوعة فيه من معاونة نظام الرياح السائد فيه إلى تعدد جزره وقطعه الساحلية التى تستخدم كمحطات وتواعد للتوطين إلى استعمال النقل البحرى الرخيص على طول الرحلة . ومن العوامل البارزة الأهمية فى تفوق هذا الطريق على طريق مصر استمرار الرحلة وعدم تقطعها ومن ثم لم تعد هناك حاجة لتكرار عمليات الشحن والتفريغ وغير ذلك من الأمور التى تضيق عبئها أوزم على تكلفة نقل السلع .

كل هذه العوامل اتت فى تقاعلها إلى تفضيل طريق الرأس على طريق مصر لتفوقه البارز من ناحية قلة تكلفة نقل السلع (٢) مما أدى إلى اتساع التجارة فى المحيط الاطلسي

(٢) قام الأتراك فى الأجزاء الأولى من القرن السادس عشر بمحاولتين استعادة التجارة بين الشرق والغرب بمدة أعمال ، منها تخفيض الرسوم من ١٠ ٪ إلى ٥ ٪ ثم بعد ذلك إلى ٣ ٪ ولكن دون جدوى .

وعلى هذا الطريق وكان أن قامت الدول البحرية بمحاولة قوية دعماً للامن وتأمينها في مياه المحيطات ، مما دعا بدوره مرة أخرى إلى اتساع التجارة المحيطية وأضاف إلى قيمة طرقها البحرية . ولم يؤد تخفيف عبء تكاليف النقل على الساع المنقولة إلى اتساع التجارة بين الشرق والغرب من ناحية الكمية فقط ، بل أنه أثر كذلك في ماهية هذه التجارة من ناحية طبيعة السلع المنقولة ، إذ أمكن أن تقوم التجارة أيضاً في السلع الأثقل وزناً والأكبر حجماً والأرخص ثمناً التي يشجع على تبادلها انخفاض تكاليف نقلها وبالتالي نسبة ما تخفيه هذه التكاليف إلى ثمنها الأصلي . هذا بدوره أدى إلى أن ينشأ بالتدريج تخصص أدنى في الإنتاج بين أجزاء العالم المختلفة ، مما يؤدي مرة أخرى إلى مضاعفة التجارة التبادلية .

هذا التوسع الظاهر في التجارة ، والتبادل وما حققه من أرباح طائلة أدى إلى تكديس زروات كبيرة أعانت على تحقيق ما دُفع اليه من زيادة في التخصص الاتقي والرأس وزيادة الكفاية الإنتاجية . فقد ساعد هذا الوضع على تمهيد الطريق للتورة الصناعية والاتصال من عصر التجار إلى عصر الرأسمالية ، الأمر الذي أدى إلى قيام اختلافات أخرى في اقتصاديات الشرق والغرب مما خلق دوافع أقوى للتجارة والتبادل بين كلا الجانبين .

("The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade" by A.H. = Lybyer in *The English Historical Review*, Vol. 30, No CXX, October 1915, 577-88, 586.)

إذ كان التاري في تسكفة لنقل قارناً ماناً إلى حد كبير ويذكر سيجفريد أن ثمن البهارات في لشبونة كان يبلغ فقط خمس ما يبلغه ثمنها في الهندية .

(*Suez and Panama*, by André Siegfried, translated by H.H. and Doris Hemming, 50.)

وفي الجزء الأخير من القرن السابع عشر ، بدأ الانجليز يحملون سلع الشرق إلى البحر المتوسط عن طريق الرأس وينافسون بها حتى في أسواق موانئ البلقان . وقد قدر حوالي عام ١٨٠٠ أنه بينما كانت السلع المنقولة من الهند إلى فرنسا عبر البحر الأحمر تحقق ربحاً يقدر بنقط ب ٤٠٪ ، فإن السلع المنقولة عبر طريق الرأس كانت تحقق ربحاً يقدر ب ٣٦ إلى ٤٨ ٪ .

ويقول A.H. Lybyer " يظهر ان طريق الرأس كان أرخص من كل الطرق الأخرى في حمل السلع المنقولة لمسافات طويلة واستمر هذا الطريق يفوز بمظم التجارة مع الشرق زهاء ثلاث قرون ونصف إذ ظل يحتفظ بتفوقه هذا حتى اخترعت السفينة البخارية التي أمكنها أن تبحر عبر البحر الأحمر دون اعتماد على الرياح أو تقيدها وحتى حثرت قناة السويس التي ألغت الحاجة إلى استهلاك البر بين البحرين (Lybyer, *op.cit* 587-88) .

كريم حام أنظر :

(*The Geography of the Suez Canal* "by Ibrahim Sakr (Hasan), 49-53.)

ويلاحظ أن تزايد سرعة عجلة الحياة في أوروبا وحاجتها الأكثر إلحاحاً إلى الإسراع بحركة التجارة العالمية ومدى نشاطها أدى إلى تشجيع ونتاج المحترعات التي أشبعت هذه الحاجة كما ساعدت بدورها على تغيير الوضع في العالم مرة أخرى . فقد أحدث إختراع الآلة البخارية والسفينة البخارية والقاطرة إقتلاباً خطيراً في حياة البشر بدأت به صفحة جديدة في التاريخ . وليس بالرء من حاجة إلى تأكيد أهمية إختراع السفينة البخارية واستعمالها في تغيير الوضع العالمي والتدليل على هذه الأهمية . لقد بدأ فجر عهد جديد وأخذت شعاعاته تبتق رويداً رويداً في ثناباً ليل يسدل ستاره على عهد يولى ويدبر بعد إذ أقبل على الدنيا مع البوصلة وعصر الكشوف في أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر .

من راس الرجاء الى السويس :

نحدثنا من قبل عن تزايد سرعة عجلة النشاط الاقتصادى والحياة على وجه العموم في أوروبا ، ولقد أدى هذا وما صحبه من تخصص مرجع بما أدى إليه من حاجة متبادلة للتجار والتداول أدى كل هذا إلى الإسراع بعجلة النشاط التجارى في كل أنحاء العالم . وقد أمدت السفينة البخارية العالم بوسيلة أكبر وأسرع كثيراً لنقل التجارة العالمية وعن طريق البحر أرخص طرق النقل . ليس هذا فقط ، بل أن السفينة البخارية أمكها أن تمرر البحر في أى اتجاه دون أن تعتمد على الرياح أو تضيق بها . مما أعان الانسان وهو يسعى لزيادة سرعة حركة التجارة على اتباع الطرق الأقصر للتجارة البحرية دون اعطاء وزن كبير للمصاعب التي كانت تواجه الملاحة الشراعية سواء من ناحية الرياح أو غيرها . وقد ساعد ما حدث من تحسن في السفن البخارية على زيادة قوتها في هذه النواحي (٢٨) .

Renner, George T., *Human Geography in the Air Age*, 13-14 (٣)

وفى هذا المرجع يقول المؤلف لقد جعلت السفينة البخارية المحيطية السريعة عصر الشراع في عداد التاريخ . وفى عام ١٨٦١ قام إختراع بالغ الأهمية إذ أمكن وضع السفن في مياكل من الحديد أو الصلب ولم يمض وقت طويل حتى دخل الصلب في صناعة السفن كلية — وقبل ذلك ييمض الوقت استمكت الآلة البخارية في السفينة وبهذا أصبح لدى العالم سفن محيطية من الصلب تتحرك بقوة ميكانيكية وكان هذا حاملاً له أثره الخطير في العلاقات الجغرافية في العالم وباتت هذه السفينة أصبحت السرعة حاملاً أساسياً في الأمور الجغرافية . فقد بدأت أهمية طرق السفن الشراعية على البحار السبعة تضاءل بالتدرج . ولم يعد الانسان يفكر في العالم وفى ذهنة سفينة يطبقة متبقية لسلسلة من الجوز على خريطة تبدو فيها الأرض بشكل اسطوائى وتزايدت ندوة الرحلات الطويلة حول رأس هورن أو رأس الرجاء الصالح . وأنشئت القنرات عند السويس =

ولقد أدى هذا التطور إلى تحول بعض النشاط التجاري عن طريق الرأس إلى طريق مصر (١)، إلا أن وجود قطع في الطريق كان عقبة في سبيل تحول التجارة في السلع ثقيلة الوزن كبيرة الحجم رخيصة الثمن التي تكون القرن الأعظم في التجارة بين الشرق والغرب وقد دعا هذا إلى محاولة اخراج فكرة وصل البحرين المتوسط والاحمر بقناة وهي الفكرة التي راودت كثيرا من العقول منذ أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر إلى حين التنفيذ . هذه القناة التي تخلق بالتماما طريقا مائيا مسترا أقصر كثيرا من طريق الرأس يصل الشرق والغرب وعليه يمكن نقل السلع التي تدخل في هذه التجارة بمد التكن من تجنب قطع

== وبنا ، ووضعت الخطط لإنشاء قنوات أخرى عند نيكاراغوا وفنويديا وبرنخ كرا وقدتد نطاقات الرياح المنظمة في العالم أهميتها ولم تعد هناك أهمية للجور الصخرية الثابتة في مرور التجارة العالمية الحديثة ... إذ أمكن للسفن الجديدة أن تسير دون تقييد بنطاقات الرياح والجور التي تحمل كحطاط ونقط للتويز . وبدأت تلتأ رحلات منتظمة تتبع طرقاً محددة . لقد أصبحت اعتبارات السرعة ذات درجة بالغة من الأهمية .

(١) Hoskins, H. L., *British Routes to India*, 236, 264-265, 404, 469.

ويذكر Hoskins أن السفن البخارية في المياه الأروبية والآسيوية نجحت نجاحاً بارزاً في توفير المانة والوقت وفي التقريب بدرجة أكبر بين الغرب والشرق . وما أن جاء منتصف القرن التاسع عشر حتى أصبح من غير الممكن حتى على أشد الاشكوك أن ينكر المفردة القصوى للطريق البري عبر مصر . غير أننا نجد أنه بينما أصبحت السفن البخارية التي تصل إلى المياه المصرية كل عام أكبر وأقوى وأصبحت مواعيدها أكثر مناسبة وزاد استقلالها عن الاموال التي تؤثر عليها إلا أن مشكلة خطيرة بقيت تنتظر الحل قبل أن يتمكن هذا الطريق من أن ينافس طريق الرأس من الناحية التجارية أو أن يكسله تطوره كسريال رئيسي للواصلات هذه للمشكلة هي مشكلة لظهور عبر مصر (236 p) ثم يضيف الكاتب في مكان آخر من نفس المؤلف قوله : ومع أن (المرور عبر مصر) قد تحسن بدرجة كبيرة منذ افتتاح الطريق البري إلا أن تطوره كان أقل مما حدث من تحول ميكانيكي في النواحي الأخرى . غير أنه كانت هناك مشروعات يفكر فيها جديداً لثقل على المظاهر المعلقة لهذه الخلفاء البرية من الطريق وذلك بإكمال خط حديدي بين الاسكندرية والسويس أو بمجر قناة ملاحية عبر الحاجز الأرضي وهذا أمل أن يكون الطريق عبر مصر وائياً سواء بمحاجات التجارة أو بأغراض الاتصال الأخرى (264 p) وقد كان لمشروع الخط الحديدي الآسيوي وبرايتاؤه قبل نهاية عام ١٨٥٨ وبدأ الطريق عبر مصر يال بعض الأهمية البارزة كطريق تجاري وقبل أن تنتهي قناة السويس كان عبر مصر ما ليعته ألوف كثيرة من الجنهات من السلع الثمينة (407 p) غير أننا نجد أنه مع ما كان الطريق البري من مزايا ظم يكن في استطاعة منافسة طريق الرأس كسريال رئيس للتجارة وإن كان اتصال الطريق البري في اوسال الأوراق التجارية وكليات من السلع الثمينة قد أضاف للسكنير إلى ماله من قيمة كطريق للبريد والسافرين (469 p) .

الطريق غير مصر وضمان وفير كبير في المسافة والتكلفة (١٥) والوقت (١٦).

فتحت نلاحظ أن طريق السويس يؤدي استعماله بدلاً من طريق الرأس إلى تحقيق وفير كبير في المسافة والوقت مما يجعل الطريق الأول إذا تساوت الأشياء الأخرى أفضل من الثاني في خدمة التجارة البحرية في جزء كبير من العالم ويتبين ذلك من الجدول الآتي (١٧):

نقط البداية (المسافة بحسبة بالأميال البحرية)

الابتداء	الطريق المختار	أيفر بول	نسبة الوقت	ماعبورج	نسبة الوقت	ماوسيك	نسبة الوقت
بومباي	الرأس	١٠٦٨٠	٠.٤٢	١١٢٠٨	٠.٤٢	١٠٤٢٤	٠.٥٦
	السويس	٦٣٢٣	—	٦٥٦٧	—	٤٥٦٣	—
كلكتا	الرأس	١١٥٥٦	٠.٣٢	١١٩٠٤	٠.٣٢	١١٣٠٠	٠.٤٥
	السويس	٧٨٦٥	—	٨٢٠٩	—	٦١٩٥	—
سيفافورة	الرأس	١١٧٠٧	٠.٢١	١٢٠٥٥	٠.٢١	١١٤٥١	٠.٤٣
	السويس	٨٢١١	—	٨٥٥٥	—	٦٥٤١	—
سهيون	الرأس	١٢٤٢٢	٠.٢٩	١٢٧٧٠	٠.٢٩	١٢١٦٦	٠.٤١
	السويس	٨٨٤١	—	٩١٨٥	—	٧١٧١	—
بوكوهاما	الرأس	١٤٤٣٦	٠.٢٣	١٤٧٨٤	٠.٢٣	١٤١٨٠	٠.٣٣
	السويس	١١١١٣	—	١١٥٥٧	—	٩٤٤٣	—
تاماناف	الرأس	٨١٦٣	٠.١٦	٨٥١١	٠.١٦	٧٩٠٧	٠.٣٥
	السويس	٦٨١٤	—	٧١٥٨	—	٥١٤٤	—
ملبورن	الرأس	١١٨٩٠	٠.٧	١٢٢٣٨	٠.٧	١١٦٣٤	٠.١٩
	السويس	١١٠١٨	—	١١٣٦٢	—	٩٣٤٨	—

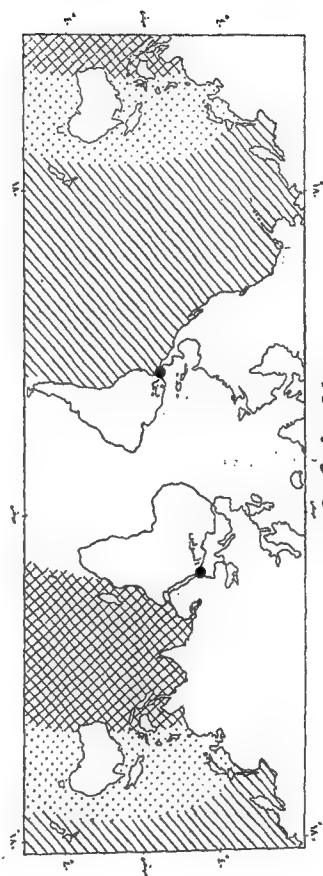
(١٥) *Ibid.* 418, depending on the P. & O. Pocket Book, 3rd. issue.

حيث يذكر أنه ما إن جاء عام ١٩٠٠ حتى كانت معدلات أجور نقل البضاعة إلى الشرق تبلغ فقط خسي ما كانت تبلغه قبل افتتاح قناة السويس.

Renner, *op. cit.* especially chap. II, particularly 10-14: 1. Sakr (١٦)
Hassan, *op. cit.*, chap II. and pp. 114-118.

Nousbaum, R. et J. et Huntchings G. *Compagnie Universelle du Canal de Suez*; *Collection Economie du Monde*, sous la direction de Cristian Funck Brentano, 154.

قناة السويس وقت افتتاحها على المخطط المحيطية



البلاد التي كانت تحت السيطرة البريطانية في ذلك الوقت
في مصر وبلاد الشام والهند الشرقية



البلاد التي كانت تحت السيطرة الفرنسية في ذلك الوقت
في الجزائر والمغرب والجزيرة العربية



البلاد التي كانت تحت السيطرة الهولندية في ذلك الوقت
في ماليزيا واندونيسيا وجزر الهند الشرقية

مصدر: (The Mercator Map Atlas)

كذلك كان طريق السويس أفضل لتجارة بين موافى الاضططى فى أمريكا الشمالية
وبين أجزاء كثيرة من اشرق (٨).

وقد يكون من المهم أن نضيف أن طريق السويس يمتاز بوجع من الشئخ أوفى نيبا
فضلا عن وجود ميزة برزت أهميتها على الخصوص فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، وهى
أن محطات الفحم والامداد بالوقود لم تكن فقط عديدة بل انها ايضا لا تبعد كثيرا لهماها
عن الاخرى (٩) مما كان يفتر اليه طريق رأس الرجاء . ومن الحقائق المثيرة ذات المذى
أنه حدث فى عام ١٨٢٩ أن السفينة هيلندساي التابعة لشركة P. & O. لم يمكنها أن تأخذ
غير مسافر واحد ذلك لأن كل الفراغ الموجود بالسفينة كان لابد أن يملأ بالفحم (١٠) ، ومع
أن ما حدث من تحسينات فى الآلة البخارية قد قل بعض الشيء من حدة هذا العامل ،
وأن استعمال البترول كمادة للوقود قد زاد من تخفيف هذه الحدة ، الا أن هذه الميزة
لا تزال واضحة إذ يتوفر البترول على طول طريق السويس فى ناحية نجد الخليج الفارسى

(٨) المراجع لى ذلك كثيرة . . . وخاتمة للمراجع العامة . . . انظر الخريطة فى الصفحة
الساوية من التقرير وما سوف يأتي من مناقشات خاصة بهذا الموضوع فى التقرير .

Hallberg, Charles W., *The Suez Canal ; Its History and Diplomatic* (٩)
importance, Appendix A, 377-399, 377 ; Issa, Hassan Hussein, *les courants*
économiques contemporains du Canal de Suez et du Canal de Panama, 61-62,
109-11 ; Smith J. Russell, and Phillips, M. Ogden, *Industrial and*
Commercial Geography, 854, 856 ; They state, No long route in the world
equals this one the Suez Route for coaling opportunities.

A vessel can sail over it from the remotest port in the Gulf (١٠)
of Mexico to Vladivostok in east Siberia without ever being compelled
to carry coal for a voyage longer than that between aden and Colombo a
distance of less than 2200 miles. The vessel from the Gulf of Mexico
if it so desired Could get coal at Norfolk or Bermuda ; the vessel from
New-York occasionally in times of great stress of freight and high rates
call at Fayal or st. Michaels in the Azores about 2000 miles out from
New-York, and thence onward the succession of cealing stations is con-
tinuous. The leading ones actually used by the various lines are Gibraltar,
Algiers, Port Said, Aden, Colombo, Singapore, Hongkong, Shanghai,
and Yokohama or Mojr, " 856.

3. Siegfried, *op. cit.*, 114.

والصادر الأخرى للبترول شرق السويس ومن ناحية أخرى نجد أنابيب البترول تحمله إلى شاطئ اللبانات كما نجد له مصادر مختلفة في الجانب الآخر للقناة (١١١).

هذه الميزات ، وخاصة نصر المسافة باستعمال طريق السويس ، لفتت الأنظار إلى الطريق وإلى استعماله في نقل جميع أنواع السلع بحسب المسافرين والبريد والطرود الخفيفة وكان لا بد لقيام الطريق بهذه الخدمة من وصل البحرين وتجنب قطع الطريق وقدر اودت فكرة وصل البحرين كثيراً من العقول حتى اتى الأمر بالحصول على الامتياز وإنشاء قناة السويس ولاهمية إتمام القناة للتجارة ونلاحظ أنه ورغم أن الحكومة البريطانية حاولت ما وسعها المهند عرقلة المشروع ، فإن الدوائر التجارية والدوائر الهندية بتعاونها وتجارتها خاصة كانت تميل ميلاً واضحاً نحو المشروع فحين قرر دلس أن يذهب إلى لندن محلولا الضعيف من حدة مقاومة الحكومة البريطانية وعرض الأمر على الشعب والدوائر التجارية مباشرة أعلنت شركة الهند الشرقية أن مجلس إدارتها يشعر دائماً باهتمام كبير ورغبة أكيدة في نجاح أى مشروع يمكن أن يسهل وسائل الاتصال بين بريطانيا العظمى وبين الهند وذكرت شركة P. & O. التي جلبت المشروع منذ البداية أن أهمية النتائج التي سوف تنجم عن ربط البحرين — الأبحر والتوسط — بواسطة قناة ملاحية من البروز بحيث لا يحتمل الوضع قيام فكرة أخرى فيما يخص الموضوع ، وإذا ما قدر لهذا المشروع أن يتم نجاح فإن على هذه الشركة بالضرورة أن تأخذ بحسب فيما سوف يحدده المشروع من آثار ليس فقط على تجارة بريطانيا العظمى بل على تجارة العالم أجمع . وكان الرأي في الهند في عومه يجهز إنشاء القناة (١١٢).

ونلاحظ أن وصل البحرين يخلق طريقاً بحرياً مستمراً يمتاز إلى جانب قلة تكلفة النقل البحرى المستمر بكثرة الموانئ التي يخدمها وأهمها ظهورها وتعدد الطرق البحرية القريبة

(١١١) Issa, *op. cit.*, 109-111; Smith and Phillips, *op. cit.*, 857, where it is stated: With the exception of its extremities in northwestern Europe and eastern Asia, the Mediterranean Asiatic route is well supplied with petroleum."

(١١٢) Leasaps, F. de. *Inquiry into the Opinions of the Commercial Classes of Great Britain...*, 2, 3.; and Ho kins, *op. cit.*, 314-15.

التي نصب فيه ^(١٣) ، وبالتالي يمكن مناطق كثيرة من الاستفادة من قصر المسافة وقلة التكلفة التي تظهر في السعر المنخفض وتحقيق السرعة المطلوبة للاسراع ببعجلة النشاط الاقتصادي ويشجع اسفن على إعطاء الأفضلية لهذا الطريق الممتاز على غيره حتى لو تساوت الظروف الأخرى لكبر إمكانية الحصول على بضاعة على طول الطريق ، كل هذا مما يدفع إلى الاهتمام للدرجة كبيرة بتحقيق مشروع وصل البحرين .

ولم يكن وصل البحرين مباشرة عبر البرزخ هو الوسيلة الوحيدة لإقامة طريق مائي مستمر قصير يصل الشرق والغرب ، وإنما كانت هناك إمكانيات أخرى إما خارج حدود مصر أو في نطاقها . أما الأولى فتوجد الحديث عنها إلى مرحلة أخرى من مراحل هذا البحث حيث نتناولها بالتفصيل . وأما الإمكانيات التي تقع داخل الحدود المصرية فنوف نتناولها هنا بالدرس المقارن .

فمن ناحية المسافة نلاحظ أن القناة عبر البرزخ تكون أقصر كثيراً من القناة غير المباشرة التي تبلغ في طولها على الأقل مرتين ونصف قدر ما يبلغه القناة المباشرة من طول . فإذا حدث أن تساوت الظروف الأخرى ، فلا شك أن القناة المباشرة تفضل غير المباشرة . وأوضح من الناحية الطبوغرافية أن منطقة القناة غير المباشرة لا تفضل منطقة القناة المباشرة . فالبحوث الجيولوجية تدلنا على أن البحرين المتوسط والأحمر كانا متصلين في قديم الزمان ، ولقد ساعد على تكوين برزخ السويس بمرور الوقت ما كان يحمله أثيل من رواسب إلى جانب حدوث إنكسار في القشرة الأرضية وارتفاع في سطح الأرض . ومعروف أن البحر الأحمر كان يمتد عن طريق خليج السويس في أيام الفراعنة حتى البحيرات المرة وفي النهاية تكون حاجز رملي فصل البحيرات المرة ثم أخذ البحر الأحمر ينحسر بالتدريج حتى وصل إلى وضعه الحالي في خليج السويس ^(١٤) .

Issa, *op. cit.*, ٨8-97; Smith and Phillips, *op. cit.*, 857; Halberg, ^(١٣) *op. cit.*, 377.

كذلك يمكن تتبع ذلك فيما سوف يتناول من مناقشة في هذا التقرير .

Sakr (Hassan), *op. cit.*, 36-37.

(١٤)

ويمكن إقناعه أن يرجع في ذلك إلى الكتب المتعددة التي تناولت الموضوع بشكل عام كذلك يرجع إلى كتاب نهر النيل تأليف الدكتور محمد عوض محمد صفحة ١٩٠ . وكتاب منطقة قناة السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ٩ و ١٠ و ٢٦

ويصف فزجيرالد البرزخ فيذكر بادئا من البحر المتوسط بحيرة المنزلة ، وهي بحيرة ضحلة تبلغ في عمقها من أربع إلى خمس أقدام وكان مقدرا أن تخفر فيها القناة لمسافة تسع وعشرين ميلا حيث تصل إلى القطرة وهناك تبدل ان أرضي صغير لمسافة تبلغ حوالي الثلاثة أميال وتقل بحيرة المنزلة عن بحيرة أصغر هي بحيرة البلاح . وبعد أن تمتد القناة لمسافة تبلغ حوالي ٥ ميل في بحيرة البلاح تقل إلى امتداد من التلال مستمر لمسافة تبلغ حوالي ١٠ ميل ويكون هذا الامتداد من سلسلة من التلال ترتفع تدريجيا حتى تنهى إلى هضبة البحر التي يبلغ طولها حوالي عشر أميال وارتفاعها حوالي ٥٠ قدما عن مستوى سطح البحر وتأتي بحيرة النماص بعد ذلك ثم تملؤها هضبة سيرا يوم التي تمتد حوالي ٧ أميال وتبلغ في أقصى ارتفاعها حوالي ٢٥ قدما . ومن الواضح أن هاتين الهضبتين ١٥ في الحقيقة هضبة واحدة تقريبا البحيرة ولو أن القناة امتدت هنا على طول خط مستقيم لكان لا بد لها أن تواجه هضبة أخرى في منطقة جنيفة ولكنها تجتنبها بتدريج البحيرة والاتجاه إلى اليمن وكانت المسافة خلال البحيرات المرة تبلغ قرابة عشرين ميلا وبعد هذه الانحناء عادت القناة إلى تتبع الخط المستقيم حتى قرب السويس حيث تقوم هضبة أخرى وهي الشلوف .

وبخصوص التربة يذكر فزجيرالد أنه يمكن على وجه العموم القول بأن النصف الشمالي كان يتكون من رمل بحري سهل الحفر فيه والجزء الجنوبي كان يتكون على العموم من الطفل والحصى .

فواضح إذن أننا لا نجد على طول البرزخ عقبة طبيعية ما ذات أهمية ، إذ أن الرطوب أو الرواسب النثرية هي السائدة وقد أفاد المشروع إلى جانب قلة المصاعب من كثرة المنخفضات والمستنقعات والبحيرات واستغلها ^(١٦) ولها فائنا نجد أن المشاكل الهندسية التي واجهها المشروع كانت بسيطة وأن إنشاء قناة في مستوى سطح البحر لا تحتاج إلى أهمية

(١٥) واضح أن ظروف البرزخ وتطوره قد تركت آثارها في هذه الظاهر الخفية
 Joubaud and Hutchings, op. cit.; 10; Fitzgerald, Percy. *The Great Canal at Suez: Its Political, Engineering and Financial History*. Vol. 1, 157
 أنظر كذلك كتاب منطقة قناة السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ١٣٨ قناة السويس
 ذكريات وأحاديث إميل دله شركة القناة عام ١٩٥٠ صفحة ٦٤٦

(١٦) من المزايا التي يضمنها وجود البحيرات على القناة إمكانية سير السفن في الاتجاهين في وقت واحد في هذه البحيرات دون حاجة إلى حواجز كثيرة .

ما كان أمراً (١٧) ممكناً مما حدا بمهندس أنجيزي كبير هو مير جون هوكتو إلى أن يصرح بأن المشروع والحقيقة لا تواجهه مصائب أو يمكن على الأقل القول بأن ما قد يواجهه من مصائب هو من النوع الذي يمكن لمهارة فية متوسطة أن تغلب عليها (١٨).

أما مشكلة المياه العذبة فقد ساعد في حلها وجود وادي طيلات وهو عبارة عن فرع قديم للنيل كان يصب في بحيرة التماسح علت الرواسب الندية بمرور الزمن على رصده ولهذا كان من الممكن باتباع هذا المجرى توصيل المياه العذبة من النيل إلى منطقة البرزخ (١٩).

أما عن العقبات التي قف في وجه المشروع للبشر ، فكان من بينها ما أثاره لير من وجود خلاف بين مستوى المياه في البحر الأحمر ومستواها في البحر المتوسط ولم يقبل كل العلماء هذه الفكرة بل أن لا يلاس وفورلي ناقضها (٢٠) ولكلما لم يبق عليها بصورة قاطعة الا بعد ما قام به جماعة السان سيونييا من دراسات انتهت إلى أنه لا يوجد فارق واضح بين منسوبي المياه في البحرين .

وكان لير قد رأى أن من المستحيل إقامة ميناء في خليج بلوزيوم وقد ظلت هذه الاستحالة في نظر السان سيونييا عتبة في وجه المشروع المباشر ولهذا نجد أنه رغم أن فكرة المشروع المباشر راودتهم بعض الوقت ، إلا أنهم لهذا السبب لم يسبروا فيه شوطاً بعيداً واقترحوا بدلاً من ذلك قناة غير (٢١) مباشرة .

ولكن اللجنة الدولية التي كونها دلسبس من مشاهير المهندسين قررت إمكان إنشاء هذا الميناء ، ورأت أن ينشأ الميناء عند نقطة تقع إلى الغرب من خليج بلوزيوم الذي يحد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرق وبهذا يكون الميناء أقل تعرضاً للرياح الشديدة التي تسود المنطقة وكانت هذه المنطقة أيضاً تقع حيث المياه أعظم منها في القطب الأخرى وحيث الأرض أصلب في تكوينها . وإذا كان قد ترتب على هذا الاختيار زيادة في طول القناة فقررنا

Snith and Phillips, *op. cit.*, 942; Hoskins, *op. cit.*, 315-16, 364-65. (١٧)

Fitzgerald, *op. cit.*, 152. (١٨)

(١٩) أطر أيضاً نقطة نال-ويس تليف فؤاد قرج صفحة ١٣٨ . ويلاحظ كذلك أن إنشاء القناة للمدينة ساعدت على تباين بعض الزروعات في هذه المنطقة على جانبي القناة مما يجتنب ولو إلى حد في تحويز المنطقة .

Fitzgerald, *op. cit.*, 148; Nonsbaum and Hutchings, *op. cit.*, 21. (٢٠)

Nonsbaum and Hutchings, *op. cit.*, 23. (٢١)

سبعة كيلو مترات تقريباً إلا أنه تحقق في مقابل ذلك تخفيض كبير في مصاريف إنشاء الأرصفة والميناء الجديدة .

أما الخوف من أن تزدحم الرمال الهابة من الصحراء بجرى القناة فلم يكن يقوم على أساس سليم . كذلك اتخذت الاحتياطات اللازمة لحجز الرواسب النيلية خلف أرصفة الميناء (٢٢) .

وإلى جانب ما يتمتع به المشروع المباشر من ميزات وقلة ما يواجهه من مصاعب فإننا نجد أن المشروع غير المباشر إلى جانب طول مساحته تواجهه المصاعب بسبب وجود النيل وضيقه وخصالته في بعض الأماكن وقلة المياه به في بعض أوقات السنة . هذا فضلاً عن الحاجة إلى التطهير والصميق المستمر بسبب ما تحمله مياه الفيضان من رواسب بانتظام كل عام وكان التزايد المستمر في أحجام السفن نذيراً واضحاً بأن النيل لا يمكن أن يصلح لمواجهة هذا التطور (٢٣) ، وكذلك كانت هناك مصاعب أخرى فيما يخص شبكة الري والصرف وطرق المواصلات المختلفة التي تمر في الدلتا (٢٤) ، وهي مصاعب لا وجود لها في منطقة البرزخ (٢٥) . هذا فضلاً عن أنه كان لا بد من إحداث تغييرات كبرى في ميناء الإسكندرية (٢٦) .

وقد انتهت اللجنة الدولية في دراستها لمشروع القناة إلى تفضيل المشروع المباشر بصفة خاصة وجاء في تقريرها الذي قدمته لحديبو مصر ما يأتي :

(٢٢) منطقة قناة السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ١٧

Hoskins, op. cit., 195-96 He states: "To the other objections to (٢٣) a canal joining the Nile and Red sea was after 1840 the rapidly growing size of the steamship, which would scarcely be able to navigate any channel which could be constructed on the basis of the Nile waterway."

(٢٤) هذا إذا سار المشروع من الإسكندرية إلى السويس مباشرة دون أن يتبع نهر النيل (٥) تتجه المواصلات في البرزخ بشكل عام في اتجاه القناة وتقل المواصلات التي لا يمكن أن تنقطع مما لا يتم عبئة كأداة في سبيل حرية استمرار الملاحة في القناة ولا يجعل تكاليف بناء أنفاق تحت القناة لحركة النقل هذه تكاليف باهظة وقد وضع الزميل الدكتور علي صويحري للدرس بكلية الهندسة بجامعة القاهرة مشروعاً بهذا الخصوص .

(٢٦) أنظر منطقة قناة السويس تأليف فؤاد فرج صفحة ٢٠٤ — ٢٠٧

"Elle nous a fait connaître des obstacles sans nombre, ou plutôt des impossibilités, pour diriger le canal sur Alexandrie, et des facilités inattendues pour établir un port dans le golfe de Péluse.

"Le canal direct de Suez vers le golfe de Péluse est donc l'unique solution du problème de la jonction de la mer rouge et de la Méditerranée; l'exécution en est facile; et le succès assuré. Les résultats en seront immenses pour le commerce de monde. Notre conviction à cet égard est unanime" (٢٧).

ويلاحظ أن من حسن الحظ أن احتاج القناة جاء في وقت يزداد فيه استعمال البخار في السفن وتحسن فيه الآلات البخارية المستعملة فيها وفي الوقت الذي أنشئت فيه القناة كانت نسبة السفن الشراعية تبلغ ٩٦ ٪ من مجموع الأساطيل التجارية البحرية في العالم (٢٨). وبسبب معاص الرياح الضعيفة وغير المنتظمة في البحر المتوسط والرياح غير المنتظمة بدرجة أكبر في البحر الأحمر الضيق المليء بالصخور، والخطر — لذلك كله — على الملاحة البحرية كان من النادر أن تطرق السفن الشراعية هذا البحر أو طرق السويس عامة عبر القناة. وقد ذكر بعض الاختصاصيين في الملاحة البحرية أن سفينتين من كل خمس من السفن الشراعية كانت لا تصل إلى حيث تقصد وكان ربابنة هذا النوع من السفن الذين يتبحرون مرة في القيام بالرحلة عبر البحر الأحمر لا يربطون البتة بعدها أن يقوموا بها مرة أخرى رغم

Lesseps, Ferdinand de: *lettres, journal et documents*, 1ère série, (٢٧)
Rapport sommaire de la Commission Internationale à S. A. Mohammed-Saïd-Pacha, Vice-Roi d'Egypte, 320-21, 320.

1. Le tracé par Alexandrie est inadmissible au point de vue technique et économique;

2. Le tracé direct offre toute facilité pour l'exécution du canal proprement dit, avec embranchement sur le Nile, et ne présente que des difficultés ordinaires pour la création de deux ponts.

3. Le port de Suez s'ouvrait sur une rade sûre et vaste, accessible en tout temps et où l'on trouve mètres d'eau à 1.600 mètres du rivage.

4. Les port de Péluse, que l'avant-projet plaçait dans le fond du golfe, sera établi à 28 kilomètres environ plus à l'ouest, dans la région où l'on trouve 8 mètres d'eau à 2.300 mètres du rivage, où la tenue est bonne et l'appareillage facile,..." 321.

For a General work on the engineering problems see Fitzgerald, *op. cit.*
and Voisin, François Philippe, Bey, *le Canal de Suez*.

Nousbaum and Hutclings *op. cit.*, 154.

(٢٨)

المعدلات العالية لاجور النقل التي كانت تعرض عليهم لاستعمال هذا الطريق (٢٩). وبذكر سيجفريد أن قناة السويس أصابت حظاً كبيراً إذ جاء إنشاؤها مع هذا التطور حتى أصبحت نسبة السفن الشراعية لا تنكاد تذكر إلى مجموع الأساطيل التجارية العالمية (٣٠).

ولم يؤد افتتاح القناة في نوفمبر عام ١٨٦٩ إلى القضاء نهائياً على الطريق البري أو طريق الرأس، فالقناة كانت ضيقة ومخيلة في بعض أجزائها كما أن استعمالها كان يكلف كثيراً، فضلاً عن أن استعمالها كان يهدد كلية صلاحية بعض السفن التي تمتلكها بعض الشركات للملاحة في طريق السويس (٣١). هذا فضلاً عن أن بعض الشركات كانت مرتبطة بعقود بريد سابقة (٣٢). ولقد ظهر فيما بعد أن ما حدث من زيادة في سهولة الاتصال لم يكن في عوامة مفيدة لأصحاب شركات الملاحة في المملكة المتحدة ولا لبعض المصالح الرأسمالية فيها ذلك لأن قصير الرحلات بين أوروبا والشرق يعني قصاف الطلب على خدمة النقل البحري وبالتالي في الطلب على رأس المال اللازم لتحقيق هذه الخدمة (٣٣).

ولقد تأثرت بعض الشركات مثل P. & O. وشركة الهند البريطانية للملاحة البخارية وأصابتها بعض الضربات (٣٤).

ولكن كون القناة أوجدت طريقاً بحرياً مستمراً، يمكن القيام به برحلة لا تقطع فيها بين الغرب والشرق، هذا وحده كان يمكن أن يحدث تغيرات كثيرة في طريق النقل ونسبائه في بحر سنوات قليلة (٣٥). وزاد من حدة هذه التغيرات أن القناة جاء افتتاحها مع التوسع

Siogfried, op. cit., 121.

Ibid., 122.

(٢٩)

(٣٠)

ويذكر سيجفريد أن السفن الشراعية أصبحت ١٠٣ و١ / فقط من الأساطيل التجارية العالمية. وقد طبع الكتاب منذ حوالي خمسة عشر عاماً.

(٣١)

Hoskins, op. cit., 418.

Wilson, Sir Arnold T., *The Suez Canal: Its Present, and future*, 41-42 (٣٢)

Commercial N°. 8 (1883), *Suez Canal: Returns of shipping and* (٣٣)

Tonnage, Memorandum and Tables Relative to the Trade between the United Kingdom and the East, 8.

(٣٤)

J. Wilson, op. cit., 42

ويرجع بخصوص المصاعب التي أوجبتها الظروف الجديدة إلى المرجع المذكور صفحة ٤١-٤٢

وكذلك Hoskins, op. cit., 418-20

(٣٥)

Hoskins, op. cit., 418.

في استعمال بعض التحسينات في آلات السفن البخارية . وقد كان من نتيجة العاملون معا حدوث ثورة حقيقية في دوائر بناء السفن (٣٦) .

وقد ظهر أثر فتح القناة في هذه الدوائر بوضوح . وفي خطاب في عام ١٨٧١ يذكر سيرجيس الفنتون ، مشيرا إلى قناة السويس ، أننا يجب أن نأخذ في الاعتبار أن افتتاح القناة قد أحدث انقلابا في كل تجارتنا مع الهند ، فالسفن التي كنا نقصر جدا بها ونعجز لابلد أن يتلاشى أثرها من على وجه الأرض ولا بد للتجارة مع الهند . . . أن تحول إلى السفن البخارية (٣٧) .

وتبع ذلك تحول في السفن البخارية إذ زعم أنها كان قد مضى عليها في الاستعمال حوالي نصف قرن إلا أن تطورها كان ظاهرا في زيادة حجمها وليس في تغيير في قواعد بنائها ونوع آلاتها وكان أغلب السفن لا زال معدا بالأسرعة للاستعانة بها مع قوة السفن البخارية وقد رأى الاستفادة من القناة بأقصى ما يمكن أن يبنى نوع من السفن البخارية يخالف مأسبق ويناسب الملاحة في المياه الأوروبية والشرقية على السواء (٣٨) . كما يلعب ظروف القناة (٣٩) .

وقد سارعت شركات الملاحة المختلفة إلى التحول في بناء السفن لمواجهة الظروف الجديدة ونجح عن نجاحاتها توفير في استهلاك الوقود وحصول على معدلات أكبر وأكبر انتظاما للسرعة دون حاجة إلى استعمال الشراع (٤٠) . وقد شجع بناء السفن على استعمال أمواجهم في مواجهة الوضع الجديد ما أدى إليه قصر المسافة ثم زيادة السرعة من زيادة تعدد الرحلات التي يمكن أي قوم بها السفينة الواحدة كل عام مما يروض إلى حذكير المصاريف اللازمة لذلك وبهذا يوضع أساس الإسراع بحدوث الانقلاب (٤١) .

Ibid., 418.

(٣٦)

Ibid., 71-72.

(٣٧)

Wilson, *op. cit.*, 42.

(٣٨)

Hoskins, *op. cit.*, 472.

(٣٩)

Ibid., 472.

(٤٠)

Nonebaum and Hutchings, *op. cit.*, 155: *Commercial N. 8 (1888)*.... (٤١)

S., where it is stated that the new circumstances favoured the growth of new concerns who could ships seacially designed to meet the new conditions and in particular to navigate the canal"

وحتى الشركات القديمة أم بها الحبر بمد حدة قصيرة .

By 1875 the crisis had been succesfully surmounted. The P. and O. and B. I. (the British India Steam Navigation Company) regained and even increased their predominance". Wilson, *op. cit.*, 42.

وتدأى استعمال البخار في السفن وما حدث من تقدم في الآلات البخارية إلى التوسع في زيادة حجم السفينة مما يوفر في تكلفة الانشاء وتكلفة التشغيل ولكن الزيادة في عدد السفن العابرة والتطور في حجم السفينة أدى في أبعادها وفي غاطسها كان يشير بدوره إلى وجوب اتخاذ تحسينات في انتقاء نجعلها مستعدة لمواجهة ما يحدث من تطور في وسائل النقل البحري كما وكيفا . وكما يقول هالفورد هوسكنز :

" In this fashion the improvements consequent upon the canal reacted to compel further changes in the canal itself... This process once begun, has been several times repeated as steamships have grown in size and number"^(٤٢).

وقد انقلبت شركة القناة برنامجها الأول بعد افتتاح القناة بقليل ، ولكن ما لبث المجري أن أصبح من الازدحام بل درجة أظهرت الحاجة الملحة إلى برنامج ضخم للتحسين وكان ذلك ولما مضى على استعمال القناة خمسة عشر عاما^(٤٣) . وتكرر الوضع حتى يومنا حيث صدقت الجمعية العمومية للشركة على البرنامج الثامن للصيانة والتحسين ، أى أن العملية هي عملية خلق متصل مستمر نتيجة ما يحدث من تفاعل بين التطورات في الملاحة البحرية وبين القناة ، وما ينبغي في هذا التفاعل من حدوث تكيف متبادل وتساعد التطورات الجديدة على استمرار هذه العملية^(٤٤) .

ومن الحقائق المعروفة في جاء السفن أنه يكون أوفر من الناحية الاقتصادية أن تكون سفينة حمولتها ٣٠٠٠٠ طنا مثلا من أن تبني ثلاث سفن حمولة كل منها ١٠٠٠٠ طنا ولا يقتصر الوفرة على تكلفة البناء فقط ، بل يصداه أيضا إلى تكلفة التشغيل وهذا واضح

Hoskins, op. cit., 473.

(٤٢)

Ibid., 470:

(٤٣)

(٤٤) يرجع إلى قناة السويس : مذكرات وإحصاءات أعدتها شركة قناة السويس عام ١٩٥٠
صفحة ٣٨ — ٤١ (٤٤) — ٤٧ ويختص البرنامج الثامن برجع إلى مطبوعى شركة القناة

Note sur le 3^{ème} programme des travaux d'amélioration du canal de Suez : Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez : 3^{ème} programme d'amélioration.

ويرجع أيضاً إلى : Saker (Hassan), Ibrahim, op. cit., 126-27

فما يحدث من تطور في ناقلات البترول وهي تكون الغالية البارزة في مجموع الحمولة التي تعبر القناة (٤٥) .

هذه الحقيقة إلى جانب زيادة عدد السفن المارة بالقناة زيادة كبيرة وخاصة ناقلات البترول وهو سلعة خطيرة تحتاج إلى احتياط في العبور . كل ذلك دعا بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية إلى تبنى البرنامج السابع (٤٦) ثم البرنامج الثامن .

وكما ذكرنا من قبل نجد الظروف الطبيعية في منطقة القناة التي جمات حفرها سهلاً تجعل من السهل كذلك القيام بأن عمليات تحسين يطلبها الوضع .

وسوف نتناول في موضع آخر من هذا البحث مدى كفاية البرامج التي تنفذها الشركة في أخذ المدى الطويل في الاعتبار تحسباً وصيانة .

لقد تحالفت الظروف الطبيعية والظورات الفنية وخاصة في وسائل المواصلات البحرية على إنشاء قناة بحرية صناعية عبر برزخ السويس وأدت هذه القناة رسالتها بقمير المسافة وتوفير الوقت واتقاص تكلفة نقل السلع وبالتالي بالتأثير على أسعارها في نفس الاتجاه وكان لهذا أثره البارز على تجارة العالم وأساطيلها وعلى الموضع الجغرافي والإهمية النسبية للطرق البحرية بين الشرق والغرب (٤٧) وتحرك طريق السويس بسرعة نحو مكان الصدارة بينما تراجع طريق الرأس إلى مكانة ثانوية جداً (٤٨) وزاد من حدة هذا الاتجاه

(٤٥) وعلى سبيل التمثيل فقط يرجع إلى أحد مطبوعات القناة :

Les navires-citernes au Canal de Suez, n. ١, où il dit "Actuellement la construction des navires-citernes est orientée de plus économiques à la construction et à l'exploitation que plusieurs tankers plus petit d'un port en lourd global équivalent."

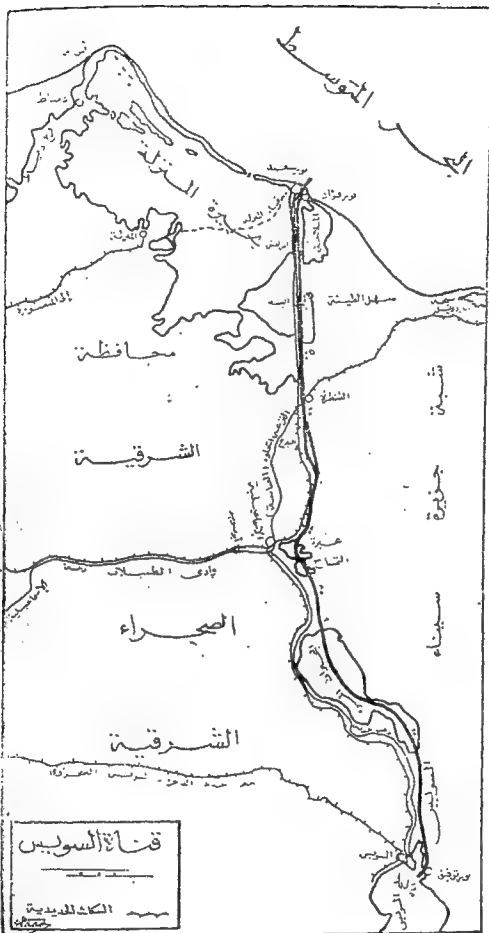
(٤٦) ويذكر المطبوع السابق :

"En raison de l'accroissement du nombre et du tonnage des nouveaux tanlers, la compagnie du Canal Maritime de Suez se devait d'étudier et de réaliser les travaux d'approfondissement qui s'im posaient... [Les travaux du septième programme] doivent permettre le transit en pleine charge des grosses unités à flot et celui des navires-citernes de fort tonnage actuellement en construction."

Sakr (Hassan), Ibrahim, *op. cit.*, 125-26.

(٤٧)

Smith and Phillips, *op. cit.*, 310. where it is stated "The completion (٤٨) of canals at Suez (1869) and at Panam (1914) brought about the greatest shifts in ocean routes since Columbus discovery of the New World and da Gama's discovery of a sea route to the Orient."



سهولة عمليات التحسين في هذا المجرى العالمى وبالتالى امكانية مواجهته أما يحدث من تطور في الملاحة البحرية .

وبهذا نجد أن القناة ولو أنها مجرى مائى صناعى ، إلا أنها أصبحت وقد تم اشؤها جزءا في الكرة الارضية يتفاعل في قوة مع تجارة العالم وظروفه وسرعان ما وطدت اقدامها كشروع ناجح من وجهة نظر الجغرافية الاقتصادية والعلاقات المكانية وأصبحت ممر رئيسيا للتجارة العالمية^(٤١) مما جعل المشروع من الناحية الاقتصادية مشروعا مربحا للغاية تتزايد أرباحه مع الزمن وعلى سبيل المثال بلغ ما حصلته الشركة من رسوم على السفن العابرة ٢٨٩٠٠٠ ر. جنها مصريا عام ١٩٥٣ وزادت إلى ٣٠٣٨٠٠٠ ر. جنها^(٥٠) بمصريا عام ١٩٥٤ . وفي الثلثين الأولين من عام ١٩٥٥ بلغت المتحصلات ٢١٣ مليوناً من الجنيهات المصرية^(٥١) في مقابل ٢٠٤ مليوناً من الجنيهات في الثلثين الأولين من عام ١٩٥٤^(٥٢) ، وهذه المبالغ تبلغ علة اضعاف ما تكلفه انشاء القناة نفسها^(٥٣) . ويمكن أن يتضح نجاح القناة البارز كشروع تجارى في مقدار الحمولة التى تعبرها واضطراد الزيادة فيها وحدة الارتفاع البارزة بعد الحرب العالمية الثانية على وجه الخصوص ليمر ذلك الجدول الآتى^(٥٤) :

(٤١) سوف نتناول ذلك تفصيلا فيما بعد .

(٥٠) عتبة من :

Le Canal de Suez: Bulletin de la Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez, N° 2294-2305.

(٥١) جريدة الاهرام عدد يوم ١٩٥٠/٩/٤ والشرة المذكورة في الهامش السابق

الأعداد : 2234-2301 والأعداد : 2306-2313

(٥٢) يلاحظ أن هذه الزيادة تحققت رغم انقاص الرسوم .

(٥٣) بل أكثر من هذا تزيد هذه المبالغ السنوية من القيمة الكلية للمشروع الآن وذلك

حسب تقدير رجال الشركة المسئولين وهو تقدير يجب التحفظ إزاءه .

Le Canal de Suez: Documents statistiques, 1950, 8, 9. (٥٤)

حيث توجد الاحصائيات إلى عام ١٩٤٩ وإضافتها الشركة بممرتها فيما يخص ما بين ١٩٥٠ ، ١٩٥١ وإضافتها للكتاب بممرتها فيما يخص الأعوام ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ متندا على الطبقات المختلفة للشركة .

ويلاحظ أن احتساب الحمولة التى تحصل عليها للرحوم يجرى منذ ١٩٧٤/٤/٢٩ طبقاً لقواعد التى وضعتها اللجنة الدولية بالنسطنطينية عام ١٨٧٣ وأن السفن التى احتسبت هى التى تؤيد جرة حوتها عن ٥٠٠ طناً بين أول يناير ١٩٢٦ وأول أبريل ١٩٤٩ أو عن ٣٠٠ طن لما عدا ذلك من فترات .

الجملة التي حملت عنها الرسوم	عدد السفن (مراكب البور)	السنة	الجملة التي حملت عنها الرسوم	عدد السفن (مراكب البور)	السنة
بالطن			بالطن		
٢٣٦٨٩١٨	٢٣٥٣	١٩١٧	٢٣٦٦٠٩	٩٨٦	١٨٧٠
٢٥١٦٠١	٢٥٢٢	١٩١٨	٢٣٠٥٧٤٢٢	٢٣٠٢٦	١٨٨٠
٢١٨٠٢	٢١٨٦	١٩١٩	٢٣٨٩٠٠٩٤	٢٣٣٨٩	١٨٩٠
٢٧٤٦٥٧	٤٣٠٠٩	١٩٢٠	٢٣٧٣٨١٥٢	٢٣٤٤١	١٩٠٠
٢١٨١٩٩	٢١٧٥	١٩٢١	٢٣٥٨١٩٨	٢٣٥٣٣	١٩١٠
٢٢٢٤٥	٤٣٤٥	١٩٢٢	٢٣٠٢٣٨٨٤	٥٣٠٨٥	١٩١٣
٢٣٠١٦٢	٤٦٢١	١٩٢٣	٢٣٤٠٩٤٩٥	٤٨٠٢	١٩١٤
٢٠٩٨٨٢	٥١٢٢	١٩٢٤	٢٣٢٦٦١٥٥	٢٣٧٠٨	١٩١٥
٢١١٩٢٥	٥٢٢٧	١٩٢٥	٢٣٣٢٥٣٤٧	٢٣١١٠	١٩١٦
٢١٢٤١	١٨٠٤	١٩٢٦	٢٣٠٦٠٣٧٧	٤٩٨٠	١٩٢٦
٢٢٧١٣	١٦٤٦	١٩٢٧	٢٣٩٦٢٠٤٨	٥٥٥٤٥	١٩٢٧
٢٣٨٠٢	٢٢٦٢	١٩٢٨	٢٣٩٠٥٩٠٢	٢٣٠٨٢	١٩٢٨
٢٤٩٥٢	٢٣٢٠	١٩٢٩	٢٣٤٦٦٠١٤	٢٣٧٤	١٩٢٩
٢٤٩٦٦	٤٢٠٦	١٩٣٥	٢٣٦٦٨٧٥٩	٥٧٦١	١٩٣٠
٢٣١٦٣١	٥٣٠٥٧	١٩٣٦	٢٣٠٢٧٩٦٦	٥٣٦٦	١٩٣١
٢٣٦٥٨١	٥٩٧٢	١٩٣٧	٢٣٢٤٠٢٩٠	٥٣٢٢	١٩٣٢
٢٣١٠٥٦	٦٦٨٦	١٩٣٨	٢٣٠٦٧٦٦٧٢	٥٤٢٣	١٩٣٣
٢٦١٥٤٨	١٠٤٢٠	١٩٣٩	٢٣٧٥٠٨٠٢	٥٦٦٣	١٩٣٤
٢٧٥٥٢٣	١١٧٥١	١٩٤٠	٢٣٨١٠٩٦٨	٥٩٩٢	١٩٣٥
٢٥٦٣٣٨	١١٦٩٤	١٩٤١	٢٣٣٧٨٨٨٢	٥٨٧٧	١٩٣٦
٢٣٧٠٢٧	١٢١٦٨	١٩٤٢	٢٣٤٩١٣٣٢	٦٦٣٥	١٩٣٧
٢٣٥٠٠٠	١٢٧٣١	١٩٤٣	٢٣٤١٨١٨٧	٦١٧١	١٩٣٨
٢٣٤٠٠٠	١٣٢١٥	١٩٤٤	٢٣٥٧٣٣٩٤	٥٣٧٧	١٩٣٩
—	—	—	٢٣٥٣٥٧١٢	٢٣٥٨٩	١٩٤٠

وفي النصف الأول من عام ١٩٥٥ بلغ عدد مرات العبور ٧٣٦٦ مقابل ٦٥٦٢ في النصف الأول من عام ١٩٥٤ ، وبلغت الحمولة التي حصلت عنها الرسوم ٥٧٠٥١٧ر٠٠٠ طنا مقابل ٥٠٠٢٦ر٠٠٠ طنا بزيادة قدرها ١٥٪. وكان متوسط عدد مرات العبور اليومي ٤٠٧ في مقابل ٣٦٣^(٥٥) . وبلغ المتحصل من الرسوم على الحمولة المارة ١٥٠٩٩٣ر٠٠٠ جنيها مصريا في مقابل ١٥٤٣٦ر٢٠٠ جنيها مصريا^(٥٦) .

هذا النجاح الفائق للشروع يقوم على عدد أساس وعوامل ولا بد لمن يتناول المستقبل الاقتصادي للقناة من أن يتناولها بالدرس ويبحث عن مدى قوة هذه الاسس ودرجة استقرارها وبنائها وتأثير ما يحدث من تطورات مختلفة في المقدرة الفنية للانسان وطرق مواصلاته وفي غير ذلك من أمور على هذا الوضع قوية أو أضعافا . وبهذا نكون في مركز يجعلنا أقدر على تجميع خيوط المشكلة التي ندرسها نجيعا بلقي أكبر قدر ممكن من الضوء على طريق المستقبل . ولما كانت الاسس والعوامل التي تؤثر في المشاكل التي ندرسها تبلغ درجة كبيرة من التعدد ، فإنه يستحسن في دراستنا أن نأخذ كلا منها على حدة وندرس اتجاه تأثيره ومداه مما قد يعين على الوصول إلى نتيجة نهائية بتقدير المحصلة الجامعة لهذه الآثار كلها .

وإذ كان التعدد كبيرا وكان من الأسهل أن نجيع العوامل والاسس المختلفة في مجموعات نحددها طبيعة هذه العوامل وما لديها من مراجع وما لدينا من وقت يمكن التوفر فيه على هذه الدراسة آخذين في الحسبان موضوع البحث وأهدافه بحيث لا يكون اختصار مخادع أو مضلل . فقد لجأنا إلى دراسة فيها شيء من التجميع يبرز فيها أكثر عدد ممكن من الخلوط الرئيسية العامة .

غير أنه ينبغي أن نتذكرا دائما أن المسألة في واقعها ليست صورة بسيطة فهذه الاسس والعوامل إلى جانب تعددها نجدها من الترابط والتشابك بحيث يعطى تفاعلها صورة معقدة للحقيقة التي نواجهها . وإذا كنا يستحسن في هذه الدراسة ، كما يستحسن في أى دراسة تشابك فيها العوامل وتعتقد أن نلجأ إلى دراسة العوامل المختلفة على حدة ، فما ذلك إلا بقصد إيضاح الصورة وإبراز الأثر وعزائونا في هذه الحالة أنه ليس من طريقة أقوى أثرا

Résumé du trafic, premier semestre, 1 55, supplément au bulletin le Canal (٥٥)
de Suez N° 2313 du 15 Août 1955.

(٥٦) بحسبة من النشرة السابقة بالأعداد : 2254-2299, 2306-2311 .

أو أكثر وضوحاً فضلاً عن أننا نرجو أن يتمكن القارئ بتتبعه للدراسة إذ نضيف إلى الصورة المخطوط الأخرى الواحد منها بعد الآخر من الإحاطة أكثر وأبقى مانحاً الإحاطة بالصورة في شكلها الواقعي المتشابه المقدر .

ونبدأ بدراسة الهيكل العام لمجال الدراسة التي نتناولها ، أي بدراسة المجال العام للتجارة الذي يعتمد على القناة في نقل التجارة بين أجزائه وتعتمد عليه القناة كأساس من الأساس الذي يقوم عليه كيانها ويوقف عليه مركزها كمشروع اقتصادي ينشر تحقيق الربح في مقام القيام بهذه الخدمة .

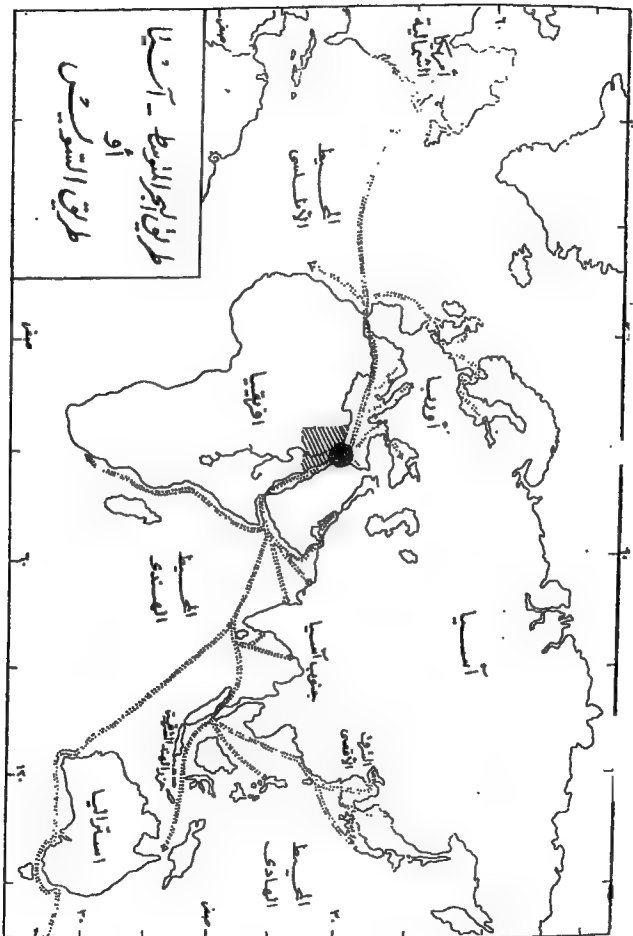
- ونظرة إلى خريطة العالم ترشح في وضوح كيف أن المجال العام للقناة يعتمد من السواحل الشرقية لأمريكا الشمالية ويدخل في نطاقه بشكل عام القارة الثلاثية Triple Continent أو الثلاث القارية Continental Triad أي أوروبا وأفريقيا^(٥٧) وآسيا . وكذلك الهند الشرقية وأستراليا . فمن إذن نجد رغم ضخامة مجال القناة أن هناك مساحات شاسعة ومجالات تجارية ضخمة تقع خارج هذا النطاق مثل المحيط الأطلنطي وما يسير عليه تجارة بين العالم القديم والعالم الجديد^(٥٨) ، والمحيط الهندي الذي يختم فيه كدح للتجارة بين أمريكا وآسيا واليابانوسية^(٥٩) . أضف إلى ذلك أن القناة قد تراجعت أجزاء صغيرة من مجملها إمكانية منافسة طرق عالمية أخرى لها مثل طريق بنما وطريق قناة الرجاء الصالح ، مما سوف نتناوله في تفصيل فيما بعد .

وواضح من هذا أن مجال القناة مجال ضخم من ناحية امتداده ومساحته وهو كذلك ضخم من ناحية موارده الطبيعية وعدد سكانه . وهما أمران ينتج من تفاعلها مع ما أوفى الإنسان من مقبرة فية واتجاه نحو التخصص وتقسيم العمل الإقليمي فوائض متنوعة من السلع تزيد عن حاجة السكان وتقص كبير في عدد من السلع الأخرى إلى اللجوء إلى الغير للحصول على هذه السلع اللازمة لاشباع حاجة السكان ومقابلها ما لديهم من فوائض مما تحتاج إليه المجموعات البشرية التي فاض إنتاجها في السلع بقائتها .

(٥٧) لا تدخل معظم الأجزاء الغربية من أفريقيا في نطاق مجال القناة .

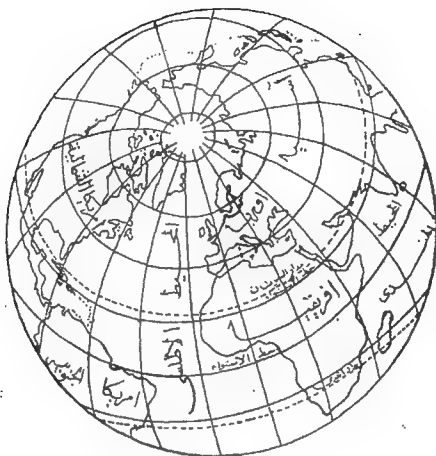
(٥٨) وذلك طبعاً باستثناء للتجارة من المناطق الواقعة جنوبي وقرى القناة .

(٥٩) وذلك طبعاً باستثناء الأجزاء من هذه المناطق التي تدخل في نطاق مجال القناة .





البريتانيات



ومعروف أنه ، كقاعدة عامة ، كلما زادت المساحة التي تتناولها كلما زادت إمكانية زيادة الفوائض ^(٦٠) وزادت بالتالى كمية التجارة المتبادلة بين المناطق المختلفة .

ويص أحد قوانين التبادل التجارى فى الجغرافيا الاقتصادية على أن :

"The volume of commerce moving over any route varies directly with the size of the surpluses of goods...in the tributary area" ^(٦١)

ونقل بعد ذلك إلى شىء من التخصيص فذكر أن افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية العالمية قد خلق طريقاً بحرياً مستمراً لا تقطع فيه بين الشرق والغرب ويمتاز بالتوفير الضخم فى المسافة والزمن والتكلفة إذا تيس بغيره من الطرق البحرية التى تربط الشرق والغرب بحيث يمكننا أن نقول وبدرجة كبيرة من الدقة أن طريق السويس أو البحر المتوسط آسيا قد خلق بهذا الحدث خلقاً جديداً ويذكر أحد القادة أن :

"The importance of the Mediterranean-Asiatic route dates from 1869, when the Suez Canal was open" ^(٦٢)

لقد أكملت القناة الحلقة المائتة النافذة فى الطريق ، وبذلك أضادت بضخامة إلى ما يحمله الطريق من بضائع وشجعت على التطور فى هذا الاتجاه . كما ساعدت على زيادة امتداد الطريق ولهذا يرى سيغفريد أن :

"Cutting through the Isthmus of Suez in 1869 was a world event of the greatest significance greater even than the opening of the Panama Canal in 1914" ^(٦٣).

وطريق البحر المتوسط - آسيا ، أو طريق السويس ، إذ يربط بين أمريكا وأوروبا وبين آسيا بواسطة البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وهو الطريق الرئيسى الذى يشق قلب الأرض . فهو يختم كتلة ضخمة من اليابس وكثيراً ما ترمم الحرائط مقسمة الكرة الأرضية إلى قسمين أحدهما بين نصف الكرة اليابس ويقع مركزه فى غرب أوروبا وبضمن كل نصف الكرة الشرق ما عدا استراليا وكل نصف الكرة الغربى تقريبا وترتبط الأجزاء

(٦٠) وذلك فى تعدد أنواعها وفى كمياتها وإن كنا نهم عند هذه النقطة بالكميات .

Renner and Associates, *World Economic Geography*; 667.

Ibid., 710.

Siegfried, André, *op. cit.*, 137.

(٦١).

(٦٢).

(٦٣).

الرئيسية لنصف الكرة الأرضية هذا بواسطة هذا الطريق عظيم الأهمية الذي يشقه في وسطه وبواسطة تفرعاته . ونظرة إلى الكرة الأرضية نرىنا مدى ضخامة أجزاء العالم التي يصل إليها هذا الطريق الملم . ويذكر Bryan أن :

“ The Suez Canal route, sometimes known as the Mediterranean - Asiatic route, almost circumnavigates the world and carries a traffic as varied as the nations and the lands which it connects ” (٦٤).

فآسيا وحدها عبارة عن ثلث مساحة اليابس على سطح الكرة الأرضية . وإذا احتسبنا الثالث الثاوي أى أفريقيا وأوربا مع آسيا ، وهى جميعاً تكون أجزاء من كتلة يابسة واحدة نجد أنه يكون أكثر كثيراً من نصف اليابس مما حدا بما كنسر أن يسبها جزيرة العالم “ The World Island ” ويمر طريق السويس في وسط هذه الجزيرة العالمية ، أو نصف الكرة اليابس ويكاد يحيط بالقارة الشاسعة ذات الشواطئ المتعرجة التي نسمها أحياناً أوراسيا ، وهى أعظم كتلة من اليابس في العالم وبغنى هذا الطريق فروع ثاوي من الانشاءات المتعددة (٦٥) وخاصة في شاطئها الجنوبي (٦٦) .

ويجب أن نأخذ في الاعتبار أن مما يزيد في أهمية هذه الشواطئ التي يخدمها طريق السويس طول هذه الشواطئ إلى جانب عدم بعض الأجزاء الداخلية كثيراً عنها ، فضلاً عن أن المناطق القريبة من السواحل أو التي يهل اتصالها بالسواحل واتصال السواحل بها هي المناطق ذات الأهمية الأعظم من ناحية الإنتاج والنشاط البشرى .

كذلك يجب أن نضيف أيضاً حقيقة أخرى ، وهى أنه يمكننا أن نعتبر طريق السويس يخرق قلب الأرض من ناحية عدد السكان ، إذ يصل بين أجزاء مختلفة من اليابس يعيش عليها معظم سكان العالم . فأوراسيا نحوى على أكثر من ١٨٠٠ مليون ساكن ومناطق الأطلنطى في أمريكا الشمالية يزيد سكانها عن ١٣٠ مليون أضف إلى ذلك أجزاء أفريقيا التي يخدمها هذا الطريق واستراليا مما يجعلنا قدر في طمأنينة أن عدد السكان الذين يخدمهم

Bryan, Leslie A. *Principles of Water Transportation*, 197.

(٦٤)

(٦٥) يضاف إلى ذلك الطرق للفرعية الأخرى في الجوانب الشرقية والغربية لأوراسيا .

Smith and Phillips, *op. cit.*, 852.

(٦٦)

هذا الطريق يزيد على ثلاثة أرباع سكان العالم أجمع وعلى سبيل المثال يذكر أحد المصادر أن :

"The Mediterranean-Asiatic Route, connecting America and Europe with Asia and Australia 'by way of the Mediterranean and the Red Sea, is in reality a seaway through the heart of the world. It passes through a water passage lying in about the Middle of the huge land mass that constitutes over half of the world's land. In addition, the route practically circumnavigates the vast continent, often times referred to as Eurasia. A substantial part of all the earth's population is served in one way another by this important seaway".

وبذلك تكون النتيجة أن :

The Mediterranean-Asiatic route is one of the most important trunk trade routes in the world. It is the longest single trade route in the world. It has many branches and feeder routes, which serve as traffic collecting and distributing seaways for the main trunk line" (٦٨).

وواضح أن طول الطريق وموقعه بين القارتين الشماليتين والقارتين الجنوبيتين في نصف الكرة الشرق ، الذي يختم الطريق بمدكيو من الفروع الجانبية ، ثم يمتد إلى الغرب حيث يصل في النهاية إلى الولايات المتحدة التي ينتهي فيها إلى الساحل في موانئ منطقة تمتد من بوستن إلى هيوستن وأن طول البحرين المتوسط والأحمر ، وضيقتهم وخاصة الأول ، وبالتالي ضخامة الكتلة الأرضية التي تحيط بالطريق وأهمية المناطق الساحلية أو القريبة من السواحل ، مع سهولة اتصال كثير من الأجزاء الداخلية الهامة ، بهذه السواحل ، هذا إلى جانب كثرة البحار الداخلية وتمرجات السواحل كل هذه العوامل أدت ليس فقط إلى كثرة الطرق الفرعية (٦٩) والموانئ ، المرتبطة بهذا الطريق.

(٦٧) وأجزاء من أفريقيا .

Renner and Associates, *World Economic Geography*..., 710-711. (٦٨)
Bryan, op. cit., 197, where it is stated "Another feature of this (٦٩)
(The Suez Canal) route is the unusually large number of feeder or branch lines connecting with the main route, both east and west of the Canal."

الرئيس ، بل أيضا إلى أهميتها كقطب للشحن والتفريغ والتجميع والتوزيع نظرا لأهمية ظهورها .
Hinterland هذا إلى جانب قربها بعضها من بعض ونظرة واحدة إلى الخريطة تكفي
لإبراز هذه النقطة (٧٠) .

هذه حقائق ذات أهمية بالغة في أثرها البارز على قناة السويس والتجارة التي تبهرها
ذلك لأن هذه التجارة تعبر القناة تكون الجانب الأهم من التجارة التي تستعمل طريق
البحر المتوسط آسيا (٧١) .

ليس هذا فقط ، بل أنا نلاحظ أن طريق السويس يوفر فيه وسائل التوطين بالمحاجيات
المختلفة ومحطات التوطين بالوقود بأنواعه المختلفة ، ولاشك أنه كلما تعددت محطات التوطين
بالوقود على طول الطريق كلما كان ذلك أفيد للبائرة التي تحرك عليه وتحقق الفائدة بتوفير
فراغ أكبر للبضائع ، مما يحقق ربحا أكبر لشركات النقل التي تستعمل هذا الطريق ذلك أنه :

" If the ship can make its owner more money carrying much
freight and little coal, it will do so and stop at frequent intervals
for more coal " (٧٢)

See for example Smith and Phillips, *op. cit.*, 857, where it is (٧٠)
stated, "Of all the world's ocean routes, the Mediterranean-Asiatic is
the trunk line par excellence. This comes about from its length and its
location between the two northern and the two southern continents of
the eastern hemisphere, which it serves by numerous lateral branches,
finally reaching in the west the United States, where its termini include
the widely separated points of Houston and Boston. The indented coasts
of Europe and Asia furnish from every great gulf and sea a pranch to
the main trunk route... In this respect it is quite the peer of any rail-road
system and in its strncture bears considerable resemblance to the
Pennsylvania Railroad-Probably the best located railroad with regard to
freight traffic in the whole world."

Ibid., 857-60 where it is stated, " The traffic upon this great route. (٧١)
which almost circumnavigates the world, is asvaried as the peoples and
lands which it reaches. For convenience the traffic may be considered
in six different groups... traffic of the Mediterranean waters,... traffic
between western Europe and the Mediterranean.... traffic between the east
Indies and the Orient. traffic between North America and the Mediterranean,
traffic between North Vmerica and the Mediterranean.... traffic between
Europe and and the Orient,... and traffic between North America and
Sast Asia." The traffic included in the two last divisions go through the
Suez Canal."

Smith and Phillips, *op. cit.*, *Ibid.*, 856.

(٧٢)

فإذا كان ذلك كذلك فإن طريق السويس ممتاز من هذه الناحية :

"If such stopping is desired no long route in the world equals this one for coaling opportunities. A vessel can sail over it from the remotest port in the Gulf of Mexico to Vladivostok in east Siberia without ever being compelled to carry coal for a voyage longer than that between Aden and Colombo, a distance of less than 2,200 miles. The vessel from the Gulf of Mexico, if it so desired, could get coal at Norfolk or Bermuda; the vessels from New York occasionally in times of great stress of freight and high rates call at Fayal or St. Michaels in the Azores about 2000 miles out from New York; and thence onward the succession of coaling stations is continuous. The leading ones actually used by the various lines are Gibraltar, Algiers, Port Said, Aden, Colombo, Singapore, Hongking, Shanghai and Yokohama or Moji. (٧٣)

هذه هي الحال في النعم ولا يخالف الحال في البترول عن ذلك :

"With the exception of its extremities in north-western Europe and eastern Asia, the Mediterranean-Asiatic route is well supplied with petroleum. Eastern America and the Caribbean area produce [a lot] The Oil fields of Russia, Rumania, Iraq, Saudi Arabia, [Kuait], Bahrein island. Iran, Burma, the Dutch East Indies, and British Borneo are adjacent to the route" (٧٤) .

ليس هذا فقط بل أن هذه المناطق تنفذ الأجزاء الأخرى على طول الطريق بالبترول ولذا أن نسبة السفن التي تستعمل البترول كوقود (٧٥) تزايدت فإن هذا يؤكد من أهمية الحقيقة الثانية وهي أن :

"Le Canal de Suez est spécialement favorisé au point de vue de l'approvisionnement en combustible, surtout au point de vue mezonnt grâce à la proximité des pays producteurs (٧٦) .

^١ *Ibid.*, 556; see also 554 where it is stated that "The Mediterranean- (٧٧) Asiatic route is admirably supplied with coaling stations for the vessels that follow it and is well supplied with coal".

^٢ *Ibid.*, 557.

(٧٤)

^٣ *Ibid.*, 557.

(٧٥)

^٤ *Issa, op. cit.*, 100.

(٧٦)

غير أننا ينبغي أن نتحفظ فيما نعطي من وزن لأهمية هذه الميزة ذلك لأن تزايد استعمال البترول في تسيير السفن قد قلل من أهمية هذا العامل ، ذلك لأن السفن التي تسيّر بالبترول :

“ Have a longer operating radius and do not have to stop so frequently for bunker fuel ” (٧٧)

كل هذه إذن مزايا تقيد منها قناة السويس إذ أنها تمكن من امتداد المجال التجاري للقناة إلى ما وراء المجال الذي يحدده عنصر المسافة المجردة . إذ كثيرا ما تفضل السفن تتبع طريق البحر المتوسط — آسيا على تتبع الطرق الأخرى التي قد قصورها طولا بسبب تعدد وجود الموانئ وإمكانيات توفر البضائع بكميات كثيرة وفي أماكن متعددة على الطريق وتوفر الرغبة في هذه البضائع وكذلك بسبب تعدد محطات التزوين سواء بالوقود أو غيره من الحاجيات مما يزيد في إمكانية وجود فراغ أكبر في السفينة نستطيع استعماله في نقل بضاعة أكثر .

وإذا كان مجال القناة المسافى مجالا يغطي الجزء الأغلب من الصورة كما سبق أن رأينا ، فإن المجال التجاري بتأثير هذه العوامل المواترة يكون أضخم مما يحمله عالميا بحق ومهما في العلاقات الدولية التجارية لمعظم بلدان العالم ، وكما يقول أحد الكتاب :

“ Cette grandeur est considérable est d'un intérêt vital pour les relations entre presque tous les grands pays du monde ” (٧٨) .

قناة السويس إذن :

“ est au premier chef un canal d'intérêt mondial ” (٧٩) .

ويمكننا أن نضيف إلى كل هذه العوامل ذات الأهمية نقطة أخرى دائمة أيضا ، وهي أن قناة السويس تقع في منتصف الطريق تقريبا ، وهذا أمر يختلف عما لو كانت القناة تقع بعيدا عن المنتصف وقرىبا من أحد الطرفين ، ذلك أن العلاقات التجارية المتبادلة التي لا بد أن تمر بضاعتها خلال القناة حتى تصل إلى أحد الطرفين المتبادلين من الطرفين الآخر بكثير عدها كلما قربت القناة المعبورة من منتصف الطريق ولتوضيح هذه النقطة يمكننا أن نقترن

Smith and Phillips, *op. cit.*, 567.

(٧٧)

Issa, *op. cit.*, 183.

(٧٨)

Ibid., 56.

(٧٩)

حالة نظرية بحتة : نفرض أن هناك طريقا $ا ب$ تقع عليه الدول التي نحدد كلا منها بنقطة ما وهي : $ا ، ج ، د ، هـ ، و ، ز ، ح ، ط ، ي ، ب$ ، كذلك نفرض :

ص ج س د م هـ ل و ك ز ح ط ي ب

التبسيط ولا يبرز أهمية العنصر الذي نتحدث عنه الآن أن كمية التجارة بين كل من هذه الدول ولدى دولة أخرى منها متساوية ، فإذا وقعت منطقة العبور في منتصف الطريق تقريبا ، أى في النقطة $ك$ مثلا ، فإن مجموع البضاعة التي سوف تمر بالنقطة $ك$ تمثل التجارة بين $ا$ وكل من $ز ، ح ، ط ، ي ، ب$ ، مضافا إليها التجارة بين $ج$ ، وكل من $ز ، ح ، ط ، ي ، ب$ ، مضافا إليها التجارة بين كل من $د ، هـ ، و$ ، والدول الخمس على الجانب الآخر ، أى أن مجموع البضاعة التي سوف تمر بالنقطة $ك$ يبلغ ٢٥ مثلا للتجارة بين أى دولتين من الدول العشر . وطبعاً لا تمر بالنقطة $ك$ التجارة بين $ا ، ج$ أو $ا ، د$ أو $ا ، هـ$ أو $ا ، و$ ، وكذلك الحال في التجارة بين $ج ، د$ أو $ج ، هـ$ أو $ج ، و$ ، وبالمثل في حالة التجارة بين $د ، هـ$ أو $د ، و$ ، وأيضا التجارة بين $هـ ، و$ ويجكر نفس الوضع بالنسبة للحالات العشر المقابلة في الجانب الآخر من النقطة $ك$. أى أننا في المثل المعطى نجد أن خمسا وعشرين حالة من مجموع حالات الاجتار المتبادل وهي خمس وأربعون تمر بالنقطة $ك$.

فإذا مالت نقطة العبور عن الوسط ، وأصبحت أقرب إلى أحد الطرفين ، فإن الحالات التي سوف تمر بنقطة العبور $ل$ مثلا ، سوف تكون $٦ \times ٦ = ٣٦$ أى أربعاً وعشرين حالة من مجموع الحالات الخمس والأربعين .

فإذا تطرفت نقطة العبور في ميلها عن الوسط ، وزاد قربها بدرجة أكبر عن ذى قبل من أحد الطرفين فإن الحالات التي سوف تمر بنقطة العبور $م$ مثلا يكون مجموعها $٣ \times ٧ = ٢١$ أى ٢١ حالة من مجموع الحالات الخمس والأربعين .

وكما زدنا تطرفا في انحرافنا عن الوسط وقربا بدرجة أكبر من أحد الطرفين كلما قلت حالات العبور . فإذا كانت نقطة العبور هي النقطة $ن$ فإن حالات العبور تكون ٢×٨ أى ١٦ حالة ، وإذا كانت نقطة العبور هي النقطة $ص$ فإن حالات العبور تكون ١×٩ أى ٩ حالات .

وهكذا الحال لو كانت نقطة العبور أقرب إلى الطرف الآخر ب من ك التي تقع في المنتصف .

ويمكن أن نعامل أى مثل آخر غير الذى سبق ذكره بأى عدد من النقاط وسوف تكون النتيجة واحدة .

واضح إذن أنه كلما توسّطت نقطة العبور على الطريق كلما كان عدد حالات الانعراج المتبادلة التي تعبرها أكبر ، وكلما مالت نقطة العبور عن الوسط وقربت من أحد الطرفين ، كلما كان عدد حالات الانعراج المتبادل التي تعبرها أقل . وواضح في المثل السابق أن الحالات يمكن أن تختلف بين بلوغها خمسا وعشرين حالة في أعلاها ، أى أحسن درجات التوسط حين تكون نقطة العبور ك وتسع حالات في أدناها ، أى أقل درجات التوسط حين تكون نقطة العبور ص . .

ويمكن أن يفسر هذا المبدأ على الأتلى تفسيراً جزئياً ضخامة حجم التجارة التي تعبر القناة بالنسبة لمجموع التجارة التي تستخدم السفن الناقلة لها طريق البحر المتوسط - آسيا .

ولكن قد يكون المجال التجارى ضخماً ويمتد إلى مسافات طويلة دون أن يستلحق ذلك بالضرورة قيام تجارة ضخمة بين أجزائه تعبر - في الحالة التي نتناولها في هذا التقرير - قناة السويس . هذا ممكن من الوجهة النظرية ^(٨٠) . هذه الامكانية تؤدي بنا في البحث إلى نقطة ذات خطر كبير في الموضوع وهى وجود أسس قوية ووطيدة تستند إليها التجارة التي تعبر القناة ويتضحنا هذا أن نتحدث عن العوامل التي تؤدي إلى قيام التجارة ونتأصلى مدى توافرها في المناطق التي تدخل في نطاق المجال التجارى للقناة .

فلنتسائل أولاً عن السبب الذى من أجله يتجر الناس بعضهم مع البعض الآخر . يجر الناس أو يتبادلون السلع حين يحقق هذا التبادل اشباعاً أكبر لكل منهم ، عما لو أنتج السلعة التي يحصل عليها من غيره بدلاً من السلعة التي يعطيها لغيره في مقابلها . والا لما كان هناك داع لعملية المبادلة هذه . ولا بد لقيام عملية المبادلة من معرفة كل طرف من أطراف المبادلة بالوضع الذى يؤدي إليها على ألا تكون وسائل الاتصال والمعرفة واجراءات

(٨٠) فقد يكون الإنتاج قليلاً ما يؤثر على حجم للتجارة المتبادلة وقد يكون كبيراً ولكنه متشابه في الجانبين مما لا يوجد داع للتبادل الذى يحقق مصلحة الطرفين .

المبادلة ونقل السلعة إلى الطرف الذى يحصل عليها من التكليف الاضافى بحيث تلتفى
السلطة فى قيام عملية المبادلة .

لا بد إذن من وجود وسائل الاتصال بما فيها وسائل النقل — التى تمكن من الاتصال
وتحقق عملية المبادلة بصورة اقتصادية . وكلما كانت طرق الاتصال أكثر اقتصادية كلما كان
ذلك أدعى إلى تفضيلها لانها تحقق اشباعا أكبر من تبادل السلع إلى جانب أنها تمكن من تبادل
سلع يكون تبادلها بواسطة طرق الاتصال ذات الكفاية الاقتصادية الأقل أمرا غير اقتصادى .

وواضح مما سبق أنه لا بد من وجود رغبة لدى كل من الطرفين المتبادلين فى السلع
التي يحصل عليها كل منها مقابل ما يعطيه . ولا شك أن الرغبة فى الشيء وحدها لا تكفى
وانما لا بد من أن تستند قوة شرائية حتى تتحقق الرغبة بوجود الطلب الفعال . وكلما
زادت القدرة الشرائية كلما زاد عدد الحاجات التى يمكن تحقيقها ولا بد حتى يكون ذلك
أن تكون القدرة الانتاجية للفرد أو الجماعة الراغبة فى سلع الطرف الآخر من الكفاية
بحيث يفيض انتاجه أو انتاجها عن حاجتها ويمكن بواسطة الفائض من الانتاج مبادلته بسلع
الطرف الآخر التى تحقق الاشباع المطلوب . ولا شك أن ضخامة المجال التجارى للقناة
وضخامة الانتاج وتنوع هذا الانتاج حتى فى كل من جانبي القناة وضخامة عدد السكان
وبالتالى ضخامة حاجاتهم كمية ونوعا ، كل هذا إلى جانب امتيازات النقل المائى المستمر
عوامل تعين على ضخامة المبادلات وكذلك على مجموعها حتى من الجانب الواحد للقناة .
وهذا العامل الأخير له أثره فى التوسيع إذ كلما تعددت السلع كلما أمكن أن توسع الزيادة
فى بعض الأنواع التقص فى الأنواع الأخرى .

وإلى جانب القدرة الشرائية ، توجد عوامل أخرى قد تؤثر على الرغبة فى السلع المختلفة
كالدين والتقاليد والمناخ . . . إلخ . إلا أن أثر ما يحدث من تطور فى وسائل الاتصال
من معرفة ورغبة فى التقليد وخلق حاجات جديدة يستند ذلك قابلية الحاجات الانسانية
للتزايد . هذا فضلا عما يؤدي إليه تحسن وسائل الاتصال والنقل من ثمر القدرة الفنية
ومعارضة التطور الاقتصادى والتصنيع الذى يقوم عادة على مبدأ التخصص الذى يستند إلى دعائم
ناجمة من العوامل الطبيعية ، مما يؤدي إلى زيادة الانتاجية وزيادة القدرة الشرائية التى يمكنها
أن تحقق اشباعا أكبر . إذ تستند هذه الحاجات الانسانية المتزايدة . ومن المبادئ المعروفة
أنه كلما ارتفعت الانتاجية والقدرة الشرائية ومستوى المعيشة بين الطرفين كلما أدى ذلك عادة
إلى ضخامة التجارة بينهما وتوسعها .

وبالرجوع إلى كتاب « جغرافية العالم الاقتصادية » World Economic Geography تأليف الأستاذ جورج رينر George T. Renner وآخرين نجد
يذكر الآتي :

Three basic conditions are necessary in order that people may trade with one another. First, two human groups who would carry on commerce must be accessible to one another ; second, each must possess a surplus of goods ; and third, their commodities must be different" (٨١).

أما عن العامل الأول ، فسوف يتناول التقرير إمكانيات النقل الأخرى مقارنة بطريق السويس في شيء من التفصيل فيما بعد . وأما عن العامل الثاني ، فقد تضائل فيما سبق وسوف يمسح التقرير من وقت لآخر فيما بعد .

ولنتأمل بعد ذلك عن العوامل التي تكمن وراء اختلاف الفوائض بين الطرفين المتبادلين مما يؤدي إلى وجود مصلحة اقتصادية من تحقيق عملية المبادلة بين الطرفين .

ولنبداً فنذكر أن المقصود بالاختلاف بين الفوائض المتبادلة هو الاختلاف الاقتصادي الذي يقدّره طرفا المبادلة ، أي أن تكون السلع مختلفة بالمعنى الاقتصادي وكفى ، فلا يلزم أن تكون السلع المتبادلة آلات في مقابل حبوب أو قطن مثلاً ، وإنما قد يكون التبادل بين أرز من نوع معين وأرز من نوع معين آخر ، أو قطن له صفات معينة وقطن له صفات معينة أخرى . وقد يكون اختلاف السلع بمجرد اختلاف في نظر أحد طرفي المبادلة وتصوره . وهذا واضح في الحالات التي ينشأ فيها الطلب بسبب شهرة المعارض وفي حالات الاستهلاك الملفت للنظر Conspicuous consumption بل قد تكون السلع متجانسة ولكن الاختيار فيها سوف يحقق منفعة وأشياء اقتصادية يبرر عملية التبادل وهذا واضح في الحالات التي تحكم فيها المواسم أو الفصول في وقت الحصول على سلعة ما . وهنا يمكن أن يتم تبادل مفيد بين المناطق المنتجة للسلعة في نصف الكرة الشمالي والمناطق المنتجة لنفس السلعة في نصف الكرة الجنوبي .

بعد هذا ننقل إلى العوامل التي تؤدي إلى اختلاف السلع التي ينتجها البشر . وبالرجوع إلى المؤلف المذكور سابقاً نجد يقول :

"In general, differences or dissimilarities in the commodities which human beings produce spring from three principal causes. The first of these is the difference in the culture and technology of peoples. The second is the difference in natural resources available to the several peoples of the earth. The third is the difference in the stage of economic-geographic development attained by various peoples" (٨٢).

ولقد كانت هذه الأسباب الرئيسية التي اقتبسناها فيما سبق متوفرة بين الشرق والغرب ومنذ أمد بعيد في التاريخ . ولقد قامت المحاولات منذ العصور القديمة لاستعمال وسائل اتصال وطرق أحسن سواء كان ذلك من ناحية الأمن أو السهولة أو التكلفة أو أكثر من عامل منها . وتحقق الاتصال بواسطة طرق عديدة كان عددها له اعتباره منها يمر خلال الشرق الأدنى الذي يعتبر إلى حد كبير ومن نواح متصلة منطقة انقل بين الشرق والغرب وكان من بين طرق الشرق الأدنى هذه طرق تمر خلال مصر ومن بينها طريق السويس الذي يعتبر الآن أهم الطرق بين الشرق والغرب . ويذكر الدكتور عيسى :

"Qualitativement... le canal de Suez... [est un] trait d'union entre des civilisations différentes, et des contrées aux productions fort diverses... Cette terre est donc... un passage international que, depuis l'antiquité déjà, les hommes ont voulu utiliser" (٨٣).

والانصال يؤدي إلى التبادل فيما يحقق تبادل مصلحة الطرفين المتبادلين ويتبع ذلك نوع من التخصص لتحقيق به مصلحة أكبر . وقد يؤدي ذلك أو يدفع إلى تحسين وسائل الاتصال القائمة أو الكشف عن أنواع جديدة أكثر من الناحية الاقتصادية مما يساهم على توسيع رقعة المبادلة . كما يؤدي بالتدرج إلى قيام التخصص والتبادل على أسس وطيدة ناتجة لا بسبل قتلها أو تقليدها . وكلما زادت درجة التخصص كلما أدى ذلك إلى زيادة

٨٢. 656 see also Smith and Phillips *op. cit.*, Chapter ٢3, "Why Do Trade", 784-80 784. Also compare with, Jones, Clarence Fielden and Darkenwald, Gordon Gerald, *Economic Geography*, Chapter 37, "The Basis of International Trade", 572-80.

٨٣. *op. cit.*, 183.

ضخامة الفوائض في الجانبين المتبادلين وزيادة حاجة كل طرف إلى الآخر . هذا إلى جانب زيادة انتاجية كل من الطرفين مما يؤدي إلى زيادة قدرته على الثراء وإمكانية حصوله على تشباع أكبر عن طريق المبادنة . وتستمر هذه السلسلة من التطورات المترابطة رغم ما يعوق تنافسها بين الحين من عقبات ومعطيات .

ومن النقط البارزة أن كمية التجارة المتبادلة قد تزايدت بطراد مع تحسن وسائل الاتصال التي تحسنت بشكل بارز في الفترة منذ القرن الماضي إلى الآن . ولكن ينبغي أن نلاحظ نقطة أخرى هامة يؤدي إليها تحسن وسائل الاتصال وطرقه وزيادة الاتصال وامتداد العلاقات التجارية . فمن المبادئ المدروسة التي يذكرها مؤلف « جغرافية العالم الاقتصادية » المذكور سابقاً أنه :

“ As commercial relations are extended, trade based upon cultural and economic-geographic differences tends to decline, whereas trade resting upon resource differences tends to become accentuated ” (٨١)

ولنتقل الآن إلى دراسة تفصيلية لهذا الموضوع . فنبداً بالأمم الأولى وهو اختلاف الناس في الثقافة والمقدرة الفنية في هذه الحالة نجد أن اختلاف الانتاج ينبثق على الاختلاف في القدرات أو الدين أو التراث الفني أو التقاليد أو طرق التفكير المقبولة اجتماعياً الخ ..

فكثير من جهات العالم أو كلها تقريباً تصدر سلعاً معينة تحمل طابعها الخاص للدول الأخرى وتستمد قيمتها من أنها تعكس قدرات أو ظروفًا ثقافية ينفرد بها القوم الذين يصنعونها كبعض سلع الصين أو الهند أو بعض الأمم البدائية كالفخار أو حتى الأمم المتقدمة . فدولة فرنسا تشتهر بصدير السلع التي تستمد قيمتها بسبب المهاراة أو الذوق الفرنسي الذي يخلع عليها طابعاً فنياً رفيعاً واذ تشر دولة كفرنسا بصناعة هذه البكاليات المعينة تكتسب بمرور الوقت شهرةً تعطيها ميزة على غيرها وتطيل بقاء امتيازها مدةً حتى ولو تلاشت الأسباب الأصلية التي قامت عليها . ويمكن أن ينسحب نفس القول على أثر ما عرف عن الألمان من دقة علمية ومثابرة على البحث في تجارة ألمانيا ومن الأمثلة البارزة على ذلك تفوقهم في الصناعات الكيميائية .

وينبغي هنا أن نتناول نقطتين : النقطة الأولى هي أن كمية التجارة المتبادلة بسبب هذا العامل لا تذكر سواء إذا أخذت على إطلاقها أو على أساس نسبتها من التجارة المتبادلة بين أجزاء العالم المختلفة ، رغم أنها تبدو في أثرها على عكس ذلك بسبب حدة أو برز الاختلاف الذى يقوم على أساسه الاختلاف فى الإنتاج . وهو اختلاف يلفت النظر بدرجة أكثر بسبب قومه . وكما يقول الأستاذان رسل سمث وأوجدن فيلبس :

At first thought it may seem that the difference in the skill, genius or culture of races is the greatest cause of trade, but this is not the case. Racial difference is the least important of the three main causes" (٨٥).

والنقطة الثانية هي أن الاختلافات الثقافية والتأثير التجارية المختلفة التى تنشأ عنها

"are conspicuous for their tendency to be evened up and to disappear" (٨٦)

وتبين على هذا وسائل الاتصال والنقل المختلفة . وانتقال الأسس العلمية من أجزاء العالم إلى أجزائه الأخرى وعدم وجود فرق بين القدرات الانسانية بسبب اختلاف الاجناس وإمكان الانسان أن يحاكي ويقلد الآخرين وقد ساعد التحول إلى الإنتاج التلقى الكبير على الانخراط التدريجى للتجارة التى تقوم على أساس وجود هذا الاختلاف . نتناول نسبها فى مجموع تجارة العالم تضافلا شديدا جدا .

ولنا حاجة فى هذا الصدد إلى أن نذكر فى تفصيل ما انتهى إليه العلم من أن الخلافة اللونية أو الجنسية بين البشر لا دخل لها بذكاء الانسان ومقدرته على التعلم ما أعطى العلم وأن ما ينبغي على الذكاء العقلى والمقدرة من مهارة بالتالى ليس احكامرا لدولة دون أو جنس دون آخر (٨٧) . ولهذا تميل اختلافات الإنتاج التى تقوم على أساس الاختلافات الجنسية والثقافية إلى الانخفاء حينما تتمكن وسائل الاتصال بدرجة كافية من القضاء على الظروف الاجتماعية الخاصة التى تخلفها .

نتقل بعد ذلك إلى العامل الثالث الذى يؤدى إلى اختلاف الإنتاج ، وهو الاختلاف فى مرحلة التطور الجغرافى — الاقتصادى ، ونلاحظ أن هذا الاختلاف

Smith and Phillips, *op. cit.*, 786; Renner and Associates, *op. cit.*, 637. (٨٥)

Smith and Phillips, *op. cit.*, 786; Renner and Associates, *op. cit.*, 605. (٨٦)

Renner and Associates, *op. cit.*, 656. (٨٧)

إلى حد كبير بعامل كثافة السكان^(٨٨) بحيث يكون السكان قليلين فإنهم يلجأون في استغلال بيئتهم إلى وسائل تختلف كثيراً عما لو كان السكان كثيرين في نفس الظروف البيئية . فاعدد القليل من السكان يقوم انتاجه . وبالتالي صادراته على أساس من منتجات الطبيعة الخام أو المواد الخام التي لا تحتاج إلا لأقل كمية من العمل . أما إذا عظمت كثافة السكان فإن على هؤلاء إذ يقل نصيب الفرد من المواد الخام أن يجبروا على هذه المواد بعض العمليات التحويلية التي تزيد من قيمتها . وإذا أخذنا مثلاً بيئة غاية في غنى بوجود مساحات شاسعة بالنسبة للسكان سوف يجعل في إمكان الانسان أن يسد حاجته بالصيد والجمع والالتقاط فإذا زادت كثافة السكان فقد يؤدي ذلك إلى التحول إلى قطع الأخشاب . وإذا كان هؤلاء السكان في منطقة سهلية فيغلب أن تقوم صناعة الرعي وتصلد الأصواف والجلود والحيوانات . فإذا زاد السكان وكانت الظروف مناسبة تحول النقوم إلى الزراعة البدائية ثم الزراعة الخفيفة ثم الزراعة الكثيفة التي تصل إلى حد الزراعة البستانية بما تحتاج إليه من عناية فائقة وكيفية عمل أكبر وما تنشده من استغلال كل شبر من الأرض أقصى استغلال ممكن .

وبلاحظ كما يقول أحد المراجع الهامة :

"We see that as a nation's population continues to grow, thereby increasing the domestic market and labor supply,^(٨٩) as^(٩٠) capital accumulates, and as transportation facilities are

Ibid., 666; Smith and Phillips, *op cit.* 787.

(٨٨)

(٨٩) من العوامل الهامة التي تأتي مع تزايد السكان أيضاً تزايد الحاجة إلى زيادة الانتاج لزيادة العدد المتزايد كما أن الانجماء نحو دفع مستوى معيشة الجميع بزيادة قوة . وهذا يخلق الحاجات التنافس للانتقال إلى مرحلة أعلى من التطور الاقتصادي .

(٩٠) هذا الفراغ مكان كلمة Local وفي رأينا أن تزايد السكان مع وجود ظروف طبيعية مواتية يعطي العمل والمواد الخام بكثافة أقل كما يوفر السوق لتكثير من الصناعات الأساسية . وهو بذلك يخلق الجور المواتي لرأس المال أياً كان محلياً أو أجنبياً . ولقد كان رأس المال الأجنبي في كثير من الحالات عاملاً هاماً — خاصة في مراحل التصنيع الأولى — في الدول المختلفة . وإذا كانت بعض المصاعب والتعاقب تنجم بسبب رؤوس الأموال الأجنبية فذلك يأتي من تباين معنى المصالح الرأسمالية في البلدان المختلفة الذي يجعل الدول التي يتركز فيها رأس المال تتألم في شروط الاستغلال وتحاول تعطيل الانجماء نحو الصناعة في مراحلها الأولى مما يجعل الدول للنامية اقتصادياً تضطر إلى الاعتماد على داخلها بدرجة أكبر دون الغنى من أهمية الاستفادة من منافسات الدول في الخارج للحصول على رؤوس أموال أو عروض بأحسن الشروط للمكة وبشرط ألا تشل حركة الدولة النامية في الانجماء للصاعد .

expanded are improved the the inevitable result is a more intensive use of human and natural resources. This normal economic evolution is accompanied by a growth of manufacturing if the fuel, market, raw material, and other factors are favorable (٩١) ”.

ومن أمثلة التجارة التي قامت بسبب الاختلاف في مرحلة التطور الاقتصادي التجارة التي كانت تقوم بين أوروبا والعالم الجديد ، ولا زال جزء كبير من الانجار يقيم على هذا الأساس ، بل كثيرا ما يصدر العالم الجديد مادة خام أو مادة نصف مصنوعة ليستوردها من أوروبا بد أن تمت عليها عمليات تحويلية ذات مستوى أعلى أخرجت منها ناتجا دقيق الصنع وكذلك كان الحال بين أوروبا الغربية وأوروبا الشرقية ، أستراليا ، ونيوزيلند .

ولكننا نلاحظ وجود اختلاف في مرحلة التطور الاقتصادي أيضا بين كثير من المناطق التي يزدحم فيها السكان على الموارد بسبب ظروف مصطنعة فرضها المستعمر المستقل على المناطق التي تحكم فيها مما أدى إلى تعطيل التطور الذي يحقق مصلحتها . كما كان الحال بين بلد كالهند ودولة كبريطانيا العظمى أو الصين والبول الغربية مثلا (٩٢) . غير أننا نلاحظ بصفة عامة تحقق المبدأ الآتي وهو أن :

“Trade based upon differences in the stage of industrial development, like that depending on racial differences, from which it cannot completely be distinguished, has a strong tendency to disappear through the equalizing of industrial conditions throughout the world ” (٩٣) .

وإذا كان عامل السكان خاصة يؤدي إلى دفع عجلة التطور بمعدل أكبر إلى الحد الذي يجعل البعض يعتبرونه العامل الأعظم في هذا التطور . كما جاء في أحد المؤلفات :

“Population growth is the prime force that helps to level differences in the stage of industrial development among nation.s (٩٤)

Ibid. 789 (٩١)

See for example Sakr, Ibrahim, “Comer Circa 1880 : A Study in (٩٢) British Imperialism in Egypt” *Review of Economic and Business Studies*, Vol. 1. Thira year, February 1956, 25-41 especially 36-42.

Smith and Phillips, *op. cit.*, 780 ; Renner and Associates, *op. cit.*, 666. (٩٣)

Smith and Phillips, *op. cit.*, 740 and 787 where they say : “The (٩٤) difference in the stage or intensity of industrial development is largely a matter of the density of population.”

إذا كان عامل السكان ذا أهمية خاصة فينبغي ألا تنسى أن وسائل الاتصال وما يحدث فيها من تطور يمكن من اتصال أجزاء العالم بعضها ببعض بسرعة وسهولة أكبر مما يؤدي إلى المعرفة والنقل والتقليد والحق وما يؤدي بالناطق المستغلة إلى أن تحس بأن مصالحها أن تزول الظروف المصطنعة المفروضة وأن تطور نفسها بما يحتمل صالحاً أكبر لها . يحدث هذا في الدولة الواحدة كما هو الحال في انتقال صناعة النسيج من نيو إنجلاند في الولايات المتحدة ، متجهة إلى الجنوب . وفي الدول المختلفة ، سواء منها المزدهرة بالسكن والتي في حاجة أشد إلى الارتفاع باقتصادها إلى مراحل تطور أعلى أو غير المزدهرة بالسكن ، إذ ترى في صالحها التحول إلى درجة أعلى في الإنتاج مما يزيد قيمة هذا الإنتاج وبالتالي يرفع مستوى معيشة أهلها . ولهذا نرى الاتجاه نحو التصنيع ينتشر في أجزاء العالم جميعاً وإن كان يختلف في درجة حدته ويشجع الدول جميعاً على محاولة القضاء على الظروف المصطنعة نجاح كثير من الدول التي قضت عليها في تطوير إنتاجها ورفع إنتاجية أبنائها ومستوى معيشتهم .

واضح إذن أن عامل الاختلاف في مرحلة التطور الجغرافي الاقتصادي الذي يؤدي إلى اختلاف الإنتاج مما قد يؤدي إلى قيام تجارة على أساسه يصف يصف وبالتالي أثره كلما تحسنت وسائل الاتصال وأمكن التغلب على الظروف المصطنعة التي يكون تغييرها وبالتالي القضاء على أثرها ممكناً .

ونعود مرة ثانية إلى البدا الذي إقتبسناه سابقاً وهو أنه :

“ As commercial relations are extended, trade based upon cultural and economic-geographic differences tends to decline, whereas trade resting upon resource differences tends to become accentuated ” (٩٥).

نقل انن إلى عامل الاختلاف في الموارد الطبيعية . هذا العامل هام جداً في قيام التجارة بين مناطق العالم المختلفة . هذه الموارد كثرة الأنواع وكل نوع منها يمكن تصنيفه إلى أصناف متعددة ، وهي موزعة على بلاد العالم في مجموعات تختلف في نوعها وفي كمياتها . هذا الاختلاف يؤدي إلى اختلاف في الإنتاج بين أجزاء العالم المختلفة مما يؤدي — إذا وجد فائض — إلى قيام التجارة بين هذه الأجزاء المختلفة .

ومن النقط الهامة التي يجب أن تؤخذ في الاعتبار في مناقشتنا لهذا العامل أنه من أن كلا من البيئة الطبيعية والبيئة الاجتماعية عرضة للتغير ، إلا أن الطبيعة أكثر جداً من ناحية ثباتها .

ومن الواضح في أى دراسة يبحث فيها مستقبل التجارة العالمية أن الاختلافات في الموارد والبيئة الطبيعية بين الدول المختلفة والاقاليم المتباينة أكثر إلى حد كبير من ناحية استمرارها ودوامها عن الخلافات الاجتماعية كأساس للتجارة . صحيح أنه حتى مظهر الكتلة اليابسة أو المائية أو المناخ عرضة للتغير . إلا أن معدل التغير عادة بطيء جداً . وقد يقضى على التربة أو الغابات أو المصايد أو الحياة الحيوانية كعذر للثروة بسبب سوء استغلال الانسان إلا أن العلم وامكان استغلاله في رسم خطوط البيئة الاجتماعية التي تطوّر مع البيئة الطبيعية لتحقيق أحسن نتائج ممكن للانسان ، يؤدي إلى أن تخلف هذه الثروات الطبيعية للانسان لأمد طويل جداً . وصحيح كذلك أن الثروات المعدنية توجد بكميات محدودة قد تنتهي يوماً ما ، إلا أنه من الصعب معرفة المدة التي تنتهي بعدها ، فضلاً عن أن التطورات العلمية قد تكشف احتمالات أخرى وكذلك قد تمكن من الحصول على المعادن من خامات تكون غير اقتصادية في الظروف السائدة .

كل هذه عوامل تؤدي إلى ثبات كثير من الاختلافات القائمة مدة طويلة . وقد تكون أطول مما هو مقدر الآن ^(٩٦) .

أضف إلى هذا نقطة هامة أخرى وهي أن ضخامة المجال الاقتصادي لقناة السويس وهي المسألة التي يدور حولها هذا البحث هذه الضخامة تؤدي إلى وجود إختلاف بين جانبي القناة حتى ولو اكتشفت أحيانا موارد في جانب تخوف في الجانب الآخر . أو إتاحة موارد في جانب كان يعتمد عليها في التجارة مع الجانب الآخر ، فإن ضخامة المجال إلى الحد الذي يجعله يغطي معظم أجزاء العالم يجعل الاحتمال كبيراً أن يكتشف كذلك في جانب ما لا يوجد في الجانب الآخر أو لا يوجد بدرجة كافية . كما أن تعدد الأصناف في السلع الواحد وتعدد الاستعمالات وخلق استعمالات جديدة كل هذا يقيم عامل الاختلاف في الثروة المعدنية أساساً للتجارة . ولكن كانت هذه الثروة ليست خالدة ، وإنما هي قائمة

للفنادر فإنها أيضاً قابلة للخلق الاقتصادى والزيادة تبعاً لتطور العلم وتفاعل هذا التطور مع حاجات الإنسان .

ويلاحظ أن الاختلاف فى المناخ من الاختلافات الطبيعية ذات الأثر الهام جداً والثابت ولم يستغنى الإنسان ، رغم محاولات هنا أو هناك ، أن يقضى على أثره أو حتى أن يتحكم فيه بدرجة كبيرة أو على نطاق واسع . وكما يقول أحد القضاة :

“ Le climat est peut-être le seul adversaire qui ne soit pas de notre taille, le seul qui dépasse notre mesure humaine ” (٩٧)

وينبض الأستاذان سمث وفيليس فى هذه النقطة فيؤكدان مثلاً أن :

“Temperature as a basis of trade is perhaps the most fundamental, the most widespread, and for the most promising of great and yet greater performance.

“No exchange of culture, no equality in education or skill, no emigration of peoples evening up density of population can change the temperature and make tropic fruit grow in the land of arctic fur or cotton grow in the land of spring wheat...”

“[The] north-south trade [which is based upon differences in climat] has grown rapidly in recent decades and will continue to increase in the future. It gives the things we cannot ourselves produce, and is needed to round out the economic life of northern and southern lands alike” (٩٨) .

ويلاحظ أن للمناخ أثراً كبيراً فى كثير من العوامل الطبيعية الأخرى ، كالترية والنبات والحيوان الخ . مما يؤثر فى إمكانياته ومقدراته الإنتاجية . وهذا ملحوظ بشكل بارز فى الانتاج الزراعى مثلاً ، وبالتالي فيما يمكن أن يقوم على أساسه من الصناعات المختلفة .

Capot-Rey, *Geographie de la circulation sur les continents*, 278, quoted (٩٧) in Moodie, A.E., *Geography Politics* 109.

ويلاحظ أن المناخ له أثره فى كثير من العوامل الطبيعية الأخرى وبالتالي لى حدود نشاط الإنسان . كما أنه يؤثر فى نشاط الإنسان ذاته بل وينبئ أن تلاحظ أيضاً أنه يؤثر تأثيراً فعالاً فى حاجات الإنسان ولوازمه لاستيعاب هذه الحاجات .

Smith and Phillips, *op. cit.*, 742 ; Kenner and Associates, *op. cit.* 686, (٩٨)

وينبغي أن نبرهن هنا بعض النقاط التي تهم موضوع البحث الذي نتناوله . والنقطة الأولى هي أنه في الحالات التي يتمكن فيها الإنسان من مواجهة آثار الدوامل الطبيعية والغلب على ما تضعه أمامه من عقبات نجد أن التكلفة تكون أكثر مما قد يجعلها غير اقتصادية في كثير من الحالات . وينبغي ألا تلجأ الدولة إلى مثل هذا التصرف إلا لمواجهة ظروف مصطنعة يفرضها الخارج عليها أو فرضا لظروف مصطنعة في الداخل لا تقوم في أغلب الأحوال على أساس اقتصادي سليم . وينبغي إذا أخذنا في الاعتبار المدى الطويل أن نحصى الظروف المصطنعة ويعود الإنسان فردا أو جماعة إلى قبل عون الطبيعة ونحقق الإشباع بأقل جهد ممكن . والنقطة الثانية التي تهم هذا الموضوع وقد ألمحنا إليها سابقا ، هي أن ضخامة المجال التجاري للقناة وتنوع الانتاج في كل من الجانبين ، وتنوع وتعدد الاسس التي يقوم عليها هذا التنوع يجعل في الامكان تحقيق عملية التوزيع قصا أو زيادة طبقا لنظرية الأعداد الكبيرة وتوازن الاحتمالات . بل أكثر من ذلك أنه كلما تلاشت الظروف المصطنعة وانجبه هذا المجال التجاري ، وهو يشمل معظم أجزاء العالم نحو التخصص على أساس من الاختلاف في الموارد الطبيعية الأكثر ثباتا كلما زادت الاتجابية وارتفع مستوى المعيشة وتزايدت الحاجات التي يمكن إشباعها ، مما يؤدي إلى زيادة التبادل ، وكلما كانت هذه الزيادة أكثر إستقرارا واستمرارا وقابلية للتزايد عن طريق التخصص الأدنى الذي يصل إلى أقصى المراحل .

والنقطة الثالثة التي لها دخل بهذا الموضوع هي أن توسط القناة على طريق السويس له أثره الأكبر في إمكانية حدوث التعويضات فضلا عن محاولات التطوير الاقتصادي على كلا الجانبين بحيث لا تزداد حدة التأثير في اتجاه معين في جانب وحدته في اتجاه مضاد في الجانب الآخر ، أو يكون تأثير في غير الصالح على كلا الجانبين . وبهذا لا تضعف امكانيات التبادل بين الجانبين ، بل إنها تزيد .

أضف إلى ذلك نقطة أخرى ، وهي أن كون قناة السويس حلقة في طريق مائي مستمر يعتبر أرخص كثيرا من غيره من طرق النقل الأخرى . ومن ثم أقدر على الاستمرار في النشاط الاقتصادي من غيره من الطرق إذا كانت الظروف غير مواتية . هذا يجعل امكانيات تأثره النسبي بأى قص عام في التجارة لسبب أو لآخر أقل من غيره من الطرق الأخرى .

يمكن أن تنتهى إذن إلى تأيد القول بأن :

"Environmental" contrasts give rise to trade that is far more enduring than trade based upon differences in race, culture, technical skill, political and social conditions and other differences among peoples. Experience has shown that human differences frequently diminish and disappear" (١٠٠).

بل أنه كلما زادت وسائل الاتصال وامتدت العلاقات الإنسانية والتجارية كلما أدى ذلك كما سبق أن ذكرنا إلى أن :

"Trade resting upon resource differences tends to become accentuated" (١٠١).

فالاتصال بواسطة طرق الاتصال المتزايدة التحسنة يعطى للشعوب المختلفة الفرصة لمعرفة نواحي اختلافهم وتقرّبها تقريباً مقارنة ، وتؤدي فترة الانسان على التقليد إلى عملية تلاصق ثقافي حيث يعمل الاخذ بها والعطاء بمرور الوقت على تسمية الفوارق الثقافية . وفي العادة نجد الجماعات الإنسانية لا تقوم بمجرد التقليد ، وإنما تحاول التقليل الذي يبنى يبنى مع ظروفها ويحقق بفضائه مع هذه الظروف أحسن نتائج ممكنة لهذه الجماعات . وتأخذ العملية على وجه العموم شكلاً مركباً من عدة عوامل تغير وعوامل تثبت سواء كانت مما هو موجود بالجماعة أو ما هو موجود بالجماعات الأخرى التي تنقل الجماعة عنها . وتسترشد الجماعة في تصرفها بما تعتبره إذ ذاك خيراً ما يحقق مصالحها . ومن الناحية الاقتصادية يلاحظ أن القيم الاجتماعية المخارة تكون القيم التي يبدو للجماعة أنها سوف توفر الجو الاجتماعي المواتي لتحقيق أحسن مصالحها كما قدرتها . ويبدو أن القاعدة الأساسية التي تستند عليها الجماعة هي أن تخصص في الاجتهاد الذي ينتج أكبر عوائد ممكنة عن طريق فعل ما نسميه بقوانين التكاليف النسبية والميزات النسبية .

وكما اعتمد هذا التخصص على أكثر العوامل ثباتاً وأقلها قابلية للتقليد كلما رسا هذا التخصص على دعائم وطيدة ، لأن الميزة النسبية سوف تعمل أثرها في المدى الطويل كما تعمل في المدى القصير . أضف إلى ذلك أن المنتجين إذ يقدرون ويعسرون بالفائدة التي تعود

Meaning natural environment.

Ibid., 747.

Ranner and Associates, *op. cit.*, 686.

(٩٩)

(١٠٠)

(١٠١)

من التخصص حيث توجد ميزات نسبية قد يغفرون بالاتجاه نحو تخصص أحد وفي مستوى أعلى ، أى بالتحول أيضاً إلى « التخصص الرأسى » وليس فقط « التخصص الأفقى » عن طريق القيام بعمليات الإنتاج الثانوية والعمليات من الدرجة الثالثة . . . الخ . ويمكن أن يحقق فى كل هذا أحسن الميزات الممكنة باستعمال طرق إنتاج أكثر كفاية ترفع بها الانتاجية الاقتصادية وتساعد الآلات والكفاية الفنية والتطورات العلمية على دفع الجماعة الانسانية فى هذا الاتجاه وتعمل التطورات التى تحدث فى وسائل الاتصال والنقل خاصة على الاسراع بهذا التطور وزيادة حدته (١٠٢) .

كل هذه التطورات وأشغالها تعمل على زيادة سرعة التحول فى المراحل الجغرافية الاقتصادية . وبمرور الوقت تميل الاختلافات فى مراحل التطور الجغرافى الاقتصادى . كما ذكرنا من قبل ، إلى التقلص والزوال . ويميل التخصص بذلك إلى أن يصحك أكثر وأكثر نحو أهل المستويات تركزنا وحدة ، وأن يقوم على أكثر الاسس توطدا واستقرارا ، ونعنى بذلك الاختلافات فى الموارد الطبيعية .

وينبغى ألا ننسى فى هذه المناسبة أن المسألة ليست بسلاكلها وأن التطور لا يسير سيرا هادئا رتيا . فهناك عقبات فى سبيل التبادل الحر الذى يعين على أن يحدث هذا التطور فى سهولة وسرعة ، بل أن هناك من الحواجز ما يفرض فرضا لتعويق هذا التطور فهناك بعض الظروف الاجتماعية كالاختلاف فى الثقافة عامة أو اللغة أو الدين أو التقاليد . . الخ . التى قد تثير بعض المشاكل فى وجه حرية التجارة . ولكن هذه الاختلافات يمكن التغلب عليها كعقبة ونادرا ما كانت مشكلة ذات خطر فى إعانة حرية التجارة بين الشعوب المختلفة (١٠٣) .

(١٠٢) إلى جانب ما ذكر من أن هذا التخصص يساعد على التناقل والتلاحق فيما يمكن أن يحدث ذلك فيه فإن تحسين وسائل النقل يوفر الوسائل الأحسن التى تمكن من جعل عملية التبادلة ميسرة ويقلل من تكلفة النقل ليمطى الفرصة لأن يزداد استغلال للميزات النسبية مهما قلت فى إطار تخصص ومسا تبادل يحقق منفعة مشتركة للطرفين المتبادلين ذلك لأن تكلفة النقل تنقل من أثر الميزة النسبية فى الانتاج إلى التكلفة النهائية للمعدة فى سوق الاستهلاك فكلما قلت تكلفة النقل كلما قل أثرها النسبى على هذه التكلفة النهائية و زاد ذلك من التوسع فى التخصص الانفسى على أساس الميزات النسبية لتحقيق خير الجميع .

Smith and Phillips, op. cit., 786.

(١٠٣)

هذه الاختلافات يحاول أصحاب المصالح المتميزة استغلالها لتثبيت مصالحهم وتدعيمها وإعطائها أمداً إلا أن هذه المحاولات تظل ولا تتنل ولا يمكنها أن توقف التيار الصاعد إلى الأبد .

كذلك قد ترى بعض الجماعات من صالحها أن تعوق انتقال القدرة الفنية لديها إلى غيرها من الجماعات ، رغبة في إطالة المدة التي تتمتع فيها بهذه الميزة ولكن تطور وسائل الاتصال وإمكانية انتقال هذه القدرة بمرور الزمن عن طريق الاتصال والتقليد والمحاكاة وتوفر القدرة العقلية في الإنسان أيا كان ، وحينما يعنى كل هذا بإسعاد على التغلب على هذه العقبة . كما يعين على التغلب على العقبات النفسية المرتبطة بكل ما سبق ينشر الحقائق العلمية عن الإنسان والشعوب . وكذلك برؤية الأمثلة العلمية لتجارب الشعوب التي كانت من قبل متأخرة مما يشجع على قيام هذا التطور والإسراع به .

وهناك حواجز اصطلاحية تفرضها الجماعة . كالترقية الجمركية والكرتنا وحظر الاستيراد والقيود على تبادل النقد ، وتثبيت الأسعار والمنح والإعانات ومساندة الحكومة للكار تلات المختلفة . . . الخ . من الامتيازات التي تحجب المنتج المحلي ضد المنتج الأجنبي ، أو منتجاً أجنبياً ضد منتج أجنبي آخر ، أو في بعض الحالات منتجاً أجنبياً ضد إمكانات الإنتاج المحلي . إلا أننا نلاحظ أن هذه الحواجز المفروضة إصطناعياً لوقف أو لتعطيل التطور في ناحية أو لابقاء الوضع الذي لا يقوم على أساس إقتصادي سليم راسخ في ناحية أخرى . هذه الحواجز وإن طال بها الزمن في بعض الأحيان ، إلا أن مآلها إلى الانتحار لأنها تمنع صالحاً أو تسبب ضرراً للجماعة في عموماً في المدى الطويل (١٠٤) .

ويمكن أن نشير هنا إلى أن تعديل الأوضاع والهياكل الاجتماعية بما يتوافق مع التغيرات المادية والفنية ويحقق أحسن نتائج ممكن للجماعة من تفاعل نظمها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية مع ظروفها وإمكاناتها الطبيعية والفنية هذا التعديل يكون بينه وبين الظروف والتجسيدات الفنية والجغرافية التي تقتضيه هوة أو فترة زمنية . ويرى و . ف . أوجبرن (١٠٥) أن هذا التلكؤ في التغير الاجتماعي *Guldral lag* يرجع إلى نوعين من القوى . الأول : ما تبدي الفئات صاحبة المصلحة من مقاومة ضد تغيير الوضع القائم

(١٠٤) يمكن الرجوع في ذلك إلى المراجع السابقة المختلفة في العلاقات الاقتصادية الدولية والجغرافية الاقتصادية ، وعلى سبيل المثال انظر :

Smith and Phillips- *op. cit.*, 734-36. Renner and Associates *op. cit.*, Chapter 39, "Man-Made Factors and Controls in Trade", 785-84.

Ogburn, W.F., *Social Change with Respect to Culture and Original* (١٠٥)
Nature, 166-86, 200-18, 268-65.

الذى يميزها كثيراً عن غيرها من التثاق . والثاني : تردد الجماعات البشرية في تغيير ما تعودوا عليه . وواضح أن أصحاب المصالح يحاولون في مقاومتهم استخدام العامل الثاني لتعطيل ، فضلاً عن أنهم بما أوتوا من قوة اقتصادية ضخمة يمكنهم في كثير من الحالات أن يحكموا اقتصاديا وسياسيا واجتماعياً بما يروق انطور حتى ولو كان في هذا التطور مصلحة الجماعة ككل .

ولا بد لنا من أن نعترف بأن هذه اتقوات الرجعية من أصحاب المصالح الخاصة التي قد تعارض مع اتجاه التطور الذي يحقق مصلحة الجماعة ككل ، هذه اتقوات سوف تكون ذات أثر فعال جداً في تعويق هذا التطور إلا أن التاريخ يحدثنا بأن هذه المحاولات لتعويق التطور تبوء عادة بالفشل وبرغم الذبذبات والانكسارات ، فإن الاتجاه العام General Trend إذا أخذنا المدى الطويل في الاعتبار يمتد حيث يحقق صالحاً أكبر للجماعة . وأقصى ما يمكن أن نحققه هذه القوت الرجعية هو أن تكون عوامل تعطيل لا أكثر . فالهوة الزمنية هوة حقيقية ، ولكنها هوة بين قوتين مترابطتين ومتحركتين وتسير حركتهما في اتجاه واحد . ولا شك أن الاتجاه العام في العالم يسير نحو زيادة رقعة القاعدة الشعبية للحكومات في الدول المختلفة والتدخل في القطاع الحرفي للاقتصادات القومية المختلفة ، بل والاتجاه في كثير من الحالات نحو التشريك ونحو التأميم ونحو التخطيط الاقتصادي الذي يضيّق من هذه الهوة الزمنية ويسرع بالتخصّص الأدنى والأحد والقائم على أساس اقتصادي سليم تتحقق به مصلحة الجماعة عامة ومصلحة البشرية بوجه أهم (١٠٦) .

ويلاحظ أن عمليات التخصّص التي تحدثنا عنها من قبل ليست فقط تزيد من إنتاجية الأفراد والجماعات ، وبالتالي تزيد من متوسط نصيب الفرد من الناتج الجماعي ، بل أن التخصّص يخلق اختلافات في المنتجات التي تنتجها الجماعات المختلفة . هذا فضلاً عن أنه في الصناعة الحديثة والمعقدة يدخل في صنع المنتجات المختلفة عدد كبير من المواد المختلفة . هذه الاختلافات في السلع المنتجة مع وجود فوائض أكبر منها وحاجة أكبر لفوائض الجماعات البشرية الأخرى ، سواء بالتخصّص في سلع أخرى أو بسبب الحاجات إلى العدد الكبير من المواد التي تدخل في منتجات جماعة بشرية ما . كل هذا يؤدي إلى زيادة التجارة

See for example the league of Nations *Industrialisation and Foreign Trade*, and Staley, Eufene, *World Economic Development*.

العالمية وزيادة كبيرة. وقد أدى التخصص الإقليمي والاتاج الكبير فضلاً إلى هذه الزيادة (١٠٧)

"Regional specialization and mass production have already compelled an enormous extension of commerce" (١٠٨)

ولا شك أن التنمية الاقتصادية في الدول المختلفة إقتصادياً لن يكون من نتائجها أن تقل التجارة بين هذه الدول والدول الأخرى ، بل إنها في عموها تستند فضلاً عن قيامها على أساس وتليد بزيادة التخصص الإقليمي إلى أقصاه (١٠٩).

"Anything like a complete geographical division of labor world... additional commerce on a scale at present undreamt of" (١١٠)

ويزيد من أهمية هذا العامل ، وهو عامل اختلاف الزواضع على جانبي القناة وتباين هذا الاختلاف على أسس متينة ثابتة أن القناة تقع عند النقطة التي يكون فيها الاختلاف في الظروف الطبيعية بارزاً . فالقناة تقع عند نقطة الانتقال بين المناطق المعتدلة والباردة من ناحية وبين المناطق الحارة من ناحية أخرى ورغم أن اتجاه البحر الأحمر من الشمال إلى الجنوب يميل قليلاً نحو الشرق ، إلا أن هذا الميل قليل وامتداده طويل ، وهذا يجعل الاختلافات المناخية وما يترتب عليها من آثار وما ينجم عن كل ذلك من اختلافات بارزة في الانتاج ، اختلافات أبرز وذات أهمية أكبر لتنوع الانتاج وضخامته مع اختلافه مما يؤدي إلى تبادل أنواع كثيرة من المنتجات وبكميات ضخمة . ولو أن القناة في موقع غير موقعها على الطريق البحري لكانت درجة امتيازها أقل (١١١) .

Renner and Associates, *op. cit.*, 667.

(١٠٧)

وهذا رغم الغنات المضمنة التي تدفق زيادة كمية التجارة بين الدول وتباينها على أساس اقتصادي متين من التخصص ينشئ على التميز في الموارد الطبيعية وهو منحه طبيعية فضلاً عن أنه اختلاف أثبت .

Smith and Phillips, *op. cit.*, 786.

Renner and Associates, *op. cit.*, 667.

(١٠٨)

League of Nations, *op. cit.*, Staley, *op. cit.*

(١٠٩)

Renner and Associates, *op. cit.*, 667.

(١١٠)

(١١١) يبرز الاختلاف أيضاً وبدرجة كبيرة بين أوروبا الغربية ذات سوق القبول في العالم والمستوردة الكبرى لهذه المادة والتي تمتد فيما يحصل عليها منها بقدر أساسي على منطقة الخليج العربي وتتزايد اعتمادها . وبين المنطقة الأخيرة التي تنج الآلة وتصدره بكميات وفيرة وتعتبر أكبر مصدر له في العالم وتتزايد أهميتها كمطقة معدرة وكصدره تمتد عليها أوروبا الغربية بصورة متزايدة . وبزيد من أهمية هذه النقطة قرب المصنعة المنجريد من القناة بحيث تكون درجة الوفرة في المرافقة باستعمل طريق السويس كبيرة مما يجعل مركز القناة لنفس بالنسبة لطريق الرأس مثلاً بمحصول نقل هذه المادة مركزاً قوياً .

ولا شك أن توسط القناة على طريق السويس وتنوع المنتجات وتنوع الاسس التي يقوم عليها اختلاف الانتاج على جانبي القناة وفي كل من جانبيها فضلا عن كون القناة حلقة من طريق مائى مستر يشمل بحاله التجارى معظم أجزاء العالم ، وهى حلقة تقع فى نقطة تبرز حوالها الاختلافات فى الظروف الطبيعية وفى الانتاج .

كل هذه عوامل مضافة إلى ما يستخلص من المناقشات السابقة ، تؤدي إلى الانتهاء إلى أن التجارة التي تمر بقناة السويس تقوم على أسس وطيدة وأن ما يحدث من تطور فى العالم يقلب أن يزيد أهميتها التجارة ولا ينقصها .

BIBLIOGRAPHY — المراجع

1. Bryan, Leslie Aults, *Principles of Water Transportation*, New York: The Ronald Press Company, 1939.
2. Capot-Rey, *Géographie de la circulation sur les continents*, Paris, 1946.
3. Compagnie Universelle du Canal Maritime de Suez, *Le canal de Suez*; bulletin mensuel.
4., *Recue du trafic*, supplément au bulletin *Le Canal de Suez*.
5., *Les navires-citernes au Canal de Suez*, supplément au bulletin *Le Canal de Suez*.
6., *Note sur le 5ème programme des travaux d'amélioration du Canal*, supplément au bulletin *Le Canal de Suez*.
7., *Le Canal de Suez: documents statistiques 1950*.
8., *8ème programme d'amélioration*.
9. *Commercial No. 8 (1888), Suez Canal: Returns of Shipping and Tonnage*, (a British Parliamentary Paper).
10. Fitzgerald, Percy, *The great Canal at Suez: Its political, Engineering, and Financial History, with an Account of the Struggles of its projector Ferdinand de Lesseps*, 2 Volumes, London: Tinsley Bros., 1876.
11. Hallberg, Charles W., *The Suez Canal: Its History and Diplomatic Importance*, (Doctoral Dissertation, Columbia University, New York) Published by Columbia University Press, New York, 1931, in *Studies in History, Economics and Public Law*, edited by the Faculty of Political Science Columbia University.
12. Hoskins, Halford Lancaster, *British Routes to India*, Doctoral Dissertation, University of Pennsylvania, 1928.
13. Issa, Hassan Hussein, *Les courants économiques comparés du Canal de Suez et du Canal de Panama*, (Thèse No. 55), Genève, Imprimerie du Journal de Genève, 1938.
14. Jones, Clarence Fielden, and Darkenwald, Gordon Gerald, *Economic Geography*, (Revised edition), New York: The Macmillan Company, 1954.

* مراجع مأخوذة من مراجع أخرى .

15. League of Nations, *Industrialization and Foreign Trade* Princeton, N. J. (U.S.A.), 1945

16. Lesseps Ferdinand de, *Inquiry into the Opinions of the Commercial Classes of Great Britain on the Suez Ship Canal* London: John Weale, 1857.

17., *Lettres, journal et documents pour servir à l'histoire du Canal de Suez*, Paris: Librairie Académique, Didier et Cie, Libraires-Editeurs 1875-1881.

18. Lyper, A.H. "The Ottoman Turks and the Routes of Oriental Trade", *The English Historical Review*, volume 30, No CXX, October 1915, 577-88.

19. Moodie, A.E., *Geography behind Politics*, London Hutchinson's University Library: Geography (Editors: S.W. Wooldridge and W.G. East), 1947.

20. Hoesbaum, Ret J., et Hutchings, G., *Compagnie Universelle du Canal de Suez*, Collection Economie du Monde, sous la direction de Christian Funck-Brentano, Editions de Clermont, Paris, 1947.

21. Ogburn, William Fielding, *Social Change with Respect to Culture and Original Nature*, New York: Viking Press, 1950, New edition with supplementary chapter.

22. P. & O. *Pocket Book* (3rd issue).

23. Renner, George T., *Human Geography in the Air Age*, (Air Age Education Series, prepared with the cooperation of the Civil Aeronautics Administration, sponsored by the Institute of Aeronautical Sciences), New York: The Macmillan Company, 1942.

24. Renn, George T. and Associates, *World Economic Geography; an Introduction to Geonomics*, New York: Thomas Y. Crowell Company, 1951.

25. Sakr, Ibrahim, *Comer Circa 1890: A Study in British Imperialism in Egypt*, *Review of Economics and Business Studies*, No. 1, Third year, February 1955, 25-61, Cairo University Press, 1955.

26., "The Geography of the Suez Canal", a Doctoral Dissertation presented to Columbia University, New-York City. 1954.

27. Siegfried, André, *Suez and Panama*, Translated from the French by H. H. and Doris Hemming, New-York: Harcourt Brace and Company, 1940.

28. Smith, J. Russell and Phillips, M. Ogden, *Industrial and Commercial Geography*, New York: Henry Holt and Company, 1916 (3rd edition).

29. Staley, Eugene, *World Economic Development Effects on Advanced Industrial Countries*, International Labour Office, No. 36, Studies and Reports, Series B (Economic Conditions), Montreal, 1944.

30. Voisin, François Philippe, bey, *Le Canal de Suez*, 6 volumes, Paris : H. Dunod et E. Pinat et H. Dound, 1901-1906.

31. Wilson, Lieut.-Col Sir Arnold T., *The Suez Canal. Its Past, Present and Future*, London, New York, Toronto : Oxford University Press, 1933, (2nd edition).

٣٢ — شركة قناة السويس : قناة السويس ، مذكرات واحكامات ١٩٥٠

٣٣ — فؤاد فرج : مطقة قنال السويس ومدن القنال ، بورسعيد ، السويس ، الانجاءيلية
وسواها ، المجلد الثاني من سلسلة المدن المصرية ، القاهرة (دار المعارف المصرية) .

٣٤ — محمد عوض محمد : نهر النيل (القاهرة — لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٨
الطبعة الثانية) .

تطور صناعة الورق في مصر

للدكتور خليل صابات

بينما كانت شعوب أوروبا البدائية تحفر كتاباتها على عظام حيوان الرنة أو الماموث ، كان المصريون يكتبون صلواتهم وتعاليمهم على أوراق يأخذونها من البردى . . ذلك النبات المقدس الذي كان ينمو على ضفاف النيل . وكانوا ينزعون اللحاء ويضعونها الواحدة بجانب الأخرى ثم يلصقون أطرافها بعضها ببعض بواسطة الدعك أو الضغط .

ظل المصريون الأقدمون يحتكرون هذه الصناعة مدة طويلة الى أن اكتشف الانسان طرقا أخرى قضت على هذا الاحتكار . فقد استعمل أهل بروجاموس بآسيا الصغرى في القرن الثاني قبل الميلاد ، جلود الأغنام والماعز والعجول لصنع « البارشمان » Charta pergamina . وقد حل هذا الاختراع الجديد محل البردى المصري الذي منع البطالسة تصديره حين بدأوا يكونون مكتبهم بالاسكندرية . ثم علم أهل الصين الناس صناعة الورق بواسطة الطبخ . وجاء العرب في القرن التاسع للميلاد فاستعملوا القطن في هذه الصناعة (١) . وهكذا نرى أن المصريين كانوا أول شعب صنع الورق واستعمله في الكتابة .

وأول مصنع حديث أسس لانتاج الورق في مصر كان في عهد الحملة الفرنسية ، فقد أمر بوناپرت بإنشائه لتزويد مطابع الحملة بما كانت في حاجة اليه من ورق . وقد طبع الكوريه اچيسان ولاديكاد وغيرها من مطبوعات الحملة على ورق صنع بمصر من مواد أولية محلية (٢) .

J. H. Cattani pacha; Note sur la fabrication du papier en Egypte, (١)
L'Egypte Contemporaine, VIII^e année, 1917, p. 261

Brehier; L'Egypte de 1798—1900, p. 65. (٢)

جورجى زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، الجزء الرابع ، ص ١١

ولما خرجت الحملة الفرنسية من مصر أخذت معها كل شيء ، فظلي وادي النيل بدون مصنع للورق حوالى الثلاثين سنة . وكانت مصر تستورد ورق البرويار Brouillard من فرنسا (٣) ، وكانت تستورد الورق أيضا من البندقية . أما الورق ذو الأقطار الثلاثة فكان يصدر من توسكانيا وجنوه (٤) . ولم نعر في وثائق عابدين ودار المحفوظات المصرية على ما يدل على وجود مصنع للورق الى سنة ١٨٣٠ ولو أن السائحين الفرنسيين كادلفين وبروثرى يذكran في الجزء الأول من كتابهما عن مصر والنوبة ما يفيد أنه كانت هناك محاولة لصنع الورق في مصر أخفقت وصرف عنها النظر مؤقتا . وقد زار هذان السائحان أرض الفراعنة خلال سنة ١٨٣٠ واطافا بكل أرجائها ولم يتركا لا صغيرة ولا كبيرة دون أن يذكرهما في كتابهما (٥) . ولا يذكر منجان في كتابه شيئا عن صناعة الورق في الفصل الذى يتحدث فيه عن تلك الصناعة في مصر سنة ١٨٢٩ (٦) . كذلك لا يقول كلمة عن تلك الصناعة في الجزء الثانى من كتابه عن تاريخ مصر في عهد محمد على الى سنة ١٨٢٣ فقد خصص بابا للصناعة وثلاثة المصانع (٧) .

ويذكر لنا الأمير عمر طوسون أن محمدا عليا أمر بإرسال يوسف المادى الى فرنسا لتعلم العلوم الكيميائية والتدرب على صناعة الورق في أحد مصانعها بفرنسا . وقد عاد الى مصر في أوائل سنة ١٨٣٢ (٨) . ولكن يبدو أن الوالى لم يكن راضيا عن إنتاج الورق في مصر ، ويذكر لنا هامون الذى كان مديرا لمدرسة الطب البيطرى أنه عندما عاد أعضاء البعثة الطبية من فرنسا ذهبوا لتقديم فروض الطاعة والخضوع للباشا وتقبل الأرض بين يديه كما كان متبعا في ذلك العهد . وأخذ الباشا يسألهم عما تعلموه في فرنسا الى أن وصل الى العضو الذى

F. Mengin: Histoire de l'Egypte, T. II, p. 406, Paris 1823. (٣)

F. Mengin; op. cit., p. 414. (٤)

Ed. de Cadalvène et J. de Breuvery: L'Egypte et la Nubie T. I, (٥)
Paris 1841. p. 181.

F. Mengin: Histoire Sommaire de L'Egypte. p. 21 et 22, Paris 1838. (٦)

F. Mengin: Hist. de l'Egypte sous le gouvernement de Mohammed-Ali (٧)

T. II, p. 375-383, Paris 1828.

(٨) الأمير عمر طوسون ، البعثات العلمية في عهد محمد على ... ص ٢٣

تعلم صناعة الورق ، فقال له « وما فائدة ذلك ونحن نستورده (أى نستورد الورق) جاهزا » (٩) الا أن عدم ثقة محمد على في انتاج الورق بمصر - ثم يمنعه من انصريح لاحدى الشركات بتشيد مصنع لهذا الغرض - ففى يوم اذحد ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٤٦ هـ الموافق ٢٢ مايو سنة ١٨٣١ أصدر محمد على الأمر التالى : « صرحنا الى حامله ومن معه من الشركاء بحرق الطوب وانجير اللازمة لفابريقة الورق المزمع انشاؤها وايجادها بمعرفتهم وبعدم التعرض اليهم فى ذلك » (١٠) . ولكن يبدو أن أعمال البناء لم تسر على ما يرام ، فقد استغرقت حوالى الأربع سنوات بدىء بعدها التفكير فى جلب الآلات وتركيبها ، فقد صدر أمر من محمد على الى خورشيد باشا وكيل الجهادية بتاريخ ٦ صفر سنة ١٢٥٠ هـ (يولية سنة ١٨٣٤ م) « بأنه علم مما تقرر من حكاكيان مهندس فابريقة الورق التى صار انشاؤها حديثا أنه يلزم لعمل المهمات والآلات التى تلزم للفابريقة هنا مدة مستطيلة نحو السنة ، وعليه يشير بأنه ان أمكن عمل ذلك فى عهد قريب فيها والا يتحرر كشف بيان ما يلزم بمعرفة المهندس المذكور وتقديمه لطرفه لمداركهما من ايطاليا كما سبق استحضارها منها » (١١) . ويستفاد من هذا الأمر أن يوسف حكاكيان أفندى عضو بعثة محمد على الى فرنسا هو الذى قام بالاشراف على انشاء هذا المصنع وأنه اقترح على والى أن تصنع آلاته فى مصر ويقيد بأن صنعها سوف يستغرق حوالى السنة . غير أن محمدا عليا يستكثر هذه المدة ويطلب إلى المهندس اختصارها أو تحرير بيان بمعدات ذلك المصنع لشرائها من ايطاليا . وسواء جلبت الآلات من الخارج أو صنعت فى مصر فقد بدأ المصنع اتساجه فى حوالى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ هـ الموافق ١٨ سبتمبر سنة ١٨٣٤ . وكان يستخدم فى صناعة الورق الملابس البالية . وقد صدر أمر من محمد على الى ناظر الجهادية فى ١٤ جمادى الأولى سنة ١٢٥٠ هـ يفيد بأن مصنع الورق (الكاغدخانة) بدأ اتساجه « وأن هذا الصنف يشتغلونه من الملابس الكهنة وما يشابهها فيشير بالتحرير من الجهادية

P. N. Hamont; L'Egypte sous Méhémet Ali, T. II, p. 193, Paris 1843(٩)

(١٠) بيور لدى من محمد على باشا فى ١٠ ذى الحجة سنة ١٢٤٦ ، كراسات مختصات الأوامر ، كراس ١٤ ، صفحة ٢٧٢ ، حجرة المدير ، دار المحفوظات المصرية .
(١١) أمين سامى باشا ، تقويم النيل ، الجزء الثانى ، ص ٤٢٢ ، مطبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٢٨

إلى سائر الآليات والأورط بإرسال الملابس المرتجعة إلى ديوان الجهادية
أولا بأول وبورودها ترسل إلى فابريكة الورق أولى من بيعها أو اتلافها بالبقاء
فضلا عما في ذلك من الفائدة في كثرة تشغيل الورق » (١٢) .

وكان المصنع في أول عهده بمصر القديمة تشير إلى ذلك الوثيقة التي
ترجمها ونشرها لنا أمين سامي باشا . فقد صدر أمر من الوالي في غرة شعبان
سنة ١٢٥٠ هـ إلى خير الله أفندي فاطر الفابريكات « بتحرير كشف بيان محال
البصمخانة والورق ومعمل الكيمياء بمصر القديمة التي تحت إدارته مع إيضاح
العملة والاجزائية ورجال المعمل الكيماوى وماهياتهم وكيفية تشغيلها وإرساله
لدرجه في (تاريخ روضة المروان) » (١٣) .

ولم يكن يوسف حكاكيان أفندي متفرغا لمصنع الورق كل التفرغ بل كان
يقوم بكل الأعمال الهندسية التي كان يكلفه بها الباشا يشهد على ذلك الخطاب
الذي أرسله ارتين باشكرى إلى عباس باشا في ١٣ ربيع الثاني سنة ١٢٥١ هـ .
والذى جاء فيه « أحطت علما بالأمر العالى الذى تهضمت به ، وقبل يومين جاء
الرسم الذى أرسله ليتان أفندى وما يلزم ترجمته وأرسلته لسليمان أفندى
ليتولى إرساله إلى دولتكم واليوم جاء رسم أيضا من حكاكيان أفندى قبلدري
لتقديمه ولم يكن التأخير منى وانما نشأ من وجود ليتان أفندى في القناطر الحربية
وحكاكيان أفندى في معمل الورق ، فأرجو المغفرة » (١٤) .

والظاهر أن الباشا لم يكن راضيا كل الرضى عن نوع الورق وكميته بل كان
رغبته الملحة في اصلاحه والنهوض به حتى يأتي إنتاجه نظيفا وفيرا . ففى
شوال سنة ١٢٥١ هـ الموافق ٣ فبراير سنة ١٨٣٦ م التأم عقد مجلس الملكية
على أمر الباشا لبحث حالة ذلك المصنع ويقرر في شأنه ما يحسن حاله . ولما
جاء في خلاصة تلك الجلسة ما يلى : « عليا اقتضت الادارة الخديوية في إعطاء
رابطة لتشغيل الورق وأنه صايره المداولة بالمجلس في تحصيل الأسباب الواجبة
لتحسين تشغيله وحصل التعهد من الخواجه چاكى كيميائى البصمخانة بالتشغيل

(١٢) أمين سامي باشا ، المصدر السابق ، ص ٢٢٦

(١٣) أمين سامي باشا المصدر السابق ، ص ٢٢٩

(١٤) الأمير محمد على : مجموعة خطابات وأوامر خاصة بالمغفور له عباس باشا

الأول ، ص ٣١

وطلب قزاقات وبراميل ومكبس مياه لأجل تطيخ قطع الخرق الكهنة وتمهد معه يوسف العيادى المصرى الذى تعلم تلك الصناعة ببلاد أوروبا بأن يكون معاون معه . وقد أعطى صورة الى توريد قطع الخرق الكهنة الى الكاغدخانة «١٥» (١٥) ويرسل الديوان الخديوى الى مفتش الأقاليم البحرية خطابا فى ٢٣ شوال سنة ١٢٥١ يطلب اليه فيه « تنفيذ قرار مجلس الملكية رقم ٢٨١ الصادر يوم ١٥ شوال سنة ١٢٥١ القاضى باتباع التعليمات (المدونة فى الأصل) لانتاج ورق أبيض ناضج فى مصنع الورق . وحالة المصنع على الخواجه جاكى كيماوى مصنع الشيت بمناسبة رفت الخواجه مارتينى الخير فى صنع الورق والمعمل على جمع الأوراق المهملة من الدواوين والمصالح وبقايا الخيط والخرق من المصانع وصنعها أوراقا جيدا وعلى العموم العمل على ما فيه ترقية هذه الصناعة » (١٦) .

لقد اتضح للمجلس اذن أن مدير المصنع السابق الخواجه مارتينى لم يقم بالمهمة التى كلف بها على الوجه المرضى فيأمر برفته وتعيين الخواجه جاكى الكيماوى فى مصنع الشيت مكانه على أن يعاونه فى وظيفته الجديدة يوسف العيادى الذى أرسل فى بعثة للتخصص فى صناعة الورق فى فرنسا . ولكن يبدو لنا أن الاصلاح الذى قرره المجلس لم يكن شاملا . فقد وافق على صنع « القزاقات والبراميل ومكبس المياه » فى مصانع المهمات الحرية . ويمضى عام ونصف العام دون أن تنجز تلك المصانع ما طلب اليها صنعه للكاغدخانة مما يدعو محمدا عليا الى اصدار أمره الى وكيل الجهادية فى ١٤ ربيع الثانى سنة ١٢٥٣ الموافق ١٨ يولييه سنة ١٨٣٧ بالاسراع فى انجاز « آلات الكاغدخانة الجارى تشغيلها . . . حيث جارى الاهتمام فى مسألة الكاغدخانة هذه من مدة ولا كان يتيسر اتمام لوازمها حسب الغرض فينبغى المبادرة فى اتمامها » (١٧) . وعلى أى حال فان ذلك المصنع لم يستطع أن يجعل مصر تستغنى عن استيراد الورق من

(١٥) خلاصة من مجلس ملكية تاريخها ١٥ شوال ١٢٥١ د (٣ فبراير ١٨٣٦ م) نمرة ٨٦ تركى من دفتر مجموع أوامر ولوائح خاصة بمصالح متعددة ، ص ٧ ، مصلحة الكاغدخانة ، دار المحفوظات المصرية .

(١٦) الأمير محمد على ، المصدر السابق ، ص ٥٣

(١٧) أمر من محمد على باشا الى وكيل الجهادية فى ١٤ ربيع آخر سنة ١٢٥٣ دفتر نمرة ٢٩٤ من دفاتر الأوامر التركية . محفوظات عابدين .

الخارج ، فقد بلغ ثمن ما اشترته من ذلك الصنف مليون فرنك خلال عام ١٨٣٦ (١٨) ، وكان تجار الورق في ذلك العهد في سوق الأشرية (١٩) • ولا يهمل بورنيج في تقريره الذي رفعه الى الحكومة البريطانية في مارس سنة ١٨٣٩ عن مصر وكريت ، صناعة الورق وصب الحروف والطباعة ، ولكنه لا يقف عندها طويلا ، وكان أحد الصناع الانجليز قد كتب عنها في تقريره الذي وضعه في ٢٥ ديسمبر سنة ١٨٣٧ (٢٠) • وعلى الرغم من اهتمام محمد علي بهذه الصناعة فقد ظلت في مؤخرة الصناعات المصرية ذلك لأنها لم تكن شديدة الارتباط بالصناعات الحرية • ومما يؤيد رأينا أن الأمير عمر طوسون لم يذكر كلمة واحدة عن صناعة الورق في مصر في كتابه « الصنائع والمدارس الحربية في عهد محمد علي باشا » •

ظل مصنع الورق أو الكاغدخانة على ما هو عليه الى أن أمر محمد علي وزير تجارته وشؤونه الخارجية أرلين بك أن يتصل باخوان « لاستري » Lestré ليقوموا بتدريب أحد المصريين واسمه حسن محمد ، على طريقة صنع الورق الجديدة في مصانع قرني وأولاده Verny et file بفرنسا • وقد جاز حسن محمد هذا مدة التدريب على أحسن وجه ، وعاد الى مصر مزودا من رؤسائه بخطابات تشهد له بالبراعة في صنع الورق (٢١) •

وكان من رأى حسن محمد أن يبادر إنشاء مصنع الورق على الطريقة الحديثة المتبعة في فرنسا والتي تقضى بشراء آلات تقوم بإنتاج الورق فتحل محل المراحل القديمة التي تنتج ورقا من نوع رديء جدا (٢٢) • ولو أننا لم نعثر ضمن الوثائق على مايفيد تاريخ ارسال هذا المبعوث المصري الى فرنسا ، الا أننا نرجح

(١٨) كلوت بك ، لحة عامة الى مصر ، ترجمة محمد مسعود ، الجزء الثاني ، ص ٤٩٨ بدون تاريخ •

(١٩) كلوت بك ، المصدر السابق ، الجزء الاول ، ص ٢٢٧

(٢٠) محمد قواد شكرى وعبد المقصود العناني وسيد محمد خليل ، بناء

دولة مصر محمد علي ص ٧٤٦

(٢١) محفوظات عابدين ، اوراق مصنع الورق ، بدون تاريخ ، خطاب من

اخوان لاستري الى أرلين بك ١٨٣٩ ، مترجم عن الفرنسية •

(٢٢) محفوظات عابدين ، المصدر السابق ، بدون تاريخ •

أنه ترك مصر في سنة ١٨٤٣ وظل في مارسيليا الى أغسطس سنة ١٨٤٥ (٣١) .
 ويتمكن حسن محمد جال وصوله الى الوطن من اقتاع أولى الأمر بوجهة نظره
 فيسرع أرتين بك بالكتابة الى أسطفان أفندى بباريس ليطلب اليه البحث عن
 آلات لصنع الورق (٣٢) . وفي العشرين من شهر نوفمبر سنة ١٨٤٥ يرسل
 أسطفان أفندى الى أرتين بك عطائين من شركتين مختلفتين لتوريد آلات مصنع
 الورق . فطلب الشركة الأولى ٥٧٥٨٠ فرنكا بينما تطلب الثانية ٧٤٧٥٠ فرنكا .
 وقد رسا العطاء على شركة ووال ميدلتون والول Warral, Middleton and Elwell
 وقد تم ارسال الآلات اللازمة لصنع الورق من باريس في ١١ أغسطس سنة
 ١٨٤٧ وقام بتركيبها مهندس انجليزي أرسلته الشركة خصيصا لهذا الغرض (٣٣) .
 والظاهر أن هذه الآلات لم تشحن الى مصر دفعة واحدة ، بدليل أن الوقائع
 المصرية في عددها الصادر في ٢٥ يولية سنة ١٨٤٧ نشرت الخبر التالي : « لما
 كانت مصر المحروسة لا تزال تزداد في الازدهار والجمالة والحسن والبهاء في
 أيام ولي النعم ذات الخير الأعم بما أنشئ فيها من القابركات العديدة والأماكن
 المزخرفة المشيدة وكانت آخذة في اللطافة والحاسن والطرافة بما هو متزايد
 فيها من الكمالات المرعية والمحسنات البديمة ، حصل أن فبرقة الورق الكائنة
 خارج باب الحسينية في مصر المحروسة السنية التي تركت أشغالها منذ مدة ،
 بسبب ادارتها بالدواب والمواشي المعدلة وعدم اجتناء ثرات شغلها المأمول ،
 جلب لها من بلاد أوروبا ما لزم من الآلات التي توافق ما استجد من الأصول ،
 بحيث يمكن أن يصنع فيها الورق المرغوب على حسب القياس المطلوب وأحضر
 سائر الأدوات اللازمة لذلك مع الأستاذ الماهر فيما هنالك ، وقد صنعت آلات
 الوابور اللازم لادارة العمل المذكور في الورشة الكائنة بيولاقي المخصصة
 للعمليات ، وقد حصل تركيب تلك الآلات والأدوات (٣٤) . يستفاد مما نشرته

(٢٣) محفوظات عابدين ، خطاب من اخوان لاستري الى أرتين بك في
 ٢ أغسطس سنة ١٨٤٥

(٢٤) المصدر السابق ، خطاب من اسطفان أفندى الى أرتين بك في ٧ نوفمبر
 سنة ١٨٤٥

(٢٥) محفوظات عابدين ، المصدر السابق ، خطاب من اسطفان أفندى الى
 أرتين بك في ٢٠ أغسطس سنة ١٨٤٧

(٢٦) الوقائع المصرية ، نمرة ٧٥ ، في يوم الاثنين ثالث عشر شعبان سنة ١٢٦٣

صحيفة الوقائع أن مصنع الورق الكائن بمصر القديمة قد بطل العمل فيه وشيد بدلا منه مصنع آخر خارج باب الحسينية . وقد استبدلت الدواب والمواشى التى كانت تقوم بإدارة الآلات بحرك يدور بالبخر . وطبعى أن يظل العمل فترة من الزمن فى مصنع الورق وأن تمتد تلك الفترة الى سنة ١٨٤٧ كما هو واضح من الخبر الذى أوردته الوقائع المصرية .

ولكن يبدو أن اعداد المصنع لم يتم فى تلك السنة . فقد نشرت الوقائع فى عددها الصادر فى ٢٤ رجب سنة ١٢٦٤ ما يلى « لا قد ضوعف مقدار العملة الموجودين فى الكاغذخانة الجارى انشاؤها خارج الحسينية بمصر المحروسة وحصلت التوصية بجلب الآلات اللازمة لها من أوروبا بقصد اتمامها فى نصف شعبان الآتى » (٣) . وهكذا نرى أن العمل لم يبدأ فى ذلك المصنع الا فى شعبان سنة ١٢٦٤ أى أواخر عهد محمد على .

ومما لا شك فيه أن ذلك المصنع لم يعطل فى أوائل حكم عباس الأول بل ظل ينتج وقتا من الزمن الى أن قرر له التوقف مثله فى ذلك مثل غيره من المؤسسات التى حكم عليها بالاغلاق فى ذلك العهد المظلم من تاريخ مصر . إلا أنه لم نثر على وثيقة رسمية واحدة أو غير رسمية تؤيد ما نقول أو تعين التاريخ الذى بطل فيه إنتاج الورق فى ذلك المصنع .

ولما تولى سعيد الحكم قرر اعطاء المصنع تعهدا لعبد الرحيم القناوى وصناعته خباز بالقاهرة . ففى ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢ هـ الموافق ١٧ أبريل سنة ١٨٥٦ م ، صدر أمر من والى الى محافظة مصر باعطاء الخباز المذكور مصلحة الكاغذخانة « التى دارت مدة على ذمة الميرى ثم بطلت » عهدة له ، على أن يدفع سنويا ثلاثمائة فرنكا و ١٠٪ من مجموع ما ينتجه المصنع . وقد حددت مدة المتعهد بسبع سنين (٣٨) .

(٢٧) الوقائع المصرية ، نمرة ١٢٠ فى يوم الاثنين المبارك ٢٤ رجب القمر سنة ١٢٦٤

(٢٨) أمر من سعيد باشا الى محافظة مصر فى ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢ نمرة ١٠٦ . دفتر مجموعة أوامر ولوائح خاصة بمصانع متعددة ، ص ٧ و ٨ . مصلحة الكاغذخانة . دار المحفوظات المصرية .

غير أن الشروط التي وضعها سعيد في أمره المذكور قامت المحافظة بتعديلها وصدر بها أمر آخر في ٢٤ يولييه سنة ١٨٥٦ . فقد صارت مدة التعاقد ثلاث عشرة سنة . وكانت آلات المصنع قد فكت ووضعت في مخازن الميرى فأخذ المتعهد على عاتقه مهمة نقلها وإعادة تركيبها . وبخول البند السادس من العقد الذي أبرم مع المتعهد ، للحكومة حق الخيار « من بعد سنتين تمضى بين إبقاء الورشة بعهدته إذا حصلت الثمرة أو نزعها من يده إذا لم تحصل ثمرة - ويدفع الايجار عنده استولاه عليها وهو أيضا مخير في تركها إذا لم يحصل له نجاح في إدارتها » (٣٦) .

واستمر العمل بالكاغذخانة مدة السنتين اللتين نص عليهما العقد . فقد صدر أمر من سعيد باشا الى الداخلية في ٢٣ ذى القعدة سنة ١٢٧٤ هـ الموافق ٤ يولية سنة ١٨٥٨ بشراء ما يلزم الحكومة من مصنع الورق الذي يديره القناوى (٣٧) .

ولم نثر بعد ذلك على أية وثيقة تتصل بالكاغذخانة في عهد سعيد ولو أننا نرجح أن المتعهد ترك المصنع قبل نهاية مدة العقد بفترة طويلة ، فالعقد ينتهى قانونا في سنة ١٨٦٩ وشارل آدمون يذكر لنا في كتابه الذى نشره يباريس سنة ١٨٦٧ أن المنافسة الأوروبية أضرت ببعض الصناعات التى أنشئت ارتجالا في مصر . فقد هبط عدد المغازل في القاهرة وأغلق مصنع للورق وآخر للزجاج . أما عن مصنع الورق فهناك أمل كبير في إعادة انشائه ذلك أن في مصر كميات كبيرة جدا من الخرق البالية تصدرها الآن الى الخارج في حين أنه بالامكان استغلالها محليا في صناعة الورق (٣٨) .

والى حسين حسنى بك ناظر مطبعة بولاق يعود الفضل في التفكير با إنشاء مصنع جديد للورق في عهد اسماعيل . فقد عثرنا بين محفوظات عابدين على

(٢٩) أمر من سعيد باشا الى محافظة مصر في ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٧٢ نمرة ١٤٩ ، دفتر مجموعة أوامر ولوائح خاصة بمصالح متعددة . دار المحفوظات بالقاهرة .

(٣٠) أمر من سعيد باشا الى الداخلية في ٢٢ ذى القعدة سنة ١٢٧٤ نمرة ١٣٧ دفتر مجموعة أوامر ولوائح خاصة بمصالح متعددة ، ص ٧ . دار المحفوظات بالقاهرة .

Ch. Edmond; L'Égypte à L'exposition universelle, p. 250; Paris 1867 (٣١)

أمر صادر من الجنب العالي الى المفتش العام للاقليم في ٢ ربيع آخر سنة ١٢٨٤ (١٨٦٧ م) هذا نصه : « عندما جاءني صاحب العزة حسين بك ناظر المطبعة عرض على أنه عندما كان في إنجلترا فضلا عن كونه لم يكن يتأخر عن تدير واشتراء بعض الأشياء التي رأى أنها لازمة وضرورية للمطبعة وعن ارسالها لمصر أولا فأول ، فانه قد شاهد كذلك هناك مصنعا لاتاج الورق . ونظرا لاجتياج مصر بالبدهاء الى مصنع للورق كهذا المصنع فانه قد أخذ من مدير هذا المصنع صورة وصورة للعقد وأتى بها الى مصر وعرضها على دون أن يرتبط بالدين بشيء ارتباطا قطعيا في هذا الخصوص ، وعليه في الواقع فان المصالح الاميرية ودائرتنا ومصانع السكر تستهلك مقدارا كبيرا من الورق في البنية ، وعلاوة على ذلك فانه سيكون له رواج كذلك بداخل البلد ؛ ومن ثم فانه من المسلم به أن لهذا المصنع فوائد كثيرة وحسنات عظيمة ولذلك فأنني قد أمرت البك الموصى اليه أن يأخذ معه حين عودته الى مصر الصورتين المذكورتين وما يتعلق بهما من تعريفات وأن يقدمها لكم ويطلعكم عليها . فبعد اطلاعكم عليها ومراجعتكم اياها بامعان ودقة ، عليكم أن توقعوا على العقد وتعملوا اللازم » (٣) .

فكرة انشاء مصنع للورق فكرة نبئت في ذهن حسين حسنى بك ناظر مطبعة يولاق أثناء وجوده في إنجلترا ، فلما عاد الى مصر عرضها على اسماعيل فوفى عليها وأمر بتنفيذها لتستفيد منها المصالح الاميرية والدائرة السنية ومصانع السكر . ويحدثنا على باشا مبارك عن ذلك المصنع خلال ترجمته لحياة حسين حسنى قائلا : وفي سنة ١٢٨٤ توجه الى لندن ثالثة فأحضر منها فابريقة الورق التي لم يوجد لها مثل وأحكم بناءها بيولاق على شاطئ النيل بجوار المطبعة وأتم آلانها اتقاناً زائدا وتعب في تحسين أوضاعها تحسينا تاما ... حتى جاء منها ورق عجيب الشكل كاد يعطل ورق أوروبا . وكانت جميع مصاريفها وتكاليفها من ثمن آلانها وخلافها من ربح المطبعة » (٣) .

وقد اهتم اسماعيل بهذا اهتماما كبيرا ، فأصدر أمره في غرة جمادى الأولى الى الجهادية يطلب اليها فيه أن تخلق أرضا مساحتها ثلاثة آلاف ياردة من

(٢٢) محفوظات عابدين ، دفتر ٥٥٧ معية تركي ، ترجمة الأمر رقم ٣ مسلسل بتاريخ ٢ ربيع آخر سنة ١٢٨٤
(٢٣) على باشا مبارك ، الخطط التوفيقية ، الجزء الثاني ، ص ١٢١ .

ممتلكات الدائرة السنية الكائنة بيولاقي الى جوار « فابريقة الورق » لكي
تبنى عليها أحواض الترشيح الخاصة بالمصنع المذكور (٣٤) . ويحدد لنا الدكتور
أبو الفتوح أحمد رضوان موضع ذلك المصنع فيقول انه كان على ضفة النيل
بجوار المطبعة . « وكان بينه وبينها عمارة مدرسة القنون قديما التي هي مخازن
البوليس المصري في الوقت الحاضر . وكانت قطعة الأرض التي بنى عليها المصنع
تشغلها فابريقة الجوخ منذ أيام محمد علي ثم بنى مصنع الورق في ديسمبر
سنة ١٨٦٨ مكان هذه الفابريقة بعد أن أهملت ضمن ما أهمل من المصانع . وفي
هذا المكان الآن ما يعرف باسم ورش كوك التي قامت مكان مصنع الورق » (٣٥) .
ويقول توفيق اسكاروس ان اسماعيل باشا أرسل عينات من النباتات
المصرية الى أوروبا لتحليلها ومعرفة ما ان كانت تصلح ليصنع منها الورق . وقد
أثبت الفحص صلاحية بعضها . أما أدوات المصنع وآلاته فقد أشتريت من
محلات أندرسن بلندن . ولما علم تجار الورق في مصر بعزم الخديو على إنشاء
مصنع للورق خضوا اليه يرجونه أن يعطل عن عزمه فأجابهم الى طلبهم وأرسل
برقية الى حسين حسنى يطلب اليه فيها أن يصرف نظرا عن شراء الآلات ، غين
أن الأخير أسرع بإبرام عقد الشراء مع المحل الانجليزي المذكور بعد أن اتفق
معه على تقديم تاريخ العقد الى ما قبل ورود برقية الخديو (٣٦) . وهكذا كتب
لمصر أن ترى مرة ثانية مصنعا كاملا للورق ظل يعمل الى أوائل عهد توفيق .

وبدأ المصنع انتاجه في سنة ١٨٧٠ وكان تابعا للدائرة السنية . أما عدد
عماله فقد وصل الى مائتين وعشرين وكان انتاجه سبعين ألف رزمة من ورق
الطبع وثمانية عشر طنا من ورق اللف الذي كانت تستعمله مصانع السكر (٣٧) .
ويقول لنا ليونجالي ان ذلك المصنع أنشئ من الأرباح التي جنتها الدائرة
السنية من أشغال مطبعة بولاقي (٣٨) .

(٣٤) أمين سامي باشا ، تقويم النيل ، الجزء الثالث ، المجلد الثاني ، ص ٧٨٦

(٣٥) أبو الفتوح أحمد رضوان ، تاريخ مطبعة بولاقي ، ص ٢٠٢

(٣٦) توفيق اسكاروس ، تاريخ الطباعة في وادي النيل ، مجلة الهلال ، السنة

الثانية والعشرون ، مارس ١٩١٤

(٣٧) جورج جندي وچاك تاجر ، اسماعيل كما تصوره الوثائق الرسمية ،

ص ١٧٨

S. Limongelli ; L'arte italiana...p. 21

(٣٨)

وبمناسبة افتتاح ذلك المصنع كتب الشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقي
مقالة بعنوان : « مقالة شكرية للحضرة الاسماعيلية على انشاء دار الوراقة ذات
البهجة والطلاقة » طبع في مطبعة بولاق على ورق وردى اللون . وليس في
المقالة على طولها كلمة واحدة في وصف مصنع الورق هذا يمكن أن يستفيد
منها المؤرخ (٣٩) .

وكتب حسين حسنى بك عن ذلك المصنع يقول : « ... فهذه المصلحة
مستعدة ... لعمل جميع المشارطات في كل نوع من أنواع الورق ما غلظ منها
وما توسط وما دق .. وأما مطلوب الغرب واليمن والحجاز فلم تول مواعيدها
في غاية الانجاز ... وهذه الأنواع المختلفة (من الورق) وان سهل صنعها يلاذ
أوروبا بلا كلفة الا أن الكاغذخانه المصرية لما ساوت الكاغذخانات الأجنبية ...
كانت مواد مصنوعات ما يقتخر بملعاتها » (٤٠) . ويستطرد حسين بك حسنى
قائلا : « ولما كان وجود الورق في هذه الأوطان أمرا ضروريا في كل زمان
اهتم من سلف من ولاية الحكومة وبعض التجار ... بأن ينشئوا بها كاغذخانه
ليصنع بها أنواع من الورق ... فلم يتيسر لهم حسن ادارتها ولا اهتمام
مشغولاتها ، فكانت مصنوعات مبتذلة وبقيت أدواتها ممطلة فحمل بعض الناس
عدم النجاح على أن هواء مصر وماءها خاليان عن الصلاح ومنهم من حملة على
قلة معرفة الصناع وعدم أهليتهم ... ولم تنكشف لكل من الفرقين حقيقة
الحال وخابت منهم الآمال فبقيت الحكومة ... من هذه الصناعة معزومة ...
وكل من الحيلين فاسد ... وذلك أن هواء وطننا ومياهه يساعدان على كل
شئ مع الالتفات والنباهة ، وأهاليه مستعملون غاية الاستعداد لتعلم أى مادة
من المواد موصوفون بأنهم أذكىاء ألبا كما شهد لهم بذلك علماء أوروبا ،
فاستخراج جميع الصنائع في هذا الاقليم من الأمور المسلعة غاية التسليم (٤١) .

(٣٩) الشيخ ابراهيم عبد الغفار الدسوقي ، مقالة شكرية للحضرة الاسماعيلية
على انشاء دار الوراقة ذات البهجة والطلاقة ، بولاق ١٢٨٨

(٤٠) حسين حسنى بك ، نموذج مصنوعات المطبعة الاميرية ، بولاق ، بدون
تاريخ ، ص ٢٧ وما بعدها .

(٤١) حسين حسنى بك ، المصدر السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .

وكان محمد أفندى حسنى وكيلًا للمطبعة والكاغدخانة في الوقت نفسه .
وقد استطاع أن يتقن الأعمال الكيماوية فتمكنت الكاغدخانة بفضلها من
الاستغناء عن أحد المهندسين الأجبيين اللذين أحضرا خضيقا للإشراف على
المصنع . ثم لم يلبث أولو الأمر أن استغنوا عن المهندس الثانى . ولم يض
طويل وقت الا وأصبح العمال المصريون يتقنون تلك الصناعة كل الاتقان (٤٢) .
وقد عملت الكاغدخانة منذ اللحظة الأولى على جعل أسعار ورقها تنقص
من خمسة عشر في المائة الى عشرين في المائة عن أسعار الورق المستورد من
الخارج . وقد أقبل الناس اقبالا شديدا على شراء منتجات ذلك المصنع .
وصدر الورق المصرى الى الحجاز والهند واليمن والى بعض جهات
أوروبا (٤٣) .

وزاد انتاج الكاغدخانة زيادة كبيرة مما دعا أصحاب الشأن الى تقسيم
العمال الى مجموعتين أو فرقتين تشغل نهارا والأخرى ليلا (٤٤) ، وكان ذلك في
سنة ١٥٨٨ قبطية أى ١٨٧١ - ١٨٧٢ م . ولانجد أنرا لتلك المؤسسة بعد ذلك
التاريخ لا في دار المحفوظات بالقلمة حيث فقدت دفاتر استحقاقات مطبعة بولاق
والكاغدخانة ولا في محفوظات قصر عابدين . ونرجح أنها ظلت تعمل الى أوائل
عهد توفيق . فقد جاء في مقدمة الجزء الأول من كتاب « عجائب الآثار في التراجم
والأخبار » للشيخ عبد الرحمن الجبرتي والمطبوع ببولاق سنة ١٢٩٧ هـ ،
ما يفيد أنه طبع في عهد الخديو توفيق حيث كان حسين حسنى بك مديرا للمطبعة
والكاغدخانة وكان محمد حسنى بك وكيلهما . وأكبر الظن أن تكون الدائرة
السنية قد تنازلت عنها للحكومة كما تنازلت عن المطبعة وانتهى أمرها بالاهمال
حتى بليت آلاتها ولم تمد تصلح للعمل .

(٤٢) حسين حسنى بك ، المصدر السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٤٣) حسين حسنى بك ، المصدر السابق ، ص ٣٠ وما بعدها .

(٤٤) دفتر استحقاقات المطبعة الكاغدخانة لسنة ١٥٨٨ قبطية ، دفتر

نمرة ٤٢١ عين ١٠ مخزن ١١ محفوظات الدائرة السنية بالقلمة .

معمل الورق المصرى :

ظلت مصر بعد تصفية كاغذخانة اسماعيل بدون مصنع للورق الى سنة ١٨٩٧ ؛ فقد رخصت الحكومة المصرية فى ١٩ فبراير من تلك السنة « للخواجيات ب . تيلكى وأولاده و م . قطاوى بك وهليفاساكس وام . ستروس وأد . تيلكى وعزيز دبوس و ا . يعيس وموريس د . اجيون وا . برنشىي بأن ينشئوا فى الاسكندرية تحت مسئوليتهم شركة مساهمة تحت عنوان (معمل الورق المصرى) بحيث لا يترتب على هذه الرخصة أدنى مسؤولية تعود فى حال من الأحوال على الحكومة وبشرط أن يتبع المذكورون فى ذلك قوانين القطر وغوائده ونصوص النظامنة المرفقة صورة منها بأمرنا هذا وعليها امضائهم » . وقد نص فى الترخيص على أن الشركة المذكورة ليس لها أدنى حق امتياز أو احتكار بأية صفة كانت (٢٥) .

وفى سنة ١٩١٧ نشر يوسف قطاوى باشا مذكرة عن صناعة الورق فى مصر قال فيها ان مشاريع كثيرة لصناعة الورق درست فى عهود مختلفة وقلمت الى لجنة التجارة والصناعة التى يرأسها اسماعيل صلقى . ويقسم صاحب المذكرة تلك المشاريع الى أقسام ثلاثة وهى : صناعة اللب أو اللبئاب وصناعة ورق التغليف ، وصناعة الورق بأنواعه المختلفة .

وقد درس مشروع صناعة الورق فى مصر دراسة وافية قبل الحرب العالمية الأولى ، غير أن قيام تلك الحرب حال دون تحقيقه . وكان يوسف قطاوى باشا قد قام بدراسة هذا المشروع دراسة مستفيضة سنة ١٩١٧ . توطئة لتنفيذه حالما تضع الحرب أوزارها . وينتهى قطاوى باشا من دراسته هذه بالشكوى المرة من أصحاب رؤوس الأموال الذين امتنعوا الى ذلك العهد من تمويل مثل هذا المشروع الحيوى الذى ثبت بالأرقام انتظار نجاحه من جميع نواحيه (٢٦) .

والى سنة ١٩٢٨ لم يكن فى مصر الا مصنع ورق واحد يحدثنا عنه قويم المطبعة الأميرية . وكان هذا المصنع يقوم بإنتاج ورق اللف والورق المقوى

(٢٥) الوقائع المصرية ، نمرة ٢٤ ، يوم الأربعاء ٢٢ رمضان المكرم سنة ١٣١٤ الموافق ٢٤ فبراير سنة ١٨٩٧ م .

J. A. Cattani Pacha ; Note sur la fabrication du papier en Egypte, (٢٦)
p. 261 et sq., L'Egypte Contemporaine.

(الكرتون) بمقدار ثلاثة آلاف طن في السنة . ويشتغل فيه ٥٠٠ عامل جلهم من المصريين (٤٧) . وأكبر الظن أن هذا المصنع هو مصنع لاجوداكيس بالاسكندرية الذي أسسه أحد اليونانيين ويدعى جون لاجوداكيس وكانت تلك المؤسسة الأولى من نوعها في صناعة الورق الحديثة . ولما توفي جون لاجوداكيس خلفه ولده قسطنطين وفي عهده نما المصنع وزاد انتاجه زيادة كبيرة . وكان المصنع في نشأته الأولى لا ينتج أكثر من ستة أطنان في اليوم من ورق عرض ١٥٠ سم . وفي سنة ١٩٢٢ ارتفع الانتاج الى عشرة أطنان وأصبح عرض الورق ١٦٠ سم . وفي سنة ١٩٣٥ أقام مصنع لاجوداكيس مصنعا جديدا ينتج يوميا ٢٥ طنا من ورق يبلغ عرضه مترين وبالإضافة الى المصنع القديم أصبحت تلك المؤسسة تنتج ٤٠ طنا من الورق في اليوم الواحد . وتستخدم في هذه الصناعة فضلات الورق والمنسوجات ولب السيلولوز . وكان المصنع في أول أمره لا ينتج الا ورق التعبئة الخشن الذي يزن المتر المربع منه من ٢٠٠ جم الى ٣٠٠ جم . أما اليوم فقى استطاعة المصنع أن ينتج أنواعا مختلفة من ورق التعبئة يتراوح وزن المتر منها بين ٥٠ و ٣٥٠ جراما . كما ينتج أنواعا من ورق الكرتون تصل زنة أقلها الى ٦٠٠ جم للمتر المربع . ويعمل في ذلك المصنع حوالي ٥٠٠ عامل (٤٨) . ولا يقوم بانتاج ورق للطباعة .

شركة الورق الأهلية

هي الشركة المصرية الوحيدة التي تقوم بصنع ورق الطباعة . وإلى حسن نشأت (باشا) يعود فضل تأسيس تلك الشركة . فقد فكر في هذا المشروع الضخم سنة ١٩٢٩ حين كان عضوا من أعضاء السلك السياسى المصرى ، ودرسه دراسة وافية مع خبراء في تلك الصناعة . وفي سنة ١٩٣٢ قام بتكوين لجنة من كبار رجال المال والصناعة لتقوم ببحث المشروع على ضوء ما انتهت اليه دراسة حسن نشأت بالاشتراك مع الخبراء الأجانب . وفي السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٣٤ صدر مرسوم بتأسيس هذه الشركة . غير أن الأبحاث الفنية الخاصة بتلك الصناعة في مصر لم تستكمل الا في سنة ١٩٣٧ ، فبدى عندئذ

(٤٧) تقرير سنة ١٩٢٨ ، المطبعة الأميرية ، ص ٢٢٢

(٤٨) المكتب الاهلى لاتحاد الصناعات المصرية ، ص ٢٢٧ ، سنة ١٩٤٨

باستيراد المهمات والآلات والمعدات اللازمة وقد تم ورودها في شهر سبتمبر من سنة ١٩٣٩ ، بعد اعلان الحرب ، عدا توريين المحطة الرئيسية . غير أن ظروف الحرب حالت دون ادارة المصنع الذي بدأ انتاجه سنة ١٩٤٢ . وكان يقدم صنفين من الورق والكرتون . ويستخدم مصنع شركة الورق الأهلية قش الأرز كمادة أولية .

وفي سنة ١٩٤٧ اشترت الشركة مصنعا جديدا وهو ينتج ٢٥ طنا في اليوم من الورق الأبيض وورق الجرائد منذ عام ١٩٤٨ (٤٩) .

ويعتبر مصنع تلك الشركة أكبر مصنع من نوعه في مصر . وقد استوردت آلاته جميعا من ألمانيا . ويبلغ رأس مال الشركة ٥٤٠.٠٠٠ جنيه مصري . والمصنع في الطاية بين الاسكندرية ورشيد (٥٠) .

والى جانب شركة الورق الأهلية ومصنع لاجوداكيس ، قامت خلال الحرب الأخيرة مصانع يدوية صغيرة لانتاج ورق التبغ والكرتون العادي (٥١) نذكر منها شركة الصناعات المتحدة والمصنع المصري للورق .

وما زالت المطابع المصرية تعتمد على الورق المصنوع في الخارج كما الاعتماد ، فقد استورد في المدة الواقعة بين يناير ويؤيه سنة ١٩٥٠ ١٣٨٧٨٩٨١ كيلو جراما في مقابل ١٣٦٩٥٢٩٥٧ كيلو جراما من يناير الى ديسمبر سنة ١٩٤٩ (٥٢) .

وقد حلت شدة حاجة مصر الى الورق ببعض أصحاب رؤوس الأموال أن يفكروا في انشاء مصنع ينتج ورق الطباعة محليا . وقد اتفق المهندس أحمد عبود مع إحدى الشركات الأمريكية الكبرى على انشاء مصنع للورق في مصر لحسابه . والمتظر أن يعتمد ذلك المصنع على « مصاصة القصب » في صنع الورق . وستبلغ تكاليف المصنع ستة ملايين دولار (٥٣) .

(٤٩) المصدر السابق ، ص ٢٣٧ وما بعدها .

(٥٠) الكتاب السنوي لاتحاد الصناعات المصرية ، عام ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، ص ١٢

(٥١) الكتاب الذهبي لاتحاد الصناعات المصرية ، ص ٢٣٨

(٥٢) الكتاب السنوي لاتحاد الصناعات المصرية ، ص ١٣٦ ، ١٣٧

(٥٣) الأهرام في ١٧ مايو سنة ١٩٥١

وتقدم بعد ذلك أحد الخبراء الفرنسيين بتقرير عن انشاء مصنع للورق في مصر يستطيع أن يمد البلاد بما هي في حاجة اليه من هذه السلعة وأن يصدر الفائض إلى الخارج . وقدرت تقكات هذا المشروع بليون ومائتي ألف جنيه . واقترح أن تديره شركة مساهمة من أصحاب الصحف ورجال الأعمال . وعرض أن تختار له أرضا على بعد ستة كيلو مترات شمالي مدينة المنصورة (٥٤) .

وفي شهر مايو سنة ١٩٥٢ أرسل الملحق التجاري لمصر في بروكسل الى الجهات المختصة يخبرها أن بعض الهيئات في بلجيكا ترغب في تأسيس مصنع للورق في مصر يرأس مال مصري بلجيكي (٥٥) .

لقد أصبح عدد المؤسسات المنتجة للورق في الاقليم الجنوبي ست من سنة ١٩٥٤ الى سنة ١٩٥٨ ، هذا بالإضافة الى شركة راكنا التي لم تبدأ انتاجها بعد .

وقد أنتجت هذه المؤسسات من ورق اللف ٢٠٢٠٤ أطنان في سنة ١٩٥٨ ؟ أنتجت من وزق الكرتون ١٥٨٧٨ طنا في السنة نفسها . ولم يزد انتاج ورق الباستيل على ٧٦٣ طنا . أما ورق الطباعة فلم ينتج منه سوى ٣٤٣١ طنا

(٥٤) الاهرام في ٣ يونية سنة ١٩٥١

(٥٥) الاهرام في ٩ مايو سنة ١٩٥٢

الفرسان والفروسية في إتيويا

في العصور الوسطى

للدكتور زاهر رياض

مدرس التاريخ بمعهد الدراسات الانترقية

قيام الدولات والممالك الايتيوبية :

كان قيام الدولات الصغيرة التي تصارع فيما بينها من أجل السلطة والنفوذ وعدم وجود الحكومة المركزية التي تستطيع فرض سلطتها على أجزاء البلاد الا في النادر أمرا طبيعيا في أيتيوبيا . طالما هي بلاد جبلية قاسية تمتد فيها سلاسل الجبال لتقف دون اتصال الوديان والهضاب القليلة الارتفاع نسبيا . كما قامت بها الجبال التي هيأها تكوينها لأن تكون مراكز حصينة يتخذها الزعماء مراقب ينون عليها قلاعهم وعبرت كلمة أمبا *ገጽ* عن كل من هذا النوع من الموائد ذات الجوانب شديدة الانحدار وكذلك عن القلعة التي تبنى عليها . فحملتها بعض البلاد ذات الأهمية الاستراتيجية مثل مدينة أمبا في اقليم أمهرا شرقى بحيرة تسانا وأمبا الأجي في جنوبى تجرى . كما حملت بعض البلاد أسماء أضيفت اليها كلمة دبرا *ድቦ* وهو الجبل المسطح القمة مثل دبرا ماركوس في جودجام . ودبرا برهان في سلالى . ودبرا تابور في بجه مدر .

ولذا نشأ الايتيوبى حربي النزعة يجيد فن القتال فهو يقضى حياته كلها أما غازيا أو مغزوا .

وقد قرن قيام الفروسية في أوروبا بمعهد الاقطاع ولذا وقع كثير من الكتاب الذين كتبوا عن أيتيوبيا في كثير من الخطأ حين ظنوا قيام عهد اقطاعى في أيتيوبيا يماثل هذا الذى قام في أوروبا فأكثروا في كتاباتهم من استعمال كلمة Feudal

وأطلقتوها على بعض مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية التي قامت في أثيوبيا في عصرها الوسيط .

وقد قامت في أثيوبيا - نتيجة لبيئتها الجبلية - بعض الدويلات التي تنازعت فيما بينها . ونتج عن هذا التنازع خضوع بعضها للبعض الآخر . أو خضوع عدد من هذه الدويلات لزعيم واحد لمدة معينة فكان ذلك مدعاة لهذا الخطأ . وظنوا أن هذا الخضوع إنما هو مظهر من مظاهر التبعية التي جرت في أوروبا في العصور الوسطى .

ومن المعروف أن النظام الاقطاعي في أوروبا قام نتيجة لضعف الملكية وعجزها عن أن تضمن حمايتها على أطراف الدولة فلجأ الناس الى الاشراف الذين رتبوا على حمايتهم لهؤلاء الناس حقوقا عليهم . ثم التزامات على الملك الذي أعطاهم الأرض . ومن ثم أصبح النظام الاقطاعي هو تقسيم الملك لدولته الى اقطاعات يعين لكل منها أميرا يتولى حماية أهلها نيابة عن الملك على أن يرتب له على هؤلاء الأهالي حقوقا خاصة نظير هذه الحماية . وحقوقا أخرى تجاه الملك . هذا الاقطاع . ولا كانت الزراعة هي أساس الحياة الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا في هذا العصر أربط الاقطاع بالأرض (١) وبذلك أصبح الشعب جميع الاقطاعات طبقة محمية والنبلاء في جميع الاقطاعات طبقة حامية فاقسم المجتمع الأوروبي الى طبقتين طبقة متبوعة من الاشراف تقوم مهمتها بحماية الأهالي وهي في نفس الوقت تابعة للملك الذي يملك حق سلب النوازل اقطاعه اذا أهمل أو قصر في القيام بالتزاماته (٢) وطبقة تابعة لا تملك الا الحماية .

وكانت هبة الملك الأرض للنبل التابع له لا يترتب عليها أية حقوق قضائية كحق البيع أو التصرف في الأرض على أى وجه كان (٣) .

Thorndike p. 223.

Ibid. p. 227.

Ibid. p. 229.

Ibid. p. 230.

Ibid. p. 229.

(١)

(٢)

(٣)

(٤)

(٥)

وكان هذا (المالك) الجديد (يملك) الأرض ومن عليها من الناس • كلهم يعمل لمصلحته (٦) وكان جميع الذين يعيشون على الأرض عبيدا له يعملون في أرضه لمدة معينة كل عام بل يستطيع النبيل التصرف فيهم بالبيع • وإن كان لا يملك حق بيع المرأة دون زوجها أو الابنة دون والديها (٧) •

العلاقة بين الامبراطور والملوك في اثيوبيا

ولكن الحال لم يكن كذلك في اثيوبيا فقد ترتب على قوة أحد الملوك وضعف الولايات الأخرى خضوعها لهذا الملك القوى الذى استطاع فرض سلطته بحد السيف طالما تمكنه قوته من هذا التسلط وطالما كان ضعف التابع يحول دون تحرره • وترتب على هذا الخضوع توقيع شروط أو التعارف على شروط تبيع لكل من التابع والمتبوع بعض الحقوق على الآخر (٨) وقد رأينا مثلا من هذا النظام فى الاتفاق الذى عقده الامبراطور يكونو أملاك (١٢٧٠ - ١٢٨٥) مع ملوك لاستاعن طريق الانبا تكلا هيمنوت (٩) وقد نص هذا الاتفاق على أن يكون التاج ولقب ملك الملوك من حق الامبراطور يكونو أملاك • وأن يحتفظ ملك لاستا بولاية (مملكته) وأن يحمل لقب نجوس ، وأن يجلس على عرش ذهبى سائل لعرش الامبراطور وأن تكون له شارات ملكية مصنوعة من الفضة وكذلك منان رمحه وطبوله مطلاة بالفضة أيضا (١٠) •

وكان جميع من يعيشون فى مملكة الملك الأثيوبى من الأحرار • كل يعمل لمصلحته الخاصة وهو وإن كان لا يملك الأرض فملكية الملك لها من الوجهة النظرية فقط فهو لا يبيعها ولا يتنازل عنها •

وليس معنى ذلك أن الرق لم يكن سائدا فى اثيوبيا فى العصور الوسطى بل كان موجودا ولكنه كان رقا قبليا • أى يستطيع الفرد أن يسرق فردا آخر من قبيلة غير سامية فقد كان الرق حتى القرن السادس عشر محصورا فى القبائل

Ibid. p. 222.

Ibid. p. 223.

Morié T. II. p. 168.

Conti Rossini, Revue Semetique October 1902

Budge V. I. p. 26.

(٦)

(٧)

(٨)

(٩)

(١٠)

الافريقية التي فرضت القبائل السامية التي أتت من جزيرة العرب عليها سيادتها وسيطرتها . حتى اذا جاء الجلا في بداية العصور الحديثة مكنتهم قوتهم من أن يستعبدوا القبائل السامية الضعيفة مثل الجوراجي (١١) .

واذا كان للملك الأثيوبي حق نظر قضايا الرعية الا أنه لم يكن يحصل على رسوم تدخل الى خزنته كما أنه لم يحصل على الغرامات بل يحصل عليها المدعى كما يحصل على القدية بينما كانت كل هذه تذهب الى خزنة النبيل في أوروبا (١٢) .

ولعل أعظم الشبه بين النظامين أن كلا من النبيل في أوروبا . والملك في أثيوبيا يملك أن يهب قطعا من الأرض لمن أدى له خدمة خاصة . وكان هذا التابع الجديد في أثيوبيا يملك حق التصرف في أرضه على أى صورة يشاء (١٣) . بينما لم يكن زميله الأوروبي يملك هذا الحق . كما أن أعظم الفروق بين النظامين أن الملك في أوروبا كان يملك حق سلب تابعه ما منحه اياه اذا أحل بحق الولاء . أو يهبها لغير وارثها . بينما لم يكن للملك الملوك في أثيوبيا (نهجوس فجست) هذا الحق ، فوارث الولاية أو ملكها يستطيع وراثة والده دون تدخل من أحد . واذا ثار ملك الولاية على ملك الملوك فان هذا الأخير يملك حق قتل الأول أثناء حربه معه ولكنه لا يملك حق عزله أو منع ولده من وراثته .

وعلى ذلك أصبح النظام الذى حدد العلاقة بين الولايات (الممالك) الأثيوبية وملك الملوك أبعد ما يكون عن النظام الاقطاعى ما دام ليس هناك اقطاع يقطع وبسلب . هذا الى أن ملك الولاية ومعه محاربوها وشعبها يكونون كلا متحدا متجانسا . ولا يقوم بين الملوك اتحاد يشبه ذلك الذى قام بين النبلاء وجعل منهم طبقة خاصة مميزة . كما أن المحاربين لم يكونوا طبقة خاصة تلقت تدريبا خاصا . وتتمتع بحقوق خاصة لقاء ما تقوم به من واجبات خاصة كما هو الحال في أوروبا . بل ان جميع شعب الولاية هو الذى يخرج للحرب مع ملكه يحارب اذا أمره ، وان لم يعرف من يحارب ولماذا يحارب . وبذلك أصبحت الحرب مهنة لكل أثيوبي . يخرج اليها اذا أمره سيده بذلك .

(١١) سيرة الحبشة ص ١٦ من النص .

(١٢)

Thorndike p. 224.

(١٣)

Thorndike p. 224.

ولعل شعب الولاية في أتيويا كان أثمه ما يكون في أوروبا بطبقة الاتباع Comomandor^{١٤} الذين ربطوا أنفسهم بحماية سيدهم لهم . وهم الذين كونوا طبقة المحاربين وان اختلقوا عنهم في أن أولادهم يظنون أحرارا كابائهم بينما كان أولاد الأوروبيين يصبحون وينشأون في حالة عبودية (١٤) .

نظام الفرسان في أتيويا

ولما كان الناس في أتيويا هم الذين يدبرون أمر أنفسهم في الحرب ويتكلمون بتدبير سلاحهم . اختلفت مراتب هذا الاعداد . وهم وان اختلفوا في ذلك اتحدوا في أن يكون الحصان هو العدة الأولى لخوض المعركة وهو كثير العدد قليل الكلفة في بلاد أعدتها الطبيعة لتكون بيئة رعوية حيث لا يكلفهم صيانة هذا الحيوان شيئا مطلقا سواء في وقت المطر أو الجفاف . ولكن وجدت الى جانبهم الطبقة القادرة التي استطاعت تدبير أمر نفسها بصورة لائقة . وأغلب الظن أن هؤلاء اقتصروا على من يمتون بصلة ما الى الملك والذين مكتنتهم ثروتهم من أن يرتفعوا الى مستوى خاص وهؤلاء هم الذين نعتهم بطبقة الفرسان . ولعل أقدم الوثائق التي لدينا والتي تعطى فكرة عن قيام هذا النظام في أتيويا ترجع الى القرن الرابع الميلادي . وهي أربعة قروش للملك عيزانا عثرت عليها البعثة الألمانية في اكسوم سنة ١٩٠٥ وهي مكتوبة بثلاث لغات ، الاغريقية والسبائية والحشبية وهي تذكر حملات هذا الملك التي قام بها لاختضاع البلاد المجاورة ولذا يصف لنا هذا الملك نفسه بأنه (ملك اكسوم وحميز وريدان وأتيويا وسبا وصالحين وسيامو وييجا وكاسو) .

وكانت أنجح حملات هذا الملك حملته الرابعة التي وجهها الى مملكتي علوة ومرو اللتين كانتا تقعان عند تقاطع النيل الأزرق بالنيل ونهر العظيرة بالنيل وهما اللتان عناهما الملك بكلمة كاسو وكانت هاتان المملكتان على درجة من التقدم وعرفتا الكثير من الحضارة المصرية وخاصة جيوشها ونظامها الحربي كما عرفتا النحاس والبرونز والحديد (١٥) وكانت جيوشهما تتكون من المشاة والفرسان لأن النص يذكر في سطره التاسع عشر وما يليه .

Thorndike p. ٢٢٧
Budge. V. T. p. ٢٥٠.

١٤)
(١٥)

١٩ - وأمرنا من معسكرهم من الرجال .

٢٠ - أربعين ومن النساء والأولاد ١٦٥ ومجموعهم .

٢١ - مائتان وخمسة وحملنا معنا من الفم ٣١٩٠٠

٢٢ - ٥٧ من الماشية و٨٢٧ من الدواب .

٢٣ - ورجع الملك الى شعبه بسلام (١٦) .

ولا يستطيع الجيش أن يقهر فرسان الأعداء الا اذا كان فرسانه أكثر عددا وأوفر عدة وأشد مرانا على الحرب . ولذا كان هذا النص دليلا على وجود سلاح الفرسان ضمن أسلحة الجيش الأتيوبي في هذا العصر .

كما نعرف أيضا أن الحصان كان مستعملا في شبه الجزيرة العربية في زمن سابق للقرن الرابع الميلادي وكان يستعمل في تكوين فرق محاربة فلن يتاح للملك عيزانا أن ييسط سيطرته على (حبير وريدان وسبا) الا اذا كان له من الفرسان من يستطيعون فرض سلطتهم .

وفي سطر آخر من النقش الثاني الذي يذكر حملته على قبيلة سارينا التي تسكن إقليم آفان يذكر الملك أنه سار الى أتاجاو Atagan وجمع المال والدواب (١٧) .

فهو يقصد بكلمة الدواب هنا شيئا من الجمال والماشية التي ذكرها في النص السابق فليست غير القرس والبغال .

وليس لدينا من الوثائق والنصوص أو النقوش ما نعتمد عليه بعد ذلك في التاريخ الأتيوبي حتى سنة ١٢٦٨ م حين قامت الأسرة السليمانية في تاجيلاط في إقليم شوا . وبدأ منذ ذلك الوقت عهد التدوين في التاريخ الأتيوبي . اذ أصبح من بين موظفي القصر الملكي موظف خاص عهد اليه أمر تدوين الحوادث الهامة التي تقع في عصر الملك وكذلك أمر حفظ الوثائق الهامة في الدولة وبذلك أصبحت هناك ادارة خاصة تستطيع أن تطلق عليها بالفاظنا الحديثة « ادارة السجلات » وحملت هذه الادارة اسم تراز *Traz* وحمل صاحبها اسم تصاف

Badge V. I. p. 249.

Ibid p. 246.

(١٦)

(١٧)

تزاز ومن ثم استطعنا أن نعرف الكثير من أخبار الفرسان والدور الذى قاموا به فى تاريخ أتوييا .

اسباب انتعاش الفروسية فى أتوييا

وشهدت هذه الفترة من تاريخ أتوييا (١٢٦٨ - ١٦٣٢) كثيرا من الحروب التى قاست منها أتوييا كثيرا . فقد شن عمر ولسع وأولاده وكان آخرهم صبر الدين ^(١٨) سلسلة من الحروب على مملكة شوا الاسلامية خلال المدة من ١٢٣٩ الى ١٢٨٠ ^(١٩) حتى تمكنوا من اخضاعها واشترك فى هذه الحروب كثير من الفرسان ^(٢٠) كما شن تجار الرقيق ومن والاهم من سلاطين الولايات الاسلامية وسلاطان اليمن سلسلة أخرى من الحروب استمرت من ١٢٧٣ حتى ١٥١٧ ^(٢١) .

وفى سنة ١٥٢٦ قام الامام أحمد بن ابراهيم الملقب بالأشول بغزوة الكبرى مؤيده تركيا من أجل اقامة مملكة اسلامية فى أتوييا . فكانت سلسلة أخرى من الحروب اضطر الأباطرة (ملك الملوك) الى خوضها متتابعين حتى قضى على حركته سنة ١٥٤٢ بمعونة البرتغاليين . وأخيرا قام الكاثوليك يحاولون فرض مذهبهم على البلاد لقاء الخدمات التى أدوها للأباطرة حين تغلبوا على الامام أحمد . فكانت سلسلة رابعة من الحروب لم تنته الا فى سنة ١٦٤٢ فكانت هذه السلسلة المتوالية من الحروب التى خاضتها أتوييا فى عصرها الوسيط سببا فى انتعاش الفروسية .

وقد اتميز كثير من الملوك فرصة هذه الحروب التى انغمس فيها الأباطرة المتوالون ليثوروا عليهم ويتحرروا من سلطتهم فقامت حروب أخرى بين الأباطرة وهؤلاء الملوك الثائرين ^(٢٢) أضافت الى الأسباب السالفة سببا آخر فى انتعاش الفرسان والفروسية سواء بين صفوف الجيوش الامبراطورية أو بين صفوف الثائرين .

Cerrulli p. 7.

(١٨)

المقريزى ص ١٠

(١٩)

من خطاب يكونوا ملاك انى الظاهر ببيرس صبح الاعشى ج ٨ ص ٢٩

(٢٠)

المقريزى . الامام ص ١٢ وما يليها .

(٢١)

Budge V. II. p. 32.

(٢٢)

وفي خلال هذه الأزمات دأب قطاع الطريق من عصابات الشفعا على الاخلال بالأمن فكافوا يكثرون من الهجوم على القرى لسلب سكانها الآمنين ما يملكون أو الهجوم على قوافل التجارة خلال سيرها من مراكز الاتساج الى الموانئ الساحلية (٣٣) وحدث في كثير من الأحيان أن امتعان الأمراء بهذه العصابات لاقتاع الاضطراب في أنحاء البلاد ضد السلطة المركزية فكانت كل هذه الأسباب مجتمعة سببا في اتعاش الفروسية وارتهاع شأن الفرسان الى مكان مرموق في المجتمع الأثيوبي .

حب الأثيوبيين للخيول والفروسية

وقد عنى المجتمع الأثيوبي بتدريب أفرادهِ على ركوب الخيل حتى أصبح الحصان جزءا من حياته . كما عنى الملوك دائما بتربية أولادهم تربية عسكرية رفيعة كان عمادها ركوب الخيل واللعب بالسيف واستعمال مختلف الأسلحة الحربية فنجده كاتب تاريخ حياة الملك جلاوديوس (١٥٤٠ - ١٥٥٨) يعطى هذا التعليم أهمية خاصة فيقول عنه « أن أباه فضله على جميع أخوته . فملبه فضائل الرجال . وكبر جلاوديوس بنعمة الروح القدس . وتعلم جميع مبادئ الكنيسة في أيام شبابه كما تعلم ركوب الخيل والرمي بالقوس . وصيد الحيوانات . كما تعلم كل ما يختص بفن الحرب كما هي عادة أولاد الملوك وقد عضدته قوة الله في هذا السبيل » (٣٤) كما تذكر المصادر أن داود (١٣٨٠ - ١٤١١) كان - كجميع الأثيوبيين - مجبا للخيول ذا نظرة خييرة بها وينما هو يفحص أحداها ذات يوم رفقه يقدمه فكسر جمجمته فمات (٣٥) وأحب بعضهم خيولهم الى حد اطلاق أسماء معينة عليها (٣٦) بل بلغ من حب عمدا. صيول (١٣١٢ - ١٣٤٢) لقرمه أن عمده بالماء المقدس الذي حملته زوجته اليه من نهر الأردن (٣٧) ومن الطبيعي أن يكون فرس الملك معززا لا يركبه أحد غيره الا اذا كان هذا الشخص مساويا للملك في المكانة فقد سمح الامبراطور

Bruce Vol. III p. 46.

Histoire de Galawdewos p. 126.

Budge Vol. I. p.

Bruce Vol. III p. 96.

Budge Vol. I p. 214.

(٣٣)

(٣٤)

(٣٥)

(٣٦)

(٣٧)

جلاوديوس للاتشجي - وهو رئيس الرهبان الوطنيين - يركوب فرسه الخاص فعذ ذلك شرفا كبيرا (٢٨) وكان نظامهم الحربى يقضى بأن يخرج الملك أو الامبراطور على رأس جيشه يقود المارك بل ويشترك فيها الى جانب جنوده وكانت قوة الفرسان أكثر عددا من قوة المشاة بل كان الجيش كله من الفرسان (٢٩) •

وتقول القصة التى نشأت بين الحجاج المسيحيين الذين كانوا يزورون بيت المقدس خلال القرون الوسطى عن وجود ملك اسود يحكم بلادا مسيحية فى جنوب مصر أطلقوا عليه اسم القس حنا ويرددون أنه أرسل الى الملك ايمانويل الأول (١١٤٣ - ١١٨٠) فى سنة ١١٦٥ رسالة يذكر فيها أنه يحكم اثنتين وسبعين ملكا وعنده عشرون مطرانا واثنى عشر أسقفا، وأنه يذهب الى الحرب ومعه ثلاثة عشر صليبا من الذهب كل واحد منها على رأس عشرة آلاف فارس ومعه مائة ألف من المشاة (٣٩) •

ونحن وان كنا لا نعرف منشأ هذه الأسطورة ولا من هو الملك الذى كتب الى الملك ايمانويل الا أنها تدل على شديد اهتمام الأثيوبيين بسلام الفرسان فى الجيش الأثيوبى وكثرة عدد أفراد الذين بلغوا فى هذا العصر المتقدم على ما تقول القصة مائة وثلاثين ألفا بينما لم يزد عدد المشاة عن المائة ألف مع تسليتنا بالمبالغة فى كل من الرقمين • وأغلب الظن أن يكون أصل هذه القصة أن الحجاج الأوروبيين كانوا يرون الحجاج الأثيوبيين يترددون على بيت المقدس لزيارتها فى موسم الحج وربما يقدمون برا ومعهم خيولهم • فكانوا يسألون عن بلادهم فيجيبونهم اجابات لا يستطيع الحجاج أن يفهموا منها أكثر من أن بلادهم تقع الى الجنوب من مصر وأن لهم ملك اسود وأن لهم جيش قوى أغلب أفرادهم من الفرسان فالتقوا من مجموعة هذا كله قصة هذا الملك الاسود الذى يقود هذا الجيش الذى يتكون أغلبه من الفرسان •

ولما كان القرن الثانى عشر الميلادى يصادف الوقت الذى اتكست فيه قوة المسيحيين فى الشرق بعد حملتهم الصليبية الرابعة طافت بخيال هؤلاء المسيحيين

Life of Gelawdewos p. 152.

(٢٨)

Ibid. p. 186.

(٢٩)

Jones, History of Abyssinia pp. 59-60.

م (٢٩)

أحلام مجيء هذا الملك المسيحي الذي سيأتي من خلف أملاك المسلمين ليعيد
إلى المسيحية قوتها في بيت المقدس ويعيد هذا المكان إلى حوزة المسيحيين .

اللقاب الفرسان

وتدل الرتب العسكرية التي يمنحها الأباطرة لفرسانهم على أنهم كانوا
يقسمون قوة الفرسان إلى ثلاثة أقسام رئيسية يرأس كلا منها قائد عام . ذو
رتبة كبيرة . وينقسم الجيش إلى قلب وجناحين . وكان Kanya Zmatch
هو قائد الجناح الأيمن و Gera Zmatch قائد الجناح الأيسر بينما كان
Dadja Zmatch هو قائد القلب . ويتقدم جميع هذه الأقسام قائد كبير
يسمى Fiturari . ومنها الذي يسير في الأمام . أما القائد العام فهو الرأس
Ras . وقد يحتوى الجيش على عدد من الرؤوس إذ أن الجيش الامبراطوري
كان مكونا من جملة جيوش قدم كل واحد منها من مملكة تحت سلطته ويتولى
جيش المملكة رأسها فيقال (جودجام راس . أو تجرى راس) أو قائد جيشه
ولقب الرأس هو الذي يمنحه الامبراطور لقواد الجيوش التابعة أما غير ذلك من
الرتب فيمنحه الملك المحلي في حدود مملكته ويسمى الامبراطور في مملكة
الخاصة . وهؤلاء الروس هم الذين يحيطون بالامبراطور ويكونون مطهرة
الحربى الذي يعقد قبل خوض المعركة كي يعطى الراى النهائي (٣٠) ويستشير
الملك في كل الأمور الحربية وغالبا ما ينزل عند رأيهم . ولكل من هؤلاء الرتب
هيئة أركان حرب خاصة تحيط به تحمل الألقاب الصغرى .

ومن الطبيعي أن لا يكون هؤلاء الروس على درجة واحدة من القوة والمكانة
فمكائهم من مكانة الملوك الذين يتبعونهم أو الجيوش التي يرأسونها وبذا كان
أكبر الروس مقاما هو أكبرهم قوة وأقربهم إلى الامبراطور ويبدو أن الجناح
الذي يتكون منه الجيش كان يضم بضعة ألوف يعود كل ألف منها قائد يحمل
لقب Shilaka أى قائد الألف (٣١) .

وبلغ من اهتمام الملوك بسلام الفرسان أنه كان هناك موظف ذو رتبة كبيرة
يعنى بالخيول وكسوتها واطعامها في وقت السلم كما يشرف على كل ما يختص

Bruce V. III p. 26.

Bruce III p. 276.

(٣٠)

(٣١)

بتجهيزها واعدادها للحرب ولا بد أنه كان يشرف أيضا على عدد كبير من الصنائع الذين يصنعون كل ما يحتاجه سلاح الفرسان الامبراطوري من مهمات حرية • وحمل هذا الموظف لقباً يدل على أهمية منصبه وهو بلابا راس Ral nimba ras أى صاحب قلعة الراس • ولا بد أن القلعة كانت المركز الذى يتشغل فيها النشاط الخاص بسلاح الفرسان وكان هذا الموظف يلى الراس فى الرتبة (٣٣) •

وفى أوقات السلم اذا خرج ملك الملوك لتفقد شؤون دولته أحاط به قواد الفرسان وصحبوه فى جولاته فتكون من ذلك موكب ضخم يعتبر الفيتورارى والبالاماراس مسؤولين عن كل ما يتعلق به • فالأول هو الذى يتقدم الموكب للبحث عن مكان كثير العشب والخشب والماء ليعسكر فيه الموكب والثانى هو الذى يدبر أمر الخيل وما يتعلق بها (٣٤) •

وكان يتقدم هذا الموكب فى العادة فرسان يعلنون عن قدومه بأن ينفخوا فى بوقات من خشب رؤوسها قرون مجوفة • وآخرون يدقون طبولا مقلقة • ويتقدم الجميع فارس كبير ينفخ فى بوق كبير مقوس مصنوع من قرن حيوان من نوع بقر الوحش • ويبلغ طول القرن ثلاثة أذرع مجوف يسمع على مسيرة نصف يوم (٣٥) •

ولما كان معظم فرسان الجيش يجهزون أنفسهم على ثققتهم ، تفاوتت درجات هذا التجهيز • بل بلغ بعضهم من الفقر: درجة أن ركب فرسه بدون سرج واكفى بطود الماشية • وربما يشبهون فى هذه الناحية بعض فرسان أوروبا حين كان كل نبيل يجهز نفسه وفرسه بنفسه تبعاً لثروته وقوته • ولكنه يختلف عن فرسان الممالك الذين كان أمر تجهيزهم بيد أصحابهم • فكان ينالى فى تجهيزهم بالقماش الثمين والبرزة الحبنة والقوالب المحلاة بالقضة وربما غشى جيمهم بالقضة بل بالذهب كما كانت لجهم تحلى وتسقط بالقضة أيضاً وفقاً لاختيار صاحبهم (٣٥) •

Bruce III p. 18.

(٣٢)

صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٢٤

(٣٣)

Bruce III p. 150.

(٣٤)

صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٠

(٣٥)

أما إذا كف ملك الملوك عن تجواله وعاد الى قصره لزم فرسان الملك قصرهم ليقوموا بمختلف الشؤون التي يكلفهم بها مولاهم . بينما يتفرق الروم وفرسانهم الى ممالكهم يدبرون أمرها وبمعاونة الملوك في أعمالهم . وإذا انصرف الجيش . انصرف أفرادهم الى أعمالهم يمارسونها كما كانوا يفعلون قبل الحرب . وكان منزل الراس في العادة يبنى الى جانب قصر الملك وهي دائمة عند قمة الجبل (٣٦) وهذا القصر في العادة هو سجن أعداء الملك . كى يتوفر الراس على حراستهم فهو المسؤول عنهم أمامه . وتيجيز له رتبته أن يكون له طبل يقرع على بابه ويصاحبه عند خروجه (٣٧) ويسمى تجاريت .

وليس معنى ذلك أنه لم يكن هناك جيش قائم من الفرسان بل كان كل ملك وملك الملوك يحتفظ دائما في أوقات السلم بعدد كبير من الفرسان يقومون بحراسته وحراسة الطرق . فالقاضي حسن بن أحمد الحمي يذكر لنا أنه ورد الى سلطان يلول وطلب منه جيشا لصحبه في الطريق فأحضر له ألفي فارس بالحراة والخيال (٣٨) .

سمعة الفرسان الأثيوبيين

ولقد تمتع الفرسان الأثيوبيون خلال العصر الوسيط بسمعة حسنة الأقطار المجاورة لشجعانهم فأقبلوا عليهم يستأجرونهم . وقد استأجر تجار العرب قبيل الاسلام كثيرين منهم . واستخدموهم لحراسة قوافلهم وكانوا يكونون فرقا كاملة يقودها في العادة قائد عربي . كما أقبل العرب أيضا على شراء أفقية من رقيق أثيوبيا لاستخدامهم أيضا . وتزوج فريق من هؤلاء الفرسان الأثيوبيين بنساء عربيات فأنجبوا نسلا عرف بسواد بشرته وشجاعته . واثبت من هؤلاء قبيل الاسلام عنترة العبسي . وكانت العزة وهي العربة القمص سلاحهم المفضل (٣٩) وقد أطلق العرب على هذا الفريق من المحاربين اسم غزاة العرب .

id. p. 509.

(٣٦)

Assini, Storia d'Abyssinia I p. 215.

(٣٧)

(٣٨) سيرة الحبشة ص ٢٦ من النص

(٣٩) صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٢

وإذا ما قامت الدول الإسلامية المستقلة استخدمت كثيرين من انفرسان
الأتوبيين ضمن جيوشها كما فعلت الدولتان الطولونية والفاطمية (٤٠) .

وكانت عدة انفرسان وندواتهم شيئاً هاماً من هدايا الملوك فخذ أرسل
النجاشي انى انبى هدية ثمينه هى بقل حبشى وثلاث عنزات (٤١) . وكان بلال
بن رباح مؤذن الرسول يحمل احداهم ويسير بها أمام النبى حتى اذا حان وقت
الصلاة واصطف المسلمون وأمامهم النبى ركزها بلال أمامه .

كما أرسل الامبراطور (ملك الملوك) داود (١٣٨٢ - ١٤١١) الى السلطان
برقوق الأب أندراوس الأنطوني ومعه هدية ثمينه حملها عشرون جملاً كان بينها
مائة وثلاثون سكيناً وثلاثمائة وعشرون لجاماً . كما أرسل الامبراطور زره
يعقوب (١٤٣١ - ١٤٦٥) الى السلطان الظاهر جقمق (١٤٣٨ - ١٤٥٣) هدية
أخرى كان بينها سيف مسقط بنهب ومهماز (٤٢) (من أجل تجديد ما سبق من
المهود من الملوك المتقدمين) كما تضمنت هدية السلطان التوكل على الله الى
الامبراطور فابيلادوس بن سوسنيوس (١٦٣٢ - ١٦٦٥) هدية ثمينه كان
بينها (السيوف القاضية القاطعة والدروع الفاتكة السابغة . مع شيء من آلات
الخيال النفيسة والأفراس المناسبة لكل وحدة رئيسية) (٤٣) حملها اليه القاضي
اليمنى الحيمى حسن بن أحمد . كما كانت الخيول ولوازمها ضمن الهدايا
والانعامات التى ينعم بها الأباطرة والملوك على أتباعهم (٤٤) وظلت هذه العادة
حية حتى رآها المستكشف الاسكتلندى بروس Bruce فى نهاية القرن الثامن
عشر . وغالباً ما تكون عدة الخيول المهداة من الذهب أو الفضة المذهبة تبعاً
لقيمة صاحبها .

استعداد الفرسان للحرب

وإذا أعلنت الحرب عباً الامبراطور جيشه وأرسل الى الملوك التابعين له أن
يمدوه بجيوشهم وعلى رأسهم قوادهم وفرسانهم . ولما كان الجندى هو الذى

(٤٠) الجواهر الحسان ص ٩٦

(٤١) التبر المسبوك فى ذيل السلوك ص ٦٧ - ٧٣

(٤٢) سيرة الحبشة ص ١٠ من النص

Bruce III p. 518.

Budge Vol. I p. 296.

(٤٣)

(٤٤)

يدبر أمر نفسه حمل كل منهم مؤوته وكانت تمثل في كيس كبير يتدلى الى جانبه مملوء بالشنبرة (الحنص الجاف) وأعواد كثيرة من قصب السكر مقسمة الى أجزاء صغيرة في كيس أخرى . وأيحي لمن استطاع من الفرسان أن يصعب أتباعا له يخدمونه . بل أيحي لهم أن يصطحبوا نساءهم معهم ^(٤٥) وقيل في تمليل ذلك أنهم كانوا يخافون على نساءهم اذا تركوهم في بلادهم . أن يعاجبهم العدو ويسبيهم . وفضل بعض منهم أن يبقى نساءه حيث كن ويصطحب بعض خيلاته لخدمته . وكان هذا سرا قباهم على الترسى . وكان هذا العدد من الخيل يحمل لأسياده الفرسان ما يستطيع حمله من السلاح وأدوات الحرب والملابس بل وأدوات الطبخ وكل ما يسمح له بخدمة سيده خدمة حقيقية كما لو كان في منزله . وكان هذا امتيازا للفرسان لا يتمتع به المشاة وأغلب الظن أن ذلك يعود الى فقر الآخرين عن الأولين .

وإذا ما انتهت المعركة أيحي للفرسان أن يستولوا على ما تركه العدو من أسلاب . ولكن كان أهم ما كان يهتم به الفرسان الأتيوبون هو حصولهم على الرقيق من أجل استخدامهم في رعى أغنامهم وزراعة أراضيهم . وكان هؤلاء يوسمون بعلامة خاصة تميزا لهم عن الأحرار ^(٤٦) .

وامتازت الحروب التي دارت بين الثوار المسلمين والأباطرة في خلال القرن الرابع عشر والخامس عشر باستيلاء الأولين على أعداد وفيرة من الرقيق الأتيوبيين المسيحي فكان يوزع على فرسان الجيش المنتصر أربعة أخماسهم وفقا للشرعة . وكان كل واحد من الفرسان يبادر بإرسال من حصل عليه من الرقيق الى تجارة وقد بلغ هذا الرقيق مبلغا هائلا حتى لقد انخفض سعر العبد الى رتبة قات ^(٤٧) فكان من جراء ذلك أن امتلأت أسواق بلاد اليمن وهرمز وفارس والهند والحجاز ومصر والشام وبلاد الروم والعراق من رقيق أثيوبيا الذين أسره جمال الدين بن سعد الدين أبو البركات ^(٤٨) .

وفي أوقات السلم كان بعض الفرسان يقفون بباب الملك يخدمونه ^(٤٩) بل

٢ Ibid p. 812

(٤٥)

(٤٦) الإلام ص ٢٢

(٤٧) القريزي ص ٢٢

(٤٨)

Kamrerer T. II p. 817.

(٤٩) سيرة الحبشة ص ١٧ من النص

كانوا يشتركون في بعض الأعياد الدينية أو الاجتماعية فقد كانوا في عيد الفطاس - وهو من الأعياد الكبرى في أثيوبيا - يرتدون ملابسهم الحربية ويتنلدون بعض سُلُحتهم ويخرجون الى استقبال الملك حين خروجه الى هذا الاحتفال ويشتركون فيه .

وفي عيد الصليب - وهو يقع في نهاية فصل المطر - وهو وإن كان احتفالا دينيا في اسمه إلا أنه كان في الواقع عيدا موسيا اجتماعيا يعين ابتداء الفصل الزراعى . يخرج الفرسان للاحتفال بهذا العيد في مكان خارج المدينة حيث يستقبلهم الملك حين يتقدمون اليه فئة اثر فئة راكبين خيولهم مرتدين ملابسهم الحربية في أكمل عدة ليلعبوا بالخيول فيمثلون الكر والترو والهجوم والانتقام . وكل منهم يبدى مقدرة في هذا النوع من اللعب . فكلفت هذه المناسبات الاجتماعية فرصة للتدريب من ناحية وإظهار براعتهم من ناحية أخرى . وكانت هذه الاستعراضات تتكرر في المناسبات العظيمة كاستقبال الضيوف وتوديعهم (٥٠) أو الاحتفال بالزواج أو ميلاد ابن لأحد زعمائهم . ولعل هذه المناسبات تشبه الى حد بعيد الاستعراضات Tournements التي كان فرسان المصور الوسطى في أوروبا يقومونها من أجل هذه المناسبات أيضا . كما كان الفرسان يخرجون في بعض الأحيان لصحبة ملوكهم في الصيد وكان هذا يعتبر تدريبا لهم على الرماية . كما كان من واجبهم أن يلبوا دعوة الامبراطور اذا أرسلهم سفارة الى دولة أجنبية لغرض من الأغراض . وكثيرا ما قدموا الى مصر يحملون الهدايا والكتب المتبادلة بين الأباطرة وبطريق الأقباط . وخلفاء الفاطميين أو سلاطين الماليك وغيرهم من ولاية مصر .

ملابس الفرسان

لم يعرف الأثيوبيون خلال المصور الوسطى الملابس الحربية المصنوعة من الحديد أو الصلب أو الزرد لوقاية أجسامهم بل كانوا يخرجون الى المعركة بملابسهم العادية وهى البنطلون (السروال) الطويل الأبيض وعليه رداء طويل يشبه القميص يصل الى ما بعد الركبة بقليل . وفوق هذا قميص واسع من القماش القطنى المخطط وقد يلبس أغنيائهم الحرير والأبراد اليمنية (٥١) وفى

(٥٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٧
(٥١)

وسطهم حزام عريض من الجلد لأجل أن يعلقوا به سلاحهم • وفوق هذا كله رداء من الجوخ يسدل على ظهورهم وصدرهم ويصل الى ما فوق القدم بقليل ولكنه يقصر عند الذراعين فلا يصل الى ما فوق الكوع • والنصف الأمامي منه مقسوم الى قسمين متشابهين بمشابك من الفضة أو الذهب عند الصدر • وأطراف



شكل رقم (١)

هذا الرداء مطرزة بخيوط من الذهب والفضة • وكان كبار القواد يخرسون على أن يضعوا حول أعناقهم وعلى أكتافهم أجزاء من لبد الأسد (٥٢) أنظر شكل (١) •

وعنوا بأن يعصبوا رؤوسهم أيضا بأجزاء من لبد الأسد تلتف حول رؤوسهم تاركة أعلاها مكشوفة . ولم يبد منهم اهتمام بوضع جلود لحيوانات أخرى غير الأسد مثل النمر أو الفهود . أو الضباع أو غيرها . وقد شاهد هذه الملابس كوفلهام البرتغالي حين قدم الى أثيوبيا في القرن الخامس عشر الميلادي وعنى بوصفها (٥٣) وقد ظل الأثيوبيون يعرصون على هذه الملابس طوال العصور الوسطى والحديثة حتى اذا ولي العرش الامبراطور هيلاسلاسي في سنة ١٩٣١ وحرص على أن يدخل النظام الحديث الى جيشه . ترك كل هذه الملابس ولكنه حرص على أن يزين أفراد حرسه قبعاتهم واكتاف ملابسهم الحديثة بأجزاء من لبد الأسد (٥٤) .

واذا كان هناك من الفرسان الأثيوبيين من عرف الملابس المصنوعة من الصلب لوقاية الأبدان فان جيوش الامام أحمد بن ابراهيم كانت أول من عرفها واستعملوها في حروبهم بعد أن عرفوها من الأتراك (٥٥) وأمدوهم بها ضمن ما أعطوهم من أسلحة الحرب .

واذا ما انتهت هذه الحرب بهزيمة الامام أحمد فان الأثيوبيين لم يحاولوا استعمال هذه الملابس بعد ذلك قط .

وقد يستبدلون بمصابة الرأس رباطا عريضا من القماش المحلي بخيوط الذهب في أشكال جميلة وينتهي من الخلف بمشبك تتدلى منه خصلة طويلة من ذنب الحصان طولها قدمان . تتسلل على ظهر الفارس وتتدلى من حواف عصابة الرأس كرات صغيرة من القماش المذهب معلقة في خيوط ذهبية رفيعة أنظر الشكل (٢) .

أما من الامام فيزين هذه المصابة قطعة ذهبية مستديرة الشكل أو مربعة يرتفع منها الى ارتفاع قدم تقريبا ما يشبه القرن من المعدن المذهب . وقد يحمل الفارس مظلة صغيرة لا تزيد كثيرا عن حجم الرأس مصنوعة من الخوص المجداول . وهي لا تعلق . يسكها بنفسه ويعطيها لتابعه اذا ترجل .

Histoire de Galewdeos p. 192

(٥٣)

Farago. picture p. 148

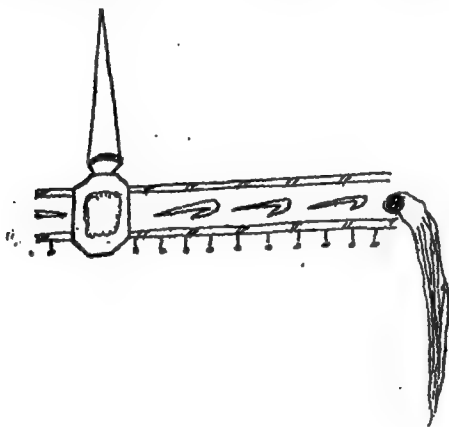
(٥٤)

Bruce III p. 120.

(٥٥)

ولكن الفرسان المسلمين فلم يكونوا يلبسون هذا النوع من ملابس الرأس بل كانوا دائما يفضلون العمامة الكبيرة وغالبا ما يكون شالها من الحرير الأبيض (٥٦) مطرزة ببعض سلوك الذهب الرفيع .

كما كان الفرسان يتحلون في العادة بأقراط كبيرة من الذهب أو الفضة . ولا يلبس غطاء الرأس وكذلك لبد الأسد الا في أوقات الحرب . أما في أوقات السلم فان كوفلهم يذكر لنا أنهم كانوا يلبسون حول أعناقهم عقودا من الذهب وغيره من الجواهر كما يتمنطقون بأحزمة عريضة من الجلد أو الحرير ذي



شكل رقم (٢)

الألوان الزاهية تزينه فصوص الجواهر الكريمة كما يذكر لنا الحيبي أنه شاهدهم وقد (جعلوا في أوساطهم مناطق الذهب المحلاة بالفصوص الفاخرة ونفيس الجواهر . وقد أخذوا في أيديهم السيوف النارية المحلاة بالذهب . كما وضعوا في أيديهم أساور الذهب) .

وكانوا يستوردون ما يلزمهم من هذه الأقمشة الرفيعة الغالية من الهند واليمن وكانت السفن الكبيرة تنقلها الى جدة ثم تنقلها سفنهم الصغيرة الى مصوع أما قراءهم فكانوا يلبسون الملابس القطنية المصنوعة محليا فقد كانوا يستوردون خيوط القطن من اليمن ومصر وتسج في بعض المصانع الوطنية وكانت كثيرة في عدوة وسيرة (٥٧) .

كما كان الفرسان يجرسون على تجميل أنفسهم فكانوا يكترون من استعمال الكحل الذي يستوردونه بكميات كبيرة من مصر وكانت الجواهر تحمل اليهم من سيلان . ويقوم على صياغتها في العاصمة وبعض البلاد الأخرى عمال مهرة من الهنود (٥٨) وكانوا يسدلون على أكتافهم برانس من الحرير أو القطيفة ويفضلون دائما اللون الأزرق المبطن بالأحمر أو الأحمر المبطن بالأزرق (٥٩) وكانت له حافة مطرزة بالذهب أو الفضة ويسير وراءه أحد أتباعه حاملا عصاه التي يبلغ طولها خمسة أقدام مزينة بخيوط رفيعة من الذهب أو الفضة أيضا . كما يعصبون رؤوسهم بعصائب كبيرة من الحرير المطرزة تدور حول رؤوسهم ويبقى وسط الرأس مكشوبا . على أن هذا كان قاصرا على كبار الفرسان أما غيرهم فرأسه مكشوفة (٦٠) .

أما الأقدام فغالبا ما كان الفارس الأيوبي حافي القدمين اذ لم يعرفوا النعال الا في أوقات متأخرة ولأجل ذلك كانت ركاب خيولهم دائما حلقات من الحديد الرفيع يدسونها بين أقدام قدمهم وسبابته (٦١) لكنهم عرفوا الخفاف البسيطة المصنوعة من جلد الماعز في بداية العصر الحديث ويدعو أن اتصالهم بالبرتغاليين هو الذي علمهم ذلك . ولكن يبدو أنهم كانوا يبنذونها في وقت الحرب ويلبسونها في أوقات السلم على أن يخلعوها اذا حظوا بمقابلة الملك .

ولم يكن اهتمام الفرسان بملابس الخيول أقل من اهتمامهم بملابس الفرسان فكان الفرس يغطي من رأسه الى نهاية كفه بقماش مسبل غالبا ما يكون من

Bruce III p. 66.

(٥٧)

(٥٨) صبح الأعشى ج ٨ ص ١٣٥

(٥٩) سيرة الحشّة ص ٣١ من النص

(٦٠) صبح الأعشى ج ٥ ص ٣٠٧

Bruce III p. 198.

(٦١)

القطن • وأكثر ما يكون بنى اللون كى يتلائم مع جلد الأسد الذين يزين
 الفارس (١٢) ويلتف حول الحيوان حزام عريض من الجلد كى يحافظ على بقاء
 هذا الغطاء • وينتهى هذا الغطاء بخيوط رفيعة تسدل على جانبيه وتصل إلى
 ما يقرب من سطح الأرض • أما رأس الحصان فتغطى من الجانبين بغطاء يزين
 من جانبيه الفم بريش طويل من ريش النعام يرتفع إلى ما يوازى الأذنين (١٣) •
 أما السرج فكان دائما كبير الحجم له مسندان أحدهما من الأمام والآخر
 من الخلف تغطيه الأغشية الجميلة الثمينة الغالية الثمن •

سلاح الفرسان

١ - أسلحة الهجوم : لم يعرف الفرسان الأثيوبيون السيف المعتدل الطول
 بل كان سيفهم دائما مقوسا ولا يزيد طوله قليلا عن المتر الواحد وهو من
 الصلب الثقيل ولا يزيد عرض النصل قرب المقبض عن ثمانية سنتيمترات



شكل رقم (٢)

ويوضع في جراب من الممدن المكسو بالجلد • وهو مسنون من الناحية الخارجة
 وكان السيف أول أدوات القتال استعمالا يعلق في الحزام الجلدى في الناحية
 اليسرى كى يتمكن الفارس من تناوله بسهولة بيده اليمنى بينما يتقى الضربات
 بالدرع أو الترس وهو معلق باليد اليسرى • ولا يلجأ الفارس إلى العزّة إلا
 السكين إلا اذا سقط السيف من يده أو كسر (١٤) واشتهر إقليم سمرقند في تجزئة
 صناعة السيوف السمرقية وذكروها كثيرا في أشعارهم • أنظر شكل (٣) •

Druce III. p. 120.

Yn Portugallat p. 85.

Druce III. p. 219.

(١٢)

(١٣)

(١٤)

(ب) الحربة : وهى سن يبلغ طولها ثلاثين سنتيمترا من الحديد مدية من أعلاها وتتسع كلما اتجهنا نحو القاعدة • وتركب فى أعلى عصا رفيعة اسطوانية يصل طولها انى مترين أو أكثر قليلا • وقد يكون فى الجزء الأدنى منها خطاطيف ملتوية بعضها الى أعلى وبعضها الى أسفل لتعلق بها قطع من القماش دلالة على استعمالها لقتل الأعداء (١٥) وقد تتخذ سنان بعض الجراب من الذهب ولكنها لم تكن تستعمل الا فى الاحتفالات وهى تستعمل للطنن ؛ أنظر شكل رقم (٤) •



شكل رقم (٤)

(ج) الرمح : وهو يشبه الحربة فى شكلها ولكنها قصيرة المصافى لا تزيد عن المتر الواحد وليس له خطاطيف • وهو يرميها من بعيد وقد أشهرت الرماح المدولية فذكرها الشعراء فى كثير من أشعارهم • أنظر شكل رقم (٥) •



شكل رقم (٥)

(د) العنزة : وهى كالرمح ولكن عصاها رفيعة قصيرة ويطعن بها ولا ترمى كالرمح ويفضلها الذين يقاتلون قتالا غير نظامى • ولها جراب كجراب السيف ولكنه يتصل بالحزام مباشرة •



شكل رقم (٦)

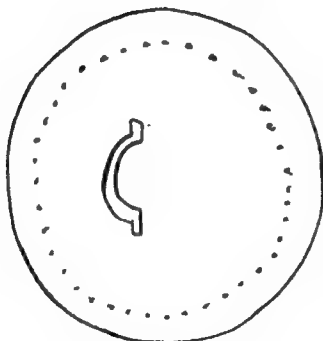
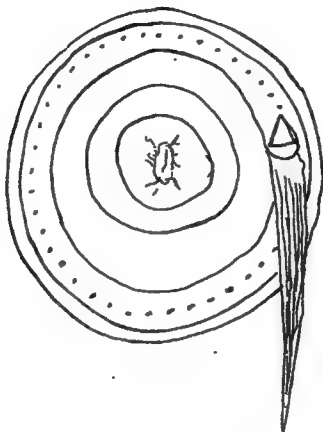
(هـ) السكين : وهى فصل رفيع مستقيم لا يتعدى طولها العشرين سنتيمترا وتعلق كل من الحربة والرمح الى يمين سرج الفارس أما السكين فتوضع داخل جرابها وتوضع فيما بين الحزام الجلدى والصدر الى اليسار ، أنظر شكل رقم (٦) •

وقد قدم الى أثيوبيا في أيام الامبراطور اسحق (١٤١٤ - ١٤٢٧) فارسان من الماليك هربا من مصر وكان أحدهما يسمى طنب أغا . استخدمهما الامبراطور في تدريب فرسانه ومن ذلك ندرك أن النظام الحربى للفرسان الأثيوبيين لم يكن قد بلغ مبلغ النظام الحربى المملوكى من التدريب الحسن المنتظم . وتقول الرواية أن أحدهما علم الأثيوبيين استعمال سلاح جديد هو النار الاغريقية . وهى كرات كبيرة من القماش مشتعلة يقذف بها بواسطة جهاز خاص . بعد غمسها فى البترول . ولذا أطلق عليها الأثيوبيون اسم النبط وظلت هذه الأسلحة هى الوحيدة المستعملة فى أثيوبيا حتى قام الامام أحمد بن ابراهيم بثورته ففاجأهم بالبناحق فانهار تفوقهم السابق .

٢ - أدوات الدفاع : يتشء الدفاع أو الترس . ويسميه الأثيوبيون *me* وهو مستدير دائريا محلب الى أعلى . ولم يعرف الأثيوبيون الدرع الأوروبي المثلث الصغير أو الذى كان يغطى جسم الفارس . وبينما كان درع الفارس الأوروبي مصنوعا من الصلب كان الدرع الأثيوبى مصنوعا من أربع طبقات من جلد الجاموس السميك (١١) أو طبقتين من جلود الفيلة . وتضم هذه الطبقات الى بعضها بمسامير صغيرة تدور حول حافته الخارجية . وقد يكون للدرع حافة من المعدن تساعد على تثبيت الطبقات مع بعضها ثم تدور حول مركز الدرع حلقات من الشرائط المعدنية مثبتة بمسامير أيضا . وفى باطن الدرع فى الوسط مقبض من الجلد السميك يمسك به الفارس أنظر شكل (٧) فتكون وقاية ليده اليسرى التى تتحرك بسهولة لحماية صدره وتتوقف حياة الفارس على خفته وسرعة تحرك يده اليسرى وفيها الدرع . ولبعض الدروع مقبض بدلا من واحد . يدخل الذراع الأيسر فى الأول الى ما قبل الكوع ثم توضع اليد على الآخر .

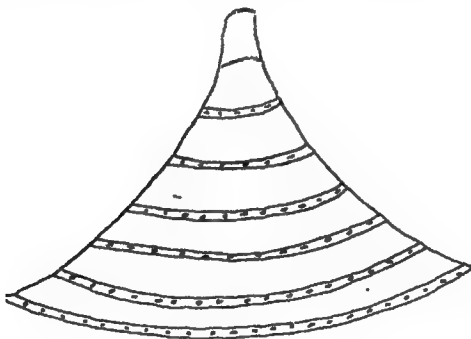
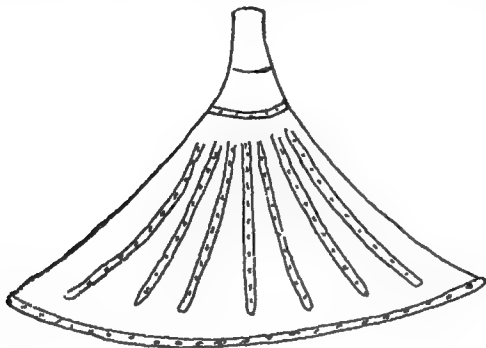
وبعض الدروع مخروطية الشكل يرتفع مركزها عن بقية سطح الدرع وتغطى هذه القمة بطبقة من المعدن . ثم تدور الأشرطة المعدنية المثبتة بالمسامير حول

هذه القمة • حتى تنتهى بالحافة الخارجية • ولكن قد تبدأ هذه الأشرطة المعدنية
من المركز متجة نحو المحيط الخارجى • وكلتا تقاربت هذه الأشرطة من بعضها



شكل رقم (٧)

كان الدرع أكثر صلابة وأشد مقاومة للطعنات شكل (٨) وقد تكون هذه الشرائط التي تضم طبقات الدرع من الذهب أو الفضة .



شكل رقم (٨)

وقد عرف الفرسان المسلمون أيام ثورة الامام أحمد الصدارى والملابس المصنوعة من الصلب (٣) ويبدو أن البرتغاليين قد لبسوها أيضا ولكنهم لم

Histoire de Glawdewos p. 125.

(٦٧)

يتركوا شيئا منها بعد انسحابهم فلم نجد لها ذكرا فيما دار بعد ذلك من المعارك كما يبدو أنهم لم يتعلموا منهم استعمال البنادق . فقد ظلوا يفرعون من سماع أصواتها (٦٨) فكانوا يهربون عند سماع أصواتها . فقد وصل الحسن بن أحمد الحميى الى الأبواب السلطانية فأمر من معه بإطلاق البنادق على نحو ما كان يفعل اليمينيون فلما سمع السلطان صوتها هرب من ابوانه كما هرب الوزراء وسائر أصحابه (٦٩) .

ويبدو أن نزول المسلمين في النواحي الشرقية من أثيوبيا قد قطع عنهم الموارد التي كانوا يستمدون منها ثقافتهم فأخذت البلاد تدخل في دور من التقهقر رأينا أثره واضحا في سقوط الأسرة القديمة وقيام الأسرة الزجوية في القرن العاشر كما رأينا أثره أيضا في انحدار صناعة الأسلحة فصاروا يستوردونها من الخارج فرأينا حسن بن أحمد الحميى يقول أنه شاهدهم يمسكون بالسيوف السنارية (٧٠) ولكن ظلت صناعة الدروع مع ذلك وطنية ويبدو أنها بلغت حدا كبيرا من الجودة أغتتهم عن استيراد أنواع أجنبية .

ومن أجل القمصان وما يريدونه من ملابس وأدوات حرية قامت صناعات كثيرة اشتغل بها كثير من السكان . مثل صناعة السيوف والحراب والعنزات والدروع وتطريز الملابس بخيوط الذهب وتزيينها بلبد الأمد وكذلك صناعة السروج والأعنة . وكذلك اشتغل كثير من الهنود بصناعة الحلوى . فعملوا في طلاء القطع بالذهب أو اقضة .

ويبدو أن عدد الصناع كان قليلا مما أدى الى ارتفاع اثمان هذه الأشياء فلم يكن يستعملها الا القادرون . وكانت قلة عدد الصناع نتيجة لاحتقار الأثيوبيين للصناعة ومن يعمل بها (٧١) .

(٦٨) سيرة الحبشة ص ١٨ من المقدمة

(٦٩) نفس المصدر والصفحة

(٧٠) نفس المصدر ص ٢١ من النص

(٧١)

طريقة الحرب :

كانت المواجهة هي طريقة الحرب الوحيدة اذ يظل الجيش متقدما وهو يرسل ملاحه من الفرسان بحثا عن العدو حتى يجده . فاذا ما حصل الخبر الى الملك أسرع فعقد مجلس الحرب لمناقشة ما حملته اليه الملاح من معلومات . واذا ما قرر المهاجمة ومكانها ، أخذت طليعة أخرى من الفرسان في التدخل حتى تستدرج العدو الى المكان الذي يفضل أن تدور المعركة فيه . واذا تم هذا كله عمل الجيش على محاصرة العدو من جميع الجهات لقطع المدد عنه ثم الهجوم عليه بالقلب مع اصدار صرخات خاصة لفرض ايقاع الاضطراب بين الصفوف . وفي نفس الوقت يدخل المشاة بين صفوف الفرسان يستعملون أسلحتهم الخاصة وهي غالبا ما تكون الحراب .

وكان اضطراب العدو أثر الهجوم الأول هو أكبر ما يعتمد عليه الجيش المهاجم (٣) ولذا كان الهجوم يتركز أكثر ما يكون على قائد الجيش الأكبر أو الملك (٣) لأن قتل القائد الأكبر أو الملك كان غالبا ما يسبب الارتباك بين صفوف الجند ويؤدي الى هزيمته ولكن ذلك لم يكن يمنع من وجود الملك دائما على رأس الجيش في وسط القلب وكان وجوده بينهم من أكبر بواعث الحماس في نفوس الفرسان (٣) ولا بد أن يصحبه حامل العلم وهو يكون في العادة وراء الملك مباشرة . وقد حرص الملوك دائما على أن يطرزوا أعلامهم بالأسد (الخارج من سبط يهوذا) . على أنهم لم يكونوا يحافظون على لون معين لهذا الأسد فكان أبيض أو أحمر أو أصفر ولم يكن هناك علم واحد بل لابد أن يكون لكل ملك علم بجواره وهو صورة من العلم الأثيوبي ولكنه يحمل علامة خاصة تدل على صاحبه كما تملو عصا العلم في الغالب كرة كبيرة مفرغة من الذهب أو المعدن المذهب يعلوها صليب من الذهب أيضا (أنظر شكل ٩) .

Ya Portugalteh p. 86.

Ibid p. 81.

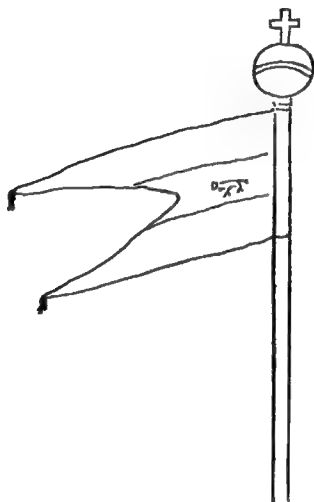
Ya Etiopia Tarik p. 82.

(٧٢)

(٧٣)

(٧٤)

وكان السيف أول أدوات القتال استعمالا يمسكه الفارس بيمنه بينما يتلقى ما يوجه اليه من ضربات بالدرع وهو معلق باليد اليسرى . ولا يلجأ الفارس الى العنزة أو السكين الا اذا وقع السيف من يده أو كسر (٧٥) واذا ما انتهى من هذه الأسلحة أمسك بالحرية - وهي معلقة بسرجه من ناحية اليمين - وأخذ يطمئن بها يمينا ويساراه ولم يكن القتال يدور الا نهارا وغالبا ما تنتهي المعركة في يوم واحد ونادرا ما كانت تستمر أكثر من ذلك .



شكل رقم (٩)

وكانت الضحايا بين الجرحى بسبب عدم العناية باقتادهم تعرق كثيرا من يموتون خلالها .

وإذا ما انتهت المعركة بالانتصار كافأ الملك فرسانه بإباحة معسكر العدو
لجنوده أو إباحة المدينة فينهبها الجنود . ويلى ذلك وليمة كبيرة تسمى (جبر)
يشارك فيها الجنود قوادهم الأكل والشراب الذى يقوم الجند بعمله غلة
المعركة .

قلاع الفرسان

اهتم الأثيوبيون ببناء القلاع على رأس الأما من أجل مراقبة الطرق التى تقود
اليهم وأقام بها عدد من الفرسان لحمايتها يرأسهم رئيس القلعة وهو بالامباراس
وهو المكلف باستدعاء الفرسان . إذا ظهر الخطر . ونحن لا نعرف تماما الوقت
الذى ظهرت فيه القلعة الى عالم الوجود ولا بد أنه قديم جدا ما دامت طبيعة
البلاد توحى بالعرب أكثر ما توحى بالسلام . ولم يكن بناء القلاع يختلف عن
بناء البيوت العادية سواء من حيث مادة البناء أو التصميم ولكن مع
البرتغاليين فى القرن السادس عشر لنجدة الأثيوبيين فى جهادهم كانت نقطة
التحول فى بناء القلعة اذ أدخلوا نوعا جديدا منها هو القلاع المبنية من الحجر
التي تحوى أبراجا مستديرة عالية عند الزوايا . والذى لا توجد له الا قليل من
الفتحات الصغيرة التى تطلق منها السهام أو البنادق . وما زالت بقايا قلعة
فاسيلاداس تشهد ابتداء هذا الطور من البناء فى جونداد ويبدو أن هذا النوع
من القلاع الحجرية لم يتيسر كثيرا اذا أن صناعته أو طريقته لم تتقدم كثيرا
بسبب سياسة العزلة التى انتهجتها الأباطرة بعد فاسيلاداس .

بيان الصادر

- Budge, Sir. W. History of Ethiopia; London 1929.
Cerrulli; Rassegna di Studi Etiopici V. I. Anno I.
Couvellham, W. Histoire de Gelawdewos Paris 1875.
Coulbeaux; Histoire Politique et Religieuse de l'Ethiopie Paris 1929.
Farago. L. Abyssinia on the eve. Lon 1935.
Heroni, Blaten Gueta; Ya Etiopia Tarik. Addis Abeba 1980.
James Bruce; Travels to Discover the Sources of the Nile Edinburch 1890.
Jones; History of Ethiopia.
Kamerer. A.; La Mer Rouge. L'Abyssinie, et l'Arabie Le Caire 1935.
Lyn Thorndike; Medieval Europe. London.
Morié; Histoire d'Ethiopie.
Murad Kamel; Ya portugalutch Djagennanat. Addis Abeba 1944.
Rossini. Conti, Revue Semetique 1902.

الحيمي الحسن بن احمد : سيرة الحبشة القاهرة ١٩٥٨
التلقشندى أبو العباسى بن احمد : صبح الأعشى .
الشيخ القنائى الأزهرى : الجواهر الحصان فى تاريخ الحبشان مصر ١٣٢١ هـ
المقرئى : الامام باخيار من بارض الحبشة من ملوك الاسلام مصر ١٨٦٥
التبر المسبوك فى ذيل السلوك .

التوثيقات الشرعية والاشهادات

في ظهر وثيقة الغورى*

بقلم الدكتور عبد اللطيف ابراهيم

مقدمة :

هذه هي الاشهادات الشرعية أو الاسجلات الحكيمة والتنفيذية — على حد التعمير المصطلح عليه في العصر المملوكى — الواردة في ظهر وثيقة وقف السلطان الملك الاشرف أبر النصر فأنصوه النورى المحفوظة بأرشف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٢ تظهر اليوم لأول مرة كنموذج للتوثيقات الشرعية والاشهادات في ذلك العصر — أعنى في بداية القرن ١٠ هـ / ١٦ م أو في أواخر عصر المماليك عامة .

ولم يكن لهذا البحث مكان في دراساتي للدرجة الدكتوراه لأسباب أهمها رغبة أستاذي الجليل الدكتور أودلف جروهمان في ارجائه للمستقبل باعتباره عملا علميا مستقلا قائما بذاته . ولقد كان سيادته بيد النظر محققا في رأيه ، لأن طبيعة هذا البحث تحتاج إلى دراسة في القانون عامة وفي الفقه والشريعة الاسلامية خاصة قبل الاندماج على كتابته .

حقا إن دراسة الوثائق الدبلوماسية تعتمد لحد كبير على القانون ، وجذا لو أسهم بعض رجال القانون في هذا الميدان ببجهودهم لكن نخرج بنتائج — أرجو أن تكون جديدة — في تاريخ القانون عامة والشريعة الاسلامية وخاصة المعاملات الشرعية .

(*) أهدى هذا البحث إلى روح المرحوم الأستاذ الدكتور عبد الوهاب مزام صاحب « مجالس السلطان النورى » .

والواقع إن نشر وحراسة هذه الشهادات وأمثالها تقدم لنا لونا جديداً من ألوان الدراسة الوثائقية الناشئة في مصر والعالم العربي كله ، هذا بالإضافة إلى ما تقدمه لنا من معلومات فريدة في مختلف ميادين الدراسة التاريخية والقانونية على السواء .

وهذه الشهادات تمدنا بعدد كبير من الانقلاب الرسمية والضرية المفردة والمركبة الخاصة بسلاطين الممالك والقضاة ^(١) في ذلك العصر بما لم يرد لبعضه ذكر في المصادر الأدبية أو المادية ، كما أنها تقدم لنا عدداً من أسماء القضاة الشهود المدلول ممن كان لبعضهم مقام معلوم في تاريخ القضاء والعدالة . وهي تدلنا كذلك على الطريقة التي اتبعت في توثيق الأوقاف بالذات — من الشهادات عليها وتسجيلها — وهي لون متميز من التصرفات القانونية التي كان يجب إحاطتها بالقوة التنفيذية على أيدي قضاة القضاء الأربعة أو نوابهم ، كما نجد فيها دراسة طيبة لمسبغ الاسجلات الحكومية والتنفيذية وخاصة الافتتاحيات (البسلة والصليحة والممدلة) والتواريخ والحسبة ^(٢) .

أولاً : الدراسة الشكلية .

١ - الملصق الخارجي لظهر الوثيقة :

لا تبدأ كتابة الشهادات في أول ظهر الوثيقة مباشرة بل نجد ياضاً طوله ١٣٠ سم ، والجزء الأول منه ورق سميك خشن الملمس يميل إلى اللون البني يبلغ طوله ١١٢ سم ، والباقي قدره ١٧ سم من الورق الأبيض الضارب إلى الاصفرار ، المصقول مع لبونة ولعله من الورق المعروف بالجموى ^(٣) .

(١) أنظر ألتاب السلطان النوردي وقضاة للقضاء الأربعة الواردة في نس الشهادات وخاتمة ألتاب أبو لباس أحمد بن الفرغفور الشافعي سطر ٢٠١ — ٢١٣

(٢) القائنندي : مسبح الأعشى ج ٦ ص ٢١٧ — ٢٢٩ ، ٢٣٤ — ٢٦٢ ، ٢٦٧ — ٢٧٠

(٣) صورة وثيقة النوردي أوقف رقم ٨٨٢ ص ٩٠ . هذا والورق الجموى من صناعة الشام في المصور الوسطى ، وهو دون قطع البغدادي ، وكان كثير التداول في مصر إبان العصر المملوكي كله . القائنندي : مسبح الأعشى ج ٢ ص ٤٨٧

جدول رقم ١

« بيان بطول كل درج من اندروج وعرضه بالسنتيمتر وتعدد سطوره »

رقم الدرج	طول الدرج	متوسط عرض الدرج	عرض الماش الأيمن	عدد سطوره الدرج
١	٤٨,٥	٢٥,٦	١٠	٩
٢	٥٢,٥	٢٦,٢	١٠	١٤
٣	٥٢,٢	٢٦,٥	١٠,٦	١٢
٤	٥٤	٢٦,٤	٩,٥ — ١٠,٥	١٢
٥	٥٢,٩	٢٦,٢	٨,٥ — ١٠,٢	١٢
٦	٥٢,٥	٢٦,٤	٧,٨ — ١٢,٣	١٤
٧	٥٤	٢٦,٨	٦,٥ — ١١,٣	١٠
٨	٥٢,٤	٢٦,٥	١٠,٣ — ١١,٨	١٠
٩	٥٢,٤	٢٦,٤	١٢,١	١١
١٠	٥٢,٥	٢٦,٧	١٢,٢ — ١٢,٦	١٣
١١	٥٢,٩	٢٦,٨	٩,٨ — ١٠,٣	١٦
١٢	٥٢,٩	٢٦,٥	٤,٥ — ٩,٩	١٢
١٣	٥٢,٢	٢٦,٤	١٠,٥	١١
١٤	٥٢,٤	٢٦,٦	١٠	١١
١٥	٥٤,٥	٢٦,٢	١٠,٢	١٥
١٦	٥٢,٧	٢٦,٥	١٠,٣	١٥
١٧	٥٤	٢٦,٥	٩,٥ — ١٠	٧
١٨	٥٢,٥	٢٦,٥	١٠,٣	١٠
١٩	٥٢,٦	٢٦,٢	٩,٥ — ١٠,٣	١١
٢٠	٥٤	٢٦,٥	٩ — ١٠	١١
٢١	٥٢,٢	٢٦,٥	٩,٨ — ١٠,٣	١٢
٢٢	٥٤,٣	٢٦,٧	٩,٥ — ١٠,٣	١٢
٢٣	٥٢,٥	٢٦,٧	٨,٥ — ٩,٩	٦

(*) الجزء المكتوب من هذا الدرج يشغل مساحة قدوما ٢١ سم فقط.

والخبر الذي كُتِبَ به الشهادات الأربعة أسود اللون ، فهو حجر الدخان الذي يتلبس الورق^(٤) . وبعض الألفاظ انمحي لون الخبر من عليها أو كاد ، ولم يبق منها إلا آثار باهتة تدل على الكلمات أو الحروف وخاصة في نهاية السطور .

ويبلغ طول الجزء الذي تشغله هذه الشهادات الأربعة التي تقوم على نشرها ١١ م ، ٩٤٣ سم - وعدد الدروج ٢٣ درجاً ، يتراوح طول الدرج الواحد منها بين ٤٨٥ - ٥٤٣ سم ، وعرضه بين ٣٥٥ - ٣٦٨ سم ، أما عدد سطور الشهادات كلها فهو ٢٦٦ سطراً ، وبما تفاوت عددها في كل درج بين ٩ - ١٦ سطراً^(٥) .

وقد جرى تأليف الشهادات والشهود جميعاً عند شهادتهم على ترك الجزء الأيمن - حوالي ٩ سم - وهو الراج من مساحة عرض الدرج أيضاً دون كتابة كهأش أيمن إلا ما دونته قضاة القضاة بخطهم فيه عند بداية الشهادات الثلاثة الأولى من عبارات خاصة بالتسجيل^(٦) .

هذا ويوجد بين كل شهادة والتي يليه يياض يتفاوت طوله بين ٦٥ - ٢٧ سم ، والفراغ بين توقيع كل شاهد والشهادة التالية يتراوح بين ١٢ - ١٥٤ سم . ففي الشهادات الأولى نجد يياضاً بين السطر ٥٢ و ٥٤ طوله ١٥٤ سم ، وبين السطر ٦٢ و ٦٣ طوله ٨٥ سم وبين السطر ٦٥ و ٦٦ طوله ٧ سم . كما نجد فراغاً بين شهادة الشهود في الشهادات الأولى وبداية لشهادة الثاني أي بين السطر ٧٢ و ٧٤ طوله ٦٥ سم وبين السطر ٨٦ و ٨٧ طوله ٤ سم وبين السطر ١١٧ و ١١٨ طوله ٦٥ سم ثم نجد يياضاً بين شهادة الشهود في الشهادات الثاني وبداية الشهادة الثالث أي بين السطر ١٤١ و ١٤٢ طوله ١٤٨ سم ، وبين السطر ١٩٥ و ١٩٦ طوله ٥ سم . وأخيراً نجد فراغاً بين شهادة الشهود في الشهادة الثالث وبداية

(٤) الفانشندي : نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٤٧٦

(٥) انظر الجدول رقم ١ حيث نجد يياضاً مفصلاً بذلك .

(٦) انظر بحثنا هذا : عبارات التسجيل ، ص ٣٠٦ والتحقق رقم ٣ : وكذلك بحثنا وثيقة الأمير أخور كبير فرانجا الحسني (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ١٩٠

الاشهاد الرابع أى بين السطر ١٩٧ و ١٩٨ طوله ٢٧ سم ، وبين السطر ٢٠٢ و ٢٠٣ طوله ٣٦ سم وبين السطر ٢٣٩ و ٢٤٠ طوله ١٢ سم (٧)

هذا ونجد بين السطرين رقم ٢٥٤ و ٢٥٥ كتابة بخط دقيق جداً يشبه خط الفبار (٨) ، وهو قلم مخالف تماماً لحظ الاشهادات الأربعة ، وقى تاريخ متأخر هو ٢٧ رجب سنة [.....] بن وتسماية ، ويبدأ بما نصه :

« الحمد لله وحده

وقف من سيفع خطه

وينتهى بما يلى : « وحسبنا الله ونعم الوكيل ،

وأمام السطر ٢٦٠ نجد نصاً على الهامش الأيمن يرجع إلى العصر العثماني ويبدأ بما يلى :

« الحمد لله وحده

الامر كما نسب إلى فيه زبره العبد الفقير

محمد بن يحيى التراقى المالكي

عفى عنها

بالباب العالى اعلاه الله تعالى

هذا ويشغل الجزء الأخير من الاشهاد الرابع - أعنى شهادة بعض الشهود - مساحة قدرها ٢١ سم فقط من طول الدرج رقم ٢٣ . ثم نجد بعد ذلك أيضاً طوله ٩٥ سم ثم إشارات متأخرة من العصر العثماني ، ترجع تواريخها إلى ٨ ذى الحجة سنة ٩٢٣ هـ ، وإلى سنة ٩٧٩ هـ ، ٩٩٢ هـ وهى تواريخ لا علاقة لها بالاشهادات أو الاسجلات التى تقوم بنشرها ودراستها ، والتى تخص التصرف القانونى الوارد فى وجه الوثيقة والتى يرجع إلى سنة ٩١١ هـ أى فى العصر المملوكى ، ومن ثم فهى لا تدخل فى نطاق بحثنا هذا .

* * *

(٧) التلقيندى : نفس المصدر ج ٦ ص ١٩٥ - ١٩٦

(٨) سمى خط الفبار بذلك لأن السطر يصف عند رؤيته لهفة ، كما يصف عند رؤية النى .

عند توران الفبار وتعليقه له . التلقيندى : نفس المصدر ج ٣ ص ١٢٨

أما خط الإشهاديات الأربعة - فيما عدا عبارات التسجيل والتحديدات والتواريخ والحسبة التي كتبت بقلم جليل لعله الثالث ^(١١) - فهو من النوع المعروف بالديواني وهو من سلاطة خط الذوق المطلق الذي كان يستعمل في تحرير الوثائق العريقة الشرعية في العصر المملوكي عامة ^(١٢)

وقد سار كاتب الإشهاديات على القواعد المربعة في كتابة وثائق ذلك العصر من علم الاهتمام بقواعد الإملاء مثل مدا سطر ١٥ ، ابن سطر ٢٣ ، ٨١ ، ٩٥ ، ٢١١ - كما أهمل القنط كثيرا ^(١٣) بل لقد أهمله الكاتب في سطور بأكملها مثل السطر رقم ٤٦ ، ٥٠ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٢١٨ .

هذا ويلاحظ أن الهزة اللينة تعاقب ياء في وسط اللفظ مثل تضايه سطر ٣٠ ، ٨٤ ، ١٥١ ، ٢١٦ وتسعايه سطر ٢٣ ، ٨٧ ، ١٥٣ ، ٢١٩ ومسيولا وشرايطه سطر ٢٩ ، ١٠٦ ، ١٦٩ ، ٢٣٧ . وتهمل الهزة تماما إذا وردت في نهاية الكلمة مثل الارا سطر ٧ ، الاربعاء سطر ٨٦ شكل ١٩ والعلما سطر ٢٠٤ والفربا سطر ٢٠٨ ورجا سطر ٢٠٩ . ولم يضع الكاتب الشكل إلا على البسلة ^(١٤) في السطر الأول من كل إشهاد من الإشهاديات الأربعة ، كما تلاحظ اتصال حروف بعض الكلمات بالتي تليها أحيانا ، أو كتابة اللفظ نفسه بطريقة غير عادية فيها تحوير واضح واختصار أو إغفال لبعض الحروف تبعا لطريقة الكاتب أو لسرعته في الكتابة ، وهذا وذلك يجعل من الصعب - على الباحثين - قراءته مثل كلمة خيري

(١١) التفتشدي : نفس المصدر ج ٣ ص ٥٨ ، ١٠٠ - وقد كتبت ألفاظ هذه البيانات المختلفة بحروف كبيرة إذ يبلغ طول الألف في كلمة « الجد » ٤ سم ، « ٩ » ٦ سم في سطر ٢ ، ١٩٩ على التوالي شكل ١٤ ، ١٧ ، وطول الألف في كلمة « الثاني » ٣ سم ، « الأول » ٤ سم سطر ٣٢ شكل ١٨ ، وفي كلمة « الخميس » ٤ سم ، « المبارك » ٢ سم ، « الرابع » ٢ سم سطر ١٥٣ شكل ٢٠ ، وفي كلمة « السابع » ٤ سم سطر ٢١٨ شكل ٢١ .

(١٢) بمقتنا وثيقة الأمير أخوور كبير قرانجا الحسني (مجلة كلية الآداب ١٨ ج ٢) ص ١٩٠ - ١٩١ وما بها من حواشي .

(١٣) نفس المرجع السابق ص ١٩٢ حاشية ١

(١٤) بمقتنا هذا « البسلة » ص ٣٠٥ تحقيق رقم ١

سطر ٢٦ و ٨٢ ونعالي سطر ١٠٧ وشهاب الدين ، قانع سطر ١١٣ وفي مثله سطر ١٥٦
مسبولا سطر ١٦٩

وهناك ما هو أكثر صعوبة من قراءة بعض الكلمات أو الألفاظ الواردة في صلب
متن الشهادات وأعني بذلك توقيعات بعض الشهود مثل تلك الواردة في سطر ٦٢ و ١٢٣
و ٢٦٠ .

والحقيقة أن كل اشهاد من الشهادات الأربعة قد ورد في ظهر الوثيقة مستقلاً قائماً
بذاته ، فهو يبدأ بالبسملة والتسليمة والمجملدة وينتهي بالحسبة ثم يتبع بشهادة الشهود المدلول .

٣ - طريقة النشر :

اعتمدت في نشر هذه الشهادات أو الاسجلات على الوثيقة الأصلية رقم ٨٨٢ المحفوظة
في أرشيف وزارة الأوقاف اعتماداً كلياً ، وكل سطر فيها جعلته سطراً تاماً عند النشر .
ورجعت إلى النسخة أو الصورة رقم ٨٨٢ في نفس الأرشيف لمقابلة ما نقلته من الأصل
عليها مراراً ، وراجعت ذلك كله في بطء وأناة ودقة ، لا أكمل بعض الكلمات أو الحروف
الناتجة التي انحوت محو كلياً أو جزئياً ، أو تلك المحجوبة بورق سميك ملصق فوقها (١٣) .

والحقيقة أنني أفدت من الصورة رقم ٨٨٢ فائدة كبيرة لا تنكر ، غير أنني لن أثبت
نتيجة المقابلة والمراجعة دائماً في حواشي النص ، ذلك أن أهمية الأصل طفت على اكل
الاعتبارات ، ومن ثم آثرت أن أترك متن الأصل والاقاء على النص كما هو بمخافيره
في عباراته وألفاظه وحروفه دون تصحيح أو تعديل ، وذلك لينعرف القارئ الأسلوب
الذي كتبت به صيغ الاسجال الحكمي والاسجلات التنفيذية أو الشهادات الشرعية
عامة في جل وثائق الوقف في تلك الحقبة من العصر المملوكي الكبير .

ولقد حرصت كل الحرص على الاهتمام بنشر المتن كما هو في صورة صحيحة مستقيمة
المعنى مع القصد - دون إخلال - في التصحيح والتفسير والشرح ، فقد يستفيد اخصصون
من رجال القانون وخاصة المشتغلون بتاريخ القانون والتريعة الاسلامية من ذلك مستقبلاً ،

(١٣) انظر الحواشي الواردة في نص الشهادات .

وهذه الطريقة على ما اعتقد هي أفضل طرق اليوم لنشر هذه النصوص من الشهادات الشرعية وغيرها .

ثانيا - الدراسة الموضوعية

١ - أنواع الشهادات :

الشهادات أو الاسجلات الاربعة الواردة في الوثيقة على نوعين :

(١) الاسجل الحكى : ورد فيه الحكم بجهة الوقف ولزومه وانبرامه وقوده .

سطر ٣٨ ، ٨٨ - ٩٠

(ب) الاسجلات التنفيذية :

١ - الاسجل التنفيذى الأول بتنفيذ الحكم النابت سطر ١٠٠ - ١٠٣ ، ١٥٦

٢ - الاسجل التنفيذى الثانى بتنفيذ التنفيذ الأول سطر ١٦٥ - ١٦٦ ، ٢٢٢

٣ - الاسجل التنفيذى الثالث بتنفيذ التنفيذ الثانى سطر ٢٣٢ - ٢٣٤

هذا والشاهد على أمر معناه في الأصل طلب الشهادة عليه من شهد وقوعه أو برأيه إيقاعه بمحضه منه ، وأطلق أيضا على تحرى إيقاع الأمر بمحضرة الشهود وإن لم يطلب منه صراحة أن يشهدوا عليه .

والاسجل أو الشاهد في عرف المحاكم الشرعية هو إنشاء التصرف أو ما يشبهه كالاتجار لدى كل من له الحق في سماعه من قضائها أو موظفيها ، وكثيرا ما يطلق على الوثيقة التي يحضر فيها ذلك ، فهو مرادف لما يسمى في الجهات الأخرى بالعقد الرسمي فلاشهاد عمل من أعمال التوثيق acte de notoriété ، كما أنه لا يكتفى للشاهد كيان القانوني إلا إذا صدر طبقا للأوضاع المقررة شرعا في المحاكم ، ولا يتوقف وجوده القانوني على الشهود إذا لم تكن الشهادة شرطا لصحة التصرف شرعا ، هذا والشهادة في حالة الوقف شرط لصحته (١٤) .

(١٤) فرج السهري : مجموعة القوانين المصرية المختارة من الفقه الإسلامى ج ٢ (شرح)

قانون الوقف (١) ص ٤٨ - ٤٩

وتؤخذ الشهادات على أصل الوقف في المحاكم لدى قاضي القضاة أو من يحلها عليه من نوابه (١٥) ، هذا ويجوز للمقر بالوقف الرجوع عن إقراره بموجب الثقة الخفية ، ومن ثم لا يعتبر الوقف صحيحاً لازماً إلا إذا صدر به إيجاب شرعي (١٦) .

وتضخ لنا أهمية ذلك جلية في عصر المالك من تهافت الناس على إثبات تصرفاتهم المختلفة من بيع ووصية ووقف أمام القضاة ، هذا ويسى ما يصدر من ذلك أمامهم بالشهادات الشرعية ، ومعنى هذا فيما يتعلق بالوقف من حيث الإيجاب عليه إيجاباً شرعياً ممن يملكه على يد الحاكم الشرعي وتسجيله في سجلات المحكمة — أن وثيقة الوقف قد أصبحت محرراً رسمياً موثقاً له قوة تنفيذية وأنها صارت سنداً شرعياً مقبولاً في كل ظرف وحال ، بهذا يكون الغرض من الشهادات زيادة تأكيد وتأيد وإجازة العقد (١٧)

• pour confirmer le contrat

وقد جرت العادة على أن تكون افتتاحية الشهادات سواء الاسجل المحكى أو الاسجلات التنفيذية بالسلسلة والتصلية ثم الممدلة في مطر مستقل (١٨) .

ويبدأ متن الشهادة الأولى (الاسجل المحكى) غالباً بعبارة « ثبت اشهاد ... » أما الشهادات الثلاثة الأخرى (الاسجلات التنفيذية) فتبدأ بعبارة « هذا ما أشهد به .. » كما هو الحال في هذه الشهادات التي تقوم بدراستها ونشرها في بحثنا هذا (١٩) .

* * *

(١٥) ابن طابن : رد المختار على الدر المختار ج ٤ ص ٢٩٦ ، أحمد إبراهيم : طرق

الانبات الشرعية ص ٧٨ ، قراعه : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣٢

(١٦) حسين المؤمن : نظرية الانبات ج ١ ، الفوائد العامة والأفراء والمعين ص ١٣٤ ،

أحمد إبراهيم : أحكام الوقف ص ١٢ ، تادرس ميخائيل : شهادة الشهود ص ٤

(١٧) قراعه : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٨ — ١٠

(١٨) بحثنا هذا ، التحقيقات والتعليقات العلمية رقم ١ ص ٢٤

(١٩) بحثنا وثيقة الأمير آخوور كبير قرائنبا الحسني (مجمع سكية الآداب م ١٨ ج ٢)

لوحه ٧ ، ٨ ، ١٠ وكذلك أنظر الشهادات الواردة في وثيقة قايتباي محكمة بدون رقم ،

أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، وثيقة ثاني باي الرمالح أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة لأؤيد شيخ أوقاف

٩٣٨ ، وثيقة السيني طنطباي أوقاف ١٠٢٠ ، محكمة ٣٧٢ ، وثيقة جوهر اللالا محكمة ٨٥ ،

٨٦ ، وثيقة جاني بك محكمة ١٠٥٦ ، وثيقة أزيك من طليخ محكمة ١٩٨ ، وثيقة سيل المؤمنين

أوقاف ٨٨٤ ، وثيقة طومان باي أوقاف ٨٨٢ وغيرهما .

ويظهر أن قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى قد بحث وثيقة الوقف بحثاً وافياً من جميع النواحي في مجلس حكمه ، وتأكد من أن صياغتها تؤدى المعانى التى يريدتها المتصرف من غير لبس أو غموض ، أعنى أنه قد تحقق من الشروط الواجب توافرها في صياغة الوثيقة ، وفي الواقف وفي الموقوف والموقوف عليه وطريقة توزيع الربح ، وبعد بحثه تلك الشروط تعرف أنها جائزة شرعاً^(٢٠) . ويوضح لنا كذلك أن قاضي القضاة الحنفى كان هو القاضي الذى ثبت لديه اشهاد الواقف (السلطان النورى) واتاراه بجميع ما نسب اليه في كتاب وقفه من الوقف والشروط المشروحة فيه ، وقد حدث ذلك بلا شك بعد أن قرأت الوثيقة على النورى وعلم بما تحويه من الوقف والشروط علماً نائياً للجهالة شرداً على حد تعبير فقهاء المسلمين ، فوافق الواقف على ما جاء فيها وأشهد على نفسه بذلك^(٢١) ، فشهد عليه شهود التصرف في ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ وتبع ذلك حدوث الشهادات الأربعة وتسجيلها في الشهر التالى أى في ربيع الأول سنة ٩١١ هـ .

وبيناً هذا الاشهاد الحكيم بالنسبة على ثبوت اشهاد الفاعل القانونى الواقف وهو السلطان قاضوه النورى — ثم ترد ألقابه المختلفة والدعاء له (سطر ٣ — ١٢) — بما نسب اليه في كتاب وقفه لدى قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى — ثم ذكر ألقابه المختلفة والدعاء له (سطر ١٧ — ٢٧) — وذلك بعد أن صح عنه وثبت لديه ذلك ثبوتاً صحيحاً شرعياً :

(أولاً) شهادة الشهود *preuve par témoins* على تحرير الوثيقة المقدمة إلى وعلى العمل أو التصرف القانونى *acte juridique* الوارد بها في نهاية البروتوكول الختامى لوجه الوثيقة في ٢٠ صفر ٩١١ هـ^(٢٢) .

(ثانياً) شهادة الشهود على ملكية النورى وحيازته لما تصرف فيه بالوقف^(٢٣) .

(٢٠) فرج السهورى : نفس المرجع السابق ص ٧٦

(٢١) وجه وثيقة النورى أوقف رقم ٨٨٣ سطر ١٧٧٦ — ١٧٧٩ (دواة ونشر) ومحقق عبد الطيف ابراهيم — تحت الطبع .

(٢٢) وجه وثيقة النورى أوقف رقم ٨٨٣ سطر ١٧٨١ — ١٧٨٧

(٢٣) الخامس الأيمن لوجه الوثيقة السابقة بين السطر ١٨٣ — ١٩٣ ، لوحة ١٣

ومن ثم حكم قاضي القضاة الحنفى بموجب ذلك وبصححة الوقف ولزومه وانبراهم
وفقوده حكما صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مستوفيا شرائطه الشرعية ، ثم أمر بتسجيل
ذلك ليكون مشرا وحنة على الغير فيما اعتقد وكتب بخطه « ليسجل » على الهاش الايمن
في بداية وجه الوثيقة بين السطر ٢ ، ٣ (شكل رقم ١) . وهو يرمى بذلك إلى حفظ
الوقف من أن تمتد إليه يد الغير أو يرجع عنه الواقف ، ثم أشهد القاضي ابن الشحنة على
نفسه بذلك إنيادا علينا صريحا وإعلانا عاما أمام جميع من حضر مجلس حكمه في ١٢ ربيع
أول سنة ٩١١ هـ بما نسب إليه في إسجاله من الحكم بصحة الوقف ، فشهد عليه جمع
من الحاضرين من الشهود العلول بذلك في التاريخ السابق ذكره ، هذا وشهادة الشهود
هنا هي شهادة على صدور الحكم من القاضي الحنفى بصحة الوقف ولزومه .

ثم وردت بعد ذلك الإنيادات أو الاسجالات التنفيذية الثلاثة لقضاة القضاة للمذنب
الحنفلى والمالكي والشافعى في الأيام التالية من نفس الشهر — ربيع الأول سنة ٩١١ هـ .

وتبدأ صيغة إنياد كل قاض منهم بأنه قد أشهد على نفسه من حضر مجلس حكمه
في التاريخ المذكور في إنياده بعد أن ثبت عنده على الأوضاع الشرعية إنياد القاضي السابق
عليه بما نسب إليه في إسجاله من الثبوت والحكم أو من الثبوت والتنفيذ المشروحين فيه
في التاريخ المذكور فيه ثبوتا صحيحا شرعيا . أى أن كل قاض منهم يعلن ويقر بمعرفته ووقوفه
على إنياد القاضي السابق عليه من الحكم بلزوم الوقف أو تنفيذه ، ثم يقوم هو بعد ذلك
بالنص صراحة على تنفيذ وتأيد ما ورد في إنياد القاضي السابق عليه ، فالحنفلى نفذ حكم
الحنفى ، أما المالكي والشافعى فقد نفذ كل منها تنفيذ القاضي السابق عليه تنفيذا صحيحا
شرعيا تاما معتبرا مرضيا مستوفيا جميع الشروط الشرعية ، وعندما ثبت لكل قاض منهم
ذلك كتب بخطه المبرة الخاصة بالتسجيل على الهاش الايمن للوثيقة عند بداية الإنياد
السابق على إنياده — أى أن عبارة التسجيل عند بداية الإنياد الأول هي بخط القاضي
الحنفلى ، والثنى عند بداية الإنياد الثانى هي بخط القاضي المالكي ، والثنى عند بداية الإنياد
الثالث هي بخط القاضي الشافعى . (انظر عبارات التسجيل ص ٣٠٦) .

ثم أشهد كل قاض منهم على نفسه جمعا من الشهود العلول الحاضرين مجلس حكمه
بما نسب إليه في إسجاله في التاريخ المكتوب فيه ، فشهدوا عليه بذلك .

وشهادة الشهود في الاسجلات الثلاثة الأخيرة هي شهادة على تنفيذ الحكم الحفي الأول عند قاضي القضاة الحنبلي ، ثم على تنفيذ التنفيذ عند كل من قاضي القضاة المالكي والشافعي . هذا وقد لاحظت أن صيغة الاثبات على الوقف تشبه لمحذ كبر صيغة الاثبات الصادر من القاضي بدالة شخص وهو المعروف في مصطلح القلقشندي بإسقاط العدالة (٢٤) .

هذا وقد روعي في صيغ الاثبات الأربعة الشروط التي نص عليها الفقهاء بتمام كاملة من الناحية التقنية مستوفاة لشروط الصحة الشرعية وهي تعتبر نموذجاً طياً لصيغ الاثبات أو الاسجلات في أواخر العصر الوسيط (٢٥) .

* * *

والملاحظ أن هذه الاسجلات الحكيمة والتنفيذية تمت على يد قضاة القضاة الأربعة دون نواب مذهبهم ، لأن وثيقة الوقف تخص الاشراف الفوري المتربع في كرسي السلطنة المملوكية .

ويظهر أن حرص المتصرفين من السلاطين وكبار أمراء الممالك وغيرهم في ذلك الوقت كان يدعوهم دائماً إلى إثبات الاثباتات على أوقافهم أمام قضاة القضاة الأربعة (٢٦) . ومعنى هذا تحصين الأوقاف عن طريق الحكم بصحتها وتسجيلها ، لأن الحكم الصادر في الاسجل الأول يصبح نافذاً على جميع المذاهب ، ويدعم هذا الحكم ويؤكدته وتوثيقه بقبلة الاسجلات التنفيذية التي هي بمثابة شهادة وإقرار وتوثيق بصحة الحكم ، بدليل تنفيذ على أيدي القضاة الثلاثة الآخرين ، فكأن الاثباتات الأربعة قد حدثت في حضور قضاة القضاة كهم — وصدر الحكم بصحة الوقف على أيديهم مجتمعين في مجلس واحد .

هذا ويرجع السبب في نظر الوقف أمام القضاة الأربعة إلى كونه من التصرفات الخطيرة وذلك لصدره من جانب واحد بغير عرض *unilatéral et à titre gratuit* وكذلك بسبب الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشها مصر المملوكية وخاصة في أواخر أيامها ،

(٢٤) القلقشندي : صيغ الأمانى ج ١٤ ص ٣٤٨ — ٣٤٩

(٢٥) بحثنا هذا في التحقيقات العلمية رقم ٧٤

(٢٦) وثيقة السبق أزدسر من على أي محكمة ٢٤١

ومن ثم فالوقف يعتبر من القضايا والتصرفات الهامة التي كان يجب نظرها أمام القضاة الأربعة للحكم بصحته وتنفيذه وتسجيله وألا ينفرد به قاض واحد (٢٧).

والواقع أن المذاهب الأربعة تستقي من معين واحد هو كتاب الله وسنة نبيه الكريم، ولا غضاظة في مشاركة الخبايلة للأحناف أو غيرهم من التقهاء في القضاء، لأن انغرض الأول من الحكم بصحة أى تصرف وتنفيذه إنما هو لتحقيق العدالة ورعاية المصالح بما يوافق الحق وخاصة في حالة الوقف حتى لا يكون هناك مجال إلى إنكاره أو الرجوع فيه أو الاعتداء عليه بأى صورة كانت بعد الإشهاد عليه وتسجيله.

٢ - أهم عناصر الشهادات الأربعة :

(١) البسلة والتصلة : هي افتتاحية (٢٨) الشهادات الأربعة ونعها :

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .
 سطر ١ لوحة ١ ، سطر ٧٤ شكل ١٥ ، سطر ١٤٢ ، سطر ١٩٨ لوحة ١٠ شكل ١٧
 (ب) التحييدات : هي من توابع البسلة وجزء أساسى من الافتتاحية في الشهادات الأربعة ، وقد وردت بصيغ مختلفة ، وقام كل من قضاة القضاة بكتابتها بخطه في اسجاله فهي علامته (٢٩) على حد قول الفلشندي - وهذا هو نصها على التوالى :

- | | |
|-----------------------------|------------------------|
| ١ - الحمد لله عليه توكلت | سطر ٢ لوحة ١ شكل ١٤ |
| ٢ - الحمد لله اللطيف الخبير | سطر ٧٥ شكل ١٥ |
| ٣ - أحمد الله شاكرًا لانهمة | سطر ١٤٣ شكل ١٦ |
| ٤ - الحمد لله أحكم الحاكمين | سطر ١٩٩ لوحة ١٠ شكل ١٧ |

(٢٧) عربوس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ٩٢

(٢٨) الفلشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٣١٩ - ٣٠٤ ، ٢٢٧ - ٢٢٩ ، ج ١٤

ص ٢٤٩ بحثنا هذا تحقيق رقم ١

(٢٩) الفلشندي : نفس المصداق ج ٦ ص ٢٤ - ٢٠٦ ، ج ١٤ ص ٢٤٣ ، ٢٤٩

ويظهر ان الحمد له كانت تحمل بين توقيع القاضي في العصر العثماني كما أنها كانت بمثابة ختم القاضي في وثائق العصر العثماني . بحثنا هذا تحقيق رقم ٢

(ج) عبارات التسجيل : نجد أربع عبارات خاصة بتسجيل الوثيقة والشهادات على الهاش الأيمن بخط قضاة القضاة الأربعة ، والبارة الأولى منها في بداية وجه الوثيقة بخط القاضي الحنفى الذى حكم بصفة الوقف والثلاث الأخرى في الظاهر عند بداية لاشهادات الثلاثة الأولى بخط كل من قاضى انقضاء الخدلى والمالكى والثافى على التوالى ونها :

١ - يسجل بين السطر ٢ - ٣ شكل ١

٢ - الحمد لله وحده

يسجل بثبوته وقبله بين السطر ٢ - ٤ لوحة ١ شكل ٢

٣ - يسجل يسجل بين السطر ٧٥ - ٧٧ شكل ٣

٤ - الحمد لله

يسجل بين السطر ١٤٢ - ١٤٤ شكل ٤

(د) التواريخ : كان كل قاضى من قضاة القضاة الأربعة يقوم بكتابة التاريخ بخطه في وسط أسجاله^(٣٠) وهذا هو نص التواريخ على التوالى :

١ - الثانى عشر من ربيع الأول المشرف سطر ٣٢ لوحة ٢ ، ١٤ شكل ١٨

٢ - يوم الأربعاء الثالث عشر من شهر ربيع الأول سطر ٨٦ لوحة ٥ شكل ١٩

٣ - يوم الخميس المبارك الرابع عشر من ربيع الأول سطر ١٥٣ لوحة ٨ شكل ٢٠

٤ - السابع عشر من شهر ربيع الأول المبارك سطر ٢١٨ لوحة ١٢ ، ١٥ شكل ٢١

(هـ) الخبلة : وهى بمثابة الدعاء الختامى في كل إشهاد من الشهادات الأربعة وغالبا

ما تليها أو تليها الصلاة ، وكان كل قاض من قضاة القضاة الأربعة يقوم بكتابتها بخطه في ختام أسجاله^(٣١) ونصها على التوالى :

١ - حبينا الله ونعم الوكيل

وصل الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم سطر ٤٣ - ٤٤ لوحة ٣

(٣٠) الفلشندى : نفس المصدر السابق ج ٦ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ، ج ١٤ ص ٣٤٢ ، ٣٤٩ انظر التحقيق رقم ٥٢

(٣١) الفلشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٦٧ - ٢٧٠ ، ج ١٤ ص ٣٤٢ ، ٣٤٩ ، انظر التحقيق رقم ٦٣

٢ - وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل
سطر ١٠٩ لوحة ٦ شكل ٢٢

٣ - وصلواته على أشرف الخلق سيدنا محمد .

وآله وصحبه وسلامه وحسبنا الله ونعم الوكيل سطر ١٧١ - ١٧٢ لوحة ٩

٤ - وحسبنا الله ونعم الوكيل سطر ٢٤٠ شكل ٢٣

(و) هيئة التوثيق : هم قضاة اقتضاة الأربعة الذين قاموا بالإشراف بالفعل على عملية التوثيق ، فتمت على أيديهم الشهادات الأربعة ثم أمر كل منهم الكتاب من الشهود المدلول في مجلس حكمه بتسجيلها وهم على التوالى :

١ - قاضى القضاة مرسى الدين عبد البر بن الشحنة الحنفى سطر ٢٣

٢ - أبو حامد أحمد الشيشينى الحنبلى سطر ٨١

٣ - أبو المراقى ابراهيم الديمرى المالكى سطر ١٤٩

٤ - أبو العباس أحمد بن الترفور الشافى سطر ٢١١



٣ - صيغ الشهادة في الشهادات الأربعة :

تقتضى طبيعة البحث أن نعالج موضوعين أساسيين عند دراستنا لصيغ الشهادات المختلفة والواردة في الشهادات الأربعة وهما :

(١) لفظ الشهادة : أن صيغ الشهادات جميعاً تبدأ بلفظ الشهادة بالصيغة الموضوعية « أشهدنى » وتنتهى بالصيغة الذاتية « فشهدت » واللفظان وردا بصيغة الفعل الماضى .

والمعروف أن ركن الشهادة هو اللفظ الخاص الذى يصدر من الشاهد مخبراً به عما يشهد وهو قوله « أشهد » بصيغة المضارع ، وقبل يشترط أن يؤدى الشاهد شهادته بهذا اللفظ ، لأنه شرط فى كل ما يشهد به أمام القاضى ، وبه قال الفقهاء وهو الراجح ، ولو قال الشاهد « شهدت » لا يجوز لأن الماضى موضوع للاخبار عما واقع فيكون غير مخبر فى الحال^(٣٢) .

(٣٢) ابن حابدين : رد المحتار على الدر المختار ج ٤ ص ٣٨٥ ، أحمد ابراهيم : طرق الالبيات ص ١٣٦ ، قراءة : الأصول الثمانية ص ١٥٠ - ١٥١ ، حنفى للأؤمن : نظرية الالبيات ج ٢ الشهادة ص ٢٢ - ٢٥ وما بها من مراجع .

وأما سبب تأدية الشهادة بلفظ «أشهد» أو اعتباره ركن الشهادة فلا تقبل الشهادة بغيره ،
 فقول صاحب البدائع : «أما الشرائط التي ترجع إلى نفس الشهادة فأشياء ، منها لفظ
 الشهادة فلا تقبل بغيرها من الألفاظ كلفظ الإخبار والإعلام ونحوهما ، وإن كان يؤدي
 معنى الشهادة (٣٣) » . وقال في الهداية والفتح : إن النصوص نطقت باشتراط هذه اللفظة
 لقوله تعالى «وأشهدوا ذوي عدل منكم» ، «أشهدوا إذا تباعتم» ، و«استشهدوا شهيدين
 من رجالكم» و«فاستشهدوا عليهن أربعة منكم» (٣٤) .

ونها يمكن من أمر فإن النصوص وردت بلفظ الشهادة ، وهذه اللفظة أقوى في إفادة
 تأكيد متعلقها من غيرها من الألفاظ كأعلم واثق لما فيها من إحصاء معنى المشاهدة والمعاينة
 التي مرجعها الحس ، ولأنها من ألفاظ الحلف أيضا ، وقد جاء الأمر بلفظ الشهادة في قوله
 عز وجل : «وأقيموا الشهادة لله» ولقول الرسول (ص) : «إذا علمت مثل
 الشمس فاشهد» .

والواقع أنه في قول الشاهد «أشهد» معنى اليقين والأصل أن لا يشهد الشاهد إلا على
 ما يعرف (٣٥) . وبالرغم من ذلك فإنه لا يوجد دليل من الكتاب ولا من السنة ولا من
 القياس على اشتراط أن يكون الأداء بلفظ الشهادة فضلا عن لفظ «أشهد» بالذات
 وقد صرح ابن قيم الجوزية بأنه ليس في كتاب الله ولا سنة رسوله موضع واحد يُلزم
 على اشتراط لفظ الشهادة ، ولا عن رجل واحد من الصحابة ولا قياس ولا اشتراط يقضي
 بل متى قال الشاهد رأيت أو سمعت أو نحو ذلك كانت شهادة منه (٣٦) .

والواقع أن اشتراط لفظ «أشهد» بالمضارع في أداء الشهادة ليس متفقا عليه بين الفقهاء
 إذ يعتمد مذهب المالكية علم اشتراطه (٣٧) . كما أن محل اشتراط التفهات لفظ «أشهد»

(٣٣) الكشاف : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج ٦ ص ٢٧٢ ، قراء : المصدر
 السابق ص ١٥٧

(٣٤) الرغزاني : الهداية ، للسيوطي ، فتح القدير ج ٦ ص ١٠
 (٣٥) الزيلعي : تبين الخفايا شرح كثر المقتضى ج ٤ ص ٢٠٩ — ٢١٠ ، ابن قدامة :
 المغني ، للقدس : الشرح الكبير ج ١٢ ص ١٣٤ ، الفتاوى المالكية ج ٣ ص ٥٠٥ ،
 جيبط : الطريقة الرضوية في الإجراءات الشرعية ص ١٤٩ ، أحمد إبراهيم : طرق الإنبات
 ص ١٣٦ — ١٣٨

(٣٦) ابن قيم الجوزية : أعلام الموقعين عن رب السالمين ج ١ ص ١٠٤
 (٣٧) ابن عابدين : رد المختار على الدر المختار ج ٤ ص ٢٨٥ ، أحمد إبراهيم : طرق
 الإنبات ص ٢١٧

إنما هو في الشهادة الملزمة التي يترتب عليها وجوب الحكم على القاضى وهى المعنية بالشهادة عند الإطلاق ، وأما الشهادة التي هى من قبيل الإخبار المخض كأقوال أهل الخبرة والمزكين سرا وعنا ، فلا يشترط فيها لفظ أشهد إذ كل ذلك من قبيل الإعلام وإظهار الحيل وإعانة القاضى ، وتسمى هذه الشهادة شهادة استفسار أو استكشاف^(٣٨) . وأخيرا قضى القانون الصادر فى ٢٠ مايو سنة ١٩٢٦ على لفظ أشهد وأدخله فى خبر كان^(٣٩) .

(ب) مواقة الشهادة للشهادة : يتضح لنا من دراسة ألفاظ الشهادة نفسها أن بعضها شهادات متطابقة *Témoignages uniformes* لفظا ومعنى مستقيمة منتظمة والبعض الآخر متفقة فى المعنى فقط .

وقد اكتفى فى قبول الشهادة أن تطابق شهادة أحد الشاهدين شهادة الآخر فى المعنى وإن اختلفت الألفاظ ، لأنه قل أن يتفق شاهدان على ما شهدا به لفظا ومعنى^(٤٠) : وقد لاحظنا فى هذه الشهادات تطابق بعض الشهادات لفظا ومعنى مثل تلك الواردة فى سطر ١٢٢ ، ١٢٤ - ١٣٠ ، ١٣٢ - ١٨٨ ، ١٩٠ - ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٩ ، ٢٦١ ، ٢٦٣ ، ٢٦٥ .

هذا وقد ذهب الامام الأعظم أبو حنيفة النعمان إلى أنه لا بد فى توافق الشهادات *concordance des témoignages* من المواقة المطابقة بين شهادتى الشاهدين بأن يكون ما تقبده شهادة أحد الشاهدين من المعنى عين ما تقبده شهادة الآخر ولو اختلفت الألفاظ ، لأن العبرة فى الشهادة للمعنى لا للألفاظ .

أما الصحابان محمد وأبو يوسف فقد اشترطا المواقة فى المعنى فقط ولو بطريق التضمن^(٤١) . وقد وجدنا فضلا أن كثيرا من الشهادات متفقة فى المعنى فقط مثل تلك الواردة فى سطر ٥٤ ، ٥٨ - ٦٠ ، ٦٣ - ٦٨ ، ٧١ - ١٣٤ ، ١٣٩ - ١٨٣ ، ١٨٥ - ١٩٢ ، ١٩٤ ، ١٩٦ .

(٣٨) أحمد ابراهيم : طرق القضاء فى الفريعة الإسلامية ص ٣١٢ - ٣١٣ ، طرق الاتبات ص ١٣٩

(٣٩) أحمد ابراهيم : طرق الاتبات ص ٢١٦

(٤٠) غدرى : قانون العدل والانصاف ص ٢٢٣ مادة ٥٨٠ - ٥٨١ ، أحمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٢٦٤ - ٢٦٥ ، طرق الاتبات ص ١٩٠ - ١٩١ ، حبيب الزمرى : نظرية الاتبات ج ٢ الشهادة ص ١٢٧ وما بعدها . ابن قاضى سواده : جامع الفصولين ج ٢ ص ٢٢٦ (٤١) تراه : الأصول القضائية ص ١٨٢ - ١٨٣ ، أحمد ابراهيم : طرق الاتبات ص ١٩٢

وقد ظن البعض أنه لا بد أن تكون ألفاظ الشاهد الثاني عين ألفاظ الشاهد الأول أخذنا من ظاهر عبارة ابن عابدين وهي قوله : « منها موافقة الشاهدين لفظاً ومعنى وموافقة الشادة الدعوى معنى فقط »^(٢٢) هذا مع العلم بأن اختلاف لفظ الشاهدين الذي لا يوجب اختلاف المعنى لا يضر^(٢٣) .

٤ - الشهود في الشهادات الأربعة :

(١) العدد : يلاحظ القارئ لهذه الشهادات كثرة عدد الشهود ، ومن المعروف أنه يشترط العدد في الشهادات ، لأن في العدد معنى التوكيد ، صيانة للحقوق من الضياع ، وقد أشار إلى ذلك كل من الامام الاوزاعي والامام السرخسي^(٢٤) خشية السهو والنسيان . ومهما يكن من أمر فإن تعدد الشهود وتوافقهم فيه ضمان للقاضي وراحة لضميره . ومن المستقر عليه أن التواتر هو خير جماعة لا يتصور اتقانهم على الكذب ، وليس للتواتر عند معين على الصحيح وإنما الشرط أن يكون المخبرون جمعا لا يجوز العقل اتقانهم على الكذب^(٢٥) .

ومن أسباب كثرة الشهود في العصر الملوكي أنه كان لكل قاض من قضاء القضاة الأربعة عدد من نواب الحكم ، ولكل منهم جبهة من الشهود العلول ، وتضع لنا تلك الحقيقة من أنه قد قرر بعد الفتح العثماني لمصر أن يقتصر على أربعة من النواب من كل مذهب نائب ، وكل نائب يقتصر على اثنين من الشهود فقط وهو أقل عدد يمكن قبوله في الشهادة شرعاً ، وأن يكون هؤلاء النواب والشهود بالمدرسة أو المحكمة الصالحية النجبية^(٢٦) .

(٢٢) ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٤٠٥ — ٤٠٦

(٢٣) أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢٠٣ حاشية ١ ، انظر كذلك المصادر التالية :

السيواسي : فتح القدير ج ٦ ص ٥٥ ، التتاروي الهندية ج ٣ ص ٥٠٣ ، السرخسي : المبسوط ج ١٦ ص ١٧٢ وما بعدها ، التزيلي : تدوين الحقائق شرح كثير الحقائق ج ٤ ص ٢٢٩ وما بعدها ، التتاروي للهندية ج ٣ ص ٣١٣ ، عشوب : كتاب الوقف ص ٢٧٣ — ٢٧٤ .

(٢٤) السرخسي : المبسوط ج ١٦ ص ١١٣ — ١١٤

(٢٥) أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٢٧ — ٣٠ ، تادرس : شهادة الشهود ص ٥٠ .

(٢٦) ابن الجاس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠٠ — ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ — ٤٥٥ ، صرنوس : تاريخ القضاء في الإسلام ص ١٠٧ — ١٠٨ ، انظر بحثنا هذا حاشية رقم ١١٨ — ١٢٠ وما بها من مراجع .

جملہ رقم ۲

و بیان بأسماء الثبوت ومذاهبهم الواردة في الاستبادات الأربعة ۵

الاستباد الرابع	الاستباد الثالث	الاستباد الثاني	الاستباد الاول	الرقم
عبد الکرم بن علی الجعفی الثاني موسی بن عبد القادر المالکی سعد بن ابراهیم الطیبی احمد بن محمد بن الجعفی الانصاری الد[ثانی]	موسی بن عبد القادر المالکی یحیی بن ابراهیم الدیوبی المالکی محمد بن حصین الثانی عبد الکرم بن علی الجعفی الثاني	موسی بن عبد القادر المالکی سعد بن ابراهیم الطیبی احمد بن محمد الاسحاق [عبد الرحمن بن عبد القی الحریری]	موسی بن عبد القادر المالکی عبد الکرم بن علی الجعفی الثاني أبو الفضل محمد الأعرج صالح بن علی [.....] الثاني	۱ ۲ ۳ ۴ ۵ ۶ ۷ ۸ ۹ ۱۰ ۱۱
محمد عرفات الثاني محمد [جمال الدین بن سلیم الجعفی] عبد الرحمن بن صر الانبازی أبو الفضل محمد الأعرج محمد بن خشان المدینانی	أبو الفضل محمد الأعرج سعد بن ابراهیم الطیبی احمد بن محمد الاسحاق محمد بن عبد القادر الجعفی الثاني ابراهیم بن عبد القادر الدیوبی	محمد بن علی الجعفی محمد بن عبد القادر الجعفی الثاني احمد بن عبد الرحمن الطیبی احمد بن ابراهیم الانبازی محمد بن علی السعودی الحنفی أبو الفضل محمد الأعرج	محمد بن محمد الخلیل یحیی بن محمد البردین الثاني محمد بن علی السعودی الحنفی سعد بن ابراهیم الطیبی	

هذا وقد شهد على الاسجل الاول ثمانية شهود عدول وعلى الثاني أحد عشر شاهداً وعلى كل من الثالث والرابع تسعة شهود^(٤٧).

وأغلب هؤلاء العدول شهد مرة واحدة فقط أمام أحد قضاة القضاة ، واثنان منهم شهدا مرتين وهما :

١ — محمد بن علي السعودي الحنفي الذي شهد على الاسجل الحكي لقاضي القضاة الحنفي سطر ٧٠ ، ثم شهد على الاسجل التنفيذي لقاضي القضاة الحنبل سطر ١٣٥

٢ — محمد بن عبد القادر المواسي الشافعي الذي شهد على الاسجل التنفيذي لكل من قاضي القضاة الحنبل والمالكي سطر ١٢٩ ، ١٩٥

وهناك أربعة من الشهود الراسخين في العدالة شهدوا على الاسجلات الأربعة وهم :

١ — موسى بن عبد الغفار المالكي سطر ٥٣ ، ١١٦ ، ١٧٩ ، ٢٥٢ — لوحة
٩ ، ٦ شكل ٢٦ ، ٨ ، ٦

٢ — عبد الكريم بن علي المجولي الشافعي سطر ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٨٦ ، ٢٥٠ — لوحة
٧ ، ٤ شكل ٢٤ ، ١٠

٣ — أبو الفضل محمد الأعرج سطر ٥٩ ، ١٢٧ ، ١٨٩ ، ٢٦٤ — لوحة
٧ ، ٤ شكل ٢٥ ، ٧

٤ — سعد بن إبراهيم الطيبي سطر ٧٢ ، ١١٩ ، ١٩١ ، ٢٥٤ — شكل ٩

(ب) المذاهب : كثير من الشهود ذكر المذهب الذي ينتمي اليه (حنفي — شافعي — مالكي) وبعضهم لم يذكره جاثاً عقب توقيعه مثل سعد بن إبراهيم الطيبي ، وأبو الفضل محمد الأعرج وهو شافعي المذهب^(٤٨).

(٤٧) أنظر الجدول رقم ٢ حيث نجد بياناً بأسماء الشهود ومذاهبهم المختلفة في الشهادات الأربعة .

(٤٨) أنظر ترجمته ، تحقيق رقم ٦٨

وأغلب الظن أنه لم يكن بين هؤلاء الشهود حنابلة ، إذ يقول السيوطي للتورخ المعاصر :
« قهاء الحنابلة بالديار المصرية قليل جداً » ، ويظهر أن مرتبة قاضى القضاة الحنبلى كانت تأتى
فى آخر ترتيب القضاة لذلك السبب (١٩) .

(ج) التوقعات : يتضح لنا من دراسة شهادة الشهود الواردة بعد الاسجلات الاربعة
أنهم جميعاً يعرفون الكتابة ، فقد وقع كل منهم باسمه عقب شهادته ، كما لم نجد ختماً واحداً
لاى شاهد بعد شهادته — على عكس الحال فى كثير من وثائق العصر العثمانى — لأن هؤلاء
الشهود العدول هم فى الواقع من رجال الدين المتصلين — فى آخر عصر المماليك — الذين
وصل بعضهم إلى منصب نيابة القضاة مثل موسى بن عبد الغفار المالكى وعبد الكريم بن على
المجولى الشافعى (٢٠) ، أو إلى منصب قاضى القضاة مثل يحيى بن إبراهيم النميرى المالكى (٢١) .

ومن المسلم به أنه لا تعد الشهادة تامة إلا بالتوقيع ، لأن معناه الاشتراك فى الفعل
التوثيق بالشهادة ، وخلع صفة الصحة على هذه الشهادات . كما أن حالة الحتم على الوثيقة
تخالف تماماً حالة التوقيع كتابة ، لأن الاعتراف يعضد الحتم لا يفيد الاعتراف بالتوقيع ،
ولكن الاعتراف بالتوقيع يفيد حتما صحة التوقيع ذاته ، ذلك أن الحتم شئ ماضى منفصل
عن الانسان وقد تصل اليه يد غيره فيستطيع استعماله ، ولا سيما إذا لوحظ جهل حامل
الحتم فى الغالب ، وقد يكون فوق ذلك من البساطة بحيث يجسر إدخال النفس عليه (٢٢) .



-
- (١٩) السيوطى : حسن المحاضرة (ط . الوطن) ج ١ ص ٢٧٤ ، عرنوس : تاريخ القضاء
ص ١٠٧ ، أنظر تحقيق رقم ٣٠
(٢٠) أنظر ترجمة كل منهما فى التتقيقات رقم ٦٥ ، ٦٦
(٢١) أنظر ترجمته تحقيق رقم ٧٩
(٢٢) أحمد إبراهيم : طرق الانبات ص ٩٣ ، ٢٧٥

ثالثاً - الوقف : دراسة في التوثيق والتسجيل

يجب أن تقدم لهذه الدراسة عرض موجز من الناحية القانونية (٥٣) باعتبارها عنصراً أساسياً في هذا البحث الخاص بالتوثيق أو الشهادات والتسجيل في العصر المملوكي .

حقاً إن موضوع شهر الصرفات العينية العقارية يحل أهمية بالغة في كافة الجماعات ، ومن المسلم به أن الحق العيني ينتقل بمجرد تلاقى إرادتي المتعاقدين ، وانتقال الحق على هذا الوجه يتفق عادة وصالح المتعاقدين الذين يرغبون في تبسيط العقود وتخفيف الاجراءات الشكلية والتفقات ، على أن العقود والصرفات القانونية المختلفة لا ينحصر أثرها في طرف العقد فحسب إذ يمتد هذا الأثر إلى الغير الذين يهمهم الوقوف على مجرياتها (٥٤) .

ونظام التوثيق من النظم الأساسية في المعاملات العقارية ، وقد أحسن الناس في كل الشعوب التي حصلت على قدر معين من الحضارة ، بالحاجة إليه بل بضرورته وفائدة في كل الأزمنة ومنذ عهد بعيد . ولما كان للتوثيق أهمية كبيرة في تنظيم سير المعاملات وإقامتها على أساس وطيد لاظهار نية المتعاقدين أو المتصرفين واضحة جلية في معاملاتهم والحفاظ على المحررات التي تثبتا وصياتها على غير الأيام ، لذلك عييت جميع التشريعات في مختلف البلاد في كل العصور بالتوثيق وخاصة توثيق إشارات الوقف وما يصحبه ، توثيقاً يتفق مع أهميته في العصر الوسيط - لأن التوثيق يكفل تحقيق الطمأنينة العامة على الحقوق واستقرار المعاملات وإغلاق أبواب الشر والمنازعات .

والتوثيق من النظم العريقة في القدم - وقد أجمعت أغلبية الشرائع من قديم الزمن على وجوب شهر الصرفات العقارية ، وذلك لاحاطة المعاملات بسياج من الثقة والطمأنينة حماية لحقوق المتعاملين من العبث .



وطريقة التوثيق في القانون ليست حديثة كما ذكرنا ، فقد تعرف التوثيق في كل من مصر القروية وعند اليونان والبطالة والرومان والجرمان القدماء واليزنطيين ، وكذلك تعرف

(٥٣) اعتمدت في هذه الدراسة على المصادر القانونية المختلفة وخاصة المصادر الأصلية للعقود الإسلامية ، كما رجعت إلى بعض كتب القانون الحديثة مضطراً ونعم إن بعضها لا يرق إلى درجة المصادر وذلك لعدم توفر المصادر الأصلية التي كتبت في هذا الموضوع وأعمال تلك الحقبة الزمنية من تاريخنا من حيث دراسة وفهم وفائتها التي تعتبر المصدر الرئيسي للباحث في تاريخ القانون .

(٥٤) محمود شوق : الشهر العقاري علماً وعملاً ص ١

في كل من فرنسا وإنجلترا في العصور الوسطى ، لأن ذلك يكسب العقود قوة ويحفظ الحقوق المدونة فيما من الضياع ، ويجعلها حجة على الغير بعد تسجيلها^(٥٥) .

تقد كانت العقود الناقلة للملكية في مصر القديمة تخضع لاجراءات التوثيق والشهر ، وكانت هناك مكاتب للتوثيق تسمى مكاتب الاختام ، وكان بها موظفون مختصون . وكانت العقود الرسمية تمر بتوقيع الطرفين المتعاقدين والشهود ثم تعطى صورة منها إلى كل من الطرفين ، وكانت كل عملية قانونية لنقل ملكية شيء محدد يجب تسجيلها في سجل خاص^(٥٦) .

وكذلك عرف العرب تحرير الوثائق والاشهاد عليها في بداية العصر الاسلامي في صلح الحديبية ، ففي السنة السادسة من الهجرة كتب الصلح بين النبي محمد (ص) وفرض ، وكان الكاتب سيدنا علي بن أبي طالب ، وبعد الفراغ من الكتاب أشهد الطرفان المتعاقدان على الصلح رجلا من المسلمين ورجلا من المشركين^(٥٧) ، وكذلك كتب أبو بكر هذا لاهل نجران كما كتب عمر بن الخطاب كتاب صلح لاهل إيليا (بيت المقدس)^(٥٨) .

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بحرم التصرفات وكتابة العقود والاشهاد عليها^(٥٩) في كتابه العزيز في آية المائدة : « يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه وليكتب بينكم كاتب بالعدل واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا ... واشهدوا إذا تباعتم ولا يضار كاتب ولا شهيد ... » .

(٥٥) أنظر الحاشية رقم ٦٠ في ص ٢١٦ ، Schellenberg : *Modern Archives* ،
U.S.A. 1955, P. 3 f.

(٥٦) شقيق شعاعه : تاريخ القانون الخاص في مصر ج ١ ص ٤٤ — ٤٥ ،
١٠٣ — ١٠٤ ، ١٦٥

(٥٧) محمد حميد الله : مجموعة الوثائق السياسية في العهد النبوي والحلافة الراشدة
ص ١٣ — ١٦ وما بها من سراج ، الطبري : تاريخ الأمم و لوك (ط ، لندن) ج ١ تم ٣
ص ١٥٤٦ — ١٥٤٧ ابن هشام : كتاب السيرة (ط ، لندن) ج ٣ ص ٧٤٧ — ٧٤٨
(٥٨) محمد حميد الله : نفس المرجع ص ٩٦ — ٩٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، قراءة : مذكرة
التوثيقات ص ١٠ — ١٢

(٥٩) أحمد إبراهيم : طرق الاتبات ص ٢٨٥ = ٢٩٢ وما بها من حوائث ، سورة
البقرة آية ٢٨٢

ومها يكن من أمر فقد عرف التوثيق منذ القدم وكانت له أركان قانونية لا بد من توافرها لكي يصبح العقد رسمياً له قوة تنفيذية ، والواقع أن التوثيق قديماً لم يكن منتظماً كما هو الحال اليوم ، ولكن بالرغم من ذلك فإن طريقة التوثيق وإن لم تكن أحكم من الطريقة الحالية فهي لا تقل عنها بحال من الأحوال قياساً مع الفارق ، وقد دلت البحوث التاريخية على قتلها — وخاصة في تاريخ القانون — أنه كان لمصر تديماً نظم خاصة لشهر الصنرفات العقارية ، ويظهر أن النظام المتبع خلال العصر الوسيط والعثماني كان مقصوراً على إثبات الصنرفات في محررات هي عادة حبجج أو مستندات تحمّر من الحاكم في ذلك الوقت ، وكان لمن وقع له التصرف أن يحجج بلك المحررات بعد تسجيلها — على الغير (٦٠) .

وكذلك عُرفت وظيفة الوثيق Notary, Notaire في العصور الوسطى في الشرق والغرب على السواء . عرفها مصر الملكية في العصر الأول والثاني (٦١) . وكان يشغل

(٦٠) عهود شوق : الشهر العقاري المقدمة ص ١ — ح ٤ ص ٢ — ٤ محمد عبد الطيف : الشهر العقاري ص ١ — ٣ سليم حسن : مصر القديمة ص ٢ ص ٥١ وما بعدها — إبراهيم نمسي : تاريخ مصر في عهد البطالة ص ٢ ص ٦١٨ — ٦٢٤ ؛ محمد أحمد حنين : الوثائق التاريخية ص ٥٨ — ٦٣

H. Charrier : *Le notariat Français (son organisation, son rôle, réformes proposées)*. Paris 1905, p. 6. Enc. Brit. art. *Notary*.

(٦١) نجد بين سطور كثير من الوثائق الملكية في العصرين البحري والبرجي عبارات كثيرة منها « بخط موثقه » وثيقة السلطان حسن محكمة ٤٠ ، وثيقة السيل الأزرق محكمة ٢٨٨ ، وثيقة المقياس أوقاف ٨٨٢ ص ٥١٨ ، وثيقة السيل فرحاس محكمة ٢٢٣ ، أو « بخط محكمة » وثيقة القاصر محمد بن السيل جيم محكمة ٢٢٤ ، وهذه العبارات وغيرها تؤكد لنا صراحة وجود وظيفة الوثيق والسجل في العصر الملكي — ويظهر أن كلامنا من الوثائق كان يقوم بها كتاب مجلس القضاء لمادة القضاة في عهد — هذا إلى جانب ما نجد على الحامش الأيمن في وجه ظهر عشرات من الوثائق الملكية من ألقاف وعبارات خاصة بالتسجيل مثل « يسجل » أو « يسجل بليون » أو « يسجل بليون » وتنفيذ ، أو « يسجل بليون » والاصل بوجه « أو « يسجل » وثيقة القورى أوقاف ٨٨٣ ، بحثنا هذا شكل ١ — ٤ ، وثائق محمد بن قلاوون : محكمة ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣١ ، وثائق حسن بن قلاوون محكمة ٣٧ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٢ ، وثيقة فرج بن رفوق محكمة ٦٦ ، وثيقة السلطان إينال دار الكتب ٦٢ تاريخ (المرحوم محمد حنفي وكيل وزارة الزكاة الأسبق) ، وثيقة بدار الكتب ١٦٥٢ تاريخ ، وثيقة قاتباي أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، محكمة بدون رقم ٢١٠ ، وثيقة الطواشي شجاع الدين حيدر محكمة ٢٢٩ وغير ذلك من الوثائق عدد كبير لا حاجة لذكره .

هذه الوظيفة آنذاك شيخ من الشهود العلول من الكتاب بالمحكمة — وهم كتاب الحكم على حد قول الفقهى — من المرشحين لوظيفة نيابة القضاء أو غيره من الشهود الملازمين للقاضي في مجلس حكمه ، ممن يُشهد لهم بالعدالة والأمانة ، والعلم بشروط صحة العقود ، والخبرة التامة بكتابة المحررات المختلفة الأنواع لكي تكون صحيحة مستوفية لشروطها الشرعية ، لأنه يشترط في تحرير العقود أن يقوم بكتابتها من لهم دراية قانونية بحيث تضع بدقة تامة شخصية الفاعل القانوني (المتصرف) ووصف العقار وتحديد (المتصرف فيه) وغير ذلك مما يجب النص عليه بوضوح في العقود ^(٦٢) . وإذا كان ذلك لازماً بالنسبة للكتاب والمحرر فإن وجوبه ألزم بالنسبة للموثق — وهو موظف عسمى — الذي يقوم بمراجعة العقود التي تعرض على المحكمة للتأكد من صحتها وسلامتها ومطابقتها للحقيقة والشرع من حيث الصياغة القانونية rédaction technique .

ومن ثم يمكن القول بأن الموثق كان من جملة العلول في مجلس القضاء ، الذين كانوا يقومون بهذا العمل التوثيقي عادة أو بالمساعدة في إتمامه . وكان يشترط في الواحد من هؤلاء العلول أن يكون مسلماً بالغاً عاقلًا سالماً من أسباب النقص وخوادم المروءة ، صحيح الرواية عدلاً ، صاحب خبرة بالناس غير طماع ، كما ينبغي أن يكون قتيلاً حافظاً ضابطاً يقظاً ، يعرف أسباب الجرح والتعديل ، وأن يكون غنياً ، وألا يكون متقلاً أو مزبوراً لا بخاطب الناس ^(٦٣) .

ويظهر أن كل من كان يريد أن يحترف حرفة العدالة يذهب إلى القاضي ويعلمه بذلك وبعد التحقق من عدالته الشرعية ، يصدر القاضي اسجلاً بعدالته ، ويقيم في ديوان

== وهذه المباريات وأمثالها كان يكتبها القاضي بخطه بحروف كبيرة بعد صدور حكمه بصحة التعريف أو تنفيذه لكي يقوم أحد كتاب الحكم بإنهاء عملية التحصيل . أنظر بحثنا هذا ص ٣٠٦

(٦٢) الفقهى : صبيح الأعشى ج ١٤ ص ٢٤٩ ، ابن قاضي سواده : جامع الدرر ج ٢ ص ٣٢٦ ، محمود شوق : الشجر القناري ص ٢٢

(٦٣) المزيروني : السلوك ج ٢ ص ٦ حاشية ٤ وما بها من مراجع ، مرقوس : تاريخ القضاء ص ١٣١ — ١٣٥ ، قرانة : مذكرة الترتيبات للشرعية ص ٢ — ٣ ، حسين الأثر : نظرية الالباب ج ٢ ، الشهادة ص ٧٧ — ٨١ ، بحثنا وثيقة الأمير آخووركبير قرانداخي (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ١٩٧ حاشية ١

العدول^(٦٤). وكان هؤلاء العدول يقومون بمعاونة القضاء في عملية الوثيق وإجرائاتها — باعتبارهم مساعدين لهم — من كتابة الشهادات وتزكية الشهود والتصديق على شهادتهم أحياناً ، لأن هذا كله من صميم عملهم في مجلس القضاء .

ويقول ابن خلدون إن العدالة وظيفة دينية تابعة للقضاء — وقد شغل ابن خلدون نفسه وظيفة القضاء في مصر المملوكية مدة — ومن مواد تصرفه ، وحقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعليهم ، تحملاً عند الأشهاد ، وأداء عند التنازع ، وكتابة في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأموالهم وديونهم وسائر معاملاتهم ، وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية ، والبراعة من الجرح ، ثم القيام بكتب السجلات والقود من جهة تليها وانظام فصولها ، ومن جهة احكام شروطها الشرعية وعقودها ، فيحتاج حينئذ إلى ما يتعلق بذلك من الثقة ، ولأجل هذه الشروط وما يحتاج إليه من المران على ذلك والممارسة به ، اخص بذلك بعض العدول . هذا والعدالة من شروط اختصاصهم بالوظيفة ، ويجب على القاضي تصفح أحوالهم ، والكشف عن سريهم ، رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك ، لما ينعين عليه من حفظ حقوق الناس ، فالمهنة عليه في ذلك كله^(٦٥) . وكان القضاء يمولون غالباً في الوثوق بصحة البيانات على العدول ويظهر أن وظيفة العدالة شيطان :

١ — كتابة القود وتحرير الوثائق ، ومراجعتها بين الناس في معاملاتهم مستوفات شروطها الشرعية .

٢ — أن يستعين بهم القاضي على تزكية الشهود الذين يشهدون عنده لأن القاضي إنما يحكم بالينة الزكاة .

ويظهر أن بعض العدول — رغم اشتراط هذه الأوصاف الخلقية فيهم — كان على قدر

(٦٤) مرنوس : تاريخ القضاء - ص ١٣١ — ١٣٢ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٤٦ — ٣٤٩ ، أنظر تحقيق رقم ٦٧ .

(٦٥) ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢ — ٢١٣ ، ابن قاضي مائة : جامع النصولين ج ٢ ص ٣٢٦ .

خلقى واجتماعى متواضع مما جعل سفيان الثوري يقول : « الناس عدول إلا العدول ، وما قاله عبد الله بن مبارك : « هم السفلة » (٦٦) .

وتد كان لعدد من كتاب الوثائق والشهود دكاكين ومصاطب (٦٧) يجلسون عليها بجوار الحاكم في العصر المملوكي ، يستقبلون فيها أصحاب الحاجات من المتقاضين أو المتصرفين لقضاء حوائجهم من تحرير وكتابة وشهادة على عرائض الدعوى والعقود الناقلة للملكية وغيرها . ومن هؤلاء الشيخ أبو الفضل محمد الأعرج السبائلي (٦٨) الكاتب المجيد والده من قبله .

ويظهر أن القضاة والعدول من الكتاب والشهود كانوا يقاضون أجراً على كتابة الوثائق ومراجعتها وغير ذلك من الشؤون القضائية في العصر الوسيط . وعده قد جاء في جامع النصولين « وللقاض أخذ الأجرة على كتبه السجلات والمحاضر وغيرها من الوثائق إذ يجب عليه القضاء وإيصال الحق إلى أهله لا الكتبه ، ولكن إنما يطيب له لو أخذ ما يجوز أخذه لغيره وأما أجرة السجل على من نجح ، قيل على المدعى إذ به إحياء حقه فنفعه له ، وقيل على المدعى عليه إذ هو يأخذ السجل ، وقيل على من استأجر الكاتب وإن لم يأمره أحد وأمره القاضى فعلى من يأخذ السجل » (٦٩) .

والواقع أن التسجيل لم يكن مطاوباً إلا لعلام الكفاية وامتناعه بسبب عدم تقاذ العقد في مواجهة أصحاب المصلحة ، على أن هذا لا يغير من موقف المتعاقدين كل حيال الآخر بمعنى أنه إذا لم يكن ثمة ضرر يصيب الغير من جراء عدم التسجيل فإن العقد يظل صحيحاً ، ولكن لكي يكون العقد أو التصرف صحيحاً نافذاً يجب ألا يكون مشوباً بعيوب تجعله مثار نزاع في المستقبل أو محل شك ولهذا يجب تسجيله . وإنشاء الوقف في العصر الوسيط عامة - والمملوكي خاصة - كان يخضع للتسجيل وكانت الحاكم تقوم بهذه المهمة (٧٠) .

(٦٦) السبكي : معبد النعم ومعبد النعم ص ٦٢ • عرنوس : المرجع السابق ص ١٢٤

(٦٧) ابن أبيس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٣٤٧ • ج ٥ ص ٤٦٤ ، ابن خلدون : المقدمة

ص ١١٣ • عرنوس : المرجع السابق ص ١٣٢

(٦٨) أنظر تحقيق رقم ٦٨

(٦٩) ابن قاضي ساهو : جامع النصولين ج ٢ ص ٢١١ — ٢١٢ ، ابن أبيس : بدائع

الزهور ج ٥ ص ٤١٢ — ٤١٣ • ٤٤٧ • ٤٥٥

(٧٠) عمود شوق : الشجر العنقاري ص ٦ — ٧ • ١٨ • ١٩

ومهما يكن من أمر فإن العقود أيا كانت طيعتها تكسب صحتها ومفعولها بين المتعاقدين إثر موافقتهم عليها - لأن المسلمين عند شروطهم كما يقول الفقهاء والعقد شريعة المتعاقدين كما يقول رجال القانون الحديثين - ودون ما اشترطوا لشكل خارجي أو شهر ولكن هذه النكرة أدت إلى إقناع الكثير من المتعاملين في مناعب كثيرة وحللتهم أضرارا جسيمة بسبب إهمالهم تسجيل العقود ، ذلك أن عدم التسجيل يؤدي في الواقع إلى انعدام أثر العقد غير المسجل بالنسبة لغير المتعاقدين مما يقفده حجته في مواجهتهم لعدم استيفائه لشروطه الشكلية من حيث الشهر والتسجيل ^(٧١) . وإذا كان ذلك كذلك بالنسبة للتصرف القانوني أو العقد المزمع للجانبين acte bilatéral فإنه أولى بلا شك بالنسبة للعمل القانوني الصادر من جانب واحد acte unilatéral كما هو الحال في الوقف .

والمعروف أن العقد أو السند يطلق على كل ما يفيد الالتزام بشيء ، وهو من حيث الأثر إما أن يكون ملزما للجانبين أو ملزما لجانب واحد ، ومتى كان العقد مشروعا فالوفاء به من أزم الواجبات ، فقد قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود » وقال : « ووفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » وقال صلى الله عليه وسلم : « لا أمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له » ^(٧٢) .

والتصرف القانوني هو التعبير عن إرادة ترمي إلى إحداث أثر قانوني ، وهو يشمل العقود أي التصرفات التي تم بوافقي إرادتين ، كما يشمل التصرفات الإرادية الاختيارية التي تم بإرادة منفردة من جانب واحد La volonté unilatérale مثل الوقف ^(٧٣) والإرادة المنفردة - إرادة الواقف مثلا - هي عمل أو تصرف قانوني صادر من جانب واحد acte juridique unilatéral يرتب عليه آثار قانونية مختلفة ^(٧٤) .

(٧١) محمود شوقي : نفس المرجع السابق ص ١٨ - ١٩ - ٢٢ - ٢٤

(٧٢) فتحه : التنفيذ وما وعلا ص ٤٦ - ٤٧ ، قدرى : مرشد الميراث ص ٦٥ - ٦٦

السهروري : الوسيط ص ١٥٠

(٧٣) السهروري : نفس المرجع السابق ص ١٣١ - ١٣٤ ، محمود أبو حاتم : التصرف القانوني المرد ص ٢

محمد حسن عباس : نظرية العقد والإرادة المنفردة (ط ١٩٥٤) ص ١٦١ وما بعدها

(٧٤) الالتزام obligation هو حالة قانونية يرتبط بمقتضاها شخص معين بنقل حق معين أو إلتزام بعمل أو الامتناع عن عمل . السهروري : نفس المرجع السابق ص ١١٤ ، صوقي حسن : بين الشريعة الإسلامية والقانون الروماني (القاهرة ١٩٥٦) ص ١٦٦

تكون ميبا لكسب الملكية كالوصية وأخرى تكون إسقاطاً للحقوق العينية كالوقف لأن الوقف ركنه الإيجاب فقط دون احتياج إلى قبول أحد . وعلى هذا فالعمل القانوني الصادر من جانب واحد في حالة الوقف يتم بإرادة منفردة واحدة هي إرادة الوائف .

أما العقد الملزم للجانبين فإنه ينشئ التزامات متقابلة ، وهذا ارتباط و انتقابل Interdépendance يؤدي إلى نتائج لا نراها في العقد الملزم لجانب واحد حيث لا وجود للتقابل (٧٥) .

والواقع أن الوقف تصرف يترتب عليه التزام — فما منشأ هذا الالتزام ؟ هل هو ثمرة لعقد فيه توافق إرادتين أم ثمرة تصرف من جانب واحد وإرادة واحدة ؟

العقد هو كل تصرف يترتب عليه التزام ، ولو كان من جانب واحد ، والوقف تصرف يترتب عليه التزام ، فالوقف على مذهب الإمام أحمد بن حنبل تصرف يتقيد من جانب واحد ، ويتم الالتزام به من غير إرادة أخرى ، وعند الإمام مالك القبول ليس بركن في صحة الوقف وانعقاده مطلقاً ، أما عند الشافعي فالقبول الصريح ليس بشرط ، هذا والوقف في مذهب الحنيفة يتم ببشارة واحدة ، فهو ليس بعقد على تعريف العقد بأنه توافق إرادتين (٧٦) ، ولكن المرحوم الشيخ أحمد إبراهيم يرى أنه لا مانع من تسميه ما يتم بالإرادة المنفردة في وحدهما عقداً (٧٧) ، وبهذا تكون الإرادة المنفردة في حالة الوقف مكونة للعقد .

ومن أركان العقد وجوب الرضاء Le consentement وصحته ، وصحة الرضاء بالأهلية capacité ، والواقع أن الأهلية يجب توافرها في الالتزام القانوني المبني على الإرادة المنفردة كما هو في حالة الوقف (٧٨) ولا شك أن العقد يعتمد أولاً وقبل كل شيء

(٧٥) الشهورى : الوسيط ص ١٥٨ ، نظرية العقد ص ٦٣ — ٨١ وما يها من حواشي ص ١٣٠ ، حامد نهي : نظرية التصرفات الانفرادية والانثائية (مجلة الحقوق والاقتصاد السنة الأولى العدد الأول) ص ١٧ ، زيد الاياني : مباحث الوقف ص ٢ (٧٦) أبو زهرة : مشككة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧) ص ٧١١ ، ٧١٥ — ٧١٨

(٧٧) محمد سلام مذكور : الفقه الإسلامى (ط ٢ سنة ١٩٥٥) ص ٣٥٦ — ٣٥٧ (٧٨) الشهورى : نظرية العقد ص ١٤٧ ، ٣٩٣ — الوسيط ص ٢٩٥ ، ١٢٩٦ — مجلنا وثيقة الأمير أخور كبير قراچا الحسى (مجلة كلية آداب - ١٨ ج ٢) ص ١٩٢ حاشية ٢

على إرادة المتعاقدين ، ويستمد قوته منها لأن جوهر التصرف القانوني هو الإرادة ، والإرادة هي العنصر المكون أو المنشئ للعمل القانوني ^(٧٩) *La volonté est l'élément constitutif de l'acte juridique*.

ذلك أن كل الالتزامات ترجع في مصدرها إلى الإرادة الحرة ، فالإرادة مصدر الالتزامات ، والمقصود بالإرادة هنا الإرادة التي تصدر من صاحبها بنية إحداث أثر قانوني معين هو إنشاء الالتزام ، والإرادة بهذا التحديد هي العمل القانوني *L'acte juridique* والعمل القانوني في الواقع أعم من المقعد ^(٨٠).

هذا والمعروف أنه جواري الإرادتين يتم المقعد ، لأن المقعد شرعية المتعاقدين *L'autonomie* *Le contrat fait la loi des parties* *de la volonté* وهذا اعتمادا على أن العبرة بالإرادة الحقيقية الكامنة أخذا بنظرية الإرادة الباطنة *volonté interne* ومؤداها أن إرادة المتعاقدين هي التي تخلق الالتزام وتعين مداه ، ولكن نظرية الإرادة الظاهرة *déclaration de la volonté* تعول على الإرادة في مظهرها الاجتماعي حيث يستطيع تعربها ، وهذا التعبير عن الإرادة هو الذي يقف عليه القاضي بغير حاجة إلى النوص في حيايا النفوس لصرف حقيقة ما أريد . ويرى أنصار هذه النظرية أن ذلك أضيق لاستقرار المعاملات ، وخاصة في عصور الاضطرابات وعدم الاستقرار كما كان الحال في أواخر عصر المالك .

والمقعد يجب أن يكون له من القوة والاستقرار ما يكفل له هذا الغرض ، وعلى قدر ما للمقعد من القوة والثبات على قدر ما يكون استقرار المعاملات بين الأفراد ومن أجل هذا أحاطت الترائع المقعد بسياج من الضمان .

وفي حالة الوقف يجب أن يكون التعبير عن الإرادة المنفردة تعبيراً صريحاً ، ولا يكفي بالإرادة المقترضة لأنه في هذه الحالة يجب تنبيه المتصرف (الواقف) قبل التصرف إلى وجه الخطر فيها هو مقدم عليه من إسقاط للملكية أو التصرف فيها دون عوض أو مقابل

Mircea Durma : *La notification de la volonté (Rôle de la notification)* ^(٧٩) *dans la formation des actes juridiques* Paris 1930, P. 3.

(٨٠) السنهوري : الوسيط ص ١٤٤ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، صوفي حسن : بين الشريعة الإسلامية والتانون الروماني ص ١٥٨ — ١٦٢

Disposition à titre gratuit فلا يبرم الأمر إلا بعد أن تعلم منه إرادة صريحة ، ولهذا السبب أقر السلطان الغوري الواقف بتصرفه وبجميع ما نسب إليه في كتاب وقفه — وعبر عن إرادته تعبيراً حراً صريحاً واضحاً — بعد قراءته عليه وأحاطة علمه الشريف بمعانيه (٨١) .

كما أنه يتعين على القاضي رعاية الاتفاقات والتصرفات وحمايتها كرعايته للنصوص القانونية وحمايتها إياها ، والواقع أن مناهج تدخل القاضي في الأصل لصحة حقيقة ما يشترعه المتصرفون ، وما يهدفون إليه من تصرفهم ، وعلى القاضي أن ينفذ ما انطوى عليه التصرف من التزام ، أى تنفيذ التصرف طبقاً لما اشتمل عليه ما دام مطابقاً للشرع أو القانون (٨٢) . ولأجل أن يكون القضاء صحيحاً منطبقاً على الحق والعدل يشترط أن يحصل للقاضي حين فصل القضاء علان :

أولها : علمه بالحادثة (التصرف) التى يراد الفصل فيها علماً منطبقاً على الواقع ، وذلك بأن يشاهد الحادثة بنفسه ويحيط بها علماً إحاطة تامة ، أو أن يصل إليه خبرها بطريق التواتر المفيد للعلم ، وقد حصل لقاضى القضاء عبد البر بن الشحنة الحنفى فعلا العلم بالتصرف القانونى الصادر من الواقف والوارد فى وجه الوثيقة ، ولا شك أنه أحاط به إحاطة تامة بعد أن وصل إليه خبره ، فهو صديق السلطان الغورى المقرب إليه والملازم له (٨٣) .

ثانيها : علمه بحكم الله تعالى فى تلك الحادثة وذلك عن طريق معرفة الشريعة . ولا شك أن قاضى القضاء ابن الشحنة وهو رأس المذهب الحنفى فى مصر المملوكية وتحت ذلك ، يعلم تمام العلم بحكم الشريعة الفراء فى ذلك التصرف ، رغم ما وجه إليه من اتهامات وأقوال لاذعة .

وبتبر هذين الطريقين لا يستفيد القاضي علماً وإنما يستفيد ظناً أو ما دون الظن ، ولكن الاختصار على هذين الطريقين فقط من الأدلة قد يعطل أكثر مصالح الناس ، ولذلك

(٨١) ربه وثيقة: القروى أوقاف ٨٨٣ سطر ١٢٧٦ — ١٧٧٩ (دراسة ونشر وتحقيق الدكتور عبد اللطيف إبراهيم) .

(٨٢) السهوى : الوسيط ص ١٤١ — ١٤٩ ، ١٧٤ — ١٨١ ؛ حين طامر : القوة المأزومة للنفق ص ١٠ — ١٥ ، ٤٥٥ ؛ محمود أيرعانيه : التصرف القانونى المجرى ص ٢

(٨٣) أنظر ترجمة ابن الشحنة الحنفى — تحقيق دقم ٤٣

نفت الحاجة الشديدة جداً أن قبل الحجة الثانية ليني عليها القضاء ، وذلك بعد أخذ الحيلة بأقصى ما استطاع ، كما يبنى القضاء أيضاً على الحجة القطعية إن وجدت .

وأجازت التهمة الحكيمة للقاضي بناء حكمه على شهادة الشهود العدول المبينة على المعينة والمباشرة ، وكذلك أجازت التهمة الإسلامية الشهادة بالتسامع والشهادة على الشهادة . فتمت صلت الشهادة مستوفية شروطها الشرعية يقال إن الشهادة صلت صحيحة *Témoignage véridique* بحيث إذا قبلها القاضي وحكم بمقتضاها نفذ حكمه ولزم ، أما بيان حكم الشهادة فهو وجوب القضاء من جانب القاضي ، لأن الشهادة عند استماع شرائطها الشرعية مظهر للحق ، والتقاضى مأمور بالقضاء بالحق ، وثبوت ما يترتب عليها من الأحكام ، ويظهر أن الأصل في إثبات الحقوق في المحاكم في العصر الوسيط هو الشهادة ^(٨٤) .

وقد قام قاضي القضاة الحنفى بالحكم بصحة الوقف ولزومه وإبرامه بناء على شهادة الشهود ^(٨٥) *La déposition des témoins* ومن بينهم شاهدى التصرف وكتاب الوثيقة نفسها .

والآن يجدر بنا أن نعرض لآراء الفقهاء في الوقف باعتبار أن الشهادات التي تقوم بشرها ودراساتها في بحثنا هذا اشهاديات على الوقف . فالوقف عند أبي يوسف حبس العين على ملك الله ، فيزول ملك الواقف عنه إليه تعالى بمجرد القول « وقتت » أو بصلور أى لفظ من ألفاظه الخاصة به ، وبمجرد انعقاد الوقف صحيحاً يزول ملك الواقف عن العين الموقوفة ، ويصور الوقف لازماً على وجه يعود قفقه إلى المباد فلا يباع ولا يوهب ولا يورث . أما محمد فيقول - لا يزول ملك الواقف حتى يجعل للوقف متولياً ويسلمه إليه . وعند ابن حنبل يخرج إلى ملك الموقوف عليهم ، ولا يزول ملكه عن الواقف وهو قول مالك ابن أنس ، أما الشافعى ^(٨٦) فيرى أنه لازم بمجرد الصيغة الدالة عليه سواء حكم به حاكم

(٨٤) أحد ابراهيم : طرق الآيات ص ٢٨٠ - ٢٨٤ ، قراة : الأصول القضائية

ص ١٥٩ - ١٦٠

(٨٥) أنظر بحثنا هذا ص ٣٠٣

(٨٦) محمد بن ادريس الشافعى : كتاب الأم (٢ . يولاق ١٣٢١ هـ) ص ٢٨٠ - ٢٨١

(قاضي) أم لا . وعند أبي حنيفة الوقف كالعارية جائز ولكنه غير لازم ، فحق الملكية للواقف وله أن يرجع فيه إلا في حالتين يكون فيما لازما وهما : أن يحكم به حاكم أو يعنه بيوته ، ومتى خرج شيء الموقوف من ملك الواقف - إلى ملك الله - فلا يمكن الرجوع فيه ، وهكذا يتأكد لزوم الوقف وزوال ملك الواقف منه إذا حكم به حاكم شرعي مولى من قبل السلطان أو نائبه ، وهذا شرط أساسي في إنشاء الوقف ^(٨٧) ، مثله تماما مثل التأيد فلا يجوز الوقف حتى يجعل آخره لجهة بر لا تقطع ^(٨٨) .

ومعنى هذا أنه لا بد من صدور حكم من المحكمة بصفة الوقف ولزومه وإنبراهه ، وقد حدث هذا فعلا على يد قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى ، كما تم تنفيذ حكمه على يد قاضي القضاة الحنبلى ومن تبعه - أعنى قاضي القضاة المالكي والشافعى ، ولم يقتصر الوضع على ذلك - أى صدور الحكم وتنفيذه - بل لقد أمر قضاة القضاة الأربعة بتسجيله ، لأن آثار الوقف لا تنقل إلا بالتسجيل ولأن العقود تكتسب حجتها على الغير بطريق تسجيلها .

(٨٧) أبو زعرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٦) ص ٥٧٠ - ٥٧١ ، السنة الخامسة عدد ٧ ص ٢١٨ ، ٧٢٢ ، ٧٤٠ - ٧٤٣ .

الكمانى : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢١٨ ، المرغبانى : الهداية ، الجارى : شرح لمناية على الهداية ، السيرامى : فتح القدير ج ٥ ص ٣٩ - ٤٠ ، السرغسي : المبسوط ج ١٢ ص ٢٧ ، ٣٥ ، المفتى والشرح الكبير ج ٦ ص ١٨٧ ، الطرابلسى : الاساف فى أحكام الأوقاف ص ٩ ، قدوى : قانون العدل والاضاف ص ٣ - ٤ ، زيد الاينانى : باحث الوقف ص ٣ - ٥ ، ١١ ، مرمى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٤٢٦ - ٤٢٧ ، الملكية المقارنة فى مصر وتطورها تاريخى ص ٥٥ .

Clavel : *Le Wakf ou Habous*, le Caire 1896, vol. I, p. 18-22.

Bidaire : *L' institution de biens dit "Habous" ou "Wakf" dans le droit de l'Islam*. Paris 1924, p. 20-23.

Mercier : *Le code du Habous*, pp. 29, 35., Enc. Isl. art. *Wakf*.

(٨٨) أبو زعرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٧) ص ٧٣٠ - ٧٣٢ .

الزيسى : تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٣ ص ٣٢٦ ، المفتى والشرح الكبير ج ٦ ص ١٩٥ ، الفتاوى الهندية ج ٢ ص ٣٥٦ مرمى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٢٧ ،

Mercier : *op. cit.* p. 35. Enc. Isl. art. *Wakf*.

وفي هذا المقام يجدر بنا أن نشير إلى أن المحاكم تباشر أصلاً وظيفة الفصل في المنازعات والخصومات التي تنشأ بين الأفراد والجماعات، وهذه هي الوظيفة القضائية *juridiction ha contentieuse* وإلى جانبها توجد وظيفة أخرى للمحاكم — في العصر المملوكي بالذات — هي الوظيفة الإدارية أو الولاية *juridiction gracieuse* وهي ليست من القضاء في شيء، ومنها إثبات الصعقات والعقود والتصديق عليها، وبهذا تصبح لها الصفة الرسمية والقوة التنفيذية. والعمل الولائي هو تقرير يصدر من المحكمة — في غير نزاع — به على طلب شخص لا يكون ملزماً بدعوة الطرف الآخر لمعا أقاله كما هو الحال في الوقف، وحكم أو قرار المحكمة هنا ليس له حجية الأمر المقضي إلا إذا كانت المحكمة لها ولاية القضاء في مثل هذا الموضوع — كما كان الحال في العصر المملوكي — فيكون الحكم قطعيًا *Jugement décisif* ويجوز حجية الأمر المقضي (٨٩).

ولا جدال في أن السلطة القضائية والولاية كانتا متداخلتين في بعضها في العصر الوسيط، والعمل الولائي وإن كان لا يتم حقًا بالطابع القضائي، إلا أنه يصل بمصالح الأفراد والجماعات الذين تعهد القضاء برعاية حقوقهم ومصالحهم، وإذا كانت هذه الإجراءات تخرج بالقضاء عن وظائفهم الرئيسية — بالمعنى المعروف في الوقت الحاضر — وهو الفصل في المنازعات القضائية، إلا أنها تسهل عليهم هذه الوظائف عند مباشرتهم لها ومرد ذلك يرجع إلى عدم الفصل بين السلطات في عصر المماليك، فقد كان يد قضاء القضاء ونوابهم سلطة تنفيذية إلى جانب سلطتهم القضائية (٩٠). وكان القاضي في عصر المماليك ينظر في الخصومات المدنية والقضايا الجنائية ومسائل الأحوال الشخصية — في مصطلح العصر الحديث — ويفصل فيها إلى جانب نظره في صحة العقود والصرفات القانونية أو بطلانها وهو عمل شبه قضائي *semi-judicial*، وكان القاضي يجمع أحياناً بين القضاء والتدريس في إحدى المدارس المملوكية أو مشيخة الصوف في إحدى الخوانق، وقد تصاف إلى هذه المناصب السنية أعمال أخرى بعضها إداري والآخر مالي فوق عمله القضائي والديني، ومن

(٨٩) عبد الصمد الصده: الآليات في المراء المدنية ص ٢٢٢ — ٢٢٩، وحقن هذا أنه لم يكن هناك ديوان أو هيئة مستقلة في العصر المملوكي لقيام بعملية التوثيق كما هو الحال عدة اليوم بل كانت المحاكم تقوم بهذا العمل بموجب سلطتها الولاية إلى جانب سلطتها القضائية.
(٩٠) القرطبي: الملوك ج ٢ ص ٤٤٢ حاشية ٩، ص ٥٠٢ حاشية ٢

ثم كان منصب القضاء من أخطر المناصب وأجلها في عصر المملوكية ، وهكذا كانت سلطة قاضي القضاة كبيرة واختصاصاته واسعة (٩١) .

ومن الأعمال الولائية التي باشرتها المحاكم في عهد المماليك إثبات التصرفات والعقود والوثائق عامة ومنها وثائق الوقف ، والتصديق على التصرفات القانونية الواردة فيها والمحكم بصحتها ولزومها لتكون لها الصفة الرسمية والقوة التنفيذية ، وتعتبر هذه الاجراءات من قبيل التوثيق الذي هو وسيلة لتثبيت معاملات الناس وتصرفاتهم القانونية على أساس وطيد متين ، كما أنه أساس لتنظيم سيرها والكشف عن نوايا المتعاقدين وصيانة حقوقهم وتصرفاتهم المدونة في وثائقهم على طول الزمن (٩٢) ، وهكذا يمكن تشبيه إجراءات التوثيق بأنها تأمينات قانونية *Sûretés légales* .

ووثيقة الوقف يمكن اعتبارها محرراً شكلياً *acte solennel* من حيث تكوينها ، وذلك لأن الوقف تصرف قانوني يصدر من جانب واحد ، والشكلية ركن واضح فيه بمعنى أنه لا يصح إلا إذا صدر به إشهاد شرعي (رسمي) ممن يملكه لدى القاضي ، والواقع أن الوقف يحدث زوال ملكية الواقف للأعيان الموقوفة كما سبق أن رأينا ، ولذلك يجب توثيقه بواسطة الإشهاد عليه ثم إظهاره بتسجيله لأنه كان يجوز في عصر المماليك وهو عهد مضطرب الاحتجاج بعدم التوثيق والتسجيل والرجوع عن الوقف (٩٣) أو الاعتداء عليه .

ومما يمكن من أمر فان جميع السندات أو التصرفات الصادرة بين الإحياء بعوض أو بغير عوض ، والتي من شأنها إنشاء حق الملكية أو أى حق من الحقوق العينية العقارية

(٩١) هرنوس : تاريخ القضاء ص ١١٢ — ١١٣ ، البكي : عهد النعم وميد القم ص ٥٥ — ٦٠ ، المارودي : الأحكام السلطانية ص ٨ — ٥٩ ابن خلدون : المقدمة ص ٢٠٨ — ٢١٠

على يدري : تطور المبادئ القانونية عند العرب (مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى عدد ٣) ص ٢٥٠ ، صوفى حسن : مبادئ تاريخ القانون ص ٢٥٧

(٩٢) عبد الحليم إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر المنورى (تحت الطبع)

(٩٣) صرمى : شرح القانون المدنى الجديد — شهر التصرفات القانونية — المكتب كسب لكسب الملكية ص ٧٨ ، ١١٣ — ١١٤

الأخرى أو قله أو تغييره أو زواله كما هو الحال في الوقف ، وكذلك الأحكام (٩٤) المبنية لشيء من ذلك أو التفضية لبيان الحقوق أو المؤسسة لها ، لا تكون نافذة الأثر بالنسبة للغير إلا بالتسجيل ، ومعنى ذلك وجوب شهر التصرفات القانونية بعد الانتهاء عليها — وتقيدها بطريق التسجيل في المحاكم ، ويدخل في هذه التصرفات الوقف باعتباره من الحقوق العينية العقارية الأصلية ، وقد خصص الوقف بالذات لابرار أهميته وعظمه — لأنه تصرف من جانب واحد — ولأنه يترتب على عدم التسجيل أن الحقوق المشار إليها سابقاً — تبقى حرة — لا تنشأ ولا تنقل ولا تغير ولا تزول لا بين المتعاقدين أو المتصرفين ولا بالنسبة للغير ، ولا يكون للعقود غير المسجلة من الأثر سوى الإلزامات الشخصية بين المتعاقدين (٩٥) .

والمعروف أن التعاقد الإبدائي يبقى بلا أثر قانوني ملزم ، ثم يأتي حدود التعاقد الملزم وذلك بحكم القاضي فيصدر للقوة وأثره وصحته ، والواقع أن عدم التسجيل لا يرفع عن العقد كيانته القانوني والآثر الملزمة المترتبة عليه ، ولكن لابد من أن تحاط المعاملات بين الأفراد وكافة التصرفات — ومنها الوقف — بأنواع مختلفة من صنوف الضمانات ومساوئ الاحباط ، ويظهر أن الظروف التي مرت بها مصر إبان عصر المالك وخاصة في أيام الأخيرة ، قد دعت إلى ذلك الأمر وأوجبه .

والواقع أن إشهار التصرفات والإشهادات وتسجيلها هو شكل من أشكال العلامة وإمارة من إمارات الاعلان وإخبار الغير بما يحيط بالشيء المتصرف فيه (٩٦) أو الموقوف في حالته هذه .

(٩٤) بقصد بالأحكام حا الأحكام بمنعها الواسع تشمل القرارات المأددة من الجهات القضائية ويشترط لها أن تكون نهائية *Passés en force de chose Jugée* حامد نهي : نظرية التصرفات الفردية من جهتها الشرعية والقانونية وأثرها في الثقة وأحكام التسجيل (مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى) ص ٤٧ وما بعدها ، مرسى : شهر التصرفات العقارية — التسجيل والقيود ص ١١٥

(٩٥) مرسى : القانون المدني الأهل — الملكية والتسجيل ص ١٦٩ ، شرح القانون المدني الجديد — القيد كسبب لكسب الملكية ص ١١٨ ، التسجيل والقيود ص ٣٢ ، ١١٥ ، أحد ثنائيات رسالة الاتيات به ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٩٦) عبد السلام ذهي : التسجيل وحماية المتعاقدين والغير ص ٧ — ١٧ ، ٣٢ — ٣٣

ومها يكن من أمر فإن التسجيل دليل خطى أو كتابى لئلا له من الاعتبار بالنسبة لنوى الشأن وغيرهم ممن تكن له صلة بهم وللتقاضى الذى يُجج بالمحررات أمامه ، وبهذا تصبح الوثيقة حجة على أى شخص ولا يجوز الطعن فيها إلا بدعوى التزوير (٩٧) ، أى أنه تصبح للوثيقة قوة تنفيذية وتعتبر فى قوة أو حجة الأوراق الرسمية من وقت صدورها - أعنى منذ تاريخ الإشهاد عليها وتسجيلها .

والآن يتضرنا سؤال هام هو :

هل الوثيق نوع من التنفيذ الجبرى ؟ *L'exécution forcée*
الواقع أن الأحكام بمعناها الصحيح هى أقوى أدوات التنفيذ من حيث تقريرها للحقوق المراد التنفيذ ولأه لها .

والمعروف أن العقود الرسمية هى التى لها قوة تنفيذية ، وهى المحررات الموثقة *actes notaires* أى التى لها قوة تنفيذية ، والتى يقوم بها موظفون مختصون بالتوثيق .
ومن المستقر عليه كذلك أنه ليس لغبر المحررات الموثقة من السندات الرسمية قوة تنفيذية ولهذا كانت المحررات الموثقة من أهم مجموعات المحررات الرسمية .

Les actes notariés sont une des classes les plus importantes des actes authentiques (٩٨).

ولا شك أن للمحررات الموثقة قوة تنفيذية ، ومعنى هذا أن أعمال الموثقين لها صفة الأعمال القضائية *In most countries the notarial act is received in evidence as a semi-judicial matter* (٩٩).

ومن أهم مظاهر هذه الصفة أن كل المحررات التى يوثقونها ما لأحكام القضاء من قوة تنفيذية (١٠٠).

(٩٧) أحد إبراهيم : طرق القضاء . ص ٨٠ ، ٨٥ ، ٤ طرق الاتبات ص ٥٢ ، ٥٧

أحمد نشأت : نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٠٧ ، ١١٤ ، ١٤٠

(٩٨) *A. Ainaud : Traité-Formulaire, général Alphabétique et raisonné du notariat, Paris 1935 vol. I, p. 57.*

عبد الحى جازى : النظرية العامة للالتزام ج ٢ ص ٦٨ وما بعدها .

(٩٩) *Enc. Brit art. Notary*

(١٠٠) ومضى سيف : تنفيذ الأحكام والعقود الرسمية ص ١٢٠ ، ٦١ - ٦٢

أحمد إبراهيم : طرق الاتبات ص ٥٨ ، ٦٤ ، محمد خلف : شرح قانون تنظيم الشهر العقارى ص ١٦٦ مادة ١٨٧

وتنبي القوة التنفيذية للمحررات الموقعة على اعتبارين :

أولاً : أن صلاحية المحررات الموقعة للتنفيذ بموجبها مظهر من مظاهر الثقة في أعمال الموقعين المستفادة من صفة الموثق ، ومن الاجراءات التي فرضها القانون عليه - أو من العرف والتقاليد والقواعد التي درج عليها الناس جيلاً بعد جيل إلى جانب ما دعت الحاجة الملحة إليه في العصر الوسيط - في القيام بعمله من ضرورة التثبت من شخصية المتعاقدين أو المتصرفين وصفاتهم وأهليتهم وحرثهم في التصرف ، ومطابقة التصرف الموثق لارادتهم ، وغير ذلك من الاجراءات التي تكفل صحة التصرف وسلامته ، مما يبلغ معه الحق الثابت في محرر موثق مبلغاً يجعله صالحاً للتنفيذ به دون حاجة إلى استصدار حكم به من القضاء .

ثانياً : أن الشخص الذي أقر بحق أمام الموثق قد ارتضى منح صاحب الحق سنداً تنفيذياً يقبضه عن رفع دعوى أمام القضاء والحصول على حكم بحقه ^(١٠١)

وإذا كان الوضع كذلك في العصر الحاضر فإنه مما يشرف نظام القضاء في العصر المملوكي كون المحرر يصدر صحيحاً محكوماً فيه موقفاً بالاشهاد عليه ومسجلاً بتدوينه وشهره في آن واحد كما سنرى .

وبعد ، فهل كان يشترط تسجيل الوقف في عصر المالك ؟

يقول المرحوم الأستاذ الدكتور محمد كامل مرسى : « لم يكن نظام شهر الحقوق العقارية معروفاً في الشريعة الإسلامية » ^(١٠٢) والمعروف أن أحكام هذه الشريعة الفراء كانت نافذة في كل من مصر والشام في عصر المالك ، معولاً بها في العصر الوسيط عامة ، ولكنها لم تنص على وجوب شهر التصرفات ، ^(١٠٣) وقد جاء في المذكرة الإيضاحية لقانون الوقف ما نصه :

« الاشهاد على العقود وسائر التصرفات وتوثيقها مما أمر به الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز ، وقد تناول الفقهاء أحكام التوثيق وشرائطه أحسن تناول وفضلوها أتم تفصيل

(١٠١) رمزي ص ٦ : قس المرجع السابق ص ٦٤ ، قانون التوثيق رقم ٦٨ الصادر في سنة ١٩٤٧ مادة ٦ ، اللائحة التنفيذية لقانون التوثيق مادة ٤ — ١٢ .

(١٠٢) مرسى : شرح القانون المدني الجديد — شهر التصرفات العقارية ص ٩ .

(١٠٣) محمد عبد الحليم : الشهر العقاري ص ١٧ .

وأبنته وأفروده بالتأليف ، وكانت لهم فيه موسوعات متقطعة النظر غير أنهم لم يوجبوا توثيق شيء من التصرفات ولم يشترطوا التوثيق لصحة الوقف ، ولا لصحة غيره ولم يمتنعوا سماع الدعوى به إذا لم يكن مكتوبا واستمر العمل على ذلك قرونا متطاولة ^(١٠٤)

وإذا كان الوضع كذلك من الناحية النظرية ، لأن القضاء في صدر الإسلام كان في طور التكوين والنشوء ، ولم تكن قد حدثت بعد حوادث تستدعي كتابة الأحكام وتوثيقها ، لأن المقاضين كانوا أشبه بالمستفتين ، فإذا أظهر القاضي حكمه اقتضوا به غالبا ، وقلبا كان القضاء يحتاجون إلى تنفيذ الأحكام بأنفسهم ، لأن الخصوم كانوا بعد علمهم بالحكم يتقاضون إليه ويسارعون إلى خفيته ، ولكن بعد ذلك من الأمور ما لفت نظر القضاة إلى كتابة الأحكام في الصحف (السجلات) ، وفي هذا معنى الأشهاد والإعلان والتسجيل ، فقد قال الكندي إن سليم بن عتر التميمي قاضي مصر من قبل معاوية بن أبي سفيان اختصم إليه في ميراث قضى بين الورثة ثم تناكروا ، فعادوا إليه قضى بينهم وكتب كتابا بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ، فكان أول القضاء بمصر سجل سجلا بقضائه ، وهذا هو مبدأ تسجيل الأحكام وتوثيق التصرفات القانونية في الإسلام . وكان المفضل بن فضالة القاضي (١٦٨ — ١٦٩ هـ) أول القضاة طول السجلات ونسخ فيها كتب السجاء والوصايا والديون ولم يكن ذلك قبله على حد قول الكندي ^(١٠٥) .

مهما يكن من أمر فإن التوثيق كان حادثا من الناحية العملية طوال العصر الإسلامي كله تقريبا ، فقد دعت الظروف إليه منذ فجر الإسلام كما رأينا ، واستمر الوضع كذلك على مر العهود ، وكانت الأحكام والشهادة في العصر الفاطمي تسجل في كتب خاصة تسمى « سجلات الحكم » أو « دواوين لحكم » هي عبارة عن السجلات القضائية أو أرشيف المحكمة ، وكانت تودع عادة عند القاضي في داره إلى أن قلبا ابن أبي العوام (٤٠٥ — ٤١٤ هـ) إلى الجامع أو المحكمة ^(١٠٦) .

(١٠٤) مرمى : نفس المرجع السابق ص ١١٢

(١٠٥) الكندي : الولاية والقضاء (ط . بيروت ١٩٠٨) ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، ٣٧٩ ،

السيرافي : حسن المحاضرة ج ٢ ص ١١٤ ، ابن البراد الحنبلي : شذوات القصب ج ١ ص ٨٣ ،

حرفوس : تاريخ القضاء ص ٢٧ — ٢٨ ، عليه شرفه : القضاء في الإسلام ص ١٤٨

(١٠٦) ناجد : نظم القاطنين ورسومهم في مصر ص ١٥٠ — ١٥١

ومع مرور الزمن تمت الدولة الإسلامية في مصر ، وحسب ذلك تنفذ الحياة فيها ، وكثرة المشاكل كلما أوغلت الدولة في العصر الوسيط ، وحسب هذا وذلك نحو النظم القضائية : تقدم الثقافة القانونية فيها ، وتبعاً لهذا كان أصحاب الصالح والتصرفات القانونية المختلفة يحرصون كل الحرص على أن يوثقوا عقودهم وتصرفاتهم وخاصة الأوقاف في المحاكم ، وذلك بإعلانها للكافة بالاشهاد عليها ثم تسجيلها ، وخاصة في عصر المماليك - حيث لعب الوقف دوراً كبيراً في الحياة الاجتماعية والاقتصادية - وهو عصر مضطرب سياسياً ولا سيما الفترة الأخيرة من عهد المراكمة .

والواقع أن التوثيق والتسجيل كان انغرض منها حماية الأوقاف من المصادرة ، ووقايتها من الاعتداء عليها بسبب العداوة بين بعض زعماء المماليك من أصحاب السلطة والثروة أو بسبب الفاقة المالية التي مرت بها الدولة في أواخر أيامها ودفعت بالسلطين إلى اغتصاب الأوقاف بطريقة أو بأخرى أو وضع أيديهم على جزء من ريعها الوفير ^(١٠٧) .

ومن هذا يضح لنا أن توثيق الوقف كان ضرورياً لصحة انعقاده ولزومه ، هذا إلى جانب كونه عملاً له أهميته الكبيرة في اكتساب الوثيقة صفتها الشرعية أو الرسمية ، وكان قضاء القضاة أو نوابهم في محاكم العصر المملوكي مختصين بجمع إشهاد الوقف والحكم بصحته ولزومه وتنفيذه ثم يأمرن بتسجيله في المحكمة ، لأن الوقف كغيره من التصرفات القانونية الأخرى الناقلة للملكية كان يجب تسجيله ، وكان يخضع لكافة إجراءات الشهر والتوثيق ^(١٠٨) . وقد وقع تحت أيدينا عشرات من الوثائق العربية الملوكية الخاصة بالعمالات الشرعية المختلفة ، وخاصة الوقف في أراشيف القاهرة وهي تؤكد هذه الحقيقة وتبينها واضحة جلية للباحثين في ميدان الوثائق والقانون على السواء .



وكان لابد لتسجيل وثيقة الوقف من تحريرها في قالب رسمي ^(١٠٩) . لأن الوقف تصرف خطير يتم من جانب واحد بدون مقابل أو عوض كما سبق أن ذكرنا ، ولذلك

(١٠٧) عبد العظيم إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر النوردي (بحث الطبع)

(١٠٨) محمود شوقي : الشهر العقاري ص ٢٥٢

(١٠٩) لا شك أن هناك فوائد كثيرة من وراء تحرير وثيقة الوقف منها :

١ - مهانة الأوقاف من أن تكون عرضة للإنكار وعدم التمسك من أبنائها ما لم تكن هناك وثيقة بها .

وجب أن تكون صياغة وثيقة الوقف تحت رقابة دقيقة من الوثيق ، كما أنه لا يترتب على الاشهاد الصادر من الواقف أى أثر إذا لم يكن مسجلا ، فقد أصبح تسجيل الوقف شرطا أساسيا جوهريا ، شأنه في ذلك شأن الشروط التي يلزم توافرها ليكون الوقف صحيحا ، بحيث إذا لم يسجل لا يكون للوقف وجود في نظر الشارع (١١٠) .

والمعروف أن المحاكم قديما كانت تقوم بتلقي المحررات وتوثيقها ، بلاشهاد عليها وتسجيلها بوضع الصيغ التنفيذية على صور المحررات الرسمية الواجبة التنفيذ ، وحفظ أصول هذه المحررات التي تم توثيقها ، وإعطاء صور من المحررات الموثقة مثل ما يحدث الآن في مصلحة الشهر العقاري والتوثيق (١١١) .

* * *

والآن تعرض لنا عدة أسئلة منها :

١ — هل كانت المحاكم في العصر المملوكي تقوم بهذا العمل التوثيقي ؟

لا شك أن هذه الخطوات أو ما يشبهها كانت تقوم بها عظام مصر المملوكية ، وكان ذلك يشتمل في مرحلتين أساسيتين :

(أ) مرحلة الاشهادات .

(ب) مرحلة التسجيل .

قد كان التوثيق للمحرر الرسمي - في ذلك العصر - يتم على يد القضاة وذلك بلاشهاد عليه والحكم بصحة التصرف القانوني الوارد فيه وتفيذه ، ثم يأمر القضاة بعد ذلك بتسجيل

== ب — كما أن الشهود لا تتفق من الوثيقة المحررة ، لأنه وإن كانت الشهود تثبت بها الحقوق إلا أنهم عرضة للوث ، أو لا يمنهم من الخضوع أمام القضاء لينهتدوا بها حلوا .

ج — أنه لا يستطيع الشهود أن يبرروا ما يبررونه من الاشهاد على كثرة ضرره إذا كان الوقف مشتملا على أجزاء موقوفة كثيرة ، وعلى شروط جمة عديدة في الاستحقاق والنظر .

د — قطع المناقشة بين المتعاملين أو المستحقين والوقف لأنه بكثرة الوثيقة في الابل وسي يمنع كل ذلك ، لأن المتصرف أو نائبه أو المستحق يرجع إليها ليعرف الحقيقة ويتخذ ما دونها . قراءة : مذكرة التوثيق الشريعة ص ٨ — ١٤

(١١٠) محمد عبد الطيف : الشهر العقاري ص ٤٥ — ٤٦ ، د. دوس : شهادة الشهود ص ٤

(١١١) مرسى : شرح القانون المدني الجديد — شهر التصرفات العقارية ص ١١٢ — ١١٤ ، ٤٥٥

الوثيقة والشهادات الواردة عليها ، وذلك بآليات أو تدوين ملخصها في السجلات القضائية ليكون ذلك كله معلوما لجميع الناس ومشيرا للقريب والبعيد ونحت نظر الكافة .

وأما الشهادات — بمعنى الوثائق — فقد عثرنا عليها في ظهور عدد كبير من الوثائق العربية المملوكية ، وكان الشاهد على الوفاء يتم على أيدي قضاة القضاة الأربعة أو نوابهم ، فيحكم الأول منهم بصحة الوقف ولزومه ، ويقوم الثلاثة الآخرون بتأييد حكمه وتنفيذه .

وأما التسجيل — ومعناه في مصطلح الوثائق القيد أو التدوين والشهر في آن واحد — فكان حقيقة واقعة وأمرا معروفا في عصر المماليك بدليل وجود عشرات العبارات الخاصة به على الماشح الأيمن للوثائق المختلفة وخاصة الأصول منها .

وتسجيل السند أو الحكم عبارة عن نسخ صورة ما به حرفيا فيما يتعلق بقول الملكية^(١١٢)

La transcription comprendra la copie textuelle de l'acte en la partie qui est relative à la transmission de propriété.

وند عثرنا فعلا على الكثير من أصول الوثائق الرسمية *Actes authentiques* كما وقع تحت أيدينا صور معلق عليها طبق الأصل *Copies certifiées conformes à l'original* أو صور صحيحة لما قيمة الأصل *Copies authentiques* في أرشيف كل من وزارة الأوقاف ومحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة^(١١٣) ، وعلى جل هذا الأصول أو الصور وجدنا إشارات وعبارات خاصة بالتسجيل وخاصة في ظهور هذه الوثائق .

ويقول الدكتور مرسى : إن الشهادات كانت تكتب كاملة في دفتر يسمى المضبطة وبمضيا الشهود والقاضي ، ثم ينقل الملخص من المضبطة في دفتر يسمى السجل ، كما كانت تثبت في السجل الملخصات المرسلة من المحاكم الأخرى من الشهادات المضبوطة فيها والملصقة بقفارات واقعة في دائرة المحكمة^(١١٤) .

(١١٢) مرسى : شرح القانون المدني الجديد ، القذافي كسب الملكية ص ١٢ ، ١٣ ، شهر التصرفات العقارية — التسجيل والقيد ص ٣٠ والقعود بذلك تسجيل المرافعة والقرارات .
(١١٣) عبد الحليم إبراهيم : وثيقة الأمير آخوند كبير قرايغا الحنفى — دراسة ونشر وتحقيق (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ٨٨ حاشية ١

(١١٤) مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٤٣٠ — ٤٣٣ ، فرائد : مذكرة الوثائق الرسمية ص ٣٢

٢ — فهل كانت عبارات التسجيل التي كتبها القضاة على الوثائق تعنى الأمر بكتابتها كاملة في المضيطة ثم قل ملخصها في السجل ؟ وهل وجدت مضاط وسجلات في المحاكم الملكية ؟ وهل حدثت مراسلات بين محاكم مصر والشام فيما يخص ضبط ملخص الشهادات في السجلات في حالة وجود عقارات متصرف فيها في أي من الإقليمين ؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة الآن إجابة قاطعة أمر متعذر ، ولن تتمكن من الرد عليها رداً حاسماً لا يدع مجالاً للشك إلا بعد دراسة طويلة فاحصة لمجموعة الوثائق العربية الارشيفية في كل من مصر والشام واستنبول ، وكذلك بعد ترميم عدد كبير من وثائق المصور الوسطى التي تحتفظ بها أراشيف المحاكم في كل من مصر والشام في السنوات القادمة إن شاء الله .

ومهما يكن من أمر فإن تسجيل الوثائق وإشاداتها قد تم بطريقة أو بأخرى ، ولكن القول بوجود مضاط (دفاتر) في محاكم العصر المملوكي لون من الحسد والتخمين بل هو أمر بعيد الاحتمال ، والراجع أنه كان يكفي بنقل عدة صور من الوثيقة وإشاداتها حرفياً على أن تحتفظ إحداها بعد حزمها في الأرشيف القضاة كمنطقة ^(١١٥) . ولكن من المحتمل كثيراً وجود سجلات قضائية في هذه المحاكم لتسجيل ملخص المحرمات الموقفة وإشاداتها فيها ، لأن العبارات الواردة على هامش كثير من الوثائق تؤكد لنا وجوب التسجيل ، وقد أشار إلى ذلك قاضي القضاة عبد الرحمن بن خلدون المالك أحد قضاة عصر المماليك حين قال إن سائر العقود والتصرفات كانت تكتب في السجلات لحفظ حقوق الناس ، ومن ثم فمن المرجح وجود هذه السجلات رغم عدم وصولها أو شيء منها إلينا ^(١١٦) .

أما قيام مراسلات بين محاكم الإقليمين الشامي والجنوبي فيما يخص ضبط ملخص الشهادات في ذلك العصر فهو أمر يحسن السمكوت عنه قليلاً في وسط الظلام الممالك الذي يحوط بهذا الموضوع ، فقد خرس المصائر التاريخية الأدبية عن الإشارة إليه من قريب

(١١٥) بحثنا وثيقة الأمير آخوند كبر قرابغا الحسني من ١٨٨٠ ع بحثنا هذا من ٢٢٤ ع قاموس المعجم مادة « ضبط » بمعنى حفظه بالحزم . ولسان العرب مادة « ضبط » Lane: Arabic-

• English lexicon

(١١٦) بحثنا هذا من ٢١٨ ع ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢

أو بعيد ، وكذلك لم تقدم لنا مخطوطات القاهرة المختلفة — حتى الآن — أى بهيم من النور أو الأمل يمكن الاعتماد عليه لمناقشة هذا الموضوع ، فى ضوء ما قمنا بمرامته أو الإطلاع عليه من وثائقها الكبيرة .

كما أننا لا يمكن أن نقطع برأى فيما إذا كان إسماعيل قضاة الشافعية فى كل من مصر والشام لقاضى القضاة أبو العباس أحمد بن التوفيق الشافعى يجعل تنفيذه للحكم الصادر بصحة الوقف من قاضى القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى فى القاهرة أمراً نافذ المتعول ، سارياً على العقارات والأراضى الموقوفة فى الشام .

وإن كان هذا محتملاً ، فهل كان السلطان النورى يرى إلى ذلك من وراء تعيين ابن التوفيق فى هذا المنصب الذى لم يثق لأحد قبله (١١٧) ؟ لا شك أن هذا الاحتمال يدلنا على مدى تقدم الثقافة القانونية فى العالم العربى أبان عصر المماليك .

٢ — أما هذه السجلات — فإين كانت تحفظ بعد الانتهاء منها ؟ وهل وجد أرشيف قضائى فى المحاكم تمسح لحفظ هذه الوثائق والسجلات أم كان يخصص لها جزء من أرشيف الدولة المملوكية فى قلعة الجبل ؟ وأخيراً — فإين هذه السجلات وما صيرها ؟

يجدر بنا قبل الإجابة على هذه الأسئلة أن نذكر أن المحكمة الصالحية النجسية كانت بمثابة دار القضاء العالى فى دولة المماليك وبعد دوالها ، وأعتقد أنه قد تم الإشهاد على وثيقة وقف النورى وتسجيلها فى هذه المحكمة ، وهى المدرسة (١١٨) التى أسسها السلطان الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م ، ولم يكتمل لها دور النضوج المعارى بمقتضى

(١١٧) بحثنا هذا — تحقيق رقم ٩٨

(١١٨) القرى : المخطوط ٢ ص ٢٧٤ ، الملوك ١ ص ٣٠٥ ، ٣٠٨ ، المخطوط ١

حسن الحاضرة ٢ ص ١٨٩

Cresswell : *The muslim architecture of Egypt*, vol. II, pp. 24-100. 104-106, 123-127.

— *The origin of the cruceiform plan of cairene madrasas*, pp. 31-35

— *A brief chronology of the Mahammadan monuments* (B. I. F. A. O. T. XVI)

Hauteccœur and Wiet : *Les mosquées du Caire*, pp. 254-258.

Van Berchem : *C. I. A. Egypte*, T. I, pp. 102-104.

بحثنا هذا — تحقيق رقم ٩١

أن تخطيطها لم يكن على النظام المتعامد cruciform plan الذى استقرت عليه المدرسة بعد ذلك بقليل .

وأغلب الظن أنه لم يكن فى المحكمة الصالحية من الحواصل والخزائن أو القاعات ما يسمح بوجود أرشيف قضائى كبير مستعد لاستقبال وحفظ مئات العقود والوثائق التى كانت تسجل فى هذه المحكمة باستمرار ، هذا فضلا عن السجلات القضائية التى ينتهى العمل فيها .

حقا أن بعض هذه الوثائق الأرشيفية كانت توضع فى بيت المال بالجامع أبام القواطم فى مصر ، وفى عصر المماليك وبعده كانت تحتفظ فى الخوانق والمدارس والجامع (١١٠) .

ومن المعروف كذلك إن أنتم السجلات القضائية التى وصلتنا هى سجلات المحكمة الصالحية النجمية ، التى يرجع تاريخ أول سجل منها إلى عام ٩٣٤ هـ أى بعد الفتح العثماني لمصر بأحدى عشرة سنة (١١٢٠) .

ورغم بحثي المتواصل فى أرشيف القاهرة المختلفة لم أعثر حتى الآن على أى سجل من عصر المماليك ، ومن ثم يمكن القول بأن السجلات القضائية لهذا العصر ربما كانت قد أودعت فى أحد أقسام الأرشيف المملوكي الكبير بقلعة الجبل واستمرت به حتى الثورة الهوجاء التى سبقت استيلاء العثمانيين على مصر ، وربما كان مصر هذه السجلات كصير وثائق ديوان الانشاء وغيره الحريق المهلك على يد جماعة من المماليك الجراكمة عند ما أصبح الأمل فى هزيمة العثمانيين وردمهم عن القاهرة جد بعيد ، وهذا أمر محتمل جداً سواء أكان

(١١٩) الكندى : الولاية والقضاء ص ٦١٦ ، وثيقة النورى أرقام ٨٨٣ التى كانت محفوظة بالخطاف النورية — أنظر صفحة العنوان فى الصورة رقم ٨٨٢ ، وثيقة السبيى يبرس بحكمة ٢١٢ التى كانت محفوظة فى صندوق مخنونه هاية بالقبة الملاصقة بجامع بخط الجودرية بالقاهرة ، وثيقة سليمان باشا أرقام ١٠٧٤ ص ١ التى كانت محفوظة بكتبة جامعة بيولاك . عبد الحافى إبراهيم : دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر النورى (تحت الطبع) . Enc. Isl. art. II رقم ١١٢٠ .

(١٢٠) محمد أحمد حسين : الوثائق التاريخية ص ٨٨ — ٨٩ ، منقود شر : الوثائق المصرية فى العهد العثماني ص ١٢ — ١٤ ، بحثنا — سجلات المحكمة الصالحية النجمية ، (تحت الطبع) .

حلوته عمداً أو عملاً (١٢١) ، ومن المحتمل كذلك أن تكون بعض هذه السجلات والوثائق قد حملها السلطان سليم معه ضمن ما حمل عند خروجه من مصر عائداً إلى استنبول بل لعلها كانت أهم بكثير مما أخذه معه من رخام تقيس وكتب قيمة (١٢٢) .
ومها يكن من أمر تقيس أماناً إلا أن قول إن هذه السجلات قد فقدت أو اختفت لسبب أو لآخر أثناء الفتح العثماني أو بعده بقليل (١٢٣) .

* * *

ويقول الدكتور مرسى : « إن التسجيل كان موجوداً في المحاكم من قديم لإنباء الوقف وما يترتب عليه ، ولكن التسجيل بمعنى أنه يقرب عليه كونه القدر أو الأصل السجل حجة على غير المتعادين لم يكن معروفاً قديماً والمحاكم المصرية ما كانت تعرف بهذا المعنى » (١٢٤) .

(١٢١) الفيلسوف : صبح الأعشى ج ١ ص ١٣٥ - ١٣٦ ، إذ يذكر الفيلسوف من بين وظائف ديوان الانشاء في مصر المذكر من غير الكتاب وظيفة الخازن أو الأود في مصطلح العصر الحديث ، ويذكر صفاته وأعماله فيقول : « ويجمع متعلقات كل عمل من أعمال الملكة من المكتبات الواردة وغيرها ، ويحمل لكل شهر إضافة ١٠٠ ويحمل عليها بطاقة » وكان يجب على هذا الخازن أن يحتفظ بجميع ما في هذا الديوان احتفاظاً شديداً .

أنظر كذلك ابن الصبوني : قانون ديوان الرسائل ص ١٤٣
شفيق غربال : مصر عند مفترق الطرق (مجلة كلية الآداب م ٤ ج ١) ص ٤١ - ١٢ (١٢٢) ابن أبيس : بدائع الزهور ج ٥ ص ١٧٥ - ١٧٨ ، ١٨٤ ، ٢٠٣ - ٢٠٥ .
قطعة من تاريخ مصر (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٤٠٧٦ تاريخ) ص ١٩ ، ب ٢٨٠
(١٢٣) يقول الاسحاق في كتابه أخبار الأول فيمن تعرف في مصر من أرباب الادب (ط القاهرة ١٣١٠ هـ) ص ١٥٠ « تولي سليمان باشا الخادم في ٩ شبان سنة ٩٣١ هـ ولزم حرمات القادر الوضوء بديوان مصر المحروسة » وفي سنة ٩٣٣ هـ عين الأمير كيوان لسان قري مصر وشيخ أراضها كل إقليم على حدة من الأعيان السلطانية والرزق والأوقاف والانتفاعات وغير ذلك وقادر محروسة ومنست بديوان مصر المحروسة وهي مملوك على الآن ومشار إليها وتسمى دقار تاريخ سنة ٩٣٣ هـ .

J. Deny: *Sommaire des Archives Turques du Caire*, p. 22.

(١٢٤) الوقف أصلاً حجة على التبرع بمجرد صدور الإيهاذه من ملكة على يد حاكم شرعي أو مأذون من قبله إذا كان متديداً يقدّر إحدى المحاكم الشرعية - مادة ١٣٧ من قانون ترتيب المحاكم الشرعية الماددة بالتقانون رقم ٣١ لسنة ١٩١٠

ومعنى ذلك أن الغرض من التسجيل في إقضاء الإسلامى ليس ما يقصد اليوم من الاحتياج به على الغير ، أى أنه لم يكن طريقاً لإعلام الناس بالتصرفات القانونية وخصوصاً ما يتعلق منها بالملكية العقارية بل حفظ التصرفات والقرارات والشهادات حتى لا تدخل في خبر كان (١٢٥) .

٤ — إلى أى حد ينطبق هذا رأى على معنى التسجيل وأهدافه في العصر المملوكى ؟
حقاً لقد أوجبت الظروف الاجتماعية والسياسية قيام نظام التوثيق والشهر في المجتمع الإسلامى وخاصة في العصور المتأخرة — أعنى في العصر المملوكى الأول والثانى — كما سبق أن ذكرنا ، وصار لنظام توثيق الأوقاف قواعد شبه مستقرة ، وأصول مرعية في الكتابة كما يتضح من صيغ الاسجلات الحكيمة والتنفيذية والشهادة عليها ثم تسجيلها في سجلات المحكمة .

وبما لا شك فيه أن الغرض الأول من التسجيل هو أن تصبح وثيقة الوقف التى تم الإشهاد عليها وتسجيلها مشهورة مباح الاطلاع عليها لكل فرد وحيثة على الغير في ذلك العصر المضطرب (١٢٦) وإلا لما كان هناك داع للتسجيل جاتاً بعد الإشهاد على الوقف لدى القضاء

== والمعروف أنه قبل قانون التسجيل الجديد لم تكن المحاكم تشترط في الوقف أكثر من التيد في دفتر المحكمة ، وأنه لا يجوز لأحد الاحتجاج عليه بعدم تسجيله ، مادام لا شأن لنشوء الوقف في نقله من السيطرة إلى السجل ، كما لا شأن له عند قيده في سجل محكمة غير محكمة العقار في إرسال ملخصه إلى المحاكم للسكان بدأوتها العقار لتسجيله مادام هذا أمراً إدارياً محضاً مستقلاً عن إرادته . سرى : الملكية والحقوق البيعية ج ١ ص ٤٢١

وقد عدلت المادة ٥ من القانون رقم ٢٢ لسنة ١٩٢٠ المادة ١٣٧ السالف ذكرها فقت بوجود تسجيل الوقف أو ملخصه بسجل المحكمة التى بدأوتها العقار للوقوف ، فلا إشهاد بالوقف لا يعتبر حجة على الغير إلا إذا كان مسجلاً بسجل المحكمة ، والتسجيل لازم لا بالنسبة لغير فقط بل أيضاً لراشقين والمستعنين .

سرى : شرح القانون المدنى الجديد — المقدسبب لكسب الملكية ص ١٠٤ — ١٠٥ ،
إشهار التصرفات العقارية (مجلة القانون والاقتصاد السنة الثالثة عدد ٤) ص ٦٠٣ وما بعدها ،
الملكية والحقوق البيعية ج ١ ص ٤٢٣ — ٤٢٥

(١٢٥) سر لطفى : الأدلة الخطية والمحاكم الشرعية ص ٢٠ — ٢١

(١٢٦) بحثنا هذا ص ٣٠٣ ، لسان العرب مادة « سجل » ، لشيال : مجموعة الوثائق
الفاطمية ج ١ ص ٣٧ حاشية ١ . ابن قاضي ساره : جامع القصرولين ج ٢ ص ٢٢٤ ،
= سجل » Lane : Arabic-English lexicon art

في الحاكم والحكم بصرته وتنفيذه على أيديهم ، وهذا هو ما يشترطه فقهاء الحنفية في لزوم الوقف (١٢٧) .

والواقع أنه في تسجيل الحكم Transcription du jugement وهو لب عبلة الانهار والاعلام للكافة ، ما يكسب الوثيقة حجية في مواجهة الغير (١٢٨)

ولعل الخطأ الذي وقع فيه البعض من القول بأن الغرض من التسجيل قديما لم يكن يقصد به الاحتجاج على الغير ، يرجع إلى أنه لم يكن للتسجيل — بمعنى الشهر والتقدير من القلمية والاحترام ما يجب ، بل لم قبله عقيلة كثير من المالك أحيانا ومنهم السلاطين وكبار الأمراء ، بدليل كثرة المصادرات والاعتداء على الأوقاف ، وعدم رعايتها والاخلال بشروط الواقفين المختلفة بالرغم من ورود كثير من الفقرات الجزائية ذات الصلة الدينية المناسبة لروح العصر الوسيط في ختام وثائق الوقف المملوكية .

وقد دفعت هذه الأسباب وغيرها بعض الواقفين إلى محاولة تأكيد فكرة حجية وثيقة الوقف والشهادات المسجلة على الغير جميعين شاهد لإيصال كتاب الوقف ، يشترط فيه أن يكون علاقة طرفاً بأمر المكاتب أو الاسجلات الحكومية والتنفيذية ، وهو المعروف باسم الموقع في بعض وثائق ذلك العصر ، وكانت مهتة على ما ورد في هذه الوثائق أن يصعد إثبات كتاب الوقف وإيصاله وتنفيذه على السادة قضاء القضاة والحكام في كل وقت وزمان ، حفظا وإحياء له وصونا من الاقتطاع بحيث لا يتقاع حكمه ولا يندرس رسمه . وقد نصت بعض الوثائق على أن يكون إيصال كتاب الوقف كل عشرة أعوام

== وقد جاء في جامع النصارى في السجلات جمع سجل وهو لغة كتاب النافى
وفي الطرف الآن (في العصر الثاني) السجل ما كتبه الشاهدان في الواقفية وفي عند النافى وليس عليه خط النافى والمجبة ما نقل من السجل من الواقفة وعليه علامة النافى أعلاه وختم الشاهدين أسفله وأعطى الختم « ابن قاضي سماوة : جامع النصارى ج ٢ ص ٢٢٤
(١٢٧) بحثنا هذا ص ٢٢٥

(١٢٨) بحثنا هذا ص ٣١٩ — ٢٢٠ والمقصود بالتأثير هنا الأشخاص الذين لم يشترك إرادتهم في تكوين المنصرف ولا تربطهم أى علاقة بالواقف المنصرف ويطلق على هؤلاء الأشخاص poennitus extranei . محمد حسن عباس : نظرية المقد والارادة المنفردة (ط ١٩٠٤) ص ١٢٣ و ص ١٢٧ — ١٢٩ .

وأن يقرأه الموقع في كل سنة على أرباب الوظائف والمستحقين للاحاطة به علماً وبشروطه (١٢٩) .

ومن هذا يتضح لنا أن إيصال كتب الأوقاف بأبنائها وتنفيذها لدى انتفاة من وقت لآخر كان بمثابة تحديد الإشهاد عليها وتنفيذها وتسجيلها حتى تحوز الحجية على الغير مع مرور الزمن ، وهو أمر شفى به كثير من الواقعين وحرصوا على إثباته في وثائقهم ، وخصصوا له جزءاً من ريع الأوقاف نفسها ، لما فيه من معنى الشر والإعلام للكافة بفرض المحافظة على أوقافهم وبماها حائزة للحجية على الغير بعيدة عن يد الشر والعدوان (١٣٠) .

٥٥

(١٢٩) وثيقة السلطان برساي أوقف ٨٨٠ ص ٢٠١ ، ٢١٣ — دار الكتب رقم ٢٣٩٠ تاريخ ص ٧ ، وثيقة الشرايعي محكمة ٥٦ ، السبكي : ميد النعم ص ٣١
والمرور أن قانون التوثيق والشهر العقاري يستلزم تجديد القيد *Renouvellement de l'inscription* كل عشر سنوات وبإسقاط الحق القيد على العقار (الزمن) ، طبقاً لنص المادة ٤٣ من القانون رقم ١١٤ لسنة ١٩٤٦ ونصها : « يسقط القيد إذا لم يجدد في خلال عشر سنوات من تاريخ إجرائه » ، وهذا النص الذي نردده الشارح في العصر الحديث إنما يرجع أصله التاريخي إلى زمن بعيد كما يتضح لنا من الحقائق الملائمة والوارد ذكرها في الوثائق المذكورة .

(١٣٠) وثيقة حسام الدين لاجين محكمة ١٧ ، ١٨ ، وثيقة البظامي محكمة ٢٢٤ ، وثيقة قايي أوقف ٨٨٦ ، وثيقة طقطبای أوقف ١٠٣٠ ، وكذلك نظر الوثائق في الحاشية السابقة .

رابعا - نص الشهادات

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم هـ^(١)

الحمد لله عليه توكلت^(٢)

٢+ — ثبت اشهاد مولانا المقام الشريف الامام الاعظم^(٣) والملك المعظم السلطان*
المالك الملك الاشرف سلطان الاسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين ميده الطغاة
[والمارقين]**

حامى حوزة الدين قاهر الحوارج والمتبردين قاصم الجبابرة والتكبرين قاطع دابر
المفسدين [مظهر]**

٦ — العدل في العالمين^(٤) منصف المظلومين من الظالمين ظل الله الوارف ورحمته
السابقة للبإدنى والعالم كف .

وناصر دينه الذي قطعت الآرا× بفضيله فلا يخالف اسكندر الزمان جامع كل
الايما [ن] مفرق

عبدة الاوثان مهلك اهل البنى والعلوان مملك اصحاب النخوت والاسرة والنيان
صاحب[ب]

٩ — السيف والقلم والراية والبند والعلم مالك رقاب الامم سيد ملوك العرب
والمبجم حامى .

+ الأرقام الستة في بداية السطور هي أرقام سطور الشهادات الاربعة في الوثيقة
الأسلمية المحفوظة ببارشيف وذلة الاوقاف برقم ٨٨٣

* ما بين الحاصرتين أكلة الناصر من الصورة رقم ٨٨٣ أوقف من ٢٣٨ لأن هناك بكتي
من الألفاظ أو الحروف متساكة أو باهنة الاول .

** ما بين الحاصرتين يياض بالأصل وأضافه الناصر من الصورة من ٢٣٨ — ٢٣٩

× كذا في الأصل وستحافظ على لغة التت والرسم الالهائى فكلمت كما وردت في الأصل
أنظر بحثنا هذا من ٢٩٩

القبليين حاوى المتقين ملك البرين والبحرين خادم الحرمين الشريفين ابي النصر
قائمه التوري

خلد الله تعالى ملكه وسلطانه ونصر جيوشه وجنوده واعوانه وجمعه له في كل وقت
ميرة [ونصرا] **

١٢ — وملكه بساط البسيطة برا وبحرا ولطف به في الدنيا وغفر له في الاخرى
على نفسه الشريفة المع [ظمة] .

النيقة حرسا الله تعالى وحماها وصان شرفها وحماها وكنفها ورداها وشكر في مصاح
[لبرية جهدها]

ومسماها بجميع ما نسب اليه في كتاب وقته الشريف المسطر باطنه ^(١٦) من الوقف
والشروط المشر [وحة] ^(١٧)

١٥ — فيه واجرا صدقة الشريفة مدا * الدهور والايام والشهور والاعوام على
ارباب الجوامك ^(١٨) والجرابات

والمعالم والمراتب وجهات البر البوابة والقربات الشهيرة والسوية كل ذلك على النص
المبين المشروح المبين

جعله الله تعالى عملا مقبلا وسبيلا الى غرف الجنان موصلا لدى سيدنا ومولانا ^(١٩)
العبد الفقير إلى الله تعالى ^(٢٠)

١٨ — الشيخ ^(١١) الامام ^(١٢) العالم ^(١٣) العامل ^(١٤) العلامة ^(١٥) الحبر ^(١٦)
البحر الفهامة المحقق ^(١٧) المدقق ^(١٨) الحجّة ^(١٩) المحدث ^(٢٠) الحافظ ^(٢١) الرحلة ^(٢٢)

الفتية ^(٢٣) المجتهد ^(٢٤) الامّة شيخ الاسلام ^(٢٥) مفتي الانام ^(٢٦) ملك العلماء الاعلام ^(٢٧)
حسنة الليالي والايام ^(٢٨) ص [متر]

مصر والشام ^(٢٩) محقق القضايا والاحكام ^(٣٠) ابي حنيفة الزمان فريد العصر والاوزان
^(٣١) قاضي القضاة [^(٣٢)

** ما بين الحاصرتين بياض بالأصل وضاه الناصر من الصورة م ٢٣٨ — ٢٣٩
× كذا في الأصل سنحافظ على لغة الق و الرمة الاملاقي لكتبت كما وردت في الأصل .
أظهر بمحشا هذا م ٢٩٩

٢١ - سرى الدين لسان المتكلمين^(٢٢) حجة المناظرين^(٢٣) رحلة الحفاظ والمحدثين^(٢٤)
كثرة النجاة والمعرفة^(٢٥) [سلطان] *

الفقهاء والاصوليين^(٢٦) اوحدهم لنجدتين^(٢٧) قانع المبتدعين^(٢٨) مضمح المجادلين^(٢٩)
بحسب سنة سيد المرسلين^(٣٠) [المين]

قاضي المسلمين خالصة امير المؤمنين^(٣١) ابي البركات عبد البر ابن " الشحنة الخفي^(٣٢)
الناظر في الاحكام

٢٤ - الشريعة^(٣٣) بالديار المصرية وسائر الممالك الشريفة الاسلامية وشيخ الشيخ^(٣٤)
بالمدرسة الشيعونية^(٣٥) وملا

مع ذلك من الوظائف الدينية والمتاصب الشريفة السنية هو ووالده وجده^(٣٦) كانا
ادام الله

تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين عمري الدنيا والاخرة وافاض نعمة عليه واجرى
الحجرات د [ايما]

٢٧ - على يديه ورحم اسلامه الكرام وافاض عليهم شايب المغفرة والاکرام بمحمد
واله ثبوتاً [تربحاً]^(٣٧)

بشهادة شهوده^(٣٨) باطنه على نفسه المبين فيه وهو مورخ بالفسرين من شهر صفر
الحير سنة تاريخه^(٣٩) وان [هد]

على نفسه الكريمة حرمها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر في مصالح البرية
معاها بذلك من

٣٠ - حضر مجلس حكمه الكريم^(٤٠) وقضايه وهو نافذ القضايا والاحكام ماض
التقض والابرا [م]

وذلك في اليوم السعيد المبارك

الثاني عشر من شهر ربيع الأول المشرف^(٤١)

* ما ج الحاصرين أضافه الناشر من الأصل سفر ٢٠٧ ، الصورة ص ٢٤٠
* كذا في الأصل .

+ هذا الانظ كتب بطريقة اصطلاحية تيمس من الصعب قراءته .

٢٣ — سنة إحدى عشرة وتسماية وثبت أيضا عنده ثبت الله مجده وانجح
قصده ورحم اياه وجده على الاوضاع الشرعية ^(٥٣) وقوانين المحررة الرعية شهادة
من اعلم له [تلو]

رسم شهادته اعلام التادية والقبول على الرسم المألوف لثبته ادنى فصل الملك والحيار [د]

٢٦ — المصطريهاش باطنه ^(٥٤) مضمون الفصل المذكور على مانع وشرح فيه ثبوت [ا]

صحيحا شرعيا في كل من ذلك وحكم ^(٥٥) ادام الله تعالى ايامه وانفذ قضه وابرأه [ه]

بموجب ^(٥٦) ذلك وبصحة الوقف ^(٥٧) الشرف المذكور فيعزلومه ^(٥٨) وانبراهم وتنفذه حكما

٢٩ — صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا مسيولا في ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية ^(٥٩)

وواجباته المعبرة الرعية

علما بالخلاف ^(٦٠) في ذلك واشهد على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصاتها

ورعاها وشكر في

مصالح البرية جهدها ومساها بذلك في التاريخ المكتوب بين اسطره ^(٦١) اعلاه

المتفتح بخطه الكريم ^(٦٢)

٤٢ — شرفه الله تعالى واعلاه وزاد في شرفه وفي علاه بجاه سيدنا محمد واله

حمدا لله ونعم الوكيل وصلى

الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم ^(٦٣)

٤٥ — اشهدنى على نفسه الكريمة حرسها الله تعالى وحماها وصاتها ورعاها وشكر

في مصالح البرية جهدها ومساها

سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر
البحر الفهامة "

المحقق المتقن الحجة المحدث الحافظ الرحلة الفقيه انجبد الأمة شيخ الاسلام مفتي

٤٨ — الانام ملك العلماء حنة البالى والايام صدر مصر والشام مختق القضايا

والاحكام اوحد المجتهدين الاعلام قاضى القضاة سرى الدين لسان المتكلمين حجة الناظرين

مضمع المجادلين قاضى البتدعين قاضى المسلمين خالصة امير المؤمنين النوه باسمه الكريم اعلاه

ادام الله تعالى *

* هذا السطر يكمله خذ من الة نغما .

٥١ — ايامه الزاهرة وجمع له بين خبري الدنيا والاخرة واقاض نعمه عليه واجرى
الحيرات على يديه بما نسب اليه في اسبغاله الكريم الماطر اعلاه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب (١٦٤)
موسى بن عبد الغفار المالكي (١٦٥)

٥٤ — وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه واعز احكامه واسبغ عليه جوده وانعامه
فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

عبد الكريم بن علي المجولي الشافعي (١٦٦)

شهد عندي بذلك

اعزه الله تعالى (١٦٧)

— ٥٧

وبذلك اشهدني سيدنا ومولانا قاضي القضاة شيخ الاسلام فشهدت عليه به في تاريخه وكتب
ابو الفضل محمد الاعرج (١٦٨)

٦٠ — وبذلك اشهدني سيدنا ومولانا قاضي القضاة شيخ الاسلام ادام الله تعالى ايامه
الزاهرة وجمع له بين خبري الدنيا والاخرة فشهدت عليه [به] في [تاريخه]
وكتب

صالح بن علي [.....] (١٦٩) الشافعي

٦٣ — وبذلك اشهدني سيدنا ومولانا قاضي القضاة شيخ مشايخ الاسلام امين الله
تعالى بوجوده الانام واحسن اليه

ووالى نعمه في الدارين عليه فشهدت عليه به في تاريخه اعلاه وكتب

محمد بن محمد الخطيب عفا الله عنهما بمكة

٦٦ — وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه واعز احكامه واحسن اليه واسبغ نعمه
عليه واجرى الحيرات على يديه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

يحيى بن محمد البردبني الشافعي

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خبري الدنيا والاخرة
واحسن اليه واسبغ نعمه عليه ورحم اسلافه الكرام فشهدت عليه به في تاريخه

وكتب

— ٦٩

محمد بن علي السعودي الحنفي

وبذلك اشهد [في ادم الله] الى * ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبح نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

٧٢ — سعد بن ابراهيم الطيبي

[شهد عندي بذلك] *

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلي على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم هـ

٧٥ — الحمد لله اللطيف الخبير

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة حربها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر في مصالح البرية جدها ومساها سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام

٧٨ — العالم العامل العلامة الحبر البحر القمامة المحقق المدقق الحجة الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتي الانام ملك العلماء حنونة الليالي والايام قاضي القضاة شهاب الدين (٧٠) لسان التكمين حجة المناظرين زحلة الطالين عمدة المحققين (٧١) ائمة المجتهدين قاضى المتدعين

٨١ — محي سنة سيد المرسلين قاضى المسلمين خالصة امير المؤمنين ابو حامد احمد ابن + الكيشيني الحنبلي (٧٢)

الناظر في الاحكام الشرعية بالديار المصرية والممالك الثرىفة الاسلامية ادم الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى * الدنيا والاخرة واقاض نعمه عليه واجرى الحبرات دائما *

٨٤ — دائما على يديه بمحمد واله من حضر مجلس حكمه الكريم وقضاه وهو [ناقد] القضايا والاحكام ماضى التقض والابرار وذلك في اليوم المبارك

يوم الاربعاء الثالث عشر من شهر ربيع الاول

* ما بين الحاصرتين حروف وألماظ غير جامعة و الأصل لأنها منطاة بقطعة من الورق — بقصد صيانة الوثيقة واحتفاظها عليها وتدعيمها وهي طريقة غير نية بلا شك — وكلها الناصر من الصورة ص ٢٤٥ + كذا في الأصل .

* هذا النقط متصل بالسابق عليه وقد كتبت بنوع الطريفة التي كتبت بها في السطر رقم ٢٦

مكرر هذا النقط في بداية السطر التالي نتيجة لسوء الكتاب .

٨٧ - سنة احدى عشرة وتسعين انه ثبت عنده ثبت الله تعالى بحجته
 واتبع فنده على الاوضاع الشرعية واثنان اخررة الشرعية بشهادة من اعلم (٧٤)
 لدنو رسم شهادته اعلام النادية واقتبول على الرسم المهود في مثله اذنى الاسبا [ل]
 ٩٠ - الحكمى المطر اعلاه اشباد الحاكم النوء باسمه الكريم فيه سيدنا ومولانا
 [عبد] [الفقير]

الى الله تعالى الشيخ الامام العالم الدامل العلامة الحبر البحر القهامة المحقق المدقق
 الحجة المحدث الحافظ ارحله الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتى الانام ملك
 ٩٢ - العلما الاعلام حسنة الليالى والايام صدر مصر والشام محقق اقتضاي الاحكام
 قاضى القضاة سرى الدين لسان المتكلمين حجة المناظرين رحلة الطالبين قانع المبتدئين [ل]
 منعم المجادلين اوحده المجتهدين قاضى المسلمين خالصة امير المؤمنين ابى البركات عبد البر
 ابن + الشحنة

٩٦ - الحنفى الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار المصرية وساير الممالك الشريفة الاسلامية
 وما مع ذلك من الوظائف الدينية وشيخ الشيوخ بالمدرسة الشيخونية ادام [الله] تعالى [ل]
 ايامه الزاهرة وجمع له بين غيرى الدنيا والاخرة بما نسب اليه فى اسجالة المذكور
 من الثبوت

٩٩ - والحكم المشرحين فيه على ما نص وشرح فيه وهو مورخ بالثانى عشر من شهر
 ربيع الاول [ل]
 المشرف سنة تاريخه ثبوتاً صحيحاً شرعياً وقد (٧٤)

سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام شهاب الدين الحاكم الحبل النوء باسمه الكريم
 ١٠٢ - اعلاه ادام الله تعالى ايامه واقد قضاة وابعاده واسمى عليه فضل موجوده وان [ل] امه
 حكم سيدنا ومولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام سرى الدين الحاكم الحنفى
 النوء باسمه الشريف فيه بلفه الله تعالى من كل غير فرق ما يؤمله وبرنجيه المت [سب]
 ١٠٥ - اليه فى اسجالة المذكور فيه على ما نص وشرح فيه تنفيذاً صحيحاً [ل]
 شرعياً تاماً معتبراً مرضياً مسيلاً فى ذلك مستوفياً شرايطه الشرعية واجباته المعتبرة المرجية

+ كذا فى الأصل .

واشهد على نفسه الكريمة حرماً الله تعالى * وحماً وصاحباً ورعاها بذلك
في التاريخ المكتوب

١٠٨ — بين ابطره اعلاه المتفتح بخطه الكريم شرفه الله تعالى . اعلاه وزاد في شرفه
وعلاه بمحمد [واله]

وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه وسلم وحسبنا الله ونعم الوكيل
اشهدنى على نفسه الكريمة حرماً الله تعالى وحماً وصاحباً ورعاها وشكر في مصالح
البرية جهداً

١١١ — ومسماها سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل
العلامة الجبر الجبر الفهامة

المحقق الحجة المجتهد العمدة (٧٥) النقيه الامة شيخ الاسلام ملك العلماء الاعلام مفتي
الانام قاضي

القضاة شهاب الدين + لسان المتكلمين حجة المناظرين رحلة الطالبين قانع + المبتدعين
محي سنة سيد المرسلين قاضي المسلمين خال[صة]

١١٤ — امير المؤمنين + ابو حامد احمد الحاكم الخليل النوه باسمه الكريم اعلاه ادام
الله تعالى ايامه وزاد اعلاه بما نسب اليه
اعلاه فشهدت عليه به وكتب

موسى بن عبد الغفار المالكي

١١٧ — شهد عني بذلك اعزه الله تعالى وشفاء (٧٦)

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والآخرة
واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب
سعد بن ابراهيم الطيبي

* هذا اللفظ كتب بطريقة اصطلاحية ، وتضمن المكتوب فيه حرفى الألف واللام تماماً .
+ هذه المكتوبات مكتوبة بطريقة مختصرة جداً وبها تحوير وإملاء لبعض الحروف .

١٢٠ — وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

احمد بن محمد الاسحاقى

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبق نعمه في الدارين عليه فشهدت عليه به وكتب

١٢٣ — [عبد الرحمن بن عبد الفتى الحريرى]

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبق نعمه في الدارين عليه فشهدت عليه به وكتب

محمد بن علي الخزومي

١٢٦ — شهد عندي بذلك

اعزه الله تعالى

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

١٢٩ — محمد بن عبد القادر الموحشي الشافعي

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

احمد بن عبد الرحمن الطنبلي

١٣٢ — وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

اسماعيل بن ابراهيم الانباري

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه واعز احكامه واحسن اليه واسبق نعمه عليه واجرى الخيرات على يديه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

١٣٥ — محمد بن علي السعدي الحنفي

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له من خيري الدنيا والاخرة
فشهدت عليه به وكتب

ابو الفضل محمد الاعرج

١٣٨ — شهد عندي بذلك

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه وعز احكامه واتخذ قفنه وابرامه واسمغ عليه
جوده وانعامه فشهدت عليه به وكتب

عبد الكريم بن علي المجولي الشافعي

١٤١ — شهد عندي بذلك اعزه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم
احمد الله شاكرا لانعمه ن

١٤٤ — هذا ما شهد به على نفسه الكريمة* حرسها الله تعالى وحماها وصانها ورعاها
وشكر في مصالح البرية جديها ومساها

سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الجبر البحر
النفيسة المحقق

المدقق الحجة المحدث الرحلة الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتي الانام ملك
العلماء الاعلام

١٤٧ — حنة البالي والايام صدر معمر والشام محرر القضاء والاحكام قاضي القضاة
يرهان الدين+

لسان التكليم حجة الناظرين اوجد المجتهدين قانع المبتدعين محي سنة سيد المرسلين
قاضي المسلمين خالصة امير-

* نسي الكاتب كتابة اللفظان « نفسه الكريمة » في صلب السطور الوثيقة الاصلية
فوزنهما فوق لفظ « حرسها » .
+ هذا السطر يأكله خال من اللفظ تماماً .

المومنين ابو الرقيق ابراهيم الدميرى المالكي (٧٨) الناظر فى الاحكام الشرعية بالديار
المصرية والمالك الشريفة

١٥٠ — الاسلامية ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة
وافاض نعمه عليه واجرى الخيرات

دائما على يديه بمحمد واله من حضر مجلس حكمه الكريم وقضايه وهو
نافذ القضايا والاحكام ماضى النقص والابرار وذلك فى اليوم المبارك

١٥٢ — يوم الخميس المبارك الرابع عشر من ربيع الاول

سنة احدى عشرة وتسماية انه ثبت عند الله تعالى مجده ونجح قصده
وصح لديه احسن الله تعالى اليه على الاوضاع الشرعية والقوانين المحررة المرفعة
بشهادة من اعلم

١٥٦ — له تلورسم شهادته اعلام التادية والقبول على الرسم المعهود فى مثله * أدنى
اسجال التنفيذ المسطر

اعلاء اشهاد الحاكم المشار اليه بل النوه باسمه الكريم فيه بلغه الله تعالى من خيرى
الدنيا والاخرة ما يوصله ويرتجيه هو
سيدنا ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبر البحر
الفهامة المحقق المدقق

١٥٩ — الحجة المحدث الحافظ الرحلة الفقيه المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتى الانام
ملك العلماء الاعلام حسنة الالبالى

والايام صدر مصر والثام محقق القضايا والاحكام قاضى القضاة شهاب الدين فاضل
المبتدئين اوضح المجتهدين

فاضل المسلمين خالصة امير المومنين ابى حامد احمد الشيبينى الحنبلى الناظر فى الاحكام
الشرعية بالديار المصرية

* هذا الانظ متمل بالذى قبله وقد كتبنا بطريقة غريبة محودة .

١٦٢ — والمالك الشريعة الاسلامية ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة على نفسه الكريمة حربها الله

تعالى وحماها وصانها ورعاها وشكر في مصالح البرية جهدها وسعها بجميع مانسب اليه في اسجاله المذكور من الثبوت والتنفيد

المشروحين فيه على ما نص وشرح فيه وهو مورخ يوم الاربعاء الثالث عشر من شهر ربيع الاول شهر تاريخ [٤]

١٦٥ — ثبوتهما جميعا شرعا وتقد سيدنا ومولانا قاضي القضاة شيخ الاسلام [رهان الدين] الحاكم المالكى المنوه باسمه الكريم اعلاه ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة تنفيذ [سيدنا]

ومولانا قاضي القضاة شيخ الاسلام شهاب الدين الحاكى الحبل المنوه باسمه الكريم فيه بلغه الله تعالى من خيري الدنيا والاخرة

١٦٨ — ما يرمله ويرتجيه المنسوب اليه في اسجاله المذكور على ما نص وشرح فيه تنفيذاً صحيحاً شرعياً

بأما معتبرا مرضيا مسبوفاً في ذلك مستوفيا شرائطه الشرعية وواجباته المعتمدة المرعية واشهد على نفسه الكريمة حربها الله تعالى [وحماها]

بذلك في التاريخ المكتوب بين ابصره اعلاه المفتاح بخطه الكريم شرفه الله تعالى واعلاه وزاد في علاه [بمحمد واله]

١٧١ — وصلوته على اشرف اخلق سيدنا محمد

واله وصحبه وسلامه وحسينا الله ونعم الوكيل

اشهدني على نفسه الكريمة سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة الحبيب البحر

١٧٤ — الفهامة المحقق المدقق الحجة المحدث الرحلة الفقيه المجتهد الامام شيخ الاسلام مفتي الانام ملك الملأ

* ما بين الحاصرتين لا وجود له في الأصل وأكمله للناس من المودة ص ٢٠٥ — ٢٠٦

+ هذا انظر كتب بطريقة لا نلاحظ فيها أثراً لحرق السين والياء .

الاعلام حسنة الليالى والايام صدر مصر والشام قاضى القضاة برهان الدين لسان
المتكلم [مين حجة] *

الناظرين رحلة الطالبين اوجد المجتهدين قانع المبتدعين محي سنة سيد المرسلين خلاصة
امير [المؤمنين] *

١٧٧ — المنزه باسمه الكريم اعلاه ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى
الدنيا والاخرة واقاض نعمه عليه واجرى *

المخبرات على يديه بما نسب اليه في اسيحاله الكريم المسطر اعلاه فتشبت عليه به
في تاريخه وكتب

موسى بن عبد الغفار المالكي

١٨٠ — شهد عتدى بذلك ايده الله [تعالى]

وبذلك اشهدنى سيدى والذى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا
والاخرة واحسن اليه واسبغ نعمه في الدارين عليه فتشبت عليه به في تاريخه وكتب

يحيى بن ابراهيم الديزى المالكي

١٨٣ — وبذلك اشهدنى ايد الله تعالى امركامه وادام ايامه وغتم بالصلوات احواله
واسبغ نعمه عليه واحسن في الدارين اليه فتشبت عليه به في تاريخه وكتب

محمد بن حسن القافى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة واحسن
اليه واسبغ نعمه عليه فتشبت عليه به في تاريخه وكتب

١٨٦ — عبد الكريم بن على المجولى الشافعى

شهد عتدى [اعزه الله]

* ما بين الحاصرتين اكله الناشر من المصودة ص ٢٥٧
* ما بين الحاصرتين يياض في الاصل وأضافه الناشر من المصودة ص ٢٥٧

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة
واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

ابو الفضل محمد الأخرج

— ١٨٩ —

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة واحسن
اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

سعد بن ابراهيم الطيبي

١٩٢ — وبذلك اشهدني اتقذ الله تعالى احكامه وادم ايامه الزاهرة وجمع له بين
خيري الدنيا والاخرة واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

احمد بن حمد الاسحاق

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة
واحسن اليه واسبق نعمه عليه فشهدت عليه به وكتب

محمد بن عبد القادر الموحشي الثاني

— ١٩٥ —

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه وختم بالصلوات اعاليه واحسن اليه واسبق نعمته
عليه فشهدت عليه به وكتب

ابراهيم بن عبد القادر الدميري^(١٨٠)

١٩٨ — بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صلى على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله احيكم الخاكين

هذا ما اشهد به على نفسه الكريمة حرسا الله تعالى وحماها وصانها ورعاها

٢٠١ — وشكر في مصالح البرية جهدها ومسيبها سيدنا ومولانا العبد الفقير إلى الله

تعالى الشيخ

الامام والثالث المهام^(١٨١) العالم العامل الملامة الخبير البحر الفهامة الخفق المدقق الحاجة

المجهد الاوحد^(١٨٢) العدة الحافظ المحدث الرحلة الخاشع^(١٨٣) التائب^(١٨٤) القدوة^(١٨٥)

الوحيد الفريد الامة

٢٠٤ — شيخ مشايخ الاسلام ملك العلماء الاعلام حنطة الليالي والايام صدر مصر ومكة
والعراق والشام مفتي الفرق والانام محرر القضايا والاحكام ماضي القضا
والابرار^(٨٦) قاضي القضاة شهاب الدين لسان المتكلمين سيف المناظرين

٢٠٧ — قبة المجتهدين^(٨٧) سلطان الفقهاء والاصولين امام القضاة المفسرين^(٨٨) كنز
النحاة والمعرين

عدة الحساب والغرضين ملاذ الغربا والمتقطعين^(٨٩) رحلة الطالبين ملجأ الامم
كهف الملة^(٩٠) محي السيرة
غياث الملوفين^(٩١) قانع البتدعين عظم رجال الوافدين^(٩٢) رجا القاصدين^(٩٣)
رئيس الملكين^(٩٤)

٢١٠ — صاحب [ب] الولاد [ين]^(٩٥) [يو] به زمانه فريد عصره واوانه خطيب
الخطباء^(٩٦) امام الفصحا
والبلغا والادبا^(٩٧) قاضي المسلمين خالصة مولانا امير المؤمنين ابو العباس احمد ابن
الرفوف الشافعي^(٩٨)

الناظر في الاحكام الشرعية بالديار المصروفة الملكية الشريعة الشامية وسائر الممالك
الاسلامية

٢١٣ — وخدام الحجرة الشريعة النبوية^(٩٩) وما مع ذلك من الوظائف الدينية
والنائب السنية ادام الله تعالى

ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة وايد احكامه واقد قضاها وار
واسبح عليه جوده وانعامه ووالى عليه نعمه تبرى ولطف به في الدنيا وغفر له في الاخرة
٢٢٦ — من حضر مجلس حكمه وقضاياه وهو ناقد القضايا والاحكام ماضي القضا
والابرار وذلك في اليوم العيد المبارك

السابع عشر من شهر ربيع الأول المبارك +

٢١٩ — سنة احدى عشرة وتسع مائة * إنه ثبت عنده ثبت الله تعالى مجده

* كذا في الأصل .

+ هذا لسطر بأكمله خال من النقط تماماً .

وانجح قصده وضح لديه ادام الله تعالى نعمه عليه على الاوضاع الشرعية والقوانين
 المعبرة المرعية بشهادة من أعلم له نلو رسم شهادته أعلام التادية والقبول على الرسم المألوف
 ٢٢٢ — في مثله ادنى اسجل التنفيذ المسطر اعلاه اشهاد الحاكم المنوه باسمه الكريم
 فيه سي [دنا] +

ومولانا العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم المامل العلامة الحبر البحر النهاية
 المحقق المدقق الحجة المحدث الرحلة المجتهد الامة شيخ الاسلام مفتي الانام ملك العلماء
 ٢٢٥ — الاعلام حسنة الليالي والايام قاضي القضاة برهان الدين لسان التبكليين حجة
 المناظرين أوجد المجتهدين قاض المتدينين محي سنة سيد المرسلين قاضي المسلمين خالصة
 امير المؤمنين ابي المراق ابراهيم الدميروى المالكي الناظر في الاحكام الشرعية بالديار المعربة
 والمملكة الشرعية

٢٢٨ — الاسلامية ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة
 وانفاس نعمه

عليه واجرى الخيرات على يديه على نفسه الكريمة حرما الله تعالى وحماها وصانها
 ورعاها وشكر

في مصالح البرية جهدها ومساها بما نسب اليه في اسجاله المذكور من الثبوت والتنفيذ
 ٢٣١ — المشروحين فيه على ما نص وشرح فيه وهو مورخ يوم الخميس المبارك
 الرابع عشر من شهر تاريخ [هـ]

ثبوتا صحيحا شرعيا معتبرا مرعيا وقد سيدنا ومولانا
 قاضي القضاة شهاب الدين شيخ مشايخ الاسلام والمسلمين الحاكم النافى المنوه
 باسمه الكريم

٢٣٤ — اعلا [هـ] * ادام الله تعالى ايامه وزاد علا [هـ] وحرسه وتولاه وعاقاه
 وشاه (١٠٠٠) تنفيذ

+ ما بين الحاصرين أكلة الناصر من المودة ص ٢٦٢
 * ما بين الحاصرين في هذا السطر أضافه الناشر .

سيدنا ومولانا قاضي القضاة شيخ الاسلام الحاكم المالكي للنوّه باسمه الكريم اعلاه
ادام الله تعالى شرفه وعلاه

للمنسوب اليه في اسبغاله السطر اعلاه على ما نص وشرح فيه تفنيذاً صحيحاً شرعياً [يا]
٢٣٧ — تاماً معتبراً مرضياً مسبوفاً في ذلك مستوفياً شرايطه الشرعية وواجباته
المحررة المرء [ب]

واشهد على نفسه الكريمة حرماً الله تعالى وحماها وصاتها ودعائها بذلك في التاريخ
[المكتوب بين اسطره اعلاه] * الفصح
محطه الكريم بين سطوره اعلاه شرفه الله تعالى واعلاه وزاد في شرفه وعلاه بمحمد وآله
٢٤٠ — وحسبنا الله ونعم الوكيل بشيخ

على نفسه الكريمة حرماً الله تعالى وحماها وصاتها ودعائها وشكر في مقام
البريه جهدها

وسماها سيدنا ومولانا العبد القليل الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العامل العلامة
الجليل البحر

٢٤٣ — الفهامة المحقق المدقق الحجة المجتهد الاوحد العبد الخائف المحدث الرحلة
الثقة [المحرر الامة] **

الخاصة التامك القدرة شيخ مشايخ الانعام تملك العلماء الاعلام حسنة الليالي والايام
صبر مصر ومكة والعراق والشام ماضى التقص والابرار محرم القضايا والاحكام
مق الفرق

٢٤٦ — والانام قاضي القضاة شهاب الدين لسان التكلمين حجة الناظرين بية
المجتهدين قال [مع] ***

* ما بين الحاصرتين لم يرد في كل من الاصل والمصدرة وأما الناشر طبقاً لما ورد
في الاصدارات الثلاثة السابقة سطر ١٠٧٤٤١ — ١٧٠٤١٠٨
** ما بين الحاصرتين ياض ولا أثر في الاصل وأما الناشر من المصدرة ص ١٢٦٤
*** ما بين الحاصرتين أضافه الناشر

المبتدعين بحى سنة سيد المرسلين سيويه زمانه. فريد عصره. وارائه خطب الخطبا
امام النصحا

والبغا والادبا قاضى المسلمين خالصة. امير المؤمنين الحاكم الشافى النور باسمه الكريم
اعلاه ادام الله تعالى رفقه

٢٤٩ — وشرفه وعلاه وحرسه ونولاه وعافاه وشافاه بما نسب اليه في اسجالة الكريم

المسطر اعلاه على ماض وشرح اعلاه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

عبد الكريم بن علي المجزلي الشافى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة

واقاض نعمه عليه واجرى الخبرات على يديه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٢٥٢ — موسى بن عبد الغفار المالكي

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة

واقاض نعمه عليه واجرى الخبرات على يديه فشهدت به في تاريخه وكتب

سعد بن ابراهيم الطيبي

٢٥٥ — [وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة]

الدنيا والاخرة فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

احمد بن محمد الحمصي الانصارى [الشافى]

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة

فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٢٥٨ — محمد عرفات الشافى

وبذلك اشهدنى ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيرى الدنيا والاخرة

فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

محمد [جمال الدين بن سليم الحنفى]

+ ما بين الحاصرتين مقطع بورق ميمك في الأصل وأضاهه الناشر من الصورة ص ٢٦٦

٢٦١ — وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا
والاخرة فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

عبد الرحمن بن عمر الاجلسي

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة
فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٢٦٤ — ابو الفضل محمد الاعرج

وبذلك اشهدني ادام الله تعالى ايامه الزاهرة وجمع له بين خيري الدنيا والاخرة فشهدت
عليه به في تاريخه وكتب

محمد بن عثمان الديلملي

خامسا — التحقيقات والتعليقات العلية

١ — هذا هو نص البسلة والصلية في بداية كل من الشهادات الأربعة ، وهي مكتوبة بقلم التوقيع — اتلفنتنى : صبح الأعشى ٣ ص ١٣٦ — ١٣٧ ، الصورة الأولى والثانية . وقد اعنى الكاتب بها فوردت في سطر مستقل منقوطة ومشكولة . والملاحظ أن كثيرا من كتاب الوثائق العربية في العصر الوسيط قد درج على إنتاجية الشهادات بهذه الصيغة ذاتها أو بالبسلة وحدها .

وكان النبی محمد (ص) يفتح بها الكتب ، وعن مفيان النورى وغيره أنه كان يكره للرجل أن يكتب شيئا حتى يكتب « بسم الله الرحمن الرحيم » ، وقال بعضهم لا يصلح كتاب إلا أن يكون أوله البسلة . وكثير من الأحاديث والآثار كلها ظاهرة في استحباب الاجتهاد بالبسلة فيما يكتب من أصناف المكاتبات وغيرها ، وعلى ذلك مصطلح كتاب الانتشاء في القديم والحديث على حد قول اتلفنتنى ، وعن الرسول أنه قال : « كل أمر فنى بال لا يبدأ فيه بسم الله الرحمن الرحيم فهو أطلع » يعنى ناقص البركة .

وكان ينبغي للكاتب أن يبالغ في تحسينها في الكتابة ما استطاع تعظيما لله تعالى ، وقد روى أن النبی (ص) قال « من كتب بسم الله الرحمن الرحيم تحسنه أحسن الله إليه » . ومما يمكن من أمره أنه كان يستحب أن تحسن البسلة ، وقد روى في كتابها القواعد التى كان يجب الأخذ بها من حيث تحسين شكل الحروف — أنظر شكل ١٥ ، ١٧

وكانت البسلة تقدم تبركا — بالاجتهاد بها وتبينا يذكروها ، وكان ينبغي للكاتب أن يفرد البسلة في سطر وحدها تبيجا لاسم الله تعالى واعظاما وتوقيرا له . وروى عن النبی أنه نهى أن يكتب في سطر البسلة غيرها . ويظهر أن كتاب الانتشاء قد جرت مكانتهم وسائر ما يصدر عنهم على هذه الطريقة . أما النسخ وكتاب الوثائق الخاصة بالتصرفات القانونية المختلفة فأحيانا يديرون على هذا النمط ، وربما كتبوا بعد البسلة الحمدلة في نفس السطر ، أو الصلاة على رسول الله (ص) ونحو ذلك كما هو الحال في هذه الشهادات .

ولا نزاع في أن الصلاة على النبی (ص) مطلوبة في الجملة ، والأحاديث التى تحت على ذلك أكثر من أن نحصر ، فناسب أن تكون في أوائل الكتب تبينا وتبركا ، وكان

من عادة الكتاب أن يجمع بين الصلاة والتسليم على سيدنا رسول الله ولا يقتصر على أحدهما
هذا والصلاة على آل الرسول وصحبه جائزة بالإجماع على غير الأتنياء بطريق التسمية .
القيشيني : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢١٩ - ٢٢٨ ، بحثنا هذا ص ٣٠٥

دائرة المعارف الإسلامية مادة « التسمية »

ويلاحظ القارئ وجود حرف « هـ » في نهاية البسلة في كل من الأشهاد الأول
والثاني سطر ١ ، ٧٤ شكل ١٥ - وكذلك حرف « ن » في نهاية الجملة في الأشهاد
الثالث سطر ١٤٣ ، شكل ١٦ ، وفي نهاية البسلة في الأشهاد الرابع سطر ١٩٨ شكل ١٧ ،
وبعيد توقيع الشاهد عبد الكريم بن علي المحولي الشافعي سطر ٥٥ شكل ٢٤ . وهذه تلك
من علامات الوقف stop signs

Grohmann : *From the world of Arabic papyri* pp. 91-98
وهذه العلامات اصطلاح كتّاب الوثائق عليها كنجوع من الاختزال في الكتابة
بحق « انتهى » .

عليه الطيف إمام دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر الغوري (تحت الطبع)
هذا هو نص الجملة في الأشهاد الأول ، والجملة بجزء أصل في النص
الأشهاد أو الاسجلات برد كثيراً وبصغ متعدي ، وهي من تواج البسلة في كل
وثائق عصر المماليك ، وقد وردت « الحمد لله » في القرآن الكريم في عدة آيات في فاتحة
الكتاب وسورة الأنعام والكهف وسبا وفاطر والقل . ويقول ابن الأثير في كتابه
المثل السائر ص ٤٩ : أما الحديث فكانت مقصورة على الكعب السلطانية دون غيرها ،
ونصح ابن الأثير بأن تجعل في أوائل الكعب مناسبة لمعانيها ، حسن الباشا : الألقاب
الإسلامية ص ٣٣ .

سأقول لكن هذه الوثيقة وغيرها من وثائق سلاطين المماليك وأمرائهم وكبار رجالهم
قولهم من أرباب السيف والقلم - تضيف لنا جديداً ، وهو أن الحديث كانت ترد
في وثائق التصرفات المختلفة ، وبالتالي في افتتاحية الأشهاد أو الاسجلات المحكية
والتفذية في ظهور الوثائق ولم تقتصر على الكعب السلطانية وحدها .

وكان قضاء القضاء أو نواحيهم يقرمون بكتابة الجملة في علامات الثبوت في المكاتب
الشريعية ، بل إن كان الحد مطلوباً في أوائل الأمور الثمين والتبرك وردت الجملة

في افتتاحيات الكتب . وقبل كذلك « كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بحمد الله فهو أجزم »
وقد اصطاح الكتاب على الاجتهاد بالمحملة في كثير مما يكتبونه .

وقد أتوا بالمحملة بعد البسلة ناسيا بكتابت الله تعالى إذ كان الاجتهاد بالحمد إنما يكون
في أمر له بال . وقد يستعمل الحمد بصيغة الفعل « احمد الله » كما ورد في الاشهاد الثالث
سطر ١٤٣ شكل ١٦ . وهناك بخلاف في أى الصيغتين أبلغ - صيغة الحمد لله أو صيغة
أحمد الله ، ولكن الصيغة الأولى أبلغ لأن فيها معنى الاستقرار والثبوت والاستمرار .
القاقلشندي : صبح الاعشى - ٦ ص ٢٢٤ - ٢٢٦ .

ونضع لنا من صيغ المحملة في إشارات الوقف في هذه الوثيقة أنها مختلفة - بحثنا هذا
ص ٣٠٥ . وكذلك وصلت بنا الدراسة الباليوجرافية لعدد من صيغ المحملة المتشابهة
في عدد كبير من وثائق عصر المماليك والتي ترجع إلى فترة واحدة إلى أن القاضي الذي يتم
الاشهاد على يديه كان يقوم بكتابة صيغة معينة من المحملة باعتبارها علامته في سطر مستقل
عادة ويخط كبير ، واضح بقلم جليل ، إذ يبلغ طول الألف ٤ سم في الحمد سطر ١٩٨ ، أنظر
بحثنا « التحديدات في الوثائق المملوكية » (تحت الطبع)

ويظهر أنه كان لكل قاضٍ صيغةً معينة من المحملة ينتسج بها الاشهاد في الوثائق
التي تعرض عليه لوثيقها . وقد أورد لنا القاقلشندي في موسوعته الكبيرة هذه الحقيقة أيضا
عند كلامه عن التقاليد الحكيمة واسجلات العدالة فقال : « والعادة أن يعلم فيه الحاكم
علامة تلو البسلة ، ويكتب التاريخ في الوسط ، والمحملة في الآخر ، كل ذلك بخطه ،
وشهد عليه فيه من شهد عليه من كتاب الحكم وغيرهم كما في سائر الاسجلات الحكيمة »
القاقلشندي : صبح الاعشى - ١٤ ص ٣٤٢ - ٣٤٩ .

ويظهر أنه كان لكل قاضٍ علامة خاصة مميزة ، ينفرد بها دون سواه من القضاة
في عصره كما يضع لنا من تحديدات القضاة الأربعة وغيرهم ، والمحملة بصيغها المختلفة تعبر عن
شخصية الفاعل الوثيقي وكانت تنفي عن التوقيع ، فهي بمثابة ختم القاضي في وثائق العصر
العثماني بعد ذلك . أنظر كذلك - الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية - ١ ص ٥٢ حاشية ٢ .

دائرة المعارف الاسلامية مادة « المحملة »

٣ - هذه هي إحدى عبارات التسجيل الواردة في هذه الوثيقة والخاصة بتسجيل
الفعل القانوني المدون في وجه الوثيقة والاشهادات الأربعة في ظهرها ، وهذه العبارة وأمثالها

من عبارات التسجيل أو الالفاظ الدالة على وجوبه ترد أحيانا على الهامش الايمن في بداية
وجه بعض الوثائق وخاصة الأصول منها ، ولكنها ترد كثيراً في بداية الشهادات في ظهر
معظم الوثائق التي يحدث الاشهاد عليها .

وكان قاضي القضاة أو نائبه يقوم بكتابتها بخطه على الأرجح في بداية وجه الوثيقة بعد
الحكم بصفة التصرف والوارد فيها وكذلك يفعل بقية القضاة في بداية الاشهاد السابق على
اشهاد كل منهم في ظهر الوثيقة بعد أن يثبت من جهة التصرف القانوني والحكم به أو تنفيذيه ،
أعني أنه كان يصدر أمره لكتاب الحكم بتسجيله ، فقد ورد هذا اللفظ دائماً بلام الأمر
« يسجل » .

وقد اختلفت صيغ العبارات الخاصة بالتسجيل والفاظه بين الاجاز والاطاب ، قد
رد اللفظ بجمده أو مع غيره من الالفاظ الدالة على الجوت والتنفيذ ، وكثيرا ما يرد اللفظ
مبوقاً بالجملة . أنظر بحثنا هذا ص ٢٠٦

٤ — هذه هي بعض الاقالب الرسمية والفقرية للسلطان الملك الاشرف قاضيه
النوري ، ويصح للقارى أنها القاب طوال فيها تضمين وتكثير يناسب المقام السلطاني ، ويحل
هذه الثعوت سبعة سطور بأكملها (سطر ٢ — ١٠) . وهذه الاقالب يقصد بها التعريف
بالفاعل القانوني أو المتصرف الواقف ، وقول الزميل الدكتور حسن الباشا في كتابة
الاقالب الإسلامية ص ٣١ « وكان من عادة الكتاب أن يكتبوا الثعوت التي في باطن
الكتاب في ظاهره غالباً إذا كان الكتاب عن السلطان » . ونضيف إلى هذا أيضاً أن الثعوت
والاقالب الخاصة بكثير من الشخصيات العسكرية والمدنية الكبرى والصغرى على السواء
في عصر المماليك كانت ترد في ظاهر الوثيقة كما ترد في باطنها كما اتضح لنا من دراسة وثائقهم
الكثيرة في محفوظات وزارة الاوقاف وبحكمة الاحوال الشخصية بالقاهرة ودار الكتب
المصرية .

ولما كانت أغلب هذه الاقالب قد وردت في وجه الوثيقة فعلاً — مع التقديم أو التأخير
أحيانا — رفقا بصحتها من قبل فلا نجد داعياً إلى إعادة شرحها هنا منعاً للتكرار .

• وثيقة النوري أوقاف ٨٨٣ قراة وشر وتحقى الدكتور عبد اللطيف ابراهيم .

والباحث في الوثائق العربية عن الانقلاب السلطانية في عصر المماليك يضح له أن هذه الانقلابات اختلفت من عهد لآخر وخاصة في بداية ذلك العصر ونهايته بسبب الظروف السياسية والحربية التي مرت بها الدولة المملوكية البحرية والبرجية .

وياجزا لو قام أحد الزملاء بدراسة الانقلاب الرسمية والتخفية للسلطين المماليك والعثمانيين من واقع الوثائق نفسها لانه سيقدم لنا بلا شك عملا علميا جديداً وجديراً بالتقدير والتناء .

٥ - مظهر العدل في العالمين - هذا القالب لم يرد ضمن الانقلاب التي قننا بشرحها في وجه الوثيقة وكثيراً ما تضاف إلى لفظ « مظهر » بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة ، ولكن هذا القالب بالذات لم يرد في حسن الباشا : الانقلاب الإسلامية ص ٤٧٤ - ٤٧٥ .

وهذا القالب يشير إلى احترام المماليك للعدل أو رغبتهم في ذلك ، وإلى أن السلطان النورى نفسه كان عادلاً ، فقد ورد في وجه الوثيقة نص له يؤدى هذا المعنى وهو « حاكم عادل » سطر ٦٨ و « عدل الله في الأرض » سطر ٩٤ . ومن الانقلاب السلطانية التي تضاف مع هذا القالب في المعنى أيضاً « محي العدل في العالمين » وثيقة السلطان ابنال دار الكتب ٦٢ تاريخ ، وثيقة نايبى أوقاف ٨٨٦ ، حسن الباشا : الانقلاب الإسلامية ص ٤٦٤ .

٦ - يقصد بذلك وجه وثيقة وقف السلطان النورى المخزومة بارشيف وزارة الأوقاف تحت رقم ٨٨٢ ، ويبلغ عند سطورها ١٧٨٨ سطراً ، وقد سبق أن قمت بإرسالها ونشرها وتحققها ضمن أبحاثي للدرجة الدكتوراه في سنة ١٩٥٦

٧ - يقصد بذلك الشروط التي نص عليها السلطان النورى في كتاب وقته « ... وشروط مولانا الواقف قبل - منه عمله وساحه وغفر له في وقته هذا شروطا حث عليها فوجب العمل بها قطعا ونئين المصير - إليها ومنها انه جعل النظر على وقته هذا ويشترط من الشروط المخالفة لما اشترطه فيه ما يرى اشتراطه كلما بنا له فعل شئ من ذلك فعله » وجه الوثيقة سطر ١٦٧٥ - ١٧٥٦

والشروط الواردة في وجه الوثيقة هي الشروط المعروفة باسم الشروط العشرة في مادة الوقف في كتب الفقه الإسلامى وغيرها من الشروط التي شرطها النورى .

انظر بحثنا وثيقة الامير اخو كير قوتجا الحسنى (مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة
١٨ ج ٢) ص ٢٥٠ تحقيق رقم ٩٢ . ونضيف إلى ما ورد فيه من حقائق ومصادر
أن شرط الواقف كص الشارح يجب مراعاته ولا تصح مخالفته بل إن الص فوق
الآراء القوية .

كامل مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٤٦١ ، احمد ابراهيم : احكام الوقف
ص ٦٨ - ٦٩ ، سرحان : الوقف في نظامه الجديد ص ٨١ - ٨٢ ، الايبانى : مباحث
الوقف ص ٣٢ - ٤٥ ، ابو زهرة : مشكلة الاوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة
الحامسة عدد ٦) ص ٥٨٨ ، (السنة الحامسة عدد ٧) ص ٧٤٤ - ٧٥٢ وما بعدها .

٨ - الجوامك أو الجاميكت جمع جامكية ، وفي كلمة فارسية دخيلة على القرية ،
ورد ذكرها كثيرا في وثائق الصنم المملوكى والثمانى وغيرها من المصادر التاريخية
الأدبية المعاصرة ، ونلفظ جامه معناه الثوب أو القينة .

والجوامك هي الروابي عامة ، وكانت تصرف على أواخر أيام الممالك قديما بالسكة
السائتة وهي غالبا من الفلوس النحاسية ، أو غينا من غلال وكسوة ولحم لأرباب الوظائف
من مدين وعسكريين ، ويظهر أن الجامكية كانت تعطى لعفار المالك الاجلاب وغيرهم
نمن لا يمنحون خبرا أو اطاعا .

ادى شير : الالفاظ الفارسية العربية ص ٤٥ ، المقرئى : الساوك (نثر زيادة) ج ١
ص ٥٢ حاشية ٢ وما بها من مراجع .

٩ - كان لقب السيد والمولى يطلق على الاجلاء من رجال الدين والعلماء ، ويضاف
إلى ضمير التكلم الجمع يقال : سيدنا ومولانا ، وكثيرا ما يعطى لقب مولانا على لقب
سيدنا ، والراجع أن هذا اللقب قد أطلق إطلاقا شعبيا على أئمة الدين في أواخر عصر
الممالك . أنظر ما ورد عن هذا اللقب في حسن الباشا : الانقلاب الاسلامى
ص ٣٤٥ - ٣٥٠ ، ٥١٦ - ٥٢٢ وما بها من مراجع .

١٠ - وقد نجا هذا اللقب وغيره من الانقلاب التى سنها لهما في هذه التحقيقات ضمن ألقاب
عدد كبير من القضاء في كثير من الشهادات في وثائق عصر الممالك الجراكسة .

وقد ورد أيضا ضمن ألقاب القضاة الأربعة في هذه الشهادات سطر ١٧ ، ٧٧ ،
١٤٥ ، ٢٠١ .

وبلاحظ القارئ أن ألقاب القضاة كثيرة جدا وفيها مبالغة وتعظيم زائد ، وقد اشترك
قضاة القضاة للمذاهب الأربعة في كثير من الألقاب النخرية ، واتخذ بعضهم بتعوت لم يشاركه
فيها أحد ، وأصدق مثل على ذلك مجموعة الألقاب النخرية لقاضي القضاة أبو العباس أحمد
ابن الفرور الشافعي ، فمن الألقاب التي نعت بها دون غيره من القضاة الثلاثة الآخرين :

« الأوحده ، الخاشع ، التاسك ، القلوة ، ماضي النقص والإبرام ، بية المجتهدين ، أمام
القتلة والمفسرين ، ملاذ الأرباب والمنقطعين ، ملجأ الأمة ، كهف الله ، غيث الملهوفين ،
محط رجال الوافدين ، رجاء القاصدين ، رئيس الملكين ، صاحب الولايتين ، خليب
الخطباء ، أما الفصحاء والبلاء والأدياء ، خادم الحجر الثمينة النبوية » سطر ٢٠٢ —
٢١٣ ، لوحة ١١

ويظهر أن ألقاب رجال القضاء والعلماء في أواخر العصر المملوكي لم يكن لها ضابط
ولا رابط ، ولا أدل على ذلك من أنه قد ورد ضمن ألقاب قاضي القضاة الشافعي لقب غري
عسكري سطلاني هو ذاليت الهام ، وهو من ألقاب السلطان النوري في نفس الوقت —
أنظر وجه الوثيقة سطر ٦٨ ، وهذا يقطع في الدلالة على مبلغ ما وصلت إليه حالة الألقاب
من فوضى وعدم استقرار أو تقيم في أواخر عصر الجراكسة في مصر والشام ، فلم تعد الألقاب
دائما مصونة ، وكانت تمنح أحيانا لمن يبدو غير جدير بها . حسن الباشا ص ١٠٠

١٠ — العبد القليل إلى الله — لقب من ألقاب التواضع والنذل لله تعالى ، وهو يرد
غالبًا في النصوص الجنائزية . حسن الباشا ص ٣٩٣ . وقد ورد اللقب ضمن ألقاب القضاة
الأربعة سطر ١٧ ، ٧٧ ، ١٤٥ ، ٢٠١ .

١١ — الشيخ في اللغة الطاعن في السن ، ويطلق للتوقير على كبار العلماء والقضاة
والمشهورين في عصر المماليك ، وهذا اللقب أحد الألقاب الأصول وكان يأتي غالبا في مقدمة
الألقاب . حسن الباشا ص ٣٦٤ — ٣٦٦ وما بها من مراجع . وهو لقب شائع فقد ورد
ضمن ألقاب قضاة القضاة للمذاهب الأربعة ، كما ورد كثيرا في عدد من وثائق عصر المماليك
الأول والثاني بما لا يحصى داعيا لذكرها بسبب كثرتها .

١٢ — الامام هو القدوة ، وقد ورد القلب في القرآن الكريم في أكثر من آية . وهو يطلق على أهل الصلاح والزهد والعلم ، ومن هو قدوة في شئون الدين ، وأطلق على الخلفاء ثم على سلاطين الممالك قبل « الامام الاعظم » كظهر من مظاهر طوحهم إلى السيادة على العالم الاسلامي . حسن الباشا ص ١٦٦ — ١٧٦ وما به من مراجع .
وقد ورد القلب في كثير من الوثائق العربية في عصر المماليك عند ذكر الاقارب القهرية للسلاطين والقضاة ومنها وثيقة برسباي محكمه ٩٢ ، وثيقة اينال دار الكتب ٦٢ تاريخ ، وثيقة جقيق محكمه ٩٧ ، وثيقة قايتباي اوقاف ٨٨٦ ، محكمه بلون رقم ، وجه وثيقة النوري اوقاف ٨٨٣ سطر ٨٨ ، وثيقة طومان باي دار الكتب ٢١٠٠ تاريخ ، القرزي : السلوك ج ١ ص ٤٥٤ حاشية ٢ .

وهذا القلب بالنسبة للعلماء من أعلى درجات السلم العلمي وكان يلقب به من اظهر منهم نبوغا لا مراء فيه . وقد ورد القلب ضمن القاب القضاة الاربعة .

١٣ — العالم من القاب سلاطين الممالك والعلماء ، فهو لقب مشترك نعت به ارباب السيف والقلم على السواء في ذلك العصر . حسن الباشا ص ٣٩٠ . وقد ورد اللفظ في كثير من وثائق عصر المماليك ومنها وثيقة برسباي اوقاف ٨٨٠ ، وثيقة اينال (المرحوم الأستاذ محمود حنفي وكيل وزارة الزراعة السابق) ، وثيقة قايتباي اوقاف ٨٨٦ ، وجه وثيقة النوري اوقاف ٨٨٣ سطر ٦٨ وفي عدد كبير غيرها من الوثائق .

Van Berchem : *O.I.A Egypte*, 2, p. 576 No 388, p. 577 No 390.
وقد ورد هذا القلب أيضا ضمن القاب القضاة الاربعة .

١٤ — العامل لقب من القاب أهل الصلاح ، ويلحق بقلب العالم غالبا للدلالة على كون الملقب به يعمل بما يعلم من أمور الدين والشرع ، والمراد هنا العامل بعبء أو العامل صلاحا . حسن الباشا ص ٣٩٢ ، وكذلك انظر المصادر التي ذكرناها في التحقيق السابق رقم ١٣ .

١٥ — العلامة هو العالم للغاية — من القاب العلماء الفحول المحضين بالإفتاء ، وكان يضاف إلى العالم العامل ليكون لقباً مركباً كما هو وارد في القاب القضاة الاربعة في هذه الشهادات . حسن الباشا ص ٤٠٥ — ٤٠٦ . وقد ورد هذا اللقب في كثير من وثائق عصر المماليك وخاصة في الاسجلات الحكومية والتفiziة الواردة في ظهور الوثائق .

١٦ — الجبر من القاب أكابر العلماء ، القلقشنى : صبح الاعشى ج ٦ ص ١٢ ، وقد يضاف إليه البحر القهامة كما ورد في القاب القضاء الأربعة في هذه الشهادات .

١٧ — المحقق هو المتعنى للحقيقة — وهو من القاب العلماء والقضاء كذلك حيث أنه ورد ضمن القاب القضاء الأربعة . ويقول القلقشنى : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٦ « وربما استعمل للصوفية » ولكن هذه الوثيقة تؤكد لنا وجود هذا اللقب ضمن القاب شيخ الشيوخ وهو المتولى الاشراف على الصوفية . انظر سطر ٢٤ ، التحقيق رقم ٢٠ ، ٤٥ ، في بحثنا هذا .

١٨ — المدقق هو الذى يتعم النظر في المسائل ويناقشها بدقة تامة ، وهو لقب من اشر القاب العلماء والقضاء في عصر المالك . حسن الباشا ص ٤٦٦ . وتدرج ضمن القاب القضاء الأربعة .

١٩ — الحجة في اللغة البرهان ، وقد استعمل كلقب غفرى للعلماء والقضاء الكبار في عصر المالك . حسن الباشا ص ٢٥٦ . والحجة كذلك هي الصك أو السند أو الوثيقة عامة . انظر بحثنا وثيقة الامير آخور قراقبا الحسنى (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ١٩٣ ، وكذلك بحثنا هذا تحقيق رقم ٢٤ . وقد ورد هذا اللقب أيضا ضمن القاب القضاء الأربعة في هذه الشهادات .

٢٠ — المحدث المراد به من يعاطى علم الحديث بطريق الرواية والدراسة والعلم باسماء الرجال وطرق الأحاديث والمعرفة بالاسانيد ونحو ذلك . القلقشنى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٤٦٤ . فهو من القاب المحدثين الفحول وكان ينعى به من مهر في معرفة الحديث ، واستنادا إلى هذه الشهادات يجوز استعماله كلقب غفرى ، ولم يرد هذا اللقب ضمن القاب كل من قاضى القضاء الحنبلى والشافعى :

٢١ — الحافظ اسم فاعل من الحفظ بمعنى الاستظهار أو الحراسة والمقصود هنا المعنى الأول ، وهو من القاب المحدثين ، وقد اخص بهم لضرورة حفظهم للأحاديث واسماء الرجال وتواريخهم ونحو ذلك . حسن الباشا ص ٢٥٢ . ولم يرد هذا اللقب في القاب قاضى القضاء الحنبلى والمالكى .

٢٢ — الرحلة في اللغة من يُرحل إليه ، وهو من القاب أكابر العلماء والمحدثين وذلك لأنه يرحل إليهم للاستفادة من علمهم ، وهو من الألقاب التى اخص بها المحدثين

بالذات مثل الحافظ والمحدث ، والمراد بالرحلة هنا من أفراد في زمنه بالرحيل إليه لاختد العلم والحديث عنه . حسن الباشا ص ٣٠٢ . انظر بحثنا هذا بتحقيق رقم ٣٥ . هذا ولم يرد القلب ضمن القاب قاضى القضاة الخليلي .

٢٢ — التقيہ من القاب العلماء ، وكان أهل المغرب يسمونه جداً ، ويقولون التلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٢ « إن الكتاب بالديار المصرية لم يستعملوا هذا القلب إلا في القليل النادر بل كثير من جهة الكتاب وغيرهم يستعملون القلب به ويمسونه قصاً » هذا والقلب له معنى سام ، ويظهر أنه لم يكن شائع الاستعمال في عهد التلقشندي ولكننا عثرنا عليه في بعض وثائق العصر المملوك المتأخر والمخطوطة في أرشيف كل من وزارة الأوقاف ومحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة مثل وثيقة أبو بكر ابن مزهر الانصارى محكمة ١٧٥ ، وثيقة قايتباي محكمة بدون رقم ، أوقاف ٨٨٧ وقد ورد القلب بالجمع مطوقاً على شيخ « شيخ القضاة » في وثيقة طومان باي أوقاف ٨٨٢ ص ٥٧٦ ، ٥٨٧ ، ظهر وثيقة سيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ سطر ٥ — انظر كذلك وثيقة السيفي اذمر من على باي محكمة ٢٤٠ ، ٢٤١ — وثيقة السيفي قطباي محكمة ٢٧٢ وثيقة السيفي طراباي محكمة ٢٦٥

ولم يرد هذا القلب « التقيہ » ضمن القاب قاضى القضاة الشافعي .

أما إطلاق هذا القلب على قضاة المكاتب ومؤدبي الإياد ونحوهم فعلى سبيل المجاز . التلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٢ . وهناك عدة وثائق تطلق على مؤدبي الإياد لقب « ققيه » منها وثيقة جمال الدين الاستادار محكمة ١٠٦ ، وثيقة قايتباي أوقاف ٨٨٦ ، ٨٨٨ Mayer: The buildings of Qaythay as described in the endowment deed, P.79.

٢٤ — المجتهد من أشهر القاب العلماء في عصر المماليك . حسن الباشا ص ٤٥٤ . ويقولون التلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٦ « إن لفظ المجتهد من القاب العلماء والمراد به في الاصل من يستنبط الاحكام الشرعية من الكتاب والسنة والاجماع والقياس ، وقل ان يستعمله الكتاب » ، ويظهر أن هذا القلب كان قليل الاستعمال في أيام التلقشندي ، ولكننا ورد في القاب القضاة الأربعة هنا سطر ١٩ ، ٧٨ ، ١٤٦ ، ٢٠٣ ، وفي القاب غيرهم من القضاة في أواخر عصر المماليك في كثير من الوثائق .

والحقيقة أن الاجتهاد شرط أساسي في تولية القاضي منصب القضاء بل إن بعض الفقهاء يعتبرونه شرط الأولوية . انظر تحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر .

٢٥ — شيخ الاسلام لقب مركب من القاب كبار العلماء والقضاة في أواخر عصر المماليك ، حسن الباشا ص ٣٦٦ . وقد عثرت على هذا اللقب في بعض الشهادات الواردة في ظهور الوثائق التي ترجع إل أواخر ق ١٥/٥٩ م أوائل ق ١٦/٥٩ م .

وربما قيل شيخ شيوخ الاسلام — القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٧ ، ولكنه ورد في القاب قاضي القضاء الشافعي « شيخ مشايخ الاسلام » سطر ٢٠٤ ، ويضح أن فيه تعظيم وتهجيم زائد لصاحبه ولعل المقصود بذلك أن صاحبه كان شيخا للشيوخ الخوارج . انظر تحقيق رقم ٤٥

٢٦ — مقى الانام — لم يرد هذا اللقب المركب بالذات في القلقشندي : نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٧٠ ، بل ورد « مقى المسلمين » وهو يفتق في معناه مع مقى الانام بمعنى الأتقاء لجميع الناس من المسلمين ، وكذلك لم يرد في حسن الباشا ص ٤٨١ - ٤٨٢ بل ورد فيه مقى الشرق ، مقى الفرق ، وفي القاب قاضي القضاء الشافعي ورد « مقى الفرق والانام » وقد عرف هذا اللقب قبل أكثر من أربعة قرون من تاريخ هذه الشهادات بدليل اطلاقه على الامام محمد الفزالي في قس من حوالي سنة ٥٠٥ هـ على مقلة من النحاس المكف بالقضة من العراق . حسن الباشا ص ٤٨٢ .

٢٧ — الملك لقب يطلق على الرئيس الأعلى للسلطة الزمنية — انظر الدراسة القيمة التي جاء بها الزميل الدكتور حسن الباشا في كتابه الانقلاب الاسلامية ص ٤٩٦ - ٥٠٢ وما بها من مراجع . وأما هذا اللقب الوارد هنا — وهو « ملك العلماء الاعلام » — في القاب القضاء الاربعة سطر ١٩ ، ٨٨ ، ١٤٦ ، ٢٠٤ فلم يرد في الباشا ولا في القلقشندي . وقد يستشف من هذا اتضاع لقب الملك وسلطته في تلك الفترة من حياة الدولة المملوكية .

٢٨ — حسنة الليالي والايلام — جاء في القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٤٦ « حسنة الأيام » فقط ، وهو من القاب أكابر أرباب الاتلام من الوزراء والقضاة ومن ق معناهم ، والمراد أن الأيام أحسنت بالامتنان به . أما هذا اللقب « حسنة الليالي والايلام » للوارد في القاب القضاء الاربعة فهو أوسع في معناه من حسنة الايام .

٢٩ — صدر مصر والنام — صدر كل شيء أوله ، وقد استعمل كقُب من القاب الكناية المكانية . ويقصد بذلك تقخير صاحبه بكونه صدرًا للجلس إشارة الى هاجه ومكانته بين العلماء والقضاة لا في مصر وحدها بل في الشام كذلك ، وقد اطلق القاب على ابن الشحنة الحنفى وهو من أسرة عريقة في القضاء وأصلها من حلب ، فقد تولى أبوه وجده من قبل منصب القضاء في حلب والقاهرة . انظر تحقيق ٤٣ ، ٤٧ .

ويقول القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٥٧ إنه لقب من القاب أكابر العلماء ونحوهم ، وقد نُسب هذان القبطان بالذكر لكثرة علمهما ، وربما قيل صدر مصر والعراق والشام . وقد ورد القاب ضمن القاب قاضى القضاء المالكي سطر ١٤٧ دون قاضى القضاء الحنبلى ، أما في القاب القاضى الشافعى فقد ورد « صدر مصر ومكة والعراق والشام » سطر ٢٠٤ — ٢٠٥ للدلالة على اتساع نفوذ صاحبه ، وربما كان ذلك يرجع إلى انتشار المذهب الشافعى في تلك الاصقاع من العالم الاسلامى .

٣٠ — محقق القضايا والأحكام — لقب مركب لم يرد في حسن الباشا ولا في القلقشندى . والمقصود بهذا القاب هنا أن صاحبه يتقضى حقيقة القضايا المروضة عليه للفصل فيها قبل أن يصدر حكمه باعتباره قاضيا للقضاء في مصر وعبيدا للمذهب الحنفى . انظر تحقيق رقم ١٧ . ولم يزد القاب ضمن القاب قاضى القضاء الحنبلى ، ويظهر أن السبب في ذلك يرجع إلى قلة الحنابلة في مصر ، وبالتالي قلة ما يعرض على قضائهم من قضايا وأحكام تبعاً لذلك . انظر بحثنا هذا ص ٣١٣ حاشية ٤٩ . أما في القاب قاضى القضاء المالكي والشافعى فقد ورد « محرر القضايا والأحكام » سطر ١٤٧ ، ٢٠٥ وهذا القاب أيضاً لم يرد في المصدرين السابقين الذكر .

ولعل المقصود بمحرر القضايا والأحكام القاضى الذى يفصل في القضايا وينطق بالأحكام ويعرف غير الطرق لتوثيق العقود والمحرمات الشرعية بعد وضعها في صيغتها القانونية .

٣١ — فريد معناه في اللغة المنفرد بما أن يشاركه فيه غيره ، وهو من القاب أكابر العلماء وانتفاضة في عصر المماليك . ولفظ فريد يدخل في تكوين بعض الألقاب المركبة . وهذا القاب المركب بالذات « فريد العصر والأوان » لم يرد في القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٢ ولا في حسن الباشا ص ٤٢١ ، كما أنه لم يرد ضمن القاب قاضى القضاء الحنبلى والمالكي

ولكنه ورد في القتاب القاضى اشافعى « انزيريد » سطر ٢٠٣ ، « فريد عصره واورانه » سطر ٢١٠ .

٢٢ — القاضى اسم لوظيفة ، ومن الوظائف التى عنى بالقابها القضرية القضاء . وقد اتسّر استعمال هذا اللقب المركب « قاضى القضاء » في عهد المالك وبانذات منذ قيام المذاهب الاربعة في مصر ، وقد لقب به القضاء الاربعة في هذه الاثباتات . وأول من خوطب بلقب قاضى القضاء في مصر القاضى أبو الحسن على بن النعمان ، وكان ابنه الحسين بن على أول من كتب له هذا اللقب في سجله . حسن البشاش ٧٤ — ٧٥ ، ٤٢٤ وما بها من مراجع ، عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص ٩٥ — ٩٩ .

وقاضى القضاء من أجل أرباب الوظائف الدينية واعلام شأننا وأرفعهم قدرا ، وأجلهم رتبة ولا يتقدم عليه أحد ، وكان لتولى هذه الوظيفة النظر في الاحكام الشرعية ودور الضرب وضبط عيارها . القلقشندي : صبح الاعشى ص ٤٨٢ .

وقاضى القضاء هو الذى كان يحدث في الاحكام الشرعية وتفيذ قضايها والقيام بالامور الشرعية والفصل بين الخصوم وكان يصرف في نواب الحكم العزيز تقيدا وعزلا ، وينبى له أن يتفقد قضائه ونوابه ، فيتصفح قضيتهم ويراعى امورهم وسيرهم في الناس ، وكان أول ظهور هذه الولاية في بغداد فلا يطلق قاضى القضاء إلا على قاضى بغداد . القلقشندي : نفس المصدر ص ٤ ص ٣٤ — ٣٥ . ويقول السيوطي إن ابا الحسن على بن النعمان ولى قضاء مصر في صفر سنة ٣٦٦ هـ في زمن الخليفة العزيز الفاطمي وكان شيعيا متغاليا وهو أول من نعت بقاضى القضاء في مصر ولم يكن يدعى بذلك إلا ببغداد .

السيوطي : حسن المحاضرة (ط . الوطن) ص ٢ ص ١٢٠ وكذلك انظر الشيال : مجموعة الوثائق الفاطمية ص ١ ص ٩٠ وما بها من حوائث . وقد أخذ هذا النظام عن القرس فهم الذين كان لهم قضاء قضاء ، والراجع أن هذا النظام ادخل في الدولة الاسلامية زمن الرشيد العباسي على يد البرامكة . القلقشندي : نفس المصدر ص ٥ ص ٤٥١ ، ص ٦ ص ٢٣ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ٩٥ — ٩٩ ، مشرقه : نظم الحكم بمصر في عصر الفاطميين ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، ماجد : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ص ١٤٠ — ١٤١ .

٢٣ — اللسان اداة الكلام أو جراحة الكلام أو اللغة ، واللقب هنا مركب ، وقد صار في نهاية العصر المملوكي من الالقاب الشائعة ، ولقب به العلماء والمدرسين . حسن

الباشا ص ٢٥٧ ، ٤٤٢ . ويقول القلقشندي : نفس المصدر ص ٦٧ ، والتكلمون يجوز أن يراد بهم كل متكلم في الجملة تعبيرا للذبح ، ويجوز أن يراد العلماء بفلم الكلام وهو أصول الدين . وقد ورد اللقب ضمن القاب القضاة الاربعة .

٣٤ — حجة الناظرين لقب نخرى يطلق على المرسين . حسن الباشا ص ٢٥٧ . انظر تحقيق رقم ١٩ .

وقد ورد ضمن القاب قاضي القضاة الحنبلي والمالكي سطر ٨٠ ، ١٤٨ ، ولكنه ورد في القاب القاضي الشافعي « سيف الناظرين » سطر ٢٠٦ ، وهذا سيف الناظرين من القاب العلماء المركبة ، والمراد بالناظرين أهل البحث والجدل أخذنا من النظر وهو الفكر المؤدى إلى الدليل ، والمراد بذلك هنا الدلالة على قوة صاحبه في المناظرة والجدل . القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٥٥ .

٣٥ — رحلة الحفاظ والمحدثين لقب مركب من القاب العلماء عامة ومدرس الحديث خاصة ، الباشا ص ٣٠٢ . والمقصود به هنا من يرتحل إليه للدراسة عليه والاستفادة منه وأخذ الحديث عنه . انظر تحقيق رقم ٢٠ ، ٢١ ، ٢٢ .

هذا ولم يرد اللقب ضمن القاب قاضي القضاة المالكي ، ولكن ورد في القاب كل من الحنبلي والشافعي « رحلة الطالبين » سطر ٨٠ ، ٢٠٨ . وهذا اللقب الأخير لم يرد في الباشا ولا في القلقشندي ومعناه واضح لا يحتاج إلى شرح أو تفسير .

٣٦ — الكنز في اللغة المال المدفون ، وكنز النجاة والمعين لقب مركب ، وهو من القاب أهل العلم ، والراجح أنه من القاب مدرسي النحو بالذات في المدارس الملكية ، واللقب يدل على تمكنهم ودفعهم في هذا الميدان ، فقد وجلت في المدارس في عصر المماليك وظانف للمدرسي العلوم اللسانية واللغوية من نحو وصرف وبيان وبديع وبلاغة . وثيقة التصور قلاوون محكمة ١٥ ، وثيقة حسام الدين لاجين محكمة ٢٢ ، ٢٣ ، وثيقة السلطان حسن محكمة ٤٠ وغيرها من الوثائق . وهذا اللقب المركب بالذات « كنز النجاة والمعين » لم يرد في حسن الباشا ص ٤٣٩ - ٤٤٠ ولا في القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٦٦ . وكذلك لم يرد في القاب قاضي القضاة الحنبلي والمالكي وإن كان قد ورد في القاب القاضي الشافعي سطر ٢٠٧ .

٢٧ — والسلطان في اللغة من الملاطعة بمعنى القهر ، وسلطان لقب ذو معنى سياسي واسع وهو لقب عام للحاكم في عصر المماليك . أما لفظ سلطان في كتب الفقه فيرد إلى الحاكم أي القاضي ، وقد دخل لفظ سلطان في تكوين القاب مركبة كثيرة . انظر : القية التي وردت عنه في حسن الباشا ص ٢٢٣ — ٢٢٩ وما بها من مراجع . و « سلطان الفقهاء والأصوليين » بالذات لم يرد في حسن الباشا في الصفحات السابق ذكرها ولا في القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٥٣ — ٥٤ ، ولا في القاب القاضي الخليلي والمالكي ولكنه ورد في القاب الشافعي سطر ٢٠٧ . والمقصود بهذا القاب أن صاحبه حجة وبرهان في الفقه وله السيادة على المشتغلين به ، وهو بهذا من القاب كبار الفقهاء والعلماء .

٢٨ — أوحده المجتهدين — هذا القاب بالذات لم يرد في حسن الباشا ص ٢١٨ — ٢١٩ ولا في القلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٨ — ٤٠ . انظر تحقيق رقم ٢٤ ، ٨٢ .

وقد ورد القاب ضمن القاب قاضي القضاة الخليلي والمالكي سطر ٨٠ ، ١٤٨ — أما في القاب قاضي القضاة الشافعي فقد ورد « المجتهد الاوحد » سطر ٢٠٣ ، « بقية المجتهدين » سطر ٢٠٧ ، وكل من اللقبين يدل على أن صاحبه قد ائتمد بالاجتهاد في عصره دون بقية العلماء والفقهاء .

٣٩ — قاض المبتدعين — قعه أي قهره واذله ، وقد اضيف اللفظ إلى بعض كلمات لتكوين القاب مركبة . وقاض المبتدعين يعني أن الملقب به كان قاضا لمن يحدث بدعة وهي ما خالف السنة النبوية وما عليه الجماعة ، والقاب من القاب اكابر العلماء . حسن الباشا ص ٤٢٤ — ٤٢٦ . وقد ورد ضمن القاب القضاة الأربعة سطر ٢٢ ، ٨٠ ، ١٤٨ ، ٢٠٩ .

٤٠ — مفتاح المجالدين ، هذا لقب جديد بل نادر ، وهي من القاب الفقهاء والقضاة في اواخر عصر المماليك حيث أنه لم يرد في القاب بقية القضاة ، كما أنه لم يرد في الباشا ولا في القلقشندي .

٤١ — هذا لقب مركب من القاب العلماء والصلحاء في عصر المماليك ، وقد ورد كذلك في القاب قاضي القضاة الخليلي والمالكي سطر ٨١ ، ١٤٨ ولكنه ورد في القاب القاضي الشافعي « محي السنة » فقط سطر ٢٠٨ . حسن الباشا ص ٤٦٣ . وهذا القاب يستمد به أن صاحبه من العاملين على إحياء سنة سيد المرسلين محمد بن عبد الله (ص) .

٤٢ — خالصة أمير المؤمنين لقب قديم ، اعتبره ابن شيث في أواخر العصر الأيوبي ضمن الانقلاب التي تطلق على كبراء الدولة من الكتاب وأرباب الانلام ، وأوردته القلقشندي كما مع الجناح الكريم ضمن القاب الوزراء ومن في مقامهم . حسن الباشا ص ٢٠٠ ، القلقشندي : نفس المصغر ٦ ص ٤٦ ، ١٠٩ ، وقد ورد ضمن القاب القضاة الأربعة في هذه الشهادات سطر ٢٣ ، ٨١ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ٢١١

٤٣ — هو الشيخ سري الدين أبو البركات عبد البر بن محب الدين بن الشحنة الحلبي القاهري الحنفي ، ولد بحلب في ٩ ذي القعدة سنة ٨٥١ هـ وجاء الى القاهرة مع أبيه ودرس على مشايير عصره ، ومهر في الفقه والحديث والأصول وغيرها ، وقد تولى مشيخة الأشرية سنة ٩٠٣ هـ ولكنه لم يلبث أن صرف عنها ، وقد تولى عدة وظائف أخرى منها خطابة جامع الحاكم وتدريس الحديث في المدرسة الحسينية والزهرية والمؤيدية وقاب في الشيخونية ، وفي رمضان سنة ٩٠٤ هـ غضب عليه السلطان الظاهر أبو سعيد قانصوه وأمر ببقه إلى قوس ، وشفع فيه بعض الأمراء فعفى عنه السلطان وأمره بأن يلزم بيته لا يخرج منه ولا بمخالط احدا . ابن اياس : بدائع الزهور (ط استنبول) ج ٣ ص ٤٠١ .

ثم قرره السلطان العادل طومان باي يوم الخميس ٢٢ شوال سنة ٩٠٦ هـ في قضاء الحنفية قاضيا للقضاة بدلا من ابن الكركي وهذه أول ولايته لقضاء الحنفية ، ولم يلبث إلا مدة قصيرة حتى عزل في أواخر رجب سنة ٩٠٦ هـ . ابن اياس : نفس المصغر ج ٣ ص ٤٥٧ ، ٤٦١ . وقد عزله الفوري من القضاء أيضا وأمر ببقه إلى قوس بسبب الوشاية به ، ولكنه عفى عنه في صفر سنة ٩٠٨ هـ بشفاعة الاتابكي قيت الرجبي ثم أعاده للقضاء . ابن اياس : نفس المصغر السابق ج ٤ ص ٣٨ — ٣٩ ، وقد رماه بعض الناس بالقول الفاحش واتهموه كذبا بأنه لا يحسن قراءة الفاتحة وأن الصلاة خلفه لا تصح . ابن اياس : نفس المصغر ج ٩٧ ص ، وجهه الشاعر جمال الدين السلوقي بآيات مقلعة ، كما اتهمه السخاوي بتم خليفه في علمه وخلقه ، وبالرغم من ذلك كله خلع عليه الفوري وقرره في مشيخة المدرسة الصرخيمشية سنة ٩١٤ هـ بعد انفصال القاضي نور الدين الديماطي عنها وكذلك تولى مشيخة الحاققة الشيخونية بعد وفاة أبيه .

وقد حكم ابن الشحنة الحنفي بصفة الخطبة الأولى في المدرسة النورية في يوم الجمعة من شهر ربيع آخر ٩٠٩ هـ ، كما خطب فيها في الجمعة التالية بأمر السلطان بصفته قاضيا لقضاء

المذهب الحنفي في مصر . وجه وثيقة الغورى اوقاف ٨٨٣ سطر ١٨٣ ، ابن اياس :
بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٨ — ٥٩ .

وكان ابن الشحنة عالما اماما اديا فاضلا رئيسا حثما من أعيان علماء الحنفية ،
وأقام في وظيفة القضاء ثلاثة عشر عاما واشهرا ، وكان من اخلاء السلطان الغورى فخر
صديقه وجليسه وسيميره ، وكان يخطب ويصلى به ، وكثيرا ما تصرف في أمور المملكة
في حضرة الغورى نفسه ، وتوفي ابن الشحنة وهو بعيد عن القضاء يوم الجمعة ليلة السبت
٢٨ رجب سنة ٩٢١ هـ . ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٦٧ ، ٣٧٣ ، ج ٤ ص ٧ ،
٨٤ — ٨٥ ، ١١٢ ، ١١٣ ، ١٢٨ ، ١٣٥ ، ٤٧٠ . الحنبلي : در الحبيب في تاريخ أعيان
حلب (مخطوط — تصوير شمسى دار الكتب رقم ٢١٠٥ تاريخ تبويرية) ص ١١٨ ،
الطبايع : أعلام النبلاء ج ٥ ص ٣٨١ ، الفزى : الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة
ج ١ ص ٢١٩ — ٢٢١ . ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٨ ص ٩٨ وما بعدها ،
السخاوى ، الضوء اللامع ج ٤ ص ٣٣ — ٣٥ رقم ١٠٢ . وقد وردت علامته « الحمد لله
عليه توكلت » بنفس الخط في ظهور بعض الوثائق المملوكية ومنها :

.. وثيقة باسم قاضى القضاء الشافى أبو العباس احمد الفرغورى محكمة ٢٢٧ ، وثيقة الشيخ
عبد الرحمن المغربى محكمة ٢٤٦ ، وثيقة السيفى طراباى محكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، وثيقة
السيفى برسباى بن عبد الله المحملى محكمة ٢٨١ .

٤٤ — الناظر في الاحكام الشرعية — من القاب قضاء القضاء للمذاهب الأربعة
في هذه الاشهادات ، ولكنه يرد بالذات في الباشا ولا التفتنسى . والمقصود به أن صاحبه
وهو قاضى القضاء له النظر في الاحكام الشرعية ، واللفظ مأخوذ من النظر الذى هو رأى
العين أو النظر بمعنى الفكر المؤدى إلى الدليل لأنه ينظر ويفكر في القضايا التى تعرض عليه
ليفصل أو يحكم فيها بالحق والعقل بما يوافق الشريعة الذرا . التفتنسى : صبح الأعشى
ج ٥ ص ٤٦٥ ، ج ٦ ص ٥٥ ، انظر التحقيق رقم ٣٢ ويحتمل هذا ص ٢٢٣ — ٢٢٤

٤٥ — شيخ الشيوخ لقب يطلق على منولى الاشراف على الصوفية وهو يشير إلى وظيفة ،
وفي عصر آل يوب والمالك صار لقباً غريباً يطلق على شيخ الخاتاة الصلاحية سعيد السعداء
التي بناها صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٦٩ هـ . ولما بنى الناصر محمد بن تولاوون الخاتاة
الناصرية ببريقوس دعى شيخها بشيخ الشيوخ ، واستمر ذلك كذلك إلى أن كانت المحن

والحوادث في سنة ٨٠٦ هـ أيام الناصر فرج بن برقوق واتضعت الأحوال الاقتصادية والمالية وتلاشت الرب ، وتقب كل شيخ خاتمة الشيخ الشيوخ . وثيقة محمد بن فلاوون بحكمة ٢٥ ، وثيقة المؤيد شيخ اوقاف ٩٣٨ ، وثيقة ابنال (المرحوم محمود حنفي) ، عبد اللطيف ابراهيم : دراسات تاريخية وأثرية في وثائق من عصر النورى (نحت الطبع) ، حسن الباشا ص ٣٦٦ ، انفرى : الخطط ج ٢ ص ٤١٥ ، السيوطى : حسن الحاضرة ج ٢ ص ١٨٧ .

وكان ابن السحنة بذل وظيفة شيخ الشيوخ بالخاتمة الشيوخية والمدرسة الصرغتمشية . وثيقة طومان باى اوقاف ٨٨٢ ص ٥٧٩ ، تحقيق رقم ٤٣

هذا ولم يرد القلب ضمن القاب قاضى القضاء الحنبلى والمالكي ولكنه ورد في القاب قاضى القضاء الشافعى ، شيخ مشايخ الاسلام ، سطر ٢٠٤ - انظر تحقيق رقم ٢٥

٤٦ - كذا في الأصل - والمقصود بها الخاتمة الشيوخية ، فكثيرا ما كان يحدث الخلط بين المدرسة والخاتمة والجامع في وثائق عصر المماليك بل وفي مصادر التاريخ المعاصرة . وثيقة سيرس المشايخ بحكمة ٢٢ ، ٢٣ - وثيقة مغطى الجمالى اوقاف ١٦٦٦ ، وثيقة محمد بن فلاوون بحكمة ٢٥ ، وثيقة جوهر المعين بحكمة ٢٠٢ ، وثيقة جمال الدين الاستادار بحكمة ١٠٦ ، وثيقة قايتباى اوقاف ٨١٠ ، وثيقة المؤيد شيخ اوقاف ٩٣٨ ، وثيقة قانى باى الرماح اوقاف ١٠١٩ ، وثيقة ابنال (المرحوم محمود حنفي) ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٨ ، ٢٣٦ ، ٢٤٩ ، قد عبر ابن اياس عن المدرسة القورية بالجامع وعن الخاتمة بالمدرسة ، ومن ثم يضح لنا أن المقصود بالمدرسة هنا الخاتمة الشيوخية .

والمعروف كذلك أن شيخ الشيوخ وظيفه في الخاتمة ، هذا بالإضافة إلى أن الشيخ محب الدين والد عبد البر بن السحنة كان شيخا بالخاتمة من قبله ولم يكن شيخا بمدرسة . ابن اياس : نفس المصدر ج ٣ ص ١٣٠ ، وقد تولى عبد البر نفسه بعد وفاة أبيه مشيخة الشيوخية في محرم سنة ٨٩٠ هـ زمن الاشرف قايتباى - ابن اياس : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٠٩ ، وتؤكد لنا هذه الحقائق الدامغة ما ورد في وثيقة طوماى باى اوقاف ٨٨٢ ص ٥٧٩ من أن ابن السحنة كان شيخا للشيوخ بالخاتمة الشيوخية والمدرسة الصرغتمشية . هذا وخاتمة شيخو (أثر ١٥٢) تنسب إلى الامير الكبير رأس نوبة الامراء الجندارية سيف الدين شيخو العمري الناصرى ، بناها بين الرملة والصلية خارج القاهرة - على حد

التعبير المصطلح عليه في وثائق ومعاصر العصر الوسيط عامة — بعد أن فرغ من بناء جامعه نجماها بست سنوات، وكان موضعها من جملة قطائع أحمد بن طولون، ثم صارت مساكن فاشتراها الأمير شيخو وهدمها وبدأ في عمارتها في الحرم سنة ٧٥٦ هـ، وبنى بجوارها حمامين وعدة حوانيت وغير ذلك، وفرغ البناء منها في سنة ٧٥٧ هـ ورب فيها أربعة دروس على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث ودرسا للقراءات السبع، ووقف عليها شيخو أوقافا جليلة للصرف من ريعها على طلبة العلم الشريف الذين يحضرون الدروس والتصوف، وقد عظم قدرها واشتهر في الأقطار ذكرها، ونخرج فيها كثير من أهل العلم، كما دفن بغيرها الأمير شيخو نفسه بعد وفاته سنة ٧٥٨ هـ. ولكن منذ مطلع القرن ٩/١٥ م ساءت حالة هذه الحائاه وبدأت في التدهور والانهيار. المرقزي: الخطط ٢ ص ٢١٤، ٢١٤، السيوطي: حسن المحاضرة ٢ ص ١٩١، ابن تقي بردي: الوجوه الزاهرة ٢ ص ٧٣، ١٣١ حاشية ٦، ص ٢٦٩، ٢٠٣، ٢٠٤. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ١ ص ١٥٦، ١٥٧.

Van Berchem: *G.I.A. Egypt*, T.I, pp. 232-236.

Hauteceur and Wiet: *Le Mosquée du Caire*, p. 270.

Creswell: *A brief chronology of the Mohammadan monuments (B.I.F.A. O.T. XVI)* p. 106.

٤٧ — والده هو قاضى القضاة محب الدين محمد بن محمد بن محمد بن محمود ابن غازى التقي الشير بابن الشحنة الحنفى — انظر ما ورد عن الشحنة في لسان العرب، ومحيط المحيط وقاموس المحيط مادة « شحن » — والشحنة في البلد من فيه الكفاية لفطحا من جهة الساطان.

Lane: *Arabic-English lexicon*, art. « شحن »

وأصله من حلب، ولد بها سنة ٨٠٤ هـ، وكان اماما عالما فاضلا قويا بارعا في مذهب ابي حنيفة، نازحا نائرا، جميل الهيئة حسن الشكل، تولى عدة وظائف سنية منها قضاء حلب وكتابة مرها ونظر جيشها ثم ولى كتابة الر بمصر سنة ٨٥٧ هـ كما تولى قضاء الحنفية عدة مرات وشهد عصر كل من السلطان اينال وخشقدم ولباى وثرىنا وقايقباى. وقد ولى مشيخة الحائاه الشيخونية، والمؤيدية والمرغتمشية؛ مرض بالفالج وشفى منه ثم ذهل عقله في أواخر أيامه وتوفى يوم الأربعاء ١٦ محرم سنة ٨٩٠ هـ، وله عدة مؤلفات جليلة.

للسخاوى : الضوء اللامع ج ٩ ص ٢٩٥ — ٣٠٥ رقم ٧٥٥ ، ابن اباس : بدائع
الزهور ج ٣ ص ٢٠٩ ، ابن العزاد الحنبلى : شذرات انذهب ج ٧ ص ٣٤٩ .

أما جده فهو محب الدين ابر انوليد محمد بن محمد ، وجده الاعلى محمود الشير بابن
الشحنة الحنبلى الحنفى ، وهو تركى الاصل ولد بحلب سنة ٧٤٩ هـ ، ودرس واشتغل
بالعلم وتمعنه فيه ، وتولى عدة مناصب دينية وله تصانيف كثيرة ، وقد أتى ودرس فى حلب
ودمشق والقاهرة ، وكان يقبل على الحديث الشريف .

قبض عليه الظاهر برقوق سنة ٧٩٣ هـ وقدم معه إلى القاهرة ثم أخرج عنه فرجع إلى
حلب وأقام بها ، ثم قبض عليه الناصر فرج سنة ٨١٣ هـ لاتبامه وجماعة بالأمير على السلطان ،
ولكن عفى عنه فقدم القاهرة مدة ثم تركها إلى حلب حيث توفى فى يوم الجمعة ١٢ ربيع آخر
سنة ٨١٥ هـ .

السخاوى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ٢ — ٦ رقم ٥ ، ابن العزاد الحنبلى : شذرات
الذهب ج ٧ ص ١١٣ .

٤٨ — الثبوت لفئة حصول أمر ومحققه عن طريق معرفته حتى المعرفة .
أو هو ما ثبت به الحق بزور الحجج والبيته وقام الدليل الشرعى السالم من العيب والمطاعن .
وابتات أمر معناه قيام الحججة على ثبوت السبب عند الحاكم (القاضى) ، فان قامت
الحجة على سبب الحكم وانفت الرية وحصلت الشروط ، فهذا هو الثبوت والحكم
من لازمه ، واشهاد قاض بثبوت العقد أو التصرف حكم بمدالة البيته عنده ، وهذا يقتضى
أن الثبوت جار مجرى الحكم بدليل قولهم عند التوثيق « ولما ثبت عند القاضى حكم »
انظر سطر ٣٦ ، ٣٧ .

والواقع أنه ما من حق أو التزام أو ارتباط قانونى إلا ويصين اثباته ، والأمر الذى
يجب أن يكون محلا للاثبات إنما هو الفعل القانونى acte juridique الذى كان مصدرا
للا التزام وذلك متى استوفى كل شروطه الشرعية . — انظر سطر ٣ ، ٢٢ ، ٢٦ . وقوله
القاضى عبد البر بن الشحنة الحنفى فى اسجاله الحكمى سطر ٣ ، ٢٧ « ثبت اشهاد مولانا
ثبونا شرعيا بشهادة شهوده » معناه ثبوت قيام البيته والاقرار بها وتركيتها وقبولها ، فقد ورد
فى وجه الوثيقة ما نصه « واشهد على نفسه الشريفة المعظمة المتيقة شرفها الله تعالى وحمايتها

وصانها ورعاها بجميع ما نسب اليه فيه بعد قرانه عليه واحاطة علمه الشريف بمعانيه . . . وهو بالصفات الشريفة الشروحة اعلاه ، سطر ١٧٧٦ - ١٧٧٩ . والمقصود بذلك أن الواقف أقر بالوقف وبصلور التصرف منه فيما يملك وهو بحال كمال الصحة في جسده الشريف وجنانه وتمكنه في تحت ملكه النيف وسلطانه على حد التعبير الوارد في وجه الوثيقة نفسها سطر ٩٨ - ٩٩

هذا والاثبات عند الحنفية حكم بتعديل البيعة وقبولها وجريان ذلك المشروط به ، أى أنه صار كالحكم الذى حاز حجية الشيء المقضى به فلا يمكن الترض لتقضه ، وإذا قلنا إنه حكم بثبوت البيعة امتنع على حاكم (قاض) آخر إبطاله .

وقائدة الحكم بالاثبات من القاضي العالم العادل عند المالكية عدم احتياج حاكم آخر إلى إعادة النظر فيما ثبت وجواز التنفيذ . احمد ابراهيم : طرق الاثبات الشرعية ص ٢ .

ابن فوحون : تبصرة الحكم ج ١ ص ٨٢ ، حسين المؤمن : نظرية الاثبات ج ١ للقواعد العامة والانوار والبين ص ٩ - ١٠ ، ١٤ ، ٣٠ - عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤١ - ١٤٢ ، جيعط : الطريقة المرضية ص ٢١٦ - ٢٢٢ ، ابن قاضي سناوه : جامع الفصولين ج ١ ص ١٩ - ٢٠ ، ج ٢ ص ٣٢٦ ؛ انظر ماورد عن هذا اللفظ في نص الشهادات الأربعة سطر ٢٧ ، ٣٦ - ٣٧ ، ١٠٠ ، ١٦٥ ، ٢٣٢ - لوحة ٢

٤٩ - يقصد بذلك شهادة الشاهدين الواردة في وجه الوثيقة في نهاية البروتوكول الختامى بتاريخ ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ ونصها :

« شهدت على مولانا المقام الشريف - الامام الاعظم السلطان المالك الملك - الاشرف ابى النصر قانصوه الغورى - الواقف المتوه باسمه الشريف اعلاه نصره الله تعالى - نصراً عزيزاً وفتح له فتحاً ميئناً بجميع - مانسب اليه اعلاه على ماشرح فيه وكتب »
وتقع صيغة هذه الشهادة بين السطر ١٧٨١ - ١٧٨٧

وصيغة الشهادة في شهادتي الشاهدين متطابقة ومتفقة في اللفظ والمعنى . انظر بحثنا هذا ص ٣٠٩ - ٣١٠ ، وقد قام الشاهدان بالشهادة على ما بآى :

أولاً : إثبات صحة واقعة مادية هي تدوين وثيقة الوقف التى تم تحريرها ربما عمرقها وفى حضورهما في تواريخ آخرها ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ وجه وثيقة الغورى أوقاف ٨٨٣ سطر ١٧٧٩ - ١٧٨٠ ووقعها عليها بصفتها شهود تحرير .

ثانياً : إثبات صحة واقعة إرادية ترتبت عليها آثار قانونية وهي صدور الوقف حسب الإرادة الحرة للواقف المتصرف وهو في حال صحة جسده وكال عقله رغباً في ذلك غير مكره ولا مجبر ، ووفقاً عليها بصفتها شهود تصرف .

ولا شك أن الشهادة على الواقعة الإرادية سابقة على الشهادة على تحرير الوثيقة وتدوينها . انظر بحثنا وثيقة الأمير أخور كير قراقجا الحسني (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ١٩٧ .

والواقع أن الاعيان الموقوفة حكمها في الشهادة لها أو عليها كحكم الاعيان المملوكة ، فقبل الشهادة في كل منها من رجلين أو رجل وامرأتين بعد توفر الشروط الشرعية الواجب تحققها في الشهود . أحمد ابراهيم : أحكام الوقف والموارث (ط . ثانية) ص ١٦٨ ، طرق القضاء ص ٣٠١ . وقد أجازت الشريعة الإسلامية الحكيمة للقاضي بناء حكمه على شهادة الشهود العدول المبينة على المعاينة والمشهداة ، ومن ثم لا جدال في كون هذه الشهادة صحيحة — انظر بحثنا هذا ص ٣٢٣ — ٢٢٤ وكذلك انظر ما ورد عن الشهادة في هذه الشهادات سطر ٢٨ ، ٣٤ — ٣٥ ، ٨٨ ، ١٥٤ ، ٢٢١ — لوحة ٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٢ .

٥٠ — هذا هو تاريخ الوثيقة — ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ الوارد في البروتوكول الخامي ، وهو التاريخ الذي تم فيه كتابة الوثيقة والشهادة على ما ورد فيها من تصرف قانوني . انظر وجه الوثيقة سطر ١٧٨٠ — بحثنا هذا لوحة ٢ .

والواقع أن أهمية التاريخ في الوثيقة الدبلوماسية لا يحتاج إلى إيضاح أو بيان ، فهو يدلنا على الزمن الذي انتهى فيه من تدوين الوثيقة وشهادة الشهود على ما ورد فيها من تصرف ، ويكسبها الصحة القانونية من الناحية الزمنية . وقد اتضح لنا أن كل وثائق العصر الوسيط التي قمنا بدراساتها مؤرخة في نهايتها قبل الشهادة مباشرة باليوم والشهر والسنة بالتقويم الهجري وهو مدار التاريخ الإسلامي على حد قول القلقشندي ، ذلك أن التفصيل في ذكر التاريخ ضروري لصلاحية الوثيقة وسريان مفعولها وتأكيدها قينها كسند قانوني . ويقول القلقشندي في موسوعته الكبيرة : « وهناك إجماع على وجوب كتابة التاريخ في جميع المكتوبات ولا غنية عنه ، لأن التاريخ يستل به على بعد مسافة الكتاب وقرها ، وتحقيق الاخبار على ما هي عليه ، وقد قال بعض أئمة الحديث « لما استعملوا الكذب استعملنا لهم »

التاريخ . ويقول أيضاً إن فائدة التاريخ إما تتحقق بذكر السنة بعد اليوم والشهر وإلا فلا يعلم من أى السنين . القلشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٣٥ ، ٢٥٢
 وإذا كان ذكر التاريخ الزماني أمراً واجباً إلا أنه من النادر أن نجد ذكر للكان الذي دونت فيه الوثيقة أو شهد فيه الشهود .

انظر الفتاوى الهندية ج ٢ ص ٤٣٤ — ٤٣٥ وما بعدها ، ج ٣ ص ٤٨٥ ، الفتاوى
 البزازية (على هامش الهندية) ج ٥ ص ٢٨٤ ، أحمد إبراهيم : طرق القضاء ص ٣١٩

٥١ — يقصد بذلك أن قاضي القضاء عبد البر بن الشحنة الخفي قد أشهد على نفسه
 اشهاداً علينا صريحاً دون خفية أو كتمان وأعلن إعلاناً عاماً أمام جميع الذين حضروا مجلس
 حكمه وقضائه في ١٢ ربيع الأول سنة ٩١١ هـ بما نسب إليه في إسناده من ثبوت البينة
 لديه وقيام الدليل الشرعي على حدوث التصرف والاقرار بالوقف بشهادة الشهود المدلول
 على التصرف أو الفعل القانوني المعروض عليه للنظر فيه والحكم بحسبه ولزومه . بختمنا هذا
 ص ٣٠٢ — ٣٠٤ ، ابن قاضي سماره : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٧ ، ٣٢٩

هذا ويشترط أن تكون الشهادة بمجلس القاضي ، لأن النرض من الشهادة بالحكم
 بموجبها ، فلا بد أن تكون بحضور القاضي وفي مجلس حكمه الذي نصب لفصل فيه بين
 المتنازعين ، ولا كراهة في أن يكون مجلس القضاء والحكم في المسجد ، والمسجد الجامع
 أولى وخاصة إذا كان في وسط البلد دفناً للشقة .

الكاساني : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢٧٩ ، الفتاوى الهندية ج ٣ ص ٣١٩ وما بعدها .
 ابن عابدين : رد المختار ج ٤ ص ٣٨٥ . قراة : الأصول القضائية ص ١٥٨ — ١٥٩ ،
 ٣٢٥ ، حسين المؤمن : نظرية الإثبات ج ٢ (الشهادة) ص ١٣٩ — ١٤٢ . عنونس :
 تاريخ القضاء في الاسلام ص ١٢٥ — ١٢٦ ، أحمد إبراهيم : طرق القضاء ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ،
 طرق الإثبات ص ١٣٤ — ١٣٥ .

ويظهر أن الحاضرين مجلس القضاء كانوا جماعة من الشهود المدلول الفقات وكتب
 الحكم الذين كان مختارهم القاضي بعناية كبيرة ممن تتوفر فيه العدالة والثقة ، ولم يكن
 يسمح للشهود بالشهادة في مجلس الحكم إلا بعد أن ثبت للقاضي عدالتهم فيكتب الواحد
 منهم في درج عريض اسجلاً بعدائه ، وقد أورد لنا القلشندي نموذجاً لذلك في كتابه
 صبح الأعشى جاء فيه .

... فلما كانت العدالة هي أس الثريفة وعبادها ، وركنها الاعظم في الاستناد إلى الصواب وسنادها ، لا تقبل دونها شهادة ولا رواية ، ولا يصح مع علمها إسناد أمر ولا ولاية ، فقد بنيت الثريفة المطهرة على أركانها ، واعتمد الرواة في صحة الأخبار على أصولها وتعلقت الحكام في قبول الشهادة بأحضانها ... ، انقلشندى : صبح الأعشى ١٤٥ ص ٢٤٦ - ٢٤٩ .

وكان هؤلاء الشهود يحضرون مجلس حكم القاضى لمعاونته في وظيفته الاصلية وهي القضاء في المنازعات والفصل في الخصومات ، حيث كان القاضى يحتاج إلى خدماتهم في مجلس حكمه وكذلك في بعض الشئون المدنية والدينية ، وكان يطلق عليهم الشهود العدول باعتبار العدالة وظيفة دينية تابعة للقضاء ، ومن ثم كان العدول جزءاً لا يتجزأ من مجلس الحكم ، وكانوا يجلسون حول القاضى يمينه ويساره على ترتيب عدالتهم ، كما كان للقاضى الحق في تقيد أمورهم واستيفاء العلم والخبرة فيهم بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم .

الموردى : الاحكام السلطانية ص ٥٩ ، المقرئى : السلوك ج ٢ ص ٦ حاشية ٤ وما بها من مراجع ، عرفوس : تاريخ القضاء ص ١١٣ ، سرور : الظاهر يبرس ص ١٣٧ ، ١٤ ، ماجد : نظم القاطنين ورسومهم في مصر ص ١٤٥ — انظر تحقيق رقم ٢٧ والراجع أن مجلس الحكم لكل مذهب كان في أحد إوانات المحكمة الصالحة الشخصية بخط بين القصرين وسط القاهرة المعزية حيث دوت الشهادات الأربعة وسجلت ، فقد كانت هذه المدرسة قلعة العلماء على حد تعبير ابن اياس المؤرخ المعاصر ، ويظهر أن هذه المحكمة كانت قبل الفتح العثماني لمصر أكبر دار للقضاء في القاهرة . المقرئى : الخطط ج ٢ ص ٢٧٤ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣٠٠ ، ٤١١ ، ٤١٣ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥٣ — ٤٥٥ . انظر كذلك بحثنا هذا ص ٣٣٦ — ٣٣٧ الشهادات الأربعة ٣٠ ، ٨٤ ، ١٥١ ، ٢١٦ — لوحة ٢ ، ٥ ، ٨ ، ١٢ .

٥٢ — هذا هو تاريخ الشهادات الأول الذى تم فيه الحكم بصفة الوقف ولزومه على يدى قاضى القضاء عبد البر بن الشحنة الحنفى في يوم الثلاثاء ١٢ ربيع أول سنة ٩١١ هـ . والمعروف أن كتاب الحكم في مجلس القضاء هم الموثقون في العصور الوسطى وكان الواحد منهم يترك موضع التاريخ ياضاً — في الشهادات الواردة في ظهور الوثائق

الأصلية بالذات — ليثبت القاضى التاريخ فيه بخطه وذلك لأهميته الكبيرة فى إكساب
الإشهاد الموثق صفة الصحة والرسمية — انظر التحقيق رقم ٥٠ .

وقد لاحظنا هذه الحقيقة دائماً فى إشهادات وناثق الوقف المملوكية بالذات وخاصة
وناثق الدولة المملوكية . أما التاريخ الوارد فى البروتوكول الختامى فى وجه الوناثق فقد كان
يكتب بخط كاتب الوثيقة .

الكاسانى : بدائع الصنائع ج ٧ ص ١٢٠ . مرسى : شرح القانون المدنى الجديد — شهر
التصرفات العقارية ص ٥٥ ، ٥٥ .

ومن الملاحظ كذلك أن كل قاض من القضاة الأربعة كان يكتب بخط يده التاريخ
(اليوم والشهر فقط) فى سطر مستقل فى وسط أمثاله بخط كبير ، إذ يبلغ طول الألف ٤ سم
فى كلمة الثانى والأول سطر ٣٢ شكل ١٨ ، ٤٢ سم فى كلمة الخميس ، ٣٨ سم فى كلمة
المبارك ، ٣٩ سم فى كلمة الرابع سطر ١٥٣ شكل ٢٠ ، ٤ سم فى كلمة السابع سطر ٢١٨
شكل ٢١ — القلقشنلى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٤٩ .

وأما موضع التاريخ فى الكتاب فالذى استقر عليه حال كتاب الزمان كتابة التاريخ
فى آخر الكتاب كما هو الحال فى وجه كل الوناثق المملوكية — أما الإشهادات الواردة
فى الظاهر فقد اصطلاح الكتاب على جعل التاريخ فى سطرين ، اليوم والشهر فى سطر والسنة
فى سطر تحته ، ومن دراستنا للتواريخ الواردة فى الإشهادات الأربعة وأمثالها انضغ لنا
أن الوضع قد استقر على أن يقوم القضاة بكتابة السطر الأول فقط بقلم جليل كما سبق
أن ذكرت القلقشنلى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٦١ ، بحثنا هذا ص ٣٠٦ .

٥٣ — الأوضاع الشرعية هى الضوابط التى تجب مراعاتها فى تحرير العقود والإشهادات
من جهة القاضى والكتاب والشهود والمصرفين وللجنة التى تدون بها ، وبالإمكان المحرر
فى باطنه وظاهره فى حكم العلم ، لأن كثيراً من القضايا والنزاعات المعروضة على القضاة
فى المحاكم سببها عدم الدقة فى تحرير العقود والوناثق عامة وما يصاحب ذلك أحياناً من غرض
أو إيهام فى تصورها عند تفسيرها .

Aminaud: *Traité—Formulaire, général Alphabétique et raisonné*
du *Notariat*, Paris 1935, vol. I, introd.

Enc. Brit. art. *Notary*.

بحثنا هذا من ٢٢٢ — ٣٢٣ ، ٣٣٣ ، وكذلك التحقيق رقم ٥٩ ، ٦٧ ،

وهذه الضوابط المقررة قانوناً أو شرعاً ترمى كلها إلى شدة الاحتياط ومنتهى الحذر ليكون العقد جليداً بالغة ، والمحكم في العصر المملوكى كانت تقوم بصحور الاشهادات بعد مراجعة صيغ السندات والوثائق والمحركات المقدمة إليها على اختلاف أنواعها مراعية في ذلك الاحتياطات السالفة . فحده : التنفيذ علماً وعملاً (القاهرة ١٩٢٤) من ٤٧ — ٤٨

٥٤ — يقصد بذلك الشهادة الواردة على المأمش الأيمن في وجه وثيقة الوقف بين السطر ١٨٣ — ١٩٣ (لوحة ١٣) والدالة على ملكية القورى وحيازته للأعيان التي تصرف فيها بالوقف ونحوه :

« الحمد لله رب العالمين — يشهد من يوضع اسمه فيه أخوه بمعرفة جميع ما شمله الوقف الشريف السطر بهذا المكتوب من كامل وحدة وهلالى وخراجى وانشاء وعمارة ونجديا المعرفة الشرعية — وان مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك الاشرف الواقف المنوه باسمه الشريف أعلاه نصره الله تعالى انشاء وعمر من ماله لنفسه الشريفة بما نسب الي انشاء وعمارته — من ذلك وانه لم يزل مالكا حائز الملك لجميع الموقوف المعين فيه الى حين صدور الوقف منه في ذلك والشروح بهذا المكتوب يعلم شهوده بذلك ويشهدون به مسؤولين [و] حبنا الله ونعم الوكيل —

شهد بمضمونه	شهدا بذلك	شهد بمضمونه
ابو بكر بن عبد الرحمن بن محمد	الحاج محمد بن علي (؟) بن ابراهيم	عرف بالنظر وكتب عنه مادته
عرف بالتأخير وكتب عنه مادته	عرف بالتأخير وكتب عنه مادته	

وهذه الشهادة تدل على أن الأعيان الموقوفة والمذكورة بمحدودها في وجه الوثيقة كانت جارية في ملك الواقف وحيازته إلى حين صدور الوقف منه . ويظهر من صيغة الشهادة « يشهد من يوضع اسمه » والتوقيع « وكتب عنه مادته » أن الشاهدين لم يوصيا بخطها لأنها لا يعرفان الكتابة ، فقام بالتوقيع نيابة عنهما أحد كتاب الحكم أو الشهود العدول بمجلس القضاء .

هنا ولم أجد للشاهدين ذكراً في المراجع المختلفة أو كتب التراجم المتداولة في هذا البحث مما يدل على أنها كانا على قعر اجتماعى متواضع ، والملاحظ أن الشهود الواردة

أماؤهم في وناثق ذلك العصر كان بعضهم من الشخصيات الكبرى المعروفة من أرباب السيف أو القلم من كان لهم مقام مرموق، وثيقة خفطباي محكمة ٢٣٦ ، دار الكتب ٩/١٩٤٨ تاريخ والبعض الآخر من مساتير الناس أو من عائلهم ، فقد شهد رجلا ن أحدهما نوال والآخر طبياخ على وثيقة استبدال باسم شهاب الدين الأشونى محكمة ٢٦٠ . وعن شهادة أصحاب الصنائع ومن في مقامهم الاجتماعى المتواضع ، أنظر ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين عن رب العالمين - ١ ص ١٢٩ ، ابن عابدين : العقود الدرية في تنقيح الفتاوى الحامدية ج ١ ص ٢١٥ ، رد المختار على الدر المختار ج ٤ ص ٢٩٤ .

ومها يكن من أمر فان الاقرار بالكتابة كالاقرار باللسان ، هذا والاقرار باللسان في مجلس الحكم أو القضاء أقوى دلالة من الاقرار المكتوب ، وهناك مثل رومانى قديم يقول : السنة الخلق أقلام الحق Vox populi vox Dei ومن ثم فلا عيب البتة شرعا في المصور الوسطى في كون الشاهدان على ملكية الغورى للعقارات الموقوفة لا يعرفان الكتابة ، ولهذا قام بالتوقيع بالنيابة عنهما — ولا بد أن ذلك حدث في حضورهما — كاتب ثقة أمين عارف بصناعة الوثيق فيما نعتقد . جعيط : الطريقة المرصية ص ١٧٣ ، أحمد ابراهيم : طرق الاثبات ص ٦٤ .

والمعروف أن الأموال الموقوفة Biens Wakfs بعضها عقار وبعضها منقول لأن الوقف يصح فيها على سواء ، والأراضى والمباني عقارات بطبيعتها Les fonds de terre et les batiments sont immeubles par leur nature.

مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٢٣ الايبانى : مباحث الوقف ص ١٣ - ٢٠

Enc. Isl. art Wakf.

هذا ولعل بعض الأراضى التى وقفها السلطان الغورى كانت من جملة إقطاعه نبل أن يصل إلى كرسى السلطنة المملوكية ، ووقف الانقطاع صحيح كما يقول الخصاص في كتابه الأوقاف ص ٢٤

والواقع أن تصرف الغورى ووقفه صحيح طبقاً للتصوص السابق ذكرها ، لأنه يشترط لجواز الوقف أن تكون العين المراد وقفها مملوكة ملكا بانا للواقف وقت الوقف ، والملك التام من شأنه أن يصرف به المالك تصرفاً مطلقاً فيما يملكه عينا ومنفعه واستغلالا ، فينتفع بالعين المملوكة وينفثها وعملها وناتجها ويتصرف في عينها بجميع التصرفات المجازة

شرعا ، فله أن يخرجها عن ملكه بأى تصرف وضع للاخراج — مثل الوقف كما هو الوضع فى حالتنا .

تدرى : قانون العلل والانصاف ص ١٠ مادة ٢٠ ، مرشد الجيران ص ٥ ، قراعه : دروس فى المعاملات الشرعية ص ٦ - ٧ ، مرمى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ٧٧ ، الملكية والتسجيل ص ٥

ومهما يكن من شئ فإن الملكية والحقوق العينية نكتسب عن طريق :

(١) العقود (سندات الملكية) Titulus—Title deeds—Titres de propriété

وقد قدمها القورى كأدلة مادية Preuves matérielles ولعل بعضها كانت عقود بيع Titres de vente لأن البيع أحد أسباب الملك التام ، والبعض الآخر ربما كانت مناشير بائعاه أرضا قبل أن يتولى السلطة ووقف الإقطاع صحيح كما ذكرنا .
القلعشندى : صحيح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٧ وما بعدها .

(ب) وضع اليد والاستيلاء ، وأقصد بذلك الاستيلاء على الأشياء أو الأموال المباحة Res nullius التى ليست مملوكة لأحد لأنها تعتبر ملكا خالصة للمستوى عليها شرعا .

La propriété et les droits réels s'acquièrent par l'effet des conventions et par occupation.

مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ٢ ص ٢٥٠ ، الحقوق العينية الأصلية ج ٣ ص ٥ - ٧ قراعه : دروس فى المعاملات الشرعية ص ٣٦ - ٣٧

ويؤكد صحة ما ورد فى هذه الشهادة ما جاء فى صلب وجه الوثيقة سطر ١٠١ - ١٠٤ وأنه :

« الجارى ذلك فى ملكه الشريف ويده الشريفه وتصرفه واختصاصه وجازته ومنه — ما هو معروف بانثايه وعمارته واحضر لشهوده مكاتب شرعية ثابته محكوم بها فى الشرع الشريف على العادة بعضها — دال على صحة ملكه الشريف لما إبقاءه من ذلك على صفاته القديمة وبعضها دال على صحة ملكه الشريف لما هدمه وانثا على — رحابه الابنية الجديدة لا أتى ذكرها فيه وكتب عليها وعلى اصول احضرت لشهوده فصول ختمت شرعية »

وكذلك ما ورد في وجه الوثيقة بين السطر ١٣٧٥ - ١٣٧٧ ونصه :

« الجارى ذلك في ملك مولانا المقام الشريف الواقف بدلالة المكاتب والمستندات الشرعية المنبه عليها فيه ويشهد بملكه لذلك حال صدور هذا الوقف — من يكتب اسمه اذنى التفصل الذى سيطر بمحله عند الحاجة اليه » .

ومن هذا وذلك نرى :

أولاً : أن السلطان الغورى قد احضر لشهوده أدلة خطية ثابته بالكتابة وهى مستندات *Pièces justificatives* محررة وموثقة (مكاتب شرعية ثابته محكوم بها في الشرع الشريف) كدليل وبرهان على حقه في ملكية الأعيان التى تصرف فيها ووقفها وهو في حال صحة جسده وكل عقله تصرف المالك في ملكه لا يتازعه فيه أحد حتى تاريخ صدور الوقف .

فرج السنورى : مجموعة القوانين المصرية المختارة من الفقه الإسلامى ج ٣ — الوقف ١ ص ٥٢ السبواسى : فتح القدير ج ٥ ص ٣٧ — ٣٨ — قبرى : مرشد الميران ص ١٨ - ١٩ .

هذا ولا حاجة بنا إلى الإشارة للطريقة التى وصلت بها هذه الأعيان إلى ملكية الغورى وخاصة الأرض التى بنى عليها مدرسته وكان قد صادرها من الطواشى شخص رأس نوبة السقاة في دولة الظاهر قاضوه بعد أن شرع في بناء مسجد ومدفن له في تلك المنطقة الحبيبة من القاهرة ، مما جعل الناس يطلقون عليها تفكها « المسجد الحرام » بسبب اغتصاب الغورى لأرضها ورخائها وأخشابها ، والشبهات التى دارت حول الأموال التى صبت فيها صبا أو صرفت عليها بقبير زائد حتى بلغت ثقتها نحواً من مائة ألف دينار . ابن ابلس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٣ ، ٢٣٥ ، ج ٥ ص ٨٩ ، تاريخ ابن زنبيل الرمال (مخطوط بدار الكتب المصرية ٤٤ تاريخ) ج ١ ص ٨٩ -- حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية ج ١ ص ٢٨٧ .

ومها يكن من أمر فقد تقدم الغورى بمستندات شرعية ومحررات أو عقود موثقة ثبتت حقه في ذلك وملكته للأعيان التى وقفها ، هذا وإيس المقصود من السند الناقل للملكية المحرر أو الكتابة أو الدليل *Instrumentum* الذى ثبت العمل أو التصرف

القانونى الذى بمقتضاه حاز واضع اليد الشيء بل يقصد منه العمل القانونى نفسه *Negotium* الذى هو سبب وضع اليد ، ويجب أن يكون السند بطبيعته ناقلاً للملكية لو كان صحيحاً أى أن يكون صالحاً فى ذاته لتقل الملكية بصرف النظر عن صدوره من المالك الحقيقي أو من سواه . مرسى : الملكية والحقوق العينية ج ١ ص ١٩٤ .

والواقع أن هذه المستندات أدلة خطية لها من الاعتبار مكان كبير ثابت ، وللقاضى أن يأخذ بها ، فالإثبات الكتابى أسى الطريقة لإثبات الاتفاقات ، وقد ثبت العمل بالخط بالأدلة المتكاثرة من الكتاب والسنة والإجماع ، فالكتابة تفوق الشهادة *Lettres passent témoins* . وهى بلا شك أضبط لتفاصيل الحوادث وقيد لها ، ولا سيما الالتزامات ذات الشروط الكثيرة التى قد ترد فى بعض المحررات أو العقود ، ولا ريب فى أنها من هذه الناحية أقوى احتفاظاً بما تحويه من الذاكرة ، وهناك مثل رومانى قدم يقول :

الكلام ينسى وتبقى الكتابة *Verba volant, scripta manent* .

وبالموازنة بين دليل الكتابة والشهادة زى أن الاحتياط يقضى بأن يكون الدليل كتابياً كلما أمكن ذلك .

أحمد إبراهيم : طرق القضاء ص ٨٠ ، ٨٥ ، طرق الإثبات ص ٣٤ — ٣٥ ، ٤٩ ، ٦٥ — ٦٦ ، ٢٨٠ ، حسين المؤمن : نظرية الإثبات ج ١ — القواعد العامة والافتراء واليمين ص ٧٧ ، تادرس ميخائيل : شهادة الشهود ص ٢

ثانياً : أن فقهاء المسلمين يجمعون على أن اليد من أقوى ما يستل به على الملكية بالملك يثبت بوجه شرعى خلاف ذلك ، فوضع اليد دليل الملك ظاهر بلا شبهة .

الفتاوى المهدية ج ٣ ص ٢٤٠ ، المغنى والشرح الكبير ج ١٢ ص ٢٥ ، ابن عابدين : العقود اللرية فى تقيح الفتاوى الحامدية ج ٢ ص ١١٩ ، جعيط : الطريقة المرضية ص ٤٧ ، الفتاوى البرازية (على هامش الفتاوى الهندية) ج ٥ ص ٢٤٢ ، ٢٤٥ ، الخصاف : أحكام الوتف ص ٢٧٨ — ٢٨٣ ، ٣٣٢ — ٣٣٥ ، الطرابلسى : الاسعاف ص ٨١ — ٩٠ ، أحمد إبراهيم : طرق الإثبات ص ٤١ ، *Enc. Isl. art. Yakyf* .

والواقع أن معاناة اليد من الأسباب المجوزة للشهادة ، فمن كان في يده شيء وسعك أن تشهد أنه له ، حتى ولو لم تعين سبب الملكية من مستندات رسمية أو محررات موقفة ، وذلك لأن اليد أقصى ما يستل به على الملك عند علم المنازعة ، كما أنه ليس وراء اليد دليل أقوى منها ، إذ هي في الحقيقة مرجع الدلالة ومبدؤها ، فاليد إذن هي المستند الأخير في الدلالة على الملك بلا منازع ، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله « دليل الملك اليد مع التصرف الدال عليه » وبهذا قال الخصاص ومالك والنسفي من أنه يشترط مع معاناة اليد التصرف ، وأن يقع في قلب الشاهد أنه للشهود له ، وذلك لأن الأصل في الشهادة الإحاطة التامة واليقين . أحمد إبراهيم : طرق الإثبات ص ١١١-١١٢ ، طرق التقضاء ص ٢٩٥ ، ابن قاضي سملوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٢٤٥

٥٥ — الحكم بمعنى قضاء القاضي عبارة عن قطع الحاكم المختصة أو المنازعة ورحمه إياها والحكم في حالة الوتف هو إنشاء إلزام ، لأن الحاكم الخفي يلزم المحكوم عليه (الواقف) بالمحكوم به (الوقوف) بقوله حكمت أو قضيت ، ويقال لهذا القضاء قضاء الإلزام ، ويكون بالحكم الصادر في هذه الحالة حكماً ملزماً أو قطعياً ، لأنه حكم يصدر من القاضي لافادة لزوم الحق ، ولاخيرة فيه للمحكوم عليه فيلزم بالحكم ، وينفذ عليه سواء أطاب به نفساً أو وجد حرجاً فيها قضى به عليه ، وحرم على المحكوم عليه المخالفة لما فيه من مفسدة وانحراف النظام .

جميعط : الطريقة المرضية ص ٢١٤-٢١٦ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤٠-١٤١ ، قراعة : الأصول القضائية ص ٢٨١

والواقع أن الفرض الأمسي الذي شرع من أجله الحكم هو سد باب الخصومات ووقف المنازعات وحسم المشاحنات التي لا تنهى إلا بالإلزام ، وتمكين أهل الحقوق من حقوقهم ، كما أن الحكم لا يمكن التعرض لنقضه ويتبع على أي حاكم آخر إبطاله ما دام موافقاً للشرع ، لأن حكم الحاكم برفع الخلاف والقضاء بالوقوف قضاء على الناس كافة .

جميعط : الطريقة المرضية ص ٢١٦ — ٢٢٢ ، ٢٣٥ — ٢٣٦ . ابن قاضي سملوه : جامع الفصولين ج ١ ص ٢٧ ، ١٧٤ .

ومهما يكن من شيء فإن الأحكام التي كانت تصدر من المحكمة في العهد المملوكي بموجب ولايتها الإدارية Jugements rendus en matière de juridiction gracieuse وكانت تحوز قوة الشيء المحكوم فيه لأن هذه الأحكام كانت تصدر من المحكمة

في العصر الوسيط بموجب سلطتها القضائية أيضاً ، ولم يكن هناك فصل بين الولاية القضائية والإدارية للمحكمة آنذاك لأن هاتين السلطتين كانتا متداخلتين ولا يمكن التفرقة بينهما ، ومن ثم فحكم القاضي في المحكمة الملوكية كان حكماً قضائياً وإدارياً ملزماً وواجب التنفيذ في آن واحد .

والقول بأن الأحكام كانت نحوز حجة أو قوة الشيء المحكوم فيه *en force de chose jugée ou autorité de la chose jugée* معناه اعتبار الحكم قرينة قانونية قاطعة فيما قضى به لا تقبل الدليل العكسي ، ذلك أن المصلحة العامة تقتضي بأن تعتبر الأحكام عنواناً للحقيقة *Expression de la vérité* ، وقد عبر الرومان عن ذلك قديماً بقولهم : *Res judicata pro veritate habetur* .

ومعنى ذلك ألا يثار النزاع من جديد فيما فصل فيه نهائياً ، وأن يكون لهذه الأحكام حرماً واحتراماً ، وسلطانها بالنسبة للجميع ، وحجة على الغير حتى لا يكون هناك نزاع فستقر الحقوق وتضام ، ويستمر الحكم حازماً لقوة الشيء المحكوم فيه إلى ما لا نهاية .

نشأت : رسالة الإثبات بند ٥٢٣ ، محمود عبد الرحمن وسدراك لوقا : قوة الشيء المحكوم فيه ص ١ ، ٣٠ ، ١٩٨ ، بحثاً هذا ص ٣٢٦ — ٣٣٠ ، ٣٤٠ — ٣٤١ ، وكذلك تحقيق رقم ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ .

هذا وقد أصدر قاضي القضاة عبد البر بن الشحنة الحنفى حكمه بعد أن صلى بجماعة في المدرسة النورية بالقاهرة — ابن أبياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٥٨ — ٥٩ . بحثاً وثيقة الأمير اخور كبير قرايقا الحنفى (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ٢٣٨ رقم ٥٦٤ . ٥٦ — موجب الشيء ما أوجبه ذلك الشيء واقتضاه ، وهو عبارة عن الأثر المترتب على ذلك الشيء ، فاللوجب والمتقضى في الأصل واحد ، وهو من الأمور الإضافية ، والموجب في باب الحكم أعم من المتقضى وهو التحقيق والحكم بالصحة .

ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٣١٠ ، ٣٤١ ، البارقي : شرح العناية على الهداية — المرغباني : الهداية ج ٥ ص ٤٥٣ وما بعدها .

ومن ثم فالحكم بالموجب معناه أن الحكم صدر صحيحاً ويأق مقتضياته الشرعية التي لا تنفك عنه . عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤٢ — ١٤٥ .

ويقول جميعط إن الحكم بالموجب لم يوجد في كتب المالكية ، إنما تعرض له الثانية
أولاً ثم الحنفية وأول من نقله من المالكية ابن فرحون عن الشيخ البلقيني والسبكي وهما
من أئمة المذهب الشافعي - ابن فرحون : تبصرة الحكم ج ١ ص ٨١ - ٨٥ .

وعلى هذا فالحكم بالموجب عبارة عن قضاء القاضي بالالتزام بما يترتب على ذلك الأمر
على الوجه المتبر عنه في ذلك شرعاً ، ويستدعى ذلك شيطان :

(١) أهليه التصرف . (ب) صحة الصيغة ، فيحكم القاضي بموجبها .

هذا وقد شرط شيوخ وأئمة المذهب الحنفي لاعتبار الحكم بالموجب أن يكون قد وقع
التراض والتنازع عند الحكم — أى يشترط فيه تقديم الدعوى — إلا ما توسع فيه الدعوى
حسبة ومنه الوقف على الفقراء وأثبات الوقفية كما هو الوضع في حالتنا . جميعط : الطريقة
المروضية ص ٢٧١ — ٢٧٢ ، ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٥٠٦ ، ابن فرحون :
تبصرة الحكم ج ١ ص ٨٢ وما بعدها . أنظر كذلك التحقيق رقم ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨

٥٧ — الحكم بالصحة (صحة الوقف) عبارة عن قضاء القاضي (الحنفي) بصور
التصرف من أهله في محله على الوجه المتبر عنه شرعاً ، ومعنى صحة التصرف (الوقف)
كونه صر صحيحاً بحيث تترتب آثاره عليه ، ومعنى حكم القاضي بذلك إلزامه لكل فرد .

هذا والحكم بالصحة يستلزم ثلاثة أشياء هي :

(١) أهلية التصرف (ب) صحة الصيغة . (ج) كون التصرف في محله . فيصبح
الحكم قطعياً أو نهائياً ، ويقال في بيان ما يجمع فيه الحكم بالصحة والحكم بالموجب
ما نصه : « لا ينقض الحكم بواحد منهما »

وقد قبل إن القضاء المختلف فيه مثل الوقف — لأن معظم أحكام الوقف مختلف
فيها وللإجتهاد فيها نصيب كبير ، أحمد إبراهيم : كتاب الوقف ص ٤ — يحتاج في تنوذه
إلى إضفاء قاض آخر ومثال ذلك قول القاضي « ثبت عندي كذا » جميعط : نفس المرجع
ص ٢٧٧ ، ابن فرحون : تبصرة الحكم ج ١ ص ٨٥ ، ابن قاضي سملوه : جامع الفصولين
ج ١ ص ٣٣ . وكذلك أنظر تحقيق رقم ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٨

٥٨ — القضاء في اللغة معناه الالتزام ، قراءة : الأصول القضائية ص ٢٧٦ ، وقد سبق أن وضعنا أن الحكم بالموجب وبالصححة — تحقيق رقم ٥٥ ، ٥٦ ، ٥٧ — عبارة عن قضاء القاضي بالالتزام بما يترتب على ذلك الأمر على الوجه المعتبر شرعاً .

والمعروف أن الحكم هو إنشاء إلزام في مسائل الاجتهاد المتقاربة ، والمراد بالالتزام التقرير التام بعد أن ثبت عند القاضي على حد قول ابن عابدين في رد المختار ص ٣٠٩ — ٣١٠ .

فالإلزام نابع أو مرتبط بالحكم بل هو في الحقيقة جوهر الحكم ولبه والفرض منه ، وحكمة ذلك أن الخصام والتناق لا يندفع إلا بالزام .

جميع : نفس المرجع ص ٢١٤ ، ٢٣٦ ، ٢٧١ — ٢٧٢

والوقف عند الامام أبي حنيفة كالعارية جائز ولكنه غير لازم ، فبقى الملكية للواقف وله أن يرجع فيه فنياع ويوهب ويورث إلا في حالتين يكون فيها لازماً وهما : أن يحكم به حاكم أو يعلقه بموته .

ومن ثم يشترط في انشاء الوقف من وجهة نظر الفقه الحنفى بالذات أن يحصل ممن يملكه على يد حاكم شرعى أو مأذون من قبله .

الكسائي : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢١٨ ، المرغيناني : الهداية ج ٥ ص ٣٩ ، أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الخامسة عدد ٦) ص ٥٧٠-٥٧١ ، ٥٨٤ — ٥٨٦ ، (السنة الخامسة عدد ٧) ص ٧٤٣ ، الايباني : مباحث الوقف ص ٣ . ومعنى ذلك وجوب صدور حكم القاضي الحنفى بصحة الوقف أى انشاء الزام ، والقاضي يلزم بقوله ، لأن القاضي من شأنه الاناة والتثبت ومن تأتى وتثبت تبيأ له الصواب ، وعلى هذا يجيز الحكم بالالتزام ، والقضاء بالوقف قضاء والزام على الناس كافة فلا تسع الدعوى من أحد بعده .

ابن قاضي سباه : جامع النصولين ج ١ ص ١٧٤ ، عشوب : كتاب الوقف ص ٢٧٩ ، أحمد ابراهيم : كتاب الوقف ص ٤ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ٧١

ومن المعروف أن العقد أخذ معنى قوته الملزمة La force obligatoire عن القانون الروماني الذي كان يعبر عن الارتباط القانوني بما كان يسمى Vinculum Juris ،

وهذا الالتزام الذي أرادت التشريعات المختلفة ، بما فيها الشريعة الإسلامية الحكيمة ، أن يترتب للعقد إنما تقتضيه الضرورات الاجتماعية والظروف السياسية وخاصة تلك التي مرت بها مصر إبان العصر المملوكي ، وهذا بداؤه من أول مستلزمات الحياة الإنسانية المقررة في الجماعة أو الدولة الإسلامية وغيرها . حسين عامر : القوة الملزمة للعقد ص ٩ ، انظر كذلك النسخات الثلاثة السابقة .

٥٩ — ليس كل محرر يكتب بصرف *L'acte écrit—written deed* سواء أكان ذلك من جانين *acte juridique bilatéral* مثل البيع والإيجارة والاستبدال والرهن ، أو من جانب واحد *acte juridique unilatéral* مثل الهبة والوقف يسمى وثيقة شرعية أو دبلوماسية *acte diplomatique* .

أن هنالك صلة قوية بين علم الوثائق والقانون عامة ، وبين الوثائق العربية في العصور الوسطى والشريعة الإسلامية خاصة ، ومن ثم كان لا بد من توفر واستيفاء شروط الصحة الشرعية في الوثيقة الدبلوماسية بمعناها العلمي الذي اصطلح عليه الوثائقيون . ولكي تكون الوثيقة شرعية فلا بد أن نكتب بشكل ثانوي لا بدع مجال التزاع أو الخصام . قراة : مذكرة التوثيق الشرعية ص ٣ - ٤ ، بحثنا هذا ص ٢٢٣ - ٢٢٤

وهذا الشكل هو ما يعرف باسم الشكل الدبلوماسي للوثيقة *La forme diplomatique* وذلك بمرعاة الشروط الشرعية أو القانونية اللازمة التي نص عليها الفقهاء ، والقاضي ونوابه ومساعدوه من كتاب الحكم أو الموقنين أعلم الناس بالشروط الشرعية اللازم توفرها في كل عقد أو محرر ، وأدراهم بما يجب ذكره بوضوح في الصياغة القانونية لكل نوع من أنواع التصرفات القانونية المختلفة ، لأنه لا بد عند صدور الوقف أن يكون مستوفياً لكل الشروط الواجب توافرها فيه ، والتي يشترطها الفقهاء على اختلافهم وبيان أنكلهم ، وقد جرت عبارات الفقهاء بأن الوقف لا يعتبر انشائه قانونياً إلا إذا تم على يد حاكم شرعي (قاضي القضاء) أو مأذون من قبله (نائبه) ، والشريعة الإسلامية على مذهب الأحناف وإن كانت تعترف بجواز الوقف إلا أن لزومه وتقوذه لا يعتبر قائماً إلا إذا صدر بإشهاد على يد حاكم شرعي كما سبق أن أوضحنا . أبو زهرة : مشكلة الأوقاف (مجلة القانون والاقتصاد السنة الحاشية عدد ٧) ص ٧٢٢ - ٧٢٣ بحثنا هذا ص ٣٢٤ - ٣٢٥ ، ٣٢٢

وأهم الشروط الشرعية التي استوفتها الوثيقة في حالتها هذه هي : ذكر الفاعل القانوني المتصرف (الواقف) والتعريف به بذكر القابهِ الرسمية والفخرية ، والتعريف بالتصرف فيه من مبان وأراضٍ بمجدها وحدودها وحقوقها ، وقد روعي في ذلك كله إزالة الوم أو الغموض الذي قد يترتب عليه نزاع في المستقبل أو فساد التصرف وعدم شرعيته بأن احاط الكاتب لذلك باستخدامه لكافة العبارات الفقهية اللازمة .

وكذلك اشتملت الوثيقة المحررة على ذكر كل ما يفيد صحة التصرف الذي كتبت من أجله وخلوه مما يفسده ، ومن ذلك أن الواقف يملك التصرف فيه وله الحق في التصرف حيث أنه متمتع بكامل الأهلية ، صحيح البدن ، كامل العقل ، راغب في ذلك غير مكره ولا مجبر ، وكذلك اشتملت الوثيقة على التاريخ في ٢٠ صفر سنة ٩١١ هـ باليوم والشهر والسنة ، وأخيراً على شهادة الشهود العدول على صدور التصرف الذي كتبت الوثيقة به في نهاية البروتوكول الختامى مصحوباً بالتوقعات ، وذلك كله دفئاً للاشتباه أو الالتباس .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٥ — ٣١ ، مرحان : الوقف في نظامه الجديد ص ٥٠ — ٥٤ ، بحثاً هذا تحقيق رقم ٥٣ ، نص الشهادات الأربعة سطر ٣٩ ، ١٠٦ ، ١٦٩ ، ٢٣٧ .

٦٠ — يشترط في القاضي شروط متعددة أوردتها كتب الفقه المختلفة ، فالقاضي من جهة الإتيان هو شاهد ، ومن جهة الأمر والنهي هو مُفتٍ ، ومن جهة الحكم يصح العقود والتصرفات أو الإلزام بذلك هو ذو سلطان . وأقل ما يشترط فيه صفات الشاهد لأن أهلية القضاء تدور مع أهلية الشهادة باتفاق العلماء ، لأنه يجب عليه أن يحكم بالعدل وذلك يستلزم أن يكون هو عدلاً في نفسه ، فأبو حنيفة لا يعتبر إلا العدالة ، والثاني وطائفة من أصحاب أحمد يعتبرون معها الاجتهاد ، وأحمد يوجب تولية الأصلح فالأصلح من الموجودين ، وكل زمان بحسبه ، فيقدم الأدين العدل على الأعلم الفاجر لأنه أتق للسلين ، وبهذا مضت سنة سيدنا رسول الله (ص) فإنه كان يولى الأتق للسلين على من هو أفضل منه .

ابن قيم الجوزية : اعلام الموقعين عن رب العالمين ج ١ ص ١٠٥ — ١٠٦ (ط . بولاق ١٣٢٣ هـ) ، قراءة : الأصول القضائية ص ٢٨٠ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٦ — ١٧ ، ابن قاضي سماره : جامع الفصولين ج ١ ص ١٤ — ١٧

ومن المستقر عليه أنه لا تصح ولاية القضاء في الاسلام إلا لمن يتوفر فيه العقل والورع والبلوغ والحرية والعدالة والبصر والنطق والسع والذكورة (أن يكون رجلاً) والسلامة عن حد القذف، وأن يكون شديداً من غير عنف لنا من غير ضعف، ولما كان القضاء من أهم أمور المسلمين نتمن أن يكون القاضي موثقاً به في عفائه وعقله وصلاحه وورعه وفهه وزعلمه بالسنة والآثار (الحديث) ووجوه الفقه وأسرار الشريع، هذا والاجتهاد شرط الأولوية.

وقد ورد في أحد التقاليد الحُكْمِيَّة من عصر المماليك ما نصه :

« مرتبة الحكم لا تعطى إلا لأهلها ، والأفضية لا ينصب لها إلا من هو كفه لها ، ومن هو متصف بصفات الأمانة والصيانة ، والعفة والديانة »

وفي تقليد حُكْمِي آخر جاء ما يلي : « من حسنت سريره ، وحملت سيرته ، وعرف بورع وشهر بعفاف ، وديانة وخير وإنصاف ، وانضى نزه النفس عن الأمور الدنية ، قفياً درياً بالأحكام الشرعية ، عارفاً بالأوضاع المرعية » القلقشندي : صبح الاعشى ج ١٤ ص ٣٤٠ — ٣٤٥ .

هذا ويشترط في القاضي أن يكون عالماً بالخلاف لأنه لو لم يعلم لم يجز قضاؤه ، وهذا شرط نفاذ القضاء أى العلم بالخلاف فيما قصد الحكم به ، لأن حكم القاضي يرفع الخلاف ويجعل حكم تلك الجزئية الخاصة الصحة عند الجميع . جميعط : الطريقة المرضية ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ، بحثنا هذا تحقيق رقم ٧٤ ، الفتاوى العالمية ج ٣ ص ٢٠٦ — ٢١٤ ، ٢٢٧ — ٢٢٩ ، السرخسي : المبسوط ج ١٦ ص ٥٩ وما بعدها ، السيوطي : فتح القدير ج ٥ ص ٤٥٣ وما بعدها . الماوردي : الاحكام السلطانية ص ٥٣ وما بعدها ، الكاساني : بذائع الصنائع ج ٧ ص ٢ ، ٩ ، ١٠ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٢ — ١٤ ، ٦٨ ، ٧٥ ، ٧٧ . قراعه : الاصول القضائية ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

وإذا كانت هذه الشروط والصفات واجبة في القاضي شرعاً ، وقد نصت عليها التقاليد الحُكْمِيَّة العائدة في العهد المملوكي ، والتي أورد لنا القلقشندي نماذج منها في موسوعته الكبيرة ، إلا أن ابن أبياس يذكر لنا ما يناقض ذلك أحياناً إذ يقول إن القضاة كانوا يسعون بالمال من أجل الوصول إلى منصب القضاء ، ويقول أيضاً إن من النواذر الغريبة تولية أربعة قضاة دون أن يأخذ النوري منهم درهماً ؛ ويضيف إلى ذلك أن القضاة كانوا يشهدون أحياناً

شهادة هي عين الرياء وذلك من أجل التناصب . ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢ ،
٣٥١ ، ج ٥ ص ٣٢٤ .

والملاحظ أن هذه العبارة « علما بالخلاف في ذلك » قد وردت في الاسجال الحكمي
(الاشهاد الأول) دون بقية الاسجلات التنفيذية وهي الاشهادات الثلاثة الأخيرة وذلك
لأن الاشهاد الأول هو الذي صدر فيه الحكم بصحة الوقف ولزومه .

٦١ — يقصد الكاتب بذلك تاريخ الاشهاد نفسه ، وهو ١٢ ربيع أول سنة ٩١١ هـ
الوارد في السطر ٣٢ ، انظر التحقيق رقم ٥٢ ، وقد وردت هذه العبارة في الاشهادات
الثلاثة الأخيرة في سطر ١٠٧ — ١٠٨ ، ١٧٠ ، ٢٣٨ .

٦٢ — يقصد بذلك افتتاحية الاشهاد بالمجدلة أو التحيد ونصها « الحمد لله عليه
توكلت » سطر ٢ ، وقد جرى العرف على افتتاحية الاشهادات الواردة في ظهور جل وثائق
الوقف في العصر الوسيط — في محفوظات القاهرة — بعد البسلة بالمجدلة وخاصة وثائق
عصر المماليك الجراكمة . انظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٢ ، وقد وردت هذه العبارة أيضا
في الاسجلات التنفيذية الثلاثة .

٦٣ — هذا هو الدعاء الختامي في نهاية صيغة الاسجال الحكمي . وقد اختلفت صيغ
الدعاء الختامي في الاسجلات الأربعة وإن اتفقت جميعاً في ذكر الحسيلة ، وغالباً ما ترقى
التصليّة على النبي محمد وآله وصحبه قبل الحسيلة أو بعدها .

والأصل في كتابة الحسيلة أن من قال حسبنا الله ونعم الوكيل لم ينبغي في قصده
وقد اصطلح الكتاب على أن يكتبوا الحسيلة بلفظ الجمع « حسبنا » على اعتبار أن الحكم
يتكلم بلسانه ولسان غيره من الأمة لا أن الجمع للتكليم لأنه ليس بلاق بالمقام . التفتيش
صبح الأعشى ج ٦ ص ٢٦٩ - ٢٧٠ .

وقد ترد التصليّة مع الحسيلة في آخر الكتاب تبركاً ، وقد ترد الصلاة بصيغة المفرد
أو بصيغة الجمع فيقال « وصلواته » وهي صيغة مستحسنة ، وقد يرد فيها كذلك ذكر
آله وصحبه كما هو الحال في الاشهادات الثلاثة الأولى .

وهناك أمر يجب ملاحظته وهو أن بعض الكتاب قد يكتب مع الحسيلة « ولوا
ولا معنى للواو هنا — انظر سطر ٢٤٠ شكل ٢٣ — إذ لا علاقة بين الحسيلة وما قبلها

حتى يعطف عليه والواجب حذفها ، وأما موضعها فقد اصطلاحوا على أن يكتبوها سطراً واحداً : وإن كانت هذه القاعدة غير معصقة في كل الشهادات التي بين أيدينا ، فقد كانت المسئلة والتعليق إذا وردت معها تكتب في نهاية أو ختام الاسجال الحكمي والتفنيى بخط القاضي بحروف كبيرة ، وقد تحتل سطراً واحداً أو سطرين . القلقشندي : نفس المصنر ج ٦ ص ٢٦٧ — ٢٦٩ ، ج ١٤ ص ٢٤٢ — ٢٤٩ ، بحثنا هذا ص ٣٠٦ — ٣٠٧ .

٦٤ -- تبدأ الشهادة عقب المسئلة بصيغة موضوعة « أشهدنى على نفسه الكريمة » أما باقى الشهادات التالية تبدأ هكذا « وبذلك أشهدنى . . . » .

ولا حاجة بنا إلى القول بأن الصيغة الموضوعية في هذه الشهادات جميعاً لا تقل على أن الشاهد جاهل بالكتابة ، ذلك أن الصيغة الموضوعية في الشهادة على الشهادات في العصر المملوكى كانت أكثر انتشاراً من الصيغة الذاتية ، وذلك لأن المقصود بها هنا ، أن القاضى صاحب الاثهاد الاول قد طلب الشهادة ضيقاً من الشهود على صدور الحكم منه بصحة الوقف ولزومه ، وفي الاثهاد الثانى على تنفيذ الحكم ، وفي الثالث والرابع على تنفيذ التنفيذ .

ولكن رغم أن هذه الشهادات جميعاً تبدأ عادة بالصيغة الموضوعية إلا أنها تنتهى غالباً بالصيغة الذاتية « . . . فشهدت عليه به في تاريخه وكتب » ثم توقيع الشاهد . انظر صيغ الشهادات في الاثهادات الأربعة التي تنشرها في هذا البحث وكذلك وثائق قايى أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٨ محكمه بدون رقم ، بحثنا وثيقة الأمير أخوركير قراقبا الحسى (مجلة كلية الآداب م ١٨ ج ٢) ص ١٩٧ — ١٩٨ ، لوحة ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٠ ، وثيقة أزيك من ططخ محكمه ١٩٨ ، وثيقة سليل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ ، وثيقة جوهر المعنى محكمه ٢٠٢ ، ٢٢٨ — وثائق جوهر اللالا أوقاف ١٠٢١ ، محكمه ٨٥ ، ٨٦ — وثيقة المؤيد شيخ أوقاف ٩٣٨ ، وثيقة فاني باى الرماح أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة السبى ميرس الجباط محكمه ٣١٣ ، وثيقة السبى تفرى بردى محكمه ٩٨ .

واللفظ الأخير في صيغة الشهادة يدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده بدون قام نفسه بكتابة عبارة الشهادة بألفاظها التي أداها بها في مجلس الحكم ، وهذا يقطع في الدلالة

على أنه ليس جاهلا بالكتابة . فكان الشاهد يقول : وبذلك شهدت وكنت في الخارج
الوارد في الاشهاد الحكيم أو التنفيذي الذي شهد فيه . القنشدى : صبح الأعشى ج ٦
ص ٢٦٤ ، ابن عابدين : رد المختار ج ٤ ص ٣٦٥ ، احمد ابراهيم : طرق الاثبات
ص ٢٧٥ ، وكذلك انظر ما ورد في بحثنا هذا بالتفصيل عن الشهادة ص ٣٠٧ — ٣١٠

٦٥ — هو الشيخ الامام العلامة شرف الدين موسى بن عبد الغفار السديني الاصل
القاهري الأزهرى ، ولد في سنة ٨٤٦ هـ قريبا ، وحفظ القرآن وتفقّه وجود الخط ونحو
في الكتابة والتجويد والتذهيب وغير ذلك ، وحج مراراً وأولها سنة ٨٧٠ هـ وناب في القضاء
المالكي عن قاضي القضاة حسام الدين بن حريز ، أى أنه صار خليفة الحكم العزيز في القاهرة
على حد قول وثائق العصر المملوكي .

وهو أحد كتاب مستندات السلطان النورى ، وقد وقع باسمه كشاهد على اشهادات
القضاة الأربعة التي تنشرها في بحثنا هذا — انظر ص ١٥ — وإن كنا لا نعرف الصفة
التي كان عليها في ذلك الوقت (ربيع أول سنة ٩١١ هـ) ، هل كان نائباً في القضاء المالكي
أم كان شاهداً عدلاً من جملة شهود وكتاب مجلس القضاء ؟

ومها يمكن من أمر ، قد كان رحمه الله عدلاً مقبول الشهادة حتى وفاته في يوم
الجمعة ٢٥ رجب سنة ٩١٢ هـ .

البحارى : الضوء اللامع ج ١٠ ص ١٨٣ رقم ٧٧٦ ، الفزى : الكواكب السائرة
ج ١ ص ٣٠٩ — ٣١٠ ، ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٨ ص ٥٩ .

وهناك عدة وثائق من عصر المماليك الجراكسة شهد فيها ووجدنا توقيعها عليها ومنها
وثيقة قلى باى الرماح أمير أخور كبير أوقاف ١٠١٩ ، وثيقة السيفي طقطباى أوقاف
١٠٢٠ ، وثيقة الزينى عبد اللطيف من انسابى محكمة ٢٢٢ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف
٨٨٤ ، وثيقة أبو العباس احمد بن الفرقور الشافعى محكمة ٢٢٧

٦٦ — هو الشيخ عبد الكريم بن على الجولى الشافعى عين الاناضل المعتمد لعادته
ويظهر أنه قد وصل إلى نيابة القضاء الشافعى في مصر ، وكان من السادة العدول بالديار
المصرية ، توفى إلى رحمة الله وهو عدل ثقة ، واستمر على عادته وقبول شهادته إلى حين
وفاته ، وهو من كتاب مستندات السلطان النورى أيضا .

وثيقة السيفى طقطباى أوقاف ١٠٢٠ ، وثيقة السيفى فرماس أوقاف ٩٠١ ص ٩٢ ،
وثيقة طومان باى أوقاف ٨٨٢ ص ٥٩١

وقد خرج مع الأشرف النورى من القاهرة إلى حلب عند توجهه لمقابلة السلطان سليم
العثمانى ، وفى الريدانية حدث انشهاد تنفيذى بإيصال وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤
وثيقة المقاييس أوقاف ٨٨٢ ص ٥١٤ وشهد على ذلك فى ١٧ ، ١٨ ربيع ثانى سنة ٩٢٢ هـ ،
وكان قد شهد قبل ذلك فى ٨ ربيع أول سنة ٩٢٢ هـ على وقف مصحف للسلطان النورى -
دار الكتب رقم ٧٣

وقد وقع كريم الدين الجولى فى الأسر بعد هزيمة النورى فى مرج دابق واكتساح
العثمانيون للشام ومصر ، وأقام فترة فى استنبول ، ثم حضر إلى الاسكندرية فى شوال
سنة ٩٢٦ هـ تحت الحراسة العثمانية المشددة ، وبقي فى القاهرة ولم يعد إلى استنبول وظل
مختفيا حتى ظهر فى ٢٨ جماد أول سنة ٩٢٧ هـ ، وقد أمره الأمير خير بك من مال باى
بالسفر صحبة الأمير جاتم الخزاوى إلى استنبول ، ولكنه لم يلبث أن عاد إلى مصر ثانية
الأمير جاتم بعد أن أوج السلطان سليمان الأول (القانونى) عن الأسرى المصريين .

ابن اياس : بدائع الزهور - ٥ ص ٢٤٩ ، ٢٨٦ - ٢٨٧ ، ٢٩٠ ، ٢٣٠

وقد وقع كشاهد على اسجلات القضاة الأربعة هنا كما وجدنا توقيعه على عدد كبير
من وثائق عصر الفيرى منها وثيقة خير بك محكمة ٢٥٦ ، وثيقة تفرى برمش محكمة
٢٦١ ، وثيقة الزينى عبد اللطيف محكمة ٢٢٢ ، وثيقة السيفى ازرمك محكمة ٢٨٨ ،
وثيقة العادل طومان باى دار الكتب ٢١٠٠ تاريخ ، وثيقة أبو العباس أحمد بن الترفور
الشافى محكمة ٢٢٧ .

٦٧ - هذه هى تأشيرة أحد القضاة الذين قاموا بتوثيق الوقفية بالاشهاد عليها ، عقب
توقيع الشاهد عبد الكريم بن على الجولى الشافى ، والراجح أنها بخط قاضى القضاة الحلبى .
ويظهر أن القاضى الحنفى قد كتب بخط يده مثل هذه التأشيرة أسفل توقيع كل من
شاهدى التصرف فى وجه الوثيقة (أنظر شكل ٥) وكذلك وثيقة عبد الرحمن المغربى
محكمة ٢٤٦ ، وثيقة ابن الترفور محكمة ٢٢٧ ، وثيقة السيفى طراباى محكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨
بعد أن ثبت لديه البيئة الشرعية على صحة التصرف وسلامته بشهادتهما أمامه وبلى أن
يصدر حكمه بصحة الوقف ولزومه .

وكذلك فعل كل قاض من قضاء القضاة الثلاثة الآخرين عقب توقيع بعض الشهود العدول في الاسجل السابق على اسجاله باعتبارهم شهود اثبات لديه ، و الدليل على ذلك عدم وجود مثل هذه التأشيرات أسفل توقعات بعض الشهود في الاسجل الرابع والآخر ، وهذه الحقيقة تشبه ما سبق ذكره عن عبارات التسجيل الواردة بالمأش الإيمن في بداية وجه الوثيقة وعند بداية الشهادات الثلاثة الأولى فقط في ظاهرها .

أنظر بحثنا هذا ص ٢٠٦ ، تحقيق رقم ٢ .

وهذه العبارة قد تكون بخط الكاتب بمجلس الحكم أو الموثق *Registrateur* نيابة عن القاضي نفسه باعتباره الفاعل الوثيقي الأصلي ، وهذه العبارة وأمثالها ترد أحيانا بعد توقعات بعض الشهود بصيغ تختلف بين الإيجاز والأطناب . أنظر سطر ٥٦ - ٥٧ لوحة ٤ شكل ١١ ، ٢٤ - سطر ٦٥ ، ٧٣ ، ١١٧ شكل ٦ - سطر ١٢٦ - ١٢٧ شكل ١٢ - سطر ١٣٨ لوحة ٧ شكل ١٣ - سطر ١٤١ ، ١٨٠ ، ١٨٧ . كما أن هذه العبارة تدل على أن الشهود متنبهون للشهادة انصافا عاما متنبهون بالمعالة ، ولا يكتب الموثق - القاضي غالبا أو الكاتب - ذلك أسفل التوقيع إلا إذا كان قاصدا الإعلام بصحة التوقيع وسلامته من الريب من جميع النواحي ، أو في حالة ما إذا قصد الاحتجاج في محكمة أخرى أو ربما أمام مذهب آخر . جعيط : الطريقة المرضية ص ٢٣١ ، ابن قاضي سماوة : جامع الفصولين ص ٢٦٦

والصديق على توقعات الشهود في العصر المملوكي أمر ملحوظ في جل الوثائق التي قد برأسها أو الإطلاع عليها في أرشيف القاهرة ، ويظهر أن التأشير بالصديق على الاسم *Légalisation de signature ou contre signer* كانت من الأمور التي اهتم الموثقون باتباعها عند الشهادة على العقود أو المحررات الرسمية المختلفة في محاكم ذلك العصر ويشترط في الصديق على التوقيع أن يحصل أمام موظف خصص بذلك (الموثق) وأن يكون الشخص المراد الصديق على توقيمه (الشاهد) معروفا للموثق بشخصه أو بشاهدين (مُعَدِّل) ، كما يجب على الموثق أن يتحقق من أهلية الموقع . مرسى : شرح القانون المدني الجديد - شهر الصفقات المقارنة ص ٥٥ - أنظر بحثنا هذا ص ٣١٧ - ٣١٨ وكذلك التحقيق رقم ٥١

والموتون في عصر الماليك هم القضاة أنفسهم غالباً أو الكتاب العدول المتازون من العلماء القضاة الذين توفرت لهم الخبرة النامة بأمر التوثيق والدراية بالمسائل الشرعية والقضائية، وكان عليهم عند ما تقدم إليهم العقود أو المحررات أن يقوموا بمراجعة نصوصها وتواريخها للتأكد من سلامتها وصحتها، ومطابقتها للشروط الشرعية الواجب توافرها في كل عقد أو تصرف حسب نوعه، ثم يقومون بعد ذلك بمساعدة القاضي أو نائبه في مجلس الحكم بالاشهاد عليها.

مرسى : نفس المرجع السابق ص ١١٥ ، فرج السهروري : مجموعة القوانين المصرية المختارة من الفقه الاسلامي > ٢ - في الوقف ١ - ص ٧٥ وكذلك انظر المراجع التالية :

Amiand : *Traité-Formulaire, général Alphabetique et Raisonné du Notariat*, Paris 1935.

Charrier : *Le notariat Français* p. 22, 23.

Enc. Brit.art. *Notary*.

والواقع أن الموتين في العصر المملوكي لم يكونوا سوى القضاة وكتاب الحكم في مجلس القضاة الذين يستعين بهم القضاة أو نوابهم في عملهم القضائي، كما كانوا يقومون ببعض أعماله. الولاية أو الادارية بالنيابة عنهم باعتبارهم موظفون عموميون ومساعدون للقضاة . *Juges suppléants*

ويظهر أنه كان لكل قاض من القضاة الأربعة مجموعة خاصة من الكتاب من بين الشهود العدول في مجلس حكمه، وقد يكون بعضهم من أسرته أنظر سطر ١٨٢ ، ١٩٧ وكذلك الصحيفات رقم ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ - و يقومون بمساعدته في أثناء التوثيق أو الاشهاد ثم القيام بناء على أمره بعملية التسجيل ، لان القاضي يحتاج إلى محافظة الدعاوى والبيانات والافقرات ، وهذه لا يمكن حفظها فلا بد من الكتابة ، وهو قد يشق عليه أن يكتب جميع ذلك بنفسه في مجلس قضائه ، ومن ثم كان لا بد من كاتب أو أكثر يستعين به ، وينبغي أن يكون الكاتب الذي يساعد في عملية التوثيق والقيام بالتسجيل عفيفاً صالحاً من أهل الشهادة — أى يشترط فيه ما يشترط في العدول ، وأن تكون له معرفة بالفقه وأحكام الكتابة ، وأن يكون الكاتب عالماً بالمخاض والسجلات ، منطبقاً بعلم الدعاوى والقضاء ، قياً على حفظ

الشروط والعهود عارفاً بكتابة القيود ، وأمره أن يسلم ما يخص أعماله من ديوان القضاء على ما ثبت فيه من الوثائق والسجلات .

ابن قاضي سناوه : جامع الفصولين ج ٢ ص ٣٢٦

ومتى حضر الكاتب في المجلس ينبغي أن يقعد بحيث يرى القاضي ما يكتبه وما يصنعه فإن ذلك أقرب إلى الاحتياط ، خوفاً من أن يتخدع بالرشوة فيزيد أو ينقص في ألفاظ الشهادة أو غيرها ، هذا ولم يكن للقضاة قنطرة فيما مضى إنما كان كاتب القاضي يحضر معه الكتب في منديل ، وأول من جعل له القنطرة بمصر محمد بن مروق القاضي (١٧٧ - ١٨٤ هـ) فكان يجنمها تنودع فإذا جلس حضرت : الكنتى : الولاية والقضاة ص ٣٩١ - ٣٩٢ ، عرنوس : تاريخ القضاة ص ١٣٧ ، قراءة : الأصول القضائية ص ٢٢٥ ، وكذلك

أنظر تحقيق رقم ٥١

٦٨ — هو الكاتب المجيد الشيخ أبو الفضل بن عبد الوهاب بن عبد اللطيف بن عبد المنعم السباطي القاهري الشافعي ويعرف بالأعرج ويسمى محمداً ، قرأ القرآن ووجد المأثور ورع فيه وتكسب مع الصلح للكتيب ، وناب في الاشرفية وغيرها في ذلك ، ومن المعروف أن وظيفة الكتيب قد وجدت في بعض المدارس والحاوئق المملوكية أصحابها يعلمون الخط المنسوب للطلبة والصوفية على السواء . وثيقة المصقوى جوهر اللؤلؤ أوقاف ١٠٢١ ، وثيقة برسبای دار الكتب ٣٣٩٠ تاريخ ص ١٢٠ وجه وثيقة القيود أوقاف ٨٨٣ سطر ١٥٤٥

وقد جلس أبو الفضل بعد وفاة أبيه في دكانه بالشرب قليلاً ثم تركها ، وهو بلا علم أستاذ الكتاب ورأسهم ومرجعهم في الرجب الأول من القرن ١٠ هـ / ١٦ م ، قد عرفت من المصاحف المعتدلة رسماً وكتابة وتحريراً ، ومن تحف الادبيات والفنائن ، ومن آلاجات الكتابة شيئاً كثيراً غالباً من كسبه في الكتب وكتابة يده .

السخاوي : الضوء اللامع ج ١١ ص ١٢٩ رقم ٤١٦ ، الغزوي : الكواكب النيرة ج ١ ص ٨٨ . وقد توفي إلى رحمة الله ليلة الاثنين ٢٨ ذى القعدة سنة ٩٢٥ هـ كما يذكر ابن ابيس : بدائع الزهور ج ٥ ص ٣١٤ . وهو الذي نسخ كتاب السلوك لمحمد دول الملوك سنة ٨٨٠ هـ للسفي بن بك من مهدي الدوادار الكبير . المقرئ : السلي

ج ٢ ص ٧١ حاشية ٣ . كما عثرت على مصحف بخط يده في متحف الفن الاسلامي بالتاهرة تحت رقم ٥٦٧٦ وعليه النص التالي : « مرقوم بخط التقير إلى الله تعالى أبي الفضل محمد الاعرج بن عبد الوهاب السباطي في سنة احدى عشرة وتسماية وذهبة انتقير محمد بن ظهير الحطيب » وهذا المصنف معار الآن لمتحف الحضارة بالجزيرة .

وفد وقع تحت يدي في أثناء دراساتي لمجموعات الوثائق المحفوظة في أرشيف التاهرة بوزارة الاوقاف ومحكمة الاحوال الشخصية عدة وثائق بخطه منها وثيقة الذورى أوقاف ٨٨٣ ، وثيقة المصونة جان سوار محكمة ٢٥٥ ، وثيقة الشيخ عبد الرحمن المغربي محكمة ٢٤٦ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٤ ، وثيقة السيفي أزمرد من على باي محكمة ٢٤٠ ، ٢٤١ ، وثيقة السيفي طراباى محكمة ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٥ ، وثيقة أم الحسن بنت البلقيني محكمة ٢٧٣ ، وثيقة السيفي برقوق الناصرى محكمة ١٦٩ وثيقة أبو العباس أحمد بن النفور الشافعى محكمة ٢٢٧ وغيرها . وعلى الماش الإيمن لهذه الوثائق عند مناطق التصاق اللروج نجد العلامة التي اتخذها شعاراً لنفسه وهي « اعتصمت بالله سبحانه » .

والحق أن أبا الفضل محمد الاعرج السباطي كان من كتب الوثائق الجيدين في أواخر القرن ١٥ / هـ و ١٥ / م وأوائل القرن ١٠ هـ / ١٦ م ، ويظهر أنه كان قتيماً علماً يشروط صحة كتابة العقود والمحرمات المختلفة على الوجه الأكمل ، قد قام بكتابة وثائق ونف السلطان الفورى وغيرها من الوثائق السابق ذكرها ، كاملة الأركان ، مصنفة شروط الصحة الشرعية التي نص عليها الفقهاء . قراة : مذكرة التوثيقات ص ٢ — ٤ ، ١٥ — ٢١ ، وكما قام بكتابة وجه الوثيقة فقد قام بالشهادة عليها عند التوثيق أمام قضاة القضاة الأربعة ، هذا ولا يمنع من قبول شهادة المدلول كتابة الوثيقة ، فتقبل شهادة الكاتب حيث كان عدلاً . الفتاوى المهدية ج ٣ ص ٣٢٢ .

ويلاحظ أنه وقع كشاهد عقب شهادته في الاسجلات الأربعة باسمه الذي اشتهر به ، كما أنه لم يكتب المنصب الذي ينشئ إليه كغيره من الشهود أحياناً . بحثنا هذا ص ٣١٢ .

٦٩ — لم أتمكن من قراءة بقية توقيع الشاهد ، فهو مكتوب بطريقة معقدة جداً . في الأصل رقم ٨٨٣ ، وطريقة توقيع الشاهد تشبه لحد كبير الطريقة التي اتبعها كثير من الشهود عند التوقيع على جل وثائق العصر العثماني في كل من اتمن ١٦ ، ١٧ ، ١٨ م .

هذا ولم يتمكن الشيخ محمد ائدى بن محى الدين ائدى بن الياس الشير بجوى زاد
القاضى العثمانى الذى تولى القضاء فى مصر سنة ٩٨٧ هـ من قراءة هذا التوقيع كذلك ،
فترك مكانه يابسا فى الصورة رقم ٨٨٢ التى نسخت من الاصل رقم ٨٨٣ بعد كتابته
بحوالى ست وسبعين سنة ولم يكن لون الجبر قد اضمح أو كاد كما هو الحال اليوم .
أنظر لوحة رقم ٤ .

٧٠ - الشهاب شعله نار ساطعة ، وكان لفظ شهاب يدخل فى تكوين بعض الألقاب
المركبة مثل شهاب الدين ، وكان هذا اللقب يطلق فى الزمن الأول من عصر المماليك
على بعض القضاة والعلماء خصوصا من كان يسمى منهم بأحمد ، ويظهر أن استعماله قد استمر
حتى نهاية عصر المماليك ، ويعرف هذا النوع من الألقاب المضافة إلى الدين فى مصطلح
القلشنلى « بلقب التعريف الخاص » .

والشهابى هى الصيغة المنسوبة لهذا اللقب بحذف لفظ الدين وإضافة « ياء النسبة »
إلى اللفظ الأول . حسن الباشا ص ١٠٤ ، ١٤١ وما بعدها وكذلك ص ١٥٢ ، ٣٦١ .

٧١ - العملة فى اللغة ما يعتمد عليه ، وقد أضيف إلى لفظ « عملة » بعض كلمات
لتكوين ألقاب مركبة مثل عملة الأحكام ، عملة الأمام ، عملة الأنام ، عملة الملوك ،
عملة الملوك والسلاطين ، عملة المحققين سطر ٨٠ ، عملة الحساب والفرضيين سطر ٢٠٨ -
والقبان الأخيران بالذات لم يردا فى حسن الباشا ص ٤٠٨ - ٤٠٩ ولا فى القلقشنلى :
صبح الأعشى ص ٦٠ - ٦١ . وعلى هذا فالوثيقة تقدم لنا هذين اللقبين وغيرهما
من الألقاب الفخرية التى لم ترد فى مصطلح القلقشنلى ولا غيره ، وهى بذلك تسم فى تعريفنا
بعدد من الألقاب الجديدة فى أواخر عهد المماليك فى مصر والشام .

والمقصود بعملة المحققين أن صاحب اللقب وهو قاضى القضاء أبو حامد أحمد الشيشينى
الحنبل يعتمد عليه فى قصص حقيقة ما يمرض عليه من قضايا للفصل فيها . أنظر تحقيق
رقم ١٧ .

٧٢ - هو الشيخ شهاب الدين أحمد بن على بن أحمد الشيشينى المصرى الحنبل ،
ولد فى سنة ٨٤٤ هـ ، وكان حجة فى مذهبه من أهل الفضل والعلم ، تولى قضاء الحنابلة بمكة
فى شوال سنة ٨٩٩ هـ زمن السلطان قايتباى ، وفى عهده أجه الناصر محمد تولى منصب قاضى
قضاء الحنابلة فى مصر فى ربيع آخر سنة ٩٠٣ هـ ، وقد حضر المجلس الذى بايع فيه الخليفة

العباسي المستمسك بآلته يعقوب الظاهر أبو سعيد فأنصوه بالسلطنة في ربيع أول سنة ٩٠٤ هـ ،
وقد صرفه السلطان أبو سعيد فأنصوه مدة قصيرة عن منصبه ثم أعاد إليه بعد شبر وأربعة
أيام ، وقد شهد ابن الشيشي الحنبلي حكم سنة من سلاطين المماليك الجراكسة في أسوأ فترة
من حياة الدولة المملوكية الثانية ، واسمهم في عزل وتولية بعض سلاطينهم فقد اشترك في خلع
الظاهر فأنصوه وتولية الأنشرف جانبلاط في ذى الحجة سنة ٩٠٥ هـ ، وكذلك وافق على
خلعه وتولية العادل طومان باي في جمادى الآخرة سنة ٩٠٦ هـ ، وفي يوم الاثنين أول شوال
من السنة نفسها كتب صورة محضر خلع العادل طومان باي وعقد البيعة للأنشرف الغوري .

وقد حضر قاضي القضاة الحنبلي افتتاح المدرسة الغورية في مستهل ربيع آخر سنة ٩٠٩ هـ ،
وتوفي يوم الأربعاء ٧ صفر سنة ٩١٩ هـ وكان قد شاخ وكبر سنه وناف على البعير ،
وقد مات مطعوناً — أى بالطاعون — وصلى عليه في الجامع الأزهر ، وكانت له جنازة
حافلة ، وتولى من بعده قضاء الحنابلة ولده عز الدين محمد في يوم السبت أول ربيع أول
سنة ٩١٩ هـ بعد أن دفع للغوري في هذه الوظيفة ألف دينار ، وكان شاباً حسن السيرة
'الاباس به على حد قول ابن ابليس المؤرخ المعاصر .

ابن ابليس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٩٧ ، ٣٥٣ — ٣٥٤ ، ٣٧٤ ، ٣٩٥ ، ٤٠١ ،
٤٣٠ ، ٤٥٦ ، ج ٤ ص ٤ ، ٥٨ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ج ٥ ص ٩٠

الغزى : الكواكب السائرة ج ١ ص ١٥١ ، ابن العباد الحنبلي : شذرات الذهب

ج ٨ ص ٩١

٧٣ — المعروف أنه لا يجوز للقاضي أن يقضى بشهادة أو إقرار صدرا عن قاض آخر ،
بل لا بد أن تعاد الشهادة والإقرار أمامه ، ويقضى بما ثبت عنده هو لا بما ثبت عند غيره .
قراءة : الأصول القضائية ص ٣١٧ — ٣١٨

والواقع أن هذا هو الذى حدث فعلا في الشهادات الثلاثة الأخيرة وهي الاسجلات
التفيذية في أيام مختلفة أمام كل من قاضي القضاة الحنبلي والمماليكى والشافعى على التوالى .
قد ورد في اسجال كل منهم :

..... ثبت عنده بشهادة من اعلم له أنظر نص الشهادات

سطر ٨٧ — ٨٨ ، ١٥٤ — ١٥٥ ، ٢١٩ — ٢٢١

ومعنى هذا أنه قد حدث الثبوت الشرعى عند كل قاض منهم بشهادة من أعلم أرأهى إليه من الشهود العدول ، لا بما ثبت عند القاضى الأول الحنفى . ويظهر أن الذين تحملوا مهمة الاعلام أو الانتهاء بالشهادة هم كل من الشهود العدول موسى بن عبد النظار المالكى وعبد الكريم ابن على الجولى الشافعى وأبو الفضل محمد الأعرج ، وربما اشترك معهم فى ذلك أيضاً سعد ابن إبراهيم الطيبى ، لأننا وجدنا شهادة وتوقيع كل منهم فى الاسجلات الاربعة دون غيرهم — أنظر بحثنا هذا ص ٣١٢ ، الجدول رقم ٢

٧٤ — نفذ الأمر قضاء ، والنفاذ الماضى فى جميع أموره — قاموس المحيط مادة « النفاذ » والتفويض هنا معناه الالتزام بالحبس وهو غير الثبوت والحكم ، إذ بآنى ثبوت الشيء أولاً ثم الحكم به ثانياً ثم تنفيذه ثالثاً . أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٥٨ ، على بلوى : تطور المباحى القانونية عند العرب (مجلة القانون والاقتصاد السنة الأولى عدد ٣) ص ٣٥٠ ، صوفى حسن : مبادئ تاريخ القانون ص ٢٥٨

والمعروف أن القوة التنفيذية فى عصر الممالك كانت بيد الحاكم (القاضى) عكس ما هو حادث اليوم من فصل القوة الحكيمية عن القوة التنفيذية ، وقد حدث ذلك عندما بدأ انفصال السلطة التنفيذية عن السلطة القضائية وأضحى التنفيذ بواسطة السلطة الادارية طبقاً لاحكام لوائح الحاكم الشرعية .

جعيط : الطريقة الرضوية ص ٢٤٤ ، عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٥٠ ، ٢٠٣ — ٢٠٦ .

هذا وتنفيذ القاضى حكم القاضى السابق والالزام به أمر واجب ، وإلا فإن توقيفه عن اتقاذه كابطاله ، وهو ممنوع من قض الاحكام المجتهد فيها ، فالقاضى الحنفى إذا حكم بصحة الوقف فإن القاضى الحنبلى أو المالكى يحكم بطل ما حكم به القاضى الحنفى من الصحة ، وبطل حكمه بأن حكم الحاكم (القاضى) برفع الخلاف ويجعل حكم تلك الجزئية الخاصة بالصحة عند الجميع . جعيط : نفس المرجع ص ٢٢٤ — ٢٢٥ .

ومن المستقر عليه كذلك أنه إذا رفع إلى القاضى حكم قاض آخر حتى ولو كان مخالفاً له فى المذهب ، نفذ وأمسأه بشروطه المذكورة فى كتب الفقه ، وازم المحكوم عليه بما قضته . الحكم الأول ، لأن الحكم واحد وهو الحكم الأول إلا ما خالف كتاب الله أو سنة رسوله . أو إجماعاً ، وهذا هو التنفيذ الشرعى فى الأصل . عرنوس : نفس المرجع ص ١٤٥ — ١٥٠ .

والمعروف أن التنفيذ الشرعى الأصل فيه أن يكون حكماً ، إذ أن من صيغ القضاء قوله : « انفذت عليك القضاء » ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٣١٠ .

والفرض من التنفيذ هو إجراء مقتضى العقد الرسمى ، ولا بد أن يكون السند (وثيقة الوقف) واجب التنفيذ بمعنى أن يكون مراعيًا في تحريره الضوابط المقررة شرعاً بواسطة كاتب مختص بتحرير العقود أو الوثائق على اختلاف أنواعها ، ذلك أنه لا بد أن تكون هناك ثمرة من القيام بالعمل القانونى وتحرير الوثيقة وما حوته من تصرف والتزامات وشروط ، وهذه الثمرة إنما هى الحكم ، وثمره الحكم التنفيذ ، فهو إذن غاية الغايات ، ويترتب على التنفيذ تمام الفعل القانونى ولزومه وانبرامه .

والمعروف كذلك أن السلطين القضائية والتنفيذية كانتا متداخلتين في بعضها في العصر الوسيط ومن ثم كان حكم القاضى نافذاً من الناحية القضائية والإدارية في آن وأحد .
قصة : التنفيذ علماً وعلا ص ١ - ٢ ، ١٨ ، بحثنا هذا ص ٣٢٦ - ٣٢٨ .

والتنفيذ في الاشهاد الثانى هو تنفيذ حكم القاضى السابق (سطر ٣٦ - ٣٧) ، أى أن القاضى الحبل (الثانى) نفذ حكم القاضى الحلقى (الأول) تنفيذاً صحيحاً شرعياً تاماً (سطر ١٠٠ - ١٠٥) بعد أن ثبت عنده ذلك بشهادة الشهود المزمكين القابلين للشهادة ، وذلك بعد أن أعلموا له أو انهموا إليه (الانتهاء بالشهادة) بما نسب إلى القاضى الحلقى (الأول) في إشهاد أو إسجاله الحكمى من الثبوت والحكم بصحة الوقف ولزومه وانبرامه ونفوقه (سطر ٨٧ - ٩٠ ، ٩٨ - ٩٩) جعيط : نفس المرجع ص ٢٢٨ .

والتنفيذ هنا معناه شهادة شهود مجلس الحكم عند قاض آخر (الحبل) بما نسب إلى القاضى الأول (الحلقى) الحاكم في اسجاله الحكمى ، وهذا يسمى في الحقيقة إثباتاً إذ ليس في التنفيذ حكم البتة ، أى إحاطة القاضى الحبل (الثانى) علماً بحكم القاضى الحلقى (الأول) بصحة الوقف ولزومه على وجه التسليم له وأنه غير معترض عنده ، ويسى هذا اتصالاً ، ويجوز بذكر الثبوت والتنفيذ فيه . عرنوس : تاريخ القضاء ص ١٤٧

أما التنفيذ في الاشهاد الثالث والرابع ، فهو تنفيذ للتنفيذ السابق عليه ، فالقاضى المالكى نفذ تنفيذ القاضى الحبل (سطر ١٦٥ - ١٦٧) والقاضى الثانى نفذ تنفيذ القاضى المالكى (سطر ٢٢٢ - ٢٣٥) .

أى أن القاضى المالكى (الثالث) نفذ تنفيذ القاضى الحنبلى (الثانى) تنفيذاً صحيحاً شرعياً تماماً بعد أن ثبت عنده ذلك بشهادة الشهود المزيكين القابلين للشهادة ، وذلك بعد أن اعلوا له أو انهموا إليه بجميع ما نسب إلى القاضى الحنبلى فى اسجاله التنفيذى من الثبوت والتنفيذ .

والتنفيذ هنا معناه شهادة الشهود عند القاضى المالكى بما نسب إلى القاضى الحنبلى المنفذ فى اسجاله التنفيذى من الثبوت والتنفيذ ، أى إحاطة القاضى المالكى علماً بتنفيذ القاضى الحنبلى على وجه التسليم له وأنه غير معترض عنده ويسمى هذا أيضاً اتصالاً . وهكذا الحال فى الاسجالات الرابع والأخير . انظر بحثنا هذا ص ٢٠٢ - ٢٠٤

ومن المحتمل أن تقول إن كل اشهاد من الاشهادات الثلاثة الاولى عبارة عن خطاب أو كتاب من القاضى إلى القاضى التالى له ، بمعنى أنه اخبار من القاضى السابق للقاضى اللاحق بما ثبت عنده وحكم به أو وقفه ، ويكون ذلك عن طريق الانتهاء بالاشهاد ، ومعناه أن يشهد الشهود بأنه حكم أو نفذ بعد أن ثبت عنده كذا ، ثم ينهى هؤلاء الشهود بذلك إلى قاض آخر . انظر سطر ٨٨ - ٩٠ ، ٩٨ - ١٠٤ - ١٠٦ ، ١٦٣ - ٢١٩ - ٢٢٢ ، ٢٣٠ . أو أن يكتب قاض إلى آخر بما ثبت عنده ويشهد شاهدين أو أكثر على كتابه ، والشهود هنا يشهدون بأن الحكم ثبت عنده وتقرر ، هذا ويعتبر العدد فى الشهود .

كما يقبل كتاب القاضى إلى القاضى فى الاحكام والمحقوق بمجرد معرفة خط القاضى (علامته وهى الجملة) والتاريخ دون الشهادة على ذلك ، وكذلك قيل لا بد من الشهادة .

جصيط : الطريقة المرضية ص ٢٢٦ - ٢٢٩ ، انظر أيضاً الشيال : مجموعة الوثائق القاطية ج ١ ص ١٥ حاشية ١ .

وكتاب القاضى إلى القاضى يعتبر حجة شرعاً فى المعاملات على خلاف القياس ، لأن الكتاب قد يقتضئ أو يزور ، ولكن إنما يقبله القاضى المكتوب إليه عند وجود شرائطه ، ومن جملة الشرائط البيعة (شهادة الشهود) حتى أن القاضى المكتوب إليه لا يقبل كتاب القاضى ما لم يثبت بالبيعة أنه كتاب القاضى .

الكاساني : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢٨١ ، ج ٧ ص ٨ ، السيوطي : فتح القدير ج ٥ ص ٤٨٣ ، الزيلعي : تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٤ ص ٢٤١ ، الفناوى المالكية ج ٣ ص ٢٨١ ، السرخسي : المبسوط ج ٢٦ ص ٩٥ وما بعدها .

احمد ابراهيم : طرق القضاء ص ٢٩١ — ٢٩٢ ، عنوس : تاريخ القضاء ص ١٧٢ — ١٧٤ .

٧٥ — العدة — أنظر التحقيق رقم ٧١

٧٦ — هذه إشارة لطيفة من الكاتب الموثق عند تصديقه على توفيق الشاهد العدل موسى بن عبد الغفار المالكي ، إذ أنها تشير إلى أن الشاهد كان مريضا في ذلك الوقت (١٣ ربيع أول سنة ٩١١ هـ) ، وقد توفى فعلا بعد ذلك بمدة قصيرة في السنة التالية يوم الجمعة ٢٥ رجب سنة ٩١٢ هـ . أنظر ترجمته في التحقيق رقم ٦٥ . وكذلك أنظر التحقيق رقم ٦٧

٧٧ — لعل هذا هو اسم الشاهد ، وقد وضعه بين حامرتين لعدم تمكني من قراءة توقيعه قراءة نهائية فاطمة ، فقد قام الشاهد بكتابة اسمه بطريقة تصعب قراءتها ، هذا إلى جانب تأكل بعض الحروف فلا أثر لها جاتا ، كما أن لون الجير كاد يذهب من بقية الحروف تماما .

٧٨ — هو الشيخ برهان الدين ابراهيم الديري المالكي ، كان من نواب المالكية في عهد السلطان قايتباي ، وولاه النوري في ٨ جماد أول أو ربيع ثاني سنة ٩٠٧ هـ قضاء المالكية ناضيا للقضاء بعد وفاة أخيه عبد الفتى بن تقي الديري المالكي .

وكان برهان الدين عالما فاضلا ، دينا خيرا ، لين الجانب كثير التواضع ، اتبعت إليه رئاسة المالكية في عصره ، ولم يكن في شيوخ المالكية من هو أعلى منه على الاطلاق ، وشغل منصب القضاء مدة ست سنين وستة أشهر إلا أياما . وكان عالما بأحكام مذهبه متمكنا فيه ، نادرة عصره في الخط الجيد والعبارة الحسنة ، وكان عارفا بالأحكام الشرعية ، توفى يوم الأربعاء ٢٣ رمضان سنة ٩١٣ هـ بيجه بالقرب من المدرسة الصالحية النجبية بخط بين القصرين بالقاهرة ، وتولى منصبه من بعده ابنه محي الدين يحيى الديري .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٩ ، ٤٣ ص ٢١ ، ٤٩ ، ١٢٦ - النزي :
الكواكب السائرة ج ١ ص ١٠٩ - ١١٠ ، ابن العماد الخبلي : شذرات الذهب
ج ٨ ص ٦٠

وقد وردت علامته « أحمد الله شاكر الامنه » بنفس الخط في بعض الوثائق ومنها
وثيقة الست تتر زوجة السيى تترى بردى محكمة ١٤٨ ، وثيقة السيى تترى بردى بن عبد الله
الاحمدى محكمة ١٥٢ ، وثيقة السيى تترى باى بن عبد الله المحمدى أوقاف ١٠١٨ ،
وثيقة قراجا بن عبد الله الجمالى محكمة ١٨٤ ، وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشرقة
محكمة ١٠٥

٧٩ - هو الشيخ محى الدين يحيى بن ابراهيم الديمرى المالكي ، قرره السلطان الغورى
قاضياً للقضاء في يوم السبت ١٧ شوال سنة ٩١٣ هـ بعد وفاة والده السابق ترجمته في التحقيق
رقم ٧٨ . وكان شاباً حسن السيرة له اشتغال بالعلم ، نبغ في البحث والدرس في بيئة
علمية وأمرة قضائية ، ولم يستكثر عليه أحد ذلك فخفضت له المالكية فاطبة .
وفي محرم سنة ٩١٨ هـ قرره الغورى في وظيفة الخطابة بجامعه (مدرسته) بالشرابشين ،
وبعد ذلك بقليل عزله الغورى في ٨ ذى القعدة سنة ٩١٩ هـ عند ما أعفى القضاء الأربعة
من مناصبهم .

ولكنه ما لبث أن أعاده إلى منصب قاضياً لقضاء المالكية في يوم الخميس ١٤ رمضان
سنة ٩٢١ هـ بعد أن سعى في سبيل ذلك بالقي ديار .

وقد خرج مع الغورى إلى مرج دابق في ربيع الآخر سنة ٩٢٢ هـ ، وأمره السلطان
سليم في حلب بعد هزيمة المماليك ، ثم عاد إلى القاهرة مع الخليفة المتوكل النابسى يوم الجمعة
آخر ذى الحجة سنة ٩٢٢ هـ ، وقد خلع عليه السلطان سليم يوم الأربعاء ١١ صفر سنة ٩٢٣ هـ
أعاده إلى منصبه في قضاء المالكية ، وأرسله إلى الأشرف طومان باى في صعيد مصر
(الهنسا) إبان المفاوضات الفاشلة التي دارت بينهما ، ولكنه عاد دون نتيجة في أرائل
ربيع الآخر سنة ٩٢٣ هـ ، وقد صحح في نفس العام وعاد بعد أن قلبي مشقة كبيرة ،
وكان يته وبين قاضى القضاء نور الدين الطرابلى سوء نفس وخصام .

وكان يحيى الدميرى من المقربين عند ملك الأمراء خاير بك من مال باى ، وكان ملازما له في أسفاره ، كما كان يحضر مجلس محاكماته في كل يوم سبت ، ورأى في أيامه غاية العز والعظمة ، ولم تكن ترد له شفاعاة عنده ، وكان يحيى الدميرى صهرا للرئيس شمس الدين محمد بن القوصوفى الطيب المعروف .

وقد بطل عمله كقاضى لقضاة المالكية في مصر عندما قدم قاضى العسكر سبلى جلى العثمانى وقرر الناء نظام المذاهب الأربعة ، وصار له التكلم في الأحكام الشرعية على المذاهب واتخذ مجلس حكمه في المدرسة الصالحية النجبية ، وهكذا كان قاضى القضاة يحيى الدين يحيى الدميرى آخر عبيد للمذهب المالكي في مصر المملوكية .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٤ ص ١٢٧ — ١٢٨ ، ٢٥٥ ، ٢٦٨ ، ٢٥٠ ، ٤٧٧ ، ج ٥ ص ٢٩ ، ٧٢ ، ١٠٢ ، ١٤٤ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ٢١٤ ، ٢٣٤ ، ٢٧٧ ، ٣٤٠ ، ٣٥٥ ، ٤٥٤ . الفزى : الكواكب السائرة ج ١ ص ٣١٣ .

وقد كان قبل ولايه القضاء من بين شهود مجلس والده قاضى القضاة إبراهيم الدميرى المالكي عند الاشهاد على وثيقة وقف النورى — انظر شهادته وتوقيعه سطر ١٠١ — ١٨٢ ، شكل ١٠ مكرر .

والمعروف أن أبناء العلماء والرؤساء ثبت عدالتهم على الحكام ، وبحكم الحاكم (القاضى) بدلالة من ثبت عدالته لديه ، ويسجل له إسجالا بذلك ويشهد عليه . القلقشنلى : صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٤٦ — ٣٤٩ .

٨٠ — هذا الشاهد أيضا من أسرة الدميرى ، فهو ابن الشيخ العالم الفاضل عبد القادر ابن احمد بن محمد بن احمد بن على بن تقي الدميرى المالكي قاضى قضاة المالكية زمن الاشرف قايتباى والتوفى في ذى الحجة ٨٩٥ هـ . وإبراهيم بن عبد القادر الدميرى من أسرة كبيرة ، تولى عدد من أبنائها وظيفة القضاء ، فقد كان أبوه قاضيا لقضاة المالكية ومن بعده عنه عبد الفتى ثم عنه إبراهيم ثم ابن عمه يحيى وقد سبق ترجمة كل منها في التحقيق رقم ٧٨ ، ٧٩ . ابن اياس : نفس المصدر السابق ج ٣ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ، ج ٤ ص ٢١ .

ولا غرابة في أن يقوم صاحبنا بالشهادة هنا فقد سبق أن أوضحنا أن يحيى بن إبراهيم الدميرى كان من بين الشهود على إشهاد والده — انظر التحقيق السابق .

وهذه الشهادة وتلك — أعنى شهادة يحيى بن إبراهيم الديمري وإبراهيم الديمري وإبراهيم بن عبد القادر الديمري — توضح لنا أن مجلس القضاء في عصر المماليك كان يجمع أحيانا عدداً من الشهود العلول أو من كتاب الحكم الموثقين من أصحاب الثقافة الشرعية من أسرة القاضي نفسه ، وقد ثبت أن بعضهم كان يعمل عن هذا الطريق إلى منصب نيابة القضاء أو منصب قاضي القضاء ، ولعل هذا كان هو الطريق الطبيعي للتخرج في سلم الوظائف القضائية في العصر المملوكي .

٨١ — المهام من ألقاب أرباب السيوف في عصر المماليك ، والمراد به الشجاع ، حسن الباشا ص ٥٣٧ ، القلقشندي : نض المصراع ج ٦ ص ٣٤ . وبما يلفت النظر ، إطلاق هذا اللقب العسكري « الليث المهام » على قاضي القضاء ابن الفرغور الشافعي ، وهو من أرباب المهام — انظر تحقيق رقم ٩ . وربما رجع ذلك إلى التقاليد المتبعة في التقييد في عصر المماليك . حسن الباشا ص ٢٧٠ — مادة « الخاشع » .

٨٢ — الأوحد : هذا اللقب حدث تفاوت كبير في استعماله في عصر المماليك ، فقد كان يرد ضمن الألقاب السلطانية وكذلك كان يطلق على صغار الكتاب الذين تمت الياء في ألقابهم . وقد دخل في تكوين ألقاب مركبة كثيرة مثل أوحد الكتاب ، أوحد المجاهدين ، أوحد العلماء ، أوحد الأمراء المقربين ، أوحد الفضلاء وغيرها ، والمضاف إليه في اللقب المركب يشير عادة إلى وظيفة الملقب التي قد تكون من وظائف العسكريين أو المدنيين أو رجال العلم وأهل الصلاح .

واللقب يشير إلى أن صاحبه في درجة رفيعة بالنسبة لأفراد الطائفة التي ينتمي إليها وذلك يرجع إلى معنى الاقتراد به ، فقد ورد بصيغة أفضل التفضيل — حسن الباشا ص ٢١٧ — ٢١٩ .

٨٣ — الخاشع في اللغة الخاضع التذلل إلى الله تعالى ، وكان اللقب يطلق في عصر المماليك على كل من انتصف بالصلاح من المدنيين والعسكريين ، وإن كان بالصوفية أخص .

وكان هذا اللقب يطلق على نائب الشام عموماً على ما في ذلك من غرابة إلا أن ذلك جاء نتيجة للتقاليد المتبعة في التقييد في العصر المملوكي ، وفضلاً عن ذلك كان هذا اللقب يستعمل كذلك لرؤساء النصارى كالباب والبطاركة وذلك لمناسبة لهم . حسن الباشا ص ٢٧٠ . وما به من مراجع .

٨٤ — الناسك من ألقاب انصوفية وأهل الصلاح ، ومعناه العابد أخذاً من النسك بمعنى العبادة ، وربما لقب به أرباب السيوف والأقلام الصالحين .

التقشندى : صبح الاعشى ج ٦ ص ٣٢ .

٨٥ — اتقوة بمعنى الآسوة ، وهو من ألقاب العلماء والصلحاء ، وكان يضاف للنظ أحياناً بعض الكلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل فتوة العلماء ، فتوة الأولياء ، فتوة البارعين ، فتوة العباد ، فتوة البلغاء وغيرها .

وفى هذه الألقاب وأمثالها يشير الالقاب إلى أن الملقب يرويه يعتبر أسوة لأهل الطائفة المبنية في المضاف إليه . حسن الباشا ص ٤٣٠ .

٨٦ — الماضي من المضى الذهاب أو المضاء والنفاد . حسن الباشا ص ٤٤٣ ، والمقصود باللقب المركب « ماضى التقضى والابرار » هنا أن صاحبه كان نافذ الأحكام باعتباره قاضياً للقضاء . ولم يرد هذا القاب المركب في ألقاب بقية القضاة كما لم يرد في الباشا ولا التقشندى .

٨٧ — بقية المجتهدين : هذا القاب المركب لم يرد في حسن الباشا ولا في التقشندى ، ولعله من الألقاب التي ظهرت في أواخر العصر المملوكي ، والتي كان يتم بها العلماء والقضاة خاصة . واللقب يشير إلى أن صاحبه هو بقية المشتغلين بالاجتهاد ، لأن وظيفة الملقب به كانت القضاء ، وهو كقاض للقضاء يشترط فيه الاجتهاد في تفسير الأحكام والمقارنة بين النصوص والآراء والحوادث ، وبما لا شك فيه أن الاجتهاد شرط الأولوية في التعيين في منصب القضاء شرعاً . انظر التحقيق رقم ٢٤ ، ٦٠ وما بهما من مصادر .

وهكذا تقدم لنا هذه الشهادات لقباً جديداً من الألقاب الفخرية المركبة لأحد قضاة القضاء في أواخر عصر المماليك .

٨٨ — لقب إمام من الألقاب المعروفة — انظر تحقيق رقم ١٢ ، أما هذا القاب المركب بالذات « إمام القلة والمفسرين » فلم يرد في حسن الباشا ص ١٦٦ — ١٧٩ ولا في التقشندى ج ٦ ص ٣٨ ، ولعل المقصود به أن صاحبه كان إماماً للمشتغلين بالعلوم النقلية عامة والتفسير خاصة ، وأصل هذه العلوم النقلية الوضعية كلها — على حد قول ابن خلدون — هي اشترعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله

وأصناف العلوم الثقيلة كثيرة أهمها علم التفسير . ابن خلدون : المقدمة ص ٤١٢ . ويظهر أن قاضى القضاة ابن الفرور الشافى قد برع فى هذه العلوم الثقيلة والتفسير خاصة . السخاوى : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٢٢ ، انظر ترجمته بتحقيق رقم ٩٨ . وهذا لقب جديد أيضا تقدمه لنا الوثيقة .

٨٩ — لم يرد هذا اللقب المركب بالذات فى حسن الباشا ولا فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٧١ ولكن ورد فى القلقشندى : نفس المصدر ج ٦ ص ٣٢ « الملاذى » وهو منسوب إلى الملاذ بمعنى الملجأ . ولعل من المقصود بالفرباء والمنقطعين هنا الصوفية الفرباء الفقراء الواردين من الآفاق ومختلف أنحاء العالم الإسلامى كما تذكر لنا كثير من وثائق عصر المماليك — انظر وثيقة يبرس الجاشنكير بحكمة ٢٣ ، وثيقة برسباى أوقاف ٨٨٠ ص ٢٣ ، وثيقة ختقدم بحكمة ٩٠ ، بحثا دراسات تاريخية وأثرية فى وثائق من عصر النورى (تحت الطبع) .

٩٠ — كهف الملة من ألقاب أكابر الرجال العسكريين من أرباب السيوف كنواب السلطنة وغيرهم . حسن الباشا ص ٤٤٠ ، والغريب أن يمت به شيخ معمم هو قاضى القضاة ابن الفرور الشافى . انظر الفقرة الأخيرة من التحقيق رقم ٩ .

٩١ — النيات فى اللغة اسم من استثنائى فأغنته ، وأصله الفوات ثم قلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها ، وتعمل النسبة إليه « النياتى » كلقب غفرى للعسكريين خصوصا الملوك . وكان اللفظ يضاف إلى بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل غياث الانام ، غياث المهوفين ، حسن الباشا ص ٤١٣ — ٤١٥ . وهذا اللقب الأخير الذى تقدمه لنا الوثيقة لم يرد فى القلقشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٦٢ ولا الباشا ص ٤١٣ — ٤١٥ .

٩٢ — محط رجال الوافدين : هذا اللقب المركب بالذات لم يرد فى القلقشندى ولا فى حسن الباشا ، انظر تحقيق رقم ٢٢ ، ٣٥ .

٩٣ — رجاء اتصايدن : هذا اللقب المركب بالذات لم يرد فى القلقشندى ولا فى حسن الباشا ، والألقاب الجديدة السالف ذكرها فى التحقيقات رقم ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ . نعت بها قاضى القضاة ابن الفرور الشافى دون بقية القضاة وذلك لما انفص به من الكرم وحسن العشرة كما تذكر المصادر المعاصرة — انظر ترجمته فى التحقيق رقم ٩٨ .

٩٤ — رئيس الملكتين : هذا القب بالذات لم يرد في القلقشندي ولا في حسن الباشا .
أما الرئيس فهو من الرئاسة وهي رفعة القدر وعلو الرتبة ، وقد أطلق القب في عصر المماليك
على أرباب الأفلام من العلماء والكتاب ، كما كان لقباً عاماً على الرئيس الديني لطائفة
اليهود . وقد دخل لفظ الرئيس في تكوين بعض الألقاب المركبة مثل رئيس الرؤساء ،
رئيس الكبراء . حسن الباشا ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

ولعل المقصود برئيس الملكتين أن صاحبه وهو قاضي القضاة ابن الفرغور كانت له
رئاسة المنصب الشافعي في كل من المملكة المصرية والمملكة الشامية ، فجمع ابن الفرغور
فلا في عهد الغوري بين قضاء مصر والشام في وقت واحد في يوم الخميس ٤ ربيع أول
سنة ٩١٠ هـ ، واستمر في هذا المنصب الكبير حتى وفاته . انظر ترجمته في التحقيق رقم ٩٨

٩٥ — صاحب الولايتين : هذا القب لم يرد أيضاً في حسن الباشا ولا في القلقشندي .
والصاحب من الألقاب الدالة على الوظيفة دلالة خاصة ، وكان كتاب الانشاء بالشام يلقبون
العلماء وقضاة القضاة بالصاحب ، وقد أضيف إلى لفظ « صاحب » كثير من أسماء الممالك
والبلاد والقلاع للدلالة على الملكية بمعنى السيادة . حسن الباشا ص ٣٦٧ — ٣٦٨

والمقصود بذلك أن صاحبه قد صارت له السيادة في قضاء الشامية في كل من مصر
والشام ، ويوضح لنا هذه الحقيقة ماورد في السطر ٢١٢ ونحوه :

« ... الناظر في الاحكام الشرعية بالديار المصرية والمملكة الشريفة الشامية وسائر
الممالك الاسلامية » على العكس من ألقاب قضاة القضاة الثلاثة السابقين ونحوها :
« ... الناظر في الاحكام الشرعية بالديار المصرية وسائر الممالك الشريفة الاسلامية ... »

سطر ٢٣ — ٢٤ ، ٨٢ ، ١٤٩ — ١٥٠

٩٦ — خطيب الخطباء من ألقاب أكابر الخطباء ، وربما كتب به لقاضي القضاة إذا
أضيف له خطابة جليلة كخطابة جامع القلعة بالديار المصرية وخطابة الجامع الأموي بدمشق .
القلقشندي : صبح الأعشى ج ٦ ص ٤٧

والوثيقة توضح لنا حقيقة جديدة — بورود هذا القب ضمن القاب قاضي القضاة
الشافعي — وهي أن الذي يتولى الخطابة في جامع السلطان في أواخر عصر المماليك كان يعتد
بهذا القب أيضاً .

وكان ابن الفرغور الشافعي قاضي قضاء دمشق أول من خطب في المدرسة النورية وذلك عند افتتاحها يوم الجمعة مستهل ربيع آخر سنة ٩٠٩ هـ ، وكان المرق أمامه القاضي عبد القادر القموصي ، وحضر في ذلك اليوم الخليفة المستسك بالله يعقوب والقضاء الأربعة برهان الدين بن أبي شريف الشافعي وابن الشحنة الحنفى والدميرى المالكي والشيشي الحلبي وكبار الأمراء والأعيان وابن السلطان . ورغم أن خطبة ابن الشحنة الحنفى في الجمعة التالية كانت أبلغ وأميز من خطبة ابن الفرغور الشافعي على حد قول ابن اياس المؤرخ المعاصر إلا أن القلب أطلق على ابن الفرغور فقط ولم يرد في القلب ابن الشحنة ، ولكن يلاحظ أن ابن اياس كان حنفى المنصب . ابن اياس : بذائع الزهور ج ٤ ص ٥٨ - ٥٩

٩٧ — أمام الفصحاء والبغاة والأدباء — هذا القلب المركب لم يرد في القلقشنلى : صبح الأعشى ج ٦ ص ٣٨ ، ولا في حسن الباشا ص ١٧٦ - ١٧٩ . أما عن لقب امام فانظر التحقيق رقم ١٢ وما به من مراجع .

٩٨ — هو الشيخ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمود بن عبد الله بن عبد الكريم ابن الهادي اسماعيل بن إبراهيم المعروف بابن الفرغور الدمشقي الشافعي الحلبي الأصل ، ولد سنة ٨٥٢ هـ وقولى نظر الجيش ثم قضاء الشافعية بدمشق سنة ٨٨٦ هـ ، وفي رجب سنة ٨٨٩ هـ عزله السلطان قايتباى عن القضاء وولى بدلا منه ابن التزلق الدمشقي ، ثم أعاده إلى منصبه مضافاً اليه نظر الجيش في جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ . وقد حضر ابن الفرغور إلى القاهرة في صفر سنة ٨٩٦ هـ ساعياً وراء وظيفة السر ولكنه عاد إلى دمشق دون طائل . وفي شعبان سنة ٩٠٠ هـ قدم إلى القاهرة ودفع للسلطان قايتباى مالا كثيراً حتى يستمر في وظيفة قاضي قضاء الشافعية في دمشق ، ويظهر أن هذه الوظيفة كانت أعلى مرتبة من بقية المذاهب الثلاثة الأخرى . حرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص ١٠٧

وقد شهد ابن الفرغور الشافعي عصر قايتباى ومن بعده حتى النورى ، وكان أول من خطب في المدرسة النورية عند افتتاحها يوم الجمعة أول ربيع آخر سنة ٩٠٩ هـ وقد فرره السلطان قانصوه النورى في قضاء الشافعية بمصر بعد عزل القاضي برهان الدين بن أبي شريف المقدسى في يوم الخميس ٤ ربيع أول سنة ٩١٠ هـ ، أى قبل أن يقوم بتوثيق وقفية النورى في ١٧ ربيع أول سنة ٩١١ هـ والإشهاد عليها تنفيذياً بسنة تقريباً .

وهكذا جمع ابن الفرغور بين قضاء الشافعية في مصر والشام في وقت واحد حتى عد ذلك من النادر لأن هذا لم يتفق لاحد قبله من القضاة على حد قول ابن اياس .

وقد استمرت يده الوظيفتان إلى أن توفي يوم الخميس ٢ جماد آخر سنة ٩١١ هـ ، ودفن بالقرافة قرب الامام الشافعي ، فتولى وظيفته من بعده في دمشق ابنه ولى الدين محمد وكان شابا لم يبلغ بعد ، وتولاها في القاهرة الشيخ جمال الدين القلقشندي .

وكان ابن الفرغور عالما فاضلا غزير المادة ، ذا شهامة في سعة من المال ، كريما حسن المشورة ظريفا ذكيا ، وكان على صلة بالسلطين المماليك ، صديقا للاشراف الغوري تبادل وآياه قصائد في المدح .

ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ١٧٤ ، ٢٠٣ ، ٢١٢ ، ٢٧١ ، ٣٠٢ — ج ٤ ص ٥٨ ، ٦٦ ، ٨٤ — ٨٥ ، النزه : الكواكب السائرة ج ١ ص ١٤١ — ١٤٥ ، السخاوي : الضوء اللامع ج ٢ ص ٢٢٢ ، ابن الهادي الحلبي : شذرات الذهب ج ٨ ص ٤٩ ، البقاعي : كتاب في التاريخ (مخطوط بدار الكتب رقم ٥٦٣١ تاريخ) ص ١٨٧ ب ، ١٨٨ ، وثيقة ابن الفرغور بحكمه ٢٢٧ — لوجه ١٠ ، ١١ .

٩٩ — خادم الحجر الشريف النبوية — أنظر لفظ خادم في حسن الباشا ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، ولكن هذا اللقب بالذات لم يرد في القلقشندي . نفس المصدر ج ٦ ص ٤٦ ولا في الباشا ، وهذا اللقب اسم لوظيفة .

١٠٠ — هذه الاشارة مثل سابقتها — نختبى رقم ٧٦ — جديرة بالوقوف عندها قليلا ، إذ هي توضح لنا أن قاضي القضاة ابن الفرغور الشافعي كان مريضا عند الاشهاد على وثيقة وقف الغوري في ١٧ ربيع أول سنة ٩١١ هـ ،

وبلاحظ القاري أن تواريخ الاشهادات الثلاثة الاولى متتابعة وهي : في التوالى ١٢ ، ١٣ ، ١٤ ، وبيع أول سنة ٩١١ هـ ثم حدثت الاشهاد الرابع أو الاستجدال التنفيذي الأخير في يوم الاحد ١٧ ربيع أول سنة ٩١١ هـ ويمكن تعليل ذلك — أي عدم حدوث الاشهاد في يوم السبت ١٦ ربيع أول — بسبب مرض قاضي القضاة ابن الفرغور الشافعي ، فقد وردت إشارتان إلى ذلك إحداهما في متن الاشهاد الرابع سطر ٢٣٤ ، والثانية في شهادة

عبد الكريم بن علي المجولي الشافعي - ولعله كان من اقرب الشهود إلى قاضي القضاة الشافعي
ملازمًا له دائماً في مجلس حكمه وخارجته - سطر ٢٤٩ .

وقد وفي ابن الفرفور فعلاً بعد ذلك بملة قصيرة في ٢ جاد آخر سنة ٩١١ هـ أي بعد
نيغ وسبعين يوماً من قيامه بتوثيق وقفية النوري .

ابن ايلس : بدائع الزهور ج ٤ ص ٨٤ .

ليست

(شكل رقم ١)

« ليسجل » - يخط قاضي القضاة أبو البركات
عبد البر بن الشحنة الحنلي . وردت على
الهامش الأيمن في بداية وجبة الوثيقة بين
السطر ٢ - ٢

الحمد لله وحده
ليست

(شكل رقم ٢)

« الحمد لله وحده » - ليسجل بجنه وتقليد «
يخط قاضي القضاة أبو حامد أحمد التيشيني
الحنلي . ورد على الهامش الأيمن في بداية
الإشهاد الأول في ظهر الوثيقة بين السطر ٢ - ٢

ليست

(شكل رقم ٤)

« الحمد لله » - ليسجل « يخط قاضي القضاة
أبو العباس أحمد بن القزويني الشافعي .
وردت على الهامش الأيمن في بداية الإشهاد
الثالث في ظهر الوثيقة بين السطر ١٢٢ - ١٢٤

(شكل رقم ٢)

« ليسجل ليسجل » يخط قاضي القضاة
أبو القاسم إبراهيم النمري المالكي . وردت
على الهامش الأيمن في بداية الإشهاد الثاني
في ظهر الوثيقة بين السطر ٧٧-٧٨ لاحقاً إن
كلمة « هذا » هي بداية السطر ٧٦ ،
و « في مصالح » بداية السطر ٧٧

الكرام على الجواني
عبد
محمد بن عبد الله

(شكل رقم ٥)

امضاء الشاهد العدل « عبد الكريم بن علي الجواني الشافعي » بعد شهادته في نهاية وجه الوثيقة
سطر ١٧٨٧ ثم تأشيرة الوثائق « شهد عند بذلك أعزّه الله تعالى » سطر ١٧٨٨ بوقوع الشهادة أمامه

عبد الله
فوق
محمد بن عبد الله

(شكل رقم ٦)

امضاء الشاهد العدل « عبد الفجار بن موسى المالكي » بعد شهادة في ظهر الوثيقة (الإشهاد الثاني)
سطر ١١٦ ثم تأشيرة الوثائق « شهد عندي بذلك أعزّه الله تعالى وشكاه » سطر ١١٧ بوقوع الشهادة أمامه

أبو الفضل محمد الأرجح

(شكل رقم ٧)

امضاء الشاهد العدل « أبو الفضل محمد الأرجح » كاتب الوثيقة بعد شهادته في ظهر الوثيقة
(الإشهاد الأول) سطر ٥٩

عبد الرحمن بن عبد الله

(شكل رقم ١٠ مكرر)

امضاء « يحيى بن ابراهيم الدميري المالكي »

بعد شهادته سطر ١٨٢

سید محمد علی

(شكل رقم ١١)

تأشير الموق « شهد مندى بذلك - اعزه الله

تعالى » الاشهاد الأول سطر ٥٦ - ٥٧

سید محمد علی

(شكل رقم ١٢)

تأشير الموق « شهد مندى بذلك - اعزه الله

تعالى » الاشهاد الثاني سطر ١٢٦-١٢٧

سید محمد علی

(شكل رقم ١٣)

تأشير الموق « شهد مندى بذلك » الاشهاد

الثاني سطر ١٢٨

عبد الرحمن بن عبد الله

(شكل رقم ٨)

امضاء « موسى بن عبد القادر المالكي »

بعد شهادته سطر ٥٢

سید محمد علی

(شكل رقم ٩)

امضاء « سعد بن ابراهيم الطيبي » بعد

شهادته سطر ١١٩

اکرم علی الحوی

(شكل رقم ١٠)

امضاء « عبد الكريم بن علي الحوي الشافعي »

بعد شهادته سطر ٥٥

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ

(شكل رقم ١٤)

استاذية الزود الأول - السيد له سطر ٢ يخط الكوفي النحلي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الحمد لله على ما محمد وآله وسلم

الحمد لله اللطيف الخبير

(شكل رقم ١٥)

استاذية الزود الثاني - البسطة والتسمية والحمد له سطر ٢ يخط الكوفي النحلي

لحمته من شلالان

(شكل رقم ١٦)
الخطبة ١٩٢٥ - العدد ١٢٧ - سنة ١٢٧٢ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم اللهم صل على محمد وآل محمد

الحمد لله المالك

(شكل رقم ١٧)
الخطبة ١٩٢٥ - العدد ١٢٧ - سنة ١٢٧٢ هـ

الثاني عشر من ربيع الاول المشرف

(شكل رقم ١٨)
تاريخ الانتهاء الأول شهر ١٢ ربيع الثاني الحادي

سوم الاربعاء الثالث عشر من ربيع الاول

(شكل رقم ١٩)
تاريخ الانتهاء الثاني شهر ١٢ ربيع الثاني الحادي

بومر الحبيب الميثاق الرابع عشر مع

(شكل رقم ٢٠)

تاريخ التوقيع: ١٩٧٣ بابل، العراق

السادس عشر مع الميثاق

(شكل رقم ٢١)

تاريخ التوقيع: الرابع عشر ١٩٧٤ بابل، العراق

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم حسنا طيبا

[illegible]

القدوم الثاني في نهاية حياة الشهيد الثاني سنة 1099 هـ الموافق 1687 م

وحسن السراي والوكيل استاذي

(شکل رقم ۲۲)

البناء الختامي في نهاية حياة الاتحاد الرابع مخر ٢١: يطف القاسي الإنساني والاحتك ان الحياة
 لا تنهت في آخر الطريق بل في

❖ التمهيد ❖ في آخر السطر يضاف

و به لک الهی ادا امری بخاک لایم و نوحی کما و نوحی عیاج و نه و لغامه
 علی بن ابی طالب
 علی بن ابی طالب
 علی بن ابی طالب

{ شکل رقم ۷۴ }

بعض شهادة وإتباعه « مع التزم بن علي المجهولي النفس » والحقبة الأولى في الإسهام الأول سطر ٨٧-٨٨

وذلك شهدى سيدنا فولانا قاضى القضاة شيخ الاسلام فهدى عليه السلام
 في تان بخندق كس
 ليو القضاة الحاج

(شكل رقم ٦٥)

لبي حجة ١٢٠٤ ووافق ٢٠ ابريل سنة ١٢٠٤ في الاشهاد الرابع سطر ٢٥ - ٢٦

وسلك فهدى الامام الى امامه الراى حج لرحم الله الامام واما من معه عليه ولعنه من اهل على
 محمد عليه
 عبد الصمد
 من كس

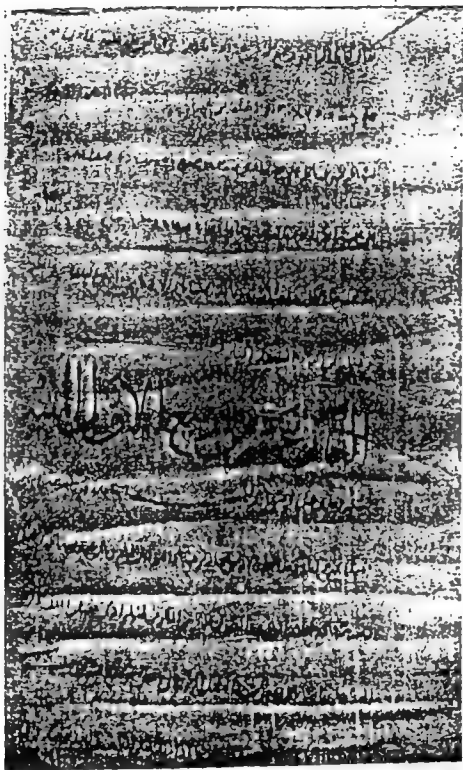
(شكل رقم ٦٦)

لبي حجة ١٢٠٤ ووافق ٢٠ ابريل سنة ١٢٠٤ في الاشهاد الرابع سطر ٢٥ - ٢٦



(لوحة رقم ١)

الدرج الاول من طهر الوعيه الاصليه - اوقات ٨٨٢ - افتتاحه الاشهاد الاول بالمله والمليه ونحمد له
ونظهر الحمد له بخط كبير في سطر مستقل وفي الهامش الأيمن عبارة القاضى موجب لتجبل الاشهاد
بعد ثبوته وتقليده



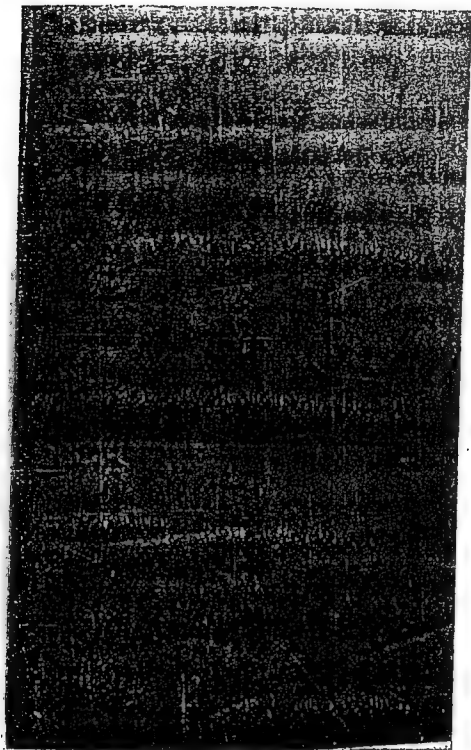
(لوحة رقم ٢)

تاريخ الشهادة الاول امام لاسى القضاة العنقى (الثلاثاء ١٢ ربيع الاول ٩١١ هـ)



(لوحة رقم ٢)

الدهاء الخنمي - بخط كبير - في نهاية صفة الشهاد الاول



(لوحة رقم ٢)

نماذج من الشهادة وتوقيعات الشهود ومن بينهم كاتب الوثيقة أبو الفضل الأعرج



(لوحة رقم ٥)

تاريخ الشهاد الثاني امام قاضي القضاة الحنبلي (الإربعاء ١٣ ربيع أول ٩١١ هـ)



(لوحة رقم ٦)

النساء الختامى في نهاية صيغة الإنشاد التلى وشهادة أحد المدول وهو « موسى بن عبد الغفار المالكي »



(لوحة رقم ٧)

نماذج من الشهادة وتوقيعات بعض المدول على الشهادة الثاني



(لوحة رقم ٨)

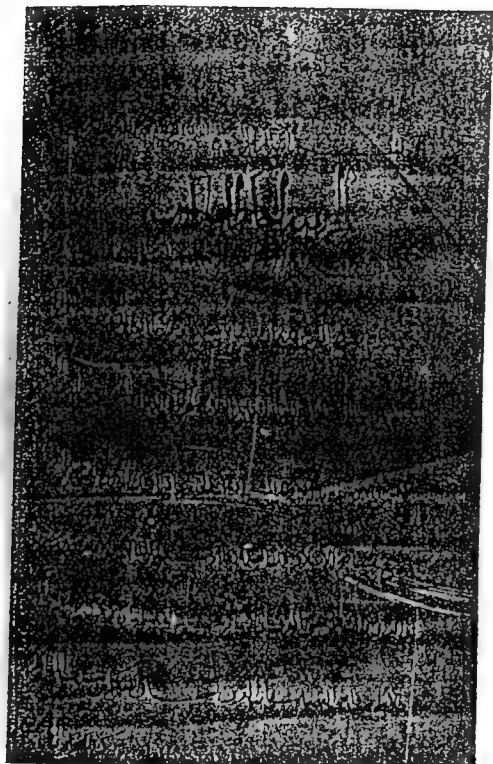
تاريخ الاشهاد الثالث امام فاضى القضاة المالكي (الخميس) ١٠ ربيع الاول ٩١١ هـ)



(لوحة رقم ٩)

الدعاء الختامى - بخط كبير - في نهاية صيغة الإتيان الثالث وسهاده أحد العدول ودفتر

((موسى بن عبد القهار المالكي))



(لوحة رقم ١٠)

الفتاحية الاشهاد الرابع بالبسملة والتعزية والحمد له وتظهر الحمد له بغط كبير في سطر مستقل



(لوحة رقم ١١)

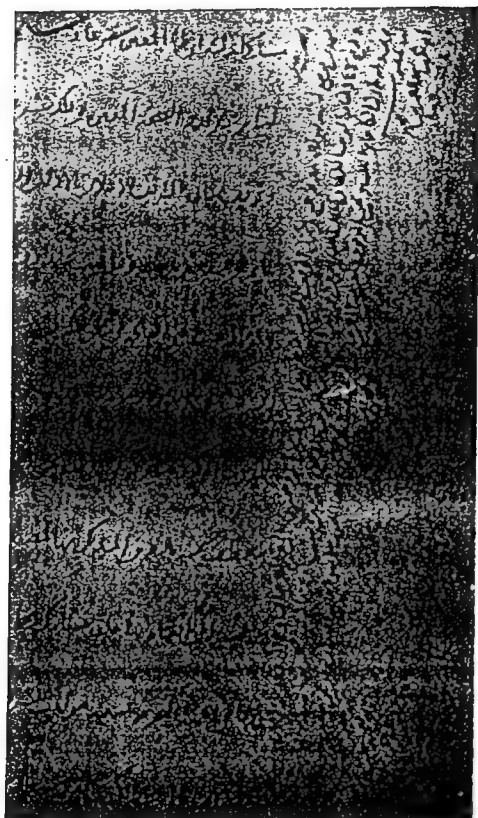
جزء من صيغة الاستعداد الرابع وقد وردت فيه بعض الألفاظ الفخرية لغاى التفاضل

أبو العباس أحمد بن العرفور الشافعى



(لوحة رقم ١٢)

تاريخ الاشهاد الرابع امام قاضي القضاة الشافعي (الاحد ١٧ ربيع الاول ٩١١ هـ)



(لوحة رقم ١٢)

شهادة الشهود التي تؤكد ملكية السلطان القورى وحيازنه للأيمان والمقاربات المحلقة التي
تصرف فيها بالولف - وقد وردت في الهامش الأيمن من وجه الوثيقة الأصلية بين السطر ١٨٢ - ١٩٣

Cairo University Press, 1424-58-560 ex.

governed by an Arab who was a representative of the Persian king and who professed the Zoroastrian faith. But soon afterwards he was converted to Islam.

Yaman was during some centuries A.D. partly under Ethiopian, partly under Persian rule. 'Ezānā, the king of Ethiopia in the fourth century A.D. called himself the king of Saba', Dū-Raydān and Salḥēn i.e. regions of South Arabia. In the sixth century there was the Ethiopian governor Abrahā in Yaman, and he even tried to conquer Mekka. The Ethiopians were driven out of the country by the Persians, and their governors were replaced by Persian governors. The last of them, called Bādān 𐭪𐭣𐭥𐭥, adopted Islām when the country was conquered by the Moslems.

Persian words must have been known to the Arabs, and used by them, in Southern and Eastern Arabia, but it is hard to say which words they were. We know now that Persian words came to the Arabs from the North, the East and the South. The Arabs repayed the Persians fully by all the Arabic words used in modern Persian.

It remains to be said on what ways Persian words came to the Arabs before Islam. Most of the Persian words that occur in ancient Arabic literature passed through Syriac before they came to Arabia. A great many of these words may have been received at al-Hīra in Mesopotamia. We know that the principality of the Banū Lahm المبرور existed there, that christianity was prevailing at al-Hīra and that the official language of the christian church was Syriac. But al-Hīra was to a certain extent under Persian supremacy, and this town, where many Arabs settled coming from the West, was the main mediator between Persia and Northern Arabia before the time of Islam. We know that some Arabian poets went to al-Hīra and stayed there. Some of them learned even the Persian language, among them 'Adī b. Zaid زيد الهادي and al-'A'ā'ā' أمي نيس. The grand father of 'Adī was the secretary of an-Nu'mān, the Arabic ruler, and he was the friend of a Persian governor, who took Zaid into his house. Thus Zaid learned Persian; his son 'Adī was educated together with the son of the governor; he was recommended by the governor to the Persian king and became a secretary at the king's court. The poet al-'A'ā'ā' was for a time a representative at the Persian court, and this was the reason why he used many Persian words in his poems. Other Arabian poets who lived at al-Hīra were Tarafa طرفه بن عبد Mutalamimis وعبيد بن الأبرص الأدي 'Abīd b. al-Abras, and the poet al-Mnraqqī al-akbar الرقي الأكبر ديمه and al-Mnraqqī al-akbar and al-Mnraqqī al-akbar. Some Arabs learned the stories and legends of Persian kings and told them later on when they had returned home. One of them was an-Naḍr b. al-Hūrīth النضر بن الحارث who told the stories of Persian kings and of the heroes Rūstam and Isfandiyār in Mekka at the time of the Prophet.

Beside al-Hīra the Eastern and the Southern coasts of Arabia were for a long time under Persian influence. The regions of Baḥraīn and 'Omān were under Persian supremacy. In 'Omān even nowadays a corrupt Persian dialect is spoken. The discoverer of this dialect thought at first that it was a survival of ancient South Arabian, but he soon learned that it is Persian. When Baḥraīn was conquered by the Arabs a few years after the Hīra the country was being

Persian *t* ت is sometimes rendered in Arabic by *ṭ* ط, just as Persian *k* ک has become *q* ق in some cases. The reason was that *t* and *k* were not aspirated in Persian, as I mentioned above.

Persian *ch* چ is rendered either by *ṣ* ص or by *ṣh* ش. The phonetic relation between *ṣ* and *ch* is not quite clear.

Persian *x* remains *ḡ* غ in Arabic when the words were taken over directly. But *ḡusrau* خسرو became *ḡurī* کبری because it passed through the Syriac language.

Persian *s* remains *s* س in Arabic in most cases; a very few times it has become *ṣ* ص, as in *sard* سرد, which corresponds to Persian *sard* سرد, cold; damp; tasteless; disagreeable, unpleasant; where the influence of *r*, is to be recognized.

Persian *š* ش becomes generally *s* س in Arabic. But in some cases it remains *š* ش, as in *šibā* شبنم; these seem to have been words that did not pass through the Aramaic language.

Persian *k* ک is mostly rendered by *q* ق in Arabic. We may mention *rizq* رزق which is the Persian *rōzīk* روزک the name *qābūs* قابوس, a man with a handsome face and a fine complexion, which is *kāvūs* کابوس in Persian, name of an ancient king of Persia. Also in Arabic words taken from other languages than Persian unaspirated *k* ک is rendered by *q* ق: e.g. *qaiṣar* قیصر from Caesar.

Persian *g* گ is mostly rendered by *g* ج in Arabic. The Arabs who received such words may have still pronounced *gīm* ج as nowadays this sound is pronounced in Egypt and in some dialects of the Arabian peninsula. But *gīm* became *ḡīm* غ in the dialect of Mekka which was *القیمی*. There are also a few examples of Persian *g* گ having become *k* ک or *q* ق in Arabic. These may be due to Arabic dialects where *q* ق was pronounced *gāf* or where the pronunciation *ḡīm* for *gāf* was intended to be avoided. Here I wish to repeat that the ending—ak or—ag of Pehlevi words became—ah in modern Persian. When these words were taken over by the Arabs before the rise of modern Persian we find this ending as—ag, but in words taken over in later times we find this ending as—ah in Arabic.

occurred the word must be of foreign origin. Moreover those scholars gave examples of noun formations that betrayed a foreign origin. But some of them do occur in genuine Arabic words ; e.g. fa"ala, fu"ail, fa'lūl and fa'līl. For fa"ala قتل we may compare the name of the Arabic tribe شمر šammar ; in the inscription of an-Namārah the town of the شمر is mentioned, and it must be vocalized šammar like the name of a famous horse in ancient times and like the name of the present شمر. Of the form fu"ail ; a number of Arabic examples have been collected. It is a double diminutive : the form fu'ail has here received a double consonant in the midat like fa"ūl which is a well known diminutive of personal names. The forms fa'lūl نلؤل and fa'līl نلئل were rejected by the grammarians : they said that these forms should be fu'lūl نلؤل and fi'līl نلئل. But we know that they are used now in Arabic dialects, e.g. sandūq صندوق, and even if they are not considered to be نصح they are nevertheless good Arabic and must have been known also in ancient times.

About the rendering of Persian consonants in Arabic, the following may be said. Persian Alif remains generally. But it seems that in a few cases it has become ع, as in قلع, if it is to be derived from kalā, and in كك which corresponds to Persian kāk كك, biscuit, dry bread ; bread indifferently baked. But the latter word is somewhat uncertain as to its original form ; it appears in many languages (in English cake and in German Kuchen), and it is not clear why Alif should have become ع near sounds that are not emphatics. The word is known in Ancient Egypt 'kk, in Coptic kake, in Greek kakeia, in Syriac ka'kū.

The name of عراق has been connected by Orientalists with Īrān (al-'Ašma'i'ij connected it with a Persian word اريان شهر which means (بلد العرب) ; but this etymology was not accepted by Professor Noeldeke who believed that عراق is the Arabic word meaning "a low country".

Persian پ p is rendered either by ف f or by ب b. فارس Arabic is the Persian pārs پارس Persia ; فیروز turquoise is derived from pīroz پیروز. Persian parand برند the glittering surface of a polished sword ; a sword, painted silk, plain silk ; a saddle—cloth ; has become in Arabic birind برند and also firind فرند (plural faranid فراند).

In most of the Syriac dialects there was no خ, but خ and ح were equally pronounced ح. However, when a ځ followed immediately after a consonant it became خ (as in Hebrew and in modern Ethiopian Semitic dialects). Therefore it was natural that the Syrians rendered Persian خ by ځ; when there was a vowel before this ځ, it was pronounced like خ, but when it was at the beginning of a word without a preceding vowel it remained ځ. The Arabs heard Kusrau and changed it to kisrā كسرى because this form looked more Arabic; for fīlā فيلا is an Arabic noun formation. Of course fu'lā فيل is a well known formation too, but it seems that kusrau was first changed to kisrau by dissimilation of the vowels and then became kisrā. The Persian kings themselves had the title šāhānšāh, and this was known to the Arabs too, they wrote it خشتا. Its meaning is "king of kings" like negūša nagašt in Ethiopia.

Marzubān مرزبان was known to ancient Arabian poets, and they used also the plural مرزبانة. Its Pevlevi original is marzpān, in Persian marzbān, marzabān : a general of the confines, governor on the borders of a hostile country, lord-marcher, margrave, landgrave (in Persian marz means a limit, border, boundry of a country and bān means a prince, lord, chief, governor; affixed to a noun, it signifies a keeper or a guardian). This word means literally "keeper or protector of the frontier".

Misk مسك is originally an Indian word muska, and some ancient Arabian authors knew that the musk came from India. But the word seems to have come to the Arabs by way of Persian where it is musk. Here again م was changed to س and u to i. The latter change may here be due to some Arabic dialect in which u and i interchanged. The perfume musk and its name came also to European countries (in Spanish musco, musca; in Italian musco, muschio, moscato; in French musc; in English musk, muskate; and in German Musk, Muskat).

The Arabian philologists who treated of the foreign words in Arabic established quite a number of phonetic rules by which such words should be recognized. They declared that certain combinations of consonants in the same word were not Arabic, and when they

. Firdaws فردوس is a famous word that has gone over into very many languages from Persia. And the ancient Arabian scholars have treated of it several times. In Greek it became *paradeisos*, and among the European christians it received the signification of "Paradise"; the Arabic word الجنة is a literal translation of the Persian original.

Of *fajrūz* فبروز the Persian original is *pērōz*, or *pīrōza*, a turquoise, a kind of blue gem. Persian *p* is rendered by *f* as in many cases where a foreign *p* had to be Arabicized; *ai* has become *ē*, and *ō* has become *ū*.

The word *qal'ah* قلعة was formerly considered to be a genuine Arabic word. But Professor Andreas, pointed to a Persian origin of this word. The plural form قلح is found in a verse composed by Laqīt b. Ya'mar who lived in al-Hīra, near the Persian frontier.

أحرار قارس أبا البرك لم
من الجوع جموع تزدن القلح

In Persian *kalāt* کلات means "a castle on the top of a mountain, or other high ground (either inhabited or deserted and in ruins), and this word occurs in many names of places. If the Persian کلات, whose *ت* is a later addition to a form *kalā*, was the original of قلعة the latter must be explained in the following way. The Persian ک is not quite the same as the Arabic *kāf*. In Arabic as in the Northern European languages the sounds *k* and *t* are a little aspirated; in French, Italian, Greek and Persian they have no aspiraton at all like the Arabic ق and ط. Therefore Persian ک is sometimes represented by ق in loanwords. And the Alif of the second syllable may have been changed to ع on account of the emphatic ج.

Kisrā كسرى was the Arabic word for ancient Persian kings, but it was, of course, originally a proper name, just as *Numēr* نمر was the name of Cesar and later meant "emperor". Thus the قباصرة were the Roman and Byzantine emperors, and the أكاسرة were the kings of ancient Persia. The form كسرى is an Arabic transformation of the Persian original *khurau*, *khusrav* خسرو a great king, a celebrated Persian king, a royal surname in Persia. The Arabs received this word from Syriac, where it was spelled *kusrāu* كوسرو for Persian خ became ک in Syriac

mostly in the form *g* (we have examples such as *fālūdāg* or *palūdāg*, *sādāg*, *tāzag*), and if we find a terminating *h* in words that originally had a *k* or a *g* we know that they were taken over from later Persian (*fālūdah* or *bālūzah*, *sādah*, *tāzah*).

Sirāg سراج is found as *chirāg* چراغ in modern Persian and means, a lamp; light; the wick of a candle; a guide, director. Since the classical Semitic languages do not know the sound *ch* چ it was rendered by ش *sh*. The Arabs received their *sirāg* from Persian through Aramaic šērāgā.

Sarāwīl سراويل is an Arabic plural of *sirwāl*, but it is generally used as if it were a singular, just as "trousers" and "breeches" in English, "Hosen" in German etc. In Persian we have *shalwār*, *shulwār* شلوار, inner breeches, drawers reaching to the feet; sailors' or travellers' trousers; *shal*, the "thigh" of a man and *vār* "protection", thus *sarāwīl* are the "protection of the thigh".

The word '*askar*' مكر has been derived in different ways by the Orientalists. It was thought that the Persian word *lashkar* لشكر which also signifies "army" had received the Arabic article, that al-*lashkar* had been thought to be al-'*askar* and that this had become al-'*askar*. This is not impossible, since Hamza is sometimes changed into *ʿ* where there is a *r* in the word; so the Turkish word *urdu* has become *مرضو* in Arabic. Similarly in Tigrē language in Ethiopia, an alif becomes *ʿ* in the neighbourhood of an emphatic letter, e.g. 'aqtala for 'aqtala, 'asōma for 'asōma (أمام) etc. I think with Professor Noeldeke, that the similarity between Persian *lashker* لشكر and Arabic '*askar*' مكر is only accidental. Professor Noeldeke suggested that مكر might be connected with the Arabic root مكر (cf. مكر), and that its original meaning might have been "troublesome crowd".

However, I believe that it was originally one of the military expressions which were brought by the Romans to Syria when they ruled over that country by their military occupation. The common Latin word for "army" is *exercitus* (*ex-erceo* means to put in motion), and it seems to me that '*askar*' مكر is an Arabic transformation of it perhaps the Arabs thought at the same time of a "troublesome crowd".

'āgurr آجر is in Persian 'āgūr which means brick. This word was originally Babylonian agurru which means baked clay or kiln-brick; it was adopted by the Persians and by the Arabs, either through Persian or through Aramaic.

'isbahbad إسمهبد or 'isbahbad إسمهبد was a high military title; it is composed of two Persian words, *sipāh* which means "army" and *bēd*, which means "lord, master"; thus '*isbahbad* signifies "master of the army". We see here that contrary to usual Semitic syntax the *muḍāf* stands after the *muḍāf* 'ilāh. This construction is known again from modern Semitic languages of Ethiopia and also from Turkish and from Germanic languages, e.g. in English "my father's house" beside "the house of my father".

Bustān بهستان is a Persian word: bustān (for bōstān, bō or bū means odour, smell, flavour, scent, perfume; and stān means place where any-thing abounds). The "gardens" of Persia were well known to the ancients.

Tāg تاج "crown" was known to the Arabs long before the time of Islam; it occurs in ancient Arabic poetry quite frequently and is found also in the inscription of an-Namārah of the year 325 A.D. In Persian tāj (from old Persian taka) means a crown, diadem. The Aramaeans learned it from the Persians and used it in the form tāgā.

Dihqān دهقان in the meaning دهقان (dih means a town or village in Persian and khān or gān means chief man or prince or head). In Persian dihqān or duhqūn means chief man or magistrate of a village, prince or head of the farmers; a husbandman, cultivator of the ground; a historian; a minstrel. This word is used in the books of classical Arabic historians and geographers.

Dibāg دیباج corresponds to Pehlevi dēpāh or dēbā and modern Persian dēbah or dēbā which means gold tissue or brocade. Dībāg means, a vest of brocade, or cloth of gold, with a rich edging; frontispiece of a book; and dībāga and dībācha means, the preface, exordium, or preamble to a book (as being generally written in an ornamental style, and adorned with gilding and other decorations). The sounds *k* and *g* at the end of words in Pehlevi became *h* in modern Persian; in words that were borrowed by the Arabs before Islam they appear

Of all the other scholars who treated this subject only al-Gawālīqī may be mentioned here, who in his famous book *al-Mu'arrab* collected the material that other scholars before him had gathered and published them with a critical review of his own. We are very much indebted to his work; in some cases his opinions may be corrected by the results of modern researches.

I am not giving here a full list of all Persian words in ancient Arabic; but a selection of them. And this selection I shall arrange according to the Arabic alphabet.

'ibrajsam إبريسم or 'ibrīsam إبريسم is in Persian 'abrisūm or 'abrēsem. Here we see that the *α* at the beginning has been changed into *i* because it sounded more Arabic, since the Arabs knew the names *ibrahīm* and *'ismā'īl*. The *š* in the middle was rendered by *aj* or *ī*. The *š* in Persian and Aramaic words became often a *s* in Arabic.

The reasons for this change do not seem quite clear. But we know that in later Nabataean *š* was very probably pronounced *s*, and the original sign for *š* was used for *s* so that the Arabs in their own words had to invent a new *š* by adding the three dots (س *s* and ش *š*).

A similar development is known from Ethiopic and the modern Semitic languages of Ethiopia (ሰ *s* and መ *š* in Ethiopic are both pronounced *s*, the Amharic has developed a ሸ *š* from the Ethiopic ሰ *s*).

32

== وقال بعضهم كوسق وقالوا كريق وقالوا قريق وقال الرازي :

يا ابن ربيع هل لها من متبق ما شربت بعد طوى القريق

من قطرة غير النجاء الأوق

وقالوا كيلفة ، ويدلون من الحرف الذى بين الياء والفاء ، الفاء نحو البرند والفندق . وربما أبدلوا الياء لأنهما قريبتان جميعاً ، قال بعضهم البرند فأبدل مطرد فى كل حرف ليس من حروفهم ، يبدل منه ما قرب منه من حروف الأعمجية ، ومثل ذلك تغيير الحركة التى فى زور وآشوب ، فيقولون زور وآشوب وهو التخليط ، لأن هذا ليس من كلامهم . وأما ما لا يطرد فيه البديل ، فالحرف الذى هو من حروف العرب نحو سين سراويل وعين اسماعيل ، أبدلوا تغييره الذى قد لزم ، فغيروه لما ذكرت من التشبيه بالإضافة ، فأبدلوا من السين محو فى المحس والانلال من بين النتايا ، وأبدلوا من الهزة العين ، لأنها أشبه الحروف بالهزة . وقالوا قشاييل ، فأنبوا الآخر بالأول لتقريبه فى العدد لأنى المخرج .

some very important observations of his own about the treatment of foreign words and about the changements which these words underwent in Arabic⁽¹⁾.

(1) Sibawaih, kitāb, II, Cairo 1316 H. pp. 342, 343.

باب ما أعرب من الأجنبية :

أعلم أنهم مما يتفرون من الحروف الأجنبية ما ليس من حروفهم البتة ، فربما ألحقوه ببناء كلامهم ، وربما لم يلحقوه . فأما ما ألحقوه ببناء كلامهم : فقدم ألحقوه ببناء هجر ، وديرج ألحقوه بسهل ، ودينار ألحقوه بدياس ودياج ألحقوه كذلك . وقالوا اسحق فالحقوه بإعصار ، ويمتوب فالحقوه بيمروج ، وجورب فالحقوه بدوعل ، وقالوا أجور فالحقوه بانول ، وقالوا شبارق فالحقوه بهذافر ، ودرستاق فالحقوه بقرطاس ، لما أرادوا أن يسموه ألحقوه ببناء كلامهم كما يلحقون الحروف بالحروف العربية ، وربما غيروا حاله من حاله في الأجنبية مع الحائهم بالعربية غير الحروف العربية ، فأبدلوا مكان الحرف الذي هو لغير العربية غيره ، وغيروا الحركة وأبدلوا مكان الزيادة ، ولا يبدلون به بناء كلامهم لأنه أجنبي الأصل ، فلا تبلغ قوته عندهم إلى أن يبلغ بناءهم ، وإنما دهم إلى ذلك أن الأجنبية يتغير ما دخلها العربية بإبدال حروفها ، فلهذه هذا التنبيه على أن أبدلوا وغيروا الحركة كما يتفرون في الإضافة إذا قلوا من نحو زباني وقتني . وربما حذفوا كما يحذفون في الإضافة ، وي زيدون كما ي زيدون فيما يبدلون به البناء وما لا يبدلون به بناءهم ، وذلك نحو آجر وإبريم واسماعيل وسراويل وبنفوز والقمريان . وقد فعلوا ذلك بما أغلغ ببناءهم وما لم يلحق من التنبيه والاببدال والزيادة والحذف لما يلزم من التنبيه . وربما تركوا الاسم على حاله إذا كانت حروفه من حروفهم كان على بناءهم أو لم يكن نحو خراسان وخرم والكركم . وربما غيروا الحرف الذي ليس من حروفهم ولم يتفرون عن بناءه في القنارية نحو فرند وبنم وآجر وديرج .

باب اطراء الإبدال في القنارية :

يبدلون من الحرف الذي بين الكاف والجيم الجيم ، لقرابتهما ولم يكن من إبدالها بدلائها ليست من حروفهم وذلك نحو الجريز والأجر والجورب . وربما أبدلوا التاف لأنها قريبة أيضا ، قال بعضهم قرز وقالوا كريق وقريق . ويبدلون مكان آخر الحرف الذي لا يثبت في كلامهم إذا وصلوا الجيم ، وذلك نحو كوسة وموزة ، لأن هذه الحروف تبدل وتحذف في كلام العرب هزة مرة وباء مرة أخرى ، فلما كان هذا الآخر لا يثبت أو آخر كلامهم صار بخرته حرف ليس من حروفهم ، وأبدلوا الجيم لأن الجيم قريبة من الياء ، وهي من حروف البدل ، والهاء قد تشبه الياء ، ولأن الياء أيضا قد تقع آخره ، فلما كان كذلك أبدلها منها كما أبدلوا من الكاف وجبلوا الجيم أولى لأنها قد أبدلت من الحرف الأجنبي الذي بين الكاف والجيم فكانوا عليها أمضى . وربما أدخلت التاف عليها كما أدخلت عليها في الأول ، فترك بينها ،

Many of the Persian words in Aramaic were in pre-Islamic times transmitted to the Arabs. A conspicuous one of them is the word *rizq* رزق, which was entirely Arabicized and from which a verb *rasaga* was formed. The Persian original of *rizq* is *rōziq*, which means "daily", and it may mean "the daily food" or "the daily payment"; it came to the Arabs from Aramaic. The Arabic form *rizq* was taken over by the Europeans; the word *risico* in Italian (also the forms: *rischio*, *risicare*, *rischiare*), the word *arrieco* in Spanish (other forms: *risco* and *arriacar*), the word *risque* in French (another form: *risquer*), the word *risk* in English, the word *risiko* in German (another form: *riskieren*) were derived from it. But its meaning has been changed a little; for *risk* means something uncertain, and when this word was adopted by the Europeans they thought of the uncertainty of the daily fortune of mankind.

There are three facts that may enable us to recognize the foreign origin of a word in a special language, and here we have to do with Persian words in Arabic.

1. If a word has no etymology in classical Arabic it is suspect of foreign origin.
2. If such a word occurs with a similar meaning in Persian we are allowed to assume that the Arabic word was derived from the Persian;
3. The vowels of such words are in Arabic often not stable but vary to some extent.

Some Orientalists thought that foreign words in Arabic could not have a broken plural, but that is not the case. For the plural of "qaṣr" is "quṣūr", the plural of "qonṣul" is "qanāṣil".

Ancient Arabic scholars, philologists and grammarians, were well acquainted with the fact that their language contained foreign words. Even al-Ḥalīl ibn Aḥmad knew this fact, and some of his statements were reported by his pupil Sibawaih. But Sibawaih himself gave

same word. But such etymologies can only be certain whenever all the different stages of the development of a special word are known to us.

The nearest country to Arabia is Syria, and there and in Palestine Aramaic was spoken in different dialects from about the fifth century B.C. until the rise of Islam. Arabs came to Syria even before the general conquest of the country. There were Arabic rulers in Urfa (Edessa), in Tadmor (Palmyra), in Hims, and the Nabatean Arabs ruled over parts of Syria and of Palestine. And the Prophet as a young man went to Bosra. Words of foreign origin reached the Arabs mostly through the medium of Aramaic, also the Persian words in the first times; later on, in the time when Baghdad was the capital of the Abbasid caliphs, Persian words were taken over directly by Moslem Arabs.

Foreign words were often thoroughly arabicized. Let us take a few significant examples *balad*, *ṣirāṭ*, *qaṣr* and *sign* (بلد - مرآط - نمر). These words were originally Latin, but they sound so genuinely Arabic that they are scarce by suspected to be of foreign origin. But we have the Latin words *castra*, *strata*, *palatium* and *signum*. *Castra* means originally an encampment of soldiers; *strata* means a built road; *palatium* a palace or a large building. Now the Romans were ruling a long time in Syria, and it is most natural that words connected with their military government were known to the inhabitants of the countries of their empire. *Castra* and *strata* were also adopted by the people of England before the Anglo-Saxon invasion, in the form *chester* and *street*. Another Latin word come through Greek and Coptic, the word for prison: *sign*.

Persians and Aramaeans were living near each other in Mesopotamia for centuries, and they exchanged words of their languages in a great many cases. Persian words were accepted in Aramaic, and Aramaic words in Persian. When the Persians conquered a large part of the Near East, they adopted Aramaic as their official language, and there must have been interpreters all over the Persian empire who interpreted the Aramaic texts. Later on the Persians adopted the Aramaic script for their own language, Pehlevi = Middle Persian.

PERSIAN WORDS IN ANCIENT ARABIC

BY
MURAD KAMIL

It is well known that the ancient North Arabians were not only a nation of tribes that wandered about only in arid peninsula, but that they had connection with the civilization of the ancient world in many respects.

Of course, they knew the highly developed civilization of Southern Arabia. On the other hand they came into contact with Egypt, Syria and Persia. A good example of this fact is the famous inscription from Taima in Northern Arabia. It dates from the fifth or the fourth century B.C. The inscription is in the Aramaic language, and it reports the introduction of an Aramaic god. But a sculpture on the stone of this inscription is in Egyptian style, and a name mentioned in it is of Babylonian origin.

An old Persian word that went all over the world is the name of the rose. The rose came from Persia; think of the roses of Shiraz praised by the later Persian poets! The history of the word for rose is very interesting. Its old Persian form is *wurdo*; we can easily see that it became *ward* in Arabic. The Greeks adopted it in the form *wordon*; but the *w* was then dropped, and the word became *rodon* ρόδον. Its plural form is *roda*, and this form, pronounced *rodha*, became *rosa* in Latin; and from *rosa* all the European words for this flower originated. In Middle Persian, the language which is called Pehlevi, the *w* at the beginning became *g* and *rd* became *l* (لا. رنخا), and the ending was dropped; so the ancient *wurdo* was then *gul* (لا. رنخا), and later in modern Persian *gul*. The Turks pronounced the *u* as *ü* in German and the *u* in French; therefore the Turkish word for *rose* is *gül*. Now we see that *ward*, *gül* and *rosa* are all the

In 1900 the Benadir colony was placed again under the rule of another Company, namely the "Società Anònima Commerciale Italiana del Benadir". But with no better results. Thus, for the second time, the Italian government was obliged in 1905 to take over the administration of Benadir. The Italians were again determined to open up and to invade the interior of the country, thereby making of these regions an integral part of their zone of influence in Eastern Africa.

Expeditions were thereupon sent to the Juba and to the Webbi Shebéli basins⁽¹⁾; with the result that Menelik II was persuaded on 16 May 1908 to conclude with the Italians a treaty, the first of its kind in the early years of the present century to define the frontiers of Italian Somaliland⁽²⁾. By this treaty, the length of the Italian Somaliland frontier from northeast to southwest is calculated at some 1800 kilometres, whereas the length of this line from southeast to northwest is reckoned to vary from only 160 to some 400 Kilometres⁽³⁾.

Thus ends the story of the settlement of the Italians in Eritrea and Somaliland. The creation of these two colonies was the net result of Italian enterprise and effort devoted to empire building in these regions, in the latter part of the 19th and the early part of the 20th centuries.

(1) Villari: *Idem*, p. 54.

(2) Rossetti: *op cit.* pp. 399-401; Hertalet: *Ibid.* Vol 2, pp. 1223-24.

(3) United Nations: *The trust territory of Somaliland*, p. 161.

a most crushing defeat first at the battle of Amba Alagi (7 December 1895), and two months later, at that of Adowa (1 March 1896)⁽¹⁾.

In this manner therefore were ended the imperialistic ambitions of Italy in Ethiopia, never to be revived again with any fair prospect of realization until the following century. At Amba Alagi and Adowa, the defeat that was inflicted upon the Italian forces, was of a kind never before experienced by any European Army in Africa. Indeed, this defeat was a severe blow delivered not only at Italy's credit, but at that of Europeans in general in Africa⁽²⁾.

Yet these very defeats seem to have had a salutary effect on the fortunes of the Italians and their possessions in Eritrea and the Somaliland. Henceforward they appeared determined not to sustain further sacrifices in men and money; and the cry of both people and government was for the rescue and preservation of the proper Italian colonies in Eastern Africa, namely those of Eritrea and the Somaliland.

Judging too expensive the defence against the Mahdists of the widely extended western frontier of Eritrea, the Italian government decided to evacuate Kassala and to restore it to the Egyptians. Thus in December 1897, Kassala was ceded to Egypt. From the 25th of this month, "the fort of Kassala, with all its buildings, fortifications, and dependencies, had become the full and effective property of the Khedive's government"⁽³⁾.

In Benadir, in the meantime, the contract of the Filonardi Company had expired on 15 July 1896, and the administration of the "Colonia del Benadir" was taken over by the government. Until the end of 1896, Benadir continued under the rule of the government. Since both administrations—those of the government and the Filonardi Company—were characterised with corruption and fanaticism, the inhabitants of Benadir could derive no benefit therefrom.

(1) Ximenes, E.: *Sul campo di Adua* (Milano 1897), pp. 250, 270-271; Mathew, D.: *Ethiopia, the study of a polity* (London 1947), p. 233; Berkeley; Idem, pp. 272-244.

(2) Sanderson: *Idem*, p. 228.

(3) Hertslet: *Loc. cit.* Vol. 8. Doc. N. 889, pp. 1109-1110.

since 1889. The local sultans of Obbia and Mijertin, continued therefore to administer their territories, although a new convention was signed by the Sultan of Mijertin (Osman Mahmud) on 18 August 1901. In this treaty, Osman Mahmud had placed himself, his sultanate, and the whole of the territory of the Mijertin under the protection of Italy. But no penetration was possible. Indeed it was only after the lapse of so many years that it became possible that this northern part of the Somali coast (containing Obbia and Mijertin) could be placed effectually under Italian control and influence. In 1925-1927, Italy had to undertake military action in the northern Somaliland in order to bring directly under Italian sovereignty the protectorates of Obbia and the Mijertin⁽¹⁾.

Yet it so happened that whilst the Italians seemed to be so greatly preoccupied with the task of building up their empire, all their plans for dominance in Africa appeared suddenly to crash to the ground and so to speak at one stroke crumble to dust. For the Italians were decisively defeated in battle in the middle nineties, at the hands of the Abyssians.

Not content with their territorial gains in Eritrea and the Eastern Sudan (Kassala), the Italians had entertained plans for the conquest of Ethiopia. Their immediate aim was the annexation of the kingdom of Tigré. And in 1894-1895 they began against the Tigreans what became known as the Italo-Tigrean War; a war which ended in the incorporation of Tigré into their Colony of Eritrea⁽²⁾.

This success, however, was shortlived. For under the leadership of Menelik II, the Ethiopians were induced to sink their differences. They gathered their forces; and in a united effort to oust the Italians, they waged against the latter what became known as the Italo-Ethiopian War of 1895-1896. They inflicted on the Italians

(1) United Nations: The trust territory of Somaliland under Italian administration (1962), p. 46.

(2) Cesari, O.: *Manuale di Storia Coloniale* (Bologna 1937), p. 32.

The Italians, therefore, were able to occupy the Benadir coast by the help of the British. Always anxious to wreck French colonial plans in these regions, the British had considered it advisable to encourage the Italians to annex the Somaliland coast adjacent to the Indian Ocean⁽¹⁾. They were afraid of the activities of the French on the African coast, which threatened their colony at Aden, and menaced the supremacy of the British fleet in the Arabian Sea and the Indian Ocean. More than anything else, the British were determined to prevent the French from penetrating through the eastern coast into the heart of both of Ethiopia and the Sudan, and from by this means reaching the River Nile. The British and the Italians had therefore signed the protocol of 24 March 1891, already referred to above, delimiting their respective spheres of influence in East Africa.

As a result of all of these Agreements, the control of Italy was extended in 1892 from the Juba river northward to the sixth parallel; and the Italian flag was to fly at most of the landing stages, from Cape Gardafui along the Somaliland and the Benadir coast, to the Juba river.

In 1893 the administration of the Benadir country, was entrusted to the Pilonardi Company⁽²⁾, since Italy was still suffering from the effects of her financial crisis. In the meantime, however, penetration inland from the Somali coast was continued. A number of successive small expeditions under Vittorio Bottego and Ugo Ferrandi, were organised by the Authorities at Rome for expansion in the interior⁽³⁾.

Yet in contrast with this progress achieved in Benadir, Italy was unable to make any headway in the northern part of the Somaliland coast (facing the Indian Ocean). And this in spite of the fact that this part of the coast had been placed under the protection of Italy

(1) Harruz, E.R.: Loc. cit., pp. 425-426.

(2) Documenti Diplomatici N. XIII. Roma 1895 (il ministro degli affari esteri al Capitano V. Pilonardi. Roma, 11 Maggio 1893. Doc. N. 66, pp. 111-112).

(3) Corri, G.: *Somalia Italiana*. Vol. 1, (Milano 1937), p. 63; Chiesi, G.: *La Colonizzazione Europea nell'est Africa* (Napoli 1909), p. 566.

Jmberto 1". They also agreed that the Italian flag be hoisted in their respective countries; and they pledged themselves not to "make treaties or enter into contracts with any other governments or persons". These two agreements with the local sultans were immediately notified by Rome to the Powers⁽¹⁾, and they laid the basis of the future Italian Somaliland colony, placed between British Somaliland and British East Africa (Kenya), facing the Indian Ocean, and touching in the hinterland upon the ill-defined frontiers of Ethiopia.

Shortly after these events, and with the conclusion of the Ucciali treaty (May 1889), fresh efforts were started to consolidate Italian dominions in the Somaliland. With a view to securing their permanent settlement in these parts, and to ensuring the prosperity of their coveted African Empire, steps were taken to annex Benadir, the southern part of the Somali coast. Benadir was the natural trading outlet for southern Abyssinia. Benadir, however, formed part of Zanzibar's dominions in East Africa; and thanks to the good offices of Britain, the Sultan of Zanzibar, being under British protection since 1890 (2), was persuaded to grant Italy full rights and privileges of possession in the Benadir Coast. By the terms of the agreement concluded at Zanzibar on 12 August 1892, between the Italian consul, Ignor. Cottoni, and the British Consul general Gerald Portal, the Sultan of Zanzibar made over to the Italian government "all the powers which he had possessed over the towns and the ports of the Benadir coast, namely, Brava, Merka, Mogadishu, each with a radius landwards of 10 sea miles, and Warsheikh, with a radius landwards of 5 sea miles, and the islands in their vicinity". Furthermore, the Italian government was authorised to concede the administration of the towns and the ports in the Benadir coast, to some Italian company, which would be charged with the Administration of these places (3).

(1) Paukhurst, S.: *Ex-Italian Somaliland*, p. 51.

(2) Lyne: *Zanzibar in contemporary times* (London 1905), p. 186.

(3) Hertslet: *Op. cit.*, Vol. 3. Doc. N. 331, pp. 1094-1100.

on the part of the Italian forces does not prejudice any territorial question (namely Egypt's sovereignty over Kassala and the adjacent country)... It places Italy in a position co-occupant with England of Egyptian territory in virtue of interests which are common to both countries" (1). Italy's influence, accordingly, reached the Atbara River in the Eastern Sudan, and the western frontier of the Italian colony was therefore extended to a distance of 250 miles inland from Massaua (2).

Italy's next move was to expand and consolidate her possessions in what has become subsequently known as Italian Somaliland. As early as 1883, she had cast her eyes on the territories lying on the Somaliland coast of the Indian Ocean. In the previous year, the Italian government had dispatched His Majesty's ship "Barbarigo" of the Royal Italian navy, round the corner of cape Gardafui, to visit the Sultan of Zanzibar and to explore the mouth of the Juba River. On 28 April 1885, Captain Antonio Cecchi, the head of this expedition, and Signor Fecarotta captain of the "Barbarigo", concluded with the sultan, Burghash bin Said, a commercial treaty, which gave Italy "important commercial privileges" (3). In 1888, another expedition under the command of Vincenzo Filonardi landed at Obbia, and Filonardi with the approval of the local sultan, succeeded on

February 1889 in bringing under Italian control the sultanate of Obbia (4). Two months later (April 1889) Filonardi concluded with Osman Mahmud the sultan of Mijertin, another agreement, by virtue of which the sultanate of Mijertin was placed under Italian suzerainty (5). For by the terms of these two treaties, both sultans, of Obbia and of Mijertin, agreed "to place their country and all their possessions under the protection and government of the king of Italy,

(1) Shibeika : op cit, p. 331.

(2) Sanderson : Idem, p. 228.

(3) Documenti Diplomatici presentati al Parlamento Italiano dal ministro degli affari esteri (Blanc). N. XIII, Roma 1896, Doc. N. 1, p. 3.

(4) Il R. Console in Zanzibar al ministro ad interim degli affari esteri, Aden, 18 Febbraio 1889. Doc. N. 10, pp. 74-75.

(5) Ibid. ; Aden, 9 Aprile 1889. Doc. N. 11, pp. 38-40 ; Hertslet : op. cit. Vol. 3, Doc. N. 346, p. 1119.

should the necessities of the military situation render such occupation unavoidable. Yet this occupation of Kassala and adjacent territory by the Italian forces, was by no means to become permanent. For, it was further stipulated in the same Article, that notwithstanding occupation, all rights of sovereignty over Kassala and surrounding country would be reserved for Egypt, and that these places should be restored to Egypt when the time came for the Egyptian government to be in a position to re-occupy these districts⁽¹⁾.

Evidently, the British government was no longer of the opinion that these parts of the Sudan were "lands without owner": (Res Nullius); and that, on the contrary, a temporary suspension or abeyance of Egypt's rights of sovereignty over the whole Sudan was all the injury that could be caused in this respect by the establishment of the Mahdist rule in the Sudan.

These Protocols however, were left unratified. And no action at the time was taken by the Italians to enforce Article II of the 15th April 1891 Agreement. Once Signor Crispi was returned to power, nearly two years and a half later, (in December 1893), measures were then taken to make good the stipulations especially of the "Kassala Protocol". Thus on 11 July 1894, Crispi, by telegraph, instructed Baratieri, the military governor of Eritrea to act as he might fit see against the Mahdists who were menacing his colony (Eritrea) from their advance post at Kassala.⁽²⁾ And Baratieri was given a (carte blanche) to carry out his instructions the way he considered most effective.

With a force of 2500 strong, Baratieri began his march upon Kassala; and on 17 July 1894, this stronghold of the Mahdists fell in less than three hours and was captured by the Italians⁽³⁾.

To allay the suspicions of England, the Italian government announced soon after the fall of Kassala that "this military operation

(1) Hertalet: Op. cit., vol. 3, Doc. N. 289, pp. 949-950.

(2) Berkeley: op. cit, p. 280.

(3) Frisina, F: L'Italia in Africa, pp. 61-62; Mantegazza. V.: Idem, pp. 208-218.

and in order to open up and to establish under their authority a regular trade route to one of the Red Sea ports. The Italians were therefore compelled to wage war against the Mahdists. They had to maintain the security of their colony of Eritrea on the one hand, and on the other to watch over the safety of their prospective Ethiopian Empire.

The first clash between the Italians and the Dervishes took place in the battle of Agordat on 27 June 1890, in the northern part of Eritrea, where the Mahdists were defeated⁽¹⁾. Two years later, the Mahdists resumed operations in June 1892; and this with a view to raiding into Eritrea. But again they failed in their efforts.

These initial successes though militarily of little importance were to encourage the Italians at Rome to attempt new annexations; and this time in the Sudan.

The rule of the Khalifa Abdullahi at Omdurman was harsh and despotic⁽²⁾. Internal conditions were chaotic. Discontent was rife against the Khalifa's rule⁽³⁾. And the Italians therefore believed that they would have every chance of success if they tried penetration into the Eastern Sudan.

The fall of Crispi on 31 January 1891, had led to the formation of the Di Rudini Cabinet. It was known of Di Rudini that he was a politician not interested in colonisation in Africa. A fact which was conducive to persuading the British government to conclude two agreements or protocols with the Italians. The first was signed on 24 March 1891; and the second on the 15th of April of the same year. The purpose of these protocols was to define the Italian and the British spheres of influence in East Africa. Article II of the Protocol of April the 15th calls for special attention, since Italy was given by virtue of this Article her first opportunity to penetrate into the Eastern Sudan. It was stipulated in this Article that the Italian troops could occupy Kassala and the adjoining country as far as the Atbara River

(1) Mantegazza, V: *La Guerra in Africa* (Firenze 1896), pp. 153-154.

(2) Shukry, M. F: *Egypt and the Sudan* (in Arabic), pp 416-417.

(3) Shibeika, M: *Idem*, p. 330 (quotes from memorandum by Kitchener to Cromer on 19 June 1894. P.R.O., F.O. 78/4576).

Moreover, the Italian government by virtue of Article 18 has also maintained her commercial and economic prestige in Abyssinia. For this Article provided that "whenever His Majesty the king of Ethiopia at any time should have the intention of granting special privileges to subjects of a third state in regard to the establishment of houses of commerce or manufactures in Ethiopia, he shall always give preference, when all other conditions are equal, to Italians".

Thanks to Article II of the additional convention of 1 October 1889, the Italians were given the chance to strengthen their position, politically in the territories of the Red Sea coast. Since this Article reads that "King Menelik recognizes the sovereignty of the king of Italy in the colonies which go under the name of Italian possessions in the Red Sea". And all these advantages were gained by the Italians despite the difficulties which were soon to make their appearance and to render dangerously strained the relations between Ethiopia and Italy.

In the meantime, the Italians strained every effort to consolidate and to unite in one colony their possessions along the Red Sea coast. They considered this consolidation necessary as a preparatory step to creeping up into the heart of Ethiopia⁽¹⁾, in order to bring this country—and this in fulfilment of the Ucciali treaty—under their power⁽²⁾. In this way, Eritrea came into existence. On 1 January 1890, the establishment of "Colonia Eritrea" was formally proclaimed by Humbert I, King of Italy⁽³⁾.

In consequence of the formation of this colony of Eritrea, and at the same time as a result of the Ucciali treaty, the Italians began to turn their eyes towards the Eastern Sudan. Here the Mahdists had been advancing in the direction of the Red Sea littoral, in the hope of expelling the Italians from their newly proclaimed Eritrean colony,

(¹) Sabry, M.: *The Sudanese Empire in the Nineteenth century* (in Arabic), p. 244.

سبري : الامبراطورية السودانية في القرن التاسع عشر ، ص ٢٤٤ (الطبعة ١٩٤٨).

(²) Harraz, E.R.: *Op. cit.* p. 227.

(³) Crispi. F.: *Loc. cit.*, pp. 198-201; Longrigg: *Ibid.*, p. 120.

Italian" — as Berkeley says — "had been at Menelik's court for many years and had entirely won (or flattered himself that he had won) the confidence of the Shoa Monarch. He had forseen, from the moment he arrived as resident at Shoa, the future possibilities for that little kingdom". He had made himself the friend of the queen Taitu, "A woman of great character, niece of John an wife of Menelik (1)". It was after the name of this diplomat that this new departure of approach to the Ethiopian "problem" was termed the "Antonellian policy (2)". It consisted mainly in helping and backing up the southern kingdom of Shoa and its negus, Menelik II, as a counter balance to the leadership and pretensions of Tigré in the north east, the country of the late emperor John IV and his natural son, Ras Mangasha.

A speedy outcome of this new policy, was the conclusion of the famous, or rather notorious treaty of Ucciali between Italy and the Negus Menelik on 2 May 1889 (3) (with an additional convention in October of the same year) (4).

The treaty of Ucciali marks the zenith of Italian supremacy in Abyssinian politics. In Article 17, it was stipulated, according to the Italian text, that "His Majesty the king of kings (Menelik) consents to avail himself of the Italian government for any negotiations which he may enter into with the other powers or governments". In other words, Menelik was to treat with the foreign powers only through the medium of Italy. A fact which would mean that the whole of Ethiopia was virtually placed under the "protection" of Italy; and that the country was simply constituted a zone of Italian political influence.

(1) Berkeley: *Idem*, p. 7.

(2) Harraz, E.R.: The spread of Italian political influence in East Africa in the Nineteenth century (in Arabic), pp. 211-216. Thesis submitted to Cairo University for the degree of M.A. (1958).

حراز : انتشار نفوذ إيطاليا السياسية في شرق افريقية في القرن التاسع عشر .

(3) Rossetti, C.: *Op. cit.*, pp. 41-44; Crispi, F.: *Idem*, pp. 155-159; Hertslet: *Loc. cit.*, vol. 2, pp. 454-455.

(4) Rossetti, C.: *Idem.*, pp. 45-47; Crispi, F.: *Ibid.*, pp. 160-161, Hertslet: *op cit.*, vol. 2, pp. 456-457.

Tigré (in the north east). Because of this disagreement between Menelik and Mangasha, the Italians by taking an active part in local politics, were able to realize, almost with complete success, their ambitious colonial plans.

No doubt there were other factors which were equally effective in the furtherance of Italian designs, and which bore even more lasting results. We refer to the colonial rivalry between England and France in these parts of Africa. Since in order to hamper and check French influence, the British were prepared to encourage the Italians to persist in their colonial efforts. An attitude which resulted in enabling the Italians to extend their territories along the Red Sea coast, from Ras Casar in the north to the boundaries of Obock, the Colony the French had possessed, in the south. Shortly afterwards, the Italians had succeeded since 1889 also, and as we have already pointed out, in securing the three northern provinces of Seräe, Oculé Kusai and Hamacen.

A great incentive for the accomplishment of this feat, was indeed provided by the timely death of Negus John IV, and this because of the state of anarchy which prevailed at that time in Abyssinia⁽¹⁾. Menelik, Negus of Shoa was the claimant to the imperial throne. Around him were centred the hopes and the intrigues of the Italian government, whose purpose was to place the whole Ethiopian Empire under the sole sovereignty of Italy.

A new policy of peace and friendship with Menelik of Shoa was therefore hurriedly inaugurated. Promises to help him ascend the imperial throne were reiterated. And in return for their assistance, the Italians required of the Negus to acknowledge them as the protectors of his Ethiopian Empire.

The man responsible for the initiation and development of this policy was Pietro Antonelli, the Italian diplomat who had negotiated in 1883 the first treaty between Italy and Shoa. "This ambitious

(1) Documenti Diplomatici N. XIV. Roma. (il comandante superiore in Massoua al ministro della guerra; Massoua, 3 Aprile 1889. Doc. N. 46, pp. 39-40.

no time occupied the three northern provinces of Abyssinia, namely, Serae, Oculé Kusai and Hamacen (1889). there, Baldissera established his boundary along the line of the rivers Mareb, Belesa and Muna (1).

But how the Italians were successful in penetrating into Abyssinia and occupying easily these northern provinces, can be explained by the fact that internal conditions were at that time almost anarchic, and that the country was too weak and divided to oppose aggression.

For it is a fact, that as much as the weakness of the Khedive's Egypt and the spread of the Mahdist rebellion in the Sudan were conducive to a large extent to the success of Italian plans in the Red Sea littoral, there is no denying the truth that factional rivalries and quarrels among the Abyssinian chiefs or Rases, and the absence of a strong central government were likewise responsible for the success of early Italian designs on Ethiopia. We must remember that Abyssinia in the 19th century, as an eminent writer has put recently it, "was a congeries of feudal principalities loosely held together by the king of kings, when he was strong enough to impose his authority on the local chieftains (2)". But when Ethiopia lacked such a powerful king of kings (or Negus Negasti), intrigues and quarrels between the Rases or feudal lords became rife, each chief coveting the possession of the Imperial throne of Abyssinia. And this was what actually happened after death of John IV at the battle of Gallabat (or Metemneh) in March 1889, at the hands of the Mahdists. The victors were able to cut off the head of the fallen Negus Negasti and to send it to Omdurman, where it was paraded in the market-place, as a proof of the Dervishes' victory (3). Two powerful claimants quarrelled over the Imperial throne of Abyssinia: Menelik II Negus of Shoa (in the south), and Ras Mangasha the natural son of the dead emperor, and who belonged to

(1) Berkeley: The Campaign of Adowa and the rise of Menelik (London 1935), p. 5.

(2) Langer, W: Idem, p. 109.

(3) Shoucair, N: The history and geography of the Sudan (in Arabic), Vol 3, (Cairo-1903) p. 487.

نور شقير: تاريخ السودان الحديث وجغرافيته. ج ٣ ص ٤٨٧

Sanderson, E: Africa in the Nineteenth century (London), pp. 230-221.

On 25 July 1888, Crispi declared Massaua to be under the sovereignty of Italy⁽¹⁾. He built his declaration on the ground that the evacuation of the Sudan by Egypt in 1884 had rendered Massaua a "land without owner" (*Res Nullius*). In Crispi's opinion therefore Italy had the right to bring Massaua—if she could do so—under her own sovereignty; a step which Crispi was taking now after three years of Italy landing her troops in Massaua.

Needless to say Crispi's pretensions were based on wrong argumentation; for the simple fact that in 1885 when Italy landed her troops in the island of Massaua, the Egyptians were in actual occupation there. More important still, the Egyptian garrison stayed on in the island for nearly twelve months after the occupation. They remained side by side with the Italian forces in Massaua. It was only when General Saletta the commander of the Italian troops in Massaua, became determined to put an end to Egyptian influence, that the Egyptian troops were evacuated and despatched by the Italian authorities to Suez in Egypt). Furthermore, for 10 months (5 February—5 December 1885), the Egyptian flag continued to be hoisted beside the Italian one over the governmental buildings at Massaua. All these facts should dispute Crispi's pretension that Massaua, after the evacuation of the Sudan, was "*Res Nullius*". They should prove on the contrary that Italy—in Sanguinetti's words—"s'était établie à Massouah par un pur coup de force et ne pouvait produire aucun titre juridique de possession valable". Indeed Sanguinetti continues to say that "*Le caractère de cette occupation était nettement illégitime*"⁽²⁾.

At any rate, soon after declaring Massaua under their sovereignty, the Italians were able to push inland and to establish a number of small forts and outposts bordering on Abyssinian northern territory. Skirmishes with Tigreans began. And a short time afterwards the Italians under general Baldissera, swept down from the north, and in

(1) Sarhank, J: Authentic history of World States (in Arabic), Vol. 2, p 501-3.

سرهنك : حقائق الأخبار عن دول البحار ج ٢ ص ٥٠١ — ٥٠٣

(2) Sanguinetti, J: Pénétration Européenne en Ethiopie (Montpellier 1907) pp 64-65.

expedition to Massaua, since the British had looked favourably upon the establishment of Italy's sway in this region, hoping thereby first to gain the help of the Italians, in preventing the spread of Dervish influence to the Red Sea littoral; and secondly to hinder the French who were active in East Africa, from capturing Massaua and becoming near neighbours of Occupied Egypt.

However, this unjustifiable annexation of Massaua, had enabled Italy in the middle eighties to extend her possessions all along the Red Sea littoral between Assab in the south and Massaua in the north. By the end of 1885 all the important centres in this area, namely Monkullo, Ottumlo, Arkiko, Arafali, Zula, Meder and Edd were annexed by the Italians.

After this initial success, the Italians were determined henceforward to spare no effort to erect a large colonial empire in East Africa. Serious attempts were made to bring under their rule and protection the Somaliland Coast (of the Indian Ocean) (1). They endeavoured to obliterate every vestige of former Egyptian influence, and to substitute for Egyptian hegemony in the western coast of Red Sea, their own supremacy.

A new era of this forward colonial policy in Africa may be considered to have begun by the accession to power in 1887 of Francesco Crispi, and this after the death of Depretis on the 29th July of the same year. The new Premier was a firm believer in modern imperialism; and he is said "to have been the first among Italian statesmen to have held the large conception of a substantial empire (2)". After one year in office, he was able to declare in the Chamber in May 1888: "Colonies are a necessity of modern life. We cannot remain inactive and allow other, powers to occupy all the unexplored parts of the world (3)". Indeed, Crispi's dream—as Ravier says—was to "constituer en Afrique Orientale un immense empire colonial Italien" (4).

(1) Villari, L: *op. cit.* p. 53.

(2) Albrecht-Carrié: *Loc. cit.* p. 220.

(3) Langer, W: *Diplomacy of imperialism* (New York 1951), p. 272.

(4) Ravier, T: *L'Éthiopie et l'expansion Européenne en Afrique Orientale* (Lyon 1910), pp 42-43.

the Negus (or ruler) of Shoa, Menelik II, on the 21st May of the same year⁽¹⁾. These two agreements enabled the Italians on the one hand to strengthen their influence in Aussa and the Danakil coast, and on the other to obtain Menelik's help in improving their centre at Assab by persuading him to develop his commercial relations with this colony. Article IX of the agreement with the negus Menelik stipulated that "the two contracting parties shall do all in their power to establish frequent and safe commercial intercourse between the states of his Majesty the king of Shoa and the colony of Assab".

However, this first phase of settlement by peaceful means soon came to an end. A new phase of settlement by this time warlike action was started; and this in conformity with the teachings of the aggressive policy of Mancini and Crispi adopted by the new school of colonial expansion. Therefore, on 5 February 1885 an armed attack was launched against Massaua⁽²⁾, and this despite the fact that since 1865 Massaua had been an Egyptian property⁽³⁾. Turkey, by virtue of her suzerain rights over Egypt, hastened to lodge her protest against Italy's encroachment, and threatened the Italians with armed action. But the situation was eased thanks to the good offices of Britain. For acting upon the advice of the English government, the Sublim Porte agreed to accept an Italian declaration to the effect that the rights of territorial sovereignty over Massaua should remain unprejudiced.

No doubt, this forcible landing of the Italian forces in Massaua was made possible—and as Sir Evelyn Baring himself observed afterwards—by the friendly attitude of the English government⁽⁴⁾. For this government had certainly encouraged the despatch of the Italian

(1) Crispi, F: *La prima Guerra d'Africa* (Milano 1914), pp. 65-69. Rossetti: *Idem.*, pp. 7-11; Hertslet: *Ibid.*, Vol. 2, p. 460.

(2) Documenti Diplomatici presentati al parlamento Italiano. N. XVIII (il comandante delle forze navali nel Mer Rosso al ministro della Marina, Massara 6 febbrajo 1885. Doc. N. 15.

(3) Shukry, M. F: *Egypt and the Question of Sovereignty over the Sudan The Historical Background* (in Arabic). p. 41 Cairo 1946.

شكري: مصر والسيادة على السودان. الوضع التاريخي للسادة. ص ٤١ القاهرة ١٩٤٦

(4) Shibaika, Mekki: *British Policy in the Sudan* (Oxford 1953) p. 322.

of Eastern Africa between the littoral and the River Nile, and in the Somaliland (1). Under the Khedivate, comprising Egypt and the Sudan and which was legally constituted first in 1867, Egypt a few years later had found herself deeply involved mainly in financial difficulties. These were dangerously increased through foreign greedy speculation and political interference. They were ended by foisting on Egypt a kind of an "international Mandate (2)", to be followed by the occupation of Egypt by Britain in 1882.

Almost contemporaneous with the British occupation of Egypt was the outbreak of the Mahdist rebellion in the Sudan. And it was in such circumstances that Mancini was able to pursue his colonial policy. Evidently, this policy was to be out carried at the cost of Egypt's interests. For it was Mancini himself who described this colonial policy as being the desire "to pick up the keys of the Mediterranean in the Red Sea (3)".

At first, this new colonial policy took the form of simple commercial enterprise. A trading centre or colony was set up in 1882 at Asas on the Danakil (or Afar) coast, north of the straits of Bab-el-Mandeb. Some twelve years previously (about 1869-1870), this post had been acquired as a coaling (or trading) station by an Italian steamship company, the "Società di Navigazione Rubattino". With a view to maintaining the security of this trading colony, commercial and political relations were started and then developed between this colony and the adjacent states and tribes, especially the sultanate of Aussa, and the kingdom of Shoa. Thanks to the efforts of count Pietro Antonelli, an Italian diplomat, his government concluded two agreements, the first with Mohamed Hanfari (or Anfari) Sultan of Aussa and chief of the Danakils, on 15 March 1883 (4), and the second with

(1) Shukry, M. F: *The Khedive Ismail and Slavery in the Sudan* (Cairo 1939), pp 242-44, 248, 252-56 ; 269-271.

(2) Shukry, M. F: *Egypt and the Sudan* (in Arabic), pp 156-57.

(3) Macartney and Cremona: *Italy's foreign and colonial policy* (Oxford 1938), p. 277, Albrecht-Carrié: *Idem*, p. 218.

(4) Rossetti, C: *Storia Diplomatica dell'Etiopia durante il regno di Menelik II* (Torino 1919), pp. 54-55: Hertslet: *Map of Africa by treaty* (London 1896) Vol. 2, Doc. N. 112, pp. 447-8.

unfavourably at London⁽¹⁾, Italy began to consider plans for expansion in these regions. And this despite the fact that Egypt had for a long time exercised sovereign rights under Ottoman suzerainty over this western Red Sea littoral. In their ignoring and violation of the Egyptian rights, historians are of the opinion, that the Italians were encouraged or even urged to do so, by the British government of the day which was "sympathetic" to Italian designs⁽²⁾.

Signor Mancini (back in office as already mentioned as minister of foreign affairs since 1881) was the advocate of this new colonial policy of Italy in Africa. Indeed he was the first politician to bring to the notice of his compatriots the importance and urgency of carving a zone of influence in Eastern Africa⁽³⁾. Ere long, however, Mancini's activities as minister of foreign affairs terminated in June 1885. The task of building Italy's empire in Africa was persevered in and executed by Signor Francesco Crispi. The latter had risen to the premiership in 1887; and thanks to his efforts there were laid in Africa the foundations of Italy's colonial empire.

Yet for the success of such colonial endeavours by Mancini or by Crispi, a fact of special importance has to be taken into consideration. The Khedivate of Egypt had undergone a profound change since the dethronement of the Khedive Ismail in 1879, and the occupation of Egypt by the British in 1882. And a weak government at Cairo was destined to lose control over affairs in the Sudan. As a result, the Sudan was temporarily lost to Egypt, and this for the benefit of the new Mahdiah masters, who in their turn proved unable to stop the penetration of Italy and the spread of her influence over the Eastern Sudan.

In the seventies Egypt had already succeeded in creating a vast empire in Africa. Her rule and hegemony had extended over the Sudan proper, along the African littoral of the Red Sea, and over parts

(1) Cambridge Modern History, Vol. 12, p. 240.

(2) Neri, Italo: *La Questione del Nilo* (Roma 1939), pp. 75-76; Johnston, H.: *History of the Colonization of Africa* (Cambridge 1889), p. 245; Villari, L.: *Idem*, p. 30.

(3) Villari, L.: *op. cit.*, pp. 30-31.

This conquest of Tunisia by France effected under the pretext of a frontier disturbance with Algeria had caught the Italian prime minister Benedetto Cairoli and his minister of foreign affairs Pasquale Stanislao Mancini by so much surprise that both of them had to resign office rather than face parliament⁽¹⁾. The resignation of Cairoli and Mancini led to the coming back of Agostino Depretis, who now formed his fourth cabinet with Mancini again as minister of foreign affairs. Almost Depretis's first act, and as a result of the loss of Tunisia, was his joining the German—Austrian Pact, a step which gave birth to the Triple Alliance of 1882⁽²⁾. As a member of the alliance, which was renewed from time to time, Italy obtained a place among the European Powers. Thanks to the prestige of the Alliance; Italy's security in Europe was maintained against outside aggression. Moreover, the Alliance was also instrumental, both directly and indirectly, in starting this country on the road of becoming a colonial (and African) power.

Thus in that "scramble for Africa" referred to above, united Italy, acknowledged then as a great power, could by no means be left behind. Therefore, under the protection of the Triple Alliance, Italy was attracted or rather prompted to direct its labours towards the possession of zones of influence in the western coast of the Red Sea. Since the opening of the Suez Canal in 1869, the Red Sea had gained much greater importance, strategically and economically, than before. And as certain historians maintain, this sea had thereby been turned from a Cul-de-Sac into a maritime highway⁽³⁾: a fact which did contribute to the increase in value from political and colonial view—points of the Red Sea littoral. Accordingly, when it was intimated by Britain to the Depretis government in 1884 that, in view of French activity in Eastern Africa, the occupation by a friendly power of certain positions on the Red Sea littoral would not be regarded

(1) Sprigge, C: *The Development of modern Italy* (London 1943), p. 56; Salvatorelli, L: *Concise history of Italy* (London 1946), p. 594.

(2) *Cambridge Modern History*, Vol. 12, pp. 239-240; Struzo, L: *Ibid.*, p. 72; Sprigge, C: *Idem*, p. 58.

(3) Jones and Monroe: *History of Abyssinia* (Oxford 1939), pp. 135-136.

in the post-unification period, were persuaded of the necessity of adopting an expansionist policy in Africa. In doing this, Italy would be following also in the footsteps of the great Continental Powers, whose greatness at that time was usually measured by the extent of their overseas possessions (1).

As a Mediterranean country, Italy had to go looking for colonial possessions in the Mediterranean (2), which is an obvious sphere for her influence. For since the days of Hannibal of Carthage strong links were forged to tie up more or less in an almost un-interrupted fashion the destinies of the southern shores of the Mediterranean with the fate of Italy (3). From the "Risorgimento" onwards, political exiles and refugees found a haven not only in Malta but in Egypt, Tripoli, Algeria and especially in Tunis (4). And it is a well-known fact that with the revival of ambition for expansion after unity, Tunis was the country most coveted by Italy (5); and the Italian politicians looked upon Tunis as their country's first prospective colony in Africa (6).

Many arguments were advanced to explain and to justify a pursuance of this objective. For Tunisian territory was considered a natural extension of the Italian peninsula, the distance which separates Naples from Sicily being equal to that which separates Naples from Rome: "A night at sea under the moon and stars (7)". These hopes, however, were dashed to the ground when France in 1881 suddenly invaded and occupied this corner of North Africa (Tunis), lying opposite Sicily much to the anguish and resentment of the Italian people and government (8).

(1) Ward, B: Italian foreign policy (Oxford 1942), p. 3.

(2) Albrecht-Carrié: Italy from Napoleon to Mussolini (New work 1950), p. 216.

(3) Sencourt, R: Italy (1938), p. 48.

(4) Sturzo, L: Italy and the New World Order (London 1944), p. 30.

(5) Safwat, M: Tunis and the great Powers 1878-1881. (Alexandria 1943) pp. 124-126.

(6) Albrecht-Carrié: op. cit., p. 216.

(7) Sencourt, R: Ibid., p. 49.

(8) Correspondence respecting the affairs of Tunis. No. 2. 1881. (Sir Paget to Earl Granville. Rome, 5 April 1881. Doc. N. 3.

Yet in this study we are concerned only with a certain set of results of this Mahdhist rule, namely the partitioning of several of the Sudanese provinces among the foreign Powers, and the share of Italy therefrom.

Because of its inefficiency, the government of the Mahdists failed to keep intact Sudanese territories in face of the determination of European powers to open up the "Dark Continent" and to divide up its territories among themselves⁽¹⁾.

Italy appeared on the political and colonial scene in the early eighties of the nineteenth century, much more recently than the two other prominent Powers, England and France. As a new contestant for colonial power and possessions, Italy's eyes were first turned towards expansion in East Africa. Her ambition was the emulation of other great colonial powers, which already possessed huge empires in Africa and other continents. It is the story of this Italian expansion in these parts of Eastern Africa, which we shall attempt to relate in the present study.

To begin with there are certain facts connected with Italian expansion in Eastern Africa, which are worthy of note. First, there is the remarkable fact of the rise of Italy as a modern state in the second half of the 19th century was chiefly remarkable because of the establishment of a politically united state and accordingly a more powerful and energetic government mainly responsible for the embarking of Italy on imperialistic ventures. It is worthy of note, that in this modern and united state, various internal problems⁽²⁾, economic, social and political, have cropped up. And these were the natural outcome of Italy's endeavour to achieve national unity. It was in the hope of finding a solution for these problems that Italian governments,

(1) Shukry, M. F.: Egypt and the Sudan. History of the political union of Nile Valley in the Nineteenth century 1820-1899. (Cairo 1957), p. 446.

شكري : مصر والسودان . تاريخ وحدة وادي النيل السياسية في القرن التاسع عشر
١٨٢٠ - ١٨٩٩ . ص ٤٤٦

(2) King, B: History of the Italian unity (London 1912), Vol 2, p. 330; Young, H. The Italian Left (London 1949), p. 2; Villari, L: The expansion of Italy (London 1914), p. 33.

ITALY AND THE BEGINNINGS OF HER COLONIAL EMPIRE IN EAST AFRICA

BY

EL-SAYED RAGAB HARRAZ

(B.A. (Hons.) M.A. (Hons.) Cairo)

The object of this study is to explain how in the eighties and nineties of the last century, Italian political influence penetrated and prevailed in East Africa, or to be more precise, on the western Coast of the Red Sea, the Eastern Sudan; and that part of the Somaliland Coast which is adjacent to the Indian Ocean. The establishment of Italian influence in these regions forms part of the story of Europe's "scramble for Africa" in the second half of the nineteenth century⁽¹⁾.

From the outset, however, we should point out, that this story of Italian hegemony is closely connected with a remarkable phase of development in the history of the Valley of the Nile, first when Egyptian expansion in these parts of Africa had reached its zenith; and later when the occupation of Egypt by the British forces took place. This occupation was destined to control the future of our country together with that of the Egyptian Sudan for more than seventy years.

It was during this period that the Mahdist rebellion broke out⁽²⁾, and Egypt under British pressure was forced to abandon the Sudan (1885). Thus the Mahdists were able to establish their rule in the Sudan. A so-called Mahdiah State was formed. And during the following thirteen years, the rule of the Mahdiah proved both internally and externally disastrous to the Sudan.

(1) Marriott: *The Makers of Modern Italy* (Oxford 1931), p. 165.

(2) Shukry, M.F.: *Gordon at Khartoum 1884-1885*. (Cairo 1951), pp. 16-17.

the love of the romantic escape which it involves. As in the traveller's accounts, narrow escape during fierce thunder storms in the East are often romantically described by the minor poets. 'The Prophet's Scimitar' by Croly and 'The Spirit of Discovery' by Bowles may serve as two good examples of the minor poets' interest in the romantic episode.

In addition to the three dominant ideas mentioned above, there are others less emphasized themes common to both travel-books and minor poetry during the period under discussion. Closely related to the 'ruins of empire' theme for instance — there are two minor ideas, namely, the 'primitive virtues of the Eastern people' and the 'degeneration of Eastern Countries'.

Again, the 'dramatization of history' and 'patriotism' were also used by travellers and reflected by the minor poets.

All these romantic themes and ideas borrowed freely from the Near East travel-books, constitute the minor poets' debt to travellers' accounts for the romantic themes, scenes and episodes which they very often used in their poems.

The 'milieu' of English literary interest in the Near East was thus created and maintained during the later eighteenth and the earlier nineteenth centuries by both the travel-books and the romantic poetry about that region.

The episodes most extensively described in the Near East travel-books are those which contain elements of the 'strange', the 'exciting' and the 'fearful'. Hence, the Suliote episode is one of the most exciting episodes often recounted by travellers visiting Albania who dwell on the gallantry of the Suliots (the mountain tribes in Albania) in their fierce struggle against the Turkish invader of their country. Through accounts of his extraordinary valour and fortitude, to Ali Pasha, the Turkish ruler of that region (Albania) — a romantic glamour was attached by Lord Byron and his fellow-traveller Hobhouse (cf. *Childe Harold*, Canto II and J. C. Hobhouse 'A Journey through Albania and Other Provinces of Turkey in Europe and Asia to Constantinople during the years 1809-10, 1813'). — That the travellers considered adventures embodying elements of the 'strange', the 'exciting' and the 'fearful' essentially romantic, is evident from the number and the way they dealt with them.

Thomas Hughes' (*Travels in Sicily, Greece and Albania—1820*) detailed account of the Albanian Youth's adventure killing an eagle single-handed and Hobhouse's 'romantic' description of Byron's narrow escape during a violent thunder storm in the Wilds of Albania are just two examples that may serve to illustrate this fact.

Besides the 'romantic' episodes relating to the people of the countries visited, we have accounts of the traveller's own adventures. These are, of course, more frequent than any others, and are usually told with greater zest and with more details. E. Irwin's experience with a band of Arab robbers in the Egyptian desert is a typical example of travellers recounting their own romantic adventures. (cf. P. 293 f. '*A Series of Adventures in the Course of a Voyage up the Red Sea, on the Coasts of Arabia and Egypt*' — 1780).

The treatment of the 'romantic episode' in the minor poetry of the period shows not only the excitement and vigour of that in the travel-books but also reflects a spirit similar to that in the Turkish Tales of Byron who was himself a traveller in the Near East. Many other examples of interest in the 'romantic episode' occur in minor poetry giving testimony both to the fascination of the East and to

b) *Romantic Landscape:*

The expression of an interest in "romantic landscape" is the second dominant theme common to both travellers and minor poets. In their use of this theme, the Near East travellers are undoubtedly in accord with certain aspects of the Romantic Movement; and their work, in particular, reflects many of its contemporary canons. The chief authors among the many travellers who adopted a romantic attitude in their descriptions of landscapes in the East are:

E. CLARKE : *Travels in Various Countries of Europe, Asia, and Africa*, 2 volumes published in sections between 1810 — 20.

G. KEEPEL : *Personal Narrative of a Journey from India to England* — 1827.

EYLES IRWIN : *A Series of Adventures* — 1780 and

E. L. WARING: *A Tour to Shereaz* — 1807.

In their "romantic" interpretation of scenery their descriptions are characterized by a distinction between the "beautiful" and the "sublime"; a keen sensitiveness to the beauties of nature; and a stress on the picturesque beauty of the panoramic scene.

Among the minor poets, the same interest in Romantic landscape is clear and usually, as in contemporary travel-books, is expressed in descriptions of Nature, either in its beautiful or sublime aspects. Byron in 'Childe Harold', 1813 (Canto II) set the vogue of romantic description of the wild and the rugged beauties of Eastern landscape. The 'strangeness' and 'glamour' of the East, repeatedly emphasized by the travellers, are again reflected in some poems by R. Heber 'Palestine' (cf. 'Poetical Works' — 1853) and H. Kirke White 'Egypt'.

c) *Romantic Episode:*

An interest in 'romantic episode', which is closely related to the interest in 'romantic landscape', appears as a third dominant theme common to both travel-books and minor poetry of the period.

in the 'larger melancholy of the time', both travellers and poets saw in the ruins of Egypt, Asia Minor and Greece the decline and fall of great civilizations, which they contemplated with profound regret. In the travel books of this period, comments on the ruins appear both in "gothic" and in a less sentimental and more genuinely imaginative vein. Some of the better known travellers who treated this theme are

RICHARD CHANDLER: (*Travels in Asia Minor* — 1775 — p. p. 155, 256)

HENRY HOLLAND : (*Travels in the Ionian Isles, Albania; etc.* — 1815 — P. 134) and

T. S. HUGHES : (*Travels in Sicily, Greece and Albania* — 1820. II, 318)

The poets, in their turn, saw in those ruins the vindication of the universal law; the natural rise and fall of nations which history demonstrates, and felt the melancholy pleasure of contemplating them as a source of aesthetic enjoyment. The downfall of the empires of the Near East offered suitable material for romantic philosophizing to the writer of "graveyard" poetry; the spirit of whose work is closely related to that of the "gothic" in the travel books. Richard Hole, for example, in his "Ode to Melancholy" (1792) — (*Poems*, ed. R. Polwhele) — used ancient Palmyra to point his moral and adorn his tale. Again, according to the fashion of the time, F. Wrangham in "The Destruction of Babylon" (*Poetical Works* — 1795 — PP. 41 — 9), and W. L. Bowles in "The Egyptian Tomb" — (*Poetical Works* — 1855 II, PP. 286 — 7) viewed the ancient history of the East in a romantic and melancholy manner. The remarkable fact about this theme in both travel-books and poetry, is the wide-spread insistence upon it, as distinct from its mere appearance. Also, the fact that this theme appears concurrently in both, and that the minor poet often records his indebtedness to the travel-books, clearly indicates the traveller's responsibility for the popular application of the "ruins of empire" theme to the English Near East literature.

instantaneous popularity of such oriental works as those of Southey (*Thalaba the Destroyer*, 1801); Byron's *Turkish Tales* 1813-1815 (*The Giaour*, *The Bride of Abydos*, *The Corsair* and *Siege of Corinth*) and T. Moore '*Lalla Rookh*' — 1817.

Of these three far reaching influences on English literature of the period we now propose to deal with that relating to the minor poetry about the Near East.

The Relationship between Travel Books and Minor Romantic Poetry about the Near East.

There was a close relationship between the dominant ideas in the travel books and those in the minor poetry of the late eighteenth and the earlier nineteenth centuries. In accounts of their visits to places in the East, the English travellers consistently employed many of the dominant ideas then current at home. This practice, when popularized, tended to associate certain general ideas with the Near East and led many writers at home, who had never seen that region, to emphasize those ideas whenever treated them in their works. The minor poets in particular show the effect of these dominant ideas which were mainly romantic. This influence cannot be traced to any particular traveller since it originated in the popularity of the travel books as a group. Among the host of minor poets who contributed to that body of English literature of which the Near East is the 'theme' or 'background', may be mentioned Richard Hole, Francis Wrangham, Reginald Heber, W. L. Bowles, Henry Kirke White, and William Motherwell.

The 'Ruins of Empire' theme, and expression of interest in 'Romantic landscape' and in 'Romantic episode' are the three main themes commonly used by travellers and reflected in works of the minor poets of the period.

a) *Ruins of Empire*: Observations on various aspects of the ruins of ancient empires constitute one of the most recurrent travel-book themes which are echoed in the minor romantic poetry about the Near East. Like E. Gibbon (d. 1794) with whom they shared

Press. It is seldom possible to open a single issue of a periodical of that time without finding a critical review or a listing of some newly published travel books on the Near East.

In the 'Eclectic Review' alone, for example, no less than forty-six extensive reviews of Near East Travel books (some of them continuing through several issues) appeared between the years 1805 and 1825.

A study of these contemporary reviews of travel books shows that by the year 1820 the more important parts of the Near East had been thoroughly explored and the materials amply recorded for the benefit of the countless number of eager arm-chair adventurers at home.

... The great number and immense popularity of these travel books is proved not only by the testimony of contemporary magazines and writers, but also by the existing evidence of their actual number and the number of editions through which the most popular of them ran. In seventy-five years, no less than ninety of these books were published in England within the period under discussion (cf. The 'B.M. Catalogue of Books' — different Near East entries, subheading Travel).

This great vogue of writing and reading books of Eastern travel had naturally a marked influence on certain aspects of contemporary thought and activities. It appears clearly in the social life and in arts. The popularity of oriental fashions (Greek and Turkish in particular) in dress and household decorations for example is an unmistakable indication of the fact. (cf. J.B. Botsford — 'English Society in the Eighteenth Century As Influenced from Overseas' — New York — 1924).

On the literature of that time the vogue of Near East travel books exerted an even stronger and more varied influence. First, by providing the necessary knowledge of conditions in the East, these travel accounts helped to create in England a large body of poetry and prose in which this region figures either as theme or background. Second, the interest in the travel-book material accounts for the recurrence of certain romantic ideas throughout the minor poetry about the Near East. Finally, the contemporary English reader's familiarity with the Near East through travel-books may account for the

As a result of these new developments which brought the Orient much closer to England than ever before, scores of English travellers of different social status toured the various countries of the Near East especially those of the Levant, (Greece, Turkey, Egypt, Syria and Palestine). The evidence collected from contemporary magazines and reviews testifying to the wide-spread popularity of Eastern travel is ample, and a few examples are here quoted: A writer in the *Eclectic Review* (April, 1824) declares that "No one can now pretend to have seen the world who has not made one of a party of pleasure up the Nile or taken a ride on camel-back across the Syrian desert". Then he goes on to observe how the attraction of travel in the neighbouring European countries had dwindled in face of the novelty and excitement experienced by sojourning in the land of the East. "As for France and Flanders and Switzerland, our next door neighbours, they may serve John Bull very well for a country-house; but to have seen those countries is no longer worth speaking of."

Moreover, the testimony of contemporary writers is equally sufficient. Sir W. Scott's eloquent tribute to his generation's first-hand knowledge of the Near East and the popularity of travelling there is worthy of mention. (See Introduction — *The Talisman* — 1825).

Another contemporary writer makes the following startling comparison between the extent of travelling in the Near East in the mid eighteenth century and the early nineteenth century: "Dr. Askew had been in his youth a great traveller," the writer remarks, "at least he was so considered in those days, for he had been absent from England three years and resided at Athens and Constantinople. . . This will perhaps hardly be credited at the present moment (1826), when it is scarcely possible to turn the corner of a street without meeting an Englishman recently arrived, either from the borders of the Red Sea, the Cataracts of the Nile, or the ruins of Palmyra." (vide. "The Golden-Headed Cane" — W. MacMichael, 1835)

The immense popularity of the travel accounts written by this host of Near East travellers within this period (1775-1845), is clearly manifest from the continuous attention they received in Contemporary

LITERATURE OF EASTERN TRAVEL AND THE ROMANTIC MOVEMENT

IV

(Dr. MOHAMMED SAMIR ABDEL-HAMID)

Popularity of Eastern Travel in the Earlier Nineteenth Century.

Testimony of contemporary Press.

Throughout the eighteenth century several important conditions contributed to the growth of direct interest in the Near East and provided new and powerful incentives to travel in that region. Generally speaking, the eighteenth century was the age of exploration and discovery which witnessed an increase of travel to all parts of the world. Furthermore, it was the heyday of the "Grand Tour" and the great period of English Colonial Expansion. Three important factors have, however, directed the stream of travellers towards the East.

First is the growing interest in Archaeology which by the middle of the century made many English men on the Grand Tour to extend their travels to Greece, Asia Minor and Egypt.

Next, the focussing of English colonial interests on India and England's struggles with France and Russia turned the attention of English people to the Near East as having a strategic importance for the safety of all overland routes to India (vide—J. Marriot—"The Eastern Question" 1919 and A. Dennis—"Eastern Problems at the Close of the Eighteenth Century", 1901).

Finally the closing of Western Europe to tourists because of the Continental wars during the second part of the eighteenth century was the third important factor in this respect.

in the first third of the 13th century. The poem consists of more than 4600 couplets and its subject is the quest of birds for the mythical great vulture Simurgh, the birds symbolizing the Šūfi or mystic pilgrims and the Simurgh God.

Šūfi writers also wrote long and short poetical tales to illustrate their mystical and ethical teachings. Two great mystic poets namely Sa'dī (d. 1291) in his *Būstān* and Rūmī (d. 1273) in his *Mathnawī* excelled in this type of tales. Some of these tales were of ancient origin and some were invented by the poets.

Tales of Šūfi significance were not usually presented because of their value and interest as works of fiction but because of the ethical and moral values that can be based on them. Thus we notice that these tales are interrupted in many parts of them by numerous verses in which the poet wanders away from the events of his story and presents his mystic or philosophical ideas. It is not within the scope of this paper to discuss the narrative poetry of the Šūfis. I think that an independent paper ought to be devoted to this subject and I hope to be able to prepare it in the near future.

Connected with epic poetry, is the versified history. Persia has known some historians who chose to write their histories in verse rather than prose. But such compositions owe their importance to the facts of history they relate and not to the form in which they are expressed. One of the big works of this type is the *Zafar Nāmāh* (the book of victory) a unique Ms. preserved in the British Museum, London, which was composed by Qazvīnī, the historian of the Mongols, who lived in the 14th century. (1) It consists of seventy thousand couplets and relates the history of Iran from the Arab conquest up to the author's day when Iran was ruled by the Mongols. It seems to have been meant to be a continuation of Firdūsī's national epic of Iran which ended by the Arab conquest.

(1) Edward G. Browne published and translated a sample the of *Zafar Nāmāh* verses in his: *Literary History of Persia*, vol. III, p. 96-97.

The layout of the story as presented by Nizāmī shows the great ability of his creative imagination. Many scenes have been added to the old Arabian story and these invented scenes have been combined with the inherited ones, all forming a beautiful literary structure.

Another statement by the poet on how he elaborated the ancient stories which he chose to present in his poems is given in the introduction to his poem *Haft Paykar* (the Seven Portraits). It reads as follows :

"I sought in the records of the pleasant histories
For all that was suited to please the heart ;
From all that was contained in the chronicles of kings,
I chose, and combined what seemed good in one book."

He goes on to say :

"Of every atom I contrived to make something ;
From these small fragments like a skilful jeweller,
I formed and polished not a worthless treasure ;
So that the great who know how to distinguish,
Might see what to choose amongst the several portraits. •
Whatever the chronicles had half-said, I said fully ;
Whatever jewel he had half-pierced, I pierced wholly." (1)

The poet goes on to say how he collected material for his poems from dispersed books and long forgotten works and how he worked on this material.

Nizāmī's romance poems became models for other poets who composed this type of poetry after him. Many of them imitated his five long poems by five of their own.

Long allegorical poems were produced by Šāfi or mystic poets. The greatest and most beautiful among these is the *Manṭiq at-Ṭayr* (the Congress of Birds) composed by Farīd ad-Dīn 'Aṭṭār who died

(1) Translated by Robinson.

time he used his imagination and poetical talent in portraying those heroes. A good example of this can be seen in his poem on Laylā and the Majnūn, the two bedouin lovers.

The story of Laylā and the Majnūn as recorded in the books of Arabic literature or Arabic history occupies only a few pages. But Nizāmī's talent made a great poem of five thousand verses out of this primitive story. The poet was reluctant to take this difficult task, but the wish of his patron encouraged him and persuaded him to undertake the composition. He describes his reluctance in the introduction to this poem by saying :

"The entrance passage to this story is extremely narrow ; it would lame poetry that usually proceeds with royal grandeur.

The race-ground of poetry must be spacious if it is to show the ability of the rider." (1)

He goes on to say :

"On a trip in which I do not know the road, it is clear that I will have to present many pleasing sayings

While one may not meet with gardens nor with royal banquets, nor music, nor wine, nor wine bearers ;

Only dry sands and rough mountains, until a lot of poetry is wasted on grief." (2)

But Nizāmī, once he started, finished this poem in a short time. This induced him to say with pride :

"These five thousand couplets and more

Were indited in less than four months.

Had I not been restrained by other occupation

They might have been written in fourteen nights." ()

- | | | |
|-----|----------------------------|---------------------------|
| (1) | تکرید سخن از سه آمدن تک | دعایز نهانه چون بود تک |
| | تا طبع سوارتی نماید | میدان سخن فراخ باید |
| (2) | پیدا است که نکته چند و نام | در سرحد که ره ندانم |
| | فی رودونه می ته می کساری | فی بالغ و نه یزم شهر یاری |
| | تا چند سخن رود در اندوه | برخشی ریک بسختی کوه |

(3) Translated by Robinson in his : Persian Poetry for English Readers.

I swear that if I had seen his face, I would have kissed the earth close to him.

Even if I saw a lamb of yours in the desert, I would not even dare to come close to it !

Thus if I dared not look at a lamb belonging to you, how would I eat someone who is to you like heart, eyesight and even soul ? ” (1)

This single example presents one of the many elements of drama and imagination added to the original story by the author. The magnitude of the poem is shown by the fact that the poet had completed about 4,000 verses before he started composition on the second stage of Joseph's life which began by his imprisonment.

The story has been told several times after Firdūsī. The most famous version of later compositions is that of Jāmī.

It also includes a great deal of additions to the original story. However, we notice that Jāmī differs from Firdūsī in two ways, one of which is that he devoted the largest part of his version to the actual love story between Zulaykhah and Joseph, and the second is that he spread through this love story an air of Sūfism. Fortunately, the English reader, with no knowledge of Persian, can read Jāmī's version in the translation of Alexander Rogers (2) and also in the translation of Ralph T. H. Griffith. (3)

The second great figure in the field of Persian epic and romance poetry is Nizāmī of Ganjah who was already mentioned above. He was a man of great moral integrity and poetical talent (died between A. D. 1199—1209). Nizāmī became the master in romantic poetry whose influence was not confined to later Persian poets but went out of its linguistic boundaries to reach Turkish and Urdu poets who composed romantic poetry.

Like Firdūsī, Nizāmī looked at the past to find his heroes. He read what was written about them in books of history, but in the same

(1) Translated from Persian by the author. This part of the story starts in verse no. 2005 of the Persian text and ends in verse no. 2046.

(2) Joseph and Zuleikhā by Jāmī. London. 1892.

(3) London 1882.

Thus you made me remain distressed without my son ; and squeezed me out of heaven and paradise.

What was your heart's grievance against Joseph that you did not let him live in this world ?

That you tore his pretty body and, by portions from it, stuffed your belly ?

There was an enormous herd where my son was ; - why, out of them all, did you choose him to leap at ?

To you, a mutton could have been better than him ; it could have weighed more and contained more fat.

O you despised wolf ! Why did you deprive him of the soul and deprive me of my son ?

Where did you eat him ? Tell me ; may be I can find a ringlet of his hair,

Which would be a souvenir for me all my life ; and a consolation for me when I am burried inside my tomb.'

He said this and cried out of his heart's grief, until his tears converted dust into mud.

When the wolf heard these sad statements from Jacob, the injured and broken hearted,

He began to speak by the will of God, and said : ' O leader of religion and justice !

Do not bear ill feeling and bad opinion of me ! I can not deviate from the path of God's commands.

God has forbidden us to eat the pure bodies of prophets ; and that is all.

I did not eat your son and would not want to eat him ! I would not even dare to look at him.

O shadow of God, the Just ! O honorable and greatly admired prophet ! God forbids.

I have never wandered near your son, neither have I ever seen that pure and beloved one of yours.

Then the ten sons went out, speeding like the wind towards the desert.

They ran around in every direction and caught a wolf which was as fierce as a lion.

Smearing its claws and jaws with blood, they dragged it to their father.

They said: 'This wolf, unjustly, committed the crime; it is this savage wolf which devoured the body of Joseph.'

The injured Jacob looked at that wolf, pondering on this poor and innocent beast:

It was smeared with forged blood which showed also on the claws of both of its hands.

Jacob, the honorable and the man of blessed ancestry, rose up out of pain suffered by his heart and soul.

He prayed for a while to the One Who created all beings.

After he had uttered his prayers for a while, he addressed God with an all devoted heart,

And said: 'O God! By your bounty, glory, grandeur and generosity!

Endow this wolf with the faculty of speech, so that I can make a full investigation of these statements,

That I may know whether they are true or present only falsehood and forgery.

At that time the Lord of religion and justice endowed that dumb wolf with the faculty of speech.

Jacob then addressed it saying: 'O unfaithful and unloving wolf!

Why did you eat [the one] who was my soul's desire, the sun that filled my spirit with light,

The one who was for me pleasure and consolation; who was for me wisdom, dignity and poise?

What ill deed did you suffer at my hands, which caused you to sever me from my [family] ties in this way?

Naturally he used all the facts contained in Sūrat Yūsuf. But while the story in the Qur'ān begins with the well-known dream of Joseph, Firdūsi begins his poem, after the customary praise of God and his prophets, by giving the reasons for the revelation of Sūrat Yūsuf. After he has written about 170 verses, the poet tells us why he chose to make the story of Joseph and Zulaykhah a subject for his long poem. He informs us that two poets before him versified this story, one of whom is Bū al-Mu'ayyad from Balkh and the other is Bakhtyāi. He then mentions a certain prince of Iraq for whom, he says, the poem was composed. In verse 251 he begins to express some of his feelings about the story and how it is more becoming of him as a Muslim to pay attention to it rather than to the legends of the Magians.

The actual story begins in verse 337 by the birth of Jacob. He dwells on the life of Jacob and his family until he comes to the birth of Joseph in verse 795. It is only after he had composed 1190 verses that he mentions the dream of Joseph. The description of the dream itself took about 100 verses. Then he comes to the conspiracy of Joseph's brothers against him. Facts in verses 11 through 18 of Sūrat Yūsuf which take only half a page in an octavo copy of the Qur'ān are related in a very detailed and elaborate way with materials not originally Qur'ānic but belong to Jewish and Christian origins. One example of the numerous details included in Firdūsi's poem runs as follows:

"Then (the sons of Jacob) said: 'If you do not believe us when we say that this great catastrophe was caused by the wolf,

We will dash from here now, and look for that wolf around the herd,

To bring it in front of you immediately so that you may discover how he committed this crime.'

Jacob said: 'This will be very good, and it may help to ease the sadness of my soul.'

They said: 'O father! we shall carry out this order, catch the wolf and bring it in front of you.

Have you lost all reverence for your father,
That whom his own parent cast from his bosom,
Him you will receive into yours ?
A man who was nurtured by a bird in the mountains !

.....

You with your roseate countenance and musky tresses—
Seek a man whose hair is already white with age”

Rūdhābah is angry at the counsel of her attendants. She goes on to say that Zāl is the only man she loves. Witnessing her vehement attitude, the attendants change their minds and, through them, an interview is arranged between Rūdhābah and Zāl, but they use their skill in playing tricks to make him ask for the interview with Rūdhābah, thus preserving the dignity of their mistress. The interview takes place in a private pavillion of the princess. Going towards the princess Zāl is received with all due respect and admiration. He is helped with a rope to climb to the terrace on which stood Rūdhābah¹

The interview is enlivened with a dialogue in which each of the lovers admires his partner. At a point Zāl says :

“O sweet and graceful silver-bosomed maiden

We should do naught unbecoming our birth

For better is the seemly than the unseemly,

That which is lawful than which is forbidden.” (1)

The episode goes on to describe the difficulties they had to face until they got married. The marriage resulted in the birth of Rostum, the greatest fabulous hero of ancient Iran, whose story and adventures occupy a considerable part of the Shāh-Nāmāh.

Unlike well-known epics of the West, the Shāh-Nāmāh contains a collection of epics and romances put together in one great poem.

It would be interesting to discuss now how Firdūsī presented the story of Joseph and Zulaykhah.

(1) Translated S. Robinson in his: *Persian poetry for English Readers*, London, 1883.

The episode commences with a visit which Mihrāb pays to Zāl, who receives him with distinguished honour, entertains him at a sumptuous banquet, and they separate with mutual respect. The episode, after this, runs as follows :

Then a chief of the great ones around him
Said : ' O thou, the hero of the world,
This Mihrāb has a daughter behind the veil,
Whose face is more resplendent than the sun,
From head to foot pure as ivory,
With a cheek like the spring, and in stature like the teak-tree,
Upon her silver shoulders descended two musky tresses,
Which like nooses, fetter the captive ;
Her lip is like the pomegranate and her cheek like its flower ;
Her eyes resemble the narcissus in the garden ;
Her eyelashes have borrowed the blackness of the raven ;
Her eyebrows are arched like a fringed bow . -
Wouldst thou behold the mild radiance of the moon ?
Look upon her countenance !
Wouldst thou inhale delightful odours ?
She is all fragrance !
She is altogether a paradise of sweets,
Decked with all grace, all music, all thou canst desire ! '

On hearing this description Zāl becomes enamoured of Rūdhābah, who also, hearing about Zāl from her father's description, falls in love with him. After a time, she reveals the secret of her passion to her attendants who, on hearing the story of Rūdhābah's love for Zāl, they reply :

" O crown of the ladies of the earth !
Maiden pre-eminent amongst the pre-eminent !
Whose praise is spread from Hindoustan to Chinn ;

.....

And opened fame portals as heroes demand,
Through skill of his majesty iron he melted
And steel into helm, plate and corselet he smelted,
.....

He next worked on vestment full fifty years more,
That the folk might have robes for the feast as for war. (1)

In this way, he goes on to enumerate the supposed inventions of this legendary king in the same way as any of the writers who wrote about this king in prose. (2)

But the *Shāh Nāmāh* contains episodes of love and heroism in which the talents of its great author are displayed. Of the love episodes we can mention the story of Zāl and Rūdhābah and the story of Khoršīd and Shirīn. The valour and bravery of the ancient heroes are displayed in a majestic style and with powerful words resounding with greatness. Some verses from the story of Zāl and Rūdhābah will be quoted here to show the poet's ability in writing romance poetry :

"Zāl is the son of Sām, one of the generals of Manūchahr, king of Persia. Having the misfortune to be born with white hair, he incurs the disgust of his father, who orders him to be exposed on the savage mountain of Elburz, where he is nurtured by the Sīmurgh, an immense fabulous vulture which figures in the legends of Persia. After a time the affection of the father is revived towards his child. He is recovered from the care of the Sīmurgh, and, arrived at manhood is sent to govern the frontier province of Zābul; the adjoining province of Kābul though tributary to the Persian empire, being governed by its own king named Mihrāb.

(1) Translated by S. Robinson in his : *Persian Poetry for English Readers*, [London], 1883.

(2) See for example : *Shāh Nāmā'i Tha'ālibī*, (Persian translation by Maḥmūd Hidāyat), p. 6, Tehran, 1328.

is the love story of the two Arab lovers Laylā and the Majnūn. The fourth is an epic on Alexandar and his history according to Persian tradition. The fifth is a collection of seven narratives put in the mouths of seven favourites of King Bahrām Gūr.

But it would be a grave mistake to suppose that the sources of inspiration for Persian narrative poems remained purely Persian, Islamic or Arabic. The range of their sources became wider all the time. They achieved their utmost width in the works of the Ṣūfī poets especially those who wrote gigantic Ṣūfī poems of great lengths. Those poets made use of stories borrowed from many races and localities and utilized them in illustrating their views. The ideas of the Ṣūfīs on universal love and universal brotherhood were very well served by these narratives borrowed from every source that was available to them. It is not within possibility in this paper to try to analyze or even to enumerate the various sources from which the Ṣūfīs borrowed their narratives. It is a matter which should be treated in an independent work. But it would be safe to state here that these sources were as varied as the people included in the Islamic world. The question which concerns us more here is the manner and style in which materials of older origins were presented to us by the Persian poets. Naturally we will have to confine ourselves to the main observations leaving minute details to a work of a larger extent.

The Persian poets, when they put into verse the stories of the past, did not reproduce these stories exactly as they had found them. They elaborated them adding a good deal of details and original contributions.

If we examine a work like the *Shūh Nāmāh* we find two kinds of poetry. One of them is the mere mention of the original happenings of the story in verse and this at its best is versification of prose. An example of this can be found in the story of the legendary king Jamshīd who is supposed to be the originator of civilization. Some of its verses read as follows :

To the making of weapons he first turned his hand,

above mentioned dynasty assigned to him the task of versifying the national legends of Iran. Daqīqī died at an early age and was able to produce only one thousand verses dealing with the prophet Zoroaster and the rise of Zoroastrianism. These verses were incorporated by Firdūsī in his *Shāh Nāmāh* (the Book of the Kings), the great national epic of Iran.

The *Shāh Nāmāh* was composed during the later part of the tenth century and the early part of the eleventh. It is a poem of sixty thousand couplets narrating the legends and the history of pre-Islamic Iran. This national epic was composed from old chronicles of Iran preserved by the Persian kings and collected by order of Yazdagird III, the last king of the Sasanian dynasty. The early periods covered by it are of an absolutely legendary nature, but when it comes down to more recent dates poetry agrees with history. Reading the *Shāh Nāmāh* one does not fail to notice the poet's great pride in his country and its past achievements. But Firdūsī, the Homer of Iran, was also a Muslim. Islam provided him with another background of which he made use in his literary compositions. At a late age he wrote a long poem on Yūsuf and Zulaikha based on the Qur'ānic Sūrat Yūsuf.

Thus we can say that the legends, fables and history of ancient Iran gave rise to the art of narration in Persian poetry. But once the art was established, it began to widen its range of coverage borrowing stories from Islam and the Arabs.

The second great epic writer, Nizāmī of Ganjah displays the tendency of making use of Persian, Islamic and Arabic materials. He wrote five long poems, namely: *Makhzan al-Asrār* (the storehouse of mysteries), *Khosru and Shīrīn*, *Laylā and Majnūn*, *Iskandar Nāmāh* (the Alexander book) and *Haft Paykar* (the seven portraits). The first poem, the storehouse of mysteries, is a poem on mysticism in which Nizāmī gives some short tales to illustrate his mystical views, but tales here are of a secondary importance. The second, the *Khosru and Shīrīn* is a poem on the love story of the Sasanian king Parviz and his beautiful beloved Shīrīn. The third

their ancient legends and history the main source of their inspiration. In this very important period of their national revival they became very much interested in anything connected with their glorious past, and the stories of their heroes and conquests were counted amongst the most precious items of their legacy. Emotions aroused by pride in the past have always been expressed by poems in every land, poetry being the best and readiest medium for expressing such emotions.

The revival of the Persian language ran parallel with the revival of Persian nationalism. The first semi-independent prince 'Abdullāh b. Ṭāhir, the general of al-Ma'mūn's army, who was given the governorship of Khurāsān for defeating the army of al-Amīn (about 205 A. H. = 820 A. D.) was presented with an old Pahlavi story called the *Vāmiq va 'Adhrā*. He declined to accept it saying that it was one of the compositions of the Magians and that it was not becoming of him as a Muslim to care for such literature. He ordered it to be destroyed⁽¹⁾. But this story points out to the fact that the people began to be interested in reviving their ancient literature as soon as they enjoyed a limited amount of freedom. The fact that someone presented an ancient story to his ruling prince shows that it was held in high esteem.

The two dynasties which ruled in different parts of Iran a few years later, namely the Ṣaffāris (867-908) and the Sāmānis (874-999) became patrons of Persian poetry. Two great poets who were patronised by the latter dynasty composed long narrative poems. One of them is Rūdāgī (known also as Rūdakī), a great Persian poet who is said to have produced one million and three hundred thousand couplets of verse. He was born about 880 A.D. and died in 954. He versified the book of *Kalīlah wa Dimnah* from the Arabic version of Ibn al-Muqaffa'. A number of couplets from this work have survived in an old Persian lexicon compiled by Asadī and show a clear understanding of the Arabic text on the part of Rūdāgī. The second great poet of the Sāmānī period Daqiqī began to write epical poetry in the true sense of the word. It is said that one of the rulers of the

(1) *Dawlatshāh: Tadhkirat al-Shu'arā'*, p. 37.

Mother had given me a sign to prove my identity to my father.
And now my love for him is bringing my life to an end.
I have been looking for him hoping that I may see him.
And now I have given up my life because of my attachment to
this hope.

Alas that my efforts never bore fruit,
And that I will never see my father's face.
Now if you become a fish in the sea
Or disappear in a darkness like that of the night,
Or climb up high in the sky like a star,
And fly away from the face of the earth until you reach the sun,
My father will still exact vengeance on you,
When he sees me lying with a brick as my pillow.
Of these noble and great men (present here)
One will carry the news to Rustum,
That Suhrāb is slain and thrown despised on the earth,
And that that he wanted you to be his avenger."

Attributing this elaborate type of speech to the heroes is common in the epics and romances of Persian literature. We can quote hundreds of examples in which the dialogue gives up the simple and natural form of conversation in favour of the more elaborate oration form.

The reason for the revival of the Persian language, namely the revival of Persian nationalism is still the first cause which created the epic poetry in the Persian language. The revival of nationalism made the people interested in their past. The ruling semi-independent princes of Persia claimed to be descendants of the ancient kings of that land. The people became interested in their history, and, the poets among them, naturally the spokesmen of national pride, began to make

representing scenes of love and affection can rank among the best ever written. An example from Firdūsī's *Shāh Nāmā*, given below, will help give the reader an idea about these romantic dialogues.

The strife or debate poetry (*Shi'r al-Munāzarab*) is based on the dialogue presenting an argument between two contestants. *Asāfī Tūsī*, the Persian poet who lived in the tenth century, wrote several examples of this debate poetry of which we can mention here the debate between Day and Night. In this debate Day and Night are presented as boasting of their 'virtues' and each one of them claiming superiority over the other. But we cannot fail to recognize the artificial nature of this type of poetry. In fact it does not present much beyond the displaying of some mental exercise and artificial skill.

In the long epics and romances we find a better kind of dialogue. Yet the parties of the dialogue are in most cases portrayed in a way that makes their conversations look more or less like orations. We can quote an example to illustrate this statement from the story of *Rustum and Suhrāb*. After *Rustum* had stabbed his son and opponent *Suhrāb* (they both did not know their relation until then) the latter gives a long speech in order to say that he was *Rustum's* son. The following are the verses in which the hero of *Turan* reveals his personality to his father.

"After the stab *Suhrāb* fell down writhing with pain and drew a sigh

He cut short his thoughts about good and bad.

To *Rustum* he said, 'This fate had befallen me out of my own action.

It was I who put the key in your hand to bring it about.

You are innocent of this; it is heaven's will which raised me up, then, soon destroyed me.

Those of my own age are still children engaged in play.

While I lie stretched on the ground in this way.

Said I : 'Tears are my witness, paleness of face my evidence.'

He said : 'The witness is not valid ; your eye is corrupt.'

Said I : 'By the majesty of thy justice they are just and clear of sin.'

He said : 'What do you intend ?' Said I : 'Constancy and friendship.'

He said : 'What do you want of me ?' Said I : 'Thy universal grace.'

He said : 'Who was your companion ?' Said I : 'Thought of thee, O King.'

He said : 'Who called you here ?' Said I : 'The odour of thy cup.'⁽¹⁾

The type of dialogue presented in this kind of poetry is meant mainly to present the ideas of the poet on the subject he discusses. The story included is not of much importance.

Even the mental ability of the speakers is in many cases forgotten and the poet makes common people discuss spiritual matters and utter maxims and wise sayings. The great Mathnawī of Rūmī contains many examples of this fact. In such dialogues one would not fail to admire the beauty of the poet's style, his depth of thinking and the glorious show of ideas which follow each other in his poems. But he would fail to witness the realistic type of dialogue in which the exchange of ideas represent the level of thinking of the characters taking part in it. But the lack of realism in the case of this type of poetry does not affect to a great extent its literary value as it would in the case of dramatic writings.

It is in romantic poetry that we meet with dialogues of immense charm. Great poets like Firdūsī and Nizāmī have displayed in their romances a masterly ability and skill in portraying lovers, and, dialogues.

(1) Translated by Reynold A. Nicholson in his "Selected Poems from the Divānī Shamsī Tabriz", Cambridge, 1898.

students to memorise them. It was in the vernacular dialects of the Arabic language and not in classical Arabic that Arabic epic poetry began to appear as a developed art and to assert its existence in Arabic speaking lands.

Thus it can be said that Abān's attempt to establish the Mathnawī in Arabic literature was never continued.

On the other hand, the Persians developed this kind of poetry and produced in it all their poems in which they conveyed to us their history, their legends and all kinds of narratives which they made the subject of poetical compositions.

Besides the Mathnawī form which made the composition of long poems possible, the Persians developed a form of expression in poetry which is necessary for narrative compositions, namely the dialogue style. Arabic poetry has witnessed the occasional appearance of this style since pre-Islamic times. The Mu'allaqāt contain some short dialogue pieces, the like of which continued to appear in Arabic poetry after Islam.

The dialogue style is called "Tarīqat al Su'āl wa 'l-Jawāb" (the style of question and answer) by the Persians. It was applied by the Persians in short as well as in long poems. Even Sūfī odes can show many examples of the application of this style. The following poem by Jalāl al-Dīn Rūmī gives us an example of the application of this style in Sūfī odes:

He said: 'Who is at the door?' Said I: 'Thy humble slave.'

He said: 'What business have you?' Said I: 'Lord, to greet thee.'

He said: 'How long will you push?' Said I: 'Till thou call.'

He said: 'How long will you glow?' Said I: 'Till resurrection.'

I laid claim to love, I took oaths

That for love I had lost sovereignty and power.

He said: 'A judge demands witness as regards a claim.'

to the traditional form of the Arabic qaṣīdah. They developed new forms of which the most important, as regards our subject, is the Mathnawī. In this form they have produced romances and attempted to record their legends and history. Thus, it is the form most closely connected with the art of story-telling in the Islamic Persian poetry.

A Mathnawī is a many-rhymed poem. Every couplet in a Mathnawī has its own rhyme. Thus the rhyme in a Mathnawī changes from one couplet to the other. This is in clear contrast with the classical Arabic system of rhyming based on one rhyme for all the poem. The mono-rhyme system did not permit the composition of long poems in the classical Arabic and, probably, because of this reason, the above mentioned language did not possess any epic poetry in pre-Islamic times.

We hear nothing about the composition of Arabic poetry in the Mathnawī form until the second century of Islam. Then, we hear that an important poet who lived in this century, namely, Abān b. 'Abd al-Ḥamid al-Lāḥiqī (d. 200 A. H. ; 815-16 A. D.), wrote most of his poetical works in the Muzdawij (Mathnawī) and Musammaṭ forms (1). He devoted the great bulk of his works to the versification of prose books (2). Naturally he used the Mathnawī form, the only form capable of accomodating poems of great length. We are told that among the works he versified were the book of Kalīlah wa Dimnah, Sirat Ardashīr, Sirat Anūshirwān, Kitāb Bilawhar wa Būdāsif, Kitāb-Sindibād and Kitāb Mazdak (3).

Unfortunately, none of Abān's works ever reached us, and, all that we know about them is that they were versifications in the Mathnawī form of some Hindū and Persian works. After Abān we hear of no Arab poet who used the Muzdawij form in writing romances or versifying stories. However, the Muzdawij form was used at a later date for versifying facts of the various sciences to make it easy for

(1) Ibn al-Nadīm : al-Fihrist, p. 163.

(2) Ibid, p. 119.

(3) Ibid, 119 & 163.

a large number of Arabic words found their way and became part of it. There is of course Islam which gives the new language a cultural background completely different from the Zoroastrianism of the Pahlavi period. The most important difference as regards the subject of this paper is that new Persian borrowed the metres of poetry from the Arabs and submitted itself for a long time to canons of Arabic prosody and literary criticism. The Persians modified Arabic metres to suit their language. They also developed new forms which are completely different from the traditional Arabic *qaṣīdah*. But the influence of Arabic poetry on Persian poetry remained very clear. The canons of criticism applied to Arabic poetry were also applied to Persian poetry. A glance at *al-Mu'jam fi Ma'āyir Ash'ār al-'Ajam* by Shams al-Dīn Rāzī shows the great extent to which the Persians have gone in this respect.

The Persian writer Nizāmī 'Arūzī Samarqandī asserts in his work *Chahār Maqālah* (written between 551 & 552 A. H.)⁽¹⁾ the importance of studying Arabic prose and poetry for anyone who desires to attain proficiency in writing Persian.⁽²⁾

Rashīd al-Dīn, the author of *Ḥadā'iq al-Sihr*, a Persian book on prosody, says: "In learning, subtlety and force of expression, all the subsequent poets of Islam are the children of Mutanabbī."⁽³⁾ Dawlatshāh says: "Without doubt eloquence and perspicuity are the property of the Arabs, and the poets of Persia, in this respect, simply follow them, especially in the science of rhetoric, of which the Arabs are past masters."⁽⁴⁾

But, although the influence of Arabic poetry on Persian poetry was great, it must be said that the Persians did not tie themselves

(1) Nizāmī 'Arūzī Samarqandī: *Chahār Maqālah*; Introduction to the Arabic, translation by 'Abd al-Wahhāb 'Azzām and Yaḥyā al-Khashshāh, p. 8.

(2) Ibid, introduction to the first discourse.

(3) Dawlatshāh: *Tadhkirat al-Shu'arā'*, p. 24. Quoted and tr. by Umar Muḥammad Dandopati: *The Influence of Arabic poetry on the development of Persian poetry*, p. 33.

(4) Ibid., p. 34.

poets and there is no reason why it should not have produced them in pre-Islamic times. Up to the present day, the Persians show great interest in poetry and hold their poets in high esteem. Many foreign visitors to Iran have observed this attitude of the Persians towards poetry. Ancient Iran also produced many singers whose names came down to us. This is a fact that can imply the existence of poets in ancient Iran because singing depends to a great extent on poetry.

As for the Muslim writers who assure us that ancient Persia produced no poetry, their statements can be questioned. Old Persian poetry might have been lost by the time when they made their statements. In the same way, it can be argued that they might have seen ancient Iranian poetry but did not understand it because it did not comply with their rules of prosody. The fact that the Muslims ignored altogether the Greek poetry, in spite of their wide interest in Greek sciences and philosophy is an indirect proof of this.

The view which denies the existence of Persian poetry in ancient Iran is based on the material evidence, that no poetry or even names of poets from ancient Persia ever reached us. It is difficult to suppose that the whole poetical literature of a nation can be completely lost. But, so long as these opposed views rest on theoretical grounds, we are not likely to arrive at any definite results.

When Persia was conquered by the Arabs, and its people were mostly converted to Islam, a new era of poetry and culture started in this country. The Arabic language ruled supreme in Iran during the first three centuries of Islam, and, Persian scholars and even poets expressed themselves in Arabic. Muslim institutions replaced Zoroastrian institutions.

But with the revival of Persian nationalism in the third century of Islam, the Persian language began to attain its place again amongst its people. It did not replace Arabic altogether but began to co-exist with it in the world of letters.

The Islamic Persian language differed from the Pahlavi language the tongue of Persia during the reign of the Sassanian dynasty. The, new Persian is written in the Arabic script. In the new Persian

the first couplet of Persian poetry to the Sasanian king Bahrām Gūr. But, we may say with certainty that no poetry in the Pahlavi language ever reached us.

Thus it can be said that the only part of pre-Islamic Persian writings which can be considered as poetry (although a special type of it) is the hymns in the Avesta called "Gathas" which are attributed to Zoroaster, the prophet of ancient Iran.

The absence of any Persian poetry from the legacy of ancient Iran is not a case which modern scholars alone have noticed. Old Muslim writers also observed this fact and al-Jāhiz states clearly in his book *al-Ḥayawān* that ancient Iran produced no poetry⁽¹⁾. Ibn Qutaybah holds the same view. Muslim Persian writers also like Shams al-Dīn Rāzī, the author of *al-Mu'jam fī Ma'āyir Ash'ār al-'Ajam*⁽²⁾, and, Muḥammad 'Aẓfī, the author of *Lubāb al-Albāb*⁽³⁾, state clearly that the ancient Persians produced no poetry and that they learned the art of poesy after they had come into contact with the Arabs. Earlier than these two Persian writers, the Persian poet Fakhr al-Dīn As'ad al-Jurjānī (A.H. 440 = A.D. 1048) who versified the story of *Vis o-Rāmīn*⁽⁴⁾ from a Pahlavi version which contained neither metre nor rhyme, assures us that the ancient Persians did not cultivate the art of poetry⁽⁵⁾.

On the other hand the Arabic writer Abū Hilāl al-'Askarī tells us that the ancient Persians produced a great amount of poetical works which were lost. He does not tell us on what grounds he bases this statement.

The whole situation as regards pre-Islamic Persian poetry can be summed up in two opposed views or suppositions: the first is that it is impossible that a country with a great civilization like Persia did not produce poetry. Persia, under Islam has produced many great

(1) *Al-Ḥayawān*, vol. 1., p. 36.

(2) *Al-Mu'jam*, p. 170.

(3) *Lubāb al-Albāb*, vol. 1, p. 20.

(4) Published and translated by Leas, Calcutta, 1885.

(5) *Ibid*, p. 11 & 12.

In any case, there is no similarity of any kind between the type of poetry contained in the Avesta and the Islamic Persian poetry from the point of view of poetical art.

An example of the Gathas hymns reads as follows in the translation of Williams Jackson :

" This I ask thee—tell it to me truly, Lord !
Who the Sire was, Father first of Holiness ?
Who the pathway for the sun and stars ordained ?
Who, through whom is't moon doth wax and wane again ?
This and much else do I long, O God to know.
This I ask thee tell it to me truly, Lord !
Who set firmly earth below and kept the sky.
Sure from falling ? Who the streams and trees did make ?
Who their swiftmess to the winds and clouds hath yoked ?
Who, O Mazda, was the founder of Good Thought ?
This I ask Thee — tell it to me truly Lord !
Who, beginant, made the dankness of the Light ?
Who, beginant, sleep and waking did create ?
Who the morning, noon and evening did decree.
As reminders to the wise, of duty's call ? " (1)

Iran was invaded by Alexander the Great in 330 B.C. and, after the invasion, there followed six centuries of decline in Persia's power and nationalism. No poetical compositions reached us from this long period. Then came the Persian revival under the Sasanian dynasty. The language of Persia, during the reign of this dynasty, was the Pahlavi language. No poetical compositions in this language reached us. The few references to the art of poesy during the Sasanian period give us the names of a few singers who are supposed to have composed and sang poetry, and some legends about kings writing poetry. Most known among these legends is the one which ascribes

(1) Williams Jackson: *Early Persian Poetry*, p. 9, New-York, 1922.

THE DEVELOPMENT OF PERSIAN NARRATIVE POETRY

BY

MUHAMMAD KAFABI (Ph.D. London)

The Islamic Persian poetry is the poetry of the Persian speaking people which was developed in Persia after its conquest by the Arabs in the seventh century of the Christian Era. We begin to see it as a well developed art in the tenth century. Before this time (between the Arabic conquest and the tenth century) it was trying to take its shape, a shape which it has kept since then up to the present day.

But, what is the origin of this Islamic Persian poetry?

When we look at the legacy of ancient Iran, we do not find poetry among other treasures of that legacy. All that reached us from the poetry of Ancient Iran is some hymns in the Avesta, the sacred book of ancient Iran, which are believed to have been originally produced by Zoroaster in the seventh century B. C. The book as we have it today consists of texts of different dates. The oldest parts of it, from the linguistic point of view, are the Gathas which still preserve for us what is believed to be the remnants of the hymns of Zoroaster. Other parts of the Avesta which contain some metrical compositions are the Yashts, which contain praises of angels and demigods. But the metres of the poetical compositions of the Yashts are less elaborate than those of the Gathas ⁽¹⁾ although the Yashts are of more recent date than the Gathas.

⁽¹⁾ Consult on this point Glender: *Metre of the later Avesta*, and, J. H. Moulton: *Early Religious Poetry of Persia*.

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

PAGE

MUHAMMAD KAFAYI

The Development of Persian Narrative Poetry 1

MOHAMMED SAMIR ABDEL-HAMID

Literature of Eastern Travel and the Romantic Movement 25

EL-SAYED RAGAB HARRAZ

Italy and the Beginnings of her Colonial Empire in East Africa 33

MURAD KAMIL

Persian Words in Ancient Arabic 55

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin of the Faculty of Arts, Giza, Egypt.

**Back numbers of this Bulletin are available
at 30 P.T. for each Part.**

BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XIX—PART I
MAY 1957

MEMORIAL NUMBER
for
THE LATE PROFESSOR ABDEL-WAHAB AZZAM

CAIRO UNIVERSITY PRESS
1960

مَجَلَّة كَلَامُ الْأَدَبِ



المجلد التاسع عشر - الجزء الثاني

ديسمبر سنة ١٩٥٧

مسند خاص

في ذكرى

المرحوم الدكتور منصور فهمى

مطبعة جامعة القاهرة

١٩٦١



مجلد ثلاثون قرشا معريا

تصدر هذه المجلة مرتين كل سنة ، في مايو وديسمبر ، وتطلب من
مكتبة جامعة القاهرة بالجيزة ، وتوجه المكاتبات الخاصة بالناحية
العلمية الى المشرف على تحريرها السيد الدكتور محمد حمدى البكرى
الاسناد بكلية الآداب بجامعة القاهرة ، ومن الجزء الواحد من اى
مجلد ثلاثون قرشا معريا .

فهرس القسم العربى

- منصور فهمى بقلم تلميذه احمد فؤاد الأهوانى ١
- علم الجمال - ابحاث لم تنشر للدكتور منصور فهمى ٧
- قطاع غزة ، ظروفه الجرافية وأحواله الاقتصادية للدكتور يوسف
ابو الحجاج بكلية آداب عين شمس ٤٧
- أبو نصر الفارابى للدكتور ابراهيم بيومى . مذكور ٦٩
- نقوش خربة براقش للدكتور خليل يحيى نامى ٩٣
- البحاظف المعتزلى للدكتور عبد اللطيف حمزه ١٢٥
- وثيقة بيع ، دراسة ونشر وتحقيق للدكتور عبد اللطيف ابراهيم . . . ١٣٥
- الشفنا فى اتبوييا منذ العصور الوسطى وأثرهم فى تاريخ البلاد السياسى
والاقتصادى للدكتور زاهر رياض ٢١٥

منصور فهمي

بقلم تلميذه : أحمد فؤاد الأهواني

لكل عالم جوانب متعددة تميز بها شخصيته . ولكن السمة الغالبة على منصور فهمي ، والتي تميزت بها حياته هي الفلسفة ، تلك التي اشتغل بها ، وقام بدراساتها وتدريسها ، وقضى زهرة حياته في العمل لها ، فكان له تلاميذ في الجامعة حضروا عليه ، وأخذوا عنه ، واتبعوا منهجه ، وكنت أحد هؤلاء التلاميذ الذين استمعوا لمحاضراته في « الجامعة المصرية » سنة ١٩٢٧ و ١٩٢٨ و ١٩٢٩ ، حيث كان يلقي دروساً في الأخلاق .

وفي سنة ١٩٥٩ اختاره الله لجوارحه وهو في الثالثة والسبعين من العمر .

وفي هذا العدد من مجلة الآداب الذي نخصمه لذكرى الفقيه الفيلسوف نسجل لمحبة عن حياته ، ثم عن مصنفاته ، ثم عن فلسفته . ونعقب ذلك يبحث من قلم الفقيه عن « علم الجمال » كان قد ألقاه متفرقا في سبع كلمات ومقالة عن القومية العربية ، وأخرى يصف حفيده وهي آخر ما كتب .

١ — حياته :

نشأ منصور فهمي في قرية شرقاشر من أعمال مديرية الدقهلية ، وكان ولده عام ١٨٨٦ وتعلم مثل معظم أبناء الأعيان في الريف في كتاب القرية ، وحقق القراءة والكتابة ، وحفظ بعض القرآن الكريم . ثم التحق بمدرسة المنصورة الابتدائية حتى حصل على الشهادة الابتدائية منها . وإذ لم تكن بالمنصورة مدرسة ثانوية قد انتقل إلى القاهرة لإكمال تعليمه بها ، وحصل على الشهادة الثانوية سنة ١٩٠٦ ، ثم التحق بمدرسة الحقوق ، ولكنه لم يتم بها دراسته ، إذ كانت الجامعة المصرية قد عازمت على إيفاد بعثات إلى أوروبا ليمود الطلبة منها بعد إتمام دراستهم للتعليم بالجامعة . وفاز منصور فهمي في مسابقة بعثة الفلسفة إلى جامعة باريس ، وأوفد سنة ١٩٠٨ إلى فرنسا فكتب بها خمس سنوات ارتشف

من مناهل العلم على جمايزة أساتذة السوربون . وقد نؤع دراساته فانجه للباحث الطبيعية والفسيولوجية إلى جانب تخصصه في الفلسفة وفروعها ، وبخاصة علم الاجتماع . وقد درس بوجه خاص على أشهر علماء الاجتماع في ذلك الحين وهو ليفي بريل صاحب المؤلفات والبحوث المشهورة في هذا العلم .

وأخيراً قدم ليل إجازة الدكتوراه وكان موضوع إرسالته « المرأة في الإسلام » . والموضوع كان يعد في ذلك الحين حديث الساعة ، فقد كانت المرأة ترسف في أغلال ثقيلة من الحجاب ، لم تكن مفروضة عليها من الدين نفسه ، ولكنها كانت أثراً من آثار التقاليد في العصور المتأخرة من حياة المسلمين . ورأى أحرار الفكر ، وعلى رأسهم قادم أمين ، صاحب الفضل في تحرير المرأة ، وصاحب الفضل في إنشاء الجامعة المصرية ، أن نهضة الشرق وبعث المسلمين لا يمكن أن يتم إلا بتحرير المرأة . ولقي أحرار الفكر المتأدون بهذا التحرير معارضة شديدة من أنصار التقاليد المتسكنين بها ، وأصيب قادم أمين برذاذ من هذه المعارضة ، كما أصيب منصور فهي .

غير أن الحنة التي أصابت فليحرفنا من جراء هذا الاتهام نالته في منصبه ، ذلك أنه بعد تعيينه لتدريس المذاهب الفلسفية في يونيه سنة ١٩١٣ بالجامعة المصرية ، أبعاد عن منصبه وظل مبعداً عنه ست سنوات ، ولم يعد إلى منصبه إلا في عام ١٩٢٠ ، وظل يدرس الفلسفة إلى أن تحولت الجامعة المصرية إلى جامعة حكومية ، وأصبح أستاذاً مساعداً ، ثم أستاذاً ، ووكيلاً لكلية الآداب ، ثم عيماً لها . ولم يترك العبادة إلا ليشغل منصب مدير دار الكتب ثم اختير مديراً لجامعة الاسكندرية ، وبقي بها حتى أحيل إلى المعاش سنة ١٩٤٦ . وفي سنة ١٩٣٣ اختير عضواً بالجمعية اللغوية ، وفي العام التالي أصبح كاتب سر الجمع ، وظل في هذا المنصب إلى أن اختاره الله لجواره سنة ١٩٥٩ .

٢ — منهجه في التعليم :

كنا في العقد الثالث من القرن العشرين شباباً مملوفاً بالحماسة والاندفاع والثورة والغرور . وكان أمل الواحد منا أن يتم تعليمه ويظهر بالتهادة الجامعية ليحافظ بعد ذلك بوظيفة حكومية تؤمن عيشه . ولما كان معظم أساتذتنا من الأجانب ، فلم تكن تقضى بذات أنفسنا إلا لهذه القلة القليلة من الأساتذة المصريين ومنهم الدكتور منصور فهي . ودار بيننا وبينه الحديث حول مستقبلنا ، فكان يقول : « اطلبوا العلم للعلم » .

« اطلبوا العلم للعلم » هي العبارة التي رسخت في نفسي ، ونُحتت في صفحة ذهني ، حتى اليوم . وكنا في ذلك الحين نسخر من هذا الرأي ، فلما امتدت بنا السن وعركتنا تجارب الزمن عرفنا أن طلب العلم لذاته غاية أسمى ترفع من شأنه وتأخذ بيده ، وأن الآء ما نهضت إلا حين سعى أبنائوها يطلبون العلم للعلم ، وما تأخرت إلا حين أخضع أهلها العلم لغايات الدنيا فانصرفوا عنه .

أما منهجه في التعليم فكان أبعد الأشياء عن « انتظفين » . ولذلك لم يكن يهيء في محاضراته موضوعات مقررة ذرونها كي نخطئها عن ظهر القلب ثم نستيدها في الامتحان ، وإنما كان يدبر محاضراته على الأسئلة وعرض المشكلات ومحاولة حلها والتفكير فيها . كانت طريقته أشبه شيء بمحاورات سقراط يهدف منها إلى انتزاع المعرفة من النفس ، واستئثار التفكير . وهذه أمثل طريقة تفتح العقول وتكونها وبخاصة في بحث الأمور الأخلاقية والنفسية .

ويبدو أنه هو نفسه كان يؤمن بهذه الطريقة ويصطنع هذا المنهج ، فلم يدون ، ولم يكتب ، اللهم إلا خطرات نفس مما كان ينشره بين الحين والحين ، وقد تيسر لي أن أشهده عن قرب في أواخر حياته وهو يسطاف برأس البر . كان يمشي على ساحل البحر عند الاصيل ، ثم يجلس في مواجهة البحر بعض ساعة يتأمل مغيب الشمس واجتلاع اليم لقرصها عند الأفق ، ويستمع إلى هدير الأمواج وموسيقاها ، فتتصل نفسه بظمة الكون والطبيعة ، وينفذ عن طريق التأمل المباشر إلى الحقيقة الكبرى . وهل يمكن أن نترك الحقيقة بالعقل والتفكير ؟ أم بالنزق والاتصال ؟ لعمري إن طريق فلاسفة الهند ، وصوفية الشرق ، وإشراق الأفلاطونيين هو الطريق إلى معاينة الحق . وهذا ما كان يفعله منصور فهمي في حياته الفلسفية .

٣ — مصنفاته :

لم يؤلف منصور فهمي كتباً برأسها ، ولم يكن يعنيه أن يؤلف . فهو محدث ، وخطيب ، ومحاور ، يتصل بالناس والجمهور ، أكثر منه كاتباً يجلس في برج العاجي لياتي إلى القراء بخلاصة ما ديج قلمه . ولذلك كانت معظم مؤلفاته إن لم تكن جميعها ثمره المحاضرة أو الخطابة أو الحاضرة القصيرة مما كان ينشره في جريدة الأهرام برجه خاص ، أو أحاديث بالاذاعة . وقد جمعت الخطرات ونشرت في كتاب ، وكذلك محاضراته عن رائدات النهضة النسائية .

وأحاديثه عن الجمال ثمرة تفكيره الخاص ، ووحى نفسه ، وهى التى سنشرها فى آخر هذه المقدمة لتكون نموذجاً لبحثه الأصيل النابع من أعماق حسه ووجدانه .

وقد لفت انتباهه عن الكتابة والتأليف النظر ، فكتب يرد على أسئلة سائل قال :

« لا أظن أنى انقطعت عن التأليف تماماً ، إذا تدبرنا أن فى محاضراتى ومقالاتى وأحاديثى الصحفية وخطبى نوعاً من التأليف . أما إذا قصرنا التأليف على تصنيف الكتب التى قد يكرر بعضها ما فى البعض الآخر فى صور مختلفة دون زيادة تذكر ، فربما يكون انصرافى عن هذا النوع من التأليف إلى أعمال بعض الجمعيات ذات الأهداف الخيرية النافعة المحيية إلى نفسى ، وكذلك إلى الأعمال الادارية التى زاولتها وأزاولها فى الأعمال الرسمية — أقول ربما يكون فى ذلك ما عوفى عن المضى فى سبيل هذا النوع من التصنيف . »

وزيادة على ذلك فإن شغفى بالتكر الطريف قد يكون له شأنه فى تعطيل عن الإسراع فى التأليف حين أجد أن المتقدمين لم يتصرفوا فى خدمة الموضوعات التى تناولها المتأخرون مما يقع فى دائرة تخصصى العملى ، وأن ما قد يضاف إلى أعمالهم من جهودى أو جهود أ مثالى من المتأخرين قد لا يفى بحاجة المطلبين منهم وذرى الحكمة فهم . وهذا كاف للتردد والإبطاء .

وزيادة على ما تقدم ، فإن طبيعة اختصاصى فى المسائل الفلسفية والاجتماعية ليست جذابة لجمهور القراء عندنا فى الحاضر . أما من تلذ لهم هذه المباحث من القليلين أفانهم من زملايى أو تلاميضى . ولم تقطع صلتى بهم فى تبادل الأفكار بشئ الوسائط . ومع ذلك فلدنى أسس لمصنفات اجتماعية أو فلسفية ، أرجو الله وأستعينه أن يوفقنى لإتمامها ونشرها (١) .

٤ — فلسفته :

ظل منصور فهمى طول حياته يدرس الفلسفة ، ويبحث عن الحقيقة ، ولم يصل إلى تحديد دقيق للفلسفة ما هى ، وللفلاسوف من يكون ، وهو الذى كان يمدد الناس فيلسوفاً والذى كان يحكم صناعته بنفـس بتدريس الفلسفة . وقد سألته مجلة الهلال عن الفلاسوف بين الناس كيف يكون ، ومن يكون ، فلم يهتد — على طريقة سقراط — إلى جواب يشاف . وإليك بعض ما قاله فى الجواب عن ذلك السؤال :

(١) من أودائه الخاصة التى تفصلت زوجته السكرية بإطلاعى عليها .

« وبعد أن أخذت أعرض مختلف التعليقات والتأويلات لهذا السؤال ، قلت في نفسي : لا مانع من رسم صورة تخطيطية لما يتوهمه عامة الناس عن الفيلسوف . ولعل بعد ذلك أرسم صورة للفلسفة عن أهل الذكر منها ، ثم لعل أخيراً أحدى لما أراه لنسبي رأياً .

تذكرت أنهم علمون فيما علموا أن الفيلسوف يحلل ويعمل ، ويخص ويخص ، وقد يجر ذلك إلى تحقيق وتديق ، وإلى إسباب وإطباب ، وإلى جدال فيه أحياناً بعض الأمل . أليس بعض من يطمعون التعليل والتدليل ، ويتخلون الاسترسال والتطويل يظفرون من بعض الناس باللقاب فلاسفة الزمان وعابرة الأوان ؟ وقد يقال في سذاجة — أحياناً — لمن يدقق أو يسبح بفكره وبخياله ويحلق ... إنك لفياسوف . فهل يا ترى يكون الفيلسوف هو الثرثار المدقق ، أو الغائص المتعمق ، أو السارح في السوات الخفاق ؟ لست أدري .

ولطالما سمعت عن يندب بفكره وتصويره ، أو يتفاخم ويتضاهم بمصطلحاته وتعبيره أنه أصبح في حظيرة الفلسفة وعداد المتفلسفين . وقدما قالوا عن شرد في فكرته ، وتأول في المألوف من عقيدته : بثلاثة كفر الفلاسفة العلى . ترى أن تكون الزندقة حقاً معادلة للفلسفة ، ويصبح الفيلسوف من الناس من تزدق وتمطق ... لست أدري .

ولربما قبل عن الرجل الغافل عن أمور الدنيا ، المنزحل عن ماجريات الوجود ، النسي أو المتغاي ، بأنه فيلسوف ... فكان الفلسفة في نظر هؤلاء تمت إلى الغفلة أو التغافل ويكون الفيلسوف هو من اتصف بهذه العفة أو تلك ، فهل حقاً يكون من الفلاسفة بعض المغفلين أو المتغافلين ... لست أدري .

ولطالما سمى فيلسوفاً من لا يكثر بشيء ، ولا يثور لشيء ، ومن يرضى بكل شيء ، وينظر للأمر ناعماً هادئاً في برود وجود مستقناً بقول من قال :

دع المقادير تجري في أعنتها ولا تيقن إلا خالي البال



ويتضح مما قناه أن مسور نهى لم يكن بعد نفسه فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاح عليه من تدبیر ، ومن المعروف عن أفلاطون وأرسطو ... فلا أنه كان لكل منهم مذهب كامل عن اوجود ما هو وعن طريق المعرفة والسبيل إلى باوغ الحقائق . ولكن كانت له نظرات في الحياة ، ومعرفة بالماذاهب الفلسفية ، وبحولات لتحليل المجتمع الذى يعيش فيه وإصلاحه . وهذه المحاولات الفلسفية ، وآراء الإصلاح هى التى سمى إلى نشرها في أحاديثه ورو مقالاته ،

وفي اشتراكه العملي في الجمعيات الخيرية المختلفة . ذلك أن الفلسفة الأخلاقية إنما تبسط بالمثل وتقدر بالعمل .

وقد ألقى محاضرة سنة ١٩٤٠ عن الضعف الخلقى وأثره في حياتنا الاجتماعية ، أجمل فيها فلسفته الأخلاقية ، التي يرد فيها أساس الأخلاق إلى المجتمع . ولا غرابة في ذلك فقد درس كما رأينا على علم من أعلام المدرسة الاجتماعية وهو ليفي بريل . ليس الضمير الخلقى عنده فطرياً ، ولكنه مرآة للحياة الاجتماعية ونتيجة للتفاعل بين الأفراد في المجتمع وثمره لانقال التقاليد والعادات من جيل إلى جيل . وإذا كان الأمر كذلك فالسبيل إلى إصلاح الأخلاق ، وترقية الضمير ، هو « التربية » . وبعد هذه الأصول النظرية يرد الضعف الخلقى الموجود عندنا إلى أمور ثلاثة هي : (١) مسيطرة القوى والخضوع لسلطان الشهوات (٢) الإغراق في المجاملة (٣) ضعف الشعور بالقيمة .

ولندع منصور فهمي يتحدث من نشأة الشعور الخلقى ، فيقول :

« لقد اصطلاح الناس منذ القديم على تسمية هذا النوع الثلاثي الهادى بالضمير . وليس الضمير إلا حساً معنوياً ، أو فوقاً وروحانياً ، يتربى من عناصر الحياة الاجتماعية ، وخالصة التجارب في العيش والمعاملات . فنحن نكون الجماعات البشرية والناس تفهم حاجات هذا الوجود وشئونه ، ويسبحون في خضم واسع من الخبرة والحسن . وقد تتوارث الأجيال هذه الاختيارات التي لا نحصى ، فتلقاها الذراري وتبادلها الشعوب المتفجرة . ومن هذا التوارث وهذا التبادل يتخلف في الحياة ذوق أخلاقى ، يصيب منه الأفراد أقداراً مختلفة باختلاف أحوالهم وتربيتهم .

وإذا كان مذهب منصور فهمي في الأخلاق يرجع إلى المجتمع ، فإن مذهبه في الجمال يرنو إلى النفس شعوراً مباشراً بالجميل لذاته . وعنده أن الشعور بالجميل يتميز عن الشعور بالنافع ، أو الجليل ، وأن النفس تستشعر بالحرية من كل قيد حين نحس بالجمال حينما يوجد .

وإذا كانت معظم المذاهب الحديثة في علم الجمال تنفى عن الطبيعة صفة الجمال ، وترد هذا الشعور إلى الذات فقط ، وأنها هي التي تخلع على الطبيعة ما فيها من جمال ، فإن منصور فهمي يذهب مع القدماء إلى أن الكون جميل ، لأن وراء الكون و وراء الكائنات خالق مبدع أراد أن يصوره على هذا النحو البديع . ولذلك كانت فلسفته الجمالية بمنزلة فلسفة دينية تدعو على نزعة صوفية ، وستجد هذه النزعة تردّد خلال ما كتبه من فصول في علم الجمال .

علم الجمال

أبحاث لم تنشر للدكتور منصور فهمي

١ - حول التعريف بمعنى الجمال

في التقديم الغابر ، ومنذ صور الله الانسان ، وأودعه الحواس وأقر فيه العقل والتفكير ، هياه لأن يقبل على كل جميل يقدره ، ويدبر عن كل فيح ينفره ، ذلك هو الطبع المستقيم ، والذوق السليم ، وتلك هي فطرة الله وسنته . ولن نجد لسنة الله تبديلا .

على أن الناس في بدوهم وحضرم ، ومنذ غابرم وحاضرهم ، قد يختلفون في تقدير الجمال والتبجح ، ويتباينون في إدراك معانيه ، وذلك تبعا لتأثير بيئاتهم ، وأحوالهم ، وتجاربهم ، وعقائدهم ، وثقافتهم ، وعاداتهم . وأنه مهما يكن بينهم من اختلاف في أحاسيسهم نحو الماديات ، أو في أحكامهم العقلية على مظاهر الجمال والتبجح ، فإن لهم حظا مشتركا بجمعهم في أصول الجمال .

ولقد يختلف الناس في أساليب تفكيرهم ، وأنواع معارفهم وعلومهم وأقدارها ، كما يختلفون في فهم مقاييس الخير والشر واصطناعها ، ومع ذلك فلم أصول كلية متشابهة في المنطق ، وقواعد التفكير ، ولهم معالم مرعية يترسبونها في السلوك والأخلاق .

وعلى ذلك ، فقد يظفر المفكرون بأصول جامعة لذوق معنى الجمال ، تكون النفوس إليها ، ويهتدى بها .

قالوا قديما : إن الله جميل يحب الجمال !

وبذلك أسندوا هذا الوصف لواجب الوجود ، والمصدر الأول لكل موجود .
فكان الله قد يتجلى في بعض صفاته الرفيعة من طريق كل شيء يدور للانسان ، شائفا ،
رائعا ، بدبها . ولعل الكثير من الناس حين يرددون هذه الكلمة الجامعة القصيرة على ألسنتهم
في مختلف المناسبات ، قد لا يدركون معناها كل ما تشمله من اشياء ، على نحو ما يدرك
المفكر المتعمق ، والعالم المدقق . لكن حسب من يرددها عند أية مناسبة تواتره ، أنه يشعر
في قرارة نفسه بهزة ربانية شاققة إذا نظر إلى مرقى محسوس يعجبه ، أو إذا ألقى سمعه للحن
يطربه ، أو إذا علق وجدانه وإرادته بعمل يستوجهه ويحمده ويمجده . ولعل من جاز
حينئذ بما أنجبه أو أطربه أو حمده واستوجهه قد يسائل نفسه : ما كنه ما يتجلى من الجمال
في الصورة التي أعجبه جمالها ، أو في النعمة التي أطربه وقعها ، أو في العمل المجدد المحمود ؟
حقا ليس كل شيء تراه ونحسه يروقك ويعجبك ، وليس أى صوت تسمعه يشجيك
ويطربك ، وليس أى عمل تقوم به أو يقوم به غيرك موصفا للحميد والتعبد . ومن ثم قد
يقول الانسان لنفسه : إن ذلك الإعجاب والإعجاب والحمد إنما كان أثرا للجمال ، فما هو إذن
هذا الجمال ؟ وما هي حدوده ؟

ولكن نيسر تحديد الجمال ، بمجرد أن ننظر إليه في مختلف الأشياء التي يبدو فيها ،
ومن مختلف وجهات نظر الناس لهذه الأشياء ، حين يلوح الجمال في تضاعيفها ، ويلحق
ركبه ومعانيه نواحي أخرى قد تصل طلعتها بطلته : كمعاني الخير والحق ، ومعاني المنفعة
التي طالما اتصلت أو التبت بمعنى الجمال والتصقت به التصاقا .

يقف أحدنا على شاطئ النيل في فيضانه الخفيف ، فيروقه منظر السفن الجاربات ،
والماء التدفق المنهر ، والأمواج المتلاحقة ، والمجرى المرتفع ، وقد يستغرق ذلك الناظر
فيما تحس نفسه من فيض النشوة والسرور ، على حين يقف مهندس الري المسئول ، مبطل
الخطر ، يتفكر عقله أخطار الفيضان ، وما يخشى من هذا الطغيان ، فيسوق هذا المنظر
نفسه إلى نفس المهندس هولا وكآبة ورعبا ، فياختلف وجهتي النظر لشيء واحد يختلف
شعوران متضابان أحدهما أنست به النفس ، والآخر ضاقت به الصدور .

وقد ينظر أحدنا في الشتاء إلى مصطلى يتدفأ به المرقور ، تشتعل فيه النار ويتحرك لها
في نموجاته الذهبية المتشابكة ، فتأخذ له صورة الجميل الباذي في تومج اللهب وثورانه
وجريانه ، فيتأمل مستغرقا في لذاذة ذلك المنظر الأخاذ ، على حين أن شخصا آخر

يقرب من الدفء ليغمم لذة الحرارة السارية في أوصاله ، من غير أن يشغله جمال النظر ونموذج اللهب .

وقد يطيب لاحدنا أن ينظر إلى فراشة زاهية الألوان ، تدور حول زهر أو ثمرة في حديقة غناء ، أو إلى طائر يتقل بين الأغصان ، ويشدو بين الأفنان ، في حين أن البستاني الحجير ربما ينظر إلى تلك انفراشة في حركاتها وسكناتها ، وإلى ذلك الطائر في نقله وشده ، نظرة المكثب والمرتاب ، أو نظرة المستبشر المنقب ، عندما يلوح له في تلك الرقصات وفي تلك التقلات ضر للأزهار أو خير للثمار .

وقد ينظر رب الأسرة وعائلها المجلود ، المحدود الثروة والموارد ، إلى ثوب فتاته العروس مزركشاً بألوان ولواحق ، فيتبرم بما كلفه ذلك الثوب من ماله وورق نيله ، في حين لا ترى الفتاة ولا يرى عروسها من ذلك الثوب إلا متعة النفس ، بما فيه من زخرف وجمال .

ومن ثم قد تتزع نظراتنا من الأشياء المحيطة بنا ، سحر جمالها مجرداً منفكاً عما يلاحق هذا الجمال من منافع أو أضرار ، ومن فوائد أو أخطار .

فكأنى بمعنى الجمال يريد أن يتقدم إلى النفوس بذاته ، خالصاً منزهاً عما عداه ، خالياً من الشوائب واللواحق . ولكن قد يجتمع الجميل والنافع ويتقيان ، كالورأت لوحاً زيتياً بهرتك ألوانه ، وغلبيتك روائعه ، وجذبتك مغازيه ومعانيه . أو زهرية شاقك شكلها ودقة قالها ، فعمدت إلى اقتناء اللوح وشراء الوعاء ، لتضع بها في تزيين حجرتك وتجميل مكتبك . فهل كان انتفاعك بها للتجميل والتزيين هو الباعث الأول والدافع الرئيسي لاقتنائها ، أو أن تقديرك لما فيها من جمال هو أول ما أغراك ودفعك ، ثم أتى الانتفاع بعد ذلك بالحسن وشعورك بالجمال ؟

ألا إن معنى الجمال كان هو المقدم والباعث الأكبر . ليست المنفعة هي التي تولد عنها الجمال ، وإنما هو الجمال الذي أراك على أن تقتني ما اقتنيت ، وتستخدم ما استخدمت ، ثم تنفع بعد ذلك بإحساس التجميل والتزيين .

إن الجمال له أسلوبه الخاص المتبذ في أن يتقدم إلى النفس ، يباغتها بذاته قبل أن يباغتها بما يتخلف عنه أو يتصل به من الأسباب الأخرى ، فمقدار الحرص على الجمال لذاته دون خلفاته ومعقباته يكون أثره فعلاً في النفس عميقاً ، ووقعه عزيزاً عندها لذيتها لديها .

وكذلك للجمال أثره في النفس بما يميزه عن أثر سواه من المعاني ، فآثر الشيء النافع كثيراً ما يدعو المتفجع إلى رغبة الاختلاء والاستخدام والاستهلاك . أما الأثر الذي يحدث عن الشيء الجميل : فكثيراً ما يتبرأ من قيود التملك والاستخدام ، فقد يتمتع أحدنا بامتزاج الأضواء وألوانها المختلفة في وقت الأصيل على سفح المنقط ، وقد يتمتع بالشمس الغاربة وألوان الشفق حينما يتدلى قرص الشمس ويقوس في البحر الخضم .

على أنه لا يمر بخاطر المرء أن تكون هذه الأضواء المنموجة على شرفات الربى ، أو تلك الشمس الفاتمة بين أمواج البحار مما تملكه أو تستلكه ، ولكن تنبئ لو امتد هذا المنظر أو ذاك طويلاً ، ليمد في متنا دون أن يبديد ، فكان معنى الجمال يتصل بمعنى الحرية والبقاء والخلود . أما معنى المنفعة فيتصل بالملكية والاستخدام والقيود .

وكذلك قد يختلف الجميل عن النافع في الوسائل الذهنية التي تكشف معنى الجميل وتحدد معنى النافع . فمعنى النافع يحتاج إلى التفكير والقياس والمقارنة بالنسبة للأغراض والغايات التي تنطلق إليها . وأما معنى الجمال فإنه يصل إلى تفكك دون تفكير أو تقدير أو تدبير .

وكذلك يتميز معنى الجمال عن معنى الحق أو معنى الخير ، ولا أريد التفصيل . فإذا شئنا أن نحدد الجمال ، ونستخرج له تعريفاً مجزئاً بما نتمنا من الأمثلة والإشارات فهو على الجملة : معنى رباني يعلو بجناحي الحرية والاستقلال عن كل علاقة . فهو في نفسه غاية . وهو يبدو في الشيء المحدود وفي الشكل المحسوس ، ليمثل حدى الوجود في المقيد المحدود ، والمطلق المبلود ، والمرق والحق ، والمادة والروح ، والصورة والمعنى ؛ فهو شعاع رباني يتصل بالمعاني العليا ، وبأصل الأصول ، الذي هو روح كل شيء وبارئ كل شيء ، والله جميل يحب الجمال !

٢ - حول الفن الجميل ومصدره ومرماه

إذا سبقت عبارة الفن وبجرت في دارج اللغة على ألسنة الناس دون أن تصل هذه العبارة بوصف من الأوصاف ، فإنها قد تدل على قدرة الإنسان حين يعمل شيئاً ما أو يحقق أمراً ما ، على نحو من المهارة والبراعة . فيقال لمخترع التجارة أو الصباغة أو غيرها من الحرف : إن هذا المخترع هو فني أو فنان أو ابن فن . لأنه يحقق بوسائل حرفته وأدوات صناعته ما يطلب إليه على صورة يجعل فيها نوع من الاقتران يحمل على الاعتراف بأن في العمل خلقاً وذاً .

وقد يقال للعرومين اللبيقين حين يسعى كل منهما إلى ترغيب صاحبه فيه وتوجيهه إلى نفسه : إنهما بخدقان فن الترغيب والتحييب . فعبارة الفن إذا جردت عن كل وصف تكون أليفة للخلق ومرادفة للمهارة . على أن هذا المعنى العام قد تحدد بحكم الاستعمال فقد أطلقت كلمة الفن على نشاط الإنسان المتصل بمشاعره وعواطفه وخياله وأحكامه . ومع مرور الزمن وارتقاء اللغة ونموها ، اتسعت هذه المظاهر المحسوسة بوصف الرفيع أو بوصف الجميل ، ومن ثم أسند إلى كلمة الفن كلمة الرفيع أو كلمة الجميل حين يراد الاستدلال على المظاهر الجميلة التي نشاهدها ونحسها في هذا الوجود .

ولقد تمخض تطور العرف البشري وتاريخه عن خمسة من المظاهر المشهورة لها فروعها ولواحقها ، وكلها ترسم صورة من نفسية البشرية منذ نشأتها ، وكلها تمت إلى معنى الرفعة ، وكلها تصل بالجمال . تلك هي فنون : البيان ، والغناء ، والمهارة ، والنحت ، والتصوير . ويرى المولعون بالتقسيم والتصنيف أن يحتفظ الناس بعبارة الفن الجميل لما يجعل من هذه المظاهر عن طريق البصر كالتصوير والنحت والعبارة . وأن يحتفظوا بعبارة الأدب الجميل لما يدرك بالسمع من هذه المظاهر كالغناء والبيان .

ومهما يكن من نفع لهذا التقسيم والتصنيف ، فليس من حرج عندنا أن نطلق عبارة الفن الجميل على كل مظاهره الخمسة المقدمة ، فكلها موصول بمعنى الجمال وكلها تجمعها العاطفة والحيثيات عند من يحقها من أهلها وعند الذين يتأثرون بها من الناس .

وبها يكن من تيسير لفهم الأمور وإدراك الحقائق حين قسم وترتب ونوب مظاهر
 انشراط النفس والفكرى وتقرها في دوائر معينة ونضعها في قوالب محدودة معينة . فإن بين
 مختلف هذه المظاهر والمعارف علاقات شديدة وروابط عديدة حتى أنه ليس باليسير
 أن ترد جميعها إلى أصل من الأصول ومنبع واحد من المنابع . مثلاً في ذلك مثل أفراد
 القبيلة الواحدة يتفاضلون ويتكاثرون ويتفرقون في كل زمان ومكان ، لكنهم لا يبدوا رجوعون
 إلى جذر جامع ينتنون إليه وتنتهى عندهم شجرة أنسابهم . أو كمثل الجداول المتفرقة ،
 المتشعبة من نهر تخرج منه ، فإنها قد ترد إلى ينبوع الأول الذي يستمد التروية منه ماءه
 المذهب القرائ . وكذلك الأمر في مظاهر الفنون الجميلة فإنها مهما تعددت وتفرقت
 أو انحصرت في ناحيتين أو خمس من النواحي التي تواضع الناس عليها — فإن معين المعنى
 الجميل يستقر هنالك وراء أقسامها وأصنافها المتنوعة ، وينساب منه إليها فيض الصافي السخي ،
 سواء تجمعت وانحصرت أم تفرقت وانتشرت . على أن في المحصر هداية وتيسيراً لرواد
 الجمال حين ينشدونه من أيسر سبيل وأقرب طريق ، ويقصدون إلى السباحة في ربوعه
 القريبية وأوديته الدانية .

فإذا كان من الميسور عليك أن نحس الجمال حين تسمع الثور البليغ والشعر الجيد ،
 أو حين تشهد مسرحية طالب لك منها حسن العرض والاداء والإلقاء ، أو حين تأخذك الذنوة
 لتفريد بطربك ، أو حين تقف خاشعاً بين أكناف الآثار والمباني ، وروائع الماعبد
 والمغاني ، أو حين تقف عند تمثال أو رمز يذكرك بك بعقوبة لمعت ، أو حوادث وقعت
 تجر إليك أغنى الذكريات وأطيب العظات ، أو حين تطالع قسماً من النقوش فستشف منه
 دقيق تعبيره وتأسق ألوانه ، فإنك في ذلك تستقبل جملة من المعاني كما تتداني إلى حرك
 طائفة من الصور والأشكال .

هيك وقفت في معبد من معابد الفراعين ذات القواعد والأوتاد والسواري والأروقة
 الشداد ، وذات الرموز وذات المبالكل ، وكلها من الجلاميد لا تنفع ولا تبيد —
 أفلا تستشعر من كل هذا معنى الربوبية في عظمتها ومعنى الألوهية في قوتها وقابها وخلودها ؟
 ثم هب أنك شهدت مسجداً قد علت مناره إلى السماوات وتعددت في أروقته النقوش وزخارف
 الحروف والآيات ، التي ترف حول كلماتها أروع معاني البقاء والفناء — أفلا تستشعر
 في موقفك الديونة تهادى إلى صدرك حاملة معاني الصمدانية ، وطلاوة الوجدانية ؟

وقدس على ذلك فانت قرا في صفحات الفنون رائعا بليغا من المعاني إذا كانت تنسج
مستطعة أن تستشف المعاني من أطلال كتاب الفنون الجميلة التي توضع عليها الناس .

ودناك جمال كتب في صفحات لم يحتوها كتاب الفنون المعروف ، صفحات مشرقة
الجمال فيها من الفن معان لمن يستطيع أن يقرأها :

فهذه صحراء متراصة الأطراف يسير في آفاقها عند الغروب قطيع الإبل وحولها بدو
ولوا وجوههم لله خاشعين مصلين .

وهذه أم رموم حانية على رضيعها وعلى وجهها بشر الرحمة ونور الخنان .

وهذا شيخ ناسك متقطع لربه عاكف على كتابه ، ملازم لصومته أو محرابه ، وحوله
إشعاع الرضوان وإشراق الإيمان .

وهذا عالم في معمله ومخبره مكب على مجهره مستغرقا في الكشف والتفكير .

ففي كل هذا وأشباه هذا مما تحفل به نواحي الوجود ، ما يشعر بأن المعاني الجميلة
والخطرات الرفيعة تنفي بها الدنيا وتحفل بها الحياة ، نارة من يد الإنسان وأخرى من يد الله
أكبر فان .

وبعد . فقد نسائل أنفسنا عن مصدر المعنى الجميل كما نسائلنا عن غاية الفن الجميل
ومرما . أما مصدر المعنى الجميل فهو الأزلية وفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها حين
وهم قوى وملكات يتفوقون بها معنى الجمال ، وتختلف هذه الملكات قوة باختلاف
أفرادهم : فمنهم الموهوبون بأشدها حساسية وأزخرها وأولئك هم الفنانون الحقيقيون .

ومنهم من يقتربون للجمال آثاره ويحملون أسرارها في مختلف مظاهره ، وأولئك هم
المثقفون المستثيرون .

ومنهم من لا تصل إلى صدورهم نبات الجمال إلا من مظاهره القوية التي تحمل شحنة
هائلة تصل إلى كل نفس وتنفل في كل صخر ، وأولئك هم سائر الناس .

وإذا كانت الأزلية هي المصدر القديم الأول لكل جمال خالص غير مشوب فإن العقل
ليقف حائرا عاجزا عن إدراك كنه الجمال ، فيرسل النظريات تلو النظريات ، ويبحث
بالافتراضات تلو الافتراضات ، وهو فافع ، في عجزه ، بتعريف الجمال بمظهره وآثاره
وبتقريب معناه عن طريق قصصه وأخباره . وأخيرا يقول : حسي من الجمال أنه يهرف

حين يفتنى فأحس أنه الجمال ، وأردد : إنه الجمال . سالكا في ذلك طريق المتصوف
المجنوب حين يقول في ذكره وتسيحه : الله هو الله !

إذا فمصدر الجمال هو تلك الأزلية المطابقة ، ومبعث الفنان الجميلة عند الفنان هو ذلك
التشاطر الحر المتصل بها ، لا يقيد قيد ، ولا يسير إلا بإلهام .

وهنا قد يلبس معنى الحرية في الفن : فإمدى تلك الحرية ، وماذا عسى أن يكون
هذا الإلهام الصادق للفنان الجدير ؟

ولعل أول ما يبين للخطر أن الحرية لا تقيد بقيود ولا تعدها حدود . ولكن الحقيقة
أن الحرية في الفن الجميل والإلهام الحر عند الفنانين يتقيد بسيرهم على محيط الدائرة حين
يصطرون عن مبدأ الجمال ويتجهون إليه كما هو خالص مستمد من الأزلية ومن الله يحدده
العقل السليم ويقره العرف المتطور المستقيم ويستسيغه الذوق القويم وتهدى إليه فطرة الله .
وكل من العقل والعرف والنوق والفطرة لا يمكن أن يتناقض وحيا أو يتنافر إلهامها .
فكلها تهدف إلى الأحسن بعد الحسن وتسير قدما في طريقها إلى الكمال .

وعلى ذلك فإن الحرية للفنان الموهوب لا يمكن أن تسول إليه تصوير الفاحشة
ليغري بها ، أو تشخص الحيانة ليحض عليها ، أو تبرز الإباحية ليزكيها . أو ترمس الضلالة
ليدعو إلى السير فيها ، فإن ذلك كله ليس من مطالب العقل السليم أو العرف الصالح
أو مألوف الذوق المستقيم ، كلا ولا من فطرة الخلق ولا من وحى الله . فإذا انحدر
الفنان إلى تصوير ما أسلفنا ، فإنك لا تحس إلا النذل والاسفاف والمهوان . لأن ذلك
من عمل الشيطان .

وأخيرا ، فليس للفنان أن يلبس الحق بالباطل باسم الحرية في الفن ، وليعلم أن الفن
يرفع ويسمو بالناس إلى المعاني الخالدة ، ولا ينحط إلى حضيض الشهوات ، والفن السليم
وراءه الله والحق مقصده ومرماده والخير غايته وتصراه .

٣ - المؤتمرات المختلفة في الفن الجميل

في الكون تنتشر المعاني الجميلة ، بقدر من الله وفضل ، وفي الطبيعة تنتشر ألوان من الحسن وآيات من البهاء ، ويصدر عن الإنسان الممتاز الراق أعمال وأفعال تدعو إلى التقدير والإعجاب . وبها تختلف المصادر لمظاهر الجمال ، فإن الفنون الجميلة البادية في محيط معيشتنا وحياتنا الاجتماعية تستمد صورها وحياتها من الإنسان ، ومع ذلك فليست هي إلا ثمرة من ثمرات سعيه وكسبه وإنتاجه وتمازجه لتختلف الأشياء والتجارب ، ومزاياه لها . ولقد كان في فطرة الإنسان منذ نشأته ، وفي استعداداته وفي متناول قدرته عندما تعمل بحقائق الكون ومادة الأرض أن يصبغها بصبغته الإنسانية ، وأن يطبعها بمعنويات تتزعج من معناه البشري انزعاجاً ، فينفخ فيها من روحه ، ويمتصها ضرورياً من الألوان والمعاني لم تكن لها من ذاتها ولا في كنه حقيقتها ، وكأنه يكسبها روحاً يخلجه عليها ، وحياء تجرى في مادتها الجلمدة ، وتسحب على صورها ، وتستشف من مظاهرها .

ولعل هذه القدرة الإنسانية ، التي يصبغها الإنسان على الأشياء وفي مادة الوجود المحسوس الظاهر ، أقول لعلها هي هبة الله الفنية التي ميز بها آدم وذريته . ووفقاً لهذه النظرة تصبح الفنون الجميلة خاضعة لسفن الانتاج البشري ، فتحكمها قوانينه وتؤثر فيها عوامله .

فالفنان إذن هو أداة طيعة قد توصل إلى الأشياء تأثيرات الجنس الذي نسل منه نسل هذا الفنان ، وتأثيرات المحيط الذي نشأ فيه ، وتأثيرات الظروف الزمنية والمكانية الضيقة والتأثيرات الشخصية والنفسية التي تصل به من قريب وتمازجه ، وعلى الجملة تأثيرات كل أمر من شأنه أن يؤثر في نشاطه وعمله وإنتاجه .

فعامل الجنس الذي نسل منه الفنان يدور في مجموعة الاستعدادات المعنوية والجسدية التي يورثها السلف من يخلقه من الأجيال والذرائع ، وتصل هذه الاستعدادات بنية الأجسام وتركيبها ، وتنسجم مع متنوع الاختلاط والامزجة ، وهي قد تم متوجات جنس

من الأجناس بطابع مها تكن درجة تميزه ووضوحه وظهوره أو درجة خفائه وإيهامه ،
فقد يدل عند الحيرين المحققين على جنسية المنتج ، بل على الأصول البعيدة التي تفرع منا
هذا الجنس ، وعلى الاستعدادات النظرية الأولى في هذه الأصول ، على الرغم مما يصادف
هذه الاستعدادات ويطرأ عليها من ضروب التغير والتعديب والتكيف .

ولقد اضطرت الأجناس البشرية ، منذ الغابر البعيد ، بحكم الأحداث والحاجات ،
إلى الهجرة والتنقل من مكان إلى آخر وقد تختلف أجواء هذه الأمكنة التي تستقر فيها
الأجناس ، وتختلف محيطاتها وطبائع التربة التي يشملها المحيط . فإذا استقر الجنس لعدة قرون
في مكان معين ، وقام عليه العهد فيه ، كان لا بد له أن يتأثر بحالة هذا المكان فتغير
خصائصه الأولى وقتاً لآثار المناخ ، وحالة الأرض في سهولها أو وعورتها أو وطوبتها
وجفافها أو قفرها وغناها ، أو جذبها وخصبها ، وغير ذلك مما يدخل في صفات المكان
وأحوال المحيط .

فالأجناس الجرمانية واللاتينية والاعرقية مثلاً تنسب جميعها إلى أصل آري واحد ،
قد انفصلت عنه ، وانفكت منه لتسكن في بقاع وأجواء مختلفة ، فأصبح لكل من الجرمان
واللاتين والاعريق خصائص متنوعة ومترفة بتنوع الأمكنة ، وتقوى الأجواء التي
سكنوا فيها وسكنوا إليها . وقد أضافت هذه الخصائص الطائفة التي تكونت بحكم الظروف
إلى الخصائص الآرية الأولى ، وأثر ما تباين منها لكل قبيل في متوجاته الفنية بحيث يصبح
من اليسير على الناقد أن يميز بين طابع الفن الاعريق والجرماني واللاتيني .

ومثل الأجناس حين تنقل إلى مختلف الأجواء ، ومتنوع البيئات والأمكنة كمثل
البذور لنوع واحد من النبات ، تنمو في مختلف الأجواء والأراضى فيختلف عنها نبات
يختلف بعضه عن بعض في سيقانه وأوراقه وأزهاره وثماره . على أن عامل الجنس ،
وإن كان له أثر يذكر في الفنون الجميلة ، فليس هو وحده العامل المؤثر في متوج الفنانين ،
فهناك المحيط وما يتصل به من مادة ومحتويات ، فما يحويه المحيط وما يشملها من حجر صلب
أو رخو ، أو أصناف من الرخام أو أنواع من الصلصال ، أو ضروب من المناظر والألوان
مختلفة من الأضواء ، كل ذلك له أثره في صور الإنتاج الفني . فالتحت في الحجر الرخو
قد يسير للثال الموهوب الاستجابة إلى وحى النوق والجمال في إظهار القلمات أو إبراز
الحركات مما لا يجسر في الحجر الصلب الشديد . وقد يتأثر النوق المعاري بمادة المحيط

قد تغاير المباني في الأرض المتربة المباني في الأرض الصلبة المتحجرة ، وذوق المعماري الذي يعمل في الوعر وفي الجبال يخنف عن ذوقه في السهول والوديان ، وشعر أشعر "فانتيم" في بيئة فيها الرياض والأنهار الجارية ، والأشجار الباسقة ، وريبات واهبات ، يغابر شعر من ينشأ في الأرض الجرداء ، أو مهامه اتحراء ، وكذلك كل ما ينتج من أنواع الفنون لا بد أن يحمل شيئاً من آثار الجنس والبيئة والمحيط .

وقد تؤثر الحياة الاجتماعية ، والعادات المرعية ، والحالات النفسية ، واعتقائد الدينية والمذهبية ، والظروف الطارئة في متوج الفنان ، لأن الفن بطبيعته لا يعدو أن يكون ترجماناً للحياة الواقعية ، وتصوراً للحقائق البادية وما ورامها ، فالأدب في أوقات الثورات والتكبات والكوارث ، غيره في أوقات السلام والرخاء والدعة ، والموسيقى والأناشيد في أوقات القلق والاكتئاب غيرها في أوقات الاطمئنان والسرور والنعيم وهكذا يتأثر الفنان بالشئون الاجتماعية والسياسية المحيطة به .

وكذلك قد يتأثر الفن والفنان بحالته النفسية والشخصية ، فحالة الشاعر الأعزب ، دلاً تسعفه بصور المعاني المائلة ولا ترق بخياله إلى تصوير معاني البتوة وما فيها من عطف ورحمة وإحساس بحال الطفولة ولطفها وسذاجتها وجلال الأبوة وحوها ورفقها ، كما توافي هذه المعاني العالية خيال الشاعر المتزوج الوالد . وشاعر الاستهتار والمجون غير شاعر التدين والتعبد . وقس على هذا كل ذي فن في فنه وفي إنتاجه .

وكذلك قد يكون لما تنتجه الصناعة من أدوات الفنانين أثر بارز في إتحان الفنون ، فهي تقدم الألوان والأصباغ ، وفي تقدم الأدوات الصناعية التي تستعمل في الخزاف وفي النحت ، وفي التحكم في الأضواء وتكييفها ، ما له أثر بالغ في كل ضرب من ضروب الفن الجميل .

لكن مهما يكن الفن الطريف محكوماً بالجماعات وفنلها ، وبالمحيطات وتركيبها وبالأجواء واختلافها ، فإن الهبة الإلهية الخاصة التي تمنح لأهل الفن في الحس بالجمال ، هي الأصل الأول . وإن تأثرت بالمحيط فهي تنزع لأن تغلو على تأثيراته وتفك من أربطته ، وتنطلق من دوائره الضيقة إلى حيث ترق فوق المحيط وفوق الحيدة ، نزوعاً إلى أصلها الأول عند الجميل الذي لا يحد جماله ، ولا ينتهي كماله .

٤ - الفن الجميل بين شئون الدنيا والدين

حين يبدو الفن الجميل في مظاهره المحسوسة فهو إنما يصدر عن الحرية المطلقة التي ندرك الجمال ونحسه . فالفن والفنان يأمان القيود والأغلال ، ويفران من التوجيه إلا بدافع من نفسها وطبعها حين يتوخيان السبر على محيط دائرة معينة تتسع أو تضيق للمعاني المتفرجة في سلم الجمال وفقاً لظروف المكان ومروء الزمان في تطوره أو تدهوره .

وعلى ذلك فليست غاية الفن الجميل ولا مهمة الفنان قاصرتين على محاكاة صور معينة ظاهرة وقلها مجردة من المعنى . وإنما غاية الفن والفنان أن يغوصا فيها وراء هذه الصور المحسوسة حتى يقعا على معنى بليغ عميق أو مثل أعلا يليه الفنان وتكشفه نفسه وتخرج نحوه تلك الصورة الظاهرة المحسوسة .

وبقدر ما تكون المعاني التي تنشئ وتطلب من وراء هذه الصور عالية محلقة في سماء الرفعة والجمال وبقدر ما يدعو انتصابها إلى الإلهام في نشاط نفس وجهد ، بقدر هذا يرى الفن راقياً متعالياً . ثم بمقدار ما تنسجم الصور التي ينشدها أهل الفن بطابع من الحياة المادية العادية يرى الفن خائراً ومظهره متهاشراً فاتراً .

وما تقدم فهم إذن أن الفن شيء متاير بذاته للماديات التي يستخدمها وقد تستخدمه . والفن مصدره ونهايته في معنى الجمال . والجمال موزع في الوجود وفي الطبيعة ، مطبوس في مختلف نواحيه وبين جنباتها وقد يكون على هذا الجمال غشاوة تضغطها يد الدهر على قسائه . وقد يكون في ألوانه ظلمة تظلمها الصروف والغيوم . لكن يد الفنان وقدرته وعبقريته تخرج الجمال من طي الخفاء وترفع عن قسائه الغشاوة وتزيل عن ألوانه الظلمة وتجعله مشرقاً جلياً يسر الناظرين .

ولم يكن الفن عند ظهوره وسيلة لتفريغ النفوس ، أو لإرضائها ، أو نفعها ، أو تسليتها . وإنما يجيء الفرح والرضا والتسلية وانتفع بجيئاً عرضاً بعد ظهور الفن الجميل . فوقف الناس منه كموقفهم مما يكشفه العلم والعقل من قوى الطبيعة وقوانينها . فالتاس يستخدمونها

فما يحق لهم غايات ومآرب من الحياة لم يكن العلم لبقدر تحقيقها عند اكتشافه لتلك القوانين وعند إقراره ما قرر من النظريات .

وما أشبه الفن الجميل في خروجه من بدايته واتباعه إلى نهايته بالنهر يجري في واديه إلى منصبه طليقاً حراً بين انبجاد وانوهاد . ومع ذلك فإن انوهاد تجذبه والتجاد تصده وترده والمصب يستدعيه إلى مواصلة الجريان ويستدرجه إليه . ثم إن الأرض التي حول هذا النهر بحيا به مواتها وتكثر بمائه خيراتها .

وما دنا نلم بأن الفن لا يكون فناً حقاً إلا إذا اتجه باحثاً عن المعنى الجميل وجعل من ذلك المعنى مصدره وغايته ، وأنه يبحث عن هذا المعنى الجميل حراً مستقلاً لا يقيد قيد ولا يثقله شرط ، ما دنا نلم بهذا ، فقد ندرك حينئذ كيف يستشف معنى الروعة عند مبنى يبدعه معمار فنان من خلال خطوط تلاقى وأبعاد تنسجم ومواد تعطف وتؤلف . وكيف لتستشر حسن التسميات وخفة الحركات والرشاقة المباشرة من تتنال بصوره عبرى نحات . وكيف يشيع في النفس إحساس واضح بثيره قوة التعبير من لوح تلوينه ريشة رسام من الملهمين . وكيف يؤخذ المرء ويسحر ببيان بارع أرسله أديب مطبوع أو صدح به شاعر قادر . ثم كيف تسو الروح في نشوة الطرب إلى عالم تقي رفيع عندما تنسكب في الانماع ألحان موسيقية أو أنغام صوتية تبعها أنامل العازفين البارعين أو ترسلها أصوات المغنين الوهوين . ونحن إنما يكون تأرنا بالغاً بهذه المظاهر لأن الفنان يزواج في فنه وبمزج فيه بين المحسوس والمعنوي ويعترف من الهامه المحروحه المراهف المتناز ليعبر عن قبض مشاعره بأدانه الخاصة به سواء أكانت ريشة أو منحاناً أو معزفاً أو قلماً وبياناً .

ومنذ الغابر البعيد ووقتاً لطبيعة الحياة المادية تطاول الانسان على فلسفة الفنون الجميلة الزهوه باستقلالها عن حاجات الناس ومناقمهم ، فاستخدمها استخداماً نفعياً من أجل أخلاقه ، ومسالكه ، وتربيته ، وسياسه الاجتماعية ، وترفيه ، وتعيمه ، وسلامته ، وصحته وما إلى ذلك من شئون الحياة ومآربها .

فكلنا مثلاً قد يعلم أن السخاء حميد وأن الشح بغيض ، ولكن هذا العلم قد لا يبلغ بنا إلى تمجيد السخاء ، وبغض الشح بمقدار ما يفعل الفن في قوسنا إذا هو دعا لتجديد هذه الفضيلة والتغير من هذه الرذيلة . فلرب واعظ فياض اللسان بالغ البيان ، ولرب مسرحية محبوكه الحوادث يكفلان للنفس أثراً عميقاً في التغير من الشح وفي تقدير السخاء .

وطالما اثبت دعوة السياسين ودعاة المذاهب في بلاغة الأسلوب والتأثير خضرت
الناس أحزاباً وشبوا وحيت إليهم مذاهب ومبادئ وينفت غيرهما عندئذ . وكثيراً ما تدخل
الفن الجميل في شئون التجارة فزوج سناً ما كانت لتظفر بهذا الرواج إلا لحسن العرض
والفنى والوضع الأخاذ .

وطالما تحققت للناس غايات من انترف والراحة وألوان من النعيم أمنهم من أن يحسوا
شدائد الحياة وأحزان الوجود . فكم من فكاهة فنية رائعة تقتل الانسان من مشاغله وتسرى
عنه أضراره . وكم من نفحات عاجلته من كآبته وخففت أشجانه . وكم من يد هندسية فنية
خطت في فضاء الأرض المعاني والمدن توفر فيها كل ما يسعد ساكنيها من وسائل الصحة
ومميزات السلامة ومن أسباب تجبيل برهف النور وتزيين برق الاحساس فعم ساكنوها
وصحت فيهم الاجسام والاذنقان والاحلام ولم يكن كل ذلك إلا نتيجة لانتفاع الناس
بالفن الجميل ويلواحقه في شئون معاشهم ودنيائهم .

وطالما انتفع الناس كذلك بالفن الجميل وما إليه في شئون دينهم . فالدين يقوم في أبعد
أصوله على الاعتراف بقوة لا تتركها الأبحار وعلى الخضوع لمن لا تترك ذاته ولا تحدد
وعلى الرغم من أن العقل قد استخدم قوى الطبيعة وسخرها للانسان فإنه كان ولا يزال
عاجزاً عن فهم الاصل الأول . وعن إدراك غاية الحق ومصدره . ولقد كان الناس ولا يزالون
في حاجة إلى تريب المسائل الروحانية إلى الاندهاش عن طريق ما هو مألوف عندهم
وما هو محسوس . لذلك تدخل الفن الجميل ليقرب إلى الناس تفحات الديونة التي فطر
الانسان عليها وليدنى إلى أفهامهم معانها . ومن ثم اتخذت الرموز لتنبيل المعاني الدينية .
ومن ثم تقل الفن الجميل الكثير من تعاليم الدين في أبواب من البيان الأخاذ والتشبيات
الطليقة القربة عندما عز على الأنعام أن تترك المعاني المجردة .

ولقد كانت المعابد في مختلف العصور وعند مختلف الأجناس أهلة يوحى الفن
ومظاهره وتوجيهاته فازدانت بالتصاوير والنقوش والزخارف المختلفة . وترتبت عظمة
المعابد وروعها على سلطان الدين في أهله وأشباعه وتأثرهم به وفترتهم على الاستجابة لهذا
الآثر من تعظيم الدين وتقنيته بتعظيم معابده وتقنيته .

فبعد العصور وفي أديم الهياكل صدحت الآلات وجلجلت التسابيح والصلوات
بالقد يستعان أيضاً بالمركات الإبتاعية المنسقة في جملة من المظاهر الدينية . وقد جسم النحت

والنصوير أشباح القديسين والعابدين ورسمت المناظر التي ترغب في ثواب أو ترهب
من تقاب . وقد أستخدم البيان في الدعوة إلى الله فترددت على ذروات النابر عبارات
وجدت سبيلها في التقريب ونقتطع طريقها إلى النفوس .

فالفنون الجميلة وواحتها المختلفة إذن ينفع بها الدين وتنفع بها الدنيا . وإذا كان
القادرون الرائزون من أهل العادة الرفيعة في غنى عن المحسوسات وكان في قدرتهم أن يعملوا
بالمعاني العالية مجردة عن كل عون مادي فإن أكثر الناس تعوزهم هذه القدرة وهذا الرق
الروحي وكان لهم عندهم عند التبد في الاستعانة بمظاهر الفن الجميل .

ولقد هب الانفع بالفرن الجميل إلى أن رأى البعض أن الفنون الجميلة إنما كانت لحاجات
الناس ومنافعهم وتوجيههم وأنها قامت لخدمة المجتمع ولأغراض الحياة .

ومهما يكن الأمر فيما يقال في استقلال الفنون الجميلة عن كل شيء وحربيتها المطلقة
أو اتصالها واستخدامها لكل شيء فإن معاني الجمال والخير والحق كلها تلتقي عند الله وكلها
ينفع بها الله .

فلنجد إذن الجمال والفن الجميل وليأخذ الناهلون من نعمة الصافي دون أن يكدره ،
وليتشغروا منه دون أن يحكروه .

٥ - الجمال الانساني

يشغل المرء للناس بما يبدو من جسمه المحسوس ، وبما يصدر من آثار عقله وتفكيره ، وبما يحقق من نتائج إرادته وفعله .

أما جمال جسمه المحسوس فيبدو في بلوغ كل جزء من أجزاء هذا الجسم كاله المقدر له ، المهيء لأداء عمله الموائم على خير وجه ، مع مقاومة هذه الأجزاء للكائنات المظفة ، واستعصائها على عوامل الفساد ، ومع ذلك يكون ثم تناسب في النسب بين الأعضاء والأجزاء يرتاح إليها النظر ، ويطمئن إليها البصر . فإذا استوفى الجسم الانساني ذلك في مجموعه وفي أجزائه ، نازت له النعمة وتهدرت له البقطة .

وعلى ذلك فجمال العضلة مثلاً يلوح في المرونة وقوة الاحتمال المناسبة للمألوف من عملها على خير وجه ، وجمال البشرة يكون في سمكها الموائم لحماية ما تحتها ، وفي نومتها العنية على تأدية وظيفتها . وجمال الصوت في خلوه من نشوز الجرس ، وبما تأذى به السامع ، وقس على ذلك كل ما يتصل بأجزاء الجسم الانساني وكل ما يرتبط بأعضائه مما تدرج إليه هذه الأجزاء وتلك الأعضاء من الكمال النسبي المقدر الرسوم .

وقد تختلف درجات الجمال الجسدي في مختلف الأجزاء في الفرد الواحد ، وفي الأفراد على اختلاف أعمارهم وبيئاتهم . فالجمال المحسوس في الطفولة يتباير ما يتوفر منه في ذوى الشيوخة ، والجمال في النساء يتباير الجمال في الرجال ، وجمال البنى يتباير جمال الحضرة . وقد يختلف الجمال باختلاف ذوق مقدره وثقافته وهكذا قد تعدد الاحكام في تقدير جمال الجسم تبعاً لاختلاف الشعوب والزمان والمكان ، وظروف البيئات ، ودرجة العلم والرفان .

لكن مهما يكن من أمر هذا الاختلاف فالكل يجمع على أن في سير الجسم في أجزائه أو في مجموعه سيراً متناسقاً إلى حدود مقدرة مع السلامة من عوامل الفساد أساساً للجمال .

ولذلك يعتبر صوت الطفل إذا خشن وغلظ ، وصوت الرجل إذا رنّ ولان ، وصوت المرأة إذا جش واشتد ، كل ذلك يعتبر متفياً للجميل ، لأنه انحراف عن السنن المقررة والقوانين المقررة ، ونس على ذلك كل المظاهر الحسية الأخرى في الإنسان ، لأن انحراف كل مظهر عن طبيعته المألوفة المتأسقة إنما يكون قلباً للأوضاع ، ونبحاً يستوجب النفور .

أما جمال العقل فيدور في بلوغه المستوى المناسب لما قدر له من علم ومعرفة ، وفقاً لظروف الزمان والمكان والأحوال التي تصحب العقل في تدرجه وتعلبه ، وتوازره في تنشئته وتكوينه . فيعتبر عقل الطفل جميلاً ، ومظهره التفكيرى سليماً ، ما دام النمو الطبيعي لهذا العقل يؤهل الإدراك ما يصح للطفولة أن تدركه من الأمور المناسبة وفقاً للحيط الذي ترعرعت فيه ، وطبقاً للعلومات والتجارب التي أحاطت بتلك الطفولة .

ويعتبر عقل الشيخ جميلاً ما دام يهيئ للإدراك ما ينبغي أن تدركه الشيخوخة من أمور متناسبة مع السنن التي قطعها من العمر ، والتجارب التي صادفتها في الحياة .

على أن المعارف والتجارب قد تختلف بين فرد وآخر ، وبين زمان وآخر ، وبين جماعة وجماعة أخرى ، ومهما يكن من أمر ذلك الاختلاف ، فانصال الذهن بالمعرفة اتصالاً منسجماً منطقياً ، واستصفاءه بضيائها في شدة إلهامه أو خفته ، ونشئته بأسباب الحقائق ، كل ذلك من شأنه أن يدم العقل بالجمال والسلامة .

أما النوع الثالث من الجمال الإنساني ، فهو جمال الأفعال ، وهو الغاية التي تنجبه إليها إرادة كل عاقل ، والهدف الذي يرمى إليه كل رشيد ، وإنه ليخرج على صفة الحرية والرشد كل من يتبأ له لون يجمل به عمله ، ويزين به فعله ثم يعدل عن ذلك اللون الجميل إلى ما ليس بجميل .

وليس من المعقول أن يتبين شخص ناحية الجمال ويستطيع أن يوجه إليها أفعاله ، ويسير في ميدانها أعماله ، فيتكبد طريقها إلى ناحية القبح والسوء . وليس من المعقول أن يتبأ لشخص قالب حسن يصب فيه جهوده ، ثم يعدل عن هذا القالب البديع الرفيع إلى قالب قبيح وضيع . ولقد يهتلق سقراط في زعمه حين يذهب إلى أن من يتبين — في وضوح ويقين — سبيل الخير محال أن يتنكبه إلى سبيل الشر ، ومن يوضح له

الطريق السوى ، لا يعمل عنه إلى الطريق النور العصى ، فعلى الإرادة بما ينبغي أن يعمل في حالة من الحالات هو الذى يطلع على تسميته بالواجب ، وللواجب روعته وجماله . وإن طبع الأعمال الانسانية بطابع الواجب ، وإلباس هذا الواجب ثوبه الجميل ، هو ما جرى العرف على تسميته بالفضيلة التى تستأثر على النفوس بسحرها المسيطر .

على أن الناس وفقاً لاختلافهم في التجارب وفي الثقافات وفي العادات وفي المحيطات وفيما هو بسبيل ذلك قد يختلفون في تقدير الجميل من الأفعال ، وفي تقرير معنى الواجبات وهذا الاختلاف نتيجة للاختلاف المقدور منذ الأزل بين الناس ، ومن شأنه أنه أوقع الخلاف بين بعضهم وبعض في تقدير درجة الجمال في بعض الأعمال الانسانية المتصلة بالأخلاق . لكنهم مها اختلفت تقديراتهم وتبلت آراؤهم ، فهم متفقون في الأصول وفي الكثير من الفروع عند حكمهم على الأفعال من حيث حسنها وقبحها .

جميع الناس من بلو وحضر ، متقدمين ومتأخرين ، يقدرون أن الاعتراف بالجميل فضيلة وأن شكر النعم واجب ، وأن الاسافة مذمومة وكراهية السيء حق ، وأن الكبر والشجاعة وما إلى ذلك من صفات الخير كلها ممدوحة ، وأن الجبن والشح وما إلى ذلك من صفات القبح مذموم ومردود .

وما أسلفنا بضح لنا أن الجمال الجسمى والجمال العقلى والجمال الخلقى كل ذلك يتأزر في إبراز صورة الجمال الانسانى . ولقد كان لهذا التأزر في مختلف نواحي الجمال الانسانى أثر في الأخبار الدينية التى قرنت صور الانبياء بالجمال المتمثل في تمام الجسم والعقل والخلق .

وفي الحق أن جمال الانسان لا تتحقق له روعته إلا إذا تساندت نواحيه ، فهما حسنت سمات الوجه ، وتساوت نسب الجسم ، وكان العقل ناعماً والأفعال متحرقة غير مستقيمة فإن ذلك القص وهذا الانحراف قد يزيان بجمال الصيآت ، فهو الخير قد ينقص ويحد من حسن النظر .

وخلاصة القول أن الجمال الانسانى نزوع كل ما في الانسان للاندماج في السنن العالية للذمور ، طوعاً للنسق العام القدر ، والنظام الشامل المقرر ، وإنك عندما تعد جسمك ليقوم بما ينبغي أن يقوم به من الأعمال منسجماً في ذلك مع المعقول والمألوف والفضيلة ،

فإنك بذلك تهيه للجهل ، وإنك حين تعد عقلك لمعرفة ما يجدر به معرفته منسجما
في ذلك مع الرغبة في الحق السليم ، وتوخى المنطق المستقيم ، فإنك بذلك تهيه لصورة
من الجمال .

وأنك حين تعد عملك لما ينبغي أن يكون عليه هذا العمل وتصله بمعنى الواجب متشيا
في ذلك مع تحقيق مطالب قواك الأخرى ، فإنك بذلك تهيه هذا العمل للجهل .

ومن المعروف أن قواعد الصحة التي يطلب مراعاتها تعد الناس للجمال المحسوس ،
وأن قواعد العلم والتعليم التي يربحى للعقول بلوغها ، تهيه للجمال المعنوي ، وأن قواعد
التربية والتهديب التي يرغب إلى الناس في اتباعها بشق الوسائل تهيه للجمال الخلقى .
ومن يتم بجهل الجسم والعقل والسلوك ، ويفسق بينها جميعاً فإنه جدير بالانحجاب ، حقيق
بما يزدان به من جمال إنساني يستوجب حب الناس له ، واحترامهم إياه .

٦ - الأدب الراقى والفن الجميل

الأدب الراقى فن جميل قوامه اليان ، وما اليان إلا أداة فى استطاعتها أن تعين النفوس على الرفعة والتسامى ، كما فى مقدورها أن تنزل النفوس بسحرها إلى حضيض من الاسفاف والشبوات .

وإذا أردنا أن نضع حداً للأدب الراقى ، فهو على الجملة كل قول فنى جميل مركب تحس النفس بجماله وتطاول تأثيره فى ارتياحها واتعاشها ، واقتباسها وانكاشها .

وربما يتبادر إلى الأذهان أن الجمال لا يولد فى النفس إلا ارتياحاً وانسلاطاً ، لكن الجمال فى الأدب يقترب معناه بالغاية التى من أجلها يساق القول الفنى المركب ، فإذا كان الأديب قاصداً من وراء قوله أن يثير الأشجان ويهيج الأحزان ، فأهاجها ونبها فى النفوس ، فإن كلامه يكون جميلاً ، وأدبه رائعاً ، لأنه أثار ارتعاشاً قوياً ومعنى أديباً حين نرى أن الفرح والحزن كلاهما من طبيعة النفوس ومن فطرة الله التى فطر الناس عليها .

وكذلك إذا كان من مقاصد الأديب أن يطعن النفوس إلى مبدأ من المبادئ السلبية أو صفة من الصفات القويمة ، فسلط على القلوب قوله الفنى ، وعبارته الخلافة ، ليوطد فى نواحيها هذه المبادئ أو الصفات ، فإنه ولا شك جدير بصفات الأديب ، وأن أدبه وبيانه جديران بصفات الأدب الرفيع وخليقان بأن يعدا من الفن الجميل .

وقد نائل أنفسنا عن دعامات الجمال التى يقوم عليها الأدب الرفيع ، وهى تبدو فى نظرنا ثلاث دعام : الأسلوب والمعنى والذوق الفنى . فما هى ياترى العناصر التى يجب أن تتوفر فى الدعة أى فى عبارة الأديب وأسلوبه حتى تكون جميلة ، فتؤثر أثرها فى النفوس ؟

ولكى تكون العبارة جميلة قالوا : إنه ينبغى أن تتوفر فيها بعض صفات منها رقة الكلمات وألفتها ، ومنها جمال جرمها وورعها .

ومنها حسن الترتيب بين بعضها وبعض بحيث لا تلجئ القارئ أو السامع إلى كد الذهن ليعتد عن المعنى بين نظامها المرتب المطرد المنسق .

فالعبارة الأدبية إذا رقت فيها الكلمات ، وطاب للسمع منها وقع التبرات ، وتناقت في طياتها الأوضاع ، فإنها تظهر بصيغة الجمال .

أما إذا كانت العبارة قد بنيت على ألفاظ وحشية غير مألوفة أو منفردة غليظة لا تطيب للسمع ولا يستسيغها الذوق أو اضطرب ترتيبها فتأخر من الألفاظ ما ينبغي تقديمه ، وقدم منها ما ينبغي تأخيرها ، وأضر منها ما ينبغي إظهاره ، وبأن منها ما ينبغي إضاره فإن القول يخلل ومزاجه يعتل ، ومهما يحو هذا القول من معنى بدع أو نظر رفيع ، فإن العبارة الركيكة تبسط على المعاني غمامة وترهق الأفكار والنظرات كآبة وقامة .

ومثل المعنى الحسن الدقيق في الأسلوب الميسر الأنيق كمثل الزهرة في البستان ، تزهو بحسنها بين خماله . أما مثل المعنى الحسن الدقيق في الأسلوب المحل والتركيب المعتل فهو كمثل الزهرة في الرمال أو بين الحرائب والأطلال . فهي وإن كانت جميلة في ذاتها ، فبها لها هذا ناقص الرواء فتر البهاء ، لانه لا جمال في المبنى يواتيه ، ولا رواء في المنبت حاجيه ؛ فكأنه جمال يتيم .

ولقد يكون الكوكب المتلألئ بين أمثاله في البهاء الصافية أجمل من الكوكب المستتر بين ركام السحب ، ولقد يكون وجه الحساء المشرق السافر أروع منه في شقائق الحجب . وهكذا يتناسق اللفظ الجميل مع المعنى الجميل .

إذا كان الأسلوب الفنى الراقى أو العبارة البدعية في البيان والأدب معتمدة على رقة الكلمات ولطفها وجمال جرمها ووقتها وحين ترتيبها ونظامها ، فقد تتسائل مرة أخرى : علام إذن يعتمد المعنى ليكون سامياً جميلاً ؟

وأغلب ظنى أنه يعتمد في أكثر روائع الأدب عند مختلف الشعوب ، على دعامتين :

أولاهما — تعمل بالانفعالات النفسية القوية ، والتأثرات الصادقة العميقة مما يحصل بمعاني : الحب والشوق والحزن والشكوى والفرح والابتهال والمدح والقدح والرضا والنفس والآمال والآلام وغير ذلك من مظاهر النفوس وخلجات القلوب مما هو من طبيعة الخلق وجبله الوجود .

وثانيتها — نصل بالحكمة حين نوقظ عبونها ونقيه ورائعها وخلصاتها التي تنطورت من تجارب الأجيال ، واستخلصت على مر السنين — ما هو كائن في فطرة الناس من نزعات الحق والخير . وحين نحرك ما هو ساكن في انقواد من أصول الفضائل فنظهر آثارها ويجرف تيارها ما يعتق بالصدر من آثام ورذائل ورجس وأوْخار .

أما إذا تناول الأديب نواحي الانفعالات النفسية التي يثير بها خصائص النفوس وهفوات القلوب . فليس فيما يقوله جمال . ولعلك تقول لى : كيف تنكر الجمال فيما يؤثر في النفوس ؟ فأقول : نعم إن الذى يثير في قوس الناس شهوات دينية هو مؤثر بلا شك ، ولكنه غير جميل ، وليس كل مؤثر يصح أن تخلع عليه صفة الجمال . لأن التأثير كما يكون بالجمال قد ينبج من وسائل أخرى لا تمت إلى الجمال بصلة ، كتأثير السحرة الذين تطلعي عليك طراقتهم وأنت واثق أنهم كاذبون وأنتك لتعجب كيف أخذت بما قالوا وأسرت بما فعلوا ، ولكن بعد أن يفوت الأوان . فهناك فرق إذن بين التأثير الحقيقي الذى يسكبه في النفوس شعاع الجمال وبين التأثير الزائف الذى تسوقه غواية خادعة أو أكلوبة بارعة .

وقد يستعين الأديب في تزيين معانيه التي يفترها من قبض انفعالاته القوية بما يوحيه إليه خياله التامى المطرد التناه الخاضع لقانون التطور والارتقاء فينتج ألواناً من التشايع أو الاستعارات أو الكنايات ، وهو خاضع في ذلك لوحى ذوقه الذاتى المتصل بعقريته الخاصة ومحيطه الشخصى .

ونعود أخيراً فتسائل عن الدعامة التالية من دعائم الأدب ، وهى دعامة النوق الفنى .

فالذوق الفنى الصحيح هو الذى يبين لنا الفث والسين ويفصل بين المعنى الجميل والمعنى المشوه . والذوق هو ندر تشترك فيه العقول السليمة فتتفق جميعاً في حكم واحد على شيء واحد . فمن من الناس يرى الزهرة فلا يقول : إنها جميلة ، أو من من الناس يرى القمر فلا يقول : إنه باهر خلّاب ، ومن من الناس لا يرى صفاء الجدول الرقاق أو يسمع تطريب العنديل فلا يعجب بذلك الجمال ؟

هذه بنور إحساس عام بنورها الله في نفوس البشر بحيث أن أول عين من عيون الناس وقعت على الزهرة قد استحسنتها ، وأول أذن سمعت تطريب العنديل قد استمتعته .

هذا هو معنى الذوق العام الطبيعي ، فهو حكم فطرى ورأى توفيقى ألهمه مبدع الجمال خلقه كأنه ينجلي على قلوبهم فيما يترامى لهم من صور الجمال ، لأنه جمال غير محدود وحسن يتصل بالرمزية واللا نهاية .

والجمال المحدود الفانى الذى قد نحسه يتصل بمعانى الجمال الممدود الباقى الذى لا ينضب له معين ، فكأنه شعاع الشمس ترسله حزمة من خطوطها وقت الشروق ، ثم تسترده من بيننا وقت الغروب ، والشمس باقية دائماً كمنبع للجمال خالد لا يفيض .

على أننا بعد أن يتناهم العناصر التى تدخل فى بناء الأدب ، قد نسائل أنفسنا كيف يكون الاديب أديباً ؟

وليس لذلك من جواب شاف إلا أن نقول : إنها هبة الله يؤتها من يشاء من عباده المتأثرين المؤثرين ، فلا الحياة الاجتماعية وما بها من أحداث ونكبات ونورات. وأفراح وأفراح كافية لأن تخلق الاديب ، وإنما هى موجهة فحسب .

نحس قلوب الناس آثار النكبات ، ولكن الاديب وحده هو الكفيل بصورها فى أبلغ صورة وأقوى عبارة ، ويلترك الناس ما يمر بهم من عبر زاجرة فلا يستطيعون إبراز صورتها كما يبرزها الاديب الموهوب . وتأثر قلوب الناس بسحر الطبيعة وجمال الكون وعظمة الوجود ، ثم لا يستطيع أحد غير الاديب البليغ أن يصف ما يرى من جمال الطبيعة وعظمة الوجود .

إذن فالادب فن جميل موهوب لا مكتوب ، ومهما يتوفر للرء من كسب أدواته واصطناع وسائله فإن كسب الأدوات وتوفير الوسائل ليس له دخل فى الاستعداد الطبيعى ولا فى الذوق الفطرى .

فليستمتع الناس من الادب بآثار القرائح المتطورة ، وليخضعوا لما يوحى به إلى الاديب المطبوع دون أن يسألوا عن الأصل والينبوع ، فالأصل هو هبة الله وأثر من آثار إحسانه ، وفيض على الوجود من فيض رضوانه .

٧ - الموسيقى

لعل الموسيقى هي أبرز نواحي الفنون الجميلة وأبعدها غوراً في التأثير على النفوس ولكنها مع ذلك أكثر من غيرها غوضاً وتعقيداً عند من يريد من الباحثين أن يوضح العلل في تأثيرها وأن يستجلى حقيقتها . فهي وإن حركت النفوس في يروسولة فإن إدراكها يستعصى على العقول ، وهي وإن شرحت الصدور وأراحت المشاعر فإن فهمها يكبد الأذهان ويعمي الخواطر .

وعبارة الموسيقى أصلها اغريقي ولعلها دخلت في اللغة العربية من نحو عشرة قرون أى في الفترة التي لتلت فيها صلة الفكر العربي بالفكر اليوناني . وكانت تلك العبارة تدل عند أهلها اليونانيين على أوسع مما قيديا به العرف الآن إذ ربطها بالأنظام الصوتية وحدها . على حين كانت من قبل تطلق على كل من يزاول فناً من الفنون الجميلة ويستلم من رباها التي صورها خيال الأندلس من اليونان فضيض هذه الرباط على مزاول الفن من فيضها وتوحي إليه روحاً سواء أكلن شعراً أو قصصاً أم حركات يصح بها الجسم ويتجمل . ولكنه مع مرور الزمن ضاق هذا المعنى وتحدد ، فخرجت منه الحركات التي يقعد منها تربية الجسم وتقوية عضلاته وتعويد احتلال الشدائد فأصبح معنى الموسيقى يطلق على فنون الانسجام الصوتي ، وعلى أبجر الشعر وميزانه ، وإعداد آلات الطرب ، وقد المدونات المنظومة ، وعلى الرقص والمسرحيات . فكان الموسيقى إذن كانت تنظم كل الفنون الجميلة عند اليونانيين في الناصر القديم .

ثم تطور الامر مع تعاقب الزمن من جديد حتى أصبحت عبارة الموسيقى لا تدل إلا على شيء واحد وهو فن الانسجام الصوتي سواء أكلن صادراً عن مختلف الآلات والمزاهر أم كان من الأوتار الصوتية في الخارج . فالموسيقى إذن لا تخرج عن أنها حس مادي تحمله تلك الموجات الأثيرية إلى أسماعنا لثير فينا إحساسات وانهالات تتبعها المعاني والأخيلة والذكريات .

وليس من المهن على الباحثين أن يضعوا للموسيقى تعريفاً يشبع النفوس ويقنع الضمائر .
ولكن غاية ما قد نلناه به أنها فن يمزج الانغام والأصوات مزجاً لطيفاً حتى يطيب للاستماع
ويؤثر في النفوس .

والاستماع يختلف حيال الموسيقى باختلاف السامعين وباختلاف طبقاتهم وسنم
وتجاربهم وأجناسهم وزمانهم ومكانهم . فالصوت الذي يهز الشرق غير الصوت الذي يهز الغرب
والذي يطرب السوداني قد لا يطرب الهندي ، والذي ينتشى به الطفل الصغير قد لا ينتشى به
الرجل المنقذ الكبير ، ولكن مهما يكن من اختلاف صور التأثير الموسيقي فإن هناك قدراً
مشتركاً من التأثير يعم جميع الاجناس والطبقات والأزمنة والإمكانة ، وهذا القدر هو
تحويل القلوب إلى الآفاق الصوتية السحرية الجذابة كما يحول الفراش من الظلام إلى شعاع
النور وانتشال النفوس مما يغلها من الشواغل والسو بالستير منها إلى آفاق معنوية عالية
وإيقاظ جملة من الانفعالات والذكريات والعواطف تختلف في حثتها ونشاطها وألوانها
باختلاف النفس المتأثرة التي هي كمرح لهذه الانفعالات والذكريات والعواطف .

على أن هذا التأثير المتقدم ذكره ليس خاصاً بالموسيقى وحدها ، لأنه قد ينبعث
في النفس من جمال التصوير ودقة العبارة مثلاً وغير ذلك من مختلف الفنون .

ولكن الموسيقى قد امتازت عن كل الفنون الجميلة بشيء نستطيع أن نسميه بلاغة
التأثير وحدته فانت إذا نظرت إلى خط واحد مرسوم فإنه لا يثير في نفسك ما يثيره رنين
نغمة واحدة تهادى إلى أذنك فتحرك قلبك تحريكاً .

وانا نرى الطبيعة سخية علينا بضروب من الألوان والأضواء زينت بها الزهر والسماء
والنجوم والكواكب كما هي سخية بجمال التقسيم ولطف الحركات وأناقته النبات التي أعادتنا
على كثير من الكائنات الحية المخالفة بقدها أو جمال قاطعها كالإنسان أو رشاقة خطوطها
وجميل حركاتها كالفرلان ، أو خفة انتقالها وعذوبة تحولها كالفرش على الأزهار والطيور
على الأشجار ، ولكن الطبيعة لم تكن سخية فيما تبرزه لنا من الأصوات والألحان كأنها
قد تركت ذلك لاجتهاد الإنسان وتونه إلى عالم النغمت ، فالطبيعة قد اقتصرت على أن تسمعه
تفريد الأطياف وخرير الجداول والأنهار وخفيف الأشجار وجملت هذا عاملاً بدائياً
من عوامل الإلهام وتركزت لنفسه هو أن يتدع من رنين الحناجر الوهوبة واختراع الآلات

المختلفة ما يقطع به شوطاً بعيداً ومدى واسعاً في عالم الجمال الصوفي ، كأن ابتداء النفثات المؤثرة قد جعل من خصائص الإنسان .

فحين نرى الموسيقى شيئاً شائعاً في مختلف العصور وبين كل الاجناس وما ذلك إلا لطابعها الانساني العام كأنها غريزة من عيون الفرائز التي تتجلى في الفطرة البشرية ، فننذ عرف الانسان نفسه عرف لونا من الآلات الموسيقية ساذجا بسيطاً اتخذ من أنابيب الذهب فجعله مزماراً وشد الشعر فجعل منه أوتاراً وشد الجلود على جذوع الأشجار المنخوبة فجعل منها الدف كما ابتدع نفثات توفيقية من صفقات الأكف ، كما عرفت الأمهات هدملة الأطفال في المهاد ، وعرف الحداء ومد الصوت بالفناء في الأسفار والحروب والحوادث والابتهالات والصلوات والخطوب ، ثم أخذ كل هذا يطور مع الزمن فعددت الآلات الموسيقية وتنوع الصور الصوتية نمشياً مع تقدم الانسان وارتقاء الشعوب . ومن أجل ذلك نجد أن موسيقى كل أمة هي أظهر مشخصاتها وأجلى مقوماتها التي تميزها أمة عن أمة وتنفرد بها ثقافة عن ثقافة وتشتأثر بها نفسية عن نفسية ، وما ذلك إلا لأن أثر الموسيقى ينبعث من طبيعة النفس أكثر مما ينبعث من المؤثر الخارجي آلة كان أو صوتاً . وقد يحسب بعض الناس أن أثر الموسيقى ناشئ عن انساق النفثات والانسجام الألحان كما يحسب بعض آخر أنه ناشئ من العصور والمعاني والأخيلة التي تدور في النفس عن سبيل هذه النفثات والأصوات ولعل التأثير الحقيقي للموسيقى ناشئ من تزاوج النفثات بالصور والمعاني والأخيلة التي تتسجم مع نفسية السامع أو نفسية الشعب الذي ينتمى إليه السامعون .

ولما كان للموسيقى أثر شامل في التأثير على النفوس فإنها قد استخدمت استخداماً عملياً : استخدمها الطب في علاج كثير من الأمراض العصبية ، واستخدمها الدين في الاتصالات الروحية ليزيد من جلالها وعميق تأثيرها واستخدمتها الجيوش في تخفيف أعبائها وحفز همها وشب حماسها ، فهي على العصور كثيرة المنافع عظيمة الآثار .

ولعله يكون للموسيقى في المستقبل شأن جليل ، حين تقرب الأيام بين أخواق الناس وبين ثقافات الشعوب وتيسر لهم بالذياع سماع ألوان راقية منها تألفها الآذان في جميع البقاع وتثير في كل النفوس خير ما يستتار فيها من المعاني الرفيعة . فتصبح خير أداة للتخير وأبرع وسيلة لتأليف النفوس على حب السلام .

فليجعل كل من وقته نصيباً لسماع الموسيقى الراقية فيها تخفيف للتعب وارتقاء بالأخواق وسمو بالأرواح والأخلاق .

٨ - التمثيل والمسرح

التمثيل المسرحي من موضوعات الفن الجميل الذي يشغف به المتقنون والادباء ، وتقدمه الحضارة الراهنة ويذكر له أثره البالغ المريح في التسلية البريئة ، وفي تهذيب النفس وفي ترقية الذوق والوجدان ، وفي تزويد الناس بأسس المبادئ وأقوم الفكر ، وفي تبصيرهم بحالات النفوس البشرية ووقائعها وبما يثار في الحياة الاجتماعية من موضوعات جدية بالتفكير وحرية بالتدبير . وليس من المناسب أن أدخل في تفصيلات حول موضوع التمثيل المسرحي في هذه الكلمة المجلدة فهي لا تتسع لتفصيلات لا يسع الوقت بالدخول فيها وقد لا يقتضيها المقام .

إنما أقول أن تلك الدور النخبة المجلدة بالنقوش وبالزخارف الرائعة التي يقصد اليها أحدنا لشهود مسرحية قد تحرك عند شهودها انفعالاته وتأثراته أو تنطلق في ساحاتها مسراته وضحكاته ، أو يعجب أحدنا بإلقاء ممثل بارع قدير . أقول إن تلك الدور ومظاهر تحديقها قد تستمد وجودها من فطرة الانسان وتزعجات في طبيعته الاجتماعية حين تبعه فطرته وتزعجته لأن يشرك غيره من الناس في مختلف تأثراته وحين يرغب في أن يسطر لغيره مكنون عواطفه وحين ينزع لمحاكاة غيره فيما يظهر به الغير من مختلف المظاهر التي قد تنقل من شخص لآخر عن سبيل العدوى النفسية والمحاكاة .

فنزولا على حكم الفطرة يشرك المرء غيره عند أفراحه وعند أراحه ، وفي تأملاته وفي ابتلالاته وانفعالاته . ونزولا على حكم طبيعته في رغبة المحاكاة والتقليد بهم المرء لمحاكاة الغير فيما هو محمود من أحوال الغير ، أو مما قد يؤثر في النفس من شئون ذلك الغير .

فإذا اجتمع الناس لمواساة مبهوم ، أو للمطاف على مألوم ، فإنما هم في حقيقة في الأمر يشهدون صورة لهم يمثلها ذلك المبهوم ويستعرضون صورة للألم يمثلها المألوم ، فكأنهم في موقفهم هذا يحضرون مأساة تبدو عباراتها فيما يديه ذلك الحزين التألم من حركات وإشارات وكلمات .

وإذا اجتمع الناس فشهدوا اغتباط المغتربين وهناء الفرحين ، فإنهم إنما يشهدون غملاً للفرح والحبور والغبطة والسرور يبدو في مختلف الأشكال والأحوال .

وإذا أثر شخص في نفس شخص آخر بأسلوبه في التعبير أو في التفكير أو في الاشارات والحركات فيجهد هذا الشخص الآخر في أن يحاكي الاول في حبه أو في مظهره . وهذه المحاكاة ليست إلا ضرباً من التمثيل ولونا من ألوانه ، وكان عناصر التمثيل إذن ذات صلة وثيقة بزرعات النفس ومن طبيعة الانسان .

على أن للتمثيل المسرحي وصوره المختلفة أصولاً متمدة في التاريخ وفي الحياة الاجتماعية عدا ما له من اتصالات بطبيعة النفس . قى الشعوب البدائية يجتمع الناس حول زعمائهم في المعتقدات في مكان معين ليستقبلوا بركات هؤلاء الزعماء ويتعلموا من تعاونهم وبقايم إزالة الآلام وتحقيق الآمال بطبيعة النفس . فقد كان اليونانيون في غابر حضارتهم يجتمعون في مواسم الحصاد في ساحات معينة كذلك لتمجيد آلهتهم الذين يصدقون عليهم خيرات الحصاد . وكان مظهر هذا التمجيد يدير في الاناشيد التي يرسلونها وفي الأنفوح التي يذيعونها . في الألعاب والمباج حول الهيكل ، وبأى الناس من كل مكان ليشاركوا في هذه الاعياد القائمة والمباجيم الباسمة .

وكان العرب في غابر جاهليهم يجتمعون في أسواق تقام في عدة أما كن من جزيرتهم في أوقات معلومة ليعرضوا ما كان يتأى لهم من أشعار رائعة وأخبار متممة . كما كان يجتمع في تلك الأماكن أشراف العرب للتجارة ، وللفاخرة ، وللنفاقة ، ولناداة الأسرى وللتحكيم في الخصومات .

وعند المصريين في مختلف العصور كانت تبنى في مختلف النواحي والقرى حلقات للماع السامرين ولرؤية اللاعين .

وفي كل ما تقدم ذكره دليل على أن أصول المسرح ومقوماته قد وجدت منذ القديم في كل بيئة وفي كل حين ، لأن تلك الاجتماعات مهما تنوعت أشكالها كانت تظهر فئتين من الناس : فئة المنفرجين والمستعرضين والمستمعين والمتعطين والمرشدين . وفئة اللاعين والعرضين والواعظين والمرشدين والموجهين .

ولعل البلاد التي كانت تقل فيها الأمطار كبعض بلاد انشرق وبلاد اليونان كانت تبنى تلك الاجتماعات والحفلات في مسارج الهواء الطلق حول الانصاب والمعابد

يجلس عند مقلاتها البسيطة المكونة من فروع الأشجار السدنة والكهان والخواص .
هذه الناس من المختلئين فكانوا يستعملون المجالس الساحات ويستخدمون الربوات
كانت ليشكروا من رؤية الكهان وليستمعوا نبأهم وأنوالهم ، ليتكسوا من رؤية
بين المختلئين ، وليشبهوا أفعالهم وأعمالهم في تجميع آلهتهم ومظاهر تجميعهم .

ومع تقدم الزمن واتساع تجارب الانسان اتخذت المدرجات الجلوس القاصدين
فريقين وبمقداراً عظيمة الحفلات وتنوعا وما قد يندرج فيها من أنشيد وطقوس
ألوات مما يقتضى سعة في المكان واستطالة في زمن العرض بمقدار ما اتسعت
روح الاولى .

ومن ثم اقتصرت أمكنة المجتمعات العامة في دور الملاهي ، وفي العبادة كذلك إلى
بين رئيسيين : أحدهما للعارضين وثانيهما للمشاهدين . فالأصل إذن في دور التمثيل
ينحصر في مسرح لمن يعرض ومدرج لمن يشهد .

ومع ضرورات التقدم وازدياد الحضارة تنوعت المقاعد في دور التمثيل والملاهي
بمدت المراتق والأدوات في مختلف المسارح حتى وصلت هذه الدور إلى ما وصلت إليه
بعمارة أنيقة تجتمع في أبنائها المجالس المريحة والأضواء المختلفة والقفوس الحلابة والمناظر
المناسبة والملابس النوعية والأصوات الكيفة وما إلى ذلك مما يعين أدق صور الحياة
مظهرة بل وأدق معاني الحياة الباطنة .

وفي القديم الغابر البعيد كان الممثل هو الشخص الذي يقوم بدور مشهود أمام طائفة
من الناس سواء أكان هذا الدور يبدو في أنشودة تنشد ، أو في قصة تذكر ، أو في عظة
التي ، أو في مأثرة تناع أو في حركات وألعاب تدور فيها الدقة والمهارة حسب الاستعدادات
التي تختلف باختلاف الأشخاص الذين يقومون بعرض أدوارهم في الإنشاد أو في ذكر القصة
أو في إذاعة الترميم أو في غير ذلك من مظاهر التمثيل .

ومهما تختلف استعدادات المثليين واللاعبيين فهم يشتركون في إبراز هبة فنية وعرضها
على غيرهم من الناس فالتمثيل في الأصل صنعة مشتركة لكل صاحب فن يبدو أنه أفند
من غيره على إبراز هبته سواء أكانت هبة في الصوت أو الحركات أو الإلقاء .

ومع مرور الزمن والتقدم ومع توزيع الأعمال والاختصاص أصبح التمثيل فناً يتقنه أهله بعد ممارسة واحتراف وجهاد طويل ، كما أصبحت المسارح ودور التمثيل من أدق العمارات التي تتجلى فيها علوم المهندسين وفنون المزيّنين والتعاقبين والمصورين .

وإذا كان أول صور التمثيل عند ذكر تاريخه المدون يمثل في أعياد اليونانيين ، وفي حفلاتهم بأيام المحادثم في طواف شاعر من شعرائهم يلقي أقاصيصه وأشعاره على عربة يخذها مسرحاً ، فقد انتهى فن التمثيل إلى تلك المسارح التي يمثل فيها عشرات ومئات وتتنوع فيها المناظر حتى كأنها تبدو قطعة من الحياة الواقعية . ولم تقدم المرأة لأعمال التمثيل إلا في عهد الرومانيين . على أنه بعد أن اضمحلت المدنية الرومانية وهجرت ملاحها العاهرة ، وأهمل الغرييون بعد اضمحلالها هذا الفن الجميل فترة من الزمن أخذ العرب يجلس ذلك الفن عند طائفة من الشعراء والمداحين المتجولين في مختلف القرى والمدائن يقصون الأقاصيص وينشدون الأناشيد ويضحكون الناس بهزلياتهم إلى أن حل القرن الخامس عشر وما بعده ، فهضت دور التمثيل والملاحى والمسارح نهضة على غرار ما كانت عليه في صورها اليونانية والرومانية ؛ ومنذ تلك القرون وبخاصة في القرن السابع عشر وضعت أسس المسرح الحديث .

على أن المحترفين بالتمثيل لم يجدوا الاحترام اللائق بقسمهم إلا في بلاد اليونان في الغابر ، وعند الانكليز ثم في مختلف الأمم في الزمن القريب . وربما يرجع تقويت حقهم في الاحترام في بعض الأمم وفي بعض العصور لأنه دخل في زمرة من احترفوا التمثيل طائفة ممن أعوزتهم الثقافة الرفيعة أو الأخلاق المهذبة أو لأنهم تعاطوا تمثيل التزعات المهدامة أو الإباحية .

وفي هذه الأيام التي رقت فيه ثقافة الممثل وارتفعت المعاي التي يمثلها فيما يقدم له من الأدب الرفيع أصبح الممثل معلماً وملهماً ومثيراً لانبيل التزعات والعواطف وجديراً من الشعوب بكل تقدير يقدر به المعلم المؤثر والموجه الصالح والسلي المذهب .

٩ - العمارة

حديثنا اليوم عن العمارة ونشير فيه إلى لحظة عاجلة عن تاريخها ، وعما يرجى أن تحققه للناس من ترفيع لاذواقهم ، وخير في حياتهم وإسعاد .

وعبرة العمارة تشمل في معناها توجيهات العلم بالحقائق الهندسية الواقعة ، كما تشمل وحى الذوق السليم ، وإلهام الجمال الأخاذ ، فهي وإن دلت على العلم بإقامة المبنى وتشيدها ، فإنها تنل على الفن في إبراز هذه المبنى في أجمل الأشكال وأروع الصور .

ولعل العمارة هي من أشد ظواهر الحياة الاجتماعية اتصالاً بمختلف المعلومات وأنواعها ، ومن أجدرها بنشر مظاهر الروعة في الحياة وبسط الجمال للأنظار ، ومن أحرأها بإثبات تحضر البشر ورفق في درجات المدنية ، ومبلنه من الكرامة الانسانية .

وما من أمة كان لها شأن في التاريخ إلا خلقت أثراً من الآثار المعمارية سجلت به منزلتها في الذوق النقي ، ودونت به مكاتبا من الرق والعرفان .

ومها يكن من حاجة الفن المعماري إلى طائفة من المعارف والعلوم الرياضية والطبيعية والكيميائية والمعدنية ، وأحوال التربة والظواهر الجوية والأرضية ، وغير ذلك من شتى المعلومات فإن أشد ما يرتبط بعلم العمارة ، وألصق ما يحصل بين المعماريين إنما يبدو في مراعاة النسب بين أجزاء المبنى القائم ، وفي ترتيبه جنتوف من الحلية تتسجم مع المبنى المشيد ، وفي اصطناع المادة المراتية التي تحقق بها الأغراض والمطالب لهذا البناء ، وفي إعطاء المعنى الذي من أجله أقيم .

ولعل مراعاة النسب وانسجامها ، ومواءمة التحلية وتناسقها وحذق الأغراض التي يشاد من أجلها مبنى من المباني ، وإعطاء المعاني التي تتخلف من وراء المبنى الشاخص لعل ذلك فيه الدليل على ما يحيط أعمال العمارة من دقائق النشاط الفكري ولطائف الفطنة النقية ، وفيه البرهان الواضح على منزلة العمارة من النفوس ، وقيمة الرسالة التي تؤديها الهندسة

العمارة بين الناس ، ودقة ما قاضى به تلك الرسالة حاملها من علم ومهارة ، وذوق ، ولبانة واستلھام وإيحاء .

وحين قاضى فنون العمارة أهلها علما ومهارة وذوقا ولبانة وإلهاما فنيا ، فإن حيزها يتسع لنشاط الكثيرين من أهل الفنون الأخرى ومصطنعيها ومحققيها ممن تجمعهم بالمعاريين وشائج الفن الجميل ، فكم من عمارة شاذة تلتقي في ساحاتها تصاوير المهرة من المصورين ، وتجتمع في باحاتها ألواح ذوى المواهب من النقاشين ، وتبرز من حناياها زخارف كبار الزخرفين ، فكانت منزلتها من ضروب الفنون الجميلة منزلة الساحة التى تحمل عندها مظاهر الجمال وتقتصر في ميادينها أفانين سحره وأنواع سره ! وبكم من عمارة ترجمت نشاط النفس البشرية بما فيها من فكر وعاطفة وإيحاء ، وعبرت عن مختلف حاجاتها المادية والروحية بما يمثل في تلك العمارة من النسب وضروب التخيل والتزيين .

وإن أغلب ما تمثّل فيه الممارات ذات الذكر هي المتاحف التى تجتمع بين شتيت آثار الأجيال البائدة ، وهى معاهد العلم التى تصفّح فيها الناس ويراضون عندها بالآداب ، وهى المصانع القوية الأركان الشديدة النيان التى تفتح للناس أدوات عيشهم المريح ، وهى المعابد والمباني التى تحرك في أجوائها مشاعر الناس فيذكرون مجاهل دنياهم وغيوب أخراهم ، وهى الملاهى التى عنها يستريحون من عناء الكد ومتاع الجهد ، وهى القصور التى تمثل العظمة والالبة ، وهى القلاع التى تشير إلى قوة الغالين وبأس المسيطرين ، وهى البيوت الأنيقة والمباني الرشقة التى تنهى الناس لذادة حياتهم العائلية ورفاهيتهم المادية والمعنوية ، وهى المدافن التى يستثار بها ذكريات من قتلوا من أحباب وأصحاب ويستذكر بها ما قد تشير إليه من أحساب وأقارب .

على أنه مهما تعدد الصور التى تتشكل بها العمارة ، ومهما تعوزها ضروب من المعارف فإن التاريخ هو أدناها صلة بفن المعمار وأكثرها استفادة من هذا الفن الجميل . وذلك لأن الشعوب تقف كما تقف الأفراد وتبدي كما تبدي ، لكن المادة التى تتركب منها عمارة من الممارات ويتألف منها مبنى من المباني سواء أكانت تلك المادة من الحجر أم الخشب أم من صنف من المعادن كثيرا ما تصد للدهر والزمن ، وأن الرسوم والاطلال التى تبقى أو تتخلف عن هياكل الممارات القائمة أو المباني المحطمة هى على كل حال قد تكون في عمرها أطول

من عمر الأفراد والأمم ، وقد يستدل من ذلك العمر الممدود وهذا الرسم انشود على ما وصلت إليه تفكيرات الباحثين في معاقاتهم وأحوال الغائبين في حضاراتهم .

ومنذ نشأ الانسان كانت غريزته في حب البقاء هي أول البراءات لظواهر العمران . فاتقاه الحر والقر وخوفه من عادات الاحداث وشتر الاوابد واضواري كل ذلك كن يوحى إليه ليبي من فروع الاشجار ويجعل من صخور الجبال وكهوفها وتراب الارض وجلود الدواب ما يتخذ منه كناً ومسكناً وملأذاً يتقي به ما يخاف ، ويلتس عند الراحة والاطمئنان ، وظل الانسان زمناً مديداً يتقنع بما توحى به إليه غريزة البقاء من اتخذ مسكنه في بحياه ، ومدفنه في ممانه ، ومهد في مرلده على حالة ساذجة لا تعدى أنواع الكهوف والمحايي والعرائش والاكوخ والحفر ، حتى إذا ما مضى على نشأة الانسانية زمن مديد وعهد بعيد ، قرر له تفكيره وتجاريه بعدئذ أن يشهد البيان ويمده بالخراف ، وفقاً لحطة رسم ، ولتنظيم يتبع ، ومنذ ذلك الحين الذي نجعل بدايته وأوانه يبدأ تاريخ فن العمارة ، ولكل شعب طابع خاص في عمارته ومبانيه ، ولكل عصر من عصور التاريخ صبغة يصبغ بها ذلك الفن الرفيع . وليس في الطاقة أن تسترسل في القول والبحث في تاريخ الفن المعماري وهو طويل متشعب ، لكنه يلاحظ على وجه الاجمال أن الغاية بفن العمارة كانت دائماً من حظ الحكام وأهل العقد والحل في مختلف الشعوب والأمم فكان قادة الشرق القديم وأكسبرته ، وفراعين مصر وطفاء اليونان ، وقيصرة الروم ، وخلفاء الاسلام وسلاطينه كانوا أكثرهم من شادة الآثار المعمارية وأقواس النصر والمياكل والقلاع والملاهي والمعابد والمعاهد والمساجد التي أبقى الدهر منها على كثير برغم تنابح السنين وكر الاجيال ، ولما تقدم الزمن واضمحلت مدينة اليونان واضمحلت كذلك مدينة الرومان أخذ الغزاة والفاخون ممن قامت حضارتهم على الحضارتين القديمتين اليونانية والرومانية يقلدون وحى الفن المعماري في هاتين الحضارتين مع شيء يسير من التحوير والتطوير .

وفي القرون الوسطى كان أهل الإنقطاع وسلوك ذلك الزمن وذوو النفوذ فيه يقيمون المعابد والمعاهد العلمية والقلاع والقصور ويستلهمون في بنائها ما كان لهم من عجبية وسيطرة ودينونة وإيمان .

وفي زمن النهضة وحينما اكتشفت أمريكا وراجت التجارة بين القارة القديمة والجديدة وأثرى التجار أقيمت القصور وأنشئت المباني وتعددت أنواعها المذلة - على التراء والغنى .

ولاحل الزمن الحديث في الغرب أخذ الملوك في العودة إلى تقليد الروم في العناية
بالمبان العامة فطبعوا عليها عظمة ملكهم وجبروتهم وأبهتهم حتى إذا جاء الزمن القريب
والمدّصر الذي تقدمت فيه الصناعة الآلية وزادت المخترعات وراجت نزعات الحكم
الديمقراطي حين يتجه لأن يحقق لسواد الناس أفضا من منع الحياة ويسير لهم حظوظا
من العيش المريح لم تكن من قبل إلا من نصيب الأغنياء وذوى النفوذ انتشرت أنواع
المهارات الكبيرة الجامعة لكثير من الناس كما انتشرت المباني الصغيرة التي توفر لاساطمهم
ذوى الكسب المحدود السكن المريح وتذوق الجمال المبسوط في ذلك السكن .

ولعل الديمقراطية حين تزعم لتنتع الجميع يحظهم من متاع السكنى فإنها مع ما ترعاه
من حاجات الصحة والسلامة في تخطيط المدن والقرى ترعى الترفيع لأذواق الناس
بمحاولات الفن المهارى الحديث ، وما فيه من الجمال المبسط الأخاذ . ولعل بلاد الشرق
العربي حين يجرى دورها في تحقيق آمال الديمقراطية وإنشاعة المباني الجميلة المريحة لسواد
الناس لعلها تستلم مع ذلك تفحات الشرق فيما يوحيه من جمال بيئته الخاصة وتاريخه
الملىء الممدود .

ولعل الناس حين يبحثون عن سعادة العيش وغبطة الحياة فيستعينون عليها بمختلف
الفنون الجميلة ، لعلهم يجدون من فن العمارة أوسع نافذة لاسترواح المتعة والاطمئنان
ولتنويع الحياة الجميلة الوادعة .

١٠ - المجتمع العربي في أبرز مقوماته

العربي إنسان قبل أن يكون عربياً ، فمقومات عروبه تلحق بمقومات أنانيته وتضفي عليها صبغة خاصة تميز العربي في كيانه ومسلكه ومسامه ، وتميز المجتمع العربي في وضوح عند من يقدرون ما للمجتمعات من شخصيات وخصائص .

فالعربي كإنسان ينزع إلى ما يترعرع إليه الآدمي السليم الفطرة من رغبته في حياة عزيزة تسعد ، ونفور من حياة وضیعة تشقى ، وإقبال على ما في العیش ووسائله من محاسن ، وإدبار أو مقاومة لما في شئونه من مساویء ، وحرص على ما يكفل للرهقه من الحرية والكرامة واحترام الشخصية وإثبات الذات ، وحب المحسن وبغض المعتدى واشتاء الاستمتاع بنعم هذا الوجود ، وبغناصر الخير فيه ، وما إلى ذلك كله من ضروب النزعات التي تنطوى في مقومات البشرية السوية .

على أن الأنداد تقضى على جماعة من الناس أن يعيشوا في مكان معين من الأرض ، وبروضون أقدم وزراءهم على مظاهر اجتماعية معينة تجمع بينهم ، ويشربون في نواحي يشتركون من مجرى التاريخ ، وعندئذ تجعل لهم من ذلك كله سمات مشخصة ، ومقومات يتميزون بها عن الناس .

ويبدو جلياً أن لغة العرب هي أوضح مشخصات العروبة أو هي أبرز مقومات المجتمع العربي ، وإنما كان لتلك اللغة من طول العمر وسرعة الانتشار وقوة الاستيلاء وما هو لها من الرونة في التعبير عن المعنويات ودقاتها ، وما لها من قدرة على التعبير عن المذلولات المادية والحضارية ، وما يمازجها من نخامة اليان ، وتماسك البنيان يجعلها في مكان السدارة من مقومات العروبة ومشخصات مجتمعا .

على أن موقع المجتمع العربي ، وتوسط نجوئه وأنظاره بين قارات العالم اتقدم ونخبر الأنداد له للإلهامات الأديان الباطنية الكبرى ، اتى قامت عليها معالم الهداية البشرية

الأساسية التي فتحت للوجدان أبواباً ونوافذ المثاليات والمعنويات وحفرت نذوس الناس وهمهم لضروب من التأملات والعلم والعرفة ، كل ذلك كان من شأنه أن يهيئ النفسية العربية لحساسية خاصة ، وأن يلونها بتتنشخص وتميز .

ولعل المجتمع العربي الذي يمتد من شاطئ بحر العرب شرقاً إلى المحيط الاطلسي غرباً ، في رقعة متراصلة متلاحقة ، والذي تسكنه جموع من الناس ، تجري على ألسنتهم لغة العرب ويحسون في أنفسهم معاني العروبة وآدابها ، يستشعرون في صدورهم أحاسيسها لا يجهلون ما يربوهم وأقطارهم من تنوع وثقافات في المظاهر الاقليمية ، وما في قومهم من ألوان النشاط والاستعداد وما في أراضيهم من ضروب الثروات الظاهرة على وجه الأرض والمستخفية في باطنها مما يبرى هذه المجموع بالتكافل والتضامن لاستغلال هذه الثروات التكاملة لصالحهم في المعاش .

ولم يكن في تكامل الأقاليم العربية لحسب ما يوحى بتراطب مجتمع العرب ، إنما في موجبات الاطماع الاستعمارية والسياسية ومظاهر العدوان عليها ما كان ذا أثر شديد في توثيق الوشائج وقوية الروابط في هذا المجتمع ، إذ تنهت شعوبه إلى أغراض المستعمرين وما يعملونه لتفتيت وحدة العرب وتوهين قوتهم لتخطف أقاليمهم فواتهم تلك القطة والنهب تشبهاً بقوة الوحدة في العروبة طواعية لزعمة الكفاح من أجل البقاء .

وقد أدى ذلك إلى تكوير جامعة الدول العربية ، وانتقد ذلك على ميثاق بين بلادها من شأنه أن يوثق العلاقات ، وأن ينسق الخطط السياسية في سبيل التعاون وصيانة الاستقلال والسيادة ، وتحقيق الأهداف لتخليص المجتمع العربي من كيد الطامعين واستغلالهم .

ولقد عمل هذا الكيد على تعويق التواصل بين الأقاليم العربية بالاستيلاء على فلسطين وكان في ذلك ما أشغل رغبة العرب في اتحاد مجتمهم ، كما كان في إيمان ثورة مصر الحديثة ودعوة قادتها للعروبة ما سر في الصدور جذوة مقدمة للتساند والتكافل والتآزر بين العرب .

وإذا أضفنا إلى ما تقدم ذكره من مقومات المجتمع العربي ما رسجه الأيام في وجدان أهله من أدب لغتهم ، وموجلتهم الثقافية الماضية والحاضرة وما توحى به قوايدهم

من المحبة للغة ، ومن الإباء ، ومن النجدة ، ومن الوفاء ، ومن تقدير الحرية والرغبات في التحرر ، ومن شمول الحُصَال الوطنية وما إلى ذلك من معنويات من شأنها أن نبهي لرسالة عالمية مرجوة للاقتاذ من أنانية الحياة العصرية ومادياتها ، وللاقتاذ من عدا في وجه المعتدين ، فإن في ذلك ما يصح وضعه في حساب مقومات المجتمع العربي التي ينبغي أن تقوم عليها تربيته ، وتنبثق من نواحيها ثقافته ، لكي يتصف بالعروبة حقاً ، ولكي تكون التثاقفة مستمدة من كيان المجتمع وحياته وشخصيته .

وإذن ففي اللغة ، وفي تواصل الأرض ، وفي تداخل التاريخ وتشابكه وفي تلاق المصالح المشتركة ، والآمال والآلام المتبادلة ، وفي الطموح إلى مكانة مرموقة من العزة في عالم السياسة الدولية ما يصح أن تلحح فيه مقومات مجتمع عربي ورابطة عروبة ليس لها انقضاء .

١١ - حفيد

سمى إلى وأنا في فراش المرض ودرج إلى سريري في خطواته المتلاحقة المتقاربة
ليدعوني بصوته العذب في لكتته المتعثرة . وكانت الصحة والعافية تلبس جسمه الملهو
المستدير ، وتلمع عيناه الزرقاوتان بالحبيوية والنشاط ، وتلوججته الوضاء إشراقة الطهر ،
وفي وجهه النض ، وتقاسبه الباحة ، وثناياه المتلافة مسحة النقاء والهناء . ومددت يدي
أتمس بظهرها شفتين رقيقتين وقبلة رطبة ناعمة أنشت ذبولى . ووجهه إلى الطفل نظرات
فيا معان تهر الألفاظ دون تصور لمسائها السماوية البادية في عينه الودعتين . أترى هي
نظرات اطلع بمزاجها خلوصه من أدوات العلم ووسائل المعرفة . . . ؟ أى تميز
لأحاسيس يستجلب بها منازع الحب ويستثمر بها ملابس الحنان . . . ؟ أى مظهر
لما يتفاعل في نفسه من عناصر البراة والسذاجة ورهبة الخفى وخوف المجهول . . . ؟

ونظرت إلى الحفيد الحبيب الذى جاوز المامين بقليل وأنا أكبره بنيف وسبعين عاما
وهي مرحلة طويلة تعمل بين عشرين وتباعد بين عشرين . تفصل بين عصر تكونت فيه
ونمست في أساليه ، وخضعت لمقتضياته . وبين عصر يقبل على هذا الصغير بأساليه
ومقتضياته وفات في نفسى أنه لن ير الكثير مما رأيت أو يعلم الكثير مما علمت ،
على أن تمت حقيقة خالدة لا تناس من أن يشعر بها ويدركها كما يشعر بها الناس ويدركونها
ماداموا هم الناس . تلك هي الحضرة الجاذبة للطفل والاستسلام لسحرها الواقع .
وتسامت عن الخصائص التى يخص بها السويون من الأطفال لكن تهوى إليهم الأئمة .
أترى يحبون طوعا لما تتوارثه الأجيال والقرون من حب غرزة حب الذات حين يقدر
الآباء في أبنائهم عونا على جلب النافع ودفع المكاره . . . ؟ أيجبون لبرامتهم من الشر
وفي طبيعة الدنيا الشرور ، فالتك قلب مجريا للطفولة البريئة من الشرور وضروب
الأذى . . . ؟ أيجبون لأنهم أدوات لبقاء المجتمع واستمراره ورفقه ، والإنسان بطبعه

مبال للبقاء وحريص عليه ومشوق لطلب الأرقى والأكمل . . . ؟ ومهما يكن من جواب
نقد قننت المشيئة الأزلية بحج الأطفال أن يمتعوا بأساليب العطف والرحمة ، وهكذا
يترتب عمران الكون على أنانية والد وحده على من ولد ، وعلى تعاونه وتراحم بين قادر
وعاجز . حكمة بالغة وأنانية مقدسة ومنطق سليم في شئون الخلق ومجرى الأمور .

دارت في نفسى على هذا النحو دوامة من التفكير إلى أن استقرت حولى معنى يتجلى
في الحب السوى للذات ويظهر في أنانية حميدة تدفع لبقاء النوع ، معنى يتجلى في الانانية
الفطرية المحترمة ، فيجعل الناس يشفقون بأبنائهم ونسبهم ، ويفضونهم بالبر والاحسان .
ويتبنا جهاز تلك الانانية في شكله المحدود أو في شكله الممدود من دائرة ضيقة أو أسرة
واسعة تقام على نساء ورجال يوافقون ويشعرون خربة يتيقنون فيها بعض ما لأنفسهم
من خلال ، ويشجعون لديها بضعة من مبادئهم ولحومهم ، ونظرات من دماهم . . .
ولقد ظل هذا الجهاز وما يتعلق به من آثار وقرار وديار أقوى الدعامات لبناء المجتمع
السليم ، وظل هو الوعاء الأشد لحوات الناس في شتى العصور لمخوّر الناس ومنشودهم
لهنا العيش .

ومنذ القديم النابر على مر الأيام تشكلت في مختلف المجتمعات مختلف الصور في الأسر
والعائلات على أنها ظلت على الدوام معطرة بنفحات المحبة ومنسمة بالتواصل وبالألانة
والتعاطف والتعاون . وقد قدست مختلف الأديان وطقوسها الروابط العائلية ، وكذلك
واعت حرمتها التقاليد والقوانين . ولم تنل المنون وتعاقبا شيئا من جوهر الجهاز العائلي
ولم تغير شيئا من أخص مقوماته في القدسية والتساند . . . فالأسرة إذن هي أساس المجتمع
ومن جوها تهب شتى المقومات الخالدة التي ينسجم منها الإنسان فهي حقا قدس
الإنسان الذى توجه إليه مسالك العيش وتعلم عنه فلسفته ومن حوله يستند انعملون
والواعظون والمصلحون والمشرعون أنقى ما لديهم من أصول التربية والوعظ والإصلاح
والتشريع . إن العائلة الموقفة هي بنت القيم ، وأحد مراكز الاستقرار وأشيخ انشارات
وأعلاها للإرشاد في معتك الحياة . وكفى في مراحل الحياة من متارات ومعالم أرسنا
بدانته ووصعتها للهداية ، ولكن قد يزغ عنها السائرون اللاهثون وينحرف عن دلتنا
الغافلون ويتغثرون .

وعند هذه المعاني التي دارت في رأسي بين شرود التفكير واسترخاء المرض ،
وتبينت ماذا أن في الطفولة صورة المؤمن الأول لزعات الحنو القاهر وقبلاته وأن في العائلة
الأساس الأبدى لأصول التعاون والتراحم ، وأن أصول الخير والصلاح للبشرية ينشد
من تلك الحاجتين ، جعلت أصوب نظري إلى الحفيد ، وهو يقبل إلى الغرفة ويدبر ،
ويلعب ويصخب ، ويدفع بعرجته الصغيرة في فرح ومرح ، ويفرق هنا وهناك بصيحاته
وضحكاته حيث يتقل من مكان إلى مكان ليشتيع البشاشة ويدخل السرور إلى القلوب
الحانية عليه وإلى النفوس الهافية إليه ، وجعلت أقول في نفسي لو أنك يا بني كنت شاباً
وفي سن ندرتك فيه الذميمة لأمسكت عنك نصحي لأنك ستكون لا يام غير أيامي ،
وتتقضى فيك بغير ما قضت في ، وهبات الشباب أن يستجيب لصح الناصحين . فأما وأنت
لا تترك الآن ما أقول فأمنيتي لك أن تأثم بمنارات الهداية الربانية ، وأن تؤمن بالله
حق الإيمان ، وأن تخلص على بناء عائلة لتفتش من جوها الطاهر التي ، وتركن إلى دينه
العاطفي ، وأن تسكن إلى ما سكن إليه جملك من دين ومبدأ وخلق .

قطاع غزة

ظروفه الجغرافية وأحواله الاقتصادية^(١)

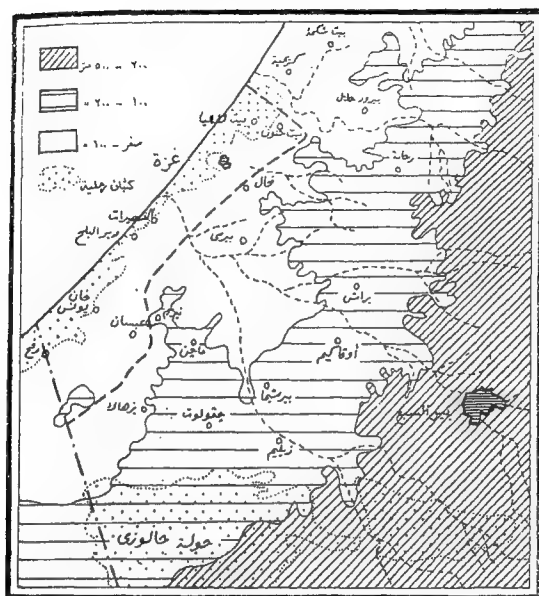
للدكتور يوسف أبو الحجاج

المدرس بكلية الآداب - جامعة عين شمس

لا يؤلف قطاع غزة أقلية من الأقاليم بأى معنى جغرافى ، فهو جزء صغير من منطقة ساحلية (شكل ١) تمتد الأرض على جوانبه فى الأقليم المصرى أو فى سائر فلسطين امتداداً طبيعياً لا انقطاع فيه . ومن يصل إلى القطاع بالطريق البرى أو بالسكة الحديدية قادماً من شبه جزيرة سيناء لا يشعر بأنه انتقل إلى أرض جديدة انتقلاً فجائياً ، إنما هو تدرج لطيف أثناء رحلته ، فالظروف الصحراوية البحتة تسود معظم المنطقة الساحلية لشبه جزيرة سيناء حيث الكثبان الرملية التى يخخذ بعضها الشكل الهلالى (برخانات) والمجردة من الحياة النباتية إلا من بعض الأعشاب الفقيرة المتناثرة ، أو من النخيل الذى يلحبه المسافر هنا وهناك حيث تقوم بعض الواحات البسيطة التى تعتمد على المياه الجوفية . وقبل دخول القطاع وابتداء من بلدة « الشيخ زويد » قريباً (بين العريش ورفح) يكون المنظر قد أصابه بعض التغير فكثرت الحفرة نوعاً وازدادت أشجار التين الشوكى والبطيخ بشكل واضح ، وإن ظلت أشكال السطح محتفظة بمظهرها دون أدنى تغير يمكن ملاحظته .

ويستمر هذا المنظر بعد تجاوز الحدود المصرية الفلسطينية ودخول القطاع . وكلما تقدم المرء شمالاً فى الطريق إلى مدينة غزة ماراً بخان يونس ودير البلاح ازدادت الحفرة والزراعة وكثرت أشجار التين الشوكى كثرة واضحة بحيث يشيع استخدامها سياجاً للتحول ، وكثرت الحيوانات وعلى رأسها الماعز والاعنام مع بعض الإبل .

(١) بعض مادة هذا البحث مأخوذ من مذكرات الكاتب كتيب اسماء زائرة
قصيرة لقطاع غزة فى صيف عام ١٩٥٥



(شكل ١)

ويحدث التغير هنا بالتدرج أيضاً ، ولكن معدل سرعة التغير أعلى منه في شبه جزيرة سيناء بوجه عام . ولا شك أن ذلك يرتبط بتغير اتجاه ساحل البحر المتوسط . فإن هذا الساحل يمتد من الشرق إلى الغرب بوجه عام في شبه جزيرة سيناء من قناة السويس في الغرب إلى قرب بلدة « الشيخ زايد » في الغرب ، ومن ثم فإن العناصر المناخية التي تحمل المطر وهي الرياح الغربية والانخفاضات الجوية الشنوية التي تتحرك على البحر المتوسط من الغرب إلى الشرق بوجه عام تسير موازية لهذا الساحل ، على حين أن سائر

الساحل - في قطاع غزة وفي أقصى شرق ساحل شبه جزيرة سيناء - يمتد من الشمال إلى الجنوب بدرجة عام ، أى يفترض اتجاه هذه الرياح والاختناضات التى تسقط به لذلك فدرأ أكبر من المطر ، يكفى لقيام بعض الحياة النباتية الطمسية ، كما يكفى لنمو بعض المحاصيل الشتوية .

ومع ذلك فليس هناك تغير كبير في أشكال السطح : نطاق من الكثبان الرملية تليه نحو الداخل أرض موحجة تنتشر فيها تلال منخفضة لطيفة الانحدار وتمتد بينها سهول تضيق هنا وتوسع هناك - وإذا وقف المرء على أحد هذه التلال قرب خط الهدنة واتجه يصره نحو الشرق ، نحو فلسطين المحتلة ، رأى أرضاً يغلب عليها التوج أيضاً وتنتشر فيها التلال المنخفضة ، ولا يختلف المنظر العام فيها عن نظيره في القطاع .

وسوف نتناول وصف سطح القطاع بشئ من التفصيل فيما بعد ، ولكننا نصدنا من هذه المقدمة أن نبز أمرين . الأمر الأول هو أن الانتقال إلى فلسطين من الإقليم للمصرى انتقال جغرى متظم ، وهى ظاهرة عامة في مختلف أنحاء الوطن العربى فليس هناك حواجز مناخية صارمة تفصل قطراً عن قطر ، إنما هو دائماً تدرج بطى لا فجأة فيه ، الأمر الذى كان عاملاً أساسياً في سهولة الاتصال والاختلاط بين أبناء هذا الوطن من أنصاه إلى أنصاه . والأمر الثانى هو أن أى دراسة جغرافية لقطاع غزة لا بد أن تقوم على أساس أنه جزء من منطقة أوسع . فما يمكن دراسته بمعزل ، والارتباط بينه وبين سائر أجزاء هذه المنطقة ارتباط وثيق على أى مستوى جغرافى . والواقع أن هذا المعنى ينطبق على فلسطين كلها كجزء من الوطن العربى . وقد عبر عن بعض وجوه هذا الترابط جغرافى بريطانى حين قال عن فلسطين قبل مائة ١٩٤٨ بعامين إنها من الناحية الاقتصادية كل مترابط لا يسهل تجزئته ، وأن فكرة تقسيم فلسطين وتطعيمها والاحتفاظ في الوقت نفسه بهذا الاقتصاد المترابط فكرة خيالية ، مضيفاً إلى ذلك قوله إن هناك ما يربط فلسطين سياسياً بالناطق المجاورة (١) .

وبعد حدوث المأساة عبر عن هذا المعنى نفسه أحد أعضاء سكرتارية هيئة الأمم المتحدة الذى وصف خط الهدنة الذى يفصل هذا القطاع عن موارده وأسوانه العادية

(١) انظر يوسف ابو الحجاج ، المصدر رقم ٩ : ص ٥٥

بأنه يمثل مأساة اقتصادية جعل منها تركيز عدد كبير من اللاجئين في القطاع كثرة اقتصادية^(١).

ولا يزيد طول قطاع غزة كثيراً عن ٤٠ كيلو متراً على حين أن عرضه أقل من ١٠ كيلو مترات في معظم الأنحاء . فهو شريط صغير ولكن لموقعه الجغرافي أهمية خاصة .

فمدينة غزة ، المدينة الرئيسية في القطاع ، اكتسبت أهمية تجارية منذ عهد قديم بحكم موقعها في ملتقى ثلاث طرق تجارية عظيمة : الطريق القادم من البتراء والعقبة عبر الصحراء ، والطريق المتجه شمالاً إلى دمشق ، والطريق الساحلي الممتد جنوباً إلى الاقليم المصري . وجاء ذكرها كثيراً في التاريخ . خربها الاسرائيليون منذ وقت مبكر تحت قيادة ألكسندر جانيه A. Janné وكانت إبان الحكم الروماني جزءاً من مقاطعة « سوريا الفلسطينية Syria Palaestina » ، ووصفت في عهد الرسول بأنها مدينة مزدهرة غنية ، وكان لها أهميتها الرئيسية لتجار مكة الذين كانوا يأتون إليها بقوافلهم في طريقهم لسوريا ، وجمع فيها عمر بن الخطاب جزءاً من ثروته^(٢) . وقرب نهاية القرن الثامن الميلادي عانت الكثير من التنازع الدموي بين القبائل البدوية شأن كثير من مدن فلسطين الأخرى ولكن نهضت من جديد فيما بعد ، فصفها كتاب القرن العاشر (ابن حوقل مثلاً) بأنها مدينة كبيرة غنية بها مسجد رئيسي جميل . وتعرضت للتخريب مرة أخرى فيما بعد قبل وصول الصليبيين الذين احتلوها حتى استردها منهم صلاح الدين بعد موقعة « حطين » وطرد منها ريتشارد قلب الأسد .

ولكن غزة ومنطقتها كانت بحكم موقعها وظروفها الجغرافية الأخرى الملائمة تهض دائماً من كل كربة تعرض لها على يد العناصر الدخيلة على حياتها فيستأنف أهلها نشاطهم التجاري المحتوم ، ويستأنف سكان منطقتهما نشاطهم الزراعي أو الرعوي طالما ساد السلام وامتنع النزاع . وهكذا يصف « ابن الفدا » المدينة في القرن الرابع عشر الميلادي بأنها مدينة متوسطة الأهمية ذات بساين مزدهرة ويصفها « ابن بطوطة » بأنها مدينة كبيرة مزدهجة بالسكان .

(١) باسنر المصدر رقم ١ ، ص ٢٢٢

(٢) أنسيكلوبيديا الاسلام . المصدر رقم ٣ ، تحت « غزة » .

وفي القرن الخامس عشر يصفها « خليل الزاهري » بأنها مقر مملكة واسعة وبأنها مدينة جميلة تقع في سهل غنى بالتواكه (١) .

وفي الحرب العالمية الأولى كانت ميداناً لمعارك كثيرة بين الانجليز والأتراك ، كما يشهد بذلك كثير من الحرائب المحلية بها ، ولكنها سرعان ما استعادت عمرانها . وقبل كارتنة عام ١٩٤٨ كانت مدينة على جانب من الرخاء تقوم بوظيفة جمع وتوزيع الموالح (المحمضات) والقمح والشعير والذرة من منطقتي غزة ودير سبع . فكان يجمع فيها سنوياً نحو خمس مجموع إنتاج فلسطين من الموالح وما يقرب من ١٥٠,٠٠٠ طن من الحبوب لترسل إلى الشمال فيصدر بعضها من ميناء يافا (٢) .

الظروف الجغرافية

لعله قد ظهر من هذه المقدمة أننا بإزاء منطقة تغلب عليها التضاريس الهادئة ، وإن كانت لا تخلو من التنوع في أشكال السطح . ولا بد لتحليل هذه التضاريس من كلمة موجزة عن التكوينات الجيولوجية التي يتألف منها القطاع .

ترجع كل هذه التكوينات تقريباً إلى الزمن الرابع (شكل ٢) ولذلك فلنا بحاجة إلى الدخول في تفصيلات أحداث الأزمنة السابقة ، إلا من عصر واحد له أهمية خاصة من الناحية الجغرافية هو عصر البليوسين ، العصر السابق للزمن الرابع مباشرة . ففي أوائل ذلك العصر أصاب المنطقة الساحلية هبوط تكتوني تمخض عن ظهور حوض يتخذ شكل قمع طرفه الضيق في منطقة دير السبع وطرفه الواسع في منطقة غزة وما حولها من منطقة يافا في الشمال إلى منطقة رفح في الجنوب . هذا هو حوض غزة - دير سبع (٣) . وقد أدى تكونه إلى توغل البحر فيه على شكل خليج ، على نحو ما حدث في حوض النيل الأدنى

(١) انسيكلوبيديا الاسلام ، المصدر رقم ٣ تحت « غزة » .

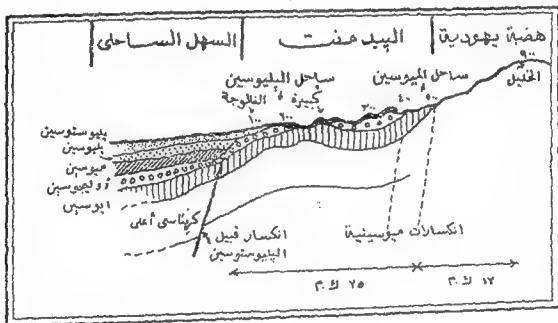
(٢) باستر المصدر رقم ١ ص ٣٠٢٣ .

(٣) يرى بعض العلماء أن حوض غزة - دير السبع يمثل حوضاً انكسارياً يفصل النقب عن هضبة يهودية ، فيشبه بذلك حوض مرج بن عامر الذي يمتد بين حيفا ووادي الأردن ويفصل هضبة السامرة عن هضبة الجليل . انظر بيرودريش المصدر ٢ ، ص ٢١٠ .

حيث توغل الخليج البليوسيني جنوباً حتى قرب اسوان . وفي هذا الخليج بفلسطين الجنوبية أرسبت التكوينات الطفلية الرملية التي تعرف بطبقات « الساقية » . وفي أواخر البليوسين وفي أوائل الزمن الرابع حدثت حركة ارتفاع في المنطقة الساحلية على نحو ما حدث في جهات أخرى في الشرق الأوسط وأدت إلى انحسار مياه هذا الخليج بالتدريج ، فتحول في أول الأمر إلى مستنقعات ثم إلى مجموعة من البحيرات المنفصلة ثم جفت هذه البحيرات تماماً في نهاية الأمر « وجاءت رواسب الزمن الرابع المختلفة فغطت تكوينات « الساقية » في كل مكان تقريباً في قطاع غزة . ولكن نظراً لأن هذه التكوينات تمثل طبقة مياه فإنها تحول دون تسرب المياه السطحية إلى أعماق بعيدة ، ومن ثم يمكن الوصول إليها بمحفر الآبار إلى عمق متوسط والارتفاع بها في الزراعة .

Picard , P. 52

قطاع مبسط عبر فلسطين الجنوبية



(شكل ٢)

وإذا كان منسوب المياه الجوفية يختلف من مكان إلى آخر فمرجع ذلك إلى أن حركة الارتفاع السابق ذكرها كانت مصحوبة بدمش التواءات خفيفة هي صورة مصفوفة جبال اللاتواءات التي صحبت نفس هذه الحركة في جهات أخرى من العالم العربي كافي جبال لبنان والأناطلي السورية ومجذبات سيناء الشمالية . واتخذت هذه اللاتواءات في قطاع غزة وما حوله صورة قباب صغيرة ، طمرت بها تكوينات الزمن الرابع فيما بعد ، فأصبحت طبقات « الساقية » بعيدة نوعاً عن سطح الأرض الحالي في الأحواض التي تقع بين هذه

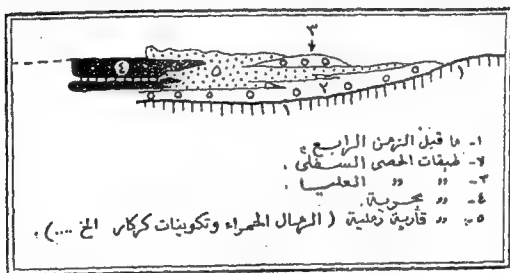
القباب السفلية والتي يصل سمك رواسب الزمن الرابع فيها إلى أكثر من ١٠٠ متر ، ولكنها أقرب إلى هذا السطح فوق هذه القباب مباشرة بحيث أمكن الوصول إليها على عمق لا يزيد كثيراً على أربعين متراً في بعض الجهات . ويعكس ذلك طبيعة الحال في منسوب المياه الجوفية .

وكان الزمن الرابع خلواً من الأحداث الجيولوجية الجسيمة ، في قطاع غزة وفي السهل الساحلي الجنوبي كله في الحقيقة . كان عصر إرساب قاري لم يتعرض الساحل خلاله للهبوط فلم يطفح عليه البحر في أي فترة من فتراته ، والرواسب البحرية لا وجود لها على السطح في أي مكان ، ومن المشكوك فيه جداً أن يكون لها وجود تحت هذا السطح إلا في البقاع القليلة جداً من الساحل (شكل ٣) . وتكوينات البليوسين الظاهرة على جانبي الجزء الأوسط من وادي غزة لا تعلوها رواسب بحرية بل رواسب نهريّة حموية ورواسب من نوع « اللويس » والحفر حتى عمق ١٢٠ متراً شرق غزة بنحو كيلومتر واحد لم يثبت وجود أي رواسب بحرية ترجع للزمن الرابع^(١) . وليس من الضروري أن يفسر وجود بعض الآثار الرومانية تحت البحر في الجزء الشمالي من الساحل الفلسطيني الجنوبي (كأن قيصرية وعنتلي) بحركة هبوط ساحلية حديثة ، فالأرجح أن هذا الجزء من الساحل يرجع للتحت البحري ، وأنه ظل يتراجع طيلة الألف سنة الأخيرة نتيجة لهذا العامل ، بدليل أن الأدوية التي تنحدر من الجروف الساحلية هناك تنتهي فجأة في شكل أردية معلقة . ومعنى ذلك أن هذه الآثار المغورة بمياه البحر يمكن أن نعزى إلى تقدم البحر في بطن نحو الداخل نتيجة للتعرية البحرية الساحلية لا بسبب هبوط حديث في الساحل .

هكذا كان قطاع غزة كسائر السهل الساحلي الجنوبي لفلسطين بوجه عام مسرحاً للإرساب القاري خلال الزمن الرابع ، تكوينات حصوية في الفترة الأولى من ذلك الزمن تمثل المراحل الغرينية التي أرسبها أنهار تنحدر من هضبة يهودية نحو الساحل ، وتكوينات رملية تتخذ شكل الكشبان الرملية تكونت أثناء الجزء الأوسط والآخر من الزمن الرابع ، ثم تكوينات من « اللويس » أرسبها الرياح ابتداء من أواسط ذلك الزمن حتى الوقت الحاضر .

وتنحصر الاهمية الجغرافية للتكوينات الاولى — أى التكوينات الحصوية التى ترجع للبلستوسين الاسفل — فى أنها الطبقة الخازنة للمياه الجوفية . ولكنها قليلة الاهمية فى تفسير أشكال السطح الراهنة وفى تفسير خصائص التربة ، فهى لا تظهر على سطح السهل الساحلى إلا نادراً وفى بقاع محدودة المساحة . ولا نجدها بشكل واضح إلا فى أقصى الشرق قرب حافة الهضبة الداخلية فى جنوب فلسطين (شكل ٣) .

قلع مبسط عبر السهل الساحلى بجنوب فلسطين . Picard, P.90



(شكل ٣)

أما الكشبان الرملية فينبغى أن يميز بين نوعين منها ، الكشبان القديمة فى الداخل ، والكشبان الحديثة على الساحل .

وقد تكونت الكشبان القديمة فى البلستوسين الاوسط بوجه خاص فى صورة سلاسل طويلة موازية لساحل البحر بوجه عام من حيفا فى الشمال حتى منطقة غزة فى الجنوب . وهى تتألف من ثلاث سلاسل تتكون من حجر رملى كلسى مناسك ، وتشبه الكشبان الساحلية الموجودة قرب الاسكندرية بالاقليم المصرى ، والتى تتألف من الكلس الحبيبي بوجه خاص ، وهى تعرف فى فلسطين بتكوينات كركار Kurkar . وأصلها رمال كشبانية فى معظمها تماسكت فيما بعد بالمادة الكلسية . ولعل هذه المادة الاخيرة وصلت إلى هذه الرمال فى شكل محلول جبرى تساعد خلالها بفعل الخاصية الشعرية ، أو لعلها ترجع إلى تسرب مياه الامطار فى التكوينات الرملية ، وإذا بها لفتات الحفريات الموجودة بها ، فتكون بذلك تلك المادة الكلسية اللاصقة ، ومهما كان التعليل الصحيح فإننا بإزاء كشبان ساحلية

قديمة تكونت على اليابس ، لا إصابات بحرية ، لا بدليل خلوها من الحفريات البحرية الكبيرة فحسب بل كذلك بدليل وجود الطبقات المتعارضة cross-beddings التي تميز الكشبان الرملية المعروفة . ونعتبر السرعة الفائقة التي تتم بها عملية التحام هذه الرمال الكشبية من أهم انظواهرات التي تميز كل الساحل الشرق للبحر المتوسط في الحقيقة . ويستطيع المرء أحياناً أن يلاحظ الحجر الرمل وقد تجمع حول القطع الفخارية وعلب الاكل الملقاة على الشاطئ منذ بضع سنوات فقط ، مما يدل على أن التحام الرمال الشاطئية يمكن أن يتم في وقت قصير للغاية .

وتمتاز هذه الكشبان القديمة من الناحية المورفولوجية بامتدادها في خطوط مستقيمة تذكر بكشبان « السبف » في الصحراء الليبية الشمالية فتختلف بذلك عن الكشبان الحديثة التي ينقصها الانتظام في تجمعها كما سنرى . وهي متفاوتت في ارتفاعها من ٤٠ متراً فوق مستوى سطح البحر إلى ٥٠ متراً تحت هذا المستوى كما يضح في المنطقة الواقعة شرق مدينة غزة بكيلومتر واحد . كما يلاحظ أخيراً أن تكوينات « كركار » هذه تتخللها طبقات رقيقة من الرمال الحمراء أو ذات اللون البني والتي تعرف محلياً باسم « الحمرة » والتي تظهر في الحقيقة بنفس الصورة في جميع أنحاء سهل الساحل من سبنا جنوباً حتى الحدود التركية شمالاً (١) . ولا شك أن طبقات « الحمرة » هذه مشتقة من تكوينات « كركار » نفسها وأنها تختلف من التعرية الجوية على سطح هذه التكوينات في فترات معينة خلال الزمن الرابع وفي ظل مناخ البحر المتوسط الحالي . فهي نوع من التربة الحمراء terra rossa الرملية التي ترتبط بهذا المناخ . ونظراً لأنها وثيقة الشبه جكوينات « اللويس » المنتشرة على السطح في منطقة غزة فإن في ذلك دليلاً على ثبات الأحوال المناخية في هذه المنطقة خلال النصف الثاني من الزمن الرابع على الأقل .

أما الكشبان الحديثة فتتد على طول الساحل بقطاع غزة كجزء من نطاق الكشبان الكبير الذي يميز الساحل الفلسطيني بين رفح ويافا بوجه خاص ، والذي يزيد مساحته فيما بين هانين المدينتين على ٢٥٠ كيلومتراً مربعاً . وهكذا يختلف الساحل هنا بعض الشيء عن الساحل الذي يمتد إلى الشمال من يافا حيث يجد أنه باستثناء منطقة « الحاضرة » يضيّق

نطاق الكشبان بشكل واضح . ولعل ذلك يرجع إلى أن الساحل شمال يافا تسوده التعرية البحرية القوية على حين أن المنطقة الساحلية الجنوبية أكثر انبساطا في سطحها وأكثر ملائمة لتوغل الرمان وانتشارها . كما يلاحظ أن هذه الكشبان أكثر ارتفاعا عن سطح البحر من كشبان الشمال بوجه عام ومنطقة خليج حيفا بوجه خاص . وقد يصل الفرق في الارتفاع إلى أكثر من ٣٠ مترا . ولكن هذا لا يرجع كما قد يتبادر إلى الذهن إلى أن الارساب كان أعظم في الجنوب منه في الشمال ، فإن سمك التكوينات الرملية في الجنوب لا يزيد كثيراً عنه في خليج حيفا . والسبب في اختلاف الارتفاع هو اختلاف مستوى السطح الذي تجمت فوقه هذه الكشبان أثناء الزمن الرابع ، ففي الجنوب حيث منطقة الكشبان القديمة ، كان السطح أعلى منه في الشمال حيث تجمت الكشبان الساحلية على طبقات صلبة أقيّة تخلو من الكشبان القديمة (١) .

أما تكوينات اللوس فهي تنتشر انتشاراً واسماً في المنطقة الممتدة من شرق يرب السبع إلى ملتي وادي الشريعة بوادي غزة . أما في قطاع غزة فهي توجد في النطاق الدائم أي الشرق مخططة برمال الكشبان القديمة (تكوينات كركار) والتي لا تختلف عنها كثيراً كما ذكرنا ، وهي كذلك الرمال إرساب قارى تقلبها الرياح ، والأنهار أيضاً إلى حد ما ، من التكوينات البليوسينية المجاورة ابتداء من أواسط الزمن الرابع حتى الوقت الحاضر .

وفي ضوء ما تقدم يتضح أن قطاع غزة يتكون من نطائين فيزيوغرافيين يختلفان في مظهرهما المورفولوجية كما يختلفان في خصائص التربة فيها — وبالتالي في مدى صلاحية كل منهما للاستقرار البشري ، هما نطاق الكشبان الساحلية الحديثة والنطاق الداخلي .

١ - نطاق الكشبان الساحلية :

يمتد هذا النطاق على طول الساحل في قطاع غزة من أقصاه إلى أقصاه ويشمل أكثر من ثلث مساحة هذا القطاع (شكل ١) ويتراوح الارتفاع بين ٣٠ ، ٥٠ متراً فوق سطح البحر . والكثير من هذه الكشبان تتخذ الشكل المثلاني أي أنها من النوع الذي يسمى « البرخانات » ، وهي ظاهرة نراها في الساحل الشمالي من شبه جزيرة سيناء

(١) بيكار ، المصدر ٧ ص ١٠١ ، ١٠٢

كما ذكرنا في مقدمة هذا البحث ، على أنه ينشر أن توجد هذه « البرخانات » متولة بعضها عن البعض الآخر ، بل يلتم بعضها البعض الآخر تماماً جزئياً ، كما أنها تختلط بتناطق رملية لا تتخذ هذا الشكل الهلالي أو أى شكل هندسى آخر . وهكذا فنحن بإزاء نطاق يتعصم الانتظام في سطحه مما جعل منه حاجزاً منيعاً بين الساحل والداخل كثيراً ما يزيد اتساعه على خمسة كيلومترات .

ولكن هذا الحاجز المنيع من وجهة النظر العسكرية ، أو الذى كان منيعاً بعبارة أصح ، مصدر ضعف وخطر من الناحية الاقتصادية . فضلاً عن كونه منطقة متفردة لا تصلح للزراعة أو السكنى إلا بدرجة محدودة للغاية ، فإن كثبانها ليست ثابتة بل تدفع الرياح ومالها نحو النطاق الداخلى مما يشكل خطراً على الزراعة وعلى مراكز السكنى . وهى في الوقت نفسه تطل على البحر مباشرة في صورة جرف رملى ، على المرء أن يهبط منه هوطاً فجائياً إذا أراد الوصول لشاطئ البحر . وإذا أضفنا إلى أن الساحل يمتاز هنا باستقامته العامة ، أى بخلوه من التجوأت والتعرج وبالتالى من الموانئ الطبيعية ، أدركنا السبب أن السكان لم يكونوا في أى وقت شعباً بحرياً بل إنهم أعطوا ظهورهم للبحر ، وكان اتجاههم برياً بجأ أى نحو الداخل حيث اشتغلوا بالزراعة أو الرعى أو التجارة . وتعلل استقامة الساحل بأنه ساحل يسوده الإرساب لا التحت البحرى كما في سواحل فلسطين الشمالية . وقد عملت الرواسب — ومن بينها بعض طمى أنيل الذى يحمله التيار الساحلى حتى هذه المنطقة — على ملء التجوأت وتنظيم خط الساحل على هذا النحو الملفت للنظر ^(١) . ومن المعروف أن مدينة غزة التى تقع في النطاق الداخلى ليس لها إلا ميناء صغير . ولا ييسر الوصول للشاطئ مباشرة إلا للسفن الشراعية التى تصل في أواخر الصيف في الوقت الذى لا تكون فيه الرياح خطيرة على هذا النوع من السفن .

هكذا تحالفت رداءة الساحل في أغراض الملاحة ، وعدم صلاحية نطاق الكثبان الملائمة للزراعة ، على جعل هذا الجزء من قطاع غزة منطقة خلاء سكانى تقريباً . بذلت في السنين الأخيرة مجهودات لزراعة بعض أنواع النبات التى يمكن أن تنمو في مثل هذه الرمال مثل نبات الخروع الذى يمكن الاستفادة بزيته في الأغراض الطبية ، كما نبذل

(١) ليس من الضروري إذن أن ندخل العامل التكتونى في الموضوع فنفترض أن الساحل هابط في الشمال ومنبثق في الجنوب . انظر المصدر السابق ص ١٠١

الجهود باستمرار لغرس « مصدات » للرياح لتحول دون زحف رمال هذه الكثبان المتحركة على مزارع النطاق الداخلي .

٢ - النطاق الداخلي :

وهو النطاق المعبر من قطاع غزة . وهو من حيث التضاريس أكثر انتظاما في سطحه من النطاق السابق ، ولكنه لا يعتبر تام الانتظام . فلنا بإزاء منطقة سهلية منبسطة على النحو الذي نعلمه في دلتا النيل مثلا ، إنما هي منطقة موجة السطح تعلو هنا وتنخفض هناك ، وتكثر بها الربيوات . ومن أجل ذلك يستعين المزارعون القادرون على إيصال ماء الري إلى الحقول بما يعرف بالهوايات (جمع هواية) وهي عبارة عن أعمدة مجهزة من الإسمنت ارتفاع الواحد منها نحو مترين تصل بأنايب الري بقصد إيجاد منفذ للهواء الذي يوجد في هذه الأنايب والذي من شأنه - لولا هذه الهوايات - أن يعيق السيلاب الماء في هذه الأرض المهيبة .

وتعرف الربيوات التي أشرنا إليها باسم التبات (جمع تبة) وهي تلال حجرية قليلة الارتفاع تتكون من الحجر الرملي (تكوينات كركار) بوجه خاص ، وتختلف أصلا عن عوامل التحت والتقطع التي تعرض لها السطح أثناء الزمن الرابع . ويغلب على قممها الاستدارة ، وإن كان بعضها مسطح القمة ذا جوانب شديدة الانحدار فيتمخض الشكل المعروف بالـ mesa في الإصلاح المورفولوجي . ويغلب على هذه التبات بوجه عام أن تتخذ الشكل الطولي ، وإن كان فيها ما يقرب الشكل القبابي أو المخروطي . وقد تسمع مساحة السطح العلوي في بعض التبات الكبيرة بحيث يمكن أن يقام عليها معسكر حربي صغير .

وقد كان لهذه « التبات » شأنها في كثير من العمليات العسكرية التاريخية في منطقة غزة . وقد اعتبرت تبة « على المنظار » التي تقع على بعد كيلومترين تقريبا شرق غزة مفتاح المدينة من الناحية الشرقية . ومن « التبات » الأخرى التي اكتسبت أهمية في التاريخ العسكري للمنطقة ، وخاصة في الحرب العالمية الأولى ، تبة « الشوف » و « التل الأخضر » وتبة « البرجالية » وتبة « المنصورة » وتبة « الشيخ عباس » ، وكلها تقع إلى الجنوب من مدينة غزة . وقد أثرت عوامل التعرية وخاصة السيول وروافدها في جوانب هذه التلال الصغيرة بحيث ينلر أن نجد سطحا مستقيما منتظما من أعلى التل لآخره . وقد حدث كل هذا بالتاكيد خلال الزمن الرابع وحده .

أما الأجزاء الموجبة أو السلبية التي تقع بين هذه الربوات فهي مراكز العمران الوحيدة تقريباً في القطاع . فالتربة هنا ، وهي تكون من الرمال القديمة الحمراء ، الحمرة ، واللاوي ، متوسطة الخصوبة ، وكلاهما كما رأينا إرساب قارى مما حملته عوامل التعرية من التكوينات البليوسينية في الشرق . ونحت هذه التربة السطحية التكوينية الخصوية التي ترجع إلى أوائل الزمن الرابع كما أسلفنا وترتكز على طبقة صماء من تكوينات البايودين فتسبح بذلك باختزان المياه الجوفية . هذا فضلاً عن أن الأحوال المناخية السائدة لا تحول دون هذا العمران .

وإذا كانت « نان يونس » و « دير البلح » مدينتين صغيرتين يغلب عليهما طابع الريف المجاور فإن « غزة » مدينة عامرة يجاوز سكانها اليوم ١٠٠,٠٠٠ شخص . وهي مدينة جميلة تمتد على سطح متوج مما يعكس مثلاً في طريقها الرئيس الطويل الذي ينخفض هنا ويرتفع هناك . وفي هذا السطح المتوج ، وفي قلة ارتفاع مبانيها برجه عام ، وفي اعتدال حرارتها وكثرة الخضرة فيها ، ما يذكر لأول وهلة بمنظر بعض مدن إنجلترا الصغيرة في أجزائها الموجبة السطح .

وهي مدينة داخلية موقعا ووظيفة . فهي تبعد عن البحر بنحو ٤ كيلو مترات ، ويفصلها عنه نطاق الكثبان الساحلية ، ومينائها صغير كما أسلفنا لا يكاد يستحق تسمية ميناء في الحقيقة . وكانت تؤدي دائماً وظيفة المركز التجاري لمنطقة داخلية تمتد بينها وبين بير صبع ، فضلاً عما كان لها من أهمية كمحطة على الخط الحديدي والطريق البري الموصلين بين الأقاليم المصرية وسائر الأنظار الشامية .

الاحسوال المناخية

يدخل قطاع غزة — كسائر المثل الساحلي المتوسطي — ضمن إقليم البحر المتوسط بروجه عام . يتجلى هذا في أحواله الحرارية كما يتجلى في نظام المطر فيه . فالثاء معتدل الحرارة ، ومتوسط الحرارة في شهر يناير في مدينة غزة ٥٣ درجة فهرنهايت^(١) أو نحو ١٢ درجة مئوية ، ورغم أن المدى الحراري اليومي واضح (يصل إلى نحو ٨ درجات مئوية) فإن متوسط الحرارة الدنيا بالليل لا يقل عن ٧ درجات مئوية . والصقيع لا يكاد

(١) ستامب ، المصدر ٨ ، ص ١١٥

يكون له وجود حتى في هذا الشهر وفي الشهر الذي يليه وهما أبرد شهور السنة . والشمس ساطعة في أكثر من نصف أيام الشتاء . وكل هذه صفات نموذجية تقريباً لشتاء اقليم البحر المتوسط .

ويصاحب الربيع تغير سريع إلى جو أكثر حرارة . وفي هذا الفصل بوجه خاص تهب رياح الخماسين التي ترتفع أثنائها الحرارة ارتفاعاً كبيراً بحيث وصلت في مدينة غزة في إحدى مرات هبوبها إلى ٨٤ درجة فهرنهايتية أو أكثر من ٢٩ درجة مئوية . ولكن هذه الرياح الحارة لا تهب إلا في جزء محدود من السنة ، وهي أقل رطابة في حرارتها منها في الاقليم المصري على كل حال .

والصيف حار باعتدال ، فصل متوسط الحرارة في أحر شهور السنة في مدينة غزة إلى ٧٨ درجة فهرنهايتية أو أكثر من ٢٥ درجة مئوية . ويلاحظ أن أحر الشهور هنا — كما في سائر السهل الساحلي — هو شهر أغسطس ، لا شهر يولييه ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى تأثير البحر الذي لا تبعد عنه غزة إلا بضعة كيلومترات ، فالبحر يمتص حرارة الشمس يبطئ^(١) إذا قورن باليابس وينقلها يبطئ أيضاً ، فيتأخر بذلك شهر الحرارة القصوى في هذه المنطقة الساحلية عنه في المناطق الداخلية البعيدة عن البحر . ونحن نعرف نفس هذه الظاهرة في الاقليم المصري كما يتضح من المقارنة بين القاهرة والاسكندرية حيث يتخلف شهر الحرارة القصوى في الاسكندرية (أغسطس) من ١٥ إلى ٢٠ يوماً عنه في القاهرة^(٢) .

ومن الظواهر التي تبدو غريبة لأول وهلة أن حرارة الصيف في غزة أقل منها في الجهات التي تقع إلى شمالها ، أي رغم أنها أقرب إلى خط الاستواء من هذه الجهات . فهي — كما يتضح من الجدول الآتي الذي يبين متوسط درجة الحرارة في أشد شهور السنة حرارة — أقل حرارة من بيروت بل أقل حرارة من الاسكندرية التي تقع في أقصى شمال السواحل الشمالية .

غزة	٣٠°	٢٥° مئوية
بيروت	٤٠°	٢٩°
الاسكندرية	٤٨°	٢٧°

(١) فيشر ، المصدر ٥ ص ٣٨٦

(٢) محمد عوض ، نهر النيل ١٩٢٣ ص ١٩٣

ولعل مرجع هذا الفارق الواضح إلى تأثير السلاسل الجبلية في الشمال حيث تؤدي إلى إعاقاة وصول الرياح الملوثة للجهات الشمالية^(١) ، وهو تأثير يتعلم في حالة غزة التي لا تقوم من حولها مثل هذه الجبال .

وغزة إذن ليست شديدة الحرارة في الصيف . وصيفها في الحقيقة ساحلي مندش لا يختلف عن صيف مدينة الاسكندرية مثلا في الإقليم المصري (الاسكندرية ٢٦ ٢٥ م في أغسطس) .

أما المطر فيتركز في نصف السنة الشتوي فيسقط كله تقريباً فيما بين أكتوبر وأبريل ، والصيف فصل جفاف تام . وكما هو الحال في سائر سواحل فلسطين تعتبر الأمطار المبكرة التي تسقط في أكتوبر ونوفمبر أقل أهمية من الأمطار الربيعية التي تكتسب أهمية خاصة بالنسبة للزراعة . على أنه إذا كان قطاع غزة يتمتع بخصائص إقليم البحر المتوسط من حيث نظام المطر ، وطبيعة هذا المطر ، والعوامل المؤدية إليه ، فإنه يعد كثيراً عن الصورة النموذجية لهذا الإقليم من حيث كمية المطر التي تعنيه ومن حيث عدد الأيام المطيرة خلال السنة . فمجموع المطر السنوي في غزة لا يزيد كثيراً على ١٦ بوصة (٤٠٠ ملمتر تقريبا) . والجدير بالذكر الآن بين مدى قلة المطر في غزة بمقارنتها ببعض البلاد التي تقع إلى شمالها على الساحل الشامي^(٢) .

البلد	كمية المطر السنوي (بالبوصات)	عدد الأيام المطيرة (في السنة)
غزة	١٦٫٥	٤١
بانا	٢٣	٥١
حيفا	٢٧	٦٢
بيروت . . .	٣٥٫٧	٨٢

وواضح أن كمية الأمطار وعدد الأيام المطيرة تقلان باطراد من الشمال إلى الجنوب ، الأمر الذي يعلل بقلّة الارتفاع في الجنوب بالنسبة للشمال ، وبأنّ الانخفاضات الجوية

(١) فيسر : المصدر ٥ ص ٢٨٦ .

(٢) ستامب : المصدر ٨ ص ١١٥ .

والرياح التي تهب على السواحل الجنوبية لا تقطع مسافة كبيرة في مرورها على البحر ، فحزن حولها من الرطوبة ، أقل بذلك منها في الشمال . وإذا تذكرنا أن مدينة غزة تقع في الجزء الشمالي من القطاع أدركنا مدى قلة كمية المطر في سائر أجزائه حيث تقترب في الحقيقة من الظروف شبه الصحراوية ، سواء من حيث صغر كمية المطر أو نللة عدد الأيام المطيرة . وكان لكل ذلك انعكاسه الواضح في الكيان الاقتصادي للقطاع .

الاحسوال الاقتصادية

لعل القارئ قد أدرك من الخلاصة التي أسلفناها للظروف المورفولوجية والبيدولوجية والمناخية السائدة في القطاع أننا بإزاء منطقة لا يمكن أن تكون من المناطق الغنية . فأكثر من ثلث المساحة كثبان رملية مقفرة تهدر مالها الأرض القابلة للزراعة ، والباقي ، أي النطاق الداخلي ، يعوز بين ربوات حجرية مقفرة أيضا ، وقلاع متوسطة الخصوبة يمكنها الاستفادة من المياه الجوفية في أغلب الحالات ، وإن كانت قليلة المطر بوجه عام ، ثم بقاع بين هذه وتلك تصلح للرعى إلى حد متواضع ولكن رداءة تربتها أو شح الماء فيها يحول دون استغلالها للزراعة الناجحة . والواقع أن مجموع المساحة المزروعة في القطاع لا يزيد على ١٣٦.٠٠٠ دونم (أي نحو ٢٧.٠٠٠ فدان) توجد في شكل رقاع متفرقة لا في صورة متصلة .

وبغلا من قلة المطر ، بحيث لا يكفي بمفرده لحاجات الزراعة الناجحة على أي نطاق واسع ، فإنه مطر غير مضمون يجذب في كنيته بصورة صارخة . وكما هو الحال بالنسبة لمعظم فلسطين هناك سنوات جفاف لا يسقط خلالها من المطر إلا نحو ٦٠ ٪ مما يسقط في السنوات العادية . وفل المحصول في الجهات التي تسمى تربة « اللويس » في قطاع غزة والمنطقة المجاورة له من الأمور العادية ^(١) . ثم إن هذا المطر يهطل في الغالب في شكل رخات غزيرة قد تكون الطبيعة فيها أسخى مما ينبغي ، فتلحق الضرر بالتربة حتى في هذه الجهات قليلة المطر حيث يشيع أن تزيد الكمية التي تسقط في يوم واحد في الشتاء والربيع على متوسط الكمية الشهرية كما في منطقة ير سبع مثلا ^(٢) .

(١) يوسف أبو الحجاج المصدر ٩ ، ص ١٤

(٢) المصدر السابق ص ١٥

من أجل ذلك كانت الجيوب ، لا الأشجار ، هى المحصولات الرئيسية كما يتضح من الجدول المرفق . والشعر والقمح يوجه خاص يشغلان معظم المساحة المزروعة ، يضاف إليهما القنبرة التى لا بد لها بالطبع من الرى الصناعى باعتبارها محصولاً صيفياً والشعر أهم من القمح بسبب قلة المطر أيضاً ، والمحصول فى أغلب الحالات يمتاز بالاندبذب فى كميته بسبب تذبذب كمية المطر من عام لآخر .

المساحة المزروعة فى قطاع غزة (٣)

المساحة بالدونم	المحصول
١٠٠.٠٠٠	الشعر والقمح والذرة
٢٠.٠٠٠	الحضروات
٦.٠٠٠	الموالح
١٠.٠٠٠	الفواكه الأخرى

وبلى الجيوب من حيث المساحة المزروعة الحضروات . أما الموالح (المحليات) فلا تزرع إلا فى نسبة صغيرة من المساحة الكلية ، ولا تتيجج إلا حيث توفرت وسائل الرى الصناعى اعتماداً على المياه الجوفية . ولكنها يمكن أن تعطى محصولاً طيباً حين تلقى العناية اللازمة وتوفر لها مياه الرى ، كما هو الحال مثلاً فى بعض البساتين المجاورة لمدينة غزة حيث يمكن للمرء أن يشهد أشجار البرتقال وقد حملت بالثمار التى قد تتجمع فى عناقيد فى كل منها عشر برتقالات أو خمس عشرة برتقالة . ومن الفواكه الأخرى فى القطاع العنب واللوز ، كما أن البطيخ محصول صيفى له بعض الأهمية ويمتاز بجلاوة اللناق . وأخيراً فإن كثرة أشجار الزيتون الشوكي مما يلفت النظر فى القطاع . وفى خلال الحرب العالمية الأولى كانت هذه الأشجار بمثابة حاجز عسكري أسهم فى مناعة غزة ، ووصفه بعض العسكريين بأنه لا يقل مناعة عن الأسلاك الشائكة من حجم مثابه .

ولا تجرى بالقطاع والمنطقة المجاورة له أنها دائماً يمكن أن تيسر حل مشكلة الرى . ووادى غزة ، الوادى الرئيسى الذى ينبع من منطقة عسلاج ، ورافده الرئيسى وادى الشريعة الذى ينبع من جنوب هضبة يهودية ومن منطقة قرية الظاهرية وعمرير السبع ، وادبان

جافان معظم السنة . وهكذا تبرز أهمية المياه الجوفية التي تعتبر المصدر الرئيسى للرى الصناعى فى القطاع كما هى كذلك فى فلسطين كلها فى الحقيقة .

وثما يعطى فكرة عن مدى ضعف الانتاج فى قطاع غزة أن أحد الباحثين ^(١) قدر مجموعة قيمة هذا الانتاج منذ بضع سنوات (١٩٥٥) بنحو ٨٠٠,٠٠٠ جنيه مصرى فقط ، منها ٢٥ ٪ قيمة إنتاج الجبوب ، ومنها ١٨ ٪ قيمة الموالح ، ومثلها للخضروات ، ونحو ١٢ ٪ للفواكه الأخرى ، ومثلها للمنتجات الصناعية ، والباقي قيمة المنتجات الحيوانية من صوف ولبن ولحم وجلود مع قدر ضئيل جداً من السمك .

ورغم هذه الموارد المحدودة أصبح قطاع غزة بعد تدفق اللاجئين إليه بعد كارثة فلسطين يؤوى اليوم أكثر من أربعة أمثال عدد سكانه الأصليين . ففى هذا القطاع الصغير (٢٥٨ كيلو متر مربع) يتركز أكثر من ٢٢٠,٠٠٠ لاجئ (يعيش الكثيرون منهم فى معسكرات كبيرة ، منها اثنان يضم كل منها أكثر من ٢٠,٠٠٠ شخص) ، بالإضافة لسكانه الأصليين الذين يصلون اليوم إلى أكثر من ٩٠,٠٠٠ شخص . وهكذا فإن كثافة السكان بالنسبة للقطاع كله تصل إلى نحو ٣٠٠٠ شخص فى الميل المربع أى سبعة أمثال الكثافة فى بريطانيا . وإذا أخرجنا من المساحة المناطق غير المأهولة — ومعظمها كثبان رملية — والتي تقدر بنحو نصف المساحة الكلية وجدنا أن الكثافة فى الميل المربع من الأرض المأهولة تصل إلى ٦٠٠٠ شخص أو سبعة أمثال الكثافة فى بلجيكا .

وهذه بالطبع أرقام شاذة تنتظر من وضع شاذ بالغ الشلوذ كوضع قطاع غزة . وهكذا فرغم ما تنفقه حكومة الجمهورية العربية المتحدة — التي تحصل تبعاتها هنا بإيمان وعزيمة ، ودون من أودعاية ، ناظرة لهذه التبعات كجزء من رسالتها الكبرى تجاه الوطن العربى كله — ، ورغم ما تقدمه للاجئين هيئة الإغاثة والتعمير الدولية التي تسهم بأكثر من نصف مجموع واردات القطاع ، فإن حياة السكان ، لاجئين وأصليين ، لا يمكن إلا أن تكون حياة فاسية .

المستقبل

إن مجال التحسين فى ظل الوضع الراهن مجال محدود للغاية الأسف . من الممكن منعاقبة الجهود للحد من حركة الكثبان الرملية ، ولكن المشكلة الأساسية هى أن المساحة

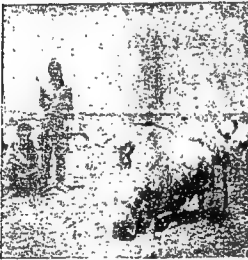
(١) المصدر السابق ص ٣٢٤



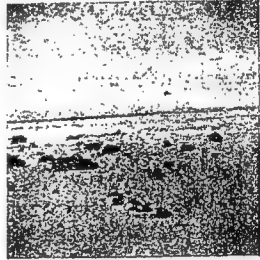
(شكل ٢)



(شكل ١)



(شكل ٤)



(شكل ٣)

شكل ١ : ربوة (تبة) من تكوينات الزمن الرابع في قطاع غزة . لاحظ استدارة القمة .

شكل ٢ : هواية أو « عامول » لتيسر عممية الري بجوار غزة . لاحظ تموج السطح

شكل ٣ : منظر مأثوف في النقة السانليه بقطاع غزة وشمال سيناء .

شكل ٤ : احد رعا الفتم بجوار خط الهندف .

شكل ٥ : احدى خيام البدو بجوار غزة ، ودى مصنوعة من شعر الماعز .



(شكل ٥)

القابلة للزراعة جد ضئيلة بعد ان اغتصب الصهيونيون معظم الاراضى . وليس هناك أمل كبير في الاستفادة من حفر آبار جديد لأن مستوى المياه الجوفية سهدد بالمهبط في هذه الحالة . ولاستفادة من المياه الشتوية لوادى غزة تستلزم إقامة سد على هذا الوادى شرق القطاع أى في منطقة يحتلها الصيونيون . وقد يكون من الممكن التوسع في صناعة المنسوجات اخلية خاصة وأن الكثير من اللاجئين جاموا من مدينة « الجبل » التى كانت مركزاً لصناعة النسيج ، ولكن تبقى مشكلة السوق التى يمكن أن تصدر اليها هذه المنسوجات إذا تذكرنا أن أكبر سوق لها هى الاقليم المصرى الذى يملك صناعة منسوجات ضخمة . وقد يكون من الممكن أيضا زيادة الصادرات من الحنجر والفاكهة للسوق المصرية ، ولكننا لن تكون إلا زيادة محدودة أمام حاجة سكان القطاع المتزايدن .

ورغم أنه لا توجد بيانات كافية عن تطور نمو السكان فمن المعروف أن عدد المواليد بين اللاجئين يصل إلى ٥٥٠ شخص على الأقل كل شهر . ومعنى هذا أن مجموع سكان قطاع غزة سيزداد إلى نحو نصف مليون في سنوات قليلة ، إذا استمر الانجلاء الحالى للزيادة ، وظلت المعاشية الصهيونية تحتل أرض اللاجئين ومعظم أراضى سكان القطاع الاصليين .

وبعد ، فإن قطاع غزة ليس إلا صورة مصغرة لما ساء فلسطين كلها ، هذا القطر الذى لم يكن يحكم ظروفه الطبيعية إلا على قدر أهله ، والذى حاولت أبواق الدعاية الصهيونية منذ وقت بعيد أن توهم الناس بأنه قطر عامر بامكانيات لا يتقصه إلا العناصر « المتقدمة » لتخلق فيه المعجزات الاقتصادية . وسوف يلمح من يزور قطاع غزة وراء خط الهدنة عدداً من المستعمرات اليهودية التى تبرزها الدعاية الصهيونية فيما تبرز كعنوان لهذا النوع من « المعجزات » . وقد يخالفه شئ من الشعور بالإعجاب بهذه المستعمرات الأنيقة التى تقوم في مثل هذه البيئة غير المواتية خاصة إذا علم أن اليهود قد أنشأوا نحو ٤٠٠ مستعمرة جديدة في مختلف أنحاء فلسطين المحتلة منذ صنعت دولتهم الزعومة . ولكن هذا الشعور لا يلبث أن يزول إذا علم أنه رغم كل هذا العدد الكبير من المستعمرات - التى شيدت بأموال أنت من الخارج على كل حال - ورغم أحدث الآلات المستخدمة في زراعة أراضيها ورغم استمرار تدفق الأموال من الخارج ، فإن الانتاج الزراعى في فلسطين المحتلة بوجه عام أقرب للمعجز منه للعاجز . وحتى بالنسبة للفواحم لم يصل الإنتاج حتى الآن إلى رقم عام ١٩٢٨ / ١٩٢٩ حين لم يكن هناك شئ اسمه اسرائيل . وكانت النتيجة خلق اقتصاد

زراعي مصطاح يتقنه التوازن ، ويعتمد على رأس مال مستورد ووقود مستورد و قلع غير مستوردة ، دون أن يؤدي هذا الاقتصاد - كما لاحظ أحد الخبراء الأمريكيين - إلى زيادة في إنتاج السلع الأساسية ولا في مقدرة البلاد على التصدير . ولذلك ارتباطه بالظروف الجغرافية لفلسطين والتي لا تسمح بمثل هذا الترف في استخدام الآلات ، كما أن له ارتباطه بعجز اليهود - بحكم مزاجهم الطفلي - عن ممارسة الأعمال المنتجة في العرف الاقتصادي ، والزراعية بوجه خاص . ولم يعد خافياً على أحد اليوم أن اليهود الذين هرعوا إلى فلسطين بعد كارثة ١٩٤٨ يدفعون إلى الريف دفءاً ، وأن حكومتهم تتخذ في هذا السيل و-ائل مختلفة كان آخرها العمل بسياسة « من السفينة إلى الأرض » التي أصبح الوافدون الجدد ينقلون بمقتضاها إلى الريف بعد دخولهم اسرائيل مباشرة ، أي دون أن تاح لهم فرصة البناء في أي مدينة ولو لفترة قصيرة حتى لا يتشبثوا كمن سبقهم بالحياة فيها ويرفضون الانجاء إلى الأرض ، الأرض التي طردوا منها أهلها نزلاء معسكرات اللاجئين في الوقت الحاضر (١) .

ولما قد أصبح واضحاً بعد هذا الاستطراء القصير أن هذه المستعمرات الصهيونية الكثيرة في الأرض المجاورة لقطاع غزة والتي لا تختلف من حيث تربتها ، أو مناخها ، أو كمية المياه الجوفية بها ، اختلافاً يذكر عن ظروف النطاق الداخلي من هذا القطاع لا تستند على أسس اقتصادية ، وأن الأهداف العسكرية والسياسية ، لا الأهداف العمرانية ، هي الاعتبار الأول الذي تقوم هذه المستعمرات على أسسه ، والواقع أن الصيويين وضعوا هذه الأهداف نصب أعينهم منذ أخذوا اجراء من عام ١٩٤٠ على الأقل ، يقومون بدراسة التربة ويعفرون الآبار وينشئون حقول التجارب الزراعية في جهات مثل مناطق خان يونس ، ودير السبع ، وعسلوج ، ومناطق أخرى في القب . وقبل كارثة فلسطين بعام واحد نشرت إحدى المجلات الجغرافية الأمريكية (٢) خطاباً لأحد المشرفين على هذا المشروع يعترف فيه بأن أحد الأهداف الرئيسية من إنشاء المستعمرات في هذا الجزء من فلسطين ، وفي أجزاء من الجليل الأعلى أيضاً ، هو إثبات « حقهم » في هذه الأجزاء إذا أخذ بمبدأ التقسيم !

(١) انظر في تفصيل هذا الموضوع يوسف ابو الحجاج المصدر رقم ٩

(٢) Geog Review ، يوليو ١٩٤٧ ص ٥٩

إن حل المشكلة الاقتصادية الخطيرة لقطاع غزة لا يأتس في تنفيذ أى مشروع من صنف هذه المشروعات البراقة التى طالما نشر دعاة الصهيونية بما ستأخذه من معجزات بقصد تضليل الرأى العام العالمى والتهميد لمؤامرتهم الاجرامية .

فالحل الوحيد هو ألا يكون هناك شىء اسمه قطاع غزة ، وأن تعود فلسطين كلها لأهلها ، وهم وحدهم القادرون حقاً على خلق المعجزات الاقتصادية في ظل نهضة العرب الجديدة واتجاههم المحترم نحو الوحدة الشاملة لوطنهم الكبير الذى يملك من عناصر التكامل الاقتصادى ما يتيح لأهله أن يجمع الوسائل لحل مشكلات يبتئهم واستغلال إمكانياتها الوفيرة ، لحيرهم وخير الإنسانية جمعاء .

مصادر البحث

- (1) Baster, J.: "Economic Problems in the Gaza Strip", Mid. East Jour, Summer 1955, pp. 323-7.
- (2) Birot, P. et Dresch, J.: La Méditerranée Orientale et le Moyen Orient Arabe, Paris, 1956.
- (3) Encyclopedias of Islam, under "Ghazza".
- (4) Etienne de Vaumas, Le Liban, Paris, 1954.
- (5) Fisher, W.B.: The Middle East, London, 1950.
- (6) Kallner, D.H. and Rosenan, E.: "The Geographical Regions of Palestine", Geog. Review, 1939.
- (7) Picard, L.: Structure and Evolution of Palestine, Jerusalem, 1943.
- (8) Stamp, D.: Asia, London, 1952.

(٩) يوسف ابو الحجاج « الكيان الاقتصادى لاسرائيل » ، الجمعية الجغرافية المصرية - الموسم الثمى لسنة ١٩٥٧ ص ٣ - ٥٠

أبو نصر الفارابي

(٢٥٩ - ٣٣٩ هـ) = (٨٧٠ - ٩٥٠ م)

للدكتور ابراهيم بيومي مذكور

مؤسس مدرسة ، وواضع دعائم مذهب . أخلص لتفكيره ، فلما به عن مستوى الأحداث السياسية والاجتماعية ، وعاش عيشة التأمل والنظر في جو مليء بالقلق والاضطراب . ألف وكتب ، وتلفذه أنلس مباشرة أو عن طريق كتبه ورسائله . وامتد أثره إلى الاجيال التالية ، وكان حجة من حجج الفكر الانساني في الشرق والغرب . قامت حوله دراسات مختلفة منذ آخريات القرن الماضي ، نحاول أن نترجم له ، وأن نجمع ما تفرق من مؤلفاته . وأن نوضح ما غص من فلسفته . واحتفلت تركيا سنة ١٩٥٠ بمرور ألف سنة على وفاته ، وأتاحت الفرصة للكشف عن بعض خلفاته ، وأثارت طاقة من المشاكل التي تصل به . ولا نستطيع أن نجزم بأنها حلت جميعها ، ومن يلزم إن كان نمة سبيل إلى حلها ، اللهم إلا إن زادت مصادرها واستكملت معلوماتنا . ولا تزال المكتبات العامة والخاصة في الشرق تحتزن طاقة من مخطوطات التراث الاسلامي ، ولا يكشف عنها إلا بقدر ، وكل ما نرجو أن نخرج كلها إلى عالم النور .

وقد سبق لنا أن وقفنا على الفارابي بحثنا مستفيضا منذ ربع قرن تقريبا ^(١) . وسنحاول هنا أن نعرض في اختصار لحياته ، ومؤلفاته ، وفلسفته ، مشيرين خاصة إلى ما يتورها من حلقات مفقودة ، وما أثير حولها من شبه واعتراضات .

حياته :

لم يترجم لنفسه كما صنع بعض مفكري الاسلام ، ولم يحاول أحد تلايذه أن يترجم به كما صنع الجوزجاني مع أستاذه ابن سينا . ولا نجد عنه لدى أصحاب التراجم ما يقع الغلة

Madlour, La Place d'Al-Fārābī dans l'École Philosophique Musulmane, (1)
Paris 1934.

ويبقى بالحاجة ، ومن بينه ما يثير الشك كالذى ورد فى الترجمة الطويلة نوعا التى وضعها صاحب « وفيات الاعيان » (١) . ولا تزال فى حياة الفارابى تقط غامضة وأمور ، تثار اختلاف .

وتتقدم هذه الحياة إلى مرحلتين واضحتين : تتحد أولاهما إلى نحو الخمسين من عمره ، ولا نكاد نعرف عنها شيئا يذكر ، اللهم إلا أنه ولد بوسيج من أعمال فاراب ، إحدى ولايات ما وراء النهر ، فى منتصف القرن الثالث للهجرة (٢٥٩ هـ = ٨٧٠ م) . ونكاد نجزم اليوم أنه من أصل تركى ، وإن كانت معلوماتنا عن أسرته ونشأته ناقصة . يقال إن أباه كان من قواد الجيش ، وإنه هو نفسه اشتغل بالقضاء زمنا فى ولايته (٢) . وبما لا شك فيه أنه قامت فى فاراب حركة فكرية نشطة واسعة ، على أثر امتداد الاسلام إليها فى أوائل القرن الثالث الهجرى . وبما يشهد لذلك ظهور أعلام آخرين بها معاصرين للفارابى ، أمثال الجوهرى اللغوى المشهور صاحب « المصباح » .

استطاع الفارابى أن يهبل من حياض هذه الحركة ، وكانت ثقافته فى أسامها دينية لنوية ، فأقبل على العلوم الاسلامية من فقه وحديث وتفسير ، وتعلم العربية إلى جانب التركية والفارسية ولا نظن أنه عرف لغة أخرى ، وما رواه ابن خلكان من إمامه بسبعين لسانا أقرب إلى الاسطورة منه إلى التاريخ الدقيق (٣) . وقد ثبت لنا أنه لم يعرف اليونانية من تحليله لكلمة السفطة (٤) . ولم يقنه أن يفيد من الدراسات العقابية المحيطة به من رياضة وفلسفة ، ولعله يتجه إليها إلا متأخرا . ولا يبدو — على عكس ما يقال (٥) — أنه عفى بالطلب عتابة خاصة . وحين أروع بالدراسات العقلية لم يتعج بما توفر لديه منها فى موطنه الاصلى ، بل شاء أن يهبل من حياض أوسع ، فلم يكن له بد من الرحلة والانتقال .

وهنا تبدأ المرحلة الثانية من حياته ، وهى مرحلة الشيخوخة والضحج الكامل . وكانت بغداد هذه الأول ، لما كان لها من منزلة ثقافية ممتازة طوال القرن الرابع للهجرة ،

- (١) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ١٢٧٥ هـ ، ج ٢ ، ص ١١٢ — ١١٤
 (٢) ابن أبى أصيبعة ، عيون الانباء فى طبقات الأطباء ، كنجسبرج ، ١٨٨٤ ، ص ١٣٤
 (٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان ، ص ١١٣
 (٤) الفارابى ، احصاء العلوم ، القاهرة ، ١٩٤٩ ، ص ٦٥
 ابراهيم مذكور ، تصدير السفطة من منطق الشفاء ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص ٥٠
 (٥) ابن أبى أصيبعة ، عيون الانباء ، ج ٢ ، ص ١٣٤

وفيا التي يباحثين مختلفين بين فلاسفة ومترجمين . ويظهر أن المنطق بوجه خاص اجتذبه إليه ، فكانت صلته وثيقة بكبار المناطقة البغداديين ، وفي مقدمتهم أبو بشر متى ابن يونس الذي كان يعد إمام المنطق في عصره . وقد صاحبه الفارابي زمناً ، ولم يلبث أن فاق عليه ، وسعى « العلم الثاني » لما اتبى إليه من منزلة منطقية مميزة . وتلذذ له منطق آخر مشهور هو مجي بن على .

وبعد عشرين سنة تقريباً من إقامته في بغداد ، انجبه نحو مركز ثقافي آخر في حلب ، حيث كان بلاط سيف الدولة بن حمدان الذي عد من أنجب وأرق اليئات العلمية في عصره . جمع أشهر الشعراء والأدباء والعلماء والفلاسفة ، ورغم أنه كان يقوم على نزعة عربية وانحطة ، فإنه لم يكن فيه للتصيرية أثر يذكر على بساط العلم والثقافة . فالتقى هناك الفارسي والترك والعربي ، وتناقشوا وتجادلوا ، وتخاصموا وتناحروا باسم الدراسة والبحث . وكان الفارابي في هذا البلاط عائناً وباحثاً أولاً ، فلم يقبل على زينة الملك وأهله ، بل تفرغ للبحث والدرس ، عاش عيشة المتصوف ، علم تلاميذه ووضع كتبه ورسائله عند مجتمع الماء ومشتبك الرياض .

وقد بقي في الشام إلى أن توفي سنة ٣٣٩ هـ (٩٥٠ م) ، وإن قام ببعض الرحلات القصيرة . وليس يبعد أن يكون قد ذهب إلى مصر في هذه الفترة الأخيرة من حياته ، ويؤكد ذلك ابن أبي أصيبعة ^(١) ، ومصر والشام مرتبطان من قديم ، ولم تخل الدولة الطولونية والإخشيدية من حركة فكرية جذيرة بالاغراء . ومهما يكن من أمر فإننا نعتقد أنه مات موتاً طبيعياً ، ولست بمد كل البعد ما ذهب إليه البيهقي من عدوان بعض اللصوص عليه في ثققلاته بين دمشق وعسقلان ^(٢) . ويبدو أنه وصل إلى منزلة مرموقة في بلاط سيف الدولة ، الذي حرص على أن يصل مع بعض خواصه على جثمانه تكريماً له .

مؤلفاته :

كتب الفارابي وألف كثيراً ، وإن لم تبلغ مؤلفاته في عددها ما بلغته مؤلفات بعض أقرانه ومعاصريه ، كالكندي والرازي الطيب . وتكاد تزيد على السبعين ، إن أخذنا برواية بعض أصحاب التراجم كالقفطي وابن أبي أصيبعة . ولكن يجدر بنا أن نلاحظ أولاً أن

(١) المصدر السابق ، ص ١٣٥

(٢) ظهير الدين البيهقي ، تاريخ حكماء الاسلام : دمشق ، ١٩٤٦ ، ص ٢٣-٢٤

في القوائم التي قدموها تكراراً ، فيذكر الكتاب الواحد تحت اسمين مختلفين أو أكثر ،
ونائباً أغلب هذه المؤلفات رسائل وبحرث مختصرة تقع في بعض ورقات .

ويمكن أن قسم إلى قسمين متعادلين تقريباً . منطقية وغير منطقية .

ويدور القسم الأول حول أجزاء « الأرجانون » تعليقاً أو تلخيصاً لكل جزء منها
أو مجموعها ، ولم يصلنا منها إلا القليل ، ولا يزال أغلبه مخطوطاً ، وقد نشر بعضه أخيراً ^(١)
وينصب القسم الثاني على أجزاء الفلسفة المختلفة من طبيعة ، ورياضة ، وميتافيزيقي ، وأخلاق ،
وسياسة . وقد وصلنا منه قدر لا بأس به ، وكفيل بأن يعطينا فكرة واضحة عن فلسفة
الفارابي في مختلف نواحيها . ومن بينه ما كمن موضع شك ، ككتاب « فصوص الحكم »
و « المفارقات » ^(٢) . وليس فيه ما ينصب على دراسات علمية بمنهاها الدقيق ، فلا ذكر
للطب عنده ، وحديثه عن الكيمياء دفاع عنها أكثر منه شرح وتحليل لها .

ونحن أميل إلى ما ذهب إليه ابن خلكان من أن الفارابي ألف معظم كتبه في بغداد
ودمشق ^(٣) ، ولا نرى إن كان ألف شيئاً في المرحلة الأولى من حياته ، وإن صح قبلها
انصب على دراسات عقلية أو عقلية ؟ إن كانت الأولى فلا ذكر لها مطلقاً لدى أصحاب
التراجم . وقد حاول بعض الباحثين أن يرتب كتبه ترتيباً زمنياً ^(٤) ، ولكننا نتساءل هل
لذلك جدوى إن كانت قد وضعت في الثلاثين سنة الأخيرة من حياته ، أي في مرحلة
النضج الكامل ؟ ومن الحق أننا لا نلاحظ تطوراً في تفكيره ولا في آرائه .

ويمتاز أسلوبه بالدقة والتركيز ، فهو يعنى بلفظه وعبارته ، يروى فيها كما يروى
في آرائه وأفكاره ، وفي جهل مختصرة يحاول أن يؤدي أغزر المعاني وأكثرها . وفي هذا
ما يفسر لنا كيف وضع ماكس هورن كتاباً ضخماً يشرح فيه تلك الرسالة التي امتد
إليها الشك ، وهي « فصوص الحكم » ^(٥) ، فهو ذو أسلوب خاص ، لا يكاد يخطئ فيه
من أنه ، يمت التكرار والترادف ، ويؤثر الإيجاز والاختصار . ويظهر أنه كان من أنصار

Dr. Muhahat Türker, Fârâbî'nin, Ankara. 1958. (١)

Georr, Fârâbî est-il l'auteur des "Fusus al Hikam"?, R E, 1911—1916, 31— (٢)

39; Ardin Sayili, Beiletzen, 1951.

١١٢ ، ابن خلكان ، وفیات الاعیان ، ج ٢ ص ١١٢

Ardin Sayili, op. cit. (٤)

M. Horten, Das Buch der Ringsteine Fârâbî., Münster, 1906. (٥)

التعاليم السرية ، يرى مع شيشرون أن الفلسفة لا يصح أن توضع في متناول العامة والدعاة^(١) ، وعلى مؤلفها أن يحولها من الإغلاق والتنمية والتعقيد^(٢) ، إلى توافيق اليوم عنها في فهم بعض جملة القصيرة ومعانيه المضمرة .

ويكاد يلتقي منهجه مع أسلوبه ، فهو يجمع ويعمم ، ويرتب ويؤلف ويحلل ليتركب ، ويقسم ويفرق ليتركز ويعتصم . ويبدو في بعض رسائله وكأن لا هدف له في التقسيم والتبويب ، فرسالة « ما ينبغي أن يقدم قبل تعلم الفلسفة » أشبه ما يكون بفهرس يرض فيه المدارس الفلسفية اليونانية ميثا مصدر تسميتها وأسماء رؤسائها ، ويقف خاصة عند كتب أرسطو وأغراضها وأسلوبها^(٣) . وكتاب « إحصاء العلوم » ليس إلا محاولة لتصنيف العلوم ، وتعد الأولى في بابها في تاريخ الفكر الاسلامي^(٤) . وما التصنيف ضرب من جمع المعارف وتكوين المعاني ، وبعبارة أخرى نوع من التركيب .

وهو شغوف بالمقابلات ، فالفني يستدعي الإثبات ، والوجود يقابل العدم ، ولا تكاد تخطر له فكرة إلا ويذكر مقابلها ، وما أشبه في هذا بأفلاطون بين اليونان وبسكال بين المحدثين . وله « رسالة في جواب مسائل مثل عنها » يحولها هذا النحو بوضوح ، فتجد فيها باطراد المسألة وتقيضها تعارضان وتقابلان بنية الوصول إلى حل كامل ، ولم تذكرنا بمحاورة « بارمنيدس » .

والهم عنده أن يشرح أساس النظرية ودعامة المذهب ، وأن يجلي الأمور الغامضة ، ويجمع المسائل المختلف فيها ليدلي فيها برأيه . وأما الموضوعات فلا تستوقفه ، وما يفترسه معروفا يشير إليه دون أن يطيل في شرحه . ومن خير الأمثلة على ذلك رسالته « في أغراض الحكم في كل مقالة من الكتاب الموسوم بالحروف »^(٥) . وما أقربها من بحثنا أن تقدم بها كتابا جديدا أو نقده ، ويمكننا أن نقارن بينها وبين مقال لفيلسوف معاصر في نفس

(١) Cicero, De univ., 2, 6.

(٢) الفارابي . الجمع بين رأيي الحكيمين . لندن ١٨٩٥ . ص ٤ - ٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٤٩ - ٥٥ .

(٤) مساعد الأندلسي ، طبقات الأمم : بيروت ١٩١٢ ، ص ٥٢ .

(٥) الفارابي ، المصدر السابق ، ص ٢٤ - ٢٨ .

الموضوع ^(١) . لهذا لم يكن غريباً أن يجد فيه ابن سينا مفتاحاً لكتاب « ما بعد الطبيعة » لأرسطو ^(٢) .

وقد انتشرت مؤلفات الفارابي في الشرق في القرنين الرابع والخامس الهجري ، وانتقلت إلى الغرب حيث تلمذ له من تلمذ من الأندلسيين ^(٣) . وترجم بعضها قديماً إلى العبرية واللاتينية ، فامتد أثرها إلى الاسكولائية البوذية والمسيحية ^(٤) ، وأخذ في نشرها منذ أواخريات القرن الماضي ، وترجم قسط منها إلى بعض اللغات الأوربية الحديثة . ولكنها لا تزال في حاجة ماسة إلى إحياء ونشر دقيق كامل ، لأسباب ومكتبات استامبول أضحت في متناولنا أدير من ذي قبل ، وفي وسعنا أن نندارك من طريقها بعض النقص .

فلسفته :

للفارابي فلسفة واضحة المعالم محدودة الأهداف ، أخذ فيها من غيره ، ثم صورها بصورة جعلها تلائم ظروفه والبيئة التي عاش فيها . وربط أجزاءها بعضها ببعض ربطاً وثيقاً ، بحيث أضحت من أكثر الفلسفات تناسقاً وانسجاماً . والفارابي منطقي في كل شيء : في تفكيره وتعبيره ، في جدله ومناقضته ، في عرضه واستدلاله . وقد تقوم فلسفته على بعض المبادئ الحافظة ، وقد يقول بآراء أثبت العلم بطلانها ، ولكنه قد رها أن يحيا طويلاً ، وأن تمتد إلى مدارس مختلفة ، وفيها ما يبدو حديثاً على قدم العهده . وسنين في اختصار مداتها وعناصرها الرئيسية ، مشيرين أولاً إلى دراسات الفارابي المنطقية .

١ - منطقته :

ذكرنا من قبل أنه عني بالمنطق عناية كبيرة ، وكتب فيه كثيراً ، إلا أنه لا يكاد يخرج عن منطق « الأرجانون » على النحو الذي وصل به إلى العالم العربي . فهو يرى أن « صناعة المنطق تعطى بالجملة القوانين التي شأنها أن تقوم العقل ، وتسدد الانسان نحو

(١) Brehier, Aristotle's Metaphysics by W. D. Ross, compte rendu bibliographique

dans revue des Etudes Grègues, Paris, 1926, t. 39, p. 293 and suivantes.

(٢) القفطي ، تاريخ الحكماء ، لبيزج ، ١٩٠٢ ، ص ١٦٦

(٣) بالنشأ ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ص ٢٢٢ وما بعدها .

(٤) De Menassee, Arabische Philosophie, Bern, 1948, p. 27-28.

طريق الصواب ونحو الحق في كل ما يمكن أن يفكر فيه (١) . وبشبهها بصناعة النحو والعروض ، في أنها من المقولات كالنحو من : «تفاظ والعروض من الأوزان» (٢) . ويرى جانب المنطق العمل التطبيقي ، ملاحظاً أن : «إنه آلات تختص بها المقولات ، كما تختص الأبعاد والأحجام والاتقال بالمقاييس والكاييل والموازن» (٣) . والمنطق يعيننا على تبيين الحقيقة فيما نلتزم تصحيحه عند أنفسنا ، أو عند غيرنا ، أو ما يلتزم غيرنا تصحيحه عندنا ، فيرسم لنا الطريق الذي ينبغي أن نسلك ، ونف ندأ ، وكيف ننتهي إلى أن نقضي لا محالة إلى ملئنا (٤) . ولا تقف الدربة في الاقتيل والمخاطبات الجدلية ، ولا الدربة في الهندسة والحساب عن قوانين المنطق ، كالألفاظ حفظ الشعر والحطب عن قوانين النحو (٥) . وليست صناعة المنطق - كما يقن - فضلاً لا يحتاج إليه ، لأن الفطرة لا تقف عنها بحال (٦) .

ويظهر أن الفارابي ، وقد شبه المنطق بالنحو غير مرة ، خشي أن يخلط بينها ، فحرص على أن يبين أن النحو ينصب على الألفاظ وحدها في حين أن المنطق ينصب على المعاني ، وصلته بالألفاظ إنما ترجع فقط إلى أنه نوالب لهذه المعاني . هذا إلى أن النحو يعرض لقوانين اللغة ، واللغات متعددة جمود الشوب والأجناس ، بينما يعرض المنطق للعقل الإنساني في كل مكان وزمان (٧) .

وموضوع المنطق هو مسائله التي تدرس فيها قوانين المقولات ، وتقسم إلى ثمانية أجزاء : المقولات أو «قاطيغورياس» والمبارة أو «باري ارميناس» والقياس أو «أنالوطيقا الأولى» ، والبرهان أو «أنالوطيقا الثانية» ، والحكمة المبرهنة أو «سوفسطيقا» ، والمخاطبة أو «ريطوريقا» ، والشعر أو «پونيكا» . والجزء الرابع أهمها وأشرفها ،

(١) الفارابي ، احصاء العلوم ، القاهرة . ١٩٤٩ ، ص ٥٣

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤

(٣) المصدر السابق .

(٤) المصدر السابق ، ص ٥٤ - ٥٥

(٥) المصدر السابق ، ص ٥٨ - ٥٩

(٦) المصدر السابق - ص ٥٩

(٧) المصدر السابق - ص ٦٠ - ٦٢

لأنه هدف المنطق الحقيقي ، وما قبله من أجزاء تمهيد له وتوطئة ، وما بعده تطبيق له أو تحوز من أمور يخشى أن تخطئ به ^(١١) .

ولسنا في حاجة أن نشير إلى أن الفارابي ينحو في كل هذا منحى أرسطو ، وإن كان يعد الخطابة والشعر من الكتب المنطقية ، وقد وقع في هذا بعض المشائين من قبل ، وخاصة في مدرسة الاسكندرية ^(١٢) . ومنهم من ضم « إيساغوجي » فرفوريوس إلى مؤلفات أرسطو ، واعتبره من « الأرجانون » ، وهذا ما لم يذهب إليه العالم الثاني . ولا شك أن « كتاب البرهان » عظيم الشأن في نظر أرسطو ، ولكن كشفه الذي كان يباهى به في « كتاب القياس » .

والجديد في منطق الفارابي أمران : أولهما أنه أخذ نفسه بتعريب المنطق الأرسطي تعريفاً صادقاً ، وصوغه في قالب يلائم العالم العربي . وها هو ذا يصرح في مقدمة رسالة له نشرت أخيراً أنه سيعرض نظرية القياس كما أفادها من أرسطو ، متحزباً أن يعبر عنها بالفاظ مشهورة عند أهل اللسان العربي ، وأن يمثل لها بأشياء مشهورة عند أهل زمانه . لأنهم لا يفهمون عبارة أرسطو ، ولا أمثله التي كانت مثار غموض أحياناً . ولا يخبر المنطق الأرسطي في شيء أن يعرب ، ولا قوانينه أن توضح بأمثلة غير تلك التي ارتأها فيلسوف اليونان ^(١٣) .

ومن جهة أخرى يضع الفارابي دعائم القصة الخماسية للاستدلال ، مبيناً أنه برهاني إن أوقع في النفس اليقين ، وجدلى إن أوقع فيها شبه اليقين عن حسن قصد ، وسوفطائي إن أوقعه عن سوء قصد وتضليل ، وخطابي إن أوقع في النفس ظناً غالباً ، وشعري إن أوقع فيها تحيلاً تتقيض له أو تنبسط ^(١٤) . وتستخدم هذه الأنواع على حسب الحاجة ومستوى المخاطبين ، فالفلاسفة والعلماء إنما يعتمدون على الاستدلال البرهاني ، ورجال الفرق يكفون بالاقضية الجدلية ، والساسة يلجأون إلى الانيسة الخطابية . وإذا كان لا بد أن

(١١) المصدر السابق ، ص ٥٤ - ٥٥

(١٢) Madkour, l'Organon d'Aristote dans le monde Arabe, Paris, 1934, p.12-14

(١٣) الفارابي : كتاب القياس الصغير نشر

Dr. Mubahat Türker, Fârâbî'nin bazı Mantık, Ankara 1958, p. 214-215.

(١٤) الفارابي ، احصاء العلوم ، ص ٦٤ - ٦٩

نخاطب الناس على قدر عقولهم ، فمن الحق أن نستعمل الآنية البرهانية مع العامة والذمء (١) .

٢ - وحدة الفلسفة :

يرى الفارابي أن الفلسفة واحدة ، وأنه لا بد لكبار الفلاسفة أن يفتونا بما بينهم ، لأن الحقيقة هدفهم جميعاً . وأفلاطون وأرسطو هما مبدعا الفلسفة ، ومنشأ أوائلها وأصولها ، ومنها أواخرها وفروعها ، وعليها المعول في قلبها وكثيرها ، وإليها المرجع في سيرها وخطيرها (٢) . « متفقان فيما بينهما ، وما يدور عليهما من خلاف ليس إلا ظاهراً وصورياً ، وإن ليس ثمة ماثية ولا أفلاطونية ، ولا روائية ولا أيقورية ، بل مدرسة فلسفية واحدة هي مدرسة الحقيقة . والحزبية ضارة في الفلسفة ضررها في السياسة ، ويدرك الفارابي الفيلسوف والتورخ هذا الخطر ، ويلاحظ أن متعصبى التلاميذ والانباع هم الذين باعدوا المسافة بين كبار الفلاسفة ، إذ لا هم لهم إلا البحث عن أوجه الخلاف والنظريات المتعابلة عرفين لها ومبدلين (٣) . وكانا في هذا نستع إلى أحد فلاسفة القرن الثامن عشر يعنى على رجال عصر الإبهة خصوصاًهم المذهبية .

ليس القول بالجمع بين الفلاسفة جديداً ، فقد كان نزعة سائدة في المدارس اليونانية المتأخرة ، وفي مدرسة الاسكندرية خاصة . وفي حديث فوفوريوس عن أستاذه أفلوطين ، يلاحظ أنه وجد في مؤلفاته آراء الرواقين والمثائين مختلطة بعضها ببعض (٤) . وقد وضع هو نفسه عدة مؤلفات للتوفيق بين أفلاطون وأرسطو (٥) ، وجاراه في ذلك عدد غير قليل من رجال مدرسة الاسكندرية (٦) . إلا أن واحداً من هؤلاء لم يذهب بالجمع والتوفيق مذهب الفارابي ، فقالوا بوحدة المذاهب الفلسفية المختلفة . وهذا خطأ ولا شك وقع فيه الفارابي ، ودافع عنه كثيراً ، وعقد أكثر من بحث لإثباته .

(١) الفارابي ، الجمع بين افلاطون وارسطو ، ص ٢٦ - ٢٧

(٢) المصدر السابق .

(٣) المصدر السابق ، ص ٣٢

(٤) Porphyre, Vie de Plotin, tr. Bichier (Coll. Budé) t. I, p. 15. (٤)

(٥) L'aveit, L'equise d'histoire générale et compare ... Paris 1907 p. 15. (٥)

(٦) Ravaison, Essai sur la Metaphysique d'Aristote, Paris, 1816, t. II, p. 510. (٦)

ومهما يكن من أمر هذا الخطأ فإنه دعامة كبرى تقوم عليها الفلسفة الإسلامية ، ذلك أنها فلسفة توفيقية : توفق بين أفلاطون وأرسطو ، كما توفق بين الدين والفلسفة ، والحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية متفقان موضوعاً وإن اختلفتا شكلاً . وفي هذا ما يجمع خصائصها ويميزها الرئيسية ، فهي فلسفة مشائية امتزجت بعناصر أفلاطونية وأفلاطونية ، وهذه العناصر نفسها هي التي مكنتها من التلاقى مع تعاليم الاسلام . ولا نزاع في أن الفارابي هو أول من أظهر هذا البناء الجديد في صورة واضحة ، وسار على نهجه من جاءوا بعده ، فإذا كان ابن سينا قد عفى إيراد جانبه الأفلاطوني فإن ابن رشد قد شغل بيان ما بين الحكمة والثريعة من الاتصال .

ويلور توفيق الفارابي حول قطعتين أساسيتين : تقيح المشائية وصبغها بصبغة أفلاطونية بحيث تكون أقرب إلى تعاليم الاسلام ، وتفسير الحقائق الدينية تفسيراً عقلياً ، فهو ينحو بالفلسفة نحو دينياً ، ويفلسف الدين ، ويسير بهما في اتجاهين متقابلين رغبة في أن يلتقيا ويتآخيا . وينصب التقيح الذي رى إليه على نظريتين : إحداهما تسمولوجية والأخرى سيكولوجية ، ونفى بهما نظرية العقول العشرة ونظرية العقل . ويقوم تفسيره العقلي على نظريتين أخريين : إحداهما في النبوة ، والثانية في التأويل . وبمجموع هذه النظريات الأربع يلخص فلسفة الفارابي ، وهي مرتبطة بعضها ببعض ، وتهدف إلى غرض واحد .

٢ - نظرية العقول العشرة :

جزء هام من أجزاء الفلسفة الإسلامية ، توضح عالم السماء والأرض ، وتفسر ظواهر الحركة والتغير ، فهي دعامة الفلك والطبيعة . ويراد بها خاصة حل مشكلة الواحد والمتعدد ، وبيان وجه الصلة بين المتغير واللا متغير . والواحد في نظر الفارابي هو الواجب الوجود بذاته ، فلا يحتاج إلى غيره لا في وجوده ولا في بقائه . وهو عقل يعقل ذاته ، فهو عاقل ومعقول معاً . وهو مبين بجموده لكل ما سواه ، فلا شبه له ولا مثيل ، ولا ضد له ولا ند ، ووحدانيته مبرأة من كل معاني الشرك والتعدد ^(١) .

وإذا كان كذلك ، فما أثره في الكون ؟ وما الصلة بينه وبين المتمد ؟ هذا ما أجهد الفارابي نفسه في توضيحه ، ولم يجد سبيلاً إلى حله إلا عن طريق ضرب من التقيح

(١) الفارابي : في مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة ، لندن ١٨٩٥ ، ص ١٠٥ .

والصدور . وفي رأيه أن الواحد لا يهبط عنه إلا واحد ، وقد صرح عن واجب الوجود من ناحية أنه عالم بذاته وأنه مبدأ الخير والنظام موجود هو العقل الأول . فالعالم يساوى الخلق ، ويكفى أن يعلم الشيء ليوجد . والعقل الأول ممكن الوجود في ذاته واجبه بغيره ، ويعقل الواحد كما يعقل نفسه ، فهو واحد في ذاته ومتعدد بهذه الاعتبارات . وهذا يخضع الفارابي الخطوة الأولى نحو التعدد ، فمن العقل الأول من ناحية أنه واجب الوجود بغيره وأنه يعقل الواحد صرح عنه عقل ثان ، ومن ناحية أنه ممكن الوجود في ذاته وأنه يعقل نفسه صرح عنه الفلك الأعلى بمادته وصورته ، ذلك لأن لكل فلك صورة خاصة به هي نفسه . وعلى هذا النحو تسير السلسلة إلى أن تكتمل العقول العشرة والأفلاك والنفوس الفلكية . والعقل العاشر والآخر — أو العقل الفعال — هو الذي يحكم عالم الأرض ، وعنه تصدر النفوس البشرية والأركان الأربعة ^(١) .

وهذه العقول والنفوس متفاوتة الرتبة ، وأولها أسيماها ، ونجى النفوس الفلكية بعد العقول ، وتليها الأفلاك ، وأخيراً الأرض وعالم السادة في المرتبة الرابعة ^(٢) .
وقدما قال الاغريق بقدمية كل ما هو سماوى ، ودنس كل ما هو أرضى . وتعاليم الإسلام صريحة في أن البهاء بقلة الدعاء ، ومصدر الوحي ، وهدف المعراج ، وكل ما فيها طاهر ومطهر . فالفارابي في هذا يلتقي مع التعاليم الدينية والفلسفية ، إلا أن صعبه أنه استخرج عالم الأرض الدنس من عالم السموات المقدس .

والعقول عشرة تبعاً لعدد الكواكب والأفلاك ، ذلك لأن الفارابي يردد النظريات التي قال بها فلكيو اليونان ، وخاصة بطليموس . وتلخص في أن القسوس مكون من تسعة أفلاك يحيط بعضها ببعض ، وتحرك كلها حركة أزيية دائرية حول الأرض . ومصدر هذه الحركة العقول والنفوس ، ولكل فلك عقل ونفس يختص به ، والعقل العاشر يدبر شئون العالم الأرضى . والنفس هي المحرك المباشر للفلك وإن كانت تستند قوتها من العقل ، فهي تتحرك وتحرك نكها باشتياقها إلى العقل وسعياً وراء الكمال ، فتوقها مبعث حركتها . والعقول بدورها في شوق مستمر ، يشتاق أدناها إلى ما هو أسمى منه ، وتستأنق جميعاً إلى الواحد الذى يعد المحرك الأول وإن كان لا يحرك ^(٣) .

١ - المصدر السابق . ص ٥٨ - ٥٩

٢ - المصدر السابق ص ٢٠ - ٢٢

٣ - المصدر السابق ص ٢٥ - ٢٧

وبذا تتم الحركة الفلكية بضرب من الجذب الروحي ، فيجذب الأدنى دائماً نحو الأعلى . وهذه ديناميكية روحية شديدة ديناميكية لينتز ، وإن قامت على قوى روحية غير متعادلة . وكأما الفارابي الموسيقى يحاول أن يحقق في عالم الأفلاك ناسقاً مماثلاً لتناسق الأصوات واخبر . بيد أن فلكه لا يقوى على النقد ، فإن كشف كوبرنيق قضى على كل النظريات الفلكية القديمة .

ومها يمكن من أمر فإن آراء الفارابي الطبيعية تربط ارتباطاً وثيقاً بنظرياته الفلكية ، فمن العقل العاشر صدرت المسألة الأولى أو الهولوى التي هي دعامة الآكان الأربعة ، وعنه أيضاً تصدر الصور المختلفة التي تتكون الأجسام منها ومن الهولوى . وما العالم الأرضى إلا مجموعة أشكال مختلفة من تلاقى الصورة بالمادة وانفصالها عنها . فالكون ثمرة اتصال الصورة بالهولوى ، والفساد نتيجة انفصالها . وتحدث الشمس بحركتها الحرارة والبرودة الضروريتين للتغير ، والعقول المفارقة جميعها توفر من الحركات ما يلائم العالم الأرضى . وبذا تخطط الطبيعة بالتسولوجيا ، ويخضع عالم الأرض لعالم السماء (١١) .

ومع هذا ينكر الفارابي التبعيم الذى كان شائعاً في عصره ، والذي قال به الرواقيون ورجال مدرسة الاسكندرية من قبله . ينكره وإن كان لا ينكر قانون السبية وارتباط الأسباب بمسبباتها ، ذلك لأن الأسباب مباشرة وغير مباشرة ، وإذا كان من اليسير الكشف عن الأولى فإنه كثيراً ما عز الوقوف على الثانية ، ومن هنا تجيء الصدفة والاتفاق . ولا سبيل إلى ضبط الأمور الاتفاقية ، فأنى لمجم أن يربط بين موت أمير وخسوف أو كسوف ؟ وأنى له أن يعقد صلة بين قيام حرب وظهور كوكب ما ؟ والأمور الاتفاقية ضرورية على كل حال في السياسات والترغيات ، لأنها تبعث على الحرف والرجاء ، وتعزز على الطاعة والعمل (١٢) .

وهكذا يحل الفارابي مشكلة الحركة والتغير عن طريق نظرية العقول العشرة . وبواسطتها يحاول أيضاً أن يحل مشكلة الصلة بين الواحد والمتعدد ، ويوفق بين هولوى أرسطو القديمة والخلق الذى قال به الاسلام . فالمادة قديمة قدم العقول العشرة ، ومخلوقة

(١١) المصدر السابق : ص ٥٩

(١٢) الفارابى ، فيما يصح ولا يصح من احكام النجوم ، ليدن ١٨٩٠ :

لأنها صدرت عن العقل الفعالي ، إلا أن هذا الخلق يكاد يكون صورياً بحيث لا يحتق ما رمى إليه القرآن !! ولكي يصون التوحيد ، لجأ الفارابي إلى هذه العقول انفصلة بين الله وعالم الأرض المنفرد ، إلا أنه أسبغ عليها من الصفات ما يجعلها تختلط بالواحد !

في نظرية العقول العشرة عناصر يمكن ردها إلى أصولها المختلفة ، فجانبها انفلكي يشق كل الالتقاء مع ما ذهب إليه أرسطو في تفسير حركة الأفلاك ، وتولها بالصدور يرجع إلى أفلاطون ومدرسة الاسكندرية . ولكنها في مجموعها نظرية فارابية أملت أن تزع الفارابي التوفيقية ، ومنهج في الجمع والتركيب . فهو يوفق فيها بين أفلاطون وأرسطو من جانب وبين الدين والفلسفة من جانب آخر . وقد صادف نجاحاً لا بأس به لدى فلاسفة القرون الوسطى شرقاً وغرباً . بيد أن في التوفيق عادة ضرباً من التساهل من جانب ومن آخر ، وإذا رضى قوم غضب له آخرون ، وهكذا كان مصير هذه النظرية . فلدى المسلمين بمقتضاها ابن سينا مخلصاً ويعرضها عرضاً دقيقاً مفصلاً ، في حين يحمل عليها الغزالي حملة شعواء . وبين مفكرى اليهود لا يشير إليها ابن جبرول مطلقاً ، بينما يأخذ بها ابن ميمون في حماس . وبالرغم مما أثارته في الفلسفة المسيحية من نقد وملاحظة ، فإن بعض عناصرها كانت موضع التقدير والاعتبار .

٤ - نظرية العقل :

في علم النفس الأرسطى ضبط ودقة عرفا منذ القدم ، وفيه دراسة موضوعية استلقت الانظار . فصنف أرسطو وظائف النفس تصنيفاً لم يسبق إليه ، وأبرز وحدتها برغم تعدد قواها ، وبين الصلة بينها وبين الجسم . وعرض لنظرية العقل وإن لم يوضحها تماماً ، فأثار مشكلة شغلت الأذهان في التاريخ القديم والحديث . ولذا عد كتابه « في النفس » في مقدمة الكتب السيكولوجية القديمة ، وربما امتاز على بعض المؤلفات الحديثة . وكان له شأنه في القرون الوسطى ، وأحرز فيها منزلة لا تقل عن « الأرجانون » .

عرف هذا الكتاب في العالم العربي ، وترجم غير مرة من السريانية واليونانية ، وترجم معه بعض شروحه القديمة ، وخاصة شرح الاسكندر الأفروديسي وتامسطيوس وسيمبليقيوس^(١) . ودرسه فلاسفة الاسلام دراسة مستفيضة ، فعلقوا عليه بلورهم ولحصوله ،

(١) القفلى ، تاريخ الحكماء ، ص ٤١

ووضعوا في علم النفس بحوثاً ووسائل مختلفة ، تأثروا فيها بأرسطو وأخذوا عنه
وعنوا على الأخص بمشكلة العقل التي تعد في مقدمة مشاكل الفلسفة المدرسية .

فقد الفارابي هذه المشكلة حق قدرها ، ورأى فيها ما يأنص نظرية المعرفة بأسرها .
وربطها بأجزاء مذهبه ربطاً وثيقاً ، فهي متصلة بنظرية العقول العشرة ، وأساس لنظرية
النيرة . عالجها في غير موضع ، ووقف عليها رسالة عرفت جيداً في الشرق والغرب ،
ونعنى بها « مقالة في معاني العقل » التي ترجمت إلى اللاتينية في تاريخ مبكر .

وهو يقسم العقل أولاً إلى على يستنبط ما يجب فعله ، وعمل يتم به جوهر النفس .
ويقسم الأخير ثانياً إلى هيولاني (ὁλιικός) وبالمملكة (χασεῖν) ، ويستفاد
(ἐπιχρηστικός) (١١) .

والعقل الهيولاني ، أو العقل بالقوة كما يسميه أحيانا ، نفس أو جزء من نفس أو قوة
من قوى النفس أى شيء معد لأن يتزع ماهيات الموجودات ويدركها . فهو أشبه ما يكون
بمادة تتطبع عليها صور الموجودات ، كالشمع الذي ينقش عليه بحيث يصبح هو والقفرش
شيئاً واحداً . وهذا النفس ليس شيئاً آخر سوى المدركات والمقولات . فالعقول موجودة
إذن بالقوة في الأشياء المحسوسة ، وعند انتزاعه منها بواسطة الحواس يوجد في الذهن
بالفعل (١٢) . وفي هذا ما يوضح الإدراك والتجريد ، تلك العملية الذهنية الهامة التي تخرج
بالمقولات من عالم القوة إلى عالم الفعل . وبانتقال هذه المقولات إلى الذهن ، يتحول
العقل بدوره من عقل بالقوة إلى عقل بالفعل .

وإن العقل بالفعل ، أو بالمملكة في تسمية أخرى ، مرتبة من مراتب التدرج الذهني
يصل إليها الإنسان عند اكتساب طائفة من المقولات . وما دام الذهن لا يلم بالمقولات
كلها ، فهو عقل بالفعل بالنسبة لما أدركه ، وعقل بالقوة بالنسبة لما لم يدركه . والمقولات
نفسها موجودة بالقوة في الأشياء المحسوسة ، فإن انتزعت منها تحولت إلى مقولات بالفعل .
ومنى وصل الإنسان إلى مرتبة العقل بالفعل استطاع أن يدرك نفسه ، وهذا إدراك
لا صلة له بالعلم الخارجي ، بل هو إدراك ذهني مجرد (١٣) .

(١١) الفارابي ، عيون المسائل ، ص ٦٤

(١٢) الفارابي ، مقالة في معاني العقل ، ص ٤٢ - ٤٣

(١٣) المصدر السابق ، ص ٤٤

ومنى وصل العقل إلى إدراك الأشياء المجردة بما إلى مرتبة أخرى ، هي مرتبة العقل المستفاد . ويراد بها تلك المرتبة التي يصبح فيها العقل البشرى أهلاً لإدراك الصورة المجردة التي لا تخاطب المادة ولا تصل بها كالمقول المفارقة . ويختلف هذا الإدراك العقلي عن الإدراك الحسي ، من ناحية أنه ضرب من الحدس والإلهام ، أو بعبارة أخرى من الإدراك المباشر . وهذه المرتبة أسى مراتب الإدراك البشرى ، وليست في متناول الناس جميعاً ، وما تفاوتهم في معلوماتهم إلا لتفاوتهم في مراتب عقولهم . وقليلون منهم يصلون إلى مرتبة العقل المستفاد ، حيث يتكشف الحقي ، ويحصلون مباشرة بعالم العقول المفارقة ^(١) .

ففى وسع العقل أن يسير في تدرج صاعد ، من عقل بالقوة إلى عقل بالفعل ، ثم إلى عقل مستفاد . وتختلف كل مرتبة عن التي تليها وإن مهدت لها ، فبينما العقل بالقوة مجرد مستقبل للصور الحسية ، إذ بالعقل بالفعل يحتفظ بالمعقولات ويدرك المعاني الكلية ، ويسو العقل المستفاد إلى مرتبة الاتصال والفيض والإلهام . والمدركات ذات رتب متفاوتة ، فهى فى أساسها معقولات بالقوة موجودة فى الأشياء الحسية ، وإذا ما انتزعت منها عن المادة أصبحت معقولات بالفعل ، وفوق هذه الصور المجردة التي يمكن أن تكون تجردت فى المادة بحال ^(٢) .

غير أن هذا التدرج لا يتم وحده ، لأن نقطة البدء فيه معقولات وعقل بالقوة . ولا يمكن بحال الانتقال من القوة إلى الفعل إلا بمؤثر هو فعل بطبيعته ، وهذا المؤثر هو العقل الفعال آخر العقول العشرة . فالمعرفة الانسانية تتوقف على مدد من العقول المفارقة ، والعقل الفعال من العقل الانسانى بمثابة الشمس من العين . فهذه لا ترى إلا فى الضوء ووضع النهار ، وعقولنا لا تدرك إلا إن كشف العقل الفعال عنها الغطاء وأنار السبيل أمامها ^(٣) . وبذا يخطط الصوف بالفلسفة ، وتلاقى المعرفة العقلية مع الفيض والإلهام .

هذه هى نظرية العقل عند الفارابى ، وهى تحمل آثاراً أرسطية ، فيها على نحو ما تقدمنا تسميات وتعابير وتشبيهات مستمدة من أرسطو . ويصرح الفارابى بأنه عول فيها على

(١) المصدر السابق ، ص ٤٥ - ٤٦ فى مبادئ آراء أهل المدينة الفاضلة ،

ص ٥٢

(٢) المصدر السابق ، ص ٤٦

(٣) الفارابى ، فى المدينة الفاضلة ، ص ٤٤ - ٤٥

الجزء الثالث من « كتاب النفس »^(١) ، ولكنه أضاف إليها عناصر أخرى . فالعقل المستفاد على نحو ما صورته لا يتم لأرسطو بصلة ، ذلك لأنه يدنو كثيراً من العقول المتفارقة ، وهو همزة الوصل بين المعرفة الإنسانية والكشف الإلهي . وهو بهذا يختلف عن العقل المستفاد الذي قال به الإسكندر الأفروديسي والكندي ، وإنما هو وليد نزعة الفارابي الصوفية وميوله الأفلوطينية . ويزيد هذا وضوحاً ما للعقل الفعال من أثر في كسب المعرفة ، فهو أيضاً أثر كشف وإلهام ، يهب الذهن الصور المجردة ويضيء أمامه السبيل . وفي هذا ما يربط علم النفس بالتسولوجيا ، وينقص نشاط العقل الانساني ، فهو لا يكاد يدرك إلا أن أمده السام بأصواتها . إلا أن هذا النقص لا يضير المتصورة في شيء .

وكان لهذه النظرية أثر كبير في القرون الوسطى ، فأخذ بها ابن سينا وزادها قوة ووضوحاً ، وتأثر بها ابن رشد برغم تمسكه بأرسطو . وبين مفكرى اليهود يكاد ابن مبيون يرددتها حرفياً . وعند المسيحيين كانت في مقدمة المشاكل الفلسفية ، لأنها كانت تدور حول نظرية المعرفة وتصل كل الاتصال بخلود النفس . وقد نشأ عنها اتجاهات ومذاهب مختلفة فناصر آراء الفارابي وابن سينا أحياناً ، وتناقضها أحياناً أخرى . ويمكننا أن نقول في اختصار إن نظرية العقل أهم نظرية إسلامية أثرت في الفلسفة المسيحية .

٥ - نظرية النبوة :

يعتمد كل دين سامي على الوحي والإلهام ، وما النبي إلا بشر منح المقدرة على الاتصال بالله والتعبير عن إرادته . والإسلام ككل الديانات السامية الكبرى يستمد قوته من السماء ، « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى علمه شديد القوى » . وليس شيء أوزم لفيلسوف مسلم من أن يحتفظ في مذهبه بـ « كان للنبوة » ، فيوفق بين العقل والنقل ، بين لغة الأرض ولغة السماء . وهذا ما أخذ به الفارابي نفسه ، فقال بنظرية في النبوة تعد من أهم المحاولات في التوفيق بين الفلسفة والدين ، وتعتبر أسمى جزء في مذهبه . تقوم على دعائم من علم النفس وما وراء الطبيعة ، وتتصل اتصالاً وثيقاً بالسياسة والأخلاق .

ولقد عنى بالمتنوع وشئونهم عناية خاصة ، وكتب في السياسة أكثر من بحث ، وسي « صاحب المدينة الفاضلة » ، وربما كان في الظروف المحيطة به ما دفعه إلى ذلك .

(١) الفارابي : في معاني العقل ، ص ٤٢

وهو يرى أن المدينة كل مرتبط الأجزاء ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالجنى والسر . ولكل فرد عمل خاص تؤهله له كفايته ومواهبه ، والأعمال الاجتماعية متفاوتة بتفاوت غاياتها . وأشرفها ما اتصل بالرئيس ، لأنه من المدينة بمثابة القلب للجسد ، فهو مصدر الحياة ، ومبعث التماسق والنظام . ولا بد له من أن يكون سليم البنية جيد الفهم ، محبا للعلم ، نصيرا للعادلة ، وأن يسمو إلى درجة العقل الفعال الذي يستمد منه الوحي والإلهام (١) .

وكم نذكرنا هذه الصفات برئيس جمهورية أفلاطون ، وتزيد عليها الاتصال بالعالم العلوي ، وكأنا أمام مدينة سكانها قديسون ورئيسها نبي . والاتصال بالعقل الفعال ميسور من طريقين : طريق التأمل ، وطريق الإلهام . فبالدراسة والبحث ترق النفس — كما قدمنا — إلى درجة العقل المستفاد حيث تقبل الأنوار الإلهية ، ولا يسمو إلى ذلك إلا الأرواح القدسية ، أرواح الفلاسفة والحكماء التي تستطيع أن تخترق المحجب وتترك عالم النور ، والروح القدسية لا تشغلها جهة تحت عن جهة فوق ، ولا يستغرق الحس الظاهر حمها الباطن ، وقد يتعدى تأثيرها من بدنها إلى أجسام العالم وما فيه ، وتقبل المعلومات من الروح والملائكة بلا تعليم من الناس (٢) . « . بفضل الدراسات النظرية الطويلة يستطيع الحكمم الاتصال بالعقل الفعال .

وهذا الاتصال ممكن أيضا عن طريق الحجة ، على نحو ما يحدث للأنبياء ، فكل إلهاماتهم وما يعلمهم من وحى أتر من آثارها . والحيلة ذات شأن هام في علم النفس الفارابي ، فهي وثيقة الصلة بالميول والخواطف ، وذات دخل في الأعمال العقلية والحركات الإرادية . وتبكر قدراً من الصور الذهنية التي لانحياكي الأشياء الحسية ، وعنها تتجج الأحلام والرؤى ، وإذا ما فسرت الأحلام تفسيراً عليا ، تأمكن عن طريقها تفسير الوحي والإلهام . ذلك لأن الإلهامات النبوية إما أن تتم في النوم على صورة الرؤيا الصادقة ، أو في اليقظة على صورة الوحي . والفرق بين هاتين الصورتين نسبي ، والإلهام بينهما في الرتبة ، وما الرؤيا الصادقة إلا شعبة من شعب النبوة .

(١) الفارابي ، المدينة الفاضلة ، ص ٤٦ ، ٥٥ - ٦٠

(٢) الفارابي ، الثمرة المرصية ، ص ٧٥

ومتى تخلصت الخيلة من أعمال اليقظة ، تفرغت أثناء النوم لبعض الظواهر النفسية ، فتخلق صوراً جديدة ، أو تجمع صوراً ذهنية قديمة على أشكال مختلفة محاكية أو متأثرة ببعض الاحساسات والمشاعر الجسمية أو العواطف والمدركات العقلية . فأحوال النائم العسورية وإحساساته وعواطفه الكامنة ذات أثر في تكوين أحلامه ، فحلم بالماء أو السباحة مثلاً في لحظة يكون فيها مزاجنا رطباً . وكثيراً ما مثلت أحلامنا تحقيق رغبة أو الفرار من رهبة ، فيتحرك النائم تلبية لنداء عاطفة خاصة ، ويجاوز مرقده ويضرب شخصاً لا يعرفه أو يجري ورامه ^(١) . ولست في حاجة أن نشير إلى أن هذه الملاحظات على بساطتها تشبه التجارب العلمية التي قام بها فرويد وهرق وموري بين علماء النفس المحدثين .

وفي وسع الخيلة أن تشكل الصور الذهنية بشكل العالم الروحاني ، فيرى النائم السموات ومن فيها ، ويشعر بما فيها من بهجة ولذة . وقد تصعد الخيلة إلى العالم العلوي ، وتصل بالعقل الفعال ، فتقبل منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية والحوادث الفردية ، وهذا الاتصال يحدث ليلاً ونهاراً ، وبه تفسر النبوة ، فهو مصدر الرؤيا الصادقة والوحي . يقول الفارابي : إن القوة المتخيلة إذا كانت في إنسان قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها . . اتصلت بالعقل الفعال وانعكست عليها منه صور في نهاية الجمال والكمال . وقال الذي يرى ذلك إن لله عظمة جليلة عجيبية . . ولا يمتنع إذا بلغت قوة الإنسان المتخيلة نهاية الكمال أن يقبل في يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلية . . فيكون له بما قبله من المعقولات نبوة بالاشياء الإلهية . وهذا هو أكل المراتب التي تنتهي إليها القوة المتخيلة والتي يبلغها الإنسان هذه القوة ^(٢) .

فميزة التي الأولى أن تكون له خيلة قوية تمكنه من الاتصال بالعقل الفعال أثناء اليقظة وفي حال النوم ، وبها يصل إلى ما يصل إليه من كشف وإلهام ، وليس الروحي شيئاً آخر سوى قبض من الله عن طريق العقل الفعال . وهناك أشخاص قويو الخيلة ، وإن كانوا دون الأنبياء ، فيتحقق لهم ضرب أدنى من الكشف والإلهام ، وبذا يضع الفارابي الأولياء والواصلين في مرتبة أقل من مرتبة النبوة . أما العامة والدمهء فخيالهم ضعيفة لا تسو إلى اتصال بالعقل الفعال ، لا ليلاً ولا نهاراً ^(٣) .

١١٠ الفارابي . المدينة الفاضلة ، ص ٤٨ - ٤٦

(٢) المصدر السابق ، ص ٥١ - ٥٢

(٣) المصدر السابق ، ص ٥٢

ليست نزعة التوفيق وحدها هي التي دفعت الفارابي إلى القول بهذه النظرية ، فقد انتشرت في القرن الثالث والرابع الهجري موجة من انشك تكرر النبوة والأنبياء ، وردد أصحابها بعض الأدلة التي كان يقول بها منكرو النبوة من السنية وبراهمة الهند . وفي مقدمة هؤلاء الشكاك ابن الراوندي الخارج على المعتزلة ، ومحمد بن زكريا الطيب ، وكلاهما خصم قوى عفيف . ويستنكر الأخير خاصة محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين ، ويرى أن الفلسفة هي السبيل الوحيد لإصلاح الفرد والمجتمع ، وأن الأديان مبعث التافس والتطاحن ^(١) . وقد أثارت هذه الحملة الأوساط الإسلامية على اختلافها ، وحفزتها إلى الدفاع عن معتقداتها . وكان لا بد للفارابي أن يساهم في ذلك بنصيب ، فأقام النبوة على أساس عقلي وفسرها تفسيراً علمياً .

وعمل في تفسيره على نظرية الأحلام الأرسطية التي عرفت في العالم العربي ، وأخذ بها الكندي من قبل ^(٢) . وأساسها أن الحلم صورة ناتجة من الخيلة التي تعظم قوتها أثناء النوم على أثر تخلصها من أهوال اليقظة ^(٣) ، غير أن أرسطو يرفض أن تكون الرؤى وحياً من عند الله ، ولا يقبل مطلقاً التنبؤ بواسطة النوم ، وإلا أصبح في مقدور العامة والدمماء — وما أكثر أحلامهم — أن يدعوا التنبؤ بالنسب ^(٤) . وهنا يفتقر الفارابي عن أستاذه ، ويقرر أن الإنسان يستطيع بواسطة تخيلته الاتصال بالعقل الفعال ، إلا أن هذا مقصور على طائفة ممتازة وجمع مختار . والعقل الفعال مصدر الشرائع والإلهامات الباطنية ، وهو في رأيه أشبه ما يكون بالملك الموكل بالوحي الذي جاءت به تعاليم الإسلام . وفي وسع النبي أو الفيلسوف الاتصال بالعقل الفعال ، أولها عن طريق الخيلة ، والآخر عن طريق النظر والتأمل . ولا ضير في ذلك ، لأنهما يرتشفان معاً من معين واحد ، ويستمدان علمهما من مصدر رفيع . والحقيقة الدينية والحقيقة الفلسفية أثر من آثار الفيض الإلهي عن طريق التخيل أو التأمل .

وكان لنظرية النبوة الفارابية أثر واضح في الشرق والغرب ، بل وفي التاريخ المتوسط والحديث . فاعتقها ابن سينا في إخلاص ، وعرضها عرضاً يشبه تماماً ما قال به الفارابي .

(١) Kraus et Pines, Encyc. de l'Islam, II, p. 1136.

(٢) محمد عبد الهادي أبو ريده ، رسائل الكندي الفلسفية ، القاهرة . ١٩٥٠ ،

ص ٢٩٢ - ٣١١

(٣) Aristote, Traité des Rêves, I, 9-10.

(٤) Aristote, la Divination, I, 2-3.

وسلم بها ابن رشد مندهشا من ممارسة الغزالي لها ، لأنها تدعم التعاليم الدينية . وتبين أن الكمال الروحي لا يتم إلا باتصال العبد بربه ^(١) . وانتقلت إلى التفكير الفلسفي اليهودي ، فاستسك بها ابن ميمون ، وعنى بها عناية خاصة ^(٢) . ومما يلفت النظر أن اسبينوزا في « رسالته الدينية السياسية » يقول بنظرية شبيهة بها ، ولعله تأثر فيها بابن ميمون ^(٣) . وامتد هذا الصدى إلى بعض مفكرى الاسلام المعاصرين ، أمثال جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام .

٦ - التساويل :

في التعاليم الدينية سميات وأمر لا يتيسر إثباتها عن طريق العقل ، كالمعجزات واليوم الآخر بما فيه من حشر وشر وصراف وميزان وحساب وعقاب . والتسليم بها ركن من أركان الدين ، ولا يسع المؤمنين إلا أن يقبلوها اكتفاء بصديق ما صدرت عنه . وقد يحاول فريق أن يضمرها تفسيراً عقائياً ، فيلجأ إلى التأويل أو إخضاعها لبعض القوانين الطبيعية . وللمعتزلة في هذا شأن ملحوظ ، فقد ضربوا في التأويل بسهم وافر كي يردوا على المشبهة الذين يعززون إلى البريء صفات تتناقض مع الوحدة والنزاهة .

وللغرابي أيضاً محاولات نكتفي بمررد أمثلة منها . فهو يعلم بالمعجزات لأنها وسيلة إثبات النبوة ، ويرى أنها ، وإن كانت خارقة للعادة ، لا تنقض قوانين الطبيعة . ذلك لأن مصدر هذه القوانين عالم الأفلاك وما فيه من عقول تدبر عالم الأرض ، ومتى أمكن الاتصال بها حدث ما لا ألف لنا به ولا عهد . وفي النبي — كما قدمنا — قوة روحية تربطه بالمثل الفعال . ويستطيع عن طريق هذا الاتصال أن يسقط المطر صيفاً ، أو يشق القمر ، أو يحول عصا إلى ثعبان ، أو يرى الأكمة والأبرص ^(٤) . وبهذا يحاول الغرابي — على نحو ما صنع الرواقيون — أن يخضع للسبية أموراً تخرج عليها وتنفذها .

وفي القرآن إشارة إلى أمور سمعية مختلفة ، كاللوج والتملم ، ويرى الغرابي ألا تؤخذ على ظاهرها ، فليس القلم آلة يكتب بها ، ولا اللوح صحيفة يسجل عليها ، بل كل ذلك

(١) ابن رشد - تباغت التهافت ، ص ١٢٦

(٢) Maimonides, le Guide des Égarés, Paris 1856—66, t.I, p. 259—328.

(٣) Spinoza, Traité théologico-politique, Paris, 1872, p. 11—24

(٤) الغرابي ، النمرة المرضية ، ص ٧٢

رمز للضبط والتسجيل^(١) . وفيه أيضاً أحاديث مضيقية عن اليوم الآخر وما فيه من حساب وعقاب ، ولا يستطيع متدين أن ينكر ذلك وإلا هدم مبدأ الجزاء والمسئولية . وبإسم الفارابي كل التسليم بما في الآخرة من نعيم عقيم أو عذاب أليم ، ولكنه يردحها إلى أمور روحية لا صلة لها بالجسم وخواص المادة ، فالروح لا البدن هي التي تتم أو تنال ، وتسعد أو تشقى^(٢) .

ويتمشى هذا التفسير والتأويل مع نزعة الفارابي الروحية ، وقد أخذ بها ابن سينا وطبقه ما وسعه ، فالعرش والكرسى في نظره يرمزان لعالم الانفلاك ، والصلاة ليست مجرد حركات جسمية ، وإنما تهدف إلى التشبه بالعالم العلوي^(٣) . وكأنا شاه هذان الفيلسوفان أن يقبا ديناً فلسفياً وفلسفة دينية . إلا أن هذا لم يرض النزالي ، وحمل عليه حملة عنيفة مستسكا بحرفية النصوص ودلائلها اللفظية . ولم يرض أيضاً ابن رشد ، وإن كان من أزمان التوفيق بين الفلسفة والدين ، لأنه كان يرى سلامتهما في فصل أحدهما عن الآخر ، لا في مزجها مزجاً لا يقوى عليه المتدين العادي ، وقد بفضل في فهمه بعض الباحثين^(٤) .

وفي وسعنا أن نلاحظ الآن أن مذهب الفارابي منسجم كل الانسجام ، متماسق كل التماسق ، ترتبط أجزأؤه بعضها ببعض تمام الارتباط . فمن الواحد علة العال ، ينقل الفارابي إلى العقول العشرة التي صير عنها عالم السموات والأرض . وفلكه تسيده عقول مدبرة ، والطبيعة بما فيها من كون وفساد تخضع لهذه العقول ، وعلم النفس محكوم بواحد منها هو العقل الفعال . ولا تخرج السياسة ولا الأخلاق على ذلك ، فالسعادة التي ينشدها الإنسان ليست إلا اتصالاً بالعالم العلوي ، والمدينة الفاضلة إنما تهدف إلى هذه الغاية .

وهذا المذهب الروحي مثالي ، ذلك لأن الفارابي يكاد يرد كل شيء إلى الروح ، فإنه روح الأرواح ، وفلكه تدبره أرواح سامية ، ورئيس مدينته إنسان سميت روحه

(١) الفارابي : المدينة الفاضلة : ص ٦٧

(٢) المصدر السابق . ص ٧٧

(٣) ابن رشد . فصل المقال فيما بين الحكمة والسريعة من الاتصال : ص ٢٦

مناهج الأدلة : ص ١٢٠ - ١٢١

(٤) ابن سينا . تع وسائل في الحكمة والطبيعية . القاهرة ١٩٠٨ .

ص ١٢٨ - ١٢٩

على بدنه ، وهذه الروحية تؤمن الإيمان كله بالافكار والمعاني ، وما هي إلا ضرب من
الحماس البالى للنظر والتأمل . فالأول فكرة الإنكار وعقل يعقل نفسه ، والموجودات
الأخرى وليدة هذا العقل وذلك التفكير . ومن طريق النظر والتأمل يستطيع الانسان
أن يتصل بالعالم العلوى ويحظى بالسعادة القصوى . وليس ثمة روحية أوثق اتصالاً
بالمثالية من هذه .

ولئن كان مذهب الفارابى وليد القرون الوسطى ، فإنه يشتمل على آراء حديثة
بل ومعاصرة . فهو يناصر العلم ويدعو إلى التجربة ، ويستنكر العرافة والتنجيم . ويؤمن
الإيمان كله بالسببية والحنمية إلى حد أنه يقول بأسباب لما لم تعرف أسبابه الظاهرية .
ويقدر العقل تقدسياً يدفعه لأن يلائم بينه وبين النقل ، بحيث تأخى الحكمة والشريعة ،
ويسلم الحكماء من طغيان بعض العامة والذهماء .

مصادر (١)

(١) حياته :

- ١ - ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء . كنسبرج ١٨٨٤ ، جزءان ، الفارابي ج ٢ ، ص ١٢٤ - ١٤٠ .
- ٢ - ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، القاهرة ١٢٧٥ هـ ، جزءان (الفارابي ، ج ٢ ص ١١٢ - ١١٤) .
- ٣ - جمال الدين القفطى ، تاريخ الحكماء ، ليزنج ١٩٠٢ (الفارابي ، ٢٧٧ - ٢٨٠) .
- ٤ - زهير الدين البيهقي ، تاريخ حكماء الاسلام ، دمشق ١٩٤٦ ، (الفارابي ، ص ٣٠ - ٣٥) .
- ٥ - محمد ابن اسحق النديم ، الفهرست : ليزنج ١٨٨١ (الفارابي ، ص ٢٦٣) .
- ٦ - مصطفى عبد الرازق ، فيلسوف العرب والمعلم الثانى ، القاهرة ١٩٤٥ الفارابي ، ص ٥٥ - ٧٦) .

(ب) مؤلفاته :

1. Ayden Sayili, *Revue de la Société d'Histoire Turque*, Ankara 1951, t. XV, No 57.
2. Bouyges (M.), *Notes sur les Philosophes arabes connus des Latins au moyen âge dans Mélanges de l'Université de St. Joseph*, Beyrouth, 1924 t. IX, 2, P. 49—70.
3. De Menasce, *Arabische Philosophie*, Bern 1948, 6, P. 27—28.
4. Georr (K.), *Fârâbi est-il l'auteur des Foucus?* dans R.E.I. 1941, p. 31—39.
5. Massignon (L.) *Notes sur le texte originol arabe du "Des intellectus" d'Al Fârâbî* dans *Arch. d'hist. doct. et Litt. au moyen âge*, Paris 1930 t. IV, P. 151—158.
6. Mubahat Turker, *Fârâbî'nin Buzi Mantik*, Ankara, 1958.
7. Steinschneider (M.). *Al Faravi des Arabischen Philosophen. leben und Schriften* dans *Mémoires de l'Académie impériale des sciences de St. Petersbourg*, VIIe, t. XIII' No 1' 1869.

(١) نكتفى بأن نشير الى امهات المصادر القديمة : وحدث ما كتب عن الفارابي، ونوردها مرتبة ترتيبا ابجديا .

(ج) فلسفة :

١ - الفارابي :

١ . التمرة الرضيه في بعض الرسائل الفارابية : لندن ١٨٩٠

٢ . رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة : لندن ١٨٩٥

٣ . احصاء العلوم : القاهرة ١٩٤٩

٤ . كتاب القياس الصغير ، انقره ١٩٥٧

٢ - Gilson (E.) Les sources greco-arabes de l'augustinisme dans Arch. d'hist. Doct. et Litt. au moyen âge, Paris 1930, t. IV.

٢ - Madkour (I.) La place d'Al Fârâbî dans l'Ecole philosophique musulmane' Paris 1934.

نقوش خربة براقش

على ضوء بحوث محمد توفيق

للدكتور خليل يحيى نامى

المجموعة الرابعة وهى المجموعة الأخيرة (١)

نقش رقم ١٢٨

قطعتان مكسورتان من نقش واحد ، وهما نقش هالينى رقم ٥٠٥ ونقش رقم ٥٠٦
RES = رقم ٣٠٠٠ (٢) ، والقطعة الأولى من هاتين القطعتين مبنية متقاربة في جدار
البحر ، ومرسوم على يسارها رسم شعار حرف تاء فوقه رسم شعار آخر غريب لم نألفه
في النقوش العربية الجنوبية ، وهذان الشعاران غير موجودين في نقش هالينى رقم ٥٠٥ ،
والقطعة الثانية من هاتين القطعتين مبنية بجوار القطعة الأولى .

(١) [ق د م] | ا و م ع ذ ر | ب ن | ا ش ز س .

(٢) [٠٠] | ب | ع م ك ر ب | م ث ع ي | ا و د م .

(٣) ٠٠٠٠ و م ع ن | و ذ | ا ي ث ل | ا ذ ي م .

الترجمة

(١) مقلم ومؤخر (البناء) من الأساس .

(٢) ٠٠ ب ع ي ك ر ب مقدمة بخور (لاله) و د .

(٣) ٠٠٠٠ ومعين وشعب يثل ضد من .

(١) سرت المجموعة الثالثة من هذه النقوش في مجلة كلية الآداب - المجلد
ثامن نشر الجزء الثاني ديسمبر سنة ١٩٥٦ ص ١ - ٢٦ ، وتتضمن هذه المجموعة
النقوش من ٧٦ الى ١٢٧

(٢) آخر مقدمة RES رقم ٣٠٠٠ ص ٢٨٨

التعليقات

(١) |وم ع ذر = [ق دم] |وم ع ذر .

يظهر في الصورة جزء من ميم (ق دم)

ب ن |أ ش رس :

يتبى السطر الثاني بهذه النقطة كما يتبين من رسم الشعارين الموجودين في نهاية نقش هاليبي رقم ٥٠٥ ، لذلك لم نكمل هذه الفقرة بما أضافه المستشرقون إليها في هذا السطر لأن مكان التكملة التي أضافها المستشرقون وهي [ع د |ش ق ر ن] في أول السطر الثاني من نقش هاليبي رقم ٢٠٦ .

(٢) ع م ك رب :

: نسخ هاليبي هذا العلم كما يلي : وم ك رب ^(١) ، ولكن صحته هي : ع م ك رب ، كما أبتناه في النص ، والعين واضحة جلية في صورة محمد توفيق لهذا النقش .

(٢) ب ن |ذ ي م = ب ن |ذ ي م [م رس م] :

مكان هذه التكملة في أول السطر الرابع

نقش رقم ١٢٩

قطعة مكسورة من نقش مبنية تحت النقش السابق ، وهذه القطعة مكونة من ثلاثة سطور مكسورة ومكشولة ، وهي عبارة عن نقش هاليبي رقم ٥٠٧ = RES . رقم ٣٠٠١ .

(١) ب م |أ ه ن |غ رب ت .

(٢) ن س و |ك ع ث ر |ذ ق ب ض [م] .

(٣) ر |ذ ي ه ر ق |وب |ذ ث |ن ش [ق م] .

(١) انظر ٨ . / المجموعة السادسة مجلد ١٩ ، نقش ٥٠٦ من ٢ ص ٢٣٠

الترجمة

- (١) ٠٠ أهل غربت (أوغرابة) .
 (٢) ٠٠ (للاله) عثر ذى قبض .
 (٣) ذو يهرق ويحق (الإلهة) ذات نشق .

التعليقات

(١) ب م :

الحرف الاول من هذين الحرفين مكشوط ، ولكنه من المحتمل أن يكون ميا ا
 أهل | غربت :

العلم (غربت) واضح جلى في صورة محمد توفيق لهذا النقش ، غير أن حرف التاء
 مكشوط ولا يظهر منه إلا نصفه الاول ، وقد نسخ هاليفى هذا العلم كما يلي :
 بر ^(١) ا ا ، وقرأ المستشرق الكبير G. Ryckmans كما نسخه هاليفى ، وقرأه
 المستشرق Hartmann : ذرب ^(٢) ت ن ا

وجاء اسم (غربت) في نقش معنى آخر من العلا هو نقش JSa رقم ١٣٠ =
 RES رقم ٢٢٧٢ : كليب غربت ، كما جاءت (ذغربت) في نقش JSa رقم ٢١٣ =
 RES رقم ٣٢٨٢ س ٢ : كى ش رح أل | ذغ رب ت ، وهو نقش معنى من
 العلا أيضاً ، وجاءت كذلك في نقش معنى آخر من العلا هو نقش JSa رقم ١٩٧ =
 RES رقم ٢٨٤٠ س ٣ : مرئد | ذغربت ،

(٢) ن س و = [و ب] ن س و = وابه ،

كع ث ت ر | ذق ب ض . = كع ث ت ر | ذق ب ض [م] .

(٣) ر | ذى هرق = [ع ث ت] ر | ذى هرق .

وب | ذت | ن ش . = وب | ذت | ن ش [ق م] :

١) اخر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ رقم ٥٠٧ س ١/ ص ٢٣١

٢) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٣٠٠١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩

نسخ هاليفي هذه الفقرة كما يلي : وب | ذت | ^(١) ن ت ، وقرأها المستشرقون ^(٢) كما أبتناها في النص ، وكذلك هي ظاهرة في صورة هذا النقش .

نقش رقم ١٣٠

قطعة من نقش مكتوبة على طار حجر مبني تحت النقش السابق ، ولم أجد هذا النقش في مجموعة هاليفي .

ت أم ن م | وش رع ت م | ب ذت | أر خ .

الترجمة

إدارة وإمارة الضرائب المخصصة د (أو التي خصمت أو كتبت د) .

التعليقات

ت أم ن م | وش رع ت م :

يشبه هذا التركيب التركيب المعنى المشهور الوارد في كثير من النقوش وهو
ت أم ن م | و س ش رع | ب ذت | أر خ في نقش G١ رقم ١٠٨٣ س ٩ ، ت أم ن
| و س ش رع | ب ذت | أر خ في نقش جلازير رقم ١١٥٠ س ٢ ، كما يشبه التركيب
الوارد في نقشنا هذا التركيب المعنى الوارد في نقش جلازير رقم ١٣٠٢ س ٣ وهو :
ت أم ن | و م خ ض ن | ب أ ه ل | أر خ ، ولذلك أكتبنا هذا السطر بجملة الصلة
الواردة في كثير من النقوش المعينة . وهي : ب ذت | أر خ .

نقش رقم ١٣١

قطعة من نقش مبنية مقلوبة تحت النقش السابق ، وهذه القطعة هي عبارة عن نقش
هاليفي رقم ٥٠٨ = B ES رقم ٣٠٠٢ .

(١) س م ن | و أ م رأس م ن | .

(٢) م ل ك ي | م ع ن .

(١) انظر A J المجموعة السادسة مجلد ١٩ رقم ٥٠٧ س ٣ ص ٢٣١

(٢) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٣٠٠١ تعليقة رقم ٣ ص ٢٨٩

الترجمة

(١) . . . وسادتهما أو ورؤسائهما .

(٢) ملكا معين .

التعليقات

(١) س م ن | وأ م رأس م ن | . . . :

نسخ هاليفي هذا السطر كما يلي : م ن | وس م س أ م ن ^(١) ، ولكن الظاهر في صورة
مجد توفيق لهذا النقش هو ما أثبتناه من قبل في النص .

(٢) م ل ك أ ي | أ م ع ن :

نسخ هاليفي هذا السطر كما يلي : ر | ك ي | أ م ع ن ^(٢) ، وفراء المستشرقون كما هو ظاهر
في الصورة ، وكما أثبتناه من قبل في النص ^(٣) .

نقش رقم ١٣٢

قطعة من نقش مكونة من ثلاثة سطور ، وهي عبارة عن نقش هاليفي رقم ٤٢٥ =

RES رقم ٢٩٣٠ .

(١) ر | وأ أ ش ر | أ و .

(٢) ي | أ و | أ ك ر ب | ك ت [ر ب] .

(٣) ر | ذ ي ه ر ق | أ ب .

الترجمة

(١) وآشور و .

(٢) والقرايين التي قدمت أو خضعت .

(٣) ذى يرق ويحق .

(١) انظر ٨ ل المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٢١ نقش رقم ٥٠٨ س/١

(٢) انظر ٨ ل المجموعة السادسة ص ٢٢١ نقش رقم ٥٠٨ س/٢

(٣) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٣٠٠٢ ص ٢٨٩ .

التعليقات

(٢) وأكرب|كث = وأكرب|كث [رب|] :

نسخ هاليفى هذه الفترة كإلى : وأكرب|ب ، ولكن الظاهر فى صورة محمد توفيق لهذا النقش هو ما أبتداء من قبل فى النص ، وهو يتفق وما جاء فى كثير من النقوش المعينة .

نقش رقم ١٢٣

قطعة من نقش مكونة من سطرين ومبينة فى أسفل الجدار ، وهى نقش هاليفى رقم ٤٢٦ ^(١) RES = رقم ٢٩٣١ .

(١) [ونك|ر] ح|م|وع|ث|ر|أ|ذ|ى|ه|رق|١|

(٢) ٠٠٠٠ ر|م|ب|ف|ع|أ|ب|ر|ع|ع|ث|ر|

الترجمة

(١) ونكروح وعثر فوهرق .

(٢) ٠٠٠٠ من ضرية بواكير البار التى قدمت لعثر .

التعليقات

(١) ح|م|وع|ث|ر|أ|ذ|ى|ه|رق| = [ونك|ر] ح|م|وع|ث|ر|أ|ذ|ى|ه|رق|
ذى هرق : وذلك كما أكملها المسترقون من قبل ^(٢) .

نقش رقم ١٢٤

قطعة من نقش مكونة من ثلاثة سطور مكسورة ومكشوفة ، وهى مكتوبة بخط ردىء على حجر مبني على النقش السابق ، وهذه القطعة هى عبارة عن نقش هاليفى رقم ٤٢٧ ^(٣) = رقم ٢٩٣٢ .

(١) انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥ نقش رقم ٤٢٦
(٢) انظر RES المجلد الخامس ص ٢٤٤ نقش رقم ٢٩٣١
(٣) نقش هاليفى مكون من سطرين فقط انظر J A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥

(١) . |م وق هم| كسر في النقش .

(٢) وبذ|م أد| بن| .

(٣) او|ب كل| أل [أل ت] .

الترجمة

(١) . موقه

(٢) وبما أضيف من

(٣) بكل آله

التعليقات

(١) . |م وق هم| :

الظاهر في الصورة أثر حرف واو في أول النقش ، ويوجد في نهاية هذا السطر كسر ينتهي بعد ذلك النقش ، ويوجد بجوار هذا النقش نقش هاليبي رقم ٤٢٨ الذي يبدأ بحرفين هما : دق ، وقد أضافها هاليبي إلى نهاية السطر الأول من نقش رقم ٤٢٧^(١) .

(٣) ب كل| أل . = ب كل| أل [أل ت] ، وهذا السطر غير موجود

في نقش هاليبي رقم ٤٢٧ .

نقش رقم ١٢٥

قطعة من نقش مبنية بجوار النقش السابق ، وهي مكونة من ثلاثة سطور ، وهذه

القطعة هي عبارة عن نقش هاليبي رقم ٤٢٨^(٢) RES = رقم ٢٩٢٢ .

(١) دق كسر في السطر .

(٢) ف ر ع ن|م ب .

(٣) ب ن س|ح ي و .

(١) نقش هاليبي رقم ٤٢٨ ، هو نقش توفيق رقم ١٢٥
(٢) نقش هاليبي مكون من سطرين هما عبارة عن السطر الثاني والثالث من هذا النقش ، انظر « المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥ نقش رقم ٤٢٨

الترجمة

(١) ٠٠٠٠٠٠

(٢) بواكير التمار .

(٣) ابنه حيو .

التعليقات

(١) السطر الأول مكسور ولا يظهر منه إلا حرفان ، وقد أضاف هاليفي هذين الحرفين إلى النقش السابق وهو نقش هاليفي رقم ٤٢٧ ، وذلك كما يتنا من قبل في تعليقاتنا على النقش السابق .

نقش رقم ١٣٦

قطعة من نقش مبينة مقلوبة في جدار الحائط ، وهي مكونة من سطرين غير واضعين ، وهذه القطعة هي عبارة عن نقش هاليفي رقم ٤٣٠ ^(١) RES = رقم ٢٩٣٥ .

(١) [وذت] | ان ش قم | وب | .

(٢) وم لك | ام [ع] | ن | و [س ل أ] .

الترجمة

(١) وذات نشق وبحق .

(٢) وملك معين وقدم .

التعليقات

(١) | ان ش قم = [وذت] | ان ش قم .

(٢) وملك | ام . ن | و = وم لك | ام [ع] | ن | و [س ل أ] :

نسخ هاليفي هذا السطر كما يلي : وم لك | ارون | و س .

(١) انظر ٨ المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٥ نقش رقم ٤٣٠

نقش رقم ١٢٧

قطعة من نقش مبنية مقلوبة تحت النقش السابق ، وهي مكونة من ثلاثة سطور ،
وهذه القطعة هي عبارة عن نقش هاليثي رقم ٤٣١ ^(١) RES = رقم ٢١٢٦ .

- (١) ط | س | ع | د | أ | ب | ن |] .
- (٢) ق | ب | ض | م | أ | ه | ل | س | ب | ر |] .
- (٣) م | ع | ن | و | ذ | ي | ث | ل | .

الترجمة

- (١) . . . سعدبيل بن .
- (٢) قبض التي أداها .
- (٣) مقين وشذب يثل .

التعليقات

- (١) سعد | أ | ب = سعد | أ | ب | ن |] :
- نسخ هاليثي السطر الأول كما يلي : ل | ل | س | ع | د | أ | ، ولكن الظاهر في صورة
توفيق لهذا النقش هو ما أبتناه من قبل في النص .
- (٢) ق | ب | ض | م | أ | ه | ل | س | ب = [ك | ث | ر | ب | ع | ث | ر | ذ |]
ق | ب | ض | م | أ | ه | ل | س | ب | ر |] :
- وذلك كما أكملها المستشرقون من قبل ^(٢) .
- (٣) م . . . ي | ث | ل | :
- لم ينسخ هاليثي هذا السطر ^(٣) ، ومن الجائز أن قرأه كما يلي :

(١) نقش هاليثي مكون من سطرين هما الأول والثاني من هذا النقش ، انظر
٨ ج المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٦
(٢) انظر RES رقم ٢١٢٦ ص ٢٢٦ - ٢٢٧
(٣) انظر ٨ ج المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٦ نقش رقم ٤٣١

م [ع ن | و ذ] ي ث ل ك ا في نقش هالفي رقم ٥٠٦ = RES رقم ٢٠٠٠
= نقش توفيق رقم ١٢٨ س ٢٠

نقش رقم ١٢٨

قطعة من نقش مكتوبة على إطار حجر ، وهي غير واضحة في الصورة ومكتوبة بخط رديء ، ولم أجدها في مجموعة هالفي التي نستعملها من خربة براقش .

ن | م | ح [ح] ف دن [ه] ن | قرن [و] | و ب ن | . . .

الترجمة

البرجان اللذان في قرناو ومن . .

التعليقات

م | ف دن | ن = م [ح] ف دن [ه] ن .

قرن . = قرن [و] .

ومن الجائز أن نقرأ هذا النقش كما يلي : م [ح] ف دن | ب | قرن و
= البرج الذي في قرناو

نقش رقم ١٢٩

قطعة من نقش مكونة من سطرين ، والسطر الاول من هذا النقش مكسور ومكشوط ، وبعض حروفه غير ظاهرة في صورة توفيق لهذا النقش ، وهذا النقش هو نقش هالفي رقم ٤٤٢ ^(١) = RES رقم ٢٩٤٤ .

(١) . . ق [ن] ي ه س م | و ي أ ت م [ر] ع ث ث ر .

(٢) [أ ب] ي د ع | ي ث ع | و و ق ه أ ل .

(١) انظر ٨ ج المجموعة السادسة مجلد ١٩ من ٢١٧ نقش رقم ٤٤٢

الترجمة

(١) مقتنياتهم وروضى (الإله) عثر .

(٢) أبى يدع يدع ووقهبل .

التعليقات

(١) ٠٠ ق ٠٠ ي ٠٠ س م = ق [ن] ي ٠٠ س م :

ومن الجائز أن قرأ هذه الكلمة كما يلي : [أ] ق [ن] ي ٠٠ س م = مواشيم .

ويأت م = ويأت م [ر] ع ث ت ر :

وذلك كما أكلها المسترقون من قبل^(١) .

(٢) ي د ع | ي ث ع = [أ ب] ي د ع | ي ث ع .

نقش رقم ١٤٠

قطعة من نقش مكسورة من وسطها ، ومكونة من سطرين ، وهى عبارة عن نقش

هاليفى رقم ٢١٤٣٨ RES = رقم ٢١٤٤١

(١) [ب ك ب] و د ت ن | ذ ن | م ب ن ي ن

(٢) [و ر ث د | أ] ه ل | ٠٠ ٥ | ت | س ل أ س م

الترجمة

(١) بالضرائب . . . هذا البناء .

(٢) ووضع أهل . . . وقفهم أو قننهم .

التعليقات

(١) ٠٠ و د ت ن = [ب ك ب] و د ت ن :

(١) انظر RES رقم ٢١٤٤٤ المجلد الخامس من ٢٥٠ .

(٢) انظر A / المجموعة السادسة مجلد ١٩ من ٢١٧

وذلك وفقاً لما أكمله المستشرقون من قبل^(١) .

(٢) ٥٠٠ هـ = [ورث د | أ] هـ^(٣) .

نقش رقم ١٤١

نقش مكون من سطرين طويلين ؛ ومرسوم على يمينه شعار ضلقة الباب ، وهو عبارة عن نقوش هاليبي رقم ٥٠٩ ، ٤٢٤ ، ٤٢٧ ، ٤٣٥ = Hommel, S.C. ص ١٠١ RES = رقم ٢٩٢٩ ، ولا يوجد في نقوش هاليبي رسم الشعار ، كما أن نقوش هاليبي رقم ٥٠٩^(٤) هو عبارة عن السطر الأول من نقشنا هذا حتى العبارة التالية (وسقني ع ث) ، ونقش هاليبي رقم ٤٢٤ هو عبارة عن السطر الثاني من هذا النقش حتى أسماء الأعلام التالية (ووقهل ريم صلح وسعد) ، ونجد صور الأستاذ محمد توفيق النقش بتمامه ، وهذا هو نصه .

(١) صدق م | اوس ع دأل | ونح م آل | وب ه ن س م | ا صدق
أل | ا صدق | اوى س م ع آل | و ه ن أ | و ر ث د | ا و س | ا وى أ و س
أل | ا و س م ع | ا و م د | ا و ه ب آل | و ت ح ي | ا و ب ن ن | و ر ث د آل |
وى ذ ك ر آل | ا ب ه نى | ا س م ع | ذ ع د ر | ذ ح ف ن | ا ه ل | ا ج ب أ ن |
س ل أ | ا و س ق نى | ا ع ث | ت ر | ذ ق ب خ م | ا و و د م | ا و | ن ك ر ح م |
و ع ث ت ر | ا ذى ه ر ق | ا ل | ا م ب نى | ا م ح ف د ن ه ن | ذ ح ف ن | ا و ل
ب أ ن | ا و م ح ف ت | ا ب ي ن |]

(٢) قدم م | ا و م ع ذ ر م | ا ب ن | ا ش ر س | ا ع د | ا ش ق ر ن | ا وى و م |
و ه ب | ا م ث ع ت | ا و د م | ا وى و م | ا ذ ب ح | ا ع ث ت ر | ا ذ ق ب ض | ا و و
د م | ا ب أ ح خ ر | ا ع ع ع ع | ا وى و م | ا ذ ب ح | ا ع ث ت ر |
ذى ه ر ق | ا ب ح خ ر س | ا ذ ب ح م | ا ع | ا وى و م | ا س ك ب ر |

(١) انظر ٨ : المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٣١٧

(٢) انظر R L ٥ : المجلد الخامس ص ٢٤٨ نقش رقم ٢٩٤١

(٣) انظر نقوش هاليبي رقم ٥٠٩ في ١ : المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

(٤) انظر نقوش هاليبي رقم ٤٢٤ في ١ : المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٤ - ٢١٥

أبى د ع | ث ع : ووق هأل | رى م | صدق | وس ع د | أل | م ع |
 ن م | ب كل | م ن ت خ ن | وى و م | س ث ب | ك س م | أبى د ع |
 ي ث ع : ووق هأل | رى م | وم س د | م ع ن | ب | م س و د |
 م ن ع ن .

الترجمة

(١) صادق وسعدنيل وبخيتيل وأجاؤم صديقيل وصادق ويسعيل وهائق ورند
 وأوس وبأرسنيل وسامع ومارد (أو مراد) ووهييل ونحى وبنان ورندنيل ويدكرنيل
 أبنا سامع ذى محمد (أو عدلار) من قبيلة (قيلة) حفن أهل جبان نفروا وقدموا لعتر
 ذى قبض وود ونكرح وعتر ذى يهوق كل مبنى البرجين الذين لحفن ولبان ، والمبرأ
 (الحلق) الذى بين

(٢) مقدم البناء (أو الجزء الخارجى من البناء) ومؤخره (أو الجزء الداخلى منه)
 من الأساس حتى القمة ، ويوم أن قدماوا تقعدة بخور لود ، ويوم أن ذبحوا لعتر ذى قبض
 وود فى أنفة المبكل ٤٠ ذبيحة ، ويوم أن ذبحوا لعتر ذى يهوق فى قناه هيكله ذبايح
 (عندما) عشرة ، ويوم أن عين أبى يدع ينع ووقنيل ريام صادقا وسعدنيل كييرن
 على شعب معين بكل متخان ! ، ويوم أن فرض عليهم أبى يدع ينع ووقنيل ريام ودار
 ندوة معين فى دار الندوة العالى الخراج

التعليقات

- (١) صدق م | وس ع دأل :
 نسخ هالىنى هذين العلمين كما يلى : صدق | وس ع دأل .
 (٢) وب ه ن س م | صدق أل :
 نسخ هالىنى هذه انقرة كما يلى : وب ه ن س م | دى د " ع أل ، ولكن الظاهر
 فى صورة : هذا انتقش هو ما أثبتناه من قبل فى النص .

(١) انظر نقش هالىنى رقم ٥٠٩ فى ٨ / المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

(٢) انظر نقش هالىنى رقم ٥٠٩ فى ٨ / المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

وم ورد :

نسخ هاليبي هذا العلم كما يلي : وم^(١) ر ٥٠ د ، وقرأه المستشرقون هكذا :

وم ر [ث] د ، ولكن الصحيح كما يتضح من صورة هذا النقش هو ما أثبتناه من قبل ، ويوجد كسر بعد حرف الراء ، ولكنه كسر صغير لا يتسع لكتابه أى حرف فيه .

وى ذك ر آل :

حرف الذال غبر واضح في صورة هذا النقش ، ويخيل للناظر إليه أنه حرف باء ، وقد نسخ هاليبي باء^(٢) أى أنه نسخ هذا العلم كما يلي :

وى ب ك ر آل ، ولكن المستشرقين قرأوه : وى ذك ر آل^(٣) ، كما أثبتناه في النص .

ب به نى | س م ع | ذ ع در | ذ ح ف ن | أ ه ل | ج ب أن :

: نسخ هاليبي هذه الفترة كما يلي : ب نى | س م ع | ب ع در | ذ ح^(٣)
بني أن في . ولكن الظاهر في الصورة هو ما أثبتناه من قبل .

و س ق ن نى | ع ث ٥٥٥ = وس ق ن نى | ع ث [ث ر | ذ ق ب ض] :
النقش مكسور بعد حرفي العين والهاء ، ويظهر في صورة هذا النقش جزء من أسفل الحرفين المكملين لكلمة (عثر) وهما حرفا التاء والراء ففاصل فالجزء الأسفل من حرفي الذال والفاء ، وكذلك جزء من الساق البيني من حرف باء ، وهذه الحروف من كلمة : ذ ق ب ض .

٥٥٥ ن ك ر ح م = [و و د م | و | ن ك ر ح م] :

بدء السطر الأول من نقش هاليبي رقم ٤٣٧ مكسور كما يتضح من صورة هذا النقش ويتقصر ما يقرب من أربعة حروف أو خمسة .

م ح ف د ن ه ن | ذ ح ف ن | و ل ب أن :

(١) انظر نقش هاليبي رقم ٥٠٩ في T A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

(٢) انظر Hommel, S. C. ص ١٠١ ، RES ، رقم ٢٩٢٩ ص ٢٤٢

(٣) انظر نقش هاليبي رقم ٥٠٩ في T A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢٣١

نسخ هاليغي هذه الفقرة كما يلي : م ح ف د ن ه ن ن ، وقرأها المستشرقون
 كما يلي : م ح ف د ن ه ن [| ظ ر ب ن | و ل ب أ ^(١)] ن ، ولكن في صورتى نقش
 هاليغي رقم ٤٣٧ و ٤٣٥ هو ما أبتناه من قبل في النص ، وقد جاءت (خضف) اسما لتبيلة
 أربطن في أول هذا النقش ، وقد ترجنا هذه العبارة في النص كما يلي : البريجان اللذان
 لاهل حفن ولبان ، ومن الجائز أنهما اسما البرجين وبخاصة وأن (لبان) جاءت من قبل
 كاسم لبرج ^(٢) ا و ص ح ف ت | ب ي ن :

من الجائز أن قرأ هذه الفقرة كما يلي : و ص ح ف ت | ب ي ن [ا] أو كما يلي :
 و ص ح ف ت | ب ي ن [ا ه] لأن الظاهر في الصورة جزء من خط ، وقد يكون
 هذا بقية فاصل أو جزع حرف الهاء ا وينتهى السطر الأول بالفترة السابقة كما يظهر من
 صورة نقش هاليغي رقم ٤٣٥ س ١/ ، وبما لا شك فيه أن هذا السطر ناقص كما يضح
 من أول السطر الثاني من نقشنا هذا .

(٢) وى و م | س ك ب ر | أ ب ي د ع | ا ي ث ع | و و ق ه أ ل | ر ي م :

نسخ هاليغي هذه الفقرة كما يلي : وى و م | س ك ب ر | أ ب ي د ع | ا ي ث ع |
 و و ق ه أ ل | ر ي م ، ولكن الظاهر في الصورة هو (س ك ب ر) عوضا عن
 (س ك ر ب) التى نسخها هاليغي ^(٣) ، وفعل (س ك ب ر) هو أفضل من فعل (ك ب ر)
 ومعناه : كبر . عظم ، عبه كبيرا أو عظيما على أو قلده رتبة كبير أو عظيم ، وفاعل فعل
 (س ك ب ر) هو عبارة عن العليين التاليين وهما (أبى بدع يثع ووقبيل ريام .

م د ق | و س ع د ٠٠٠٠ ن م = صدق | وسعد [أ ل | م ع] ن م :

(١) انظر نقش هاليغي رقم ٤٣٧ ، نقش رقم ٤٣٥

(٢) Hommel, S. C. ١٠١ RES ، المجلد الخامس رقم ٢٩٢٩ ص ٢٤٢

وتعليق ٢ ص ٢٤٣

(٣) Ryck. NPS ج ١ ص ٢٤٥ - نقش هاليغي رقم ٥٣٥ = توفيق ٤٦

RES = رقم ٢٠٢٢ س ١/ ، هاليغي رقم ٥٢٤ = توفيق رقم ٧ = RES

٣٠٢١ س ٢ ، نقش توفيق رقم ١٤٩ = RES رقم ٢٩٥٢ س ٢

(٤) انظر نقش هاليغي رقم ٤٢٤ فى ١٨ المجموعة السادسة مجلد

١٩ ص ٢١٥

صادق وسعديل هما الكيران اللذان عيناها أبي يدع يع ووقهبل ريام كبيرن على معين .

بكل | م ن ت خ ن :

هكذا هي ظاهرة في الصورة ، وقد نسخها هاليغي كذلك^(١) ، وقد قرأها المستشرقون كما يلي (بكل | م ن ت خ ن)^(٢) ، وقد جاءت هذه اللفظة في نقش هاليغي رقم ٥٩٩ = C I H رقم ٤٦١ س ٨ : م ن ت خ ن ه و ، وزجها ناشر Corpus بما يلي : Rhodokanakis ، وقال المستشرق hutnu بأنها تقابل *domus nuptialis, asylmic* في اللغة الآشورية ومعناها سكن حادة ، كما تقابل أيضا الفعل خنن في اللغة العربية ، وقد تعامل هل هي تدل على هيك للذباح أو على مكان في الهيكل قام فيه عملية الختان . . . الخ^(٣) .

أما لفظة (م ن ت خ ن) الظاهرة في صورة توفيق لهذا النقش ، والتي نسخها كذلك أيضا هاليغي فهي من مادة (ن ت خ) ومعناها في اللغة العربية نزع أو قطع وفي اللغة العبرية *nittel* معناها : قطع اللحم قطعاً ، لذلك من الجائز أن نقول إن معنى (م ن ت خ) هو -نقش- بمعنى (م ن ت خ ن) في اللغة العربية الجوفية القديمة أو أن لفظة (م ن ت خ) هي تحريف من كاتب النقش لكلمة (م ن ت خ ن) ومهما يكن من أمر فورد هذا التركيب بعد تعيين شخصين في رتبة كبيرين على معين قد يدل على الحقوق الشرعية التي تكفلها هذه الرتبة ، أو على الالتزامات التي تتطلبها هذه الرتبة ، ونجد في لسان العرب ما يلي : ونضج بالمكان تنضجاً كنضج ومعناها أقام وتبت ، ولذلك من الجائز أن ترجم ذلك النص كما يلي : عين أبي يدع يع ووقهبل ريام صادقا وسعديل كبيرين على معين بكل الحقوق أو المراسم الشرعية التي تخولها لهما هاتان الرتبتان ، أو من الجائز أن يقال أيضا إن هذا التركيب يدل على حقوق شرعية خاصة بمارءا الكبير كذبح الذبائح وتقديم القرابين ، أو في كل عمليات الختان وما شابه ذلك من الطقوس الدينية التي تقام في المعبد .

(١) انظر نقش هاليغي رقم ٤٣٧ س ٢ في JA المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٦

(٢) انظر R E S المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٢٩ ص ٢٤٢ وتعليق ٢ ص ٢٤٣

(٣) انظر Rhod. St. ج ٢ ص ٣٥

وم س د | م ع ن | ب = و م س د | م ع ن | ب [م س و د]
م ن ع ن | .

نقش رقم ١٤٢ -

قطعة من نقش مكونة من سطرين طويلين مكسورين ومكشوطين ، ومن الجائز أن يكون السطر الأول من هذا النقش عبارة عن نقش هاليغي رقم ٤٤٣^(١) RES = رقم ٢٩٤٥ ، نقش هاليغي رقم ٤٤٤^(٢) RES = رقم ٢٩٤٦ ، أما السطر الثاني من نقشنا هذا فلم أجده في مجموعة هاليغي التي نسخها من خربة برائش .

(١) ي و م | ب ن ي | و ع ل [ل ي | ج] ن أ | ه ج ر ن | ق ر ن و |
ب ق ل [ب | ٠٠٠٠] د ع | م ع ب ر | ن ض [ح] | [م ح ف د] ن | ي ث ع ن
| و ص ح ف ت ن ه ن | ش ب م | و ش ب م
(٢) و [أ س] ط ر س م | ع ث ت ر | [ش ر] ق ن | و ع ث ت ر |
ذ ق ب ض م | و و [د م | و ن ك] ر ح م | و ع ث ت ر | ذ ي ه [ر ق]
| و أ ل أ ل ت | م ع ن م | و ي ث ل | و م ل ك | م ع ن م

الترجمة

(١) يوم أن بنوا وعلوا سور المدينة قرناوب قل ٠٠٠٠٠٠ في اتجاه خزان
(أو مياه) البرج يطان والميرين (أو الخندقين) شبام وشيم ٠٠٠
(٢) ووثائقهم (الإله) عثر شارقان (أي المشرق) وعثر ذى قبض وود ونكرح
وعثر ذى بهرق وآلهة ميين وبثل وملك معين .

التعليقات

(١) و ع ل ٠ ٠ ٠ ن أ | ه ج ر ن | ق ر ن و = و ع ل [ل ي | ج]
ن أ | ه ج ر ن | ق ر ن و .

(١) انظر نقش هاليغي رقم ٤٤٣ في ٨ ج المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص
وهو مكون من سطرين وينتهى عند عبارة (١ قرن/١١١) .
(٢) انظر نقش هاليغي رقم ٤٤٤ في ٨ ج المجموعة السادسة مجلد ١٩
ص ٢١٨ وهو مكون من سطرين وينتهى عند عبارة (و ص ج ف ت ن ه ن / ش ب م .

(٢) ب قول :

يظهر في صورة هذا النقش حرف باء غرق فاف غرق لام ، غرق آخر نصه مكسور وقد يكون هذا الحرف باء أو ضادا ، ومن الجائز أن قرأه : بقلب أى في قلب أو في داخل أوفى ، وقد قرأه المستشرقون (بقلج) ، وقد جات (فلج) في قوس معينة هي نقش G1 رقم ١١٥٠ RES = رقم ٢٧٧٤ م ٢ ، كما جات في نقش Hal. رقم ٢٥٢ RES = رقم ٢٨٢٧ م ٨

م ع ب ر | ن ض | م ع ن ب ر | ن ض :

نسخ هالفي هذه الفترة كما يلي : م ع ن ب ر | ن ف ، وحرف الضاد في نسخة توفيق مكسور ولكنه واضح جلي في صورة محمد توفيق لهذا النقش .

(٢) ذ . ن ط ر س م = و [أ س] ط ر س م :

الظاهر في الصورة حرف واو فكشط يستطيع الإنسان أن يبين فيه رأسي الحرفين الألف والسين .

ذ ع ث ت ر | ب ق ن = ع ث ت ر | [ث ن ر] ق ن

يوجد في الصورة بعد كلمة (عتتر) فاصل فكسر نستطيع أن نرى في خلاله حرف السين والراء .

ذ ق ب ض م | و ر ح م = ذ ق ب ض م و [د م | و ن ك] ر ح م :

يوجد بعد الواو بن كسر وكشط يند إلى راء ن ك ر ح م . ولكن الظاهر من خلال هذا الكسر والكشط ذبول الحروف التي أكتلتها النقش .

و ع ث ت ر | ذى = و ع ث ت د | ذى ه [ر ق |] :

يوجد كسر بعد هاء (يهرق) حتى واو (و آل أ ل ت) .

نقش رقم ١٤٢

قطعة من نقش مكونة من ثلاثة سطور مكسورة ، وهي غير موجودة في مجموعة هالفي التي نسخها من خربة بركات .

(١) |و[ى]وم[|] .

(٢) ن|وأخطبس|و

(٣) [ذقبض]م|وب| .

الترجمة:

(١) ٠٠ ويوم أن

(٢) وأنباره أو أسه أو أخطاب|و

(٣) ذى قبض بحق .

التعليقات

(١) و٠٠م = و[ى]وم[|] .

(٢) م٠٠٠ = [ذقبض]م .

نقش رقم ٢٤٤

ثلاثة حروف مكتوبة بخط كبير على حجر طويل ، وقبل هذه الحروف الثلاثة مكشوط ، ولا يظهر فيه أى أثر للكتابة كما يظهر من صورة هذا النقش ، وهذه الكتابة غير موجودة في مجموعة هاليبي التي نسخها من خربة براقش .

(١) ٠٠٠٠٠٠٠ ع در .

نقش رقم ١٢٥

قطعة من نقش مكونة من سطرين ، وهى عبارة عن نقش هاليبي رقم ٤٤٥^(١)
RES = رقم ٢٩٤٧^(٢) .

(١) وب|أل|ى ف ع|رى[م] .

(٢) |أر|ألث|م ع ن|وى ث ل .

(١) انظر ٨ و المجموعة السادسة ص ٢١٨

(٢) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٤٧ ص ٢٥١

الترجمة

(١) و بحق إينع ريم .

(٢) آلهة مدين وبثل .

التعليقات

(١) أ ل ي ف ع | ر ي . = أ ل ي ف ع | ر ي [م] :

حرف الميم مشطوف كما يظهر من صورة محمد توفيق لهذا النقش ، ولم ينسخه هاليبي في نسخته .

(٢) أ ل ت | م ع ن = [أ ل] أ ل ت | م ع ن :

حرف اللام المزادة مكشوفة كما يظهر من صورة هذا النقش ، ولم ينسخها هاليبي في نسخته ، ولكن يستطيع الإنسان أن يبين معالم هذا الحرف في الصورة

نقش رقم ٢٤٦

هذه قطعة من نقش نبغة مقلوبة في جدار السور ، وهي مكونة من ستة سطور ، والسطران الأول والسادس من هذه القطعة مكسوران ومكشوفان ولا يظهر منهما إلا بقايا بضعة حروف ، كما أن يشاره مكسور ومكشوف ، وهذا النقش هو نقش هاليبي رقم ٤٤٦ ، غير أن نقش هاليبي رقم ٤٤٦ مكون من أربعة سطور ، وقد قال المستشرقون إنه يكمل نقش هاليبي رقم ٤٤٧^(١) RES رقم ٢٩٤٨ .

(١)

(٢) ون | ك ون | أ س د | ع م م | ب ث ه | م ع م ن | و م ن

(٣) وف ي | [٠] ذ م ر ت ن | و ه م | ي س ت أ ي و | ب ع ل |
[٠] ذ م ر ت [ن] .

(١) لا يوجد نقش هاليبي في مجموعة توفيق ، وانظر نقش هاليبي رقم ٤٤٦ ،

٤٤٧ في مقاله Le Muséon A. F. L. Beeston, Notes on old South Arabian Lexicography V, Tome LXVI, p. 1.5, 122.

ب ق ه | م ع ض ر ن م ب ق ه | م ع ذ ر ن م ب ق ه | م ع ذ ن ^(١) ن م
 ب ث ه | م ع ض ^(٢) ر ن ، ولكن الظاهر في الصورة هو ما أبتناه من قبل ، وقد
 ترجمنا : ب ث بمعنى وثيقة ، أما الماء فهي ماء الإضافة لأنها مضافة إلى لفظة : م ع م ر ن .

(٢) ر ف ي | م ذ م ر ت ن :

لم ينسخ هاليقي الكلمة الأولى غير أنها واضحة جلية في صورة هذا نقش ، أما اللفظة
 الثانية فهي في الصورة كما نسخها هاليقي ، ومن الجائز أن قرأها : [م] ذ م ر ت ن بمعنى
 منشآت الهيكل !

ب ع ل | م ذ م ر ت ن :

الظاهر في الصورة بعد كل كلمة (بعل) فاصل فحرف مكشوط غير ظاهر في الصورة ،
 وقد نسخه هاليقي سينا ، ولكن من الجائز أن تقرأ ميا أي : م ذ م ر ت ن وترجم السطر
 الثالث هكذا : حفظ أو سلامة منشآت الهيكل وهم يستطفون أو يسترحمون رب
 أو سيد المنشآت !

و ش ع ن | س ق ن = و ش ع ن | أ ق ن [ي] :

(٤) و ش ع ن | س ق ن = و ش ع ن | أ ق ن [ي] :

لم ينسخ هاليقي من الكلمة الأولى إلا حرفي التون ، ومن الجائز أن تقرأ هذه الفقرة
 كما يلي : [ي س] و ش ع ن ومعناها ساعد أو من على .^١

(٥) م ب ر ه ن = سراج أو موند .

وهو اسم مشتق من فعل (بره) بمعنى أضاء كما في اللغة الحبشية abreha = أضاء !

ر ض و م :

من الجائز أن يكون اسم السراج أو اسم الموقع

ذ م بره | ض و م = من مصايح أو موائد الملاجأ :

ترجمنا (ض و م) بملجأ مستقلين في ذلك إلى كلمة (ض و ي) الواردة في نقش

line ١٤ !

(١) انظر RES - المجلد الخامس رقم ٢٩٤٨ ص ٢٥١ ، ٢٥٣

(٢) انظر A. F. L. Beeston, Le Muséon tome LXVI, p. 118

نقش رقم ١٤٧

قطعة من نقش مكتوبة على إطار حجر ، ولا توجد هذه القطعة في مجموعة النقوش
أق نسخها هالفي من خربة برآش .

ب : | م ب ن ي س م | و س ل [أ س م] .

الترجمة

.. مبانيهم وفرايزهم أو مبانيهم وقدمتهم .

التعليقات

و س ل . . = و س ل [أ س م] .

نقش رقم ١٤٨

قطعة من نقش مبنية مقلوبة في جدار الحائط ، وهي عبارة عن نقش هالفي رقم ٤٤٨
RES = رقم ٢٩٤٩ وخط هذا النقش غير واضح وهو مملوء بالكسور والكشوط .

(١) ع | ض م | و ت ق ر م | ب ن | أ ش ر س | ع د ا ش ق ر ن |
و ي و م | ك .

(٢) | ذ ت ي ن | ب م

س ق ي ت |

(٣) ت | و أ ر ض | ج ن [أ | ب ي] ت ه س | ن ع م ن | ب ن |

ص ل و ت | .

الترجمة

(١) خشب وحجارة مصقولة من أساسه حتى القمة ويوم أن .

(٢) هاتين ، في الأراضي المسقية (أو في القنوات) .

(٣) وأرض سوريته زمان من مئتم (أو أول) البناء .

التعليقات

(٢) أول السطر الثاني مكشوط ، والظاهر في صورة هذا النقش كما يبدو لي هو
 كما يلي : | و ذ | ح ر ق ف ط | ا ب ر ج ل ، وقد نسخ هالفي هذه الفقرة كما يلي :
 و ذ | ح ر ق ر أ | ا ب ر ج ل
 ذ ت ي ن :

هو معنى اسم الإشارة : ذ ت = هاتان ، ومن الجائز أن تكون ترجمته كما يلي :
 من هاتين القبيلتين ، ومن الجائز أن (ح ر ق ف ط) هي اسم إحدى القبيلتين أى إذا ند
 ترجم السطر الثاني كما يلي : ومن (قبيلة) ح ر ق ف ط رجال هاتين القبيلتين في الأراضي
 المسقية أو في القنوات

(٣) وأر ص | ج ن . . . ت ه س = وأرض | ج ن [أ | ب ي]
 ت ه س :

نسخ هالفي هذه الفقرة كما يلي : وأر ض | ج ن . . . ت ه س | وقرأها
 المستشرقون كما يلي : وأر ض | (ب) ن [ا ب ي] ت ه س (١) .

نقش رقم ١٤٩

قطعة من نقش مكونة من أربعة صفوف ، والسطر الأول منها مكسور ومكشوط ،
 ولا تظهر منه في الصورة إلا بقايا بعض الحروف وكذلك السطر الرابع فهو مكسور أيضا ،
 وأوله مكشوط ، وهذا النقش هو نقش هالفي رقم ٤٤٩ RES = ٢٩٥٠ رقم

- (١)
 (٢) ١٠ | أ | هل | ب ن ي | [ذ] ر ب ع ن | م ت ك ا ن | و ك
 ل | أ هل | ب ن [ي] .
 (٣) ش ع [ب ه س] و ك | م ل ك ه س | ي و م | [ح] ف ر | و س ن
 ب ط | ا ب ب ض ع .

(١) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٤٩ ص ٢٥٤
 (٢) انظر A المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٩ نقش رقم ٤٤٩

(٤) ٠٠٠ | م | ك | م | ع | ن | م | و | ر | ث | د | أ | و | س | ع | ث | ت | ه | ق | ن
ي | ت | س | .

الترجمة

(١)

(٢) الذى بنه قبيلة ريمان ! وكل ما بنه

(٣) شعبه وللكه يوم أن حفر وقب بالقرب من (أو في إقليم) .

(٤) ٠٠٠ ملك معين ووضع أوس عتت ممتلكاته تحت حماية .

التعليقات

(٢) ٠٠٠ هـ = [٠ | أ | هـ] .

• ر ب ع ن = [ذ | ر ب ع ن] .

وكل | أ هـ | بن • = وكل | أ هـ | بن | ي | .

(٣) ٠٠ ب هـ س = [نئ | ع | ب هـ س] .

هـ ف ر = (ح) ف ر .

(٤) أول السطر الرابع مكشوط ، وأغلب ذبول حروف هذا النقش مكسورة ،
ولذلك تظهر لفظة (ورث د) في الصورة كما يلي : (ورث د) ونلاحظ هنا
كذلك ^(١) ، كما يظهر العلم (أوس عتت) في الصورة كما يلي :

(أوس ع ي ت) ويتبنى هذا البطر في نسخة هاليفي بالصدر الأول من هذا العلم
المركب ، وقد جاء هذا العلم في نقش G١ رقم ١٠٨٣ وهو نقش معين من خربة معين
وهو عبارة عن نقش توفيق رقم ١١ ، ودونى هذا النقش من قبيلة جبان أصدقاء النعم
ريام وابنه هوف عتت ملكى معين ^(٢) .

نقش رقم ١٥٠

قطعتان من نقش مكتوبتان على حجرين كبيرين ، والسطر الأول من انقطة الأولى

(١) انظر RES المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٥٠ ص ٢٥٥ .

(٢) انظر نقش G١ رقم ١٠٨٣ ص ٢ .

مكسور ومكشوط ، وهذه القطعة هي عبارة عن نقش هاليقي رقم ٤٥٣^{١١} = G1
رقم ١٦٦٢ ، أما القطعة الثانية من هذا النقش فيوجد فيها شقان وكسور وشدوش ، وهي
عبارة عن نقش هاليقي رقم ٤٥١^{٢١} = G1 رقم ١٦٦١ . وهاتان القطعتان هما نقش
RES رقم ٢٩٥٢^(٣) .

(١) ٠٠٠٠ | أ | ه | ل | | ج | ب | [أ] | ن | م | [و] | د | ت | | [أ] | ب | ي |
د | ع | | ث | ع | | و | د | ق | ه | أ | ل | | ر | ي | [م] | م | ل | ك | | ي | [م] | ع | ن | | س | ل | أ | و | س | ق |
ن | ي | | ع | ث | ت | ر | | ذ | ق | ب | [م] |

(٢) م | ي | و | م | | ذ | ب | ح | | | ع | ث | ت | ر | | ذ | ي | ه | ر | ق | | ب | أ | ح | ض | ر | ه | س | |
ع | | أ | و | ي | و | م | | ب | ن | ي | | م | ح | ف | د | ن | | [ل] | ب | | أ | ن | | ذ | ع | ن | ن | | خ | ل | ف | | ه | ج |
ر | ن | | ي | ث | ل | | ب | ل | ق | م |

(٣) [و] | ي | و | م | | أ | ح | ف | ر | | و | | س | ن | ب | ط | | ب | أ | ر | س | | ت | غ | ل | | س |
ن | | م | ط | ر | ن | | ت | ع | د | | و | م | ي | ر | | م | س | ف | ح | ت | [س] | | أ | و | ي | و | م | | أ | ت | م | |
و | م | ي | ر | | ن | خ | ل | س | | و | | ذ | ب | .

(٤) ٠٠٠٠ | ب | ب | [ض] | ع | ه | س | | و | ي | و | م | | س | م | خ | ض | | و | و | ه | ب | |
أ | ب | ي | د | ع | | ي | ث | غ | | م | ل | [ك] | | [م] | | ع | ن | | و | م | ع | ن | | و | ذ | | ي | ث | ل | | ع | م |
س | م | ع | | و | ر | .

الترجمة.

(١) ٠٠٠٠ . أهل جبآن أصدقاء أبي يدع يبع ووتبيل ريام ملكي معين
وقفوا ونلروا العثر ذى بعض .

(٢) يوم أن ذبحوا العثر ذى يهوق في أفتية هيكله عشرة (ذباح) ، ويوم أن بنوا
بججارة البلق البرج لبآن يباب المدينة يثل .

(١) انظر ٨ المجموعة السادسة مجلد ١٩ نقش رقم ٤٥٣ ص ٢١٩

(٢) انظر في ٨ المجموعة السادسة مجلد ١٩ نقش رقم ٤٥١ ص ٢١٩

(٣) انظر في RES المجلد الخامس نقش رقم ٢٩٥٢ ص ٢٥٦

(٢) ويوم أن حنقوا وحبوا بؤره تغل في ناحية الخقل المروى تعد ، ونظم أجواله (أو جداوله أو فتواته) ، ويوم أن أم وقيد نخيله (أو نظم حدائق نخيله) التي في .

(٤) ويوم أن سلم أبي يدع يبع ملك معين وشعبا معين ويثل إدارة الأرض واستثمارها إلى عني سبيع . .

التعليقات

(١) |ج ب| ن |م| . . دت |دع| ي ث ع = [أهل] |ج ب| [أ] ن |م| [ود] دت | [أب ي] دع | ي ث ع .

ووقه آل |رى| . . . ي |م| ع ن = ووقه آل |رى| [م] |م| ك |ي| م ع ن .

١-٢ ع ث ت ر | ذ ق ب . . . ع ث ت ر | ذى هرق = ع ث ت ر | ذ ق ب [ضم] | ي و م | ذ ب ح | ع ث ت ر | ذى هرق .

(٢) ب ن ي |م| ح ف دن | . . أن = م ح ف دن | [ل ب] أن .

(٣) س ن ب ط |ب| أ ر س |ت غ ل = وى و م |ح ف ر | و | س ن ب ط |ب| أ ر س |ت غ ل :

ت غ ل اسم للبئر وهو واضح جلي في صورة توفيق لهذا النقش ، وقد نسخ هاليفي هذه الفقرة كما يلي :

س ن ب ط |ب| أ ر س |ت غ ل وقد جاءت لفظة (ت غ ل) اسماء لقناة في نقش CIH رقم ٣٢٠ س ٣^(١) .

م س ف ح ت ، = م س ف ح ت [س] .

(٤) ض ع ه س = [ب ب] ض ع ه س .

م ل . . . ع ن = م ل [ك] م ع ن .

(١) انظر كتاب Ryck., N.P.S. ج ١ ص ٢٥٩ .

نقش رقم ١٥١

سطر من نقش مكتوب على إطار حجر مبني في جدار الحائط ، وهو مكسور ومكشوط ، وهذا السطر هو عبارة عن نقش هاليقي رقم ٤٥٤ ^(١) RES = رقم ٢٩٥٤ ^(٢)

وب [|] ش ع [ب] ه س م | م ع ن | و [ب] | ش ع ب ه س م |
ذ ي ث ل .

الترجمة

وبشميم معين وبشميم سكان بل .

التعليقات

وب ° ش ع ° ه س م = وب [|] ش ع [ب] ه س م .
و ° | ش ع ب ه س م | ذ ي ث ل = و [ب] | ش ع ب ه س م | ذ ي ث ل :
لم ينسخ هاليقي من هذا النقش إلا ما يلي :
ه س م | م ع ن | و ب | ش ع ، وقد قرأه المستشرقون كما يلي :
[ش ع ب] ه س م | م ع ن | و ب | ش ع [ب ه س م] .

نقش رقم ١٥٢

قطعة صغيرة من نقش مبنية مقلوقة في جدار الحائط ، وهي مكونة من ثلاثة سطور ، وهذا النقش هو نقش هاليقي رقم ٤٥٠ ^(٣) RES = رقم ٢٩٥١ ^(٤) .

(١) | و د م | [ي] و م | و ه ب | م ث [ع ي] .

- ١١ . انظر في كتاب ٢٩ المجموعة السادسة مجلد ١٩ من ٢٢٠ نقش رقم ٤٥٤
- (٢) انظر في RES المجلد الخامس من ٢٥٩ نقش رقم ٢٩٥٤
- (٣) انظر في ٨ المجموعة السادسة مجلد ١٩ من ٢١٩ نقش رقم ٤٥٠
- (٤) انظر في RES المجلد الخامس من ٢٥٥ - ٢٥٦ نقش رقم ٢٩٥١ ،

(٢) ع شرق | ع م أن س | [ع] شرق | ٠٠

(٣) [ى] دم | س ث ب | ل س | ح ف ن | ٠

الترجمة

(١) (الإله) و د يوم أن فدم مقدمة بخور ٠٠

(٢) نظم (أو أصلح) عى آنى حرائة .

(٣) يوم أن ألزمه حفن .

التعليقات

(١) ٠ دم = [ى] دم .

م ث ٠٠ = م ث [ع ى] .

(٢) ٠ شرق = [ع] ثنق :

وذلك كما نسخها هالبفى في^(١) نسخته ، ولكن الظاهر في الصورة خدش قد يستطيع الإنسان أن يبين من خلاله أثر حرف نون ، لذلك من الجائز أن تقرأ هذه الكلمة كما يلي : [ن] شرق [م] = بلدة ثنق ، وترجم السطر الثانى من هذا النقش كما يلي :

وأصاح عى آنى فى بلدة ثنق !

(٢) ٠ دم = [ى] دم .

نقش رقم ١٥٣

قطعة صغيرة من نقش وهى مبنية تحت النقش السابق ، وهى عبارة عن نقش هالبفى رقم ٤٥٢^(٢) ESR = رقم ٢٩٥٣^(٣) .

(١) [ع ث] ت ر | ذى ه ر ق | أ ذ [ب ح م] .

(١) انظر فى A I المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٩ نقش رقم ٤٥٠

(٢) انظر فى A I المجموعة السادسة مجلد ١٩ ص ٢١٩ نقش رقم ٤٥٢

(٣) انظر فى RES المجلد الخامس ص ٢٥٨ نقش رقم ٢٩٥٣

- (٢) ٠٠ | | بنى | بى ث س | ر .
(٣) ٠٠ | | عم أن س | بع ث ت | ر |

الترجمة

- (١) (الإله) عثر ذى هرق ذبأخ .
(٢) ٠٠ بنى هيكله (أرىفه) ر . .
(٣) ٠٠ عى أنس بحق (الإله) عثر .

التعليقات

- (١) ٠٠ ت ر = [ع ث] ت ر .
أذ . = أذ [ب ح م] .
(٢) بع ث ت . = بع ث ت [ر |] .

نقش رقم ١٥٤

قطعة من نقش مكونة من سطرين صغيرين ، مكسورين ومكشوطين ، وهى من النقوش التى نسخها محمد توفيق من داخل خربة براقش ، ولم أجدها هذا النقش فى مجموعة هالفي التى نسخها من خربة براقش .

- (١) ٠٠ | | بل قم | وع [ضم] |
(٢) ى ه | ر ق | وع ث [ت ر] |

الترجمة

- (١) حجارة بلق وخشب .
(٢) هرق و (الإله) عثر .

التعليقات

- (١) وع = وع [ضم] | .

(٢) رقى = [ع ث ت د | ذى ه] رقى .

وع ث . . = وع ث [ت ر] .

نقش رقم ١٥٥

قطعة من نقش مكونة من سطرين مكسورين ومكشوطين ، ولا يظهر من السطر الأول إلا بعض الخطوط ، كما أنه لا يظهر من السطر الثانى إلا أحرف كلمة : ب ن ي ، وهذا النقش من النقوش التى لنسخها محمد توفيق من داخل خربة براش .

•••

(١)

(٢) | ب ن ي |

نقش رقم ١٥٦

قطعة من نقش مكونة من سطرين صغيرين ، وهى من النقوش التى لنسخها محمد توفيق من داخل خربة براش ، ولا يوجد هذا النقش فى مجموعة هاليفى التى لنسخها من الخربة .

•••

(١) ا و د [ب] ح ض ر س .

(٢) م | ب م [س و د] م ن ع ن .

الترجمة

(١) (الإله) و د فى ساحة هيكله .

(٢) فى دار الندوة المتبع .

التعليقات

(١) و د | ح ض :

من الجائز أن تقرأ هذا السطر كما يلى : و د [ب] ح ض [ر س] .

(٢) م | ب م :

من الجائز أن قرأ هذا السطر كما يلي : [م ع ن] م | ب م [س و د] م ن ع
ن | وذلك وفقاً لما جاء في كثير من النقوش الميمنية .

نقش رقم ١٥٧

نقش مكون من سبعة عشر سطراً ، وقد نسخته محمد توفيق من داخل خربة براقش ،
وهذا النقش هو نقش هاليقي رقم ٤٨٤ = G1 رقم ١٠٩٢ = G1 رقم ١٢٣٥
RES = رقم ٢٩٨٠ = غري رقم ١٤^(١) .

نقش رقم ١٥٨

قطعة صغيرة من نقش مكونة من سطرين ، وهي مكسورة ومشطوفة ، وهذا النقش
من النقوش التي نسخها توفيق من داخل خربة براقش ، ولا يوجد هذا النقش في مجموعة
هاليقي التي نسخها من خربة برائش .

(١) م | أ | هـ | ل | ج | ب | أ | [ن] |
(٢) . . . [] | ب | ع | ث | ر | [] .

الترجمة

(١) . أهل جيان . . .
(٢) بعتر . . .

التعليقات

(١) أهل | ج | ب | أ = أهل | ج | ب | أ | [ن] |
(٢) . . . بعث ث ر . . . = . . . [أ] | بعث ث ر [. . .] .

A. Fakhry, An Archeological Journey to Yemen, P. III, PL. LV. (١)

G. Ryckmans, Epigraphical Texts, p. 12-13

الملاحظ المعترف

للدكتور عبد اللطيف حمزة

في خلافة الأمويين - أو في فترة عداودة من زمن هذه الخلافة - كان التاريخ الفكري للعراق متصلاً أشد اتصال بتاريخ عالم جرىء من العلماء هو « الحسن البصري » . وقد وجد هذا العالم الجريء من الحياة القائمة في هذا الإقليم ما شجعه على المضى في طريقه إلى حرية الفكر . فبلغ من ذلك حداً لم تعرفه البصرة من قبل ؛ وليس أدل على هذه الحرية الفكرية التي عرف بها الحسن البصري ، ولا أدل على نجاحها في زيادة الإنتاج الفكري من ظهور « واصل بن عطاء » الذي كان تلميذاً للحسن ثم قيل أنه اختلف معه في مسألة من مسائل الكلام وهي : ما حكم صاحب الكبيرة في الدين ؟ أيعتبر مؤمناً كما قالت المبرجة أم كافراً كما قالت الخوارج ؟ وأصر التلميذ يومئذ على اعتبار صاحب الكبيرة في منزله بين المؤمنين وبين الكافرين . ومنذ ذلك الحين رأينا واصلًا يعتزل الحسن . وزعم الباحثون أنه منذ ذلك الوقت أصبح واصل على رأس فرقة من فرق الدين - هي فرقة المعتزلة .

وقضت خلافة الأمويين ، وأتت بعدها خلافة العباسيين . فأثى معها تفوق الفرس وبلايا الفرس . أقول ببلايا الفرس لأن هؤلاء لم ينوا منذ قيام الدولة العباسية عن الكيد لهذا الدين الجليل الذي أصاع استقلالهم ، وظفر بدينهم ، وطمخى على قوميتهم إلى حد كبير . في ذلك الوقت ظهر الإلحاد وقويت الزندقة . وخاف اخلفاء يومئذ شر هذه الحركة على أنفسهم وعلى دولتهم وعلى دينهم الذي أوجب عليهم أن يفكروا جدياً في الأمر . وأن يتعقبوا الزنادقة الذين أصبح خطرهم دينياً وسياسياً في وقت معا .

والذى لا يحتمل الشك هو أن حكومة العباسيين لم تكن لتقوى على رد الزنادقة والملاحدة ، وأن الخلفاء العباسيين مع بطشهم ومنهم لم يكونوا يستطيعون القضاء على هذه الطائفة لولا أن قيص الله للإسلام والمسلمين فرقة المعتزلة : فقامت هذه الفرقة بمحاربة الزنادقة وغيرهم بمثل سلاحهم . والزنادقة يومئذ كانوا يعتمدون في زندقتهم على المنطق وكانوا يصطنعون في إلحادهم العقل والفلسفة . والمعتزلة أنفسهم كانوا يعرفون كيف يستخدمون هذين السلاحين معا . ومن هنا جاء فضل المعتزلة على الدين . ومن هنا نضح أن يقال إن المعتزلة أنقلوا المسلمين ووقوم شر الملاحدة والدةبرية والمجوس والشكاكين .

...

ومهما يكن من أمر المعتزلة فنحن نعرف أنهم بنوا أفكارهم على خمسة أصول لا يسمى معتزليا إلا من اعتقها :

(أولها) القول بالمتزلة بين المنزلتين - أى أن مرتكب الكبيرة - كما قال واصل - ليس بكافر وليس بمؤمن ، ولكنه بين بين . فهو فاسق . والفاسق يستحق النار .

(ثانيها) القول بالوعد والوعيد . فإذا استحق الناس وعيد الله وجب على الله أن يدخله النار . وإذا استحق المؤمن وعد الله وجب على الله أن يدخله الجنة . وهنا نلاحظ أن في قولهم وجب على الله كلا ، غلوا في التعبير لم يرخص عنه المخرجون من رجال الدين من أصحاب المذهب الأول وهو مذهب أهل السنة .

(ثالثها) القول بالعدل الإلهي . فالله تعالى عادل لأنه يجرى الناس بأعمالهم أن خيرا فخير وإن شرا فشر . ومعنى ذلك أن الناس يخبرون في هذه الأعمال وليسوا مجبرين عليها ، لأنه تعالى وهبهم العقل . والعقل يميز بين الحسن والقبيح يعرفهما بطبيعته ولو لم يدل عليهما شرع أو فضيلة أو مذهب أو قانون . فالناس جميعا يرون الأمانة طيبة لأنها طيبة ، والخيانة سيئة لأنها سيئة وهكذا .

(رابعها) القول بتوحيد الله . ولقد دعاهم ذلك إلى تفسير صفاته تعالى تفسيرا يتفق ومعنى التوحيد . فقالوا إن الله عليم بذاته لا يعلم كالذى نعرفه ، قدير بذاته لا بقدرته كالتى نعرفها ، حى بذاته لا بحياة كالتى نعرفها ، سميع وبصير بذاته

لا بسمع ولا يبصر كاللذين نعرفهما وهكذا . فهو تعالى واحد لا شريك له ولا شيء له ، وليست واحدة من هذه الصفات طارئة عليه .

(خامسها) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولا يكون ذلك إلا بالقلب . فان لم يكف باللسان . فان لم يكف باليد . فان لم يكف بالسيف في نهاية الأمر . وهذا الأصل الأخير من أصول المعتزلة هو الجانب التنفيذي في قانونهم العام . أو هو نقطة الإتصال بينهم وبين الدولة . ومن أجل هذا كان لم نفوذ كبير فيها . بل من أجل هذا كانوا كالمسخرين — من حيث يشعرون أو لا يشعرون — للدفاع عن الدولة من ناحية الدين . وبالفعل كان المعتزلة خطرا كبيرا يخشاه الزنادقة وأهل الإلحاد .

• • •

ونحن نعلم أن المعتزلة كانوا طائفتين أو مدرستين : مدرسة البصرة ، ومدرسة الكوفة . ومدرسة البصرة أقدم عهدا من مدرسة الكوفة . ومدرسة البصرة هي التي تهتما الآن . فأستاذها الأولان هما : واصل بن عطاء وعمر بن عُبيد . ومن أشهر تلاميذها المخلصين النظام وتلميذه الجاحظ .

ونحن نعلم أيضا أن المعتزلة — أو المفكرين الأحرار كما يسميهم الأوروبيون بهذا الاسم — قامت آراؤهم حقا على حرية العقل ؛ يؤمنون بسيطرته على كل شيء . فكان كل واحد من المعتزلة يرث عن سابقه حرية الفكر . ثم كان يتفوق على سابقه في هذه الحرية أيضا . فكان التلميذ المعتزلي الممتاز يدرس مع أستاذه آراء المعتزلة بوجه عام ثم يعرف آراء شيخه بوجه خاص . ثم هو لا يكتفي بذلك حتى تكون له أفكار غير أفكار أستاذه كما كانت لأستاذه أفكار غير أفكار من سبقوه . من أجل ذلك أثرت عن بعض المعتزلة أفكار خاصة في معنى الإعتراف . وكان يطلق اسمه على الطائفة التي تتبعه في القول بهذه الأفكار . فكان يطلق على أتباع واصل اسم الواصلية : وعلى أتباع النظام اسم النظامية . وعلى أتباع الجاحظ اسم الجاحظية وهكذا .

ولكن هل صحيح أنه كانت هناك طائفة تسمى الجاحظية نسبة إلى الجاحظ لما مبادؤها التي تمتاز بها عن سائر طوائف المعتزلة ؟ أو بعبارة أخرى : هل كانت

للجاحظ نفسه أفكار يتفرد بها ويستطيع البحث الحديث أن يقول أن أحدا قبله من رجال المعتزلة لم يعرفها ؟ .

نحن نحيل منذ الآن إلى أن الجاحظ يوشك ألا تكون له مسألة بعينها قد اختص ببحثها وتوفر طويلا على هذا البحث . وأرى أن الجاحظ إنما كان بوقا عظيما للمعتزلة يذيع آراءهم ويتناول هذه الآراء بالشرح والتكلمة حيناً ، وبالتقد على عاداته في تناول الأشياء كلها حيناً آخر . ونحن نعرف أن الجاحظ مشهور بتوليد المعاني وأن أسلوبه الكتابي كان مطاوعا له في ذلك كل المطاوعة . فكان إذا أطاعه أسلوبه وجرى معه تفكيره إلى فكرة جديدة أو كالجديدة فذاك : وإلا فإنه يكتفى حينئذ بأن يكون شارحا أو ناقدا فحسب .

آية ذلك أن الذين يطلعون على آراء المعتزلة ويتبهنون حركاتهم وأقوالهم ، يرون أنهم درسوا التاريخ الإسلامي دراسة جيدة ، وأنهم جرحوا على أن تكون لهم آراؤهم في تفسير كل حادثة على حده ، وأنهم كانوا يحكون على هذا بأنه أخطأ أو يحكون لذلك بأنه أصاب ، ويتهمون هذا بأنه كافر ، ويصفون ذاك بأنه مؤمن ، ويرمون ثالثا بأنه فاسق . وقد وصلوا من هذا كله شيئا فشيئا إلى تلك الأصول الخمسة التي أشرت إليها . وهم من أجل هذا كله لم يتركوا مسألة إلا ألأوها ، ولا رأيا إلا شريحوه ونجادلوا فيه . فحدثوا الينا في إرادة الله وعله الخلق . وتحدثوا الينا في الطفرة والحركة السكون . وتحدثوا في الحواس والمعارف والكون . وتحدثوا في حرية الإرادة وفي أفعال الإنسان التي يأتيها بنفسه ، وفي الأفعال التي تتولد عن أفعاله كذلك . وتحدثوا في اعجاز القرآن وخلق القرآن . وتحدثوا في العدل والمسئولية والإمامة . وردوا على الدهرية والملاحدة والزنادقة والنصارى واليهود والمجوس . وناقشوا فرق الشيعة والمرجئة والخيرية والرافضة والناطقة . وحلوا شخصيات أبي بكر وعمر وعثمان وعلي ومعاوية . وعرضوا لخلق بني أمية جميعا . وبكونوا لأنفسهم رأيا في كل شخص من هؤلاء . وأخيرا كانوا يعلنون في الناس كل هذه الآراء . وكانت المسائل التي تحدث فيها الجاحظ إلى الناس مبعثرة هنا وهناك . شأنها في ذلك شأن مسائل المعتزلة كلها بوجه عام . وأكبر الظن أن مسائل المعتزلة إلى ذلك الوقت كانت خاضعة للإتفاق والمصادفة أكثر من خضوعها للنظام والتصديق الذين

يعرفهما العلم أو البحث . فكان هذه المسائل كلها - كما يقول أستاذنا أحمد أمين - « كانت ارهاصا لعمل فلسفي منظم يأتي فيما بعد ويقوم به أشبال الكندي والفارابي وابن سينا » .

وعرض بسيط وسريع للمشهور لنا من رسائل الجاحظ يقوى عندنا الظن بأنه لم يكن أكثر من سجل عظم لأفكار المعتزلة . وشارح كبير لهذه الأفكار :

١- فللجاحظ رسالة في « استحقاق الإمامة » أشار فيها إلى أنه لم يكن ثم نظام لانتخاب الخليفة ، وإن الناس بعد موت النبي اجتمعوا في السقيفة واستقر رأيهم على أبي بكر ليكون الخليفة . ولما مات هذا رضى الناس بعمر . وإذن فأبو بكر وعمر كانا أولى الناس بولاية أمر المسلمين بعد موت النبي . وإذن فلا عبرة للشيعه في الطعن في انتخابهما وإيثار على بن أبي طالب عليهما .

٢- وللجاحظ رسالة « في بئى أمية » غلذ فيها أخطاء الأمويين وكفر بعضهم من أجلها ورد. في هذه الرسالة على الثابتة « وهم فرقة قالت أن سب الولاة والحكام فتنه يراد بها التفرقة » . فرد عليهم الجاحظ « بأن من الكفر أن نحجم عن سب أهل الكفر . ومن الفتنه ألا ينسب أهل الفتنة . وكيف نجتمع على لعن القاتل . ثم إذا كان هذا القاتل سلطانا ظالما أو أميرا عاصيا لم نستحل سبه ولا نخلعه ولا نفيه ولا لومه » .

٣- وللجاحظ رسالة في مدح النبي لا تدلنا على شيء أكثر من أنه كان - كغيره من رجال المعتزلة - يطن في رجال الحديث من علماء الدين ويتهمهم بأنهم جاعلون الحديث يقبلونه في سباجة البسطاء دون أن يتناولوه بشيء ممن تمحيص العلماء .

٤- وللجاحظ رسالة في حجج النبوة سنشير بعد قليل إليها .

٥- وله رسائل في الرد على أهل الديانات الأخرى والفرق الدينية غير المعتزلة . ورد في واحدة منها على النصارى . ورد في رسالة أخرى على الرافضة . والرافضة يومئذ كانت أعدى أعداء المعتزلة . والرافضة في الأصل فرقة من فرق الشيعة سميت بهذا الاسم لأنه لما خرج زيد بن علي بن الحسين مثل عن رأيه في أبي بكر وعمر فأحسن القول فيهما وترحم عليهما ، فرفضه قوم من الشيعة فسموا الرافضة . ومن ثم انقسم الشيعة قسمين رافضة وزيدية . وكل منهما تفضل عليا على عمر وأبي بكر . ولكن الزيدية أرفق بهما وأدنى من الرافضة إلى الصواب .

٦ - وأخيرا نعرف أن للجاحظ رسالة سماها « فضيلة الاعتزال » أو « فضيلة المعتزلة » رد عليها ملحد كان قبل الحادى معتزليا ، وهو ابن الراوندى فى كتاب سماه « فضيحة المعتزلة » . ثم رد على ابن الراوندى معتزلى آخر هو أبو الحسين الخياط فى كتاب سماه « الانتصار » .

هكذا نلاحظ أن هذه المسائل كلها هى بعينها موضوعات المعتزلة منذ ظهورهم . تكلم فيها واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد وأبو الهذيل العلاف وثمالة بن الأشرس . وتكلم فيها بنوع خاص أستاذ الجاحظ المباشر وهو « النظام » .

ولكن مهما قيل فى أمر الجاحظ المعتزلى فليس هناك شك فى أن رجلا عظيما مثله قد أباح لنفسه كل هذا الحظ من حرية الرأى ، واستفاد من هذه الحرية فى الأدب والنقد والعلم لا بد أن يكون له موقف خاص من هذه المسألة الهامة التى شغلت بال المفكرين من قبله على اختلاف ملهم ونحلم . وهذه المسألة بطبيعة الحال « هى حرية الإرادة » . فهل صحيح أن الإنسان يعتبر حرا فى إرادته ، مسئول حقا عن أفعاله التى تصدر عنه ، يختار بنفسه ولنفسه هذه الأفعال ولا يختارها الله له ؟ . أما الجبرية وهم القائلون بالجبر فقد أراحوا أنفسهم وكفوها مؤونة البحث ، وقالوا إن الإنسان مجبر لا غير .

وأما الزنادقة وهم أشقى هذه الطوائف كلها وأكثرهم تفكيرا فى الأمر فقد كانوا كأنهم لا يريدون أن يجدوا فى الإسلام حلا مرضيا لهذه المشكلة : فهذا رجل كابن المقفع كان كثير التفكير فى هذه المسألة بالذات . ويظهر أنه لم يشأ أن يجد الجواب عنها فى « المزدكية » وهى دين آباءه وأجداده من الفرس ، ولا فى « الإسلام » وهو دين الدولة العباسية التى أظلمت . ولكنه وجد حلا لها فى « المانوية » . والرسالة التى نسبت إليه فى الزندقة والتى رد عليها القاسم بن ابراهيم الزبى تنهض دليلا على ما نقول . فإذا كان شىء يستحق التفاتنا فى هذه الرسالة التى تشير إليها الآن . فإن هذا الشىء هو حديث ابن المقفع عن الإسلام وحديثه عن المانوية . أما حديثه عن الإسلام فبم عن مسخرية وتهكم وشك يقصده الطعن فى هذا الدين . وأما حديثه عن المانوية فبم عن احترام وإيمان بهذه العقيدة التى ارتاح إليها ابن المقفع ، لأنه كما قلت وجد فيها حلا لهذه المشكلة التى شغلته وهى مشكلة حرية الإرادة .

وأما الجاحظ فانه لم يكن زنديقا وإنما كان معتزليا شديد الإخلاص للاعتزال . ولا شك أنه فكر في هذه المسألة بالذات . ولا شك أيضا أنه كان يوافق المعتزلة في القول بأن الإنسان يخلق أفعاله ويختارها وإن الله لا يخلقها له ولا يختارها . وأنتبه الظن بعد ذلك أن الجاحظ وجد حلا لهذه المسألة في « نظرية الطباع » .

وخلاصة هذه النظرية — كما يمكن أن نعرف ذلك من رسالته « حجج النبوة » — أن الله خالف بين طبائع الناس كما خالف بين طبائع الأشياء . فالنار من طبيعتها التسخين ، والنلج من طبيعته التبريد . ولا يمكن أن يكون العكس . والسبع من طبيعته الروث ، والحديد من طبيعته القطع ، والسهم من طبيعته القتل ، والغذاء من طبيعته أن يقيم . وكذلك أراد الله — كما يقول الجاحظ — « أن يكون المطبوع على المعرفة عالما ، والمهيا للحكمة حكيما ، وذو الدليل مستدلا ، وذو النعمة متعظا بها » . « وإذا كان الله تعالى لم يخلق عباد في طبع عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وآدم ابني البشر ، وخلقتهم ناقصين ، وعن درك مصالحهم عاجزين ؛ وأراد منهم العبادة ، وكلفهم الطاعة » كان من الحكمة إذن أن يبعث الله فيهم الرسل والأنبياء يعلمون الناس « لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » .

ويظهر أن الجاحظ طبق هذه النظرية نفسها على العالم الأخرى نفسه فقال إن من طبيعة الجنة أن تجلب إليها أهل الجنة ، وإن من طبيعة النار أن تجذب إليها أهل النار . بل إن أهل النار لا يخللون فيها عذابا وإنما يصيرون إلى طبيعة النار ١١١

ثم يظهر أيضا أن نظرية الطباع عند الجاحظ ولدت له مسألة أخرى أغرم بالكلام فيها كما يقول المؤرخون ، بل كان أول الذين عرضوا لشرحها من رجال المعتزلة . هذه المسألة الأخيرة هي « مسألة المعارف أو المتبركات العقلية » . فكان الجاحظ يقول أن المعارف أو الأشياء التي ندركها بعقولنا نتيجة طبيعية لاتباع الحواس ومن طبيعة حواسنا أن تحس . وهذا الذي تحسه نتيجة لازمة لذلك . فانت إذا أنعمت ببصرك في هذا الكلام الذي تقرأه الآن أدركت أنه كلام صحيح أو غير صحيح . وإنعامك النظر إلى الكلام عمل إرادي بمحض اختيارك ورغبتك . ولكن إدراكك لمعنى الكلام وإقتناعك أو عدم إقتناعك به عمل إضطرارى أو ضرورى لا خيرة لك فيه

وعلى هذا فانت إذا وصل إلى علمك دين من الأديان لا بد أن تكون واحدا من أربعة رجال :

١ - فأما أن تكون رجلا أدركت ما في هذا الدين من الصواب فاقتنعت به واعتقته . وأنت في هذه الحالة مؤمن مصدق .

٢ - وأما أن تكون رجلا أدركت ما فيه من الصواب ولكن كابرته وعاندت ولم تعتق الدين . وأنت في هذه الحالة كافر ومعاند .

٣ - وأما أن تكون رجلا عجزت عن إدراك ما في الدين من الصواب فلم تستطع أن تعتق أو لا تعتق . فأنت في هذه الحالة معذور لأن الله تعالى « لا يكلف نفسا إلا وسعها » .

٤ - وأما إذا لم يكن الدين نفسه قد وصل اليك فأنت في هذه الحالة الأخيرة لا لوم عليك .

وعلى هذا فالكافرون عند الجاحظ عددهم قليل ؛ لأنهم محصورون فقط في هؤلاء الدين مما هم معاندين ؛ لأنهم عرفوا الحق وكبر عليهم أن يدخلوا فيه .

غير أنه مما يجدر ذكره أن نظرية الطباع التي فكر الجاحظ فيها طويلا إلى هذا الحد لم تكن من ابتداعه ولو أنه له فيها فضل التوسع والشرح ، لأنها كثيرة الورد في كلام أستاذة النظام ، وفي كلام الفرق الدينية الأخرى عدا المعتزلة .

وكذا فإن نظرية الجاحظ في المعارف يمكن أن تكون أثرا واضحا من آثار ثقافته اليونانية قبل كل شيء . فإن هذه النظرية - وهي نظرية المعارف - تذكر الباحث دائما بنظرية « سقراط » في المعرفة . وأكبر الظن أن الجاحظ وكثيرين غيره من رجال المعتزلة لم تكن عقولهم فارغة من مثل نظرية سقراط في المعرفة ونظرية أفلاطون في المثل ونظرية السفسطائيين في الحواس . على أن من يطلع على كتاب الانتصار الذي أشرت إليه بدهش كيف أن ثمة ابن الأشرس من معتزلة الكوفة كان أيضا يقول بنظريتي المعارف والطباع . وكان الجاحظ نفسه يعالج ثمة ابن الأشرس هذا لإجلاله لأستاذة النظام ويذكره بغيره في كتبه ورسائله .

(والخلاصة) حتى الآن أن اعتزال الجاحظ يظهر في شيئين - يظهر أولا في شرحه آراء القدماء من رجال المعتزلة والدعوة الحارة إلى الأخذ بهذه الآراء .

ومن هذه الناحية نستطيع أن نطمئن إلى أن الجاحظ كان بمفرده جريئة مذهبية كبرى
نهضت بتسجيل آراء المعتزلة : كما نهضت بالإكبار من شأن عقيدتهم عامة وعذمت
النظام منهم خاصة . وفي هذا يقول الجاحظ : في كل ألف سنة رجس لا يقدر له
إن كان هذا صحيحا فهو النظام .

والشيء الثاني الذى ظهر فيه اعتزال الجاحظ هو هذه الآراء التى عرف بها
وكانت نتيجة لازمة لتفكيره في المسألة الهامة التى شغلت فلاسفة الأديان في كل زمان
ومكان — وهى مسألة حرية الإرادة .

ومن هذه الناحية الأخيرة يمكننا القول بأن هذه الحرية الفكرية الواسعة التى
عرف بها الجاحظ كانت تشر بظهور أفكار كثيرة يضيف بها الرجل شيئا جديدا
إلى الإعتزال ، أو يكون بها الرجل نفسه على رأس فرقة أخرى من فرق الندين
قد لا تقل شأنًا عن فرقة المعتزلة .

ولكن يظهر أن الجاحظ — لحسن حظه أو لسوء هذا الحظ — أراد أن يكون
معتزليا وكفى . نعم أراد أن يكون معتزليا وكفى . وكان يدرك إدراكا واضحا
أن الدولة لم تكن تشجع الحرية كما يفنى ، وإن هذه الحرية لم تكن مطلقة لغير القائلين
بالإعتزال . وإذا كان الإنتاج الفكرى وليد الحرية . فإن هذا الإنتاج الفكرى كان
متوقعا من هؤلاء المعتزلة قبل غيرهم من الناس . وبالفعل كان الجاحظ كاتباً حراً
منتجا بمعنى أنه كان يقول دائما ما يرضى الحكومة العباسية وما يرضى كذلك
خاصة الشعب ممن يسايرون الحكومة العباسية .

وعلى ذلك فأننا أميل إلى أن الجاحظ — كما قلت — لم يصف شيئا لآراء المعتزلة ،
وأنه إذا كان رجل قد أضاف إليها هذا الشيء الكثير الجليل فليس هذا الرجل
هو الجاحظ أولا وإنما هو أستاذه النظام .

(وبعد) فمن الجائز أن يكون هو هذا المعنى الذى قصد إليه الأستاذ (كارادى فو)
حين قال : « ولا أظن أنه من الممكن أن نستخرج من مؤلفات الجاحظ فلسفة
أو مذهباً من مذاهب الفلاسفة . لكننا نجد لديه روحاً فلسفية . وذوقاً أو إنجذاباً
قويا نحو الحياة الفكرية » .

عبد اللطيف حمزة

وثيقة بيع

دراسة ونشر وتحقيق

للدكتور عبد اللطيف ابراهيم

مدرس الوثائق بكلية الآداب - جامعة القاهرة

مقدمة :

موضوع هذا البحث يدور حول وثيقة جديدة من المجموعة الضخمة ، من وثائق
العصر الوسطى والعصر العثماني ، المحفوظة بأرشيف محكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة (١)
(المحكمة الشرعية سابقاً) . وهي وثيقة أصلية (٢) لم يسبق دراستها أو نشرها أو تحقيقها ،
بل هي أول وثيقة تنشر من هذه المجموعة القيمة من الوثائق العربية .

رقم الوثيقة : ١٦٨ محفظة ٢٥

نوع الوثيقة : خاصة .

موضوع التصرف : بيع عقار — أراضى باحاجة إدمه بالاشونين .

(١) J. Deny : Sommaire des Archives Turques du Caire, p. 217.

(٢) اتضح لنا بالدراسة الباليوجرافية الدقيقة لحظّ الشهود - الى جانب
الدراسة الدبلوماسية - ان الوثيقة اصل وليست صورة . انظر خط شاهدي
التصرف في الوجه سطر ٣٦ - ٤٧ لوحة رقم ٤ ، خط الشهود على الاسجال الحكمي
في الظاهر سطر ٢٤ - ٢٧ لوحة رقم ٧ ، وقد وقع كل منهم عقب شهادته بخط
يده .

انصرف : (١) المشتري السلطان قايتباي موكل ، الأمير قجهلس الاسحاق وكيل .

(ب) تبائع الصفوى جوهر بن عبد الله من جاني بك .

تاريخ الوثيقة . ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ .

أبعاد الوثيقة . ٢٥٧,٥ X ٣٢,٨ سم .

اولا - الدراسة

١ - في الشكل :

الوثيقة مكتوبة على ورق نباتي سميك نوعاً ، يضرب لونه إلى الاصفرار ، والراجح أنه من صناعة مصري ذلك الوقت ، ورغم أن تدرج الوثيقة يزيد على خمسمائة عام ، إلا أن التلف قد أصابها في مواضع قليلة ، كما أن بها آثار رطوبة في مناطق مختلفة ، وخاصة في الدرج الأول والثاني^(١) : والوثيقة على وجه العموم كاملة وفي حالة جيدة ، تبعاً لطريقة حفظها في علبة من الصفيح ، ولها أفلتت من عدوان الدهر وأثر الزمن ، الذي لاقته جل الوثائق المحفوظة في هذا الأرشيف التاريخي الكبير .

والدرج الأول به عدة تقريب وخروق ، وبعض حروف الكلمات الواردة في السطر الأول بالذات متأكدة مثل لفظ « بسم » و « ليسجل » في وجه الوثيقة^(٢) ، وعلامة القاضي الموثق « الحمد لله على جميل نعمائه » في الظهر^(٣) ، وكذلك كتبت كلمة « باطنة » على كشط^(٤) في ظهر الوثيقة .

والوثيقة مكتوبة من الوجه والظهر ، مطوية على هيئة ملف (roll) من أسفل إلى أعلى ، وقد كتب في الوجه عقد البيع بتاريخ ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ ، وفي الظهر الاشهاد أو الاسجال على صحة التصرف والحكم بلزومه على يد القاضي الموثق بتاريخ ٢٢ ذي القعدة سنة ٨٧٤ هـ .

...

١١. وجه الوثيقة سطر ٨٠٥ ، ١٢ ، لوحة رقم ٢٤١ .

١٢. وجه الوثيقة سطر ٢٠١ - لوحة رقم ١ شكل ٤

(٣) سطر ١ - لوحة رقم ٥ شكل ١٩

(٤) سطر رقم ١٦ ، ٢٢ - لوحة رقم ٧٠٦

أما طريقة إخراج الوثيقة فهي لا تختلف عما كان متبعاً في وثائق العصر المالكي عامة ، من حيث ترك فعر من الياض في أول الوثيقة قبل البسلة ، وذلك بحسب ما يقتضيه الحال ، وهي عادة سار عليها كتاب الوثائق في ذلك العصر وقبلة ، طبعة لقائيد وقواعد مرعية ، استقر عليها الوضع وصارت عرفاً أو قانوناً في نظر الكتاب جميعهم — كبارهم وصغارهم ، الرسميين منهم وغير الرسميين — لا يتحولون عنه ^(١) . وكذلك ترك الكتاب ربعا من عرض الدرج يائضا دون كتابة كهاش أيمن تبدأ لما درج عليه الكتاب المعبرين ، وهو اعتبار حسن لا يكاد يخرج عن القانون .

وردت على الهاش الأيمن ثلاثة نصوص أو اشهادات مختلفة ثبت ما يلي :

١ — وقف المتصرف فيه أو المبيع وهو جميع النصف من ناحية إدموه على جامع السلطان قايتباي بالصحراء وعلى أرباب الوظائف وغير ذلك من جهات بروقيات بتاريخ ٢٨ جمادى الآخرة ٨٧٩ هـ ^(٢) ، ويبلغ طول هذا النص ٢٠ ر ٣ سم .

٢ — جريان المتصرف فيه في ملك البائع العفوى جوهر وحيارته وتصرفه حال صدور البيع ^(٣) ، ويبلغ طول هذا النص ٢٤ ر ٨ سم .

(١) انقلقتسندی : صبح الاعشى ج ٢ ص ١٢١ - ١٢٨ ، ج ٦ ص ١٩٥ - ١٩٦ ، ج ٩ ص ٢٢٣ - ٢٢٥

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير أخور كبير قراقبا الحسنى (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة - م ١٨ ج ٢) ص ١٨٩ حاشية ٢ ، ١٩٠ حاشية ١

١٢١ لم نعثر على وثيقة الوقف الأصلية : ولكن وجدنا صورتين صحيحتين لها — الأولى ملف أو لفافة من دروج الرق الاوصال المخيطة رقم ٨٨٨ بارشيف الأوقاف : والثانية كتاب مجلد رقم ٨٨٦ بنفس الأستيف تاريخها ٢٤ ، ٢٨ جمادى الآخرة سنة ٨٧٩ هـ . وقد ورد في كل منهما وصف لعمائر السلطان قايتباي بالصحراء . وعلى الجامع والنبه والسبيل والمكتب وغيرها . كما ورد فيها ذكر الحصة المتصرف فيها بالبيع — وعلى باراننى ناحية إدموه — من بين العقارات الموقوفة بهم مرتبات ارباب الوظائف وغير ذلك ، وأخيرا نجد توقيع كل من الشاهدين محمد بن محمد بن الركن الأسيوطى وأبو بكر بن أحمد الزعيفرى اللذين وقعا على هذا النص الهامسى . انشر نص الوثيقة حاشية ١ : لوحة رقم ١

وجه وثيقة قايتباي أوقاف ٨٨٨ رقم ٨٨٦ ص ١٢ - ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥

Mayer : The buildings of Qaytbay as described in his endowment deed, pp.6-16, 64, 67.

(٢) انظر نص وجه الوثيقة حاشية ب لوحة رقم ٢

٣ — أهلية المتعاقدين — الصفوى جوهر البائع والسيفى قبحاس وكيل المشتري —
ورضاءهما التام فى حال صحة كل منهما وولاته ، على ما تضمنه عقد البيع ^(١) ، ويبلغ طول
هذا النص ٢١٢ سم .

• • •

وعدد دروج الوثيقة ستة ^(٢) ، ويبلغ طولها كلها ٢٥٧ سم ، ويتراوح طول
الدرج الواحد بين ٤٢٣ — ٤٣٢ سم ، وعرضه بين ٢٢٦ — ٢٢٩ سم ، وعدد
السطور الواردة فى الوجه تسعة وأربعون سطراً ، وفى الظهر سبعة وثلاثون سطراً .
أما المسافة بين السطور فى الوجه فهى متفاوتت بين ٣٧ — ٥ سم .

وتبدأ الكتابة فى وجه الملف وظهره عند نقطة واحدة ، وعلى بعد مناسب من بداية
الدرج الأول تقريباً ، وإذا كانت الكتابة على الوجه تغطى جل مساحة الدروج ، فإننا
نجد حوالى الثلث الأخير من الظهر — بعد تزيينات الشهود على الاسجال الحكى —
خال من الكتابة تماماً .

أما الجبر الذى كتبت به الوثيقة فلونه أسود داكن به قمر من أكسيد الحديد ، والوثيقة
مكتوبة بخط اصطلاح على تسميته بالديوانى — فيما عدا الألفاظ والمبارات التالية — وهى :
« ليسجل » فى أول وجه الوثيقة ، التصديق على شهادة شاهدى التصرف أسفل توقيع
كل منها ، ثم الحمدلة والتاريخ والحسبة فى ظهر الوثيقة ، فهذه كتبت بقلم جليل بخط القاضى
الموثق نفسه — وهو ينهى فى أصله إلى خط التوقيع المطابق ^(٣) ، إذ يتصف بالاستدارة
وفيه ميل إلى التقوير ، كما أن فى سطوره تقوير على نسبة تقوير حروفه ^(٤) .

ومها يكن من أمر ، فالخط مكتوب بدقة وعناية ، بيد كاتب ماهر متملم ، وأغلب
الكلمات واضحة مقروءة . ومن دراسة خط الوثيقة ظاهراً وباطناً ، وخاصة طريقة الكاتب
فى معالجة الألفاظ واتجاه الحروف وأشكالها ، يضح لنا أن الكاتب شخص واحد ^(٥) ،

(١) انظر نص وجه الوثيقة حاشية ج لوحة رقم ٣

(٢) انظر الجدول ص ١٤١ حيث تجد بياناً مفصلاً لكل درج .

(٣) عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير آخوور كبير فراقبنا الحسنى

ص ١٩٠ — ١٩١ وما بها من حواشى .

(٤) انظر اللوحات رقم ٢ ، ٣ ، ٥ ، ٦

(٥) انظر الخط الذى كتبت به البسملة والحمدلة والتضلية فى كل من وجه

وظهر الوثيقة سطر ١ ، وكذلك القاب السلطان قايتباى الواردة فى الوجه سطر ٢ — ٧
وتلك الواردة فى الظهر سطر ٢ — ٤ لوحة رقم ١ ، ٥

وإذا كان ذلك كذلك فمن المحتمل أن يكون كاتب الوثيقة ^(١١) هو الشاهد العدل الكاتب المجيد الموضع الشيخ محمد بن محمد بن الركن الأسيوطى ، وذلك بمقارنة الخط الذى كتب به ألقاب القاضي المرقى والوردة في متن الشاهد بذلك التى جاءت في صيغة شهادة الشيخ الأسيوطى والتي كتبها بخط يده في ظهر الوثيقة ^(١٢) .

...

وقد جرى كاتب الوثيقة على ما كان شائعاً في ذلك العصر ، من كتابة نص الوثيقة نباعاً ، بحيث لا نجد بين سطورها قطعاً أو فواصل بين كل عبارة وأخرى ، أو بين كل موضوع والذى يليه . فالوثيقة تبدأ وتنتهى من غير أن نعرف لها نبوياً أو وقفاً ، وهذه هي طبيعة الكتابة في ذلك العصر وعلى أمثالها سار كاتب الوثيقة .

وقد أهمل الكاتب الهزات إجمالاً تاماً ، إذ اغفلها في آخر الكلمات مثل الازرا (وجه سطر ٨ ، ظهر سطر ٦) ، الامرا (وجه سطر ١٠) ، الأنيا (وجه سطر ١٩) ، اشترا (وجه سطر ٢٤) ، ابدا (وجه سطر ٣٤) ، العلما والفضلا (ظهر سطر ١٠ ، ١١) ، القضا (ظهر سطر ١٢) ، الادا (ظهر سطر ١٦) — كأبذل الهزة اللينة في أواسط الكلمات ياء مثل شايها (وجه سطر ١٦) ، ساير (وجه سطر ١٩) ، البايغ (وجه سطر ٢٢ شكل ٨ ، سطر ٢٨ ، ٣١ ، ٤٣ ، ٤٤) ، قضايه (ظهر سطر ١٢) ، معيولا وشرايطه (ظهر سطر ٢٢ شكل ٢٩) .

ومن الناحية الباليوجرافية توجد كثير من الملاحظات التي تسترعى الانتباه ، كأن نواعد الكتابة غير مستقرة دائماً ، فقد دأب الكاتب على إيجاز بعض الألفاظ عند كتابتها أو إغفال بعض الحروف أحياناً بدءاً لطريقته وسرعته في الكتابة مثل المذكور (وجه سطر ٢٢ شكل ٨ ، سطر ٢٨) ، دينار (وجه سطر ٢٦ شكل ١١) ، البايغ (وجه سطر ٢٢ شكل ٨ ، سطر ٢٦ ، ٢٩ ، ٣١) ، ووقع (وجه سطر ٣٤ شكل ١٢) ،

١١ ، يظهر ان المحرر والكاتب تحس واحد ، فقد كان الشيخ الأسيوطى من الخبراء في السروف ، العارفين بأمور صناعة التوقيع والكتابة ، فهو الذى حرر التوقيع كلها في صيغتها القانونية التعرعية — عقد البيع في الوجه والاسجال في الظهر كما قام بكتابتها بنفسه ، باعتبارها وثيقة خاصة للسلطان قايتباى . أنظر ترجمته في التحقيقات العلمية — تحقيق رقم ٤٩

(٢) انظر ظهر الوثيقة سطر ٩ — ١٠ لوحة رقم ٥ ، سطر ٢٤ — ٢٥ لوحة

رقم ٧

تعالى (ظهر سطر ٢٣ شكل ٢١) ، مرفئها ، فيها ، رفعت (ظهر سطر ١٨ ، ٢٠ ، ٢٣ على التوالي) ، وأحياناً أخرى يصل الحرف المفرد باللاحق به أو السابق عليه في نفس الكلمة الواحدة مثل ان مولانا (سطر ٢ شكل ٣) ، أعز الله (وجه سطر ١ : شكل ٥) ، اشترى (وجه سطر ١٢) ، أعلاه (وجه سطر ٢٧ ، ٤٤ شكل ١٤) ، اشباد وأعوانه (سطر ٧ شكل ٢١ ، ٢٢ على التوالي) ، شوال (ظهر سطر ٩ شكل ٢٣) ، الكريمة (ظهر سطر ١٣ شكل ٢٤) ، ذى القعدة^(١) (ظهر سطر ١٤ شكل ٢٧) شهادته (ظهر سطر ١٩ شكل ٢٦) ، اسبحاله (ظهر سطر ٢٦ شكل ٢٣) — كما نجد يصل بعض الألفاظ ببعضها مثل الحمد لله صلى الله (وجه سطر ١ شكل ٢) ، توكلا شرعياً (وجه سطر ١٤ شكل ٦) ، وينسب اليه (وجه سطر ٢٠ شكل ٧) ، المشار اليه (وجه سطر ٢٤ شكل ١٠) ، نعم الوكيل (وجه سطر ٣٥ شكل ١٣) ، معتد به (ظهر سطر ٢٣ شكل ٣٠) — وقد جاءت بعض الألفاظ منفصلة مثل خمس مائه (وجه سطر ٢٥) ، ثمان ميه (وجه سطر ٣٥ ، ظهر سطر ٩ ، ١٥) أو متصلة مثل سبعاية (وجه سطر ٢٦) .

وكذلك أهمل الكاتب الشكل إملاً تاماً ، فيما عدا لفظ إذْبُوه (وجه سطر ١٧) ، أما اللفظ فإنما كنا نجد أحياناً ، فإن كثير من الكلمات والألفاظ وردت دون قطع ، بل إن سطراً بأكملها جاءت خالية منها تماماً^(٢) ، أو قد نجد أحياناً موضوعاً في غير مكانه .

هذا وقد حرصت على نشر المتن وإخراجه في صورة صحيحة مستقيمة ، دون الإخلال بأصله وشكله ، وكل سطر جعلته سطراً تاماً عند النشر ، وتركت نص الوثيقة — عقد البيع في الوجه والإسجال المحكى في الظهر ، وأقيمت على كل منها دون تعديل أو تغيير ، وذلك ليتعرف القارئ الأساليب والصيغ القانونية الخاصة بالبيع ، والشاهد عليه في هذه الوثيقة الملكية المركبة .

(١) هذه كتبها القاضي الموفق نقيب بخط يده .

(٢) انظر وجه الوثيقة سطر ١ ، ٤ ، ٥ : ٢٠ ، ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٦ ، ٢٧ ،

٢٩ ، ٣١ ، ٣٣ ، ٣٤ لوحة رقم ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ — ظهر الوثيقة ببطر ١ ، ٣ ، ٨ : ١٠ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ١٧ — ٢٣ لوحة رقم ٥ ، ٦ ، ٧

جدول لبيان طول كل درج من دروج الوثيقة

وعرفه بالسنتيمتر وعدد سطوره

رقم الدرج	طول الدرج	متوسط عرض الدرج	عرض الهامش الأيمن	عدد السطور الوجه
١	٤٢,٨°	٣٢,٧	١٠,٦	٣
٢	٤٣,١	٣٢,٦	١٠,٢ - ١٠,٥	٩
٣	٤٣,٣	٣٣,٩	١٠,٨	٠,٩
٤	٤٣	٣٢,٨	١١	٠,٨
٥	٤٣	٣٢,٨	١١,٣ - ١١,٧	١١
٦	٤٣,٣°	٣٢,٦	١١,٧ - ١٢,٤	٩

* تشغل الكتابة مسافة قدرها ١٢,٦ سم فقط من نهاية هذا الدرج ، أما أوله فبياض لا كتابة فيه لمسافة ٣,٠٢ سم فيما عدا تأشيرته على الهامش الأيمن ، وعلى بعد ٧,٢ سم من السطر الأول نصها : « الشيخ صدر الدين أعزه الله تعالى » . ونعلها بخط قاضي القضاة محب الدين بن الشحنة الحنفى الى أحد نواب مذهبه في ذلك الوقت ، وهو الفاعل الوثيقى القاضى الشيخ صدر الدين أبو الخير محمد بن أبى عبد الله محمد بن الرومى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ، ليقوم بالاشهاد على التصرف القانونى (البيع) - أى بتوثيقه والحكم بصحته .

انظر القاب القاضى الموثق بنص الوثيقة - الظهر سطر ٩ - ١١ ، وكذلك انظر عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباى - اوقاف رقم ٨٨٧ - كتاب المؤمر الثالث للآثار فى البلاد العربية ص ٤٣٤

تحل الكتابة مسافة طولها ٢٤,٥ سم فقط من بداية هذا الدرج ، أما بقيته - وحتى نهاية الوثيقة - فخال من الكتابة تماما ، ويبلغ طوله ١٧,٨ سم .

٢ - في الموضوع :

(١) وجه الوثيقة - عقد البيع والشهادة عني :

١ - الافتتاحية : البسلة والمجدلة والصلية (١) .

٢ - نوع التصرف : بيع - ونحوه « هذا مكتوب تباع صحيح شرعى لازم محرر معتبر مرعى » وعلى الهامش الأيمن لفظ « ليسجل » (٢) بخط انقضى الموثق .

٣ - الفاعل القانوني : المشتري السلطان الملك الأشرف أبو النصر قايتباي المودى ووكيله الأمير فحاس الاسطاق ، والبائع الصفوى جوهر بن عبد الله من جانب بك الجمدار - وقد عُرف كل منهم بذكر وظيفته وألقابه المختلفة ثم الدعاء له (٣) .

٤ - المتصرف فيه : جميع النصف من جميع أراضى ناحية إدموه بالأشوين بالوجه القبلى من أناليم الديار المصرية ، خلا ما بأراضى الناحية المذكورة من الرزق الجيشية والاحيامية ، وطرق المسلمين ومقابرهم وسبلهم ومساجدهم .

وتذكر الوثيقة الحدود الأربعة لناحية إدموه بدقة تامة ، وأن الأرض المتصرف فيها بالبيع جارية بيد البائع وملكوه وتصرفه بدلالة مكتوب أو مستند شرعى موثق (٤) .

٥ - الثمن : ألف وخمسمائة دينار من الذهب الظاهرى والأشرفى الطيب . السالم من العيب الشرعى معاملة الديار المصرية آنذاك ، وهذا الثمن التقضى حال الدفع أو الأداء غير مؤجل (٥)

٦ - اقرار البائع : اعترف البائع بقبض الثمن بتمامه وكماله من مال المشتري على يد وكيله ، وأنه لم يتأخر له قبلها من الثمن المذكور شيء قل ولا جل .

(١) سطر ١ لوحة رقم ١ تحقيق رقم ١

(٢) سطر ٢ لوحة رقم ١ تحقيق رقم ٢

(٣) سطر ٢ - ١٥ لوحة رقم ١ ، ٢ تحقيق رقم ١٠ ، ١٥ ، ٢٢

(٤) سطر ١٦ - ٢٢ لوحة رقم ٢ ، ٣ تحقيق رقم ٢٤

(٥) سطر ٢٥ - ٢٦ لوحة رقم ٣ تحقيق رقم ٢٧ ، ٢٨

وقد عاد البائع مرة أخرى وأثر صراحة أنه لا يستحق قبل المشتري ووكيله ، أى حق من الحقوق على الإطلاق لما مضى من الزمان وإلى تاريخه^(١١) .

٧ — التخلية والتسليم والتسلم : خلى البائع بين المشتري وما منه البيع ، لتسلم ذلك التسلم الشرعى بعد النظر أو الرؤية والمعرفة والتقليب الكاف ، وذلك كله بعد أن انعقد البيع صحيحاً بالإيجاب والقبول الشرعيين^(١٢) .

٨ — تاريخ التصرف : ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ^(١٣) .

٩ — الدعاء الختامى : الحسيلة^(١٤) .

١٠ — صيغ الشهادة : وردت شهادة كل من الشاهدين بخطه بالصيغة البانية ، متطابقة لفظاً ومعنى^(١٥) .

١١ — توقيع الشاهدين : محمد بن محمد بن الركن الأسيرطلى ومحمي بن عمر بن احمد السفلى ، وكتب كل منهما توقيعيه بخط يده دون ذكر للذهب الذى ينسب اليه^(١٦) .

١٢ — تحديد القاضى الموثق : وردت تأشيرة الموثق أسفل كل توقيع فى سطرين ، وهى علامة على أداء الشاهد لشاهدته وقبولها شرعاً^(١٧) .

(١) سطر ٢٧ — ٢٨ ، ٢١ — ٢٢ لوحة رقم ٢ تحقيق رقم ٢٩

(٢) سطر ٢٩ — ٣٠ لوحة رقم ٣ تحقيق رقم ٢٣

(٣) سطر ٣٤ — ٣٥ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٥٥

(٤) سطر ٢٥ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٦

(٥) سطر ٣٦ — ٤٦ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٧

(٦) سطر ٤٥ ، ٤٧ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٩ ، ٥٠

(٧) سطر ٤٦ — ٤٧ ، ٤٨ — ٤٩ لوحة رقم ٤ تحقيق رقم ٥١ ، ٥٢

(ب) ظهر الوثيقة - الاسجال الحكمى والشهادة عليه (١) :

- ١ - الافتتاحية : البسملة والمجدلة والتعزية ^(٢) .
- ٢ - علامة القاضي المرقن : الحمد لله على جزيل نعمائه ^(٣) .
- ٣ - الفاعل الوثيقى : القاضى الشيخ أبو الخير محمد بن أبى عبد الله محمد بن الرومى الحنفى خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ^(٤) .
- ٤ - نص الاشهاد : وفيه اشهد القاضى الموثق على نفسه من حضر مجلس حكمه وقضائه بتاريخ ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ على ما يأتى :
- أولا : أنه ثبت عنده ثبوتا صحيحا شرعيا تاما معتبرا مرضيا ، بشهادة العلول من الموثقين وكتاب الحكم وغيرهم من الشهود المتبولة شهادتهم شرعا على ما يأتى :

(١) الاسجال او الاشهاد على عقد البيع عمل من اعمال التوثيق فيه معنى الشهر والعلانية فى مجلس الحكم - انظر ظهر الوثيقة سطر ١٢ - وتنضع لنا أهمية التوثيق فى العصر المملوكى من نهافت الناس - كبيرهم وصغيرهم - على البسات تصرفاتهم المختلفة ، وحرصهم على توثيقها بالاشهاد عليها امام القضاة . وهذا يجعل من عقد البيع محررا رسميا موثقا له قوة تنفيذية ، وتصبح الوثيقة مستندا شرعيا مقبولا فى كل ظرف وحال ، وهكذا يكون القرض من الاشهاد تايد واجازة العقد حتى لا يكون هناك مجال الى فسغه .

ويظهر ان القاضى الموثق ، قد قرأ عقد البيع وبحثه بحثا وافيا من جميع النواحي فى مجلس حكمه ، وتأكد من ان صياغة الوثيقة تؤدى الماعنى التى يريد بها طرفى العقد (كل من المشتري ووكيله والبائع) من غير لبس او غموض ، وانها جائزة شرعا ، ولذلك حكم بصحة العقد ولزومه حكما صحيحا شرعيا ، ثم امر بتسجيله ليكون مشهرا وحجة على المتعاقدين والغير ، وكتب بخطه على الهامش الايمن فى بداية وجه الوثيقة « ليجل » ، ثم اشهد على نفسه بذلك من حقه مجلس حكمه وقضائه فى ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ . هذا وقد روعى فى صياغة الاشهاد او الاسجال الشروط التى نص عليها الفقهاء ، فجاءت كاملة من الناحية الفقهية مستوفاة لشروط الصحة الشرعية .

عبد اللطيف ابراهيم : التوثيقات الشرعية والاشهادات (مجلة كلية الاداب جامعة القاهرة - م ١٩ ج ١) ص ٣٠٠ - ٣٠٥ ، ٢١٤ - ٢٢٠ وما بها من مصادر .

(٢) ، (٣) سطر ١ لوحة رقم ٥ تحقيق رقم ١ ، ٥٤ على التوالى .

(٤) سطر ٩ - ١١ لوحة رقم ٥ : ٦ تحقيق رقم ٥٨

(أ) ائهاد المشترى السلطان قايتباى على نفسه بجمع ما نسب اليه فى عقد البيع ، المدون فى وجه الوثيقة ، والمؤرخ فى ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ ، بشهادة شاهدى التصرف محمد بن محمد بن الركن الأسبوطى ويحيى بن عمر بن احمد السفلى^(١) .

(ب) ائهاد كل من السفى فيجاس وكيل المشترى ، الصفوى جوهر البائع على نفسه بجمع ما نسب اليه فى عقد البيع المذكور ، ومعرفتها المعرفة الشرعية ، بشهادة الشاهدين السابق ذكرهما^(٢) .

(ج) مضمون فضلى الملك والحيازة ، والاعذار المصطرين بهامش وجه الوثيقة بشهادة الشهود العلول آخر الفصلين المذكورين^(٣) .

ثانياً : أنه حكم بموجب ذلك — أى بما ثبت عنده — بصحة عقد البيع ولزوما ، حكماً صحيحاً شرعياً تاماً معتبراً مرضياً سؤلاً فى ذلك مستوفياً شرائطه الشرعية^(٤) .
٥ — الدعاء الختامى : الحسيلة^(٥) .

٦ — صيغ الشهادة : جميعها متفقة فى المعنى وبعضها متطابقة لفظاً ومعنى ، وتبدأ صيغة الشهادة الأولى بلفظ « ائهنى » أما باقى الصيغ فتبدأ بلفظ « وبذلك ائهنى » . وصيغة شهادة الشاهد الثانى والثالث متفقة ومتطابقة فى اللفظ والمعنى ، وكذلك صيغة شهادة كل من الشاهد الرابع والخامس والسادس^(٦) .

٧ — عدد الشهود ومذاهم^(٧) : ستة شهود — وهم محمد بن محمد بن الركن الأسبوطى ، يحيى بن عمر بن احمد السفلى (وهما شاهدى التحرير والتصرف) ومحمد ابن محمد بن محمد بن الحسن الجعفرى ، عبد القادر بن محمد الخنقى ، عبد القادر بن محمد

-
- (١) سطر ٧ — ٩ لوحة رقم ٦٠٥ . وجه الوثيقة سطر ٣٦ — ٤٠ .
(٢) سطر ١٦ — ١٨ لوحة رقم ٦ . وجه الوثيقة سطر ٤١ — ٤٤ ، ٤٠ — ٤٦ .
(٣) سطر ١٨ — ٢٠ لوحة رقم ٦ تحقيق رقم ٢٤ ، ٤٠ .
(٤) سطر ٢٠ — ٢٢ لوحة رقم ٦ تحقيق رقم ٦٥ ، ٦٨ .
(٥) سطر ٢٤ لوحة رقم ٧ تحقيق رقم ٤٦ .
(٦) سطر ٢٤ — ٢٧ لوحة رقم ٧ تحقيق رقم ٧٢ .
(٧) بحثنا التوثيقات الشرعية والاشهادات ص ٣١٠ — ٣١٢ وما بها

من مراجع .

الرومي ، محمد بن محمد بن محمد الرومي — وقع كل منهم بخط يده ، والشاهد الأخير هو ابن القاضي الموثق (١) . ولم يذكر أحد منهم المذهب الذي ينتسب إليه غير الشاهد الرابع وهو حنفى ، أما كل من الأول والثالث فهو شافعى والثانى مالكي المذهب (٢) .

٨ — التسجيل : أمر القاضي الموثق بتسجيل عقد البيع بعد الحكم بصحته وتوثيقه على يديه ، ليكون حجة على المتعاقدين وغيرهم ، وكتب بخط يديه لفظ « ليسجل » بصيغة الأمر على الهامش الأيمن في بداية وجه الوثيقة (٣) .

(١) سطر ٢٧ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٥ ، ٣٧ لوحة رقم ٧ شكل ٢٤ تحقيق رقم ٧٨

(٢) انظر التحقيقات رقم ٤٩ ، ٥٠ ، ٧٦

(٣) سطر ٢ لوحة ١ تحقيق رقم ٢

(١) وجه الوثيقة :

الشيخ صدر الدين انزوي الله تعالى

١ - [بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله وحده وصلى الله على نبينا محمد
والله وحده وسلم^(١)

٢ - هذا مكتوب تباعح صحيح شرعى لازم عجز معتبر مرعى مضمونه ان مولانا^(٢)
المقام الشريف

٣ - الامام الاعظم المجاهد^(٣) المظفر^(٤) السلطان^(٥) المالك الملك الاشرف
سلطان الاسلام

٤ - المسلمين تاتل الكفرة والمشركين نعى العدل فى العالمين منصف المظلومين
من الظالمين

(١) يوجد عن الهامش الايمن فيما بين السطر ٤ - ٩ النص التالى ، وقد
كتب فى تاريخ متأخر عن تاريخ الوثيقة نفسها بحوالى خمس سنوات : لوحة رقم ١
الحمد لله وحده - وقف مولانا المقام الشريف السلطان المالك الملك - الاشرف
نصر قايتباى المنزه باسمه الشريف - قرينه نصره الله تعالى جميع الصالحين
اراضى ناحية ادموه - المحدود ذلك قرينه وما هو من حقوق ذلك على مصالح -
جامعه المعروف بانشايه الكاين بالصحرا ومصالح - سبله وارباب الوظائف بذلك
وعلى جهات - بر وقربات عينها فى وقفه حسبما يشهد بذلك مفصلا - وقفا ونظرا

٥ - قاهر الحوارج والملاحدين ميد الطغاة والمارقين حامى حوزة الدين جامع
كلمة الايمان قانع عبدة

٦ - الصليبان (٧) وارت + الملك (٨) سلطان ملوك العرب والعجم والترك (٩) ملك
البرين والبحرين

٧ - خدام الحرمين الشريفين ظل الله الوارف ورحمته السابعة للبادى والماكف
واناصر دينه الذى قطعت

٨ - الارا بتفضيله ولا يخالف هو ابو النصر قايتباى (١٠) شيد الله تعالى ملكه
وسلطانه ونصر جيوشه

٩ - واعوانه ويجدد له في كل يوم نصيرا ومليكه بساط الارض برا وبحرا وكبت
علمه غما وقهرا وكل (١١)

١٠ - الجباب (١٢) العالي الاميرتى (١٣) الكيرى السيفى (١٤) قبايس الاستحاق (١٥)
احد السادة الامرا بالديار المصرية للملكى الاشرفى (١٦)

١١ - اعز الله نصرته في اتباع ما يذكر فيه بما يراه من الثن قابله وكثيره وفي التسلم
والتسليم والمكاتبه والاشهاد على الوجه الشرعى وتعاطى ما يشرح فيه

= واستحقاقا وشروطا كتاب - وقفه الشرعى (١٧) الجامع لذلك واخره الموافق
لتاريخه بشهادة - شهوده في تاريخين اخرهما الثامن والعشرين من جمادى -
الاخرة سنة تسع وسبعين وثمان مائة وحسبنا الله ونعم الوكيل .

شهد في اصله بذلك

شهد في اصله بذلك

محمد بن محمد بن (الركن) الاسيوطى (١٨) ابو بكر بن احمد الزعيفرىنى (١٩)

+ كذا في الاصل - لوحة رقم ١

- ١٢ - نوكلنا شرعياً بشهادة شهوده ويقضيه ذلك وحكمه اشترى (٢٠) *
- ب ١٣ - لولنا المقام الشريف السلطان المالك الملك الاشرف ابي النصر قايتباي المنوه باسمه الشريف اعلاه
- ١٤ - شرفه الله تعالى وعظمه وكيله الشرعى في ذلك بشهادة شهوده هو الجنب العالى الاميرى السيفى قجماس المشار اليه فيه
- ١٥ - من الجنب العالى الصفوى (٢١) جوهر بن عبد الله من جاني بك (٢٢) احد الجندارية (٢٣) بالحكم الشريفه للملك الاشرف اعزه الله تعالى جميع (٢٤)
- ١٦ - الحصة التي ملئها النصف اثنا عشر منها من اصل اربعة وعشرين منها شايما (٢٥) ذلك من جميع اراضى ناحية (٢٦)
- ١٧ - إدوموه (٢٧) بالاشمونين بالوجه القبلى من اقاليم الديار المصرية ولكامل ذلك حدود اربعة الحد القبلى يتبى (٢٨) الى طوخ
- ١٨ - الحبل + (٢٩) والحد البحرى يتبى الى غيط بنى سمرج (٣٠) والحد الشرقى يتبى الى بحر السيد يوسف على نينا وعليه
- ١٩ - افضل الصلاة والسلام وعلى سائر الانبياء والمرسلين والحد الغربى يتبى الى الجبل الايض مجد ذلك
- ٢٠ - كله وحقوقه (٣١) الداخلة فيه والخارجة عنه وما يعرف بذلك وينسب اليه خلا ما باراضى الناحية المذكورة فيه من الرزق الجيشية

× فى الأصل « لشترى » - لوحة رقم ٢

(ب) يوجد على الهامش الايمن فيما بين السطر ١٢ - ١٨ النص التالى :

لوحة رقم ٢

الحمد لله وحده - يشهد من يوضع اسمه اخره بمعرفة الجنب الصفوى جوهر من جاني بك الباع المشار اليه اعلاه وجميع اراضى ناحية ادومه بالاشمونين المحدود ذلك الموصوف اعلاه - المعرفة الشرعية ويجريان ما شمله عقد التبائع الماطر اعلاه فى ملك الصفوى جوهر المشار اليه فيه وحيازته وتصرفه حال صدور التبائع الماطر اعلاه يعلم شهوده ذلك ويشهدون به مسئولين فى ذلك .

شاهد بمضمونه

شاهد بمضمونه

احمد بن احمد بن فضل عرف على بن كامل (٣) بن محمد المحمودى بالمويرى (٤) وكتب عنه باذنه شهيدا بقلك وقبلا وكتب عنه باذنه

+ فى الأصل « الجبل » انظر لوحة رقم ٢

(ج) يوجد على الهامش الايمن فيما بين السطر ٢١ - ٢٦ النص التالى :

لوحة رقم ٢

الحمد لله وحده - اشهد على كل من الجنب العالى الاميرى السيفى قجماس:-

٢١ - والإحسانية وطرق المسلمين ومقارنهم وسبلهم ومساجدهم^(٣٣) المعلوم ذلك
جميعه أصلا ومستثنى العلم الشرعي النافق للجهالة^(٣٣)

ج

٢٢ - الجارى ذلك بيد البايع المذكور وملكوته وتصرفه بدلالة مكتوبه اشرعى^(٣٤)
الثابت مضمونه المحكوم بموجبه فى الشرع الشريف واصل له

٢٣ - رقا والاول ورق^(٣٥) وخصم كل منها بقضية هذا التابع بفصل انتقال
موافق لتاريخه وشهوده وبقي ذلك بيد الوكيل

٢٤ - المشار اليه ليسلم ذلك لموكله مولانا المقام الشريف المنه باسمه الشريف اعلاه
نصره الله تعالى اشترا صحيحا شرعيا^(٣٦)

٢٥ - بشن^(٣٧) مبلغه من الذهب الظاهرى والاشرقى^(٣٨) الطيب السالم من العيب
الشرعى معاملة الديار المصرية الان الف دينار واحدة وخمس مائة دينار

٢٦ - نصف ذلك سبعاية دينار وخمسون دينارا حال جميع ذلك اعترف الصفوى
جوهر البايع المشار اليه انه وصل اليه واستوفى^(٣٩)

٢٧ - من مال مولانا المقام الشريف على يد الجناب العالى السيفى فيجاس المشار
اليه جميع الثمن المعين اعلاه بتيامه وكفاله وانه لم يتاخر

٢٨ - للبايع قبل مولانا المقام الشريف المشتري له المشار اليه اعلاه نصره الله تعالى
ولا قبل السيفى فيجاس من الثمن المذكور شئ قل ولا جل

= والجناب العالى الصفوى جوهر التابعين المشار اليهما اعلاه اعزهما الله تعالى شهوده
اشهادا شرعيا - فى صحته وسلامته (٤٠) انه لا دانع له ولا مطعن فيما تضمنه
مكتوب التابع المسطر باعاليه ولا فيمن شهد بذلك ولا فيما شهد به ولا فى شئ
من ذلك وحسبنا الله ونعم الوكيل .

شهد عليهما بذلك

شهد عليهما بذلك

محمد بن محمد الكلبياتى (٤١)

احمد بن محمد المو (٤٢) المتوفى

شهدا عذدى بذلك

اعزهما الله تعالى

- ٢٩ - ونحلى^(٤١) البائع بين المشتري وما منه المبيع المذكور فيه ليتسلم ذلك التسلم الشرعى لموكله المنوء باسمه الشريف اعلاه شرفه الله تعالى وعظمه
- ٣٠ - وذلك بعد النظر والمعرفة والتقليب الكافى^(٤٢) في ذلك والمعاقبة الشرعية المشتملة على الإيجاب والقبول الشرعيين^(٤٣) واقر
- ٣١ - البائع انه لا يستحق قبل المشتري له مولانا المقام الشريف نعره الله تعالى ولا قبل الجناح السيفى فجهاس المشار اليه فيه حق ولا استحقاق
- ٣٢ - ولا دعوى ولا طلباً ولا ذهباً ولا فضة ولا فلوساً ولا مقبوضاً ولا رجوعاً به ولا ثمتاً ولا بقية منه ولا عيناً ولا دعوى به ولا حقاً
- ٣٣ - من الحقوق على الاطلاق ولا مالا من الاموال على العدم ولا يمينا بالله تعالى ولا شيئاً قل ولا جل لما مضى من الزمان والى تاريخه^(٤٤)
- ٣٤ - ووقع الاشهاد على ذلك وبالتوكيل في نيوته والدعوى به وطلب الحكم به وابدا الدافع وتيقه التوكيل الشرعى وتم في الخامس والعشرين من
- ٣٥ - شوال المبارك سنة اربع وسبعين وثمان ميه^(٤٥) وحسبنا الله ونعم الوكيل^(٤٦)
- ٣٦ - اشهد^(٤٧) على مولانا المقام الشريف ١١
- ٣٧ - الامام الأعظم المجاهد ١١
- ٣٨ - المظفر السلطان الملك الاشرف ١١
- ٣٩ - ابى النصر قايتباى المنوء باسمه ١١
- ٤٠ - الشريف اعلاه شرفه الله تعالى ١١
- ٤١ - وعظمه والجناح العالى الاميرى السيفى فجهاس ١١
- ٤٢ - المشتري الوكيل المشار اليه اعلاه اعز الله تعالى ١١
- ٤٣ - نصرته والجناح الصغرى جوهر البائع ١١
- ٤٤ - المشار اليه اعلاه بجميع ما نسب اليه اعلاه وكتب^(٤٨) ١١
- ٤٥ - محمد بن محمد بن الركن الاسيرى^(٤٩)
- ٤٦ - اخبرنى بذلك بلفظ الشهادة
- ٤٧ - اعزه الله تعالى وادام النفع به^(٥١) يحيى بن عمر بن احمد السفلى^(٥٠) ١١
- ٤٨ - اخبرنى بذلك بلفظ الشهادة
- ٤٩ - ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه^(٥٢)

الحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد [والله] وصحبه وسلم^(٥٣)

- ١ - ب[سم الله الرحمن الرحيم الحمد لله على جزييل نعمايه^(٥٤)
- ٢ - ثبت^(٥٥) ما نسب لمرلانا المقام الشريف الامام الاعظم المجاهد المظفر السلطان المالك الملك الاشرف سلطان.
- ٣ - الاسلام والمسلمين تانل الكفرة والمشركين محي العلل في العالمين منصف المظلومين من الظالمين قاهر الحوارج
- ٤ - والمملحين مبيد الطغاة والمارفين حامى حوزة الدين جامع كلمة الايمان قاصم عبدة الصليان
- ٥ - وارث الملك سلطان ملوك العرب والمعجم والترك ملك البرين والبحرين سخام الحرمين الشريفين ظل الله الوارف
- ٦ - ورحمته السابغة للبادى والمالكف ونامر دينه الذى نطعت الارأ بفضيله ولا مخالف ابى النصر قايتباى شيد الله [نه]انى
- ٧ - ملكه وسلطانه ونصر جيوشه واعوانه وجدد له في كل يوم سرورا ونصرا وملكه بساط الارض برا وبحرا من اشباهه

٨ — هل نفسه الشريفة شرفها الله تعالى وعظما بجميع ما نسب اليه في مكتوب
التابع المسطر باطنه على ما نص وشرح باطنه وباطنه مورخ بالخامس

٩ — والعشرين من شوال المبارك سنة اربع وسبعين وثمان ميه ^(٥٦) لدى سيدنا ^(٥٧)
العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة

١٠ — صدر الدين شرف العلماء اوحدهم الفضلاء مفتي المسلمين ابي الخير محمد بن سيدنا
العبد الفقير الى الله تعالى الشيخ الامام العالم العلامة

١١ — صدر الدين شرف العلماء اوحدهم الفضلاء مفتي المسلمين ابي عبد الله محمد
ابن الرومي الحنفى ^(٥٨) خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية اعز الله تعالى
احكامه ونصرته بشهادة شيدلى ^(٥٩) ذلك

١٢ — واشهد على نفسه الكريمة بذلك من حضر مجلس حكمه ^(٦٠) وقضايه وهو
نافذ الحكم والقضا ماضيها وذللك في

١٣ — اليوم المبارك

١٤ — الثانى والعشرين من ذى القعدة الحرام ^(٦١)

١٥ — من شهور عام اربعة وسبعين وثمان ميه وانه ثبت عنده ثبت الله تعالى مجده
وانجح قصده بشهادة من اعلم له تلو رسم شهادته

١٦ — باطنه + وهما الشاهدان المنبه عليها اعلاه علامة الاذا والقبول ^(٦٢) على
الرسم المعهود في مثل ذلك اشهاد كل من المقر العالى

١٧ — السيفى فبحسب الوكيل اعز الله تعالى نصرته والجناب العالى العفوى جوهر
المتابعين المشار اليها باطنه على نفسه بجميع ما نسب اليه في مكتوب

١٨ — التابع المسطر باطنه على ما نص وشرح باطنه ومعرفتها * المعرفة الثربعة
وثبت عنده ثبت الله تعالى مجده وانجح قصده بشهادة من اعلم

+ عذا اللفظ مكتوب على كسشط — انظر سطر ٢٣ لوحة رقم ٧٠٦ . تخفيق
رقم ٧١

* افعل الكاتب حرف انشاء في هذا اللفظ تبعا لخريفته وسرعته في
الكتابة . لوحة رقم ٦

١٩ — له تلوز رسم شهادته اخر فعلى الملك والحيازة (٦٣) والاعذار (٦٤) المسطرين
بهاش باطنه اعلام التادية والقبول على الرسم المعهود في مثل ذلك

٢٠ — مضمون الفصلين المذكورين فيه على مانص وشرح فهما* ثبوتا صحيحا شرعيا
تاما معتبرا مرضيا وحكم (٦٥)

٢١ — اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه بموجب (٦٦) ذلك ولزوم (٦٧) التباج
المسطر باطنه على مانص وشرح باطنه حكما صحيحا شرعيا

٢٢ — تاما معتبرا مرضيا مصولا في ذلك مستوفيا شرايطه الشرعية (٦٨) عالما
بالخلاف (٦٩) فيما فيه الخلاف من ذلك واشهد على نفسه الكريمة بذلك
في التاريخ الذي سيكمل (٧٠)

٢٣ — بخطه الكريم اعلاه ادام الله تعالى رفعة* وعلاه وفيه مصلح على كسط باطنه
صحيح ذلك معتد به في موضعه (٧١) وحسبنا الله ونعم الوكيل

٢٤ — وحسبنا الله ونعم الوكيل (٧٢) اشهدنى (٧٣) سيدنا البديع الفقير الى
الله تعالى

٢٥ — الشيخ الامام العالم العلامة صدر الدين شرف العلماء اوجد الفضلا مفتي المسلمين
الحاكم المشار اليه اعلاه اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه على نفسه الكريمة

٢٦ — بما نسب اليه في اسجالة المسطر اعلاه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٢٧ — محمد بن محمد بن الركن الاسبوطي (٧٤)

٢٨ — وبذلك اشهدنى اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به في تاريخه وكتب

٢٩ — يحيى بن عمر بن احمد السفطي (٧٥)

٣٠ — وبذلك اشهدنى اعز الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به
في تاريخه وكتب

٣١ — محمد بن محمد بن محمد بن الحسن الجعفري (٧٦)

* اغفل الكاتب حرف التاء والياء في هذه الالفاظ تبعا لطريقته وسرعته في
الكتابة . لوحة رقم ٧٤٦

٣٢ — وبذلك اشهدني ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به
في تاريخه وكتب

٣٣ — عبد القادر بن محمد الحنفى ١١

٣٤ — وبذلك اشهدني ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به
في تاريخه وكتب

٣٥ — ١١ عبد القادر بن محمد الرومى (٧٧)

٣٦ — وبذلك اشهدني والدى ايد الله تعالى احكامه واحسن اليه فشهدت عليه به
في تاريخه وكتب

٣٧ — محمد بن محمد بن عبد الرومى (٧٨) ١١

(١) وجه الوثيقة :

١ - هذه هي اتفاقية الوثيقة ، وقد وردت في سطر مستقل ، وعلى ذلك مصطلح كتاب الانشاء في القديم والحديث على حد قول القلقشندي . ويظهر أن كتب الوثائق الخاصة بالتصرفات القانونية المختلفة ، كانوا يكتبون - بعد البسلة - الجملة والتعليق على رسول الله وآله وصحبه في نفس السطر كما هو الحال في هذه الاتفاقية . فالجملة والتعليق من توابع البسلة في جل الاتفاقيات قرياً .

دكتور عبد اللطيف ابراهيم : التوثيق الشرعية والاشهادات - العدد الثاني من سلسلة الوثائق التاريخية التومية (مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة م ١٩ ج ١ مايو ١٩٥٧) ص ٣٦١ - ٣٦٣ تحقيق رقم ١ ، ٢ وما بهما من مصادر .

٢ - هذا هو اللفظ الخاص بتسجيل كل من عقد البيع والاشهاد عليه ، وقد ورد على الهامش الايمن في بداية وجه الوثيقة ، وهو بخط القاضي الموثق الشيخ محمد ابن أبي عبد الله محمد بن الرومي الحنفي خليفة الحكم العزيز بالديار المصرية ، وقد قام بكتابه بعد أن حكم بصحة التصرف القانوني ولزومه . وجدير بالملاحظة أن هذا اللفظ يرد دائماً بصيغة الامر .

بحثنا التوثيق الشرعية والاشهادات ص ٣٠٦ ، ٣٦٣ - ٣٦٤ تحقيق رقم ٣

ومع إيماننا الكامل بأن عقود البيع تكتسب صحتها ومفعولها بين المتعاقدين إثر موافقتهم عليها ، نتيجة توافق الإيجاب والقبول وتطابقهما ، لأن المسلمين عند شروطهم كما يقول الفقهاء ، ومع اعترافنا بأن حكم البيع في الشريعة الإسلامية أنه فور وقوعه صحيحاً نافذاً ، باعتباره عقد فوري *contrat instantané* ، يترتب عليه نقل ملكية المبيع للمشتري دون توقف على أي إجراء من أي نوع كان ، هذا مع العلم بأن القبض يزيد نقل الملكية تأكيداً .

الكسائي : بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ج ٥ ص ٢٤٣

سليمان مرقص ومحمد علي امام : عقد البيع ص ٢١ ، عبد الفتاح عبد الباقي : محاضرات في العقود ج ٢ عقد البيع ص ١٠ ، السنهوري : الوسيط في شرح القانون المدني الجديد ج ٤ العقود التي تقع على الملكية ١ البيع والمقايضة ص ٢٣ ، ٤٠٩ - ٤١٠ وما بها من مصادر .

وبالرغم من هذا فإن التسجيل عُرف في العصر الوسيط في مصر الإسلامية إبان حكم المماليك ، لأنه لو كان الملك يفضل بالعقد مباشرة ، ما كان هناك داع للتسجيل ، وبذلك سبقت الشريعة الإسلامية في مصر المملوكية من الناحية الواقعية والتطبيقية ، جميع النظم في مختلف البلاد من حيث تسجيل العقود وشهرها .

وعقد البيع موضوع دراستنا - لم يكف لتكوينه الإيجاب والقبول ، بل لقد حور كتابة في عقد رسمي ، ثم صدر الأمر من القاضي الموثق بتسجيله .

والواقع أن عدم التسجيل لا يرفع من العقد الموثق كيانه القانوني ، والآثار الملزمة المترتبة عليه ، ولكن كان لا بد من أن تحاط المعاملات بين الأفراد ، وكافة التصرفات القانونية ، بنوع من الضمان والأحياط - أعني بالتسجيل - ويظهر أن الظروف المضطربة التي مرت بها مصر في عصر المماليك قد دعت إلى ذلك الأمر وأوجبه ، أي أن البيع المجرى في ذلك الوقت لم يكن يتقل ملكية العقار فيما نعتقد . ومن الناحية العملية كان لا بد من تسجيل وشهر التصرف ، بسبب عدم الاطمئنان في العصر المملوكي ، إذ لم يفتح المشتري بأن الحق قد انتقل إليه بموجب العقد وحده أي التصرف غير المسجل .

بحثنا التوثيقات الشرعية من ٣٢٨ - ٣٢٢ وما بها من مصادر .

ونحن لا نضق مع رجال القانون في القول بأن نظام التسجيل وشهر الحقوق العقارية ما كان لازماً ، ولم يكن معروفاً في الشريعة الإسلامية في مصر ، وأنه أمر حديث العهد نسبياً .

محمد كامل مرسي : شرح آقانون المدني الجديد - شهر التصرفات العقارية ص ٩ ، ١١٢ ، محمد حلمي عيسى : شرح البيع ص ٣٦٥ ، المنهوري : البيع ص ٤٤٠ ، أنور سلطان : العقود المسماة ص ١٩٢ جاشية ١ ، عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ١٣٤ ، بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٠٦ ، ٣٦٣ تحقيق رقم ٢ وما به من مصادر .

لقد عرفت محاكم العصر المملوك نظام التسجيل بما لها من سلطة قضائية وولائية في آن واحد . وعقد البيع كغيره من التصرفات القانونية النافذة للملكية ، كان يجب توثيقه وتسجيله ، وقد وقعت تحت أيدينا عشرات من الوثائق الدبلوماسية الخاصة ، التي تؤكد هذه الحقيقة وتثبتها واضحة جليلة للباحثين في ميدان الوثائق وتاريخ القانون على السواء .

بحثنا التوثيقات الشرعية من ٣٢٢ - ٣٢٥ وما بها من مصادر .

ومهما يكن من أمر ، فإن تسجيل الوثائق أو العقود والاشهادات عليها قد عرفه مصر الإسلامية المملوكية ، والعبارة الواردة على هامش كثير من الوثائق تؤكد لنا رجوع التسجيل ولزومه ، وقد أشار إلى ذلك قاضي القضاة عبد الرحمن بن خلدون المالكى حين تحدث عن وظيفة العدالة فقال : « حقيقة هذه الوظيفة القيام عن إذن القاضي بالشهادة بين الناس وكتبنا في السجلات تحفظ به حقوق الناس وأملأهم وديونهم وسائر معاملاتهم » ابن خلدون : المقدمة ص ٢١٢

حقاً لقد أُرْجِئت الظروف السياسية والاجتماعية والمالية ، قيام نظام التوثيق والتسجيل في المجتمع الاسلامى وخاصة في ذلك العصر . بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٣٥ - ٢٤١ وما بها من مصادر . ويظهر أن المشتري كان يسرع بعد الموافقة على العقد إلى توثيقه وتسجيله إذا كان المبيع عقاراً ، وذلك حفظاً لحقوقه . عيسى : شرح البيع ص ٧٧ ومن دراستنا لمجموعة كبيرة من الوثائق العربية المملوكية ، يمكن انقول بأنه كان لنظام توثيق العقود وتسجيلها قواعد شبه مستقرة وأصولاً مرعية في مصر الإسلامية .

ومما لا شك فيه أن الغرض الأول من التسجيل هو أن تصبح وثيقة البيع التي تم توثيقها وتسجيلها مشهورة وحبطة على الغير وإلا لما كان هناك داع إلى :

(أ) — تحرير الوثيقة وكتابتها .

(ب) — توثيقها بالاشهاد عليها .

(ج) — الأمر بتسجيلها .

ولتفسير ذلك نقول إن إتمام البيع بتوثيقه في محضر رسمي موثق *acte authentique* *notarié* بالاشهاد عليه ، كان لازماً كدليل لاثبات البيع - فالكتابة *تدفع* في الدلالة على الارادة ، كما أنها أداة اثبات للعقد تجعله صالحاً للتسجيل والنشر - وإمعاناً في الحصول على وسيلة قوية للاثبات عند النزاع ، ويقصد بالكتابة والشهادة في البيع عند الشرعيين الاثبات ودفع الريبة عند الحاجة . غير أن بعض البيوع وإن كانت صحيحة من غير كتابة ، لا تتيج آثارها إلا إذا اثبتت في محضر ، ويظهر أن بيع العقار في ذلك العصر لم يكن يترتب عليه نقل الملكية إلا إذا سجل ، ولذلك فإن التسجيل كان يستلزم كتابة العقد وتوثيقه في محضر رسمي ، لأن التسجيل لا يرد على العمل القانوني في ذاته *negotium* بل على المحرر المثبت *Instrumentum* .

محمد كامل مرسي : شرح القانون المدني الجديد - العقود المياه ج ٦ عقد البيع وعقد
المقايضة ص ١٩٢ - ١٩٤ ، السهروري : البيع ص ٥١ - ٥٢ ، عيسى : شرح البيع ص ٣٥ ،
عبد سلام مذكور : الفقه الاسلامي - المدخل والأموال والحقوق والملكية والعقود ص ٢٨٢
ومن كل هذا يظهر أن التسجيل كان لازما لنقل الملكية في العصر المملوكي ، وخاصة
بعد توثيق العقد والتحرر من صحته تحريرا بالغا ، فإذا ما سجل وشهر كانت صحته مقطوعا بها ،
فيكون للشهر هذه الحجية المطلقة في مواجهة المتعاقدين وفي مواجهة الغير على السواء .

وكان يشرف على ذلك كله ، القاضي الموثق ، الذي يأمر بعد النجس الدقيق للعقد
والإشهاد عليه بإجراء التسجيل ، ومعنى هذا أن التسجيل والشهر - لا التعريف - هو الذي
ينقل الحق ، ومهمة التسجيل هو نقل الحق العيني لا مجرد إعلان التعريف - السهروري :
البيع ص ٤٣٥ - ٤٣٧ .

وبن ثم يمكن القول بأن عقد البيع كان من أهم العقود التي يجري عليها التسجيل
وأوسعها انتشارا في عصر المماليك في مصر والشام .

وقد غرض الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السهروري لهذا الموضوع في كتابته « البيع
والمقايضة » ، وكاد يصل إلى ما كان متبعاً في العصور الوسطى - العصر المملوكي في مصر
خاصة - إذ يقول : « على أنه مما خفف من عيوب تنظيم شهر الحقوق العينية نظام
إداري وضع لجبي الضرائب العقارية عرف بنظام المكلفات ويتم نقل الحقوق
على الأرض في حال الحياة بحجة رسمية يحررها القاضي الشرعي ، بحضور الشهود ،
وبعد ترخيص من المديرية . وكان القاضي الشرعي قبل أن يحرر الحجة بنقل الحق ،
يضيق من صحة المصحح السابقة التي صدرت للبائع ، ثم يحرر الحجة بنقل ذلك في دفتر
أعد لتسييد التصرفات (المضطبة) ، ثم يجلو ذلك عناية تسجيل في سجل خاص بالمديرية .
والغرض من هذه العملية إثبات كل تغيير في شخص الملتزم بالضريبة العقارية في المكلفات .
فكان هذا النظام الذي وضع في الأصل لتنظيم جبي الضريبة العقارية بواسطة المكلفات
وإثبات الأشخاص المتعاقبين الذين يلتزمون بدفع هذه الضريبة ، يستخدم في الوقت ذاته
كطريق لشهر الحقوق العينية ، إذ كان السجل الخاص بكل مديرية علينا ، يستطيع ذوو الشأن
الإطلاع عليه لمعرفة الحقوق التي تزيت على الأراضي . ويخلص من ذلك أن التعريف
كان شكليا لا بد من تحريره في حجة رسمية بواسطة القاضي الشرعي ، بل يبدو أن الحق

كان لا ينتقل إلى المتصرف إليه إلا بعد تسجيله في سجل المديرية
السهرى : البيع ص ٤٤٠ - ٤٤١ ، جرجس حنين : الاطيان والضرائب ص ١٤٩ - ١٥١ وما بعدها .

ومع احترامنا لهذا رأى في ضوء الحقائق المعروفة عن نظام الملكية العقارية في مصر
إبان القرن التاسع عشر الميلادى ، إلا أن مصر الاسلامية المملوكية عرفت تسجيل
كنظام مستقل بذاته قبل ذلك بخمسة قرون تقريباً ، ودون أى ارتباط بنظام جباية
الضرائب العقارية .

وإذا كانت ظاهرة الإهمال في تسجيل العقود لم تخف في عهد قانون التسجيل في العصر
الحديث ، فإن الشيء الجدير بالملاحظة والتقدير في عصر المماليك هو حرص الناس - كبيرهم
وصغيرهم - على توثيق بل وتسجيل عقودهم فور انعقادها ، كما يمكن القول بأن العرف
قد جرى على أن يكون التسجيل لازماً ، بل ومرتبطاً تمام الارتباط بعملية التوثيق وتابعاً لها .
فقد البيع الذى بين أيدينا تم في ٢٥ شوال سنة ٨٧٤ هـ ثم وثق وسجل في ٢٢ ذى القعدة
سنة ٨٧٤ هـ أى في الشهر التالى مباشرة .

ولعل الأسباب التى حثت الناس في العصر المملوكى على المبادرة إلى تسجيل عقودهم
لا تخرج عن الأسباب التى يقول بها فقهاء القانون اليوم وهى :

(أ) - أن المشتري لم يكن له الحق في ملكية العين المبيعة (إدارة العين والتصرف فيها)
ما دام البيع لم يسجل .

(ب) - أن الملكية لم تكن تنتقل فعلاً إلا من تاريخ التسجيل ، ولم يكن لانقلها
أثر رجعى يستند إلى وقت البيع . وأوضح دليل على هذا ، الاسراع في توثيق وتسجيل
العقود فور انعقادها .

(ج) - ان في هذا استقرار لنظام إنتقال الملكية العقارية في مصر المملوكية .

السهرى : البيع ص ٢٢ حاشية ١ وما بها من مراجع ، ص ٥٠ حاشية ٣ ،
ص ٤٨٥ ، ٥٠٩ - ٥١٤ ، سليمان مرقص ومحمد على امام : عقد البيع ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ،
عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ١٧ ، ١٢٧ - ١٢٨ ، ١٥٨ ، ١٦٤

وليس معنى هذا أن عقد البيع في العصر المملوكى كان عقداً شكلياً لا يتم إلا بالتسجيل ،
بل هو عقد بيع لم تنفرد طبيعته من حيث كونه عقداً رضائياً *contrat consensuel* ،

وينتج جميع آثار البيع بمجرد توافق الإرادتين فيما عدا نقل الملكية بالفعل ، فقد البيع يتم بالتراضي ولو لم يسجل ، وليس المقصود من التسجيل أن يكون ركناً أساسياً لانعقاد البيع وصحته ، فلا يمر لا بد من جعل انتقال الملكية مرتبطاً بالتسجيل ، وهو إجراء فرضه العرف والتقاليد التي درجت عليها النظم القضائية في المحاكم الملوكية بسبب الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية في ذلك العصر .

أما طبيعة العقد وشروط انعقاده ، وطريقة إثباته وكافة آثاره ، ما عدا نقل الملكية فإنها جميعاً لم تثار بالتسجيل ، فالتسجيل مجرد إجراء متعلق بانتقال الملكية Formalite de Transfert ، ولا يعارض بتاتاً مع رضائية عقد البيع ، وإنما التسجيل يعدل آثاره بالنسبة للعاقدين وغيرهم ، فجعل نقل الملكية غير مترتب على مجرد العقد بل أرجأه إلى حين حصول التوثيق والتسجيل .

٣ - هذا انتقب وما يليه من الألقاب السلطانية سبق لنا دراستها في أبحاث سابقة ، وقد تواتر الكتاب الرمزيون وغير الرسميين على نعت سلاطين المالك السابقين واللاحقين بها بقصد التعريف . قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ١٦ ، بحثا وثيقة النورى أوقاف ٨٨٣ - دراسة ونشر وتحقيق (تحت الطبع) ، التوثيقات الشرعية ص ٣٦٤ تحقيق رقم ٤ ، القلشندي : صبح الأعشى ص ٦٥ - ٩ - ١٠ ، المقرئى : السلوك (نشر زيادة) ج ١ ص ٤٥٤ حاشية ٢ ، حسن الباشا : الألقاب الإسلامية ص ١٦٢ ، ١٦٦ ، ٣٥٧ - ٣٥٩ ، ٤٨٢ ، انظر ألقاب السلطان قايتباى في وثائقه المختلفة المحفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف وبحكمة الأحوال الشخصية بالقاهرة . بحثا وثيقة السلطان قايتباى - العدد الثانى من سلسلة الدراسات الوثائقية - كتاب المؤتمر الثالث للأناضول في البلاد العربية ص ٢٤٠ حاشية ١ ، وثيقة برسبى محكية ٩٢ ، وثيقة جقق بحكمة ٩٧ ، وثيقة ايتال دار الكتب ٦٢ تاريخ ، وثيقة العادل طومان باى دار الكتب ٢١٠٠ تاريخ ، وثيقة سبيل المؤمنين أوقاف ٨٨٢ . وغيرها من الوثائق الملوكية .

٤ - من الألقاب السلطانية ، ألقاب أكابر أرباب السيوف كنواب السلطنة ونحوهم ، وقد أطلق لقب على كثير من سلاطين الممالك البحرية ومنهم الناصر محمد بن قلاوون . ويعتبر لقب المجاهد اختصاراً « للمجاهد في سبيل الله » و « المجاهد في الله » وما أشبه ذلك .

ولا غرابة في نعت السلطان قايتباي بهذا اللقب ، بعد ان انتهت حركة الجهاد الاسلامي
الكبرى ضد الصليبيين ، بطهير سواحل الشام منهم ، وبعد أن استولى برصباي على قبرس .

ومها يكن من أمر فقد ظل هذا اللقب مستملا حتى القرن العاشر الهجري ، وهذا
اللقب يشير عادة إلى تسجيل موقف معين وفترة صاحبه ، والسلطان قايتباي جاهد الفرنجة
عندما هاجروا السواحل في الاسكندرية ودمياط سنة ٨٧٨ هـ ، وكذلك المنردن وغيرهم
على حطود الدولة في شمال الشام .

ومما تجدر الاشارة إليه أن هناك من كان يلقب بالجهاد ولم يخض معركة مهمة في حياته
مثل الامير اينال الملاي . حسن الباشا : الألقاب الاسلامية ص ٤٥١ - ٤٥٢ ،
القلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٦ .

٥ - المظفر أخذنا من المظفر وهو النصر ، وهو من ألقاب أكابر أرباب السيوف ،
واللقب يشل إلى جانب معناه الحربي مدلولاً دينياً . وقد عرف هذا اللقب في مختلف أنحاء
العالم الاسلامي على مدى العصور . وقد شاع استعماله في عصر المماليك وصار من الألقاب
السلطانية . القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٢٨ ، حسن الباشا ص ٤٧٣ - ٤٧٤

٦ - انظر ماسبق الاشارة إليه في بحثنا هذا تحقيق رقم ٣ وكذلك بحثنا وثيقة النوري
أوقف ٨٨٣ تحقيقات : رقم ٢٤ - ٢٨ وما بها من مصادر (تحت الطبع) ، الوثائق
الشرعية ص ٣٦٥ تحقيق رقم ٥ ، حسن الباشا ص ٣٢٣ ، ٤٤٤ ، ٤٩٦ ، ١٦٠ ، ٣٣١ ، ٤٢٣ ،
٤٦٤ ، ٥١١ - ٥١٢ ، ٤٢٦ - ٤٢٧ ، ٤٤٨ ، ٢٥٥ ، ٢٣٥ ، على التوالي وما بها
من مصادر .

٧ - أضيف إلى لفظ قانع بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل « قانع عبدة
الصلبان » ، وقد أطلق هذا اللقب على صلاح الدين أثناء حروبه ضد الصليبيين ، وهزيمة
لهم في حطين واستيلائه على بيت المقدس . حسن الباشا ص ٤٢٤ - ٤٢٦ . وورود هذا
اللقب ضمن ألقاب قايتباي يدل على استعماله حتى نهاية القرن التاسع الهجري تقريباً .

٨ - أضيف إلى وارث بعض كلمات لتكوين ألقاب مركبة مثل « وارث الملك »
فهو من الألقاب السلطانية . القلقشندي : صبح الاعشى ج ٦ ص ٧٤ . ويلاحظ
أن الألقاب الخاصة بوراثنة الملك كانت شائعة لدى سلاجقة الروم الذين اعتبروا أنفسهم
انورثة الشرعيين للسلاجقة . حسن الباشا ص ٥٢٧ - ٥٣٨

ويظهر ان القيد قد أطلق على قايتباي عندما آل إليه الملك بعد فترة قصيرة من الحكم المملوكي غير المستقر في الداخل والخارج، تولى فيها كل من الظاهر بلباي وتمرغا . ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور (نثر د . محمد مصطفى) ص ١٩٤ ، ٢٠٣ - ٢٠٤ ، بدائع الزهور (ط . اسطنبول) ج ٣ ص ١٠١

ولا شك أن قايتباي قد انتهت إليه السيادة على جزء مهم ورقعه واسعة من العالم الاسلامي ، بفويض من الخليفة العباسي بالقاهرة وموافقة الأمراء المماليك ، وبذلك أصبح الوارث للملك .

٩ - انظر ما ورد في بحثنا هذا تحقيق رقم ٣ وكذلك بحثنا وثيقة الغوري أوقاف ٨٨٣ تحقيقات رقم ٣٤ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٢٨ على التوالي وما بها من مصادر ، وكذلك وثيقة قايتباي أوقاف ٨٨٦ ص ٥ ، Mayer: The buildings of Qaytbay as described, in his endowment deed. p. 3.

وثيقة أينال دار الكتب ٦٢ تاريخ . القلشندي : نفس المجلد ج ٦ ص ٤٦ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ٧١ - ٧٢ ، حسن الباشا ص ٣٢٧ ، ٣٤٩ ، ٥٠٣ ، ٢٦٧ ، ٢٨٤ على التوالي .

١٠ - السلطان قايتباي هو المشتري الاصيل بهفته موکلا . انظر ترجمته في كل من :

السخاوي : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠١ - ٢١١ رقم ٦٩٧

ابن اياس : صفحات لم تنشر من بدائع الزهور (نثر د . محمد مصطفى) ص ٤٠٣ - ٤٠٤ ، بدائع الزهور (ط . اسطنبول) ج ٣ ص ٢ - ٣ ، ٢١٧ - ٢١٨ وما بعدها .

ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ج ٨ ص ٦ - ٩

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة السلطان قايتباي أوقاف ٨٨٧ (كتاب المؤتمر الثالث للآثار) ص ٣٩٠ - ٣٩٨ وما بها من مصادر .

١١ - الاصل أن يقايح المتعاندان أصالة عن نفسيهما ، ولكن ليس من اللازم أن يبيع الشخص أو يشتري نفسه ، بل يجوز له أن يذل ذلك بواسطة وكيل ينوب عنه في ذلك ، إما للترفع لمركزه وسلطانه . أو لكي يتخفف من عنه مباشرتها بنفسه .

السنهوري : البيع ص ٤١ ، ٩٣ . محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامي ص ٤٧٤ ،
عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ٦٤ ، المغني والشرح الكبير ج ٥ ص ٢٠١ وما بعدها ،
قنري : مرشد الحيران م ٩٢١

والوكالة نوع من الولاية ، وهي تطلق في اللغة على الحفظ . وقد أجاز الفقه الاسلامي
التوكيل بصفة عامة في كل تصرف يصح أن يباشره المرء بنفسه ، وفي ذلك يقول المرغنياني
في الهداية ج ٦ ص ١١٠ : كل عقد جاز أن يعقده الانسان بنفسه جاز أن يوكل به غيره .

محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد في الفقه الاسلامي ص ٣٦١ - ٣٦٢
والوكالة كما يعرفها الفقهاء هي إقامة الانسان غيره مقام نفسه في تصرف جائز مملوك
له معلوم .

أحمد أبو الفتح : كتاب المعاملات ص ٥٦٦ - ٥٦٧ ، أحمد ابراهيم : كتاب
المعاملات الشرعية المالية ص ١٧٧ ، قنري : مرشد الحيران م ٩١٥

أما عن الشروط الواجب توافرها في الموكل والوكيل والموكل فيه فانظر المراجع التالية :
الكاساني : البدائع ج ٦ ص ١٩ - ٢٠ وما بعدها ، البارقي : العناية ج ٦ ص ١٠٩ - ١١١ ،
الزبيلي : تبين الحقائق ج ٤ ص ٢٥٤ وما بعدها . أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٦٨ - ٥٦٩ ،
محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٣٩٩ ، ٤٠١ - ٤٠٣ ، السنهوري : نظرية
العقد ص ٣٠٨ - ٣٠٩ حاشية ، محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامي ص ٤٧٦ - ٤٧٧ ،
علي الخفيف : مختصر أحكام المعاملات الشرعية ص ١١٦ ، محمد يوسف موسى : الأموال
ونظرية العقد ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ، قنري : مرشد الحيران م ٩١٦ - ٩١٨

وعقد الوكالة من العقود الرضائية بين الموكل *mandat* والوكيل *mandataire* ،
فالوكالة نيابة اتفاقية *mandat conventionnel special* ، ومصدرها اتفاق العاقدين ،
وركنها الإيجاب والقبول وتم بهما ، فهي عقد جائز . الخفيف : نفس المرجع ص ١١٥ ،
محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٣٦٣ ، محمد سلام مذكور : نفس المرجع
ص ٤٧٥ - ٤٧٦ وما بها من مصادر .

وعقد الوكالة يلتزم الوكيل بمقتضاه القيام بتصرف فانوى لحساب الموكل ، أى باسمه
وعنى ذمته . د . جمال مرسى بلر : النيابة في التصرفات القانونية ص ٨٧ - ٨٨

فالتوكيل عقد به يؤذن الوكيل بعمل شيء باسم الموكل وعلى ذمته
un contrat par lequel une personne est chargée de faire une chose
au nom du mandataire et pour ce dernier.

محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٢٩٢ ، ٢٩٦ .

والأصل في الفقه الإسلامى أن الوكيل لا يتم تعيينه إلا بعلمه . ومهما يكن من أمر ،
ففى عقد الوكالة متى بلغ الوكيل أن شخصا وكله في القيام بعمل من الأعمال ، فله أن يقوم
بهذا العمل ، ويعتبر أخذه في القيام به قبولا منه للتوكيل . محمد يوسف موسى : نفس
المرجع ص ٢٥٨ وما بها من مصادر ، محمد وحيد الدين سوار : التعبير عن الإرادة في الفقه
الإسلامى ص ٦٢ عن الكسانى : البدائع ج ٦ ص ١٩ - ٢١ ، ٢٢ ، الفتاوى الهندية
ج ٣ ص ٥٦٢ .

ولا يتم العقد إلا بقبول الوكيل وقد يوضح القبول من إجراء العمل الموكل فيه
Le contrat ne se forme que par l'acception du mandataire, laquelle
peut resulter du fait de l'exécution.

محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٣١٣ - ٣١٤

ولا بد أن تكون الوكالة في عمل معين محدد مثل التوكيل في الشراء كما هو الحال
في الوثيقة - أى عمل ليس من أعمال الإدارة - والوكالة الخاصة بالشراء ، وإن كانت
مقصورة على عمل معين ، فانها تشمل كذلك تواجيع العمل الضرورية أى لوازمه ، مثل
تحرير العقد وتوثيقه وتسجيله . والوكالة الخاصة لا تجعل للوكيل صفة إلا في مباشرة
الأمور المحددة فيها .

محمد كامل مرسى : عقد البيع ص ٩٤ حاشية ٢ ، ص ٥٣٩ - ٥٤٠

والتوكيل الخاص لا يترتب عليه إلا الاذن للوكيل بإجراء الأعمال المبينة في التوكيل
Le mandat spécial ne donne pouvoir que d'agir dans
les affaires qu'il spécifie et leur conséquences nécessaires

محمد كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٢٠

ومعنى هذا أن تصرف الوكيل بالشراء ، مقيد بما يقيد به الموكل من ناحية الثمن ، وصنف المشتري ، ونوعه وصفته ، أو الاطلاق له إذا لم يكن هناك قيد في الوكالة ، فاذا خالف الوكيل في شيء مما يقيد به الموكل ، كان تصرفه غير نافذ على الموكل ، ونوع الشراء للوكيل نفسه ولا خلاف في ذلك بين الفقهاء .

أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٧٢ - ٥٧٦ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٢٦٨ ، الكاشاني : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٢٩ ، قلري : مرشد الحيران م ٩٣١ - ٩٤٢ وما بها من مصادر .

والواقع أن التعبير الذي صدر من الوكيل (فجاس) الذي يمثل الموكل (قايتباي) إنما هو تعبير عن إرادة الموكل (المشتري الاصيل) الذي يعمل ويتكلم باسمه ، في حدود العمليات الصادرة له من الموكل في عقد الوكالة وهي على ماورد في وجه الوثيقة سطر ١١ :

(أ) في اتباع ما يذكر فيه .

(ب) في التسلم والتسلم .

(ج) المكاتب (تحرير وكتابة العقد) .

(د) الاشهاد (توثيق العقد) .

فعلى الموكل تنفيذ ما التزم به وكيله وباسمه بموجب التوكيل
Le mandat doit exécuter les engagements pris en son nom, en vertu du mandat.

كامل مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٤٧ . السنهوري : البيع ص ٩٣

وهذه نتيجة أن الوكيل يتوب عن الموكل ، ولكن لا يكون ذلك إلا إذا قام الوكيل بالعمل في حدود وكالته . وفي الشريعة الاسلامية اختلفت المذاهب في موضوع الوكالة ، فأبو حنيفة يرجع حكم العقد إلى الموكل ، أما حقوق العقد فتراجع إلى الوكيل ، ولكن الشافعي يرجع حكم العقد وحقوقه إلى الموكل دون الوكيل . السنهوري : الوسيط - الالتزام - ص ١٩٠ - ١٩١ حاشية وما بها من مصادر .

ومها يمكن من أمر فالعقد في حالة الوكالة ينتج أثره في شخص الموكل مباشرة ، فالموكل لا الوكيل هو الذي يجب أن تتوفر فيه الاهلية ، والعبرة بالوقت الذي يباشر فيه

الوكيل العقد ، ويكون تعامل الوكيل مع الغير (البائع مثلا) ولحسابه ، ومن ثم فائز العقد لا يلحق الوكيل بل الموكل ، وتولد علاقة مباشرة فيما بين الموكل والغير وبخفى شخص الوكيل من بينها ، فهما المتعاقدان وهما اللذان يصرف إليهما أثر العقد ، وعلى هذا حكم العقد يكون للأصيل اتفاقاً .

السنبورى : الوسيط (الالتزام) ص ١٩٥ - ٢٠٠ ، مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٠١ - ٤٠٢ ، ٤٤٨ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٣٧٢ ، ٣٧٦ ، الكسانى : البائع ج ٦ ص ٣٣ - ٣٤ ، الزيلعى : تبين الحقائق شرح كنز الدقائق ج ٤ ص ٢٥٦ - ٢٥٧ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٨٢

وعقد الوكالة من عقود التبرع — ولكن يصح فيه اشتراط أجر — فهو بطبيعته من العقود التى بلا مقابل . مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤١٠ ، محمد سلام مذكور : الفقه الإسلامى ص ٤٧٥ ، ٤٩٠ - ٤٩١ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٧٢

ويظهر أن الوكالة في «التساكات تبرعاً من الوكيل فجهس للموكل قابضاً وبدون أجر . وتنتهى الوكالة — باعتبارها عقد غير لازم — باتباء الغرض منها أى بإتمام العمل الموكل فيه Le mandat finit par la conclusion de l'affaire pour laquelle le mandat est donne. وباتباء الوكالة يجب على الوكيل أن يرد للموكل السند المعطى له بالتوكيل .

مرسى : العقود المدنية الصغيرة ص ٤٥٦ ، ٤٦٤ ، الخفيف : مختصر أحكام المعاملات الشرعية ص ١٢١ - ١٢٢ ، محمد سلام مذكور : الفقه الإسلامى ص ٤٩٠ - ٤٩١ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ٣٧٨ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٥٨٣ ، البدائع ج ٦ ص ٢٧ - ٢٩ ، الزيلعى ج ٤ ص ٢٨٦ - ٢٨٧

١٢ — الجناح من الألقاب الأصول التى تفتح به سلسلة الألقاب ، وهو فى أساسه أحد ألقاب الكناية المكانية التى بدأ استعمالها فى المكتابات ، ولم يظهر فى الكتابات الاثرية إلا متأخراً . حسن الباشا ص ٨٤ ، ١٠٦ وهو من ألقاب أرباب السيوف والأقلام ، وقد استقر مصطلح ديوان الانشاء فى عصر المماليك البحرية على تدرج مراتب لقب الجناح حسب ما يلحقه من ألقاب متفرعة عليه ، وبذلك قسم إلى « الجناح الكريم العالى » ودونه « الجناح العالى » .

ويطلق « الجنب العالى » على كبار مقدمى الألوف ، وعلى أمير آخور ونائب الإسكندرية - وقد تولى قبحاس الوظيفتين - ولم يختلف المصطلح فى عصر المماليك البرجية عنه فى عصر المماليك البحرية . حسن الباشا ص ٢٤١ - ٢٤٧

القلشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٩٥ ، ج ٦ ص ١١٥ - ١١٦ ، ١٣٦ ، ١٥٧ ،
ج ٧ ص ١٤١ - ١٤٢ ، ١٥٦ ، ج ١١ ص ٧٧

١٣ - استعملت النسبة من لقب الأمير وهى « الاميرى » كلقب عسكرى ، وقد عمم القلقشندى فى عصر المماليك البرجية استعمال هذه النسبة للأمراء إذا كانوا من أرباب السيوف .
القلشندى : صبح الأعشى ج ٦ ص ١٠ كما أن إضافة ياء النسبة إلى اللقب ترفع من رتبته فى حالة استعماله لغير السلطان ، فالكبرى أعلى من الكير . حسن الباشا ص ٩٠ ، ١٠٧ ،
١٠٨ ، ١٨٥

١٤ - السيفى نسبة إلى كلمة السيف لنويا ، وكان هذا اللقب يأتى فى آخر الألقاب أى قبل الاسم مباشرة ، وإذا جاء لقب السيفى قبل الاسم دل ذلك على أن الملقب بسى هو نفسه سيف الدين . حسن الباشا ص ١٠٨ - ١٩

ومها يكن من أمر فقد اصطلاح على أن تتبع الألقاب الأصول (الجنب) مباشرة بصفات خاصة بها مثل (العالى) . وهكذا كانت صفة العالى تلى الجنب ، وكانت هذه الصفات الخاصة يليها لقب يميز طبقة الملقب (لقب تميز) فكان يقال (الاميرى) إذا كان الملقب من العسكريين ، وكان لقب التميز الدال على النوع يليه صفة (الكيرى) فيقال « الجنب العالى الاميرى الكيرى » . ثم يلى ذلك صفات مختلفة كانت تترك حرية اختيارها وترتيبها للكتاب حسب ما يجلى به صاحب اللقب من صفات وحسب ما يترامى لهم ، ومن أمثلة هذه الصفات (السيفى) القلقشندى : صبح الأعشى ج ١١ ص ٧٧ ، حسن الباشا ص ١٠٨ - ١٠٩ وما بها من مصادر .

وفد وردت ألقاب قبحاس الاسحاقى فى وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٧ كما يلى .:

« انقر العالى المولوى الاميرى الكيرى السيدى انالكي اخدوسى السيفى قبحاس نائب السلطنة الثرىفة باغفر الاسكندرى الملكى الأشرق » بحثا وثيقة انسلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث للآثار) ص ٤١٢ - ٤١٣

١٥ — هو الأمير فجهاس الاسحاقى الظاهرى ثم الاشرفى ، وكيل المشتري السلطان قايتباى . نشأ فى خدمة أستاذه الظاهر أبو سعيد جتقى ، جود الخط وحج رفيقا لشربنا ، ورفاء خشمهم خازن دار كيس ، وكان مقربا للسلطان قايتباى فاسكنه فى بيته بالباطنية كما قرره فى الخزانة فى جماد أول سنة ٨٧٥ هـ ، ثم أرسله إلى الشام نائباً وبعد ذلك ولاء نيابة الاسكندرية فى رجب سنة ٨٧٥ هـ ، وأنعم عليه بتقدمة فى جماد آخر سنة ٨٧٧ هـ . ولما هاجم الفرنجة مداخل مصر — الاسكندرية ودمياط — أمره السلطان قايتباى بالخروج لصددهم ومتابعهم حيث ساروا وذلك فى سنة ٨٧٨ هـ .

ولما عين أمير أخور فى جماد أول سنة ٨٨٠ هـ ، سكن فى بيت عمر الحاجب بالقصر نجاه المدرسة الكاملية ثم سكن بيت الدوادار الكبير بالقرب من الحسينية . وفى ربيع أول سنة ٨٨٢ هـ تولى نيابة الاسكندرية وجمع بينها وبين الأمير أخورية الكبرى . وفى أثناء توليته نيابة الاسكندرية أشرف على عمارة قلعة السلطان قايتباى بها ، كما عمر لنفسه جامعاً وتربة وخبانا ظاهر باب اسكندرية المسى باب رشيد ، وجدد جامع الصوارى ظاهر باب السمرة ، وعمر رباطا على شاطئ بحر السلطنة .

وفى القاهرة بنى فجهاس مدرسة بالقرب من خوذة ايدغش بالدرب الأحمر — وهى المعروفة بجامع أبو حرية — للعبقة والجماعات وجعل بها متصرفاً (مدرساً) وقارئاً للبخارى ، ونقل ما كان قرره من التصوف بالجامع الأزهر إليها ، وكذلك عمر تربة بالقرب من تربة نائم التاجر ، وقرر بها صوفية ووظائف وأرصد لذلك كله أوقافاً ، وسافر أمير حاج المحمل فى ربيع آخر سنة ٨٨٣ هـ .

وأخيراً قرره السلطان قايتباى فى شوال سنة ٨٨٥ هـ فى نيابة الشام بدلاً من قانصوه اليحيوى ، فأشأ مدرسة بدمشق ، كما أسهم فى عدة حروب ، وكانت لشجاعته أثراً كبيراً فى هزيمة القوات العثمانية ، وكان فجهاس حسن السيرة ، ديناً خيراً ، محتسباً لين الجانب ، انساناً متراضماً محباً للعلماء والصالحين ، توفى فى يوم الخميس ٢ شوال سنة ٨٩٢ هـ ولم يخلف غير زوجته .

النسخاوى : الضوء اللامع ج ٦ ص ٢١٣ رقم ٧٠٦ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٥٢ — ٥٣ ، ٧٧ ، ٨٥ — ٨٦ ، ١٠٦ ، ١١٧ ، ١٣٨ ، ١٤١ ، ١٤٥ ، ١٧٠ ، ٢٣٨ وكان الأمير فجهاس من بين الذين شرط السلطان قايتباى النظر لهم على أوقافه الكبيرة .

وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٧ ، ٨٨٦ ص ١٥٨ Mayer: The buildings of
Qaytbay p. 85. ، بحثنا وثيقة السلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث للأنار)
ص ٤١٢ - ٤١٣

١٦ - قد يتمثل بين القب الذالى على الوظيفة وبين لقب النسبة إلى السلطان
(الأشرقى) لقب (الملك) ، وفى هذه الحالة يشير الترتيب اللقبى إلى أن صاحب القب
كان يشغل هذه الوظيفة فى عهد السلطان المنسوب إليه فى حالة كتابة الوثيقة .
حسن البنا ص ١١١

١٧ - انظر بحثنا هذا - الدراسة ص ١٢٧ حاشية ٢

١٨ - انظر ترجمته فى بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٩

١٩ - هو محمد الحب أبو بكر بن أحمد بن يوسف بن محمد بن الشهاب أبى العباس
ابن أبى المحاسن القرشى الخزرجى الأزعفرى الأصل الدمشقى ثم القاهرى الشافعى . ولد سنة
ثمان وعشرين وثمانمائة ، حفظ القرآن عند الشمس محمد بن على بن صلاح المناوى ، وسمع
مع أخيه بمكة على التقي بن فهد فى سنة ثلاث وأربعين وثمانمائة . واشتغل بالتجليد فى بيته
وتكسب بالشهادة ، وقد استرقه أبو الطيب الأسوطى فصار بذلك وجها . مات فى جمادى
الأولى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة بعد رفقة الأسوطى بقليل وربما جاوز الستين .

السخاوى : الضوء اللامع ج ٧ ص ١٢٢ رقم ٢٦٠

وتد وقع على عدد كبير من وثائق عصر قايتباى منها وثيقة قايتباى أوقاف
٨٨٦ ص ١٦٣

٢٠ - وردت صيغة الفعل القانونى فى الماضى ، ولا شك أن أدل لفظ على إنشاء العقد
وتكوينه هو الفعل الماضى لأنه يكون قاطعاً فى الدلالة على تمام الإرادة . محمد سلام مذكور :
الفقه الإسلامى ص ٢٨١ ، ابن رشد : بداية المجتهد ج ٢ ص ١٢٩

٢١ - الصغرى نسبة إلى صفى الدين وقد اختص هذا القب بالاسم جوهر . وجوهر
كان من الطواشية أو الخدام الحصان ، وهم كالأستاذون فى الدولة الناطمية . انقله شندى :
صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٧ . وكان هؤلاء الخدام يعتبرون من الطبقة العسكرية
فى عصر المماليك .

القفشندي : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٨٩ ، حسن الباشا ص ١٠٤ - ١٠٥ ،
٣٧٨ - ٣٧٩ .

ومن المحتمل أن تكون الألقاب الفخرية التي منحت للعنوي جوهر ، القصد منها تمييزه
في وظيفته أو تربيته .

٢٢ — يستند من المصادر التاريخية المعاصرة ، أن الملوك — بعد أن يقضى فترة في الطباق
السلطانية أو اصطبل الأمير — كان يعتق ثم يخرج له خيلا وقمنا ويصير من الجندارية .
ابن ايباس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٤٢٩ ، ٤٥٤ ، ج ٤ ص ٢ ، ج ٥ ص ٤٧٩ .
والجندارية من المسكر وليسوا من الأمراء .

وربما كان جوهر هذا من ممالك الجناح العالي الأميرى الكبيرى السيفى جاني بك
الأشقر المغربي الشهير بأمر حاج الملكى الأشرفى حوادر السلطان قايتباى .
السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٥٥ رقم ٢١٧ . وثيقة قايتباى أوقاف ٨٨٦
ص ١٤٢ ، ١٥٨ . Mayer: op. cit. pp. 76, 85.

بحثنا وثيقة السلطان قايتباى أوقاف ٨٨٧ (كتاب انوتمر الثالث للانار) ص ٤١٢ .
٢٣ — الجندار من جملة العساكر أو المالك السلطانية ، وهو الموظف الذى يتولى
الباس السلطان أو الأمير نيابة .

القفشندي : نفس المصدر ج ٥ ص ٤٥٩ . وأصله جاما دار ، من لفظين فارسين
أحدهما جاما ومعناه الثوب ، والثانى دار ومعناه محس . المقرئى : السلوك ج ١
ص ١٢٣ ، ٣٧١ والبقجة هى رنك الجندار ، كلمة فارسية الأصل وهى الصرة من القماش
توضع بها الثياب .

زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٣٢٦ . Mayer: Saracenic heraldry p. 14-15 .

٢٤ — لإزالة الوهم بقدر الامكان واحتياطاً ومنعاً لما عساه يحصل من النزاع بين
المتعاملين أو غيرهم ، يجب أن يكتب في وثيقة البيع كلمة « جميع » قراءة : مذكرة
التوثيقات الشرعية ص ٢٢

٢٥ — المبيع هو جميع الحصة التى قدرها النصف من جميع أراضي ناحية إسموه
بالاشونين مشاعاً ، ولما كان المبيع شيئاً معيناً بنوعه genre vente de chose de

لا بذاته ، فإن الملكية لا تنقل إلا بالافراز ، ولا يمكن تسجيل البيع لنقل الملكية إلا بعد إفراز المساحة المبعة — وهذه حالة نادرة — ذلك أن الشيء قبل إفرازه غير معروف بالذات ، فهناك إذن استحاثات طبيعية في أن تنتقل ملكيته إلى المشتري قبل الافراز .
السهروري : البيع ص ٤٢٥ ، ٤٢٨

والملكية الشائعة وسط بين الملكية المفروزة والملكية المشتركة ، فالحصة في الشيوع شائعة في كل المال ، ولا تتركز في جانب منه بالذات ، وهذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المفروزة . والشيء الملوك في الشيوع لا يملكه الشركاء مجتمعين ، بل يملك كل شريك أو مشتاع copropriétaire حصة فيه ، وهذا ما يميز الملكية الشائعة عن الملكية المشتركة . أنور سلطان : العقود المساهمة ص ٤١٢

والمالك في الشيوع له أن يتصرف في حصته الشائعة بكافة أنواع التصرفات القانونية ومنها البيع ، فكل شريك في الشيوع يملك حصته ملكاً تاماً ، وله أن يتصرف فيها دون حاجة إلى موافقة باقي المشتاعين ، وبحيث لا يلحق الضرر بهم . ويبيع حصة معلومة على الشيوع — قبل فروزها — يصبح جازاً لأن المالك يبيع ما يملك ، وعلى ذلك يحل المشتري محل البائع ويصبح مالكا على الشيوع بنسبة الجزء الذي اشتراه ، لأنه لا يمكن أن نكون له حقوق أكثر من ملفه ، وسلفه لم تكن له ملكية مفروزة بل ملكية شائعة .

محمد حلى عيسى : شرح البيع ص ١٩٠ - ١٩١ ، أحمد إبراهيم : كتاب المعاملات ص ١٣١ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٣٠٠ - ٣٠١ ، محمد كامل مرسى : العقود المساهمة ج ٦ (عقد البيع) ص ٥١٢ - ٥١٦ وما بعدها .

١٦ — الناحية كلمة مرادفة لبلدة أو قرية ، استعملها العرب منذ الفتح الاسلامي لعمر ، وقد درجت على ذلك كتب الخطط والتاريخ والوثائق العربية في العصور الوسطى .

رمزى : القاموس الجغرافى ج ١ ص ١٢

٢٧ — إدموه من القرى القديمة بالاشدنيين ، اسمها الاصلى دموه ثم صرف إلى ادمو بزيادة ألف في أولها . ويقول ابن الجيعان إن ادمو مساحتها ١٥٦ فداناً ، بها رزق ١٨ فدان وعبرتها كانت ٣٠٠٠ دينار . التختة السنية ص ١٧٤ . محمد رمزى : نفس المرجع قسم ٢ ج ٢ ص ١٩٥

وتتبع ادموه الآن مركز النيا محافظة النيا . مصلحة الساحة : كشف بأبناء المدن والنواحي ص ٢٣٧ ؛ وعن الاشونيين انظر الفلتشني : نفس المصدر ج ٣ ص ٢٩٤ - ٢٩٥

Grohmann : Studien zur Historischen Geographie und Verwaltung des Frühmittelalterlichen Ägypten, Wien, 1959. s. 34-36.

٢٨ - لا بد من ذكر الحدود الأربعة للقطر المبيع ، وروى عن أبي يوسف أن التعريف يحصل بذكر حدين ، وفي آراء أخرى ثلاثة حدود . إلا أن زفر قال إنه لا يحصل إلا بذكر الحدود الأربعة .

وهذه الوثيقة قد كتبت على أحوط الوجوه ، ونحزنها الكاتب عن مواضع الخلاف ، ولذلك ذكرت الحدود الأربعة حتى يكون التعريف حاصلا على جميع الأقوال .

والقول بأن حدها القبلي ينتهي إلى طوخ الحبل ، أفضل وأدق من القول بأن حدها القبلي طوخ الحبل ، لأنه على إحدى الروايتين عن أبي يوسف يدخل الحدم مع المحمود في البيع .

ولما كان المبيع في حاله مشاعاً فإنه يكفى بتحديد الكل الذي منه هذا الجزء ، لكونه ليس له حدود خاصة ، فجعل تحديده ما اشتمل عليه تحديداً له .

قراءة : مذكرة التوثيق الشرعية ص ١٧ - ١٩ ، ٢٤

٢٩ - طوخ الحبل من القرى القديمة ، قال ياقوت في معجم البلدان (ط . ليزج) مجلد ٣ ص ٥٥٦ هـ وهي قرية في صعيد مصر على غربي النيل ، وطوخ الحبل قرية أخرى بالصعيد في غربي النيل يقال لها طوخ بيت يمون ، ويقال لها طوة أيضاً .

وطوخ الحبل هي حقيقة طوخ طوة ، لأنها تجاور ناحية طوة ، ولكنها ليست طوخ بيت يمون ، لأن طوخ بيت يمون هي قرية أخرى تسمى طوخ الحبل بالأخيلية ، وقد التبس الأمر على ياقوت بين طوخ الحبل وطوخ الجبل ، لتشابه حروفها فظنها إسمًا لقرية واحدة ، وهي طوخ الحبل هذه ، والصواب أنها قريتان .

ويقول ابن الجيعان في التحنة السنية ص ١٨١ إن طوخ الحبل مساحتها ٢٩٦٨ فدانا ، بها رزق ٨٦ فدان عبرتها ٦٠٠ دينار .

انظر رمزي : نفس المرجع السابق ص ٢٠٢ . ابن ملاق : قوانين الدواوين ص ١٦٣

وتتبع طوخ الخيل الآن مركز النيا محافظة النيا . كشف بأسماء المدن ص ٣٣٩

٣٠ — بنى سمرج قرية قديمة اسمها الاصلى بنى سراج ، من كفور انطية من أنبل
الاشمونين ، حرف اسمها الاصلى إلى بنى سمرج ، ويقول ابن الجيعان في التحفة السنية
ص ١٧٨ ؛ بنى سمرج من كفور انطية عبرتها ٢٠٠٠ دينار . وقد وردت في تربع
سنة ٩٢٣ هـ باسم بنى سمرج البحرية ، وبنى سمرج القبلية ، بولاية الاشمونين ، وفي تاريخ
سنة ١٢٣٠ هـ ضمها إلى بعضها وصارتا ناحية واحدة باسمها الحالى . رمزى : نفس المرجع
السابق ص ٢٣١

وتتبع بنى سمرج الآن مركز شمالوط محافظة النيا . كشف بأسماء المدن ص ٣٤٦

٣١ — مثل هذه العبارة تدل على أن المحرر الكاتب الوثيقة ، كان يحترز في كتابة
عقد البيع عن ذكر ما يترتب عليه فساد التصرف الذى كتبت الوثيقة به ، والاحسن عدم
ذكر الطريق والمسبل أصلا ، ويكتفى عن ذكرهما بذكر المراتق ، فإن لم يكن لها طريق
خاص ولا مسبل ماء خاص ، انصرف لفظ المراتق إلى غيرها من باقى الحقوق .

هذا والحقوق جمع حق ، وهو ما تبع للبيع ولا بد له منه ، ولا يقصد إلا لاجله
كالطريق والشرب للأرض ، وحقوق الارتفاق وهى حق الشرب ويثبته حق المجرى ،
وحق المسبل وحق الجوار . ابن عابدين : رد المختار على الدر المختار ج ٤ ص ٣٥ ،
الكاسانى : بدائع الصنائع ج ٦ ص ١٨٨ وما بعدها ، الزيلعى : تبين الحقائق شرح كنز
الدقائق ج ٤ ص ٩ وما بعدها ، السيوطى : فتح القدير ج ٥ ص ٥٠٥ ، قراءة : مذكرة
التوثيق الشرعية ص ٢٤ - ٢٥ ، أحمد أبو الفتح : كتاب المعاملات ص ٤٢ - ٤٧ ،
محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد فى الفقه الإسلامى ص ١٧١ - ١٨٥ ،
أحمد إبراهيم : كتاب المعاملات الشرعية المالية ص ١٧ - ٣٠ وما بعدها ، على الخفيف :
أحكام المعاملات الشرعية ص ١٦ - ٢٥ ، محمد حلى عيسى : شرح البيع ص ٤٣١ - ٤٣٥

٣٢ — الرزق الجيشية والاجبسية هى رزق بلا مال غالبا ، لا يدفع لها عبء . فقد
كانت مغفرة من الخراج نوعا ما - والعبء مصطلح يقصد به الضريبة المقارية التى كانت
تخرج لبيت المال وهى المعروفة بالخراج . رمزى : نفس المرجع ج ١ ص ١٧ ، ٢١ .
القلقشندي : نفس المصنوع ج ٣ ص ٤٣٨ .

ذكر ابن الجيمان في كتابه النخبة الحنية ص ١٧٤ ، أنه كان يدموه رزق قدرها ١٨ فدانا ، وقد استتقت الوثيقة - من أصل المبيع وهو جميع الحصة التي قدرها النصف من جميع أراضي ناحية إدمود بالآشونيين - ما بأراضي الناحية المذكورة من الرزق الجيشية (الاقطاع) والاحباسية (الأوقاف) ، وطرق المسلمين ومقابرهم وسبلهم ومساجدهم ، وذلك لأن هذه الأخيرة من الأملاك العامة التي لا يجوز تملكها أو بيعها ، فهي من كيان وجود الدولة الملوكية ، ومن مستلزمات الجماعة الإسلامية التي ينفع بها انتفاعا عاما ، ولذلك يكون بيعها باطلا بطلانا أصليا ، لأن الشيء مما لا يقبل التعامل به . وقد احتسب الكاتب من الخلط بين الأملاك العمومية وملك البائع ، ولذلك استبعد الجزء الداخل في الأملاك المحصنة النافع العامة . محمد سلام مذكور : الفقه الإسلامي ص ١٨٠ ، محمد حلى عيسى : شرح البيع ص ١١٣

٣٣ - لا يعتبر المشتري راضيا رضا صحيحا إلا إذا كان عالما بالمبيع علما كافيا بنفسه أو بالوكيل عنه ، فروية الوكيل في الشراء أو القبض ورضاه ، تكفي وتغني عن رؤية الموكل وهو المشتري الأصل ورضاه ، ويسقط معها خيار الرؤية ، ويصير العقد لازما بالنسبة للوكل .

والعلم الكافي هو العلم الثاني للجهالة . أحمد فتحي زغلول : شرح القانون المدني ص ٢٢٧ ، أحمد إبراهيم : كتاب المعاملات ص ١٢٠ ، محمد سلام مذكور : الفقه الإسلامي ص ٥٥٤ ، الزيلعي : تبين الحقائق ج ٤ ص ٢٨ ، الكاساني : بدائع الصنائع ج ٥ ص ٢٩٥ - ٢٩٦

ومعنى ذلك أن المبيع معين تعينا ناقيا للجهالة الفاحشة .

هذا وأحكام العلم بالمبيع مأخوذة عن أحكام خيار الرؤية في الشريعة الإسلامية التي يقصد بها ربح الجهالة البسيرة لا الجهالة الفاحشة . محمد حلى عيسى : شرح البيع ص ١٤٧ - ١٤٨

وقد عرضت بعض كتب الفقه الإسلامي والقانون لموضوع خيار الرؤية - انظر المصادر التالية : ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٦٥ - ٦٩ ، السيوطي : فتح القدير ج ٥ ص ١٣٧ - ١٥١ ، الزيلعي : تبين الحقائق ج ٤ ص ٢٤ - ٣٠ ، الكاساني : بدائع الصنائع ج ٥ ص ٢٩٢ - ٢٩٩

السنهوري : البيع ص ١١٧ - ١٢٣ ، أحمد إبراهيم : المعاملات ص ١٢٠ - ١٢١ ،
 محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامي ص ٥٤٨ - ٥٥٧ ، عيسى : شرح البيع ص ٢٣٢ - ٢٣٦ ،
 وما بعدها ، محمد كامل مرسى : العقود المسماة ج ٦ (عقد البيع) ص ١٢٦ - ١٢٧ ،
 على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ١٤٨ - ١٥٣ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات
 ص ٢٢٠ - ٢٢١ ، ٢٩٦ - ٢٩٨

ومها يمكن من أمر فإن جل الفقهاء المسلمين يقولون إن الوصف ينفى عن الرؤية ،
 والبيع على الوصف جائز شرعا ، وليس للمشتري عند ذلك خيار الرؤية ، وإنما له خيار
 الخلف في الوصف ، بل إن الوصف يجعل إقرار المشتري أنه عالم بالمبيع بمثابة الرؤية .

ولا شك أن المشتري يجب أن يكون عالما بالمبيع علما كافيا ، ويعتبر العلم كافيا ، إذا
 اشتمل العقد على بيان المبيع وموقعه وأوصافه وحدوده الأساسية يانا يمكن من معرفته
 مما يجعل المبيع ممزعا عن غيره ، واضحا في ذهن المشتري - فهذا الوصف الدقيق يقوم مقام
 الرؤية الحقيقية ، والمذاهب الثلاثة بخلاف الحنفى تستغنى عن الرؤية بالوصف .

الزيللى : تبين الحقائق ج ٤ ص ٢٨ ، حلى عيسى : شرح البيع ص ٣٤٦ - ٣٤٨ ،
 وما بعدها ، كما إن إقرار المشتري صراحة في عقد البيع بأنه عالم بالمبيع ، يجعل إقراره حجة
 عليه ، كما يسقط حقه في طلب إبطال البيع بدعى عدم علمه به إلا إذا ثبت تدليس البائع
 أو إذا رده بخيار العيب . ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٢٣ ، ٦٥ - ٦٧ ، الكاسانى :
 بدائع الصنائع ج ٥ ص ١٦٣ ، السنهوري : البيع ص ١١٤ ، ١٢٣ ، الجزرى : الفقه على
 المذاهب الأربعة ج ٢ المعاملات ص ١٦٩ - ١٧٣ ، ٢١٤ ، وما بعدها . والواقع أن الوصف
 مهما كان دقيقا نائيا للجهاالة الفاحشة ، لا يصل إلى درجة الرؤية المحققة للمعرفة ، والتي يتم
 بها ويكمل معها الرضا ، وترتفع الجهاالة المفضية إلى الضرر .

محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامي ص ٥٤٨ - ٥٥١ .

ومها يمكن من أمر فقد تحقق في عقد البيع موضوع دراستنا الامور التالية :

١ - وصف المبيع مشاعا . سطر ١٦ - ٢٠

٢ - إقرار المشتري بالعلم . سطر ٢١

٣ - الرؤية عند التخلية . سطر ٢٩ - ٣٠

٢٤ - يقصد بذلك أن البائع المصنوعى جوهراً يملك الشيء المبيع ، وأنه جاز يده وملكوته وتصرفه حال صدور البيع بدلالة مكتوبة (مستندة أو عقد ملكيته) الشرعى الموثق . وقد ثبت ذلك أيضاً بشهادة الشاهدين الواردة على الهامش الايمن فيما بين السطر ١٢ - ١٨ ، انظر نص وجه الوثيقة حاشية ب لوحة رقم ٢ . ويظهر من صيغة الشهادة الموضوعية « يشهد من يوضع اسمه . . . » والتوقيع « وكتب عنه بأذنه » أن الشاهدين لم يوتعا بخطهما لأنهما لا يعرفان . الكتابة ، وقد قام بالتوقيع بالنيابة عنها من كتب اسم كل منهما بأذنه وفى حضوره . بحثنا الوثيقات الشرعية ص ٢٨٦ تحقيق رقم ٥٤ وما به من مصادر .

والواقع أن تصرف البائع صحيح ، لأنه تصرف فيما يملك وقت البيع ، والمالك التام من شأنه أن يتصرف فيه المالك تصرفاً مطلقاً ، بجميع أنواع التصرفات الجائزة شرعاً ومنها البيع ، لأنه لنفاذ البيع يجب أن يكون البائع مالكا للمبيع ، حتى يمكنه نقل ملكية المبيع إلى المشتري ، ولأن بيع ما ليس بملوكا للبائع لا يعقد فى الشريعة الاسلامية . الفتاوى الهندية ج ٣ ص ٢ - ٣ ، أحمد ابراهيم : المعاملات الشرعية المالية ص ١١٩ ، أحمد أبو الفتح : كتاب المعاملات ص ٢٤٠ ، محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ١٦٥ ، ١٦٧ ، محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامى ص ١٨١ - ١٨٢ السهورى : البيع ص ٢٦٨

ولكن ما هى الطريقة التى اكتسب بها البائع حق الملكية ؟ هل كان سنده الشرعى عقد بيع أم منشوراً باقطاع ؟ لأن القلقشندى فى كتابه صبح الاعشى ج ٣ ص ٤٥١ يقول : « إن بلاد الديار المصرية بالوجهين القبل والبحرى يجلبها كانت جارية فى الدواوين السلطانية واقطاع الأمراء وغيرهم من سائر الجند إلا التزير البسير مما يجرى فى وقف من سلف من ملوك الديار المصرية . . . » .

وعلى اعتبار منشور الاقطاع سنداً للملكية ، وعلى هذا يعتبر الاقطاع فى ذلك الوقت ملكاً تاماً ؟ وإذا كنن التصرف فى الاقطاع بالوقف صحيحاً ، فهل هو كذلك فى حالة البيع ؟ المعروف أنه لا يصح لصاحب الاقطاع أن يتصرف فى اقطاعه بالبيع ، لأن الاقطاع ليس ملك رقبه بل منفعة . ، ولكن يظهر أنه فى النصف الثانى من اقرن التاسع الهجرى ، توافرت الاملاك بسبب ما أجازته الشريعة لولى الامر (السلطان المملوك) ،

من حق التصرف بالبيع في الانقطاع ، والأراضي التي لا ملك لها (المباحة) ، أو التي يموت عنها صاحبها دون أن يكون له وريث ، وكذلك في أملاك بيت المال المعور بسبب الظروف السياسية والحربية والمالية التي مرت بها الدولة المملوكية في أواخر عهدها . وهكذا تصبح هذه الأراضي المبيعة ملكا تاما لمن يشتريها وله حق التصرف فيها . القلقشنلى : صبح الأعشى ج ١٣ ص ١١٣ - ١١٧ ، الباز العرينى : الانقطاع الحربى بمصر زمن سلاطين المماليك ص ٢٣ - ٢٤ وما بها من مصادر .

ومن ثم فنحن لا نشك في أن البائع قد آلت إليه ملكية المبيع عن طريق الشراء بسند الملكية *Titre de propriété* المحرر الموثق ، الذى قدمه كدليل ماضى على حقه في ملكية المبيع الذى تصرف فيه بالبيع ، لا ينزعه فيه أحد حتى تاريخ البيع . والراجع عندنا أن سنده كان عقد بيع *Titre de vente* ، لأن العقد أحد أسباب الملك التام .

محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد ص ١٨٥ ، ٢٠٠ ، كما أن هذا المستند دليل على خطأ ثابت - أخذ به القاضى الموثق بعد أن تحقق من صحته . بحثنا التوثيقات الثبرعية ص ٣٨٨ - ٣٩٠ وما بها من مصادر . ويظهر أن البائع في ذلك العصر كان يحتم عليه تقديم المستندات اللازمة للمشتري عند العقد - وخاصة تلك التى تثبت ملكيته - حتى يتيسر له إجراء التوثيق والتسجيل . عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٤١

وهكذا يمكن القول بأن مستندات الملكية لا يقصد بها عقد البيع الصادر من البائع إلى المشتري فحسب بل يقصد بها جميع المستندات المثبتة للملكية البائع ، وهى تلك التى قدمها للبائع الصغرى جوهر لوكيل المشتري الأمير فبحاس الاسحاقى ليسلمها لموكله السلطان قايتباي . وجه الوثيقة سطر ٢٣ - ٢٤

السهرورى : البيع ص ٥٩١ ، محمد حلى عيسى : شرح البيع ص ٤٠٥

٣٥ - هذه إشارة إلى مواد الكتابة المستعملة في ذلك العصر ، ومعظمها إما من الرق أو الورق - الشامى والمصرى - بأنواعه المختلفة . ويمكن القول بأن جل الوثائق المملوكية أصولا أو صوراً ، كانت مطوية على هيئة ملفات (rolls) من الرقوق المخططة أو الورق الاوصال ، على حد تعبير كتاب الوثائق في عهد المماليك .

القلقيشدي : صبح الأديبي ج ٢ ص ٤٧٦ ، ٤٨٠ ، ٤٨٤ - ٤٨٨ ، ج ٦ ص ١٩١ ،
ابن خلدون : المقدمة ص ٣٩٩ ، المقصد الرفيع المنشأ (مخطوط - تصوير شمس - جامعة
القاهرة رقم ٢٤٠٤٥) ص ١٢٠ ، ابن النديم : الفهرست ص ٣١ ، المنريزي : السلوك
ج ١ ص ٤٧٠ حاشية ١ ، ٤٩٧ حاشية ٥

وعن اوثائق المملوكية المكتوبة على رق أو ورق انظر بحثنا دراسات تاريخية وأثرية
في وثائق من عصر الفوري (تحت الطبع) .

Grohmann: From the world of Arabic papyri pp. 24—25, 46—48,
53—56.

Hans Ernst: Die Mamlukischen Sultansurkunden des Sinai-Klosters.
Wiesbaden 1960.

٢٦ — لا بد أن تشتمل الوثيقة على ذكر ما يفيد صحة التصرف القانوني الذي كتبت
به ، ونفاذه ولزومه وخلوه بما يفيد ، ولهذا كان أبو زيد الشروطي وبعض من بعده
من أهل الشروط ، يكتبون في وثيقة البيع ما يأتي : « شراء صحيحا باتا باتا لا شرط فيه
ولا خيار ولا فساد . . . » وكذلك كانوا يكتبون : « شراء صحيحا » لأن هذا
هو الغرض ، وكتابة عبارة « اشتراء صحيحا شرعيا » اقرار من المشتري بصحة البيع وملكية
البائع للمبيع أو محل التصرف . فراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٦ - ٢٧

٣٧ — الثمن Le prix من أركان البيع ، وهو يميز البيع عن الهبة التي
تقوم على إعطاء المال دون مقابل ، فإذا انعدم ركن الثمن بطل البيع في الشريعة الإسلامية ،
هذا وتسمية الثمن وتعريفه تعريفا مانعا من الجهالة حين البيع لازمة ، فلو باع بدينون نسبة
الثمن أو تعريفه كان البيع فاسدا أو باطلا ، عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ٩٠ ،
على الحقيف : أحكام المعاملات الشرعية ص ١٦٩ ، فراءة : مذكرة التوثيقات
ص ١٩ - ٢٠

هذا ويلزم لتوافر ركن الثمن ، وبالتالي لقيام البيع وانفاذه ، تحقق الشروط التالية
في الثمن وهي أن يكون :

(١) قدديا أي مبلغا من النقود une somme d'argent ، وفي الشريعة
الإسلامية يعتبر العقد يعبا سواء أ كان المقابل الذي يؤديه المشتري من النقود أو من غيرها

من الأشياء ، فالمقايضة في الشريعة الإسلامية تدخل في رحاب البيع وتعتبر صورة منه .
والوثيقة التي نشرها وهي موضوع هذه الدراسة ، عقد بيع لأن طبيعة المقابل أو الثمن
قد ، ولأن البيع يتميز عن المقايضة بأن أحد الحائزين المتبادلين في البيع وهو الثمن يجب
أن يكون مقدراً .

السهروري : البيع ص ٢٦٤ - ٣٦٥ . عهد حلي عيسى : شرح البيع ص ٢٠٧ وما بعدها ،
عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ٩١ - ٩٢ ، الجزري : كتاب الفقه على المذاهب
الأربعة ج ٢ المعاملات ص ١٤٧ وما بعدها .

(ب) حقيقةً جدياً *Prix réel, sérieux* ، بمعنى أن يقصد المتعاقدان التزام المشتري
بدفعه ، فلا يكفي أن يذكر في العقد وجود الثمن ، إذا كان المشتري لا يلتزم بدفعه
في حقيقة الواقع ، لأن الثمن في مثل هذه الحالة يكون صورياً *Prix fictif, simulé*
السهروري : نفس المرجع السابق ص ٣٨٣ - ٣٩٠ وما بعدها ، عيسى : نفس المرجع
ص ٢٠٩ ، عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ٩٥

(ج) محلياً أو مقدراً *Prix déterminé* ، والثمن المحدد أو المقدر هو الذي يعين
مقداره في عقد البيع . السهروري : نفس المرجع السابق ص ٣٦٧ - ٣٧٠ وما بعدها ،
عيسى : نفس المرجع ص ٢١٦ - ٢١٧ ، عبد الباقي : نفس المرجع ص ٩٩ ، أحمد إبراهيم :
المعاملات ص ١٢٧ - ١٣٨

والثمن المحدد في هذه الوثيقة ليس تافهاً *dérisoire* ، بل هو ثمن بخس *Prix vil* ،
ومع ذلك فإنه لا يمنع من قيام البيع صحيحاً شرعياً ، والثمن البخس هو الذي يرتقي إلى مرتبة
الجدية ، ولكنه يقل كثيراً عن قيمة البيع ، والأصل أن للمتعاقدين الحرية الكاملة
في تقدير الثمن الذي يشاءان ، لأن عقد البيع من عقود المعاوضة أو المساومة *contrat*
de gré à gré ، فلا يلزم أن يكون الثمن متناسباً مع قيمة المبيع ، فيخس الثمن لا يؤثر
في البيع ، إلا أن الثمن في بخسه يجب ألا يصل إلى حد التافهة ، لأن الثمن التافه يأخذ
حكم المعلوم ويطل البيع .

وتد يكون الثمن بخساً يدخله الثمن الفاحش ، ومع ذلك يكون جدياً ، وآية أن الثمن
جدي ، أن يكون البائع قد أبرم العقد بقصد الحصول عليه مهما كان بخساً ، ولعل البائع
تد رضى بالثمن البخس مضطراً لسبب من الأسباب ، لعل أهمها المضادة في ذلك العصر .

ومهما يكن من أمر فإن بنحس الثمن يعيب البيع في حالة واحدة ، هي حالة بيع عقار مملوك
لغير كامل الأهلية أو ناقصها ، ولما كان البائع كامل الأهلية — فهو حر معتق —
فله أن يبيع ماله بأى ثمن شاء ، وإن باعه بثمن قليل لم يؤثر في سلامة البيع مقدار الثمن
الذى لحق به ، مهما كان هذا الثمن فاحشاً مادام الثمن جدياً ، ونصد البائع أن يحصل عليه .

وفي الفقه الاسلامى يمنع الثمن اطلاقاً في الاموال الربوية ، وفيما عدا الاموال الربوية
لا يؤثر الثمن إذا لم يصحبه تقرير ، ولكن بمجرد الثمن إذا كان فاحشاً يؤثر في بيع أموال
المحجور ويبت المال والوقف فيجمل العقد فاسداً باطلاً .

الكسائى : بدائع الصنائع ج ٦ ص ٣٠ ، عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع
ص ٩٨ - ٩٩ ، ١٠٧ ، السهورى : نفس المرجع السابق ص ٣٨٣ - ٣٨٤ ، ٥٩٢ - ٥٩٦ ،
عيسى : نفس المرجع ص ٢١٠ - ٢١١ ، أنور سلطان : العقود المسماة — شرح البيع
والمقايضة ص ٧٩ ، الجزيرى : المعاملات ٢٨٣ - ٢٨٤ ، أحمد أبو النعش : المعاملات
ص ١٨٠ - ١٨٢ ، أحمد ابراهيم : المعاملات ص ١٢٤

وإذا كان محل الالتزام (الثمن) قدراً ، وجب أن تكون هي أيضاً معينة بنوعها
ومقدارها . وفي الوثيقة نلاحظ أن الثمن مقدر بالدنانير في عقد البيع حسب المكان والزمان ،
ويظهر أن البائع قد اشترط استيفاء حقه ذهباً ، وهذا ما يسمى بشرط الذهب Clause d'or
فيكون الثمن واجب الوفاء بالذهب payable en or ، لا بما يعادل قيمة الذهب من السكة
السائدة في ذلك العصر وهي الفلوس النحاسية أو غيرها ، لأن الذهب وحده هو العملة الفاجية
التي لها قوة الإبراء غير المحدودة . وكذلك يمكن القول بأن اشتراط الدفع بالذهب الطيب
المسلم من العيب الشرعى وزناً وعياراً يقطع في جديده الثمن .

وفي الوقت الذى غمرت فيه النقود الرديئة والزرغل والزيوف الأسواق المصرية ،
واختفت فيه الدنانير الذهبية والدرام النضية ، وخاصة عند ما ضعفت الثقة في السكة
المطوكة وحل محلها النقد الذهبى والفضى الفرنجى ، عملت مصر تبعاً لذلك على تخفيض
الضريبة المفروضة على الذهب لحاجتها إليه ، سواء أ كان مبانك أو سكة مضروبة من العملة
الفرنجية الذهبية المعروفة في الوثائق والمعارى التاريخية العربية المعاصرة باسم الافلورية
أو الإفرنتية وهى دنانير مشخصة .

وثيقة السفى قرايغا أوقاف ١١٨٩ ، وثيقة السلطان برسباى أوقاف ٨٨٠ ص ١٧٦ ،
وثيقة جوهى اللالا محكمة ٨٩ ، وثيقة الزينى خشتقم محكمة ٩٠ ، القلقشندى : صبح
الأعشى ج ٣ ص ٤٣٧ - ٤٣٨ . المقرئى : السلوك ج ١ ص ٦٨ حاشية ٥٠ .

وبالرغم من ذلك ، قل تدفق الذهب على مصر بسبب احتكاز سلاطين الممالك
الجراكسة لتجارة التناقل والبهار والتوابل ، وخاصة فى عهد برسباى الدقاقى الذى عمل
على احلال سكته الذهبية من الدنانير الاشرفية محل الدنانير الافرنجية الافلورية .
السخاوى : الضوء اللامع ج ٣ ص ٨ رقم ٣٨ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة « برسباى »
Lane poole : A history of Egypt in the middle ages p. 340

Gennep : Le ducat vénitien en Egypt, Paris 1897, pp. 4—13, 18.

ومما يمكن من أمر ، فقد قل الذهب فى مصر بسبب قلة إنتاج المناجم المصرية ، كما
أن نظام المقايضة قلل أيضا من تدفق الذهب على مصر ، لأن سعر السلع فى حالة المقايضة
كان يزيد عن سعرها فى حالة الدفع نقداً ، وهذه الأسباب جميعا وهى قلة تدفق الذهب
الأوربى ، وقلة إنتاج المناجم ، ونظام المقايضة ، إلى جانب نشاط القراصنة الصليبيين
ومهاجمتهم للقوافل التجارية البحرية فى شرق البحر المتوسط ، قد أدت إلى اضطراب كبير
فى العملة الذهبية الملوكية ، فهى لم تستقر على وزن معين أو عيار ثابت .

نوزيق اسكندر : نظام المقايضة فى تجارة مصر الخارجية فى العصر الوسيط (مجلة الجمعية
التاريخية المصرية م ٦ سنة ١٩٥٧) ، صبحى لبيب : التجارة الكارمية وتجارة مصر فى العصور
الوسطى (مجلة الجمعية التاريخية م ٤ عدد ٢ مايو ١٩٥٢) .

ورغم المحاولات المختلفة للحصول على كميات من الذهب إلا أن هذا المعدن النفيس
استمر فى النقص ، مما أنشأ إلى أن تصبح الدنانير الذهبية الملوكية منخفضة فى الوزن والعيار
على السواء . فقد كان وزن دينار السلطان قايتباى يتراوح بين ٣٢٧ - ٣٤١ جم .
بحسب وثيقة السلطان قايتباى (كتاب المؤتمر الثالث (الانار) ص ٤١٠ حاشية ١ وما بها من
مصادر . بينما كان الدينار الاشرفى برسباى والظاهرى يحقق متساويان فى الوزن ،
إذ تقول وثيقة الجمالى يوسف ناظر الخواص الشريفة محكمة ١٠٥ بتاريخ ٨٤٩ هـ ما نصه :

« الذهب الظاهرى المتعامل به يومئذ بالدينار المصرية وزنه كل دينار درهم
واحدا . وثمن درهم بصنع الفضة » وفى موضع آخر ما نصه : « الذهب

العين المصرى المختوم الظاهرى وتذكر وثيقة الظاهر يبرس، محكمة ١٢٦
ما احتاجته عبارة الربع الظاهرى فى سنة ٨٦٥ هـ فتقول ما نصه : من الذهب
الطيب الاشرقى الوزن المتعامل به بالدينار المعينة ثلاثة الاف دينار كل دينار من ذلك
درهما وثمن درهم صنيح الفضة

وقد ورد فى وثيقة كل من محمد بن تفرى برمش محكمة ٢٦١ ، ووثيقة طراباى
من على باى محكمة ٢٦٥ ما نصه : بالذهب الاشرقى والظاهرى الطيب الوزن
السالم من عيب مثله معاملته الان بالدينار المصرية

ومن هذه النصوص يتضح لنا أن وزن الدينار الاشرقى يعادل وزن الدينار الظاهرى
فكل منهما يزن درهما وثمن صنيح الفضة أى ما يوازى ٣ر٥١ جم باعتبار وزن الدرهم
٣ر١٢ جم .

٣٨ — لاشك فى أن الدينار الاشرقى هو الذى ينسب إلى السلطان الملك الاشراف
أبو النصر برسباى (٨٢٥ — ٨٤١ هـ) ، فقد ضرب برسباى السكة الذهبية مراراً
فى سنى حكمه ، منها سنة ٨٢٩ ، ٨٣٦ ، ٨٤٧ ، ٨٣٨ ، ٨٤٠ هـ وغيرها . وكان وزن
ديناره (الاشرقى) يتراوح بين ٣ر٣٨ — ٣ر٤١ جم .

Lane poole: Catalogue of the collection of Arabic Coins preserved
in the Khedivial Library at Cairo, p. 269.

— Catalogue of Oriental Coins in the British Museum
(The coinage of Egypt) vol. IV, p. 204 pl. VIII.

Lavoix: Catalogue de Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque
Nationale, T. III, pp. 419—425, pl. IX.

أنظر دينار الاشراف برسباى بمتحف الفن الإسلامى رقم ١٣٤٧١/٥ لوحة رقم ١٢

بالقاهر[قوة]	ارسلا[ه]
السلطان الملك الاشرف]	[لا] اله الا الله
ابو النصر برسباى]	[محمد] رسول الله
.....	[بالهدى]

والدينار الاشراف من أجود الدينار في العصر المملوكي الجركسي ، وفي ذلك يقول ابن إياس : بدائع الزهور ج ٢ (ط . بولاق) ص ٢٢ هـ وكانت معاملته من أحسن المعاملات من أجود النعب والنضة ولا سيما الأشراف البرسيية ، فإنها من خالص النعب وإلى الآن يرغب إليها الناس في المعاملة .

ومها يكن من أمر فقد ضرب برساي في سنة ٨٢٧ هـ ديناراً بوزن يزيد على وزن تلك التي كانت متداولة في الأسواق ، كما عمل على إصلاح السكة الذهبية ، ففي سنة ٨٢٩ هـ ، ٨٣١ هـ أجل التعامل بالدينار المشخصة ، وأمر بضرب الافلورية أشرافاً في دار السك المملوكية بالقاهرة . المقرئ : السلوك (مخطوط) ج ١١ ص ٣٧١ - ٣٧٦ ، ٣٩٢ - ٣٩٩ ، ٤٠٤ - ٤٠٦

Gennep : Le ducat vénitien en Egypt, p. 18.

والراجع عندنا أن الدينار الظاهرية تنسب إلى السلطان الظاهر أبو سعيد جقمق (٨٤٢ - ٨٤٧) ، فقد ضرب جقمق السكة الذهبية في كل من القاهرة وحلب في عدة سنوات منها ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٦ هـ وغيرها . وكان وزن ديناره (الظاهري) يتراوح بين ٣٣٧ - ٣٤٢ رجم .

Lane poole : Cat. of the collection of Arabic Coins, pp. 270—271.

—Cat. of Oriental Coins (The coinage of Egypt) vol. IV, p. 206, pl. VIII.

Lavoix : op. cit. pp. 429—440, pl. IX.

وثيقة الجمالي يوسف ناظر الخواص محكمة ١٠٥

أنظر دينار الظاهر جقمق بمتحف الفن الاسلامي رقم ٣٧٨٢/٦ لوحة رقم ١٢

[ارسله]	بالقاهر[مرة]
[لا] اله الا ا[لله]	[١] لسلطان الملك الظاهر[اهر]
[محمد رسول الله]	[ابو سمع] يد جقمق [عز نصره]
[بالهدى]

ومن الملاحظ على هذه الأوزان الخاصة بالدنانير الأشرقية والظاهرية الموجودة في مجموعات المتاحف العالمية ، أنها قل عن الأوزان التي قررتا الوثائق الملكية ونهت عليها صراحة وهي درهم ونمن أو ما يساوي ٣٥١ جم . أنظر الحاشية السابقة رقم ٣٧ ولعل السبب في قس وزن الدينار يمكن أن نرده إلى تأكل معظم الدنانير بالمتاحف بسبب كثرة تداولها أو قص أجزاء منها لمعرفة عيار الذهب فيها .

وقد سار جقق على سياسة برساي في تصير الدنانير الإفريقية كما يستفاد من النص السابق ذكره وهو « الذهب العين المصري المحتوم الظاهري » فالنص يؤكد أن الدينار الظاهري لم يكن من الذهب الإفريقي أو البندق ، الذي عمل برساي من قبل على الحد من تداوله في الأسواق المصرية ، بل وإبطال التعامل به بعد ضرب الدينار الأشرقي بالسكة الإسلامية .

السخاوي : الضوء اللامع ج ٣ ص ٧١ رقم ٢٨٧ ، دائرة المعارف الإسلامية مادة « جقق » .

والثن المقد في عقد البيع وهو ألف وخمسة دنانير من الذهب الأشرقي والظاهري ، حال الدفع أي واجب الاداء فور العقد . أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٣٦٥ ، الجزيري : كتاب الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ المعاملات ص ١٥١ . فالقاعدة هي أنه يجب على المشتري أداء الثمن والوفاء به في نفس الوقت الذي يقوم فيه البائع بتسليم المبيع ، ودفع اثن *paiement du prix* هو الالتزام الأساسي الواجب على المشتري ، الذي يلتزم بدفع الثمن الذي تحدد بالمبلغ التقدي الذي ارضاه المتاعمان في عقد البيع ، إذ البيع إنما هو نقل ملكية المبيع في مقابل دفع الثمن .

السخاوي : البيع ص ٧٦٩ - ٧٧٠ ، عيسى : نفس المرجع ص ٥٤٧ ، عبد الفلاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ٢٨٩ - ٢٩٠

٣٩ - اعترف البائع الصوري جوهر بقبض جميع اثن واستيفائه بتمامه وكأله من مثل المشتري على يد وكيله ، أي أن القبض قد تم بوصول الثمن إليه ، وأنه لم يأخر له قبلها من اثن المذكور شيء قل ولا جل (سطر ٢٦ - ٢٨) . ثم طاد البائع وأقر صراحة أنه لا يستحق قبلها حق ولا استحقاق لما مضى من الزمان

والى تاريخه (سطر ٣٠ - ٣٣) ، وهكذا إبرأ البائع المشتري ووكيله من الشئ المذكور في عقد البيع .

وقد ورد اعتراف البائع وإقراره بقبض الثمن بصيغة الفعل الماضي . أنظر تحقيق رقم ٢٠ وكذلك جاء في النص بعض الآلة القانونية مثل الاستحقاق وهو طلب الحق ، فكل حق يجب للغير على العين المبيعة أو على منفعتها كلها أو بعضها هو استحقاق ، والاستحقاق بمعنى ظهور أن المبيع كله أو بعضه غير مملوك لبائعه — بأن لم يكن مملوكا أصلا أو مملوكا للغيره — من شأنه حرمان المشتري من جزء من الثمن المبيع أو من بعض منافعه .

ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ١٩٩ وما بعدها ، عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ٢٥١ ، أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٣٢٧ وما بعدها ، عيسى : نفس المرجع ص ٤٦٣

كما أقر البائع بأنه لا حق له في الرجوع بالمبيع ؛ وذلك بفسخ العقد قضائيا — برفع الدعوى على المشتري يطلب فيها فسخ البيع — وخاصة بعد أن وفي المشتري بالتزاماته الناشئة عن العقد وأمها دفع الثمن المستحق عليه .

السهرى : البيع ص ٨١٣ وما بعدها ، ص ٨٢٦ ، قراءة : مذكرة التوثيق الشرعية

ص ١٥٥

٤٠ — يجب أن يشمل العقد على ما يفيد أن المتصرف والمتصرف إليه — البائع والمشتري — يملك هذا التصرف ، وأنه صلا منته في حال تفاعل تصرفاته ، وصحة بدنه وكامل عقله ، وأنه غير مكره عليه بل حصل بطوعه ورضاه ، وأنه لا علة به من مرض ولا غيره تمنع صحة الإقرار ونفاذ التصرف ، فلا دافع له ولا مطعن فيما تضمنه عقد البيع ، كما أنه لا يوجد عنده أي من طرفي العقد — وهما كل من وكيل المشتري والبائع — منعه من الجرى على موجب العقد شرعا .

وهذا كله لأجل ألا يكون هناك محل لنقض التصرف القانوني ، أو فسخه من جانب الطرفين ، أو أحدهما أو غيرهما ، أي أنه ليس هناك ما يسوغ نقض الالتزامات التي يرتبها العقد ، ولأن هذا مناف للقاعدة العامة القائلة بأن المسلمين عند شروطهم إلا شرطا أحل حراما وجرم جلالا ، وكما يقول رجال القانون المحدثين العقد شريعة المتعاقدين . . .

قراءة : مذكرة انوثقات الشرعية ص ٢٧ - ٢٨

٤١ — العقد المزمع للجانبين *contrat synallagmatique* ، هو العقد الذى ينشأ التزامات متقابلة في ذمة كل من المتعاقدين . وفي عقد البيع يلتزم البائع بنقل ملكية المبيع ، في مقابل أن يلتزم المشتري بدفع الثمن . والظاهرة الجوهرية في هذا العقد هو هذا التقابل القائم ما بين التزامات أحد الطرفين والتزامات الطرف الآخر . السهرى : الوسيط - نظرية الالتزام ص ١٥٨

وتسليم المبيع *Delivrance* إلى المشتري من أهم التزامات البائع *obligations du vendeur* ، وهذا الالتزام فرع عن التزامه بنقل ملكية المبيع ، ويلتزم البائع بتسليم المبيع إلى المشتري بالحالة التى كان عليها وقت البيع ، والمقدار الذى عين له في العقد بالملاحظات التى تتبعه .

السهرى : البيع ص ٥٥٦ - ٥٥٨ ، عبد الفتاح عبد الباقي : عقد البيع ص ١٧٦-١٧٧ ولتسهيل انتقال الملكية *Transfert de la propriété* من البائع إلى المشتري ، استعصى عن التسليم الفعلى بتسليم حكمى أو صورى ، وهو يتم بمجرد تراضى المتعاقدين ، ويتراضيان على أن المبيع قد تم تسليمه من البائع إلى المشتري ، ويتميز التسليم الحكمى عن التسليم الفعلى بأنه اتفاق *convention* أو تصرف قانونى *acte juridique* وليس بسل مادى . السهرى : البيع ص ٥٩٣ ، أحمد أبو الفتح : المعاملات ص ٣١٦ . ويكون ذلك باسم في العقد على أن البائع تخل عن المبيع أو ماله المبيع ليتسلمه المشتري .

ويظهر أن هذا النص قد شاع إدراجه في عقود البيع في ذلك العصر حتى صار شرطاً مألوفاً *clause de style* لا يخلو منه عقد . سليمان مرنص ومحمد على امام : عقد البيع ص ٢٠

وهناك من يقول بأن تضمين البيع هذا الشرط ، كان يكفي لجعله نافلاً للملكية بمجرد انعقاد البيع ، ولو كان تلم البيع في حقيقة الأمر لم يتم مادياً . عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ٨ - ١١٩٠٩ وما بعدها . والواقع أن انفاية الأساسية من عقد البيع بالنسبة للمشتري هي نقل ملكية المبيع إليه .

والحقيقة أن التخلية لازمة لصحة التسليم ، والأرض الزراعية توضع تحت تصرف المشتري بالتخلية عنها . عيسى : شرح البيع ص ٤٠١ ، عبد الفتاح : نفس المرجع ص ١٩٠ .

وفي الشريعة الإسلامية التسليم في المبيع (العقار) ، هو أن يخلى البائع بين المبيع وبين المشتري ، على وجه يمكن المشتري من قبضه من غير حائل ولا مانع ، والمراد بقولهم بلا حائل ولا مانع أن يكون المبيع مفزأ . ابن عابدين : رد المحتار ج ٤ ص ٤٤ - ٤٥ ، الكاساني : بدائع الصنائع ج ٥ ص ٢٤٤ - ٢٤٥ ، مرسى : العقود المأذجة ٦ عقد البيع ص ٢٢٥ ، أحمد إبراهيم : نفس المرجع ص ١٤٤ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٤٥٠

هذا والمشتري في أكثر مذاهب الفقه الإسلامي ليس له أن يتصرف في المبيع قبل قبضه ، بالرغم من أنه أصبح مالكا له ، وهذا يوضح لنا وجوب التخلية والقبض أو تسلم المبيع قبل التصرف فيه . السنهوري : البيع ص ٢٣ حاشية ١

وقد تصرف السلطان قايتباي في المبيع بالوقف بعد ذلك بحوالى خمس سنوات أى في سنة ٨٧٩ هـ ، وهذا التصرف جائز شرعاً لأنه أصبح مالكا للمبيع الذي إنتقل إليه بعد قبضه وتسجيله .

والواقع أن التسليم وجبني ، فكما أنه التزام على البائع بإجرائه (عن طريق التخلية) ، فهو يضمن أيضاً التزاماً على المشتري بتسلم المبيع obligation de prendre livraison ، فهو حق له وواجب عليه في نفس الوقت . فالتسليم والتسلم أمران متلازمان فور تمام العقد ، والتسلم في أغلب صورته هو العملية المتممة للتسليم .

عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ١٩٧ ، ٣١٤ ، السنهوري : البيع ص ٨٤٥ وما بعدها ، محمد حلمي عيسى : شرح البيع ص ٥٨٥ - ٥٨٦

٤٢ - أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٣

٤٣ - لكي يتم العقد ويكون معتبراً شرعاً ، يجب أن تتحقق أركانه وشروطه التي لا بد منها ، ومن هذه الشروط ما يتعلق بالأركان فهدا (الإيجاب والقبول) ومنها ما يتعلق بموضوع العقد ، ومنها أخيراً ما يتعلق بالعاقد ، وهكذا تكون المعاهدة الشرعية .

(أولاً) الإيجاب والقبول : العقد هو ربط بين كلامين أو عبارتين صادر كل منهما عن طرف ، والواقع أن كل عبارة تصدر من طرفي عقد البيع تعتبر إيجاباً ، وأن تسمية إحداها إيجاباً والأخرى قبولاً ليست إلا تسمية اصطلاحية فقط لا واقعية . أحمد أبو النصح :

المعاملات ص ٢٢٨ - ٢٣٣ ولكن ينتج ركننا العقد وهما الإيجاب والقبول أثرهما ،
ويكون للعقد وجود معتبر شرعاً ، يجب أن يتوافر فيها ثلاثة شروط :

(١) أن يكون كل منها صادراً من شخص مميز عاقل ، يدرك ما يقول ويعنيه
حقاً ، وبهذا يكون تمييزه معبراً حقاً عن إرادته .

(٢) أن يتوافق الإيجاب والقبول على شيء واحد ، أى على محل العقد بعينه
(المبيع والثمن) .

(٣) اتصال القبول بالإيجاب في مجلس العقد إن كان الطرفان حاضرين معاً .

محمد يوسف موسى : الأموال ونظرية العقد في الفقه الاسلامي ص ٢٥٤ - ٢٥٧

ولاشك أنه يجب لتكوين عقد البيع - وسائر العقود - وهو عقد رضائي
contrat consensuel حصول الرضا *consentiment* الصحيح المجرد عن الإكراه بين
المتعاقدين ، وهو تقابل الإيجاب والقبول وتطابقهما ، ويشترط في الرضا وهو ركن من
أركان البيع ، أن يكون شاملاً كل الشروط اللازمة لتكوين العقد . كما يجب أن يكون
رضاً أحد طرفي العقد مطابقاً لرضا الطرف الآخر تمام المطابقة ، وأن يصل القبول بالإيجاب
في مجلس العقد ، ويقال لذلك توافق الإيجاب *offre* والقبول *acceptation* ، أو توافق
الإرادتين *accord des volontés* الصحيحتين المتطابقتين ، أياً كان طريق التعبير
عن الإرادة ومظهره .

محمد كامل مرسى : العقود المأه ج ٦ (عقد البيع) ص ٣٣ - ٣٧ وما بعدها .
السهرى : عقد البيع ص ٤١ - ٤٥ ، ٥٠ ، محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٢٥٧ ،
الملاي وحامد زكي : شرح القانون المدني - في عقود البيع والحالة والمقايضة
ص ٤٩ - ٥٠ ، محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامي ص ٣٥٩ وما بعدها .

السهرى : التوسط - نظرية الالتزام ص ١٧٠ - ١٧٢ ، ٢٠٥ - ٢١٧ وما بعدها ،
عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ١٦ ، ٢٩ - ٣٠ ، أحمد ابراهيم : المعاملات
الشرعية المالية ص ٧٧ ، ١١٤ - ١١٥ ، على الخفيف : أحكام المعاملات الشرعية
ص ٦٨ - ٧٤ ، ١٦١ ، الجزيري : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ ، المعاملات
ص ١٥٥ - ١٦٠

ويقرر فقهاء الشريعة الإسلامية أن البيع يتعقد بالإيجاب والقبول Pollicitation ،
دون حاجة إلى ورقة رسمية بل ولا إلى ورقة عرقية ، فمجرد توافق الإيجاب والقبول يكفي
في عقد البيع ، أعني أنه يجب لانقضاء البيع أن يحصل الرضا بين طرفيه ، على طبيعة العقد
La nature du contrat وموضعه وهما المبيع والشئ .

ابن عابدين : رد المختار ج ٤ ص ٥ ، ١١ ، الكاساني : بدائع الصنائع ج ٥
ص ١٣٦ - ١٣٧ ، الباري : العناية ، السبواسي : فتح القدير ج ٥ ص ٧٤ ، ٧٨ ، ٨١
مرسي : نقل المرجع السابق والجزء ص ٥٦ ، عبد الفتاح : نفس المرجع ص ٣٢ - ٣٤ ،
٣٧ ، ٣٩ ، ٥٦ ، حلي عيسى : نفس المرجع ص ٣٥ - ٣٩ .

(ثانياً) موضوع العقد : أو محله كما يعبر الفقهاء هو ما وقع عليه التعاقد ، فهو الغرض
من العقد والمقصود منه ، والذي به تتعلق أحكامه وآثاره . ففى حالة البيع ، موضوع
العقد هو كل من المبيع والشئ .

١ - المبيع L'objet de la vente ، والمبيع أو المحل في واقع الأمر ركن في الالتزام
لا ركن في العقد ، فمحل الالتزام هو الشئ الذي يلتزم المدين القيام به ، وصار الالتزام
بنقل الملكية محله هو الشئ ذاته الذي تنقل ملكيته ، والمبيع ليس هو الشئ ذاته بل هو
الحق فيه - أى بيع حق الملكية . ولا يتعقد البيع إلا إذا توافر في الشئ المبيع الشروط
التالية وهي أن يكون :

موجوداً ، معيناً ، داخلاً في دائرة التعامل ، مقدور التسليم وقت التعاقد ، مملوكاً للبائع .
ابن عابدين : نفس المصدر السابق ج ٤ ص ٣ ، ١٣ ، ١٠٥ ، ١٠٨ - الكاساني :
نفس المصدر السابق ج ٥ ص ١٣٨ ، السبواسي : نفس المصدر السابق ج ٥ ص ١٩١ - ١٩٥
السرغسي : المبسوط ج ١٢ ص ١٩٤ وما بعدها .

السنهوري : الرسيط - نظرية الالتزام ص ٣٧٥ - ٣٨٣ ، ٣٨٦ - ٤١٣ ، البيع
ص ١٩١ - ١٩٤ ، ٢٢٥ - ٢٢٦ ، ٢٦١ - ٢٦٢ ، ٢٦٨ - حلي عيسى : نفس المرجع
ص ٩٦ ، ١٠٨ ، ١٤٢ وما بعدها : عهد سلام منكور : نفس المرجع ص ٤٢٧ ، الجزيري :
المعاملات ص ١٦٣ - ١٦٨ ، عهد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٣٠٥ - ٣١٦ ،
عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع ص ٧٢ - ٧٣ ، ٨٥ . الحقيف : نفس المرجع

ص ٩٤ - ٩٥ ، ١٦٢ ، أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٢٣٤ - ٢٣٨ ، أحمد إبراهيم :
نفس المرجع ص ١٣٠ - ١٣١ .

٢ - الشن : أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٧ وما به من معادر .

(ثالثاً) الماعد : لا شك أن من أركان العقد وجوب الرضا وصحته كما رأينا ،
وحدة الرضا بالأهلية ، والرائع أن الأهلية يجب توافرها في الالتزام القانوني . ولا جدال
في أن العقد يعتمد أولاً وقبل كل شيء على إرادة المتعاقدين ويستمد قوته منها ، لأن جوهر
التصرف القانوني هو الإرادة ، والإرادة هي العنصر المكون والمنتهى للعمل القانوني .
فالإرادة هي مصلر الالتزامات ، والمقصود بها الإرادة التي تصدر من صاحبها بنية إحداث
أثر قانوني معين هو إنشاء الالتزام ، والإرادة بهذا التحديد هي العمل القانوني .

السنهوري : نظرية العقد ص ١٤٧ ، ٣١٣ ، الوسيط - نظرية الالتزام ص ١٤٤ ،
١٧٢ ، ١٧٨ ، ٢٦٥ ، ١٢٩٦ . فمن شروط صحة عقد البيع الأهلية ، والأهلية منطقياً
التمييز ، لأن الإرادة لا تصدر إلا عن تمييز ، فمن كان كامل التمييز كان كامل الأهلية ،
وأهلية التصرف واجبة في كل من المشتري والبائع ، أي أنه يجب أن يكون كلاهما
متصفاً بالأهلية الشرعية للتصرف *capacité legale de s'obliger* ، وهي تعني بلوغ
سن الرشد .

السنهوري : البيع ص ١٠٨ - ١١٠ ، عبد الفتاح عبد الباقي : نفس المرجع
ص ٥٨ - ٥٩ وما بعدها . وتنقسم الأهلية تسعين : أهلية الوجوب ، أهلية الاداء .

عبد اللطيف إبراهيم : وثيقة الأمير أخور كبير قواصم الحسن ص ١٩٢ حاشية ٢
وما بها من مراجع .

وأهلية الاداء هي صلاحية الشخص لاستعمال الحق ، وتتوقف عليها المعاملات
والتصرفات على كافة أنواعها ، والأصل أن كمال هذه الأهلية تثبت له وعليه كل الحقوق
والواجبات ، ولتعتبر كل عقوده وتصرفاته نافذة شرعاً وقانوناً ، والمقصود بالأهلية دون
تحديد أهلية الاداء .

البائع ج ٧ ص ١٧١ ، المبسوط ج ٢٤ ص ١٦١ وما بعدها ، رد المختار ج ٤ ص ٥

محمد يوسف موسى : نفس المرجع ص ٢١٦ - ٢٢٦ ، السنهوري : الوسيط - نظرية الالتزام ص ٢٦٥ - ٢٦٨ وما بعدها . مرسى : العقود الماسة ج ٦ عقد البيع ص ٩٨ وما بعدها . أبو زهرة : الملكية ونظرية العقد ص ٢٧١ ، الخفيف : نفس المرجع ص ٩٦ - ١٠١ وما بعدها ، أحمد أبو الفتح : نفس المرجع ص ٢٣٣

الجزيري : الفقه على المذاهب الأربعة ج ٢ المعاملات ص ١٦٠ - ١٦٢

محمد سلام مذكور : الفقه الاسلامي ص ٤٣٨ وما بعدها . عيسى : نفس المرجع ص ٢٧٦ وما بعدها .

٤٤ - أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٣٩

٤٥ - هذا هو تاريخ التصرف القانوني (البيع) الوارد في البروتوكول الختامي للوثيقة ، وهو مكتوب بخط كاتب الوثيقة . وأما موضع التاريخ في الكتاب ، فالذي استقر عليه حال كتاب الزمان كتابة التاريخ في آخر الكتاب على حد قول القلقشندي في صبيح الأضيء ج ٦ ص ٢٦١ - ٢٦٢

والتاريخ عنصر أصيل ولازم في ختام الوثائق الدبلوماسية العامة والخاصة . لأنه يدلنا على الزمن الذي دونت فيه الوثيقة وشهادة الشهود على ما ورد فيها من تصرف قانوني .

وهذه الوثيقة مؤرخة باليوم والشهر والسنة - وذلك دعماً للاشتباه والالتباس - بالتقويم الهجري وهو مدار التاريخ الإسلامي .

عبد اللطيف إبراهيم : التوثيقات الشرعية والشهادات ص ٣٨٢ تحقيق رقم ٥٠ وما به من مصادر .

Hans Ernst: Die mamlukischen Sultansurkunden, Wiesbaden, 1960.

٤٦ - الحسبة هي الدعاء الختامي في نهاية عقد البيع في وجه الوثيقة وقبل شهادة الشهود مباشرة . وقد اصطلح الكتاب على أن يكتبوا الحسبة بلفظ الجمع « حسبنا » على اعتبار أن المتكلم يتكلم بلسانه ولسان غيره من الامة ، لا أن الجمع للتعظيم لأنه ليس بلاق بالمقام . ويلاحظ كذلك أن الحسبة تسبقها « وأو » لا معنى لها ، إذ لا علاقة بين الحسبة

وما قبلها حتى يعطف عليه والواجب حذفها . وترد المسئلة دائماً في ختام الوثائق الملوكية الخاصة ، وأحياناً كثيرة في ختام الوثائق العامة .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٩٨ تحقيق رقم ٦٢ وما به من مصادر .

Hans Ernst: Die mamelukischen Sultansurkunden, Wiesbaden, 1960.

٤٧ — يبدأ نص الشهادة بلفظ « اشهد » بالصيغة الذاتية . والواقع أنه في قول الشاهد « اشهد » معنى البين ، والأصل أن لا يشهد الشاهد إلا على ما يعرف . ومحل اشتراط الفقهاء لفظ « اشهد » إنما هو في الشهادة الملزمة ، التي يترتب عليها وجوب الحكم على القاضى ، وهى المعنية بالشهادة عند الاطلاق . ويلاحظ كذلك أن صيغة شهادة الشاهدين متتابعة ومتفقة لفظاً ومعنى .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٠٧ - ٣١٠ ، ٢٨٢ تحقيق رقم ٥١ وما بها من مصادر .

هذا ويشترط أن تكون الشهادة بمجلس القاضى ، لأن الغرض من الشهادة الحكم بموجبها فلا بد أن تكون بحضور القاضى وفي مجلس حكمه . بحثنا هذا بتحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر .

الحكمة من الشهادة هنا هى شهادة الشاهدين على ما صدر من التصرف الذى كتبت الوثيقة به ، وعلى طرقي العقد وهما المشتري ووكيله والبائع بجميع ما نسب إليهم في عقد البيع .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٢٨ - ٢٩

٤٨ — هذا اللفظ الوارد في آخر نص الشهادة « وكتب » يدل على أن الشاهد قد وقع بخط يده ، بعد أن قام بكتابة عبارة الشهادة بألفاظها التى أداها في مجلس الحكم ، وهذا يقطع في الدلالة على أنه تعلم عارف بالكتابة ، فكان الشاهد يقول « وبذلك شهدت وكتبت » في التاريخ الذى شهد فيه .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٩٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر .

٤٩ — هو محب الدين محمد بن محمد بن على بن الركن عمر بن حسن الأسبوطى القهبرى انشأه . ولد سنة ثمان وعشرين وثمانمائة بأسبوط ، ويعرف في بلاده بابن الركن لقب جده الأعلى ، وفي القاهرة بكنيته أبو الطيب . حفظ القرآن واشاطية والنباج رافية النحو ، تلم القاهرة بعد الأربعين ونزل عند ابن عمه أبي الهجاج الأسبوطى ، وتبحر

في القراءات والعربية والثقفة وأصوله ، وتدريب في صناعة الشروط كما راجع فضلاء أرباب المذاهب في مسائل الخلاف حتى تميز ، وأشير إليه بالفضيلة وحسن الفهم والتؤدة ، والثبت وجودة الخط والعبارة ، وارتقى حتى انفرد بكتابة مستندات السلطان قايتباي فمن دونه ، وركن الناس إليه فاعتمدوه ، فقد كان نقمها عالماً بالشروط الشرعية ، عارفاً بأمور صنعة التوقيع ، خيراً بكيفية كتابة العقود ، عالماً فاضلاً ، وجهاً عند الأمراء وأرباب الدولة ، فهو من أعيان الموقعين في عصره . وقد حجج مراراً ، واستقر في خدمة الشيخونية بعد ابن الشحنة الحفي ، فزاد دخله وكثر أعداؤه .

وفي سنة ٨٩٢ هـ غضب عليه السلطان قايتباي ووجهه ، بل وقصد الاخراق به ، فلم يحتل هذا كله وألقى بنفسه عمداً في النيل عند المقياس ومات غريقاً في صفر سنة ٨٩٣ هـ .

السخاوى : الفوء اللامع ج ١١ ص ١١٨ رقم ٣٦٨ ، ابن اياس : بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٤٢

وقد وقع كشاهد على كل من عقد البيع في وجه الوثيقة سطر ٤٥ ، وعلى الاسجبال الحكيمى التوثيق في ظهرها سطر ٢٧

٥٠ - هو يحيى بن عمر بن أحمد بن يوسف القاهرى المالكى ، ويعرف بالسفلى نسبة لخال أمه . ولد حوالى سنة ثمان وعشرين وثمانمائة بالقاهرة . حفظ القرآن وتعلم الثقافة ، وجلس مع فقيه المذکور شاهداً . فبرع في الشروط وزق حتى صار أحد أعيان الموقعين في عصر السلطان قايتباي . استنابه الحسام ابن حريز في القضاء ثم صار قتيلاً في بابيه ، كما ولده السلطان وظيفة مباشرة بعض الاوقاف . وقصد في القضايا المهمة فتبول وأثرى ، وبني عمارة بالجودرية بالقاهرة . وكان حسن الكتابة والنظم ، لظياً مع ترفع وتمقت للضعفاء ونحوهم بحيث خدش ذلك من محاسنه . مات في ليلة الثلاثاء ٢٤ صفر سنة ثمان وسبعين وثمانمائة ، وصلى عليه في محفل عظيم بجامع المرادى ، ودفن بالتكزية بالقرب من باب القرافة ، وقد خلف تركة هائلة .

السخاوى : نفس الصدر ج ١٠ ص ٢٣٧ - ٢٣٨ رقم ١٠٠١

وقد وقع كشاهد على كل من عقد البيع في وجه الوثيقة سطر ٤٧ ، وعلى الاسجبال الحكيمى التوثيق في ظهرها سطر ٢٩

٥١ ، ٥٢ — هذه هي تأشيرة القاضي الموثق محمد بن محمد بن الرومي الحنفى الذى قام بالحكم بصفة التصرف ولزومه وبوثيق عقد البيع . وقد كتب القاضي العبارتين بخط يده عقب تجميع الشاهدين سطر ٤٦ - ٤٧ ، ٤٨ - ٤٩ شكل ١٥ ، ١٦

ويظهر أن التصديق على توقيع الشاهدين ، قد تم قبل الاشهاد والحكم بصفة التصرف ولزومه مباشرة ، وهذه التأشيرة أو العلامة تدل على أداء الشاهدين لشهادتهما أمام الموثق وقبولها شرعاً ، وأن الشاهدين متصيان للشهادة متحان بالعدالة ، ولم يكتب القاضي الموثق ذلك أسفل توقيع كل منهما إلا إذا كان قاصداً الاعلام بصفة التوقيع ، وسلامته من الريب من جميع التواحي ، أو في حالة ما إذا قصد الاحتجاج به في محكمة أخرى أو ربما أمام مذهب آخر بعد ذلك . بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٤٠١ وما بعدها بتحقيق رقم ٦٧ وما به من مصادر .

(ب) ظهر الوثيقة :

٥٣ — أنظر بحثنا هذا بتحقيق رقم ١

٥٤ — هنا هو نص الممدلة الواردة في بداية الاسجال الحكيم التوثيق في ظهر الوثيقة . والمعروف أن الممدلة من توابع البسلة ، ولكنها هنا جزء أساسى وأصيل في إنتاجية الاشهاد ، وقد قام القاضي الموثق بكتابتها بخط يده ، فبهى علامته على حد قول القلقشندى .

وقد اصطلح الكتاب على الابتداء بالممدلة في كثير مما يكتبونه ، أما القضاة الموثقون فقد كان لكل منهم صيغة معينة من الممدلة باعتبارها علامته ، ويكتبها القاضي بخطه في سطر مستقل أو في نفس سطر البسلة بقلم جليل ، ويظهر أنه كان لكل قاض علامته الخاصة المميزة التى ينفرد بها دون غيره من القضاة في عصره ، فهو يفتح بها الاشهاد في ظهور الوثائق التى تعرض عليه لتوثيقها .

والممدلة تعبر عن شخصية الفاعل الوثيق ، كما كانت تنفى عن التوقيع والختم .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٦٢ تحقيق رقم ٢ وما به من مصادر .

وقد وردت هذه العلامة « الحمد لله على جزيل نعمائه » بعد البسلة والصلية في ظهور الوثائق المملوكية التالية : وثيقة السيفى قرقاس أمير سلاح بحكمه ١٠٤ ، وثيقة فاطمة المدعية ستيه ابنة السيفى ايتال بن عبد الله الحمدي بحكمه ١١٣ ، وثيقة شمس الدين محمد

ابن الشهابي احمد بن شمس الدين محمد العيصي محكمة ١٦٠ ، وثيقة السلطان قايتباي أوقاف رقم ٨٨٨ ، رقم ٨٨٧ ، بحثنا وثيقة السلطان قايتباي - كتاب المؤتمر الثالث للأناضول ص ٤٤٣ .

٥٥ - الثبوت لفه حصول أمر ونحوه عن طريق معرفته حق المعرفة ، وإشهاد القاضي بثبوت المقد أو التصرف حكم بعدائه اليقة (الشهادة) عنده ، ومعنى هذا أن الثبوت جار مجرى الحكم . وقول القاضي الموتق : « ثبت ما نسب لمولانا المقام . . . من إشهاد على نفسه . . . بجميع ما نسب إليه في مكتوب التباج المسطر بطلنه . . . بشهادة شيدى ذلك . . . » سطر ١ - ١١ ، معناه ثبوت قيام اليقة والإقرار بها وتركها وقبولها شرعا .

والتبوت عند الخفية حكم بتعديل اليقة وقبولها وجرمان ذلك المشهود به .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٠ تحقيق رقم ٤٨ وما به من مصادر .

٥٦ - هذا هو تاريخ التصرف القانوني الوارد في ختام وجه الوثيقة . أنظر تحقيق رقم ٤٥

٥٧ - هذا القب وغيره من الألقاب الشعرية الدينية سبق لنا دراستها في أبحاث أخرى .

أنظر بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٦٦ - ٣٦٨ تحقيق رقم ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ وما بها من مصادر .

أما عن صلب الدين فهو من ألقاب العلماء والقضاة . بحثنا التوثيقات الشرعية . ص ٣٧٢ تحقيق رقم ٢٩ ، القلقشندي : صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٨٩ ، ج ٦ ص ١٦٨ - ١٧٠ ، حسن الباشا ص ٣٧٧ .

وشرف العلماء ، من الشرف وهو الملو ، وقد دخل لفظ شرف في تكوين كثير من الألقاب المركبة في عصر المماليك ، مثل « شرف العلماء » للقضاة النواب ، وهو أقل مرتبة من « شرف العلماء في العالمين » و « شرف العلماء العالمين » لقضاة القضاة وأكابر العلماء . حسن الباشا ص ٣٥٥ ، صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٥ - ٥٦

أما أوحد الفضلاء ، فقد دخل لفظ أوحد في تكوين كثير من الألقاب المركبة مثل « أوحد الفضلاء » وهو من ألقاب العلماء ، وربما استعمل في غيرهم من أرباب الأقاليم ، وقد خصصه القلقشندي لكتاب المست وأما لم من كتاب الانشاء .

القلقشندي : نفس المصنف ج ٦ ص ١٠ - ١١ ، ٣٩ ، ١١١ . حسن الباشا ص ٢١٨ بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٣٥٧ تحقيق رقم ٢٨ .

وكذلك مفتى المسلمين ، فقد دخل لفظ مفتى في تكوين كثير من الألقاب المركبة مثل « مفتى المسلمين » وهو من ألقاب العلماء . القلقشندي : نفس المصدر ج ٦ ص ٧٠ ، بحثا التوثيقات الشرعية ص ٣٧ : تحقيق رقم ٢٦ .

٥٨ — هو القاضي الموثق الشيخ صدر الدين أبو الخير محمد بن أبي عبد الله محمد ابن الرومي الحنفى ، الذى صدر على يديه الاشهاد . وقد فام بمهنتين من صميم سلطته ، الأولى قضائية وهى الحكم بصحة عقد البيع ولزومه ، والثانية ولائية وهى توثيق عقد البيع والامر بتسجيله .

وهو محمد بن محمد بن محمد بن احمد بن اسماعيل بن داود الصدر بن الصدر القاهرى الحنفى ، نزيل السيوفية ويعرف بابن الرومي . السنخوى : الضم ج ٩ ص ١٩٤ رقم ٤٧٤

٥٩ — هما الشاهدان محمد بن محمد بن الركن الاسيوطى ويحيى بن عمر بن احمد السفلى . أنظر ترجمة كل منهما في بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٩ ، ٥٠ .

٦٠ — يقصد بذلك أن القاضي الموثق قد اشهد على نفسه ، من حضر مجلس حكمه وقضائه في ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ بما ثبت عنده ثبوتاً صحيحاً شرعياً . بحثنا هذا ص ١٤٤-١٤٥ .

والحاضرون مجلس التوثيق هم جماعة من الشهود العدول ، من الموقعين وكتاب الحكم الذين كان يختارهم القاضي بمنابة فاقدة ، ممن تتوفر فيهم العدالة . وهؤلاء العدول كانوا يحضرون مجلس الحكم والتوثيق لمعاونة القاضي ومساعدته في وظيفته الأصلية ، وهى القضاء والحكم الى جانب وظيفته الولاية وهى التوثيق ، والقيام بناء على امره بعملية التسجيل .

بحثا التوثيقات الشرعية ص ٣٨٣ تحقيق ٥١ ، ص ٤٠١ تحقيق ٦٧ وما بها من مصادر .

ويظهر ان عقود البيع الصادرة على يد شهود أمام السلطة الدينية الناتج لها المتعاقدان ، وبغير توقيع من البائع والمشتري ، طبقاً للعرف الذى كان جارياً وقتئذ ، تعتبر صحيحة خصوصاً إذا تبين أن العقد نفذ عقب حصوله ، واستولى المشتري على المبيع . حلى عيسى : شرح البيع ص ٢٣

٦١ — هذا هو تاريخ الاشهاد أو الاسجال الوارد في ظهر الوثيقة ، والذى جاء فيه الحكم بصحة عقد البيع ولزومه على يد القاضي الموثق محمد بن محمد بن الرومي الحنفى .

..وقد استقر العرف، على أن يترك كاتب الإشهاد في ظهر الوثيقة ، موضع التاريخ أيضاً
ليثبت فيه القاضى الموثق التاريخ بخطه ، وذلك لأهميته الكبيرة في إكساب الإشهاد الموثق
صفة الصحة والرسمية .

..ويلاحظ أن القاضى الموثق كتب التاريخ بخط يده (اليوم والشهر فقط) في وسط
الإشهاد بقلم جليل : القلقشنلى : صبح الاعشى ج ٦ ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٢٥٢ ، ٢٦١ ،
ج ١٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٩ .. بحثنا الوثائق الشرعية ص ٣٨٤ تحقيق رقم ٥٢ وما به من
مصادر ، بحثنا هذا تحقيق رقم ٧٠

٦٢... - يقضد بذلك شهادة الشاهدين الواردة في نهاية البروتوكول الختلى في وجه
الوثيقة بتاريخ ٢٥ شوال سنة ١٠٨٧ هـ ، وهي شهادة على التحرير والصرف في آن واحد .
.. بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٧ بحث ٥١ ، ٥٢ وما به من مصادر : بحث ١٥ -
بحثنا الوثائق الشرعية ص ٣٨١ تحقيق رقم ٤٩ وما به من مصادر : بحث ١٥ -
بحثنا هذا تحقيق رقم ٢٤ وما به من مصادر : بحث ١٥ -

٦٤... - نذكر أنظر بحثنا هذا تحقيق رقم ٤٤ ، سنة ١٠٧٨ في قسم قسمة ردة ١٦ في
٦٥ - الحكم بمعنى قضاء القاضى عبارة عن قطع الحاكم (القاضى) المحاسبة أو المنازعة
وعسبة إياها . ويقال لهذا الحكم حكم الإلزام ، لأنه يكون حكماً ملزماً أو قطعيّاً ،
ولا خيرة فيه للمتابعين لأنها ملزمة من الحكم ، تنفذ عليها ، وتوالتى من الحكم الإلزام به
وتمكن أهل الحقوق من حقوقهم ، كما أن الحكم في هذه الحالة لا يمكن التعرض لقطعه ،
ويتمتع على أى حاكم آخر إبطاله بآداب موافقاً للشرع .

والواقع أن الحكم الصادر من القاضى الموثق في محاكمة العمر المملوكي ، كان حكماً
قضائياً وإدارياً ملزماً واجب التنفيذ في آن واحد ، كما كانت له جرمته واحترامه وسلطانه
بالنسبة للجميع ، فلا يكون هناك نزاع ففسر الحقوق ونصان .

.. بحثنا الوثائق الشرعية ص ٣٩١ تحقيق رقم ٥٥ وما به من مصادر .

٦٦ - موجب الشيء ما أوجه ذلك الشيء واقتضاء ، والموجب في باب الحكم أعم
من مقتضى ، وهو التحقيق والحكم بالصحة . ومن ثم فالحكم بالموجب معناه أن الحكم
صريحاً ويبقى مقتضياته الشرعية ، فالحكم بالموجب عبارة عن قضاء القاضى بالإلزام .

بما يترتب على ذلك الأمر على الوجه المعتبر عنده في ذلك شرعاً ، ويستدعى ذلك أمران هما أهلية التصرف وصحة الصيغة فيحكم القاضي بموجباً .

وقد شرط شيوخ وأئمة المنهج الحنفى لاعتبار الحكم بالوجب ، أن يكون قد وقع التراجع والتنازع عند الحكم .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٩٢ تحقيق رقم ٥٦ وما به من مصادر .

٦٧ — المعروف أن القضاء في اللغة معناه الإلزام ، ومعنى حكم القاضي إلزامه ليكن فرد . فالحكم بالصحة عبارة عن قضاء القاضي بصور التصرف من أهله في محله على الوجه المعتبر عنده شرعاً ، ومعنى صحة التصرف كونه صدر صحيحاً بحيث ترتب عليه آثاره . فالحكم بالوجب وبالصحة عبارة عن قضاء القاضي بالإلزام ، والمبروف كذلك أن الحكم هو إنشاء إلزام في مسائل الاجتهاد المتعارفة ، والمراد بالإلزام التقرير التام بعد أن ثبت عند القاضي على جد قول ابن عابدين .

فالإلزام تابع ومرتبط بالحكم بل هو في الحقيقة جوهر الحكم ولبه والغرض منه ، ومعنى هذا أن المقيد قد وقع صحيحاً لازماً نافذاً ، لأن تنفيذ حكم القاضي والإلزام به أمر واجب ، ويترتب على التنفيذ تمام الفعل القانوني ولزومه وانبرامه . . .

بحثنا التوثيقات الشرعية ص ٢٩٣ تحقيق رقم ٥٧ ، من ٢٩٤ تحقيق رقم ٥٨ ، ص ٤٠٨ تحقيق رقم ٧٤ وما به من مصادر .

٦٨ — لا بد من توفر واستيفاء شروط الصحة الشرعية في الوثيقة الدبلوماسية ؛ ولكي تكون الوثيقة شرعية ، لا بد أن تكتب في شكل قانوني لا يدع مجالاً للتنازع أو الخصام ، وذلك بمراعاة الشروط الشرعية اللازمة التي نص عليها الفقهاء ، والقاضي الموثق ومساعدوه من الموقعين وكتاب الحكم ، هم أعلم الناس بالشروط اللازم توافرها في المحرر المراد توثيقه ، وهم أحرى الناس بما يجب ذكره بوضوح ودون لبس في الصياغة القانونية .

قراءة : مذكرة التوثيقات الشرعية ص ٣ — ٤ ، ١٥ — ٢١

والملاحظ أن الوثيقة قد استوفت كل الشروط الشرعية الواجب توافرها في عقد البيع — بحثنا هذا ص ١٤٢-١٤٣ . وقدر وعى في ذلك كله إزالة الوهم أو التوضيح الذي

قد يترتب عليه نزاع في المستقبل ، أو نساء الأهراف وعلم شرعيته ، وذلك بأن احاط
الكاتب لذلك باستخدامه لكافة العبارات الفنية اللازمة ليكون العقد جديراً بالثقة .

بحسب التوثيقات الشرعية ص ٢٨٥ تحقيق رقم ٥٢ ، ص ٢٩٥ تحقيق رقم ٥٩ ،
ص ٤٠٣ وما بها من مدار .

٦٩ — بشرط في القاضى شروط متعددة أوردتها كتب الفقه المختلفة ، ومنها أن يكون
عالمًا بالخلاف . والخلاف هو اختلاف المجتهدين من الأئمة والقضاة في الأحكام الشرعية ،
من جهة المثل والحكمة والصحة والفساد ، والخلاف إنما هو في الجزئيات الاجتهادية منها
فقط لا في الكلليات ولا في مورد النص من الجزئيات . لأن الكلليات قطعية يغبية
فلا خلاف فيها .

أحد أبر التصح : العلامات من ٢٢ - ٢٤ .

والقاضى إن لم يكن يعلم بالخلاف لم يجوز تضاؤه ، وهذا شرط عقد القضاء ، أى العلم
بالخلاف فيما فيه الخلاف فيما قصد الحكم به . ذلك أن حكم القاضى يرفع الخلاف ويحتمل
حكم تلك الجزئية الخاصة بالصحة عند الجميع .

بحسب التوثيقات الشرعية ص ٢٩٦ تحقيق رقم ٦٠ وما به من مصادر .

٧٠ — يقصد بذلك تاريخ الاشهاد نفسه وهو ٢٢ ذى القعدة سنة ٨٧٤ هـ — بحسبنا
هذا تحقيق رقم ٦١ . ومن هذا يضح لنا أن نص الاشهاد — الخاص بوثيق التصرف
القانونى الوارد في الوجه — كان يكتب في الظاهر قبل أن يقوم القاضى بإجراءات
التوثيق . وكان كاتب الاشهاد يترك مكان العلامة (الحمدلة) والتاريخ والحسيلة يابضاً
ليكتبها القاضى الموثق بنفسه بقلم جليل . وثيقة الأمير خاير بك من مال باي دار الكتب
٤/١٩٤٨ تاريخ .

٧١ — هذه العبارة وأمثالها كثيراً ما ترد في نهاية بعض الوثائق ، وقبل الحسيلة
مباشرة . وهى تعقب من كاتب الوثيقة على ما وقع فيه من اخطاء أو سقطات أو كتابة
على كشط أو غير هذا وذاك . وقد اعترف الكاتب بصحة اللفظ الذى كتبه على كشط
في هذا الاشهاد وهو « باطنه » سطر ١٩

عبد اللطيف ابراهيم : وثيقة الأمير أخور كير قراقدا الحسى ص ١٩٦ حاشية ٢ ،
ص ٢٥١ تحقيق رقم ٩٤ - ٩٦

٧٢ - هذا هو الدعاء الختامى فى نهاية متن الاسجىال الحكى فى ظفر الوثيقة ، وقبل شهادة الشهود مباشرة . بحثا هذا تحقيق رقم ٤٦ . وقد اصطلح على أن يترك كاتب الاشهاد موضع الحيلة فى ختامه يائغاً ، ليقوم القاضى الموثق بكتابتها بخط يده بقلم جليل فى سطر واحد (سطر ٢٤) ولكن يلاحظ أن الحيلة الواردة فى الطر السابق (سطر ٢٣) بخط الكاتب نفسه .

٧٣ - تبدأ الشهادة عقب الحيلة مباشرة بهذه الصيغة وهى « اشهدنى سيدنا . . . » أما باقى صيغ الشهادات الخمس التالية فتبدأ هكذا « وبذلك اشهدنى افر الله تعالى احكامه أرأيد الله تعالى احكامه . . . » وعلى هذا درجت جعل صيغ الشهادات فى وثائق العصر المملوك الثانى . ويظهر أن القاضى الموثق قد طلب الشهادة ضمناً من الشهود ، على صدور الحكم منه بصحة البيع ولزومه ، وثوثيق العقد فى حضورهم وتنتهى صيغ الشهادات جميعاً بما نصه « . . . فتشهدت عليه به فى تاريخه وكسبه » بهم توقيع الشاهد .

عبد اللطيف ابراهيم : الوثائق الشرعية من ٢١٩ تحقيق رقم ٦٤ وما به من مصادر ، وثيقة الامير آخو ركبير قراقبا الحسى من ١٩٧ - ١٩٨ ، بحثا هذا تحقيق رقم ٤٧ . وهذه الصيغة تدل على ان الشاهد يعرف الكتابة ، فقد وقع بخط يده بعد أن قام بكتابة عبارات الشهادة بالفاظها التى دائما بها فى مجلس الحكم ، والحكمة من الشهادة هنا ، هى شهادة الشهود على صدور الحكم من القاضى الموثق بصحة التعرف (البيع) ولزومه فى مجلس التوثيق .

٧٤ - انظر هذا البحث تحقيق رقم ٤٩ وما به من مصادر .

٧٥ - انظر هذا البحث تحقيق رقم ٥٠ وما به من مصادر .

٧٦ - هو محمد بن محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الله بن أبى عمر محمد ناصر الدين الجعفرى القاهرى الشافعى الموقع ، ويعرف بناصر الدين الجعفرى . ولد فى سنة ٧٩٤ هـ بالجعفرية ، وحفظ القرآن وجوده ، وتعلم على شيوخ عصره اللغة والفقه ، وناب فى القضاء بالبلاد عن الشيخ البلقينى ثم بالقاهرة فى سنة ٨٥٧ هـ ، وكتب التوقيع دهرأ ، وقد حج مراراً أولها سنة ٨٢٩ هـ ، كما ناب فى قضاء جدة ، وجاور بالمدينة ثلاثة أعوام .

وكان بارعا في الفرائض والتوثيق متكسبا منه غالب عمره ، لا يمل من الكتابة فيه مع سلامة الفطرة ، وغلبة العقلية ، ومزبد التواضع والتقشف ، وكان يتردد على المؤرخ السخاوى كثيرا .

مات بعد أن شاخ وهرم في يوم الجمعة سلخ ذى الحجة سنة ٨٨٧ هـ .

السخاوى : الضوء اللامع ج ٩ ص ٢١١ رقم ٥١٩ .

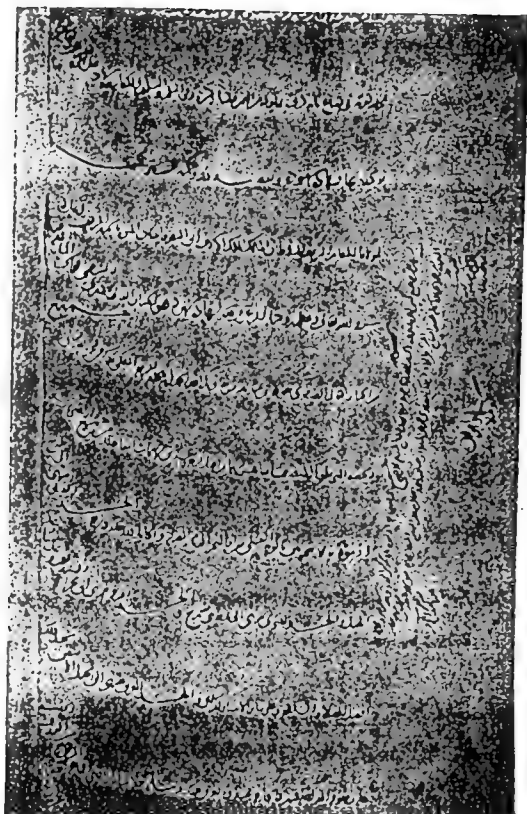
٧٧ - لعله أخو القاضى الموثق محمد بن محمد الرومى الحنفى .

٧٨ - هذا الشاهد هو ابن القاضى الموثق ، فقد كان لكل قاض فى مجلس حكمة مجموعة خاصة من أعيان الموقنين ، وكتاب الحكم من الشهود المدون ، وكان بعضهم من أسرته وذوى قرياه ، وعن هذا الطريق كان الواحد منهم يعلى الى منصب القضاء أحيانا . والمعروف أن أبناء العلماء والرؤساء ثبت عدالتهم على الحكام ، ويحكم القاضى ببداية من ثبت عدالته لديه ، ويسجل له اسجلا بذلك ويشهد عليه .

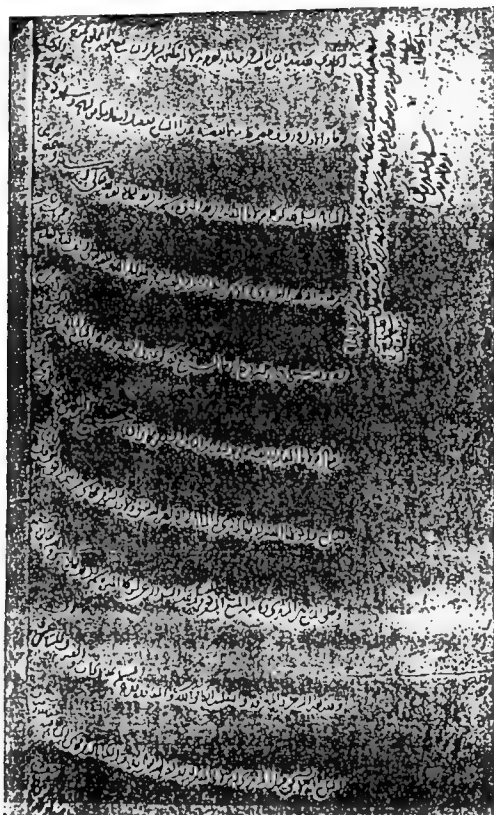
بيحنا التوثيقات الشرعية من ٤٠٣ ، ض ٤٢٢ تحقيق رقم ٧٩ ، من ٤١٣ تحقيق رقم ٨٠ وما به من تضاريف



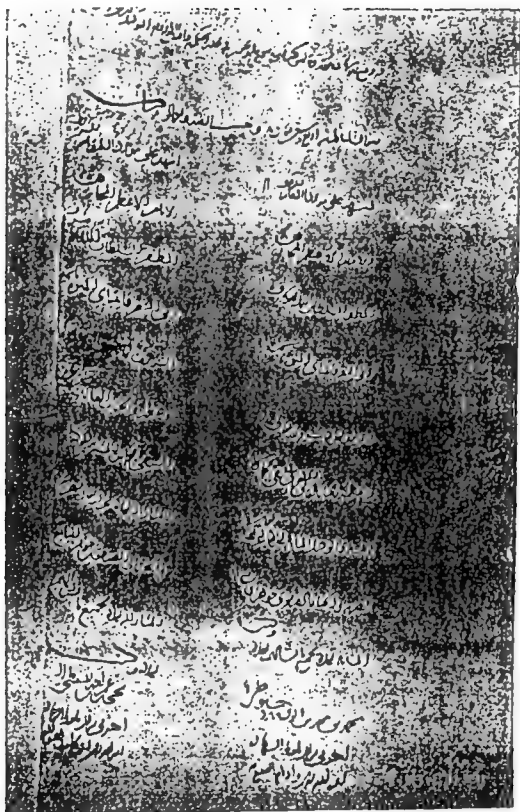
بداية وجه الوثيقة رقم ١٦٨ - ثمار شيف محكمة الاحوال الشخصية بالقاهرة



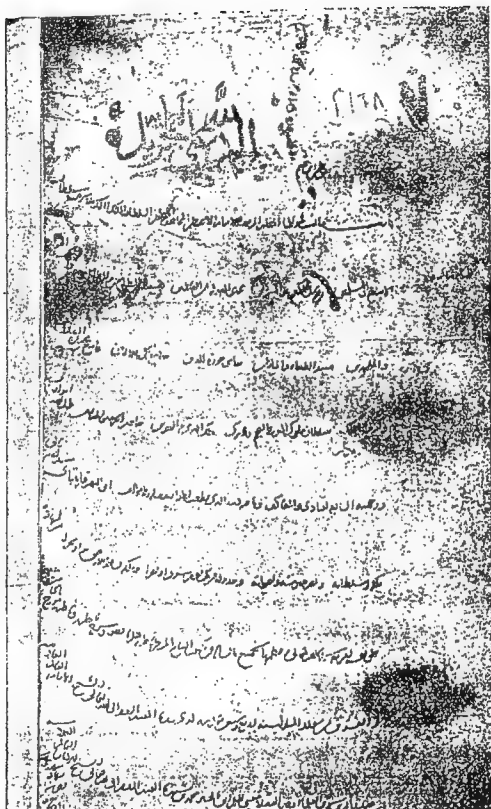
جزء من وجه الوليقة ورد فيه التصرف القانوني



جزء من نص الوثيقة ورد فيه ذكر الثمن



نهاية وجه الوثيقة - شهادة كل من الاسيوطى والسفطى



بداية ظهر الوثيقة وعلامة القاضي الموثق (الحمدلة)



جزء من نص الانجيل نورد فيه التاريخ



البناء الختام في نهاية الأيجال وشهادة بعض الشهود

(لوحة رقم ٨)

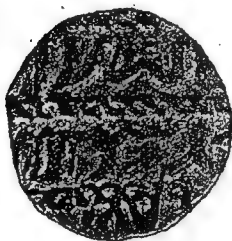
الظهر

الوجه



الدينار الاشرقي بوسبای

متحف الفن الاسلامي رقم ١٣٤٧١/٥



الدينار الظاهري جقمق

متحف الفن الاسلامي رقم ٣٧٨٢/٦

السبحان والحمد لله العلى

شكل ١

شكل ٢

رموزنا ليسيل

شكل ٣ : شكل ٤ : شكل ٥

البحر المزم

شكل ٨

وسد

شكل ٧

لوكدردعا

شكل ٦

بار

شكل ١١

المان

شكل ١٠

حام

شكل ٩

الحمد لله الذي جعلنا من
أحفاد نوح

شكل ١٩

سعد

شكل ٢٣

ولعوانه

شكل ٢٢

لهذا

شكل ٢١

سروا

شكل ٢٠

نح

شكل ٢٦

نفس

شكل ٢٥

لنفسه

شكل ٢٤

(لوحة رقم ١٢ :

حي القعد

شكل ٢٧

نعم سر الله معده

شكل ٣١

شكل ٣٠

شكل ٢٩

شكل ٢٨

الروح الساج ما فيه حله في روح الروحاني

شكل ٣٤

شكل ٣٣

شكل ٣٢

الشُّفُتَا في إتيوبيا منذ العصور الوسطى وأثرهم في تاريخ البلاد السياسى والاقتصادى

للدكتور زاهر رياض

معهد الدراسات الأفريقية

لم تساعد طبيعة إتيوبيا الجبلية على قيام حكومة مركزية فيها إلا في العصور الحديثة حين قامت الحكومة القوية التي تفرض قوتها على أجزائها المختلفة . وقامت — بحلال العصور الوسطى — الحكومات المختلفة التي تسيطر كل واحدة منها على جزء من البلاد وقامت بينها الحروب المختلفة من أجل محاولة كل منها بسط سيادتها على الأخرى . ولذا كان استقرار الأمن والسلام أمرا من الصعوبة بمكان . كما كان انتشار اللصوصية وقطع الطريق أمرا طبيعيا . وإذا كانت هذه الحرفة قد قامت في البلاد السهلة المنبسطة كمصر . فان قيامها في البلاد الجبلية مثل إتيوبيا أكثر سهولة وبسرا . هنا إلى أن استمرار الحروب بين الملوك والأمراء من شأنه أن يساعد على قيام هذه الحرفة بل على نشاطها وازدهارها . فكثيرا ما بلغ هؤلاء الملوك المتحاربون إلى قطاع الطريق من أجل طلب المساعدة أو من أجل إيقاع الاضطراب والخلل في أراضي الأعداء . ونهب الأهالى من أجل دفعهم إلى الثورة ما دامت حكومتهم لا تعمل على حمايتهم . من أجل ذلك شاعت حرفة اللصوصية وقطع الطريق في إتيوبيا منذ أقدم العصور وتألفت العصابات التي تضم العدد الكبير منهم وهم الذين نعينهم بكلمة الشفتا .

وكان ضعف الحكومات يساعد من ناحية أخرى على نشاط هذه العصابات فتكثر من الإغارة على القرى والمدن تسلب الفلاحين ما يملكون وتقتل من يتعرض لها منهم . ويكنى أن يذكر حتى الآن اسم الشفتا لرجلي الشوارع في أديس أبابا أوغيرها من المدن في إتيوبيا ترى إمارات الرعب والفرع قد ارتسمت على وجهه

في أبشع صورة . وليس هناك من بلد أخرى في العالم أثرت عصابات قطاع الطرق في تاريخها السياسي والإقتصادي بمقدار ما أثرت هذه العصابات في تاريخ إثيوبيا . بل كانت في أوقات كثيرة من التاريخ تكاد تسيطر على تطور الحوادث سيطرة تامة . بل كانت الحكومة لعبة في أيديها .

ولعل أقدم ما لدينا من وثائق عن نشاط هؤلاء الشفتا ذلك النص الذي تركه لنا الملك عيزانا في القرن الرابع الميلادي والذي عثر عليه ليمان في سنة ١٩٠٥ وهو مكتوب باللغات الحبشية والسبأية والإغريقية عن حملات حرية قام بها هذا الملك من أجل القضاء عليهم .

ويقول النص الأول من هذه النقوش (أن قبائل البجة التي تعيش في الصحراء وتأخذ من الرومان جعلاً سنوياً كبيراً قد سببت كثيراً من الاضطراب لأن أفرادها لا يخضعون لقانون ، يحبون للقتال ، ناهبون للقوافل)^(١) لأن مملكة مرو قد سقطت ولم تعد هناك دولة قوية يرهبونها^(٢) فأرسل اليهم عيزانا أخويه شيعازانا وهيديفا فانتصرا عليهم وأسرا ستة من زعمائهم وساقا أمامهما ماشيتهم وأربعة آلاف وأربعمائة من رجالهم .

ومن هذا النص أيضاً عرفنا أن الملك أرسل حملة أخرى إلى ساراني وهي قبيلة بدائية متوحشة تسكن إقليم أفان لأنها لا تخاف ارتكاب الجرائم إذ هاجم أفرادها قافلة وقتلوا جميع أفرادها فأرسل اليهم الملك ثلاثة جيوش ولحقهم هو بنفسه حيث دارت المعركة التي انتهت بأن أسر الملك قائدهم بعد أن قتل المئات من الرجال والنساء والأطفال واسترق أعداداً أخرى^(٣) .

كما جاء أيضاً في هذا النقش أن حملة ثانية أرسلت إلى النوبة وكاسو (لأن أهلها هاجموا القوافل بعد أن كانوا قد أقسموا للملك ألا يفعلوا ذلك فوصلت الشكاوى من اعتداءاتهم إلى آذان عيزانا في أكسوم فأرسل ضباطه للتحرى . فلما وصل

L'Empire du Prêtre Jean T. I p. 145. (١)

Budge, Vol. I p. 244. (٢)

Ibid p. 248. (٣)

هؤلاء إلى النوبة جردوا من أسلحتهم وسرقت أموالهم . وقد حذرهم الملك مرارا ولكنه لم يجد منهم إلا أذانا صماء ولم تكن إجابتهم على هذا التحذير سوى استمرارهم في السرقة والنهب .

ومن هذه النصوص نستطيع أن نعرف أن اللصوصية وقطع الطريق كانت مهنة متفشية منذ القرن الرابع الميلادي في الشمال والغرب والجنوب من المملكة الإثيوبية . وهي الأجزاء البعيدة عن سلطة الحكومة . وقد أخذت الحكومة على عاتقها مقاومتها بإرسال الحملات الحربية لسحقها بل أن الملك نفسه كان يخرج على رأس هذه الحملات من أجل تأمين التجار على أموالهم .

وفي خلال المدة المحصورة بين القرنين الرابع والسابع الميلادي ظلت الحبشة دولة قوية مرهوبة الجانب حتى لقد رفض عيزانا أن يرضخ للإمبراطور قسطنطين الثاني حين أرسل له ثيوفيل ليطلب منه الانفصال عن كنيسة الإسكندرية وقبول المذهب الأريوسي^(١) كما استطاع بعض الأباطرة الإثيوبيين أن يحافظوا على سلطانهم في اليمن والحجاز وأن يقيموا هناك الولاة معترفين بسلطة الأباطرة الإثيوبيين عليهم^(٢) وإذا كان هذا التفوذ قد توقف لبعض الوقت فإن أباطرة آخرين استطاعوا أن يعيدوه إلى ماكان عليه كما فعل كالب Caleb في القرن السادس^(٣) حين أرسل حملة من أجل :
نصرة المضطهدين الذين طلبوا منه الحماية .

وكانت ميناء عدول خلال هذه المدة التي أشرنا إليها ، ميناء نشطة مزدهمة بالتجارة ترد إليها السفن من الموانئ المصرية ومن الهند وسيلان . كما تشرف على مجموعة من الطرق البرية التي تخرج من خلفها لتوزيع التجارة التي ترد إليها من مصر عن طريق النيل وإلى الصومال وإلى الهضبة الحبشية حيث كان ملك الأجوا يستقبل القوافل وقد بلغت في بعض الأحيان أكثر من خمسة آلاف رجل يحرسها الرجال المسلحون وإلى أرض الساسو (الولجا) لمبادلتها بالماشية والملح^(٤) وقد أثار ثروة كثير من المدن الإثيوبية دهشة الرحالة كوزماس حين قدم إليها من الهند في تلك الأيام :

L'Empire du Prêtre Jean. T. I p. 151, 152. (١)

Ibid p. 154. (٢)

Ibid p. 164. (٣)

Ibid p. 160. (٤)

وإذا ما ظهر الإسلام وأوقع كفار قريش الأذى بالنبي (ص) وأصحابه لم يجد النبي من يعطى الحماية لأنصاره خيرا من ملك إتيوبيا فأرسل له هجرتين وجدا في قوته الحمى والأمان ولم يرضخ لتهديدات تجار مكة حين أرسلوا إليه مرتين يطلبون تسلم اللاجئين (١).

ولكن هذه القوة التي تمتع بها إمبراطور إتيوبيا وهذه الثروة التي مكنتها من أعداد أكثر من حملة ناجحة عبر البحر . لم تكن تمنع عصابات الشفتا من الهجوم على القرى واصطياد الرجال والنساء وإرسالهم إلى أسواق الرقيق فقد امتلأت أسواق فارس ومصر واليمن والجزيرة العربية بالرقيق من الأجباش وقد رأينا في بيت غنبد المطلب جد النبي واحدة منهن هي أم أيمن التي سهرت على تربية النبي في طفولته ورضعته وشبابه . كما أمكننا المصادر الإسلامية بأسماء كثيرين من الثواري الأجباش الذين عاشوا في بيوت قريش . كما كان معظم محتوي مكة المرتقة من الأجباش . وكان تجار العرب يستعينون بهم بكثرة في محروبيهم القبيلة . وفي حراسة قوافلهم وكان يطلق عليهم اسم العسكر - محميا لهم عن الغزب المواطنين . وكان رئيسهم في العادة عربيا يطلق عليه اسم السيد . وإليه يرجع فقر الانتصار في المعارك التي يخوضونها . وكانوا يخفون العزة (الحربة القصيرة) وهي السلاح المفضل لديهم (٢) ولم تكن الأحوال الاقتصادية في إتيوبيا من السوء بحيث تدفع بالأهالي أو بعضهم إلى أن يبيعوا أولادهم أو نساءهم بل على العكس فقد كانت الثروة تتدفق على البلاد من أنحاء كثيرة كما كان الخير حيا يدفع بالملوك إلى تجهيز هذه الحملات الحربية الناجحة التي جعلت كثيرا من الغنائم والإسلاب إلى الجند المشركين فيها . فلا بد أن الهجمات الممالية لعصابات الشفتا هي التي زودت هذه الأسواق بهذه الإعداد الكبيرة من الرقيق الإتيوبي .

ولم تلبث سلطة الأباطرة الإتيوبيين أن ضعفت منذ القرن التاسع الميلادي حين نزل التجار المسلمون بالجنات الشرقية وحالوا بين الأهالي وساطي البحر وطردوا .

(١) الكامل لابن الأثير ج ٢ ص ٢٩

(٢) Rossini, Storia d'Etiopia p. 215.

اليهود والإغريق والمصريين من الموانئ الأثيوبية واحتلوا مكنهم واشتغلوا بالتجارة حتى رأينا سلطة ملوك أكسوم لا تمتد إلى أكثر من هضبة حاسين . وكان ضعف ملوك أكسوم مشجعا للقبائل البربرية التي كانت تعيش على حدودها الشرقية والغربية على أن تزحف لتتعمق بهذا الخبز الذي منها من وروده قوة الملوك السابقين . وكانت الموجة الأولى من البجة . فقد ساعدت الدولة الرومانية دولة النوبة على أن تهاجم البليمين الوثنيين الذين يعيشون على حدودها الشرقية ويهددوننا من وقت لآخر بمختلف الغارات ويخضعون لسلطة ملوك أكسوم فلم تجد هذه القبائل أمامها إلا أن تنتشر في الصحراء الشرقية حتى ساحل البحر في انتظار وقت ملائم . ولم تلبث هذه القبائل ومعها البجة والزناج التي كانت تعيش على الرعي أن وجدت في ضعف ملوك أكسوم الفرصة التي طالما انتظرتها فدخلت أكسوم من الغرب وتدقت كالتياز الجارف حتى وصلت . تجرى وبسطت قبائل البجة التي سبكت الساحل سلطانها على كل الساحل الأفريقي واشتغل منهم كثيرون بقطع الطريق في البر كما اشتغل آخرون بالقرصنة البحرية فكانوا في الناحيتين خطرا على التجارة ^(١) وفي هذا الوقت أيضا قامت دولة شوا الإسلامية في الجنوب . ونحن وإن كنا لا نعرف على وجه التحقيق كيفية قيام هذه الدولة ولا متى اتخذت لها عاصمة ثابتة ولا أين كانت هذه العاصمة إلا أننا نعرف أنها قامت في نهاية القرن الثالث الهجري وأن مؤسسها هو أحد أولاد ود بن هشام الذي ينتسب إلى قبيلة غزوم إحدى القبائل العربية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية أيام عمر بن الخطاب ^(٢) ولكن لا بد أن هؤلاء الذين قدموا من أفراد هذه القبائل العربية المهاجرة قد تجمعوا حول زعيم واستقروا في ناحية من نواحي شوا ولم يشعروا بسلطة تمنعهم من تنظيم أنفسهم على نحو ما تنظم الدول السياسية نفسها . فكل هذا يؤكد انعدام سلطة الحكومة . في أجزاء كثيرة من الهضبة الحبشية . ولا بد أن هذه السلطة الضعيفة لم تستطع أن تكفل للأثيوبيين الأمن والطمأنينة . فعانت عصابات الشفتا في طول البلاد وعرضها تهيب وتسلب وتسرق من السكان من تستطيع أن تبعث به إلى أسواق الرقيق في اليمن

Luna dei Sabelli p. 212. (١)

Cerulli ; Rossegna di Studi Etiopici V. 1 Anno I. (٢)

والقاهرة وبغداد وكانت جزر الدهلك مركز تجارته . بعد أن أصبحت مركزا لإمارة لها أسطول تجارى عنى مؤرخو العرب بالتغنى به . وقد امتد نفوذ حكام اليمن إليها وأصبحوا يأخذون من واليها جزية سنوية قدرها ألف رقيق نصفهم من النساء^(١) وهذه الجزية ولا شك دليل على ازدياد قوة الشفتا في البلاد الإثيوبية حين استطاعوا أن يجمعوا من الرقيق أعدادا هائلة يرسلون بعضها إلى سلاطين الدهلك ليدفعوها جزية إلى سلطان اليمن . وتحدثنا المصادر العربية أن سلاطين اليمن قد اعتمدوا على هذا الرقيق اعتمادا كليا في تكوين جيوشهم ولم تكن هذه المئات الخمس التي يأخذونها من سلطان الدهلك لتكفى تموين جيوشهم فلا بد أن هذا الرقيق الذى يسلم إليهم عن طريق هذه المعاهدات لم يكن إلا جزءا يسيرا من أعداد هائلة يقدمها لهم آخرون من تجار الرقيق وزعماء الشفتا . لاسيما وأنا نعرف أيضا أن الرقيق في اليمن لم يكن استخدامه قاصرا على الجيش بل امتد حتى شمل جميع مناصب الدولة . وقد استطاع هؤلاء الرقيق أن يسقطوا دولة بني زياد^(٢) وقيموا دولة حبشية اعتمدت بدورها على كل من يرد إليهم من رقيق إثيوبيا . ولم تكن اليمن وحدها مقصد تجار الرقيق بل كانت مصر والشام وبغداد أسواقا تبيع برقيق إثيوبيا ولا يمكننا أن نتصور كثرة هذا الرقيق الإثيوبي الذى انتشر في كل هذه الأسواق إلا ونتصور معها سلطة عصابات الشفتا وهى تمرح بين قرى تلك البلاد تأسر من تشاء دون ما رقيب . . بل أن بعض الملوك شاركهم هذا العمل تارة من أجل الإثراء وتارة من أجل الإنتقام من خصومهم من الملوك الآخرين . ولا شك أن هذه الأعداد الكبيرة من الرقيق إنما تمثل جزءا من اليد العاملة التى تعمل في إنتاج الغذاء للأجالي فتقصها يؤدي إلى نقص الإنتاج وإلى زيادة البؤس وإلى حرب الفلاحين من الأرض وانضمامهم إلى عصابات الشفتا طلبا للقوت . فهى حلقة مفرغة تدور دون توقف .

وفي نهاية القرن السابع الهجرى والثالث عشر الميلادى تعرضت دولة شوا الإسلامية لحالة قاسية من القوضى حين انقسمت البلاد بين أكثر من أمير . يجلس

(١) اعلام الطراز المنقوش ص ٦

(٢) اللطائف السنية ص ١١ ب

كل واحد منهم على العرش لفترة قصيرة أو طويلة حتى يظهر أمير آخر يقتله أو يضطره إلى الهرب ويجلس على العرش مكانه . وقد استعان كل هؤلاء الأمراء بمصائب الشفتا تجندهم وتدفع بهم إلى نهب البلاد وحرقها . وتدخر هذه الفترة بكثير من الأسماء التي لم يكن أصحابها أمراء أو سلاطين يقودون جيوشاً^(١) يغيرون بها على المدن يقتحمونها وينهبونها دون أن يكون لهم غرض سياسي ظاهر . ولم يكن هؤلاء القواد المجهولون سوى زعماء لعصابات من الشفتا انتهزت فرصة هذه الفوضى الشاملة وصالت في البلاد باحثة عن غرضها أو تنضم إلى إحدى الجيوش النائرة لتصل إلى ما تريد من نهب وسلب . ولم يكن هؤلاء الأمراء الناثرون يجرأون على أن يمتنعوا بل ربما كانوا يشجعونهم على عملهم فليس غريب أن تقامى البلاد نتيجة كل هذا فتوالى عليها المجاعات التي بلغت من كثرتها أن سميت كل واحدة منها باسم يميزها . كما حدث في السنوات الميجرية ٦٥٠ و ٦٥٧ و ٦٧٠ بما كان سبباً في انتشار الطاعون في سنتي ٦٦٠ و ٦٧١ هـ^(٢) .

ويحدثنا ابن فضل الله العمري صاحب مسالك الأبصار وينقل عنه القلقشندي صاحب صبح الأعشى^(٣) أن هدية (وهي إحدى الولايات الإسلامية التي نشأت في شرق إثيوبيا في القرن الرابع عشر وتخضع سلطتها لسلطة الإمبراطور) كانت أكثر البلاد حشواً ويقدر عددهم بأربعين ألف فارس سوى المشاة الذين يبلغون ضعف هذا العدد وهم أنشط سكان الساحل في تجارة الرقيق وكان الإمبراطور يحاول دائماً منع هذه التجارة بالتضييق على التجار ومنعهم من خصيمهم . فكانوا يقصدون قرية اسمها وشلو . أهلها من الجمع الذين لا دين لهم حيث يخضون العبيد ثم يجلبونهم إلى هدية ، ومعنى هذا أن عصابات الشفتا كانت تهجم على القرى في خفية عن أعين الحكومة متحدية أوامرها بمنع تجارة الرقيق وقوات الحكومة تطاردها وتمنع في مطاردها فيهربون منها إلى حيث لا تمتد سلطتها . فيقومون بعمليتهم المحققة ويعودون حيث ينتظروهم التجار في أسواق هدية . فيتسلمون البضاعة جاهزة . وقد ساعد

Rassegna di Studi Etiopici Vol I. (١)

Ibid. (٢)

(٣) ج ٥ ص ٢٢٧

هذه العصابات على الانتشار بعد هذه الأجزاء عن سلطة الحكومة ونمناخ هذه الجهات الحار الذي يهلك جنود الحكومة (١) فلا يتحملونه لمدة طويلة حتى كانوا في بعض الأوقات يرغبون قوادهم على إنهاء الحملة والعودة إلى بلادهم لعدم تعودهم هذا النوع من المناخ وكذلك ما كان يتمتع به حكام الولايات الشرقية من استقلال داخلي في ولاياتهم . حيث تجرأت عصابات الشفتا على أن تسود البلاد مخربة ناهية سالبة ثم قبل أن يلجأ الأمير إلى السلطة المركزية طالباً العون . فقد قام حق الدين بن أحمد حرب أرعد يقود هذه العصابات متحدياً سلطة جده على بن صبر الدين بن عمر ولسمع وعنه ملا أصفح حتى إذا لجأ هذا العم إلى الإمبراطور مستنجداً به لم يتردد في قتله . وظل يسود الركن الشرق عشرة سنوات كاملة وهو يخرب البلاد ويسجن النساء والأطفال حتى قتل في إحدى غزواته سنة ١٣٧٢ م . وفي خلال هذه الفترة تعرضت التجارة الآثيوبية بين الساحل والداخل لأسوأ ما تتعرض له التجارة من التعطل بسبب هجمات هذه العصابات حتى كانت القوافل لا تسير إلا نهاراً وأفرادها مدحجون بالسلاح . وإذا مات حق الدين ترأس جماعته أخوه سعد الدين الملقب بأبي البركات وظل يبعث بهلبا الإقليم كله زهاء ثلاثين سنة كانت كافية لأن تعطي اسمه على كل الأجزاء المنخفضة حتى شاطئ البحر الأحمر فسمى برسعد الدين حتى قتل سنة ١٤٠٢ م بعد أن حوضر في زيلع ثلاثة أيام (٢) أيام حكم الملك داود وفر أولاده العشرة إلى اليمن حيث أكرمهم الملك الناصر وساعدهم حتى استطاعوا أن يعودوا إلى آثيوبيا بعد اثنتي عشرة سنة ليقودوا الناهيين من جديد وظلت قوات الدولة تتبعهم وتجمع في قتلهم وسجن من يقع في يدها منهم حتى انتهى أمرهم سنة ١٤٣٢ م .

ونحفظ لنا السجلات الآثيوبية أسماء كثيرين من القواد عملوا إلى جانب الإمبراطور من أجل القضاء على عصابات الشفتا وتطهير البلاد من شرهم . فقد كان زلي حسن قائد الجيوش الإمبراطور عمداً صيون ممعناً في عاربة منصور بن سعد الدين وشهد له الجميع بالشجاعة حتى مات في خدمة مولاه (٣) كما كان على رأس جيش

Budge p. 292. (١)

(٢) الألام ص ١٠

(٣) الألام ص ١٢

زور يعقوب الذى وجهه لقتال حاكم هدية، يامو أخوه وكذلك الجرد محمد حاكم هدية الجليد الذى ظلى يقاوع بدلاى بن سعد الدين حتى قتله فأنتقم عليه الإمبراطور بألقاب التجيد والتشريف . كما تصور لنا هذه الوثائق أيضا مقدار الخراب الذى أنزلته هذه العصابات بالبلاذ ، فقد غنم سعد الدين فى إحدى غزواته أربعين ألف بقرة أخذ منها سليم بن عيان زوج ابنته إثنى عشرة ألف بقرة . وما فعله أولاد سعد الدين بعد عودتهم من اليمن كان أدهى وأمر . فقد غزا جمال الدين بن سعد الدين لإقليم بالى فأسروا ما لا يدخل تحت حصر وغنم غنائم عظيمة حتى صار يحسن إلى كل فقير بثلاثة وعوس من الرقيق الذى بلغ من كثرتة أن يبيع الرأس بريلة من اللقات . ولا نستطيع أن نتصور مقدار الخراب الذى أنزله بالبلاذ إلا حين نقرأ ما كتبه عنه المؤرخ برثيه بعد موته قبله قال (واسر من أجرة الكفرة ما لا يدخل تحت حصر حتى امتلأت بلاد الهند واليمن وهرمز والججاز ومصر والشام والروم والعراق وفارس من رقيق الحبشة) (١).

وعندما تولى العرش زور يعقوب (١٤٣١-١٤٦٩) ورأى ما عليه هذه العصابات من قوة حتى عجزت قوات الحكومة عن القضاء عليها ابتدع تنظيمه الإذرائى الأول وغمل على تنفيذه بكل دقة رغم الصعوبات التى قامها فى وجهه ابنه ومن يلود به . وكان هذا التنظيم ينحصر فى أن يجعل من العاصمة المركز الحقيقى لدولة موحدة قوية . منها تصدر الأوامر إلى جميع أجزاء البلاذ . فيحملها رسل أقوياء إلى حكام أقوياء أقامهم فى مقاطعات دولته تنحصر مهمتهم فى تلقى أوامر الحكومة وتنفيذها إلى جانب الحكام التقليديين وكانت سلطة هؤلاء الموظفين المعينين من قبل الإمبراطور ليكونوا عين الحكومة ويدها تفوق سلطة الحكام التقليديين بما يستندون عليه من سلطة الحكومة وقوتها (٢) وبذلك أصبح قصر الإمبراطور فى العاصمة مصدر السلطة كلها وتجمعت فى يد كل القوة وخضع له جميع رعاياه فأطلت إتيونيا على البحر الأحمر بقوة حقيقة بعد أن حرمت منها منذ قيام الأسرة الزجاجية فى القرن العاشر بل قبل ذلك .

(١) الألام ص ٣٢

(٢) Bruce, Vol. III p. 101.

وفي بداية القرن السادس عشر نجد الإمبراطور لبنا دنجل (١٥٠٦ - ١٥٤٠) يوجه قائده الجرد أبون لحاربة زعيم من زعماء الشفتا هو بكر بن أزر الذي كان قد جمع حوله جموعا من الصومال والمفسدين وقطاع الطرق^(١) وظل يعيث بالبلاد مستندا على مركزه كفرد من العائلة المالكة في إيفات وبلغ هذا اللص وأعوانه من قطاع الطريق من السلطة أن تغلب على قوات الحكومة وقتل الجرد أبون ونصب نفسه سلطانا على إيفات فلم يحل ذلك دون أن يعهد الإمبراطور بهذه الحرب إلى قائد آخر من قواده كان بمثابة اليد اليمنى للجرد أبون هو القائد أجد بن ابراهيم الملقب بالأشول . وكانت هدنة الامبراطور مع السلطان محمد بن أبي بكر بن أزر والإعتراف به سلطانا على إيفات هو الذي حول أحمد بن ابراهيم من موقفه الطبيعي بين صفوف الإمبراطور إلى موقف الثائر في وجهه لأنه رضى عن هذا الفساد الذى انتشر في الصومال . فسار إلى إيفات وعزل السلطان محمد ووضع مكانه سلطانا جديدا هو عردين ابن أخى السلطان . وكان عدم تأييد الإمبراطور لبنا دنجل لقائده في هذه الخطوة الجديدة هو الذى دفعه إلى إعلان سيخطه على الإمبراطور والاستقرار في أيوت التي كانت ذات مركز حصين غاضبان وهناك تقدم اليه وتجمع حوله كل غاضب على السلطان محمد بن أبي بكر . وسار وسطاء الصلح بين الإمام والسلطان ونجحوا في التقريب بينهما . إلا أن استمرار السلطان في تشجيع عصابات الشفتا وهجوم هؤلاء على القرى أكثر من مرة ناهيين ما تصل اليه أيديهم متمتعين بحماية السلطان لم دفعه مرة أخرى إلى إعلان ثورته في وجه كل من السلطان والإمبراطور لإعلانا عن رغبته في الضرب على أيدي قطاع الطريق والمفسدين من أجل استناب الامن في البلاد . وكانت هذه الرغبة ، إلى جانب تبين الإمام وتقواه ، أكبر حافز على أن تنضم اليه جماعات كثيرة العدد من الشعب الراغب في استقرار الأحوال والتمتع بالامن والسلام^(٢) وكانت قوته الجديدة هذه - إلى جانب تأييد الأتراك له - كافية لأن تجعله يتمتع بمثلى الحكومة من القدوم إلى هرر حيث استقر . كاحت الناس على عدم دفع الضرائب إلى جباة الحكومة مادامت عاجزة عن القضاء على هذه العصابات . ومادام السلطان محمد بن أبي بكر هو الذى يضفى حمايته عليها .

(١) فتوح الحبشة ص ٦

(٢) فتوح الحبشة ص ١٥

ونجحت ثورة الإمام أحمد وسيطر على البلاد زهاء اثنتى عشرة سنة ولم يستطع الإمبراطور جلاوديوس (١٥٤٠ - ١٥٥٨) - وقد ارتقى العرش عقب وفاة لبنا دنجل - التغلب عليه إلا بعد أن استعان بقوة البرتغاليين في سنة ١٥١٦. وكان البرتغاليون قد قدموا إلى أفريقيا في هذا العصر بحثا عن طريق إلى الهند غير طريق مصر ونجحوا في الوصول إليها وأقاموا لهم إمبراطورية هناك. وخيل اليهم أنهم يستطيعون أن يستقروا في إتيوبيا كما استقروا في أجزاء أخرى على الساحلين الشرقي والغربي للقارة. ولكن تنبه الإمبراطور إلى خطرهم جعله يلجأ إلى طردهم من البلاد. فلم يتردد هؤلاء (الحلفاء) في أن يحاولوا إثارة الفتنة في البلاد مستعينين بكل ناثرو على الإمبراطور (١) وبعبصابات الشفتا التي عادت إلى الظهور عابثة بالأهالي الذين أنهكتهم الحروب الطويلة السابقة وكانت مساعدة بعثات التبشير البرتغالية لهذه العصابات واضحة إلى حد أن دعا الإمبراطور ميناس المطران الكاثوليكي إلى حضرته وأمره في لهجة قاسية أن يوقف نشاطه وأن يترك البلاد (٢) بالرغم مما كان يسبغه عليه قبل ذلك من حاية ورعاية الأمر الذي كان موضع الإنتقاد من رجال الدين الوطنيين.

وكانت قبائل الجحالا قد أخذت تدخل إتيوبيا من الغرب منذ القرن الرابع عشر وكان دخولها في أول الأمر سلميا يستقرون في الأماكن المنخفضة يرعون مواشيم في سكون وهدوء ولكنهم لم يلبثوا أن تحولوا عن هذه الحياة السلمية إلى حياة الحرب فانضموا أولا إلى عصابات الشفتا (٣). ثم استقلوا عنهم وكونوا عصابات جديدة تعمل مستقلة لصالحها واجتاحوا جنوب إتيوبيا وشرقيها ووسطها وصاروا يغيرون على القوافل ينهبونها ويقتلون رجالها. وسلطة الحكومة أعجزت من أن تصل اليهم إلا إذا دفعت اليهم بالأموال تسترضيهم (٤) وقد اكتسحت عصاباتهم جودجام أيام جلاوديوس وقتلته حين قاومهم كما اكتسحت أعالي دوارو وفاتاجار أيام

(١) Budge II p. 358.

(٢) Ibid p. 493.

(٣) Islam in Ethiopia p. 111.

(٤) سيرة الحبشة ص ١٥ من النص.

أصنف سجد^(١) بعد أن أغارت على هرر وضربت وأرغمت القائد نور ابن اخت الإمام أحمد على الفرار من وجهها هائما. كما أغاروا على شوا أيام صرصا دنجل^(٢) كما نهبوا والوداموت وكان يعينهم الإستيلاء على الماشية أكثر من أى شيء آخر بل كانوا لا يترددون عن قتل الرجال لعدم حاجتهم اليهم . بل اكتفوا بالصغار يسترقونهم^(٣) ولم يعجزوا عن الوصول إلى الرهبان في أديرتهم . ومن الواضح أن سبب ذلك يعود إلى حالة الضعف والعجز التي سيطرت على الحكومة المركزية نتيجة لكفاحها الطويل ضد الإمام أحمد من ناحية ، والكاثوليك ومن والاهم من ناحية أخرى . بل كانت القافلة تتخذ الطريق الطويل البعيد عن خطر الجحلا وتفضله على القصير القريب من مراعيهم فقد وصل إلى إتيويا في القرن السابع عشر القافضي حسن بن أحمد الحيمي موفدا من قبل إمام الين إلى الإمبراطور فاسيلاداس وكانت قوات الحكومة تحرسه وتسلمه وقافلته من سلطان إلى سلطان يحرسه . إلا أن ذلك لم يمنع من أن يقع في أبدي إحدى هذه العصابات قتلها ما معه رغم أن القوات التي كانت تحرسه قد بلغت أثنى رجل بالحراب والجليل^(٤) .

ومر قرنان من الزمان منذ أيام الإمبراطور فاسيلاداس (١٦٣٢ - ١٦٦٥) حتى منليك الثاني (١٨٨٩ - ١٩١٣) اعتزلت فيها إتيويا العالم حتى نسيها . سار فيها تاريخ هذه البلاد خلخلا على وثيرة واحدة . يعتل أحد الأباطرة العرش فتقوم عليه ثورة أو ثورات من الرؤوس طورا ومن القبائل الثائرة طورا آخر. وقد ينجح الإمبراطور في سحقها فيظل على عرشه حتى يموت أو تنجح إحداها في سحق جيش الإمبراطور وتقتله فيتنصب العرش أحد المعتصين ليتولاها فترة تنتهي بقتله . ولا جدال في أن البلاد قاست خلال هذه الفترة الطويلة ما لم تقاسه في أى وقت آخر . ولا بد أن عصابات الشفتا تمكنت من البلاد وتمرح فيها وقتما تشاء وكيفما تشاء . ولا بد أن الثوار قد استعانوا في أوقات كثيرة بهذه العصابات حتى كانوا يركون لهم الجبل على الغارب يلبون ويقتلون وفق ما يريدون ما داموا يقدمون

(١) Budge II p. 606.

(٢) Ibid p. 607.

(٣) Ibid n. 608.

(٤) سيرة الحبشة ص ١٧ من النص

لهم العون وقت الحاجة اليه . فاذا كان ت كلاهيمانوت (١٧٠٦ - ١٧٠٨) - تحت تأثير الطامعين من حاشيته - قد ثار على أبيه الإمبراطور ياسو الأول (١٦٨٢ - ١٧٠٦) فقد استعان بقوة الشفتا فلم تطل مدته . وخلفه تيوفيلس (١٧٠٨ - ١٧١١) ولم تطل مدته كذلك وخلفه يوسنيوس (١٧١١ - ١٧٢٠) الذي كان معتصبا للعرش وليس من أفراد الأسرة السلبيانية فقامت عليه انثورات من كل جانب ولم تطل مدته . واعتلى العرش با كافا بن ياسو (١٧٢٠ - ١٧٣٠) فعمل على سحق قوة كل من الأشراف والشفتا وهو وإن كان غرضاً نبيلاً يرى من ورائه إلى إعادة السلام إلى البلاد إلا أن وسيلته اليه كانت حروباً متصلة قضت على الأخضر واليابس وقمت مغبتها على رعوس الشعب . وكانت هذه القوضى سبباً في طمع الدول المجاورة فقد شجعت بادى الثانى ملك الفونج على بدفع بالعصابات تغير على إتيويا لأن إمبراطورها أجار أخا لبادى هرب اليه من سطوة أخيه ومات الإمبراطور ليترك البلاد من جديد مسرحاً لقوضى لا مثيل لها . ولم ترد قوة الأباطرة الذين تولوا العرش خلال المدة التالية عن أن يكونوا العوبة في يد الرعوس أو عصابات الشفتا .

وفى خلال هذه الفترة زار جيمس بروس المستكشف الإسكتلندى إتيويا من أجل البحث عن منابع النيل فترك لنا وصفاً شائفاً لرحلته فى خمس مجلدات (١) ولكنه ترك لنا أيضاً وصفاً لحالة البلاد الداخلية ومنه نستشف كيف كان الإمبراطور لا يملك من الأمر شيئاً . ينقلب على كل الأمور بعض الزعماء الذين أحاطوا به وكانت هذه الحاشية منقسمة على نفسها وتكون أحزاباً يحاول كل منها التسلط على الإمبراطور .

وفى خلال المدة بين ١٧٨٠ : ١٨٥٥ لم يستطع إمبراطور واحد أن يجلس على عرش إتيويا مدعياً أنه نجوس نجحت . بل تقاسم البلاد أكثر من زعيم يحاول كل منهم أن ينشر نفوذه على مقاطعة أو أكثر . وكان أظهر الرعوس فى نهاية هذه المدة أى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ثلاثة هم الملك سهلاسلى فى شوا وهو الذى ينتمى إلى الأسرة السلبيانية ثم الرأس عالى فى أمهرا والرأس روى فى تجرى ولم يتخرج كل منهم عن الإستعانة بالشفتا من أجل التغلب على

نخصومه . فكان كل منهم يرحب بمن ينضم اليه منهم ويحزق العطاء لرئيسهم بل يهبه من القاب الصدارة ما يطفى غروره (١) واجتهد كل منهم في اختراع الوثائق التي تثبت أنه الوارث الحقيقي للعرش السلطاني . وقد اعترفت فرنسا بالرأس ووي وأرسلت اليه بعثة رسمية تعقد معه معاهدة صداقة بينها اعترفت انجلترا بالملك سهلاسلى وأرسلت اليه بعثة أخرى . ولكن لم يكتب لواحد من الشخصيات الثلاث أن يكون صاحب السلطة الحقيقية ولا أن يحمل لقب نجوس نجست ولكن الذى حمله أحد زعماء عصابات الشفتا هو الملقب بالرأس كاسا والذى حمل بعد ذلك اسم ثيودور الثانى فى سنة ١٨٥٥ وفى خلال ذلك كانت هرر أفضل المراكز التجارية فى إيتيوبيا بسبب بعدها النسبى عن مسارح الحروب وكانت ترسل القوافل إلى الشاطئ وكان من الضرورى لهذه القوافل أن تمر فى البلاد قاحلة ممرح فيها قبائل الشفتا وكانت قوافل هرر تتغلب على تلك الأخطار بدفعها الاتاوات الباهظة لهذه العصابات (٢) .

كان هذا الرأس كاسا ابنا لامرأة فقيرة تنبع الدواء للناس فى شوارع جوندار ولكنه كان شجاعا جريئا انضم إلى قوات الرأس على حيث تعلم القرومية وأجادها خصوصا وقد أوكل اليه مهمة الإعتناء بالخليل . ولم يلبث أن استقل عنه وألف عصابة قوية انضم اليه فى عضويتها كل راغب فى المخاطرة والنهب . وعاث فى الأرض فسادا . وبلغ من جرأته أن هجم على قوات الرأس على نفسه وهزمه . فدب الرعب فى قلوب ملوك الأقاليم فصار يمنح نفسه الألقاب الحرية كما شاء . وإذا ما دارت الحرب بين الرؤوس المتنازعين وسمع عن انتصار أحدهم انقضض عليه وهو ما يزال تعباً من آثار المعركة وهزمه . ولم يلبث أن وجد نفسه فارس الميدان المحلى خصوصا بعد أن هجم على الملك جون الثالث فى جوندار وأخرجه منها وحسبه فى مجدلا التى اتخذها مركزا لقواته (٣) فأطلق على نفسه لقب نجوس نجست وكتب إلى مصر يدعوها إلى إرسال مطران لتبنيجه . ورغم جلوسه على العرش فإن من عرفوه

Budge II p. 408. (١)

(٢) الثنائى الدولى فى بلاد الصومال ص ٢٢

Budge II p. 494. (٣)

من الملوك والرؤوس كانوا يحتفرونه بسبب أصله الوضع (١) ولم يترك ثيودور بعد جلوسه على العرش - ما اعتاده أيام الشفتا من حياة السلب والنهب وكان يصادر أملاك كل من يغضب عليه ويسميا أملاك التاج (٢) بل كان يترك لرجال جيشه الخيل على الغارب لينهبوا ما يشاءون (٣) كما نهب ختويات الأديرة من الكتب والمخطوطات (لأجل أن ينفذها في كنيسة مخلص العالم التي بناها) كما احتقر كل قوانين الدولة واستهان بتقاليدها ومقدساتها .

ولم يكن من السهل على ثيودور أن يكسر شوكة الشفتا إذا كان هو نفسه أحدهم ولذا عاث الجحلا في أنبلاد يهجمون على القرى يهبونها تحت قيادة ملكهم وركبت واستعان بهم خصومه في ثوراتهم عليه كما فعل حاكم سمن وحفيد الراس ووبى فباد يطاردهم . وحدث أن وقع في يدهم صديقه القنصل البريطاني بلاودن فتزل ثيودور عند إرادتهم وقبل أن يدفع لم فدية من أجل إطلاق سراحه (٤) .

ولم يقف نشاط الشفتا أيام جون الرابع خصوصا في مناطق الحدود (٥) فقد شمرت قبائل الجحلا أنهم أصحاب فضل عليه لأنها ساعدت الحملة البريطانية في تقدمها إلى مجدلا في يناير سنة ١٨٦٨ فقصت على ثيودور وبيرون أن جون لم يأت إلى العرش إلا بمساعدتهم ومساعدة البريطانيين (٥) فأطلقت يدهم في نهب جنود ثيودور وفي نهب مدينة مجدلا . ووصل من نفوذ هذه العصابات أن أصبحت خطرا على جون نفسه (٦) فرحب بما عرضه عليه منليك ملك شوا من أن يستقل الأخير بجميع أقاليم الجحلا حتى والو شمالا رغم أهمية هذه المناطق إذ هي الطريق الطبيعي بين جوندار والبحر حتى إذا قدمت إيطاليا واشترت شركة Rabattino ميناء عصب أرسلت بعثة بقيادة الكونت انطونلي إلى منليك لا إلى جون لتطلب منه المعونة والمساعدة على تقدم هذه المستعمرة الجديدة . وكما كان هؤلاء الشفتا سببا

(١) Ibid p 498.

(٢) Ibid p. 499.

(٣) Ibid p. 496.

(٤) السودان بين الميدي وكشنر ج ٢ ص ١٣٠

(٥) Budge II p. 522.

(٦) Ten years in Mahdi's Camp p. 259.

في هزيمة ثيودور تسببوا أيضا في هزيمة جون في التمة امام عبد الله التعايشي في مارس سنة ١٨٨٩ وقتله. فقد انتصر على الدراويش أولا وغنم معسكرهم فكان هجوم هؤلاء الشفتا على ما تركوه قد صرف نظرهم عن تعقب أعدائهم فعادوا اليهم وهزمهم وقتلوا الملك بل حملوا معهم جثته أيضا (١).

وكان منليك الثاني أول أمبراطور لم يحاول الاستفادة من الشفتا بل كان أول من يضرب على يدهم. إذ عرف أن اطمئنان الأهالي إلى قوتهم أول عوامل الإستقرار وساعده على ذلك أنهم لم يكونوا أصحاب فضل عليه بل انضموا إلى خصمه الراس منجاشا بن جون حين ثار عليه وكان انتصار منليك عليه بداية الطريق لا إلى القضاء على سلطة الأمراء فحسب بل إلى القضاء على سلطة الشفتا .

وكان انتصار منليك على الإيطاليين في عدوة سنة ١٨٩٦ ثم تحالفه مع الفرنسيين في سنة ١٨٩٧ ثم فتحه الأقاليم الجنوبية والجنوبية الغربية بمساعدتهم (٢) وكذلك استيلاؤه على هرر معالم الطريق التي أدت به إلى توطيد سلطة الحكومة ورفع هيبتها والقضاء على قوة الشفتا الذين لم يجدوا نصيرا يعتمدون عليه أو قوة داخلية أو خارجية تستأجرهم . كما كانت عودة الحكم المصرى بالسودان في سنة ١٨٩٩ نذيرا جديدا بالقضاء على قوتهم في مناطق الحدود الاثيوبية السودانية . بعد أن استقرت الأحوال هناك . كما يعود الفضل في القضاء على قوتهم في أجزاء أخرى من البلاد إلى المراكز الحربية التي أسسها منليك وإلى قوات البوليس التي وكل إليها المحافظة على الأمن داخل المدن الكبرى وهو إجراء كان منليك أول من نظمه .

وكان القضاء على قوة الشفتا وخاصة في الأقاليم الجنوبية الغربية نذيرا بالضرب على أيدي تجار الرقيق فشعر سكان جا وكافا بالأمان على أنفسهم لأول مرة مما أدى إلى استقرار قبائل الشفتا في الغرب .

وكان انتصار لادج ياسو (١٩١٣ - ١٩١٧) إلى ملذاته يتبها أيضا كانت وإعماله لواجباته ثم مقاومته لسلطة البوليس النظامي الذي أنشأه جده منليك مما أتاح لقوات الشفتا إلى تعود إلى سابق قوتها وسيطرتها على البلاد . إلا أن ارتفاع

Ten years in Mahdi's Camp. p. 266. (١)

Budge II p. 533. (٢)

الرأس تنفى إلى منصب الوصى على العرش كان إيلانا بيده عصر جديد في تاريخ إتيوبيا . إذ كان يؤمن أن الإستقرار الداخلي أولى خطوات السير نحو الحضارة فلم يلدث أن استصدر في سنة ١٩٢٣ مرسوماً بإلغاء الرق وجعل عقوبة الإعدام لكل تاحـ رقيق^(١) ولم يعترف بغير الرق المتزلى . فكان هذا أول ضربة أصابت الشفتا في إتيوبيا إذ كان اصطياد الرقيق والاتجار فيه اخلف الأول من غاراتهم . وفي نفس السنة قبلت إتيوبيا عضواً في عصبة الأمم مما يعطيها الحق في أن تطلب من هذه الهيئة كل مساعدة من أجل القضاء على تجارة الرقيق . وكان إلغاء تجارة الرقيق في السودان أيضاً متاردة تجارة في المناطق الجنوبية الضربة الثانية^(٢) وبذلك فقدت عصابات الشفتا أكبر معين لها . فذهبت تبحث عن معين جديد في الرؤوس الثائرين ومنهم الإمبراطور السابق لدج ياسو^(٣) فقامت الحكومة بتطاردهم وتقضى على حركتهم . وبذلك الكنيسة في هذا السيل مساعدتها للحكومة في هدفها . بل خرج المطران مرسوماً بحرمان كل من لا يقدم مساعدته للحكومة في هدفها . بل خرج المطران في كثير من الأحيان بصاحب الجيوش الإمبراطورية في حربها فلم تأت سنة ١٩٢٤ حتى كانت قوات الحكومة قد سيطرت على الحالة تماماً وخصوصاً في الشمال والغرب وأصبحت سلطة الحكومة محسوسة في كل مكان .

وإذا ما ارتقى العرش في سنة ١٩٣١ باسم الإمبراطور هيلاسلاسى حتى كان أول هدف له تأسيس الحكومة المركزية القوية التي تسيطر على كل أجزاء البلاد والقضاء على سلطة الرؤوس قضاء تاماً .^(٤) ثم تركيز السلطة في يد القصر وبذلك فقدت عصابات الشفتا كل مساعدة يمكن أن ترتكز عليها في أى جهة من الجهات وكان إشراف وزارة الداخلية على جهاز إدارى منظم دقيق لحكم الولايات والإشراف على الأمن فيها الفضل في استقرار الأمن . وكانت مسئولية الوزراء أمام الإمبراطور شخصياً^(٥) مما يزيد في اهتمامهم بالأمر .

Light and Darkness in East Africa p. 134. (١)

Budge II p. 533. (٢)

Ibid p. 542. (٣)

The Government of Ethiopia p. 277. (٤)

(٥) دستور إتيوبيا الأول الصادر في سنة ١٩٣١

ولكن هذه الإصلاحات لم يكتب لها النجاح والاستمرار بسبب الاحتلال الإيطالي الذي بدأ في سنة ١٩٣٦ فاضطر الإمبراطور إلى الاستعانة من جديد بهؤلاء الشفتا من أجل مقاومة قوات الاحتلال . فاذا كان الإمبراطور قد اضطر إلى الخروج من إتيوبيا في مايو سنة ١٩٣٦ فقد عين بضعة من الرؤوس لقيادة القوات غير النظامية التي ظلت تقاوم القوات الإيطالية ^(١) وترك لهذه القوات حرية الاستعانة بجميع الوسائل الممكنة من أجل الوصول إلى أهدافها . فكانت الاستعانة بقوات الشفتا وقطاع الطريق إحدى هذه الوسائل . واستمر هذا الصراع خمس سنوات كانت حياة هؤلاء الأبطال صورة صادقة لحياة الشفتا الأولين وكانت دوريات الجنود الإيطاليين تطاردهم حتى إذا فشل انقضت على القرى تهبها وتخرب ما تصل إليه أيدي أفرادها ^(٢) ولم تكن هذه القوات الاثيوبية لتتردد بدورها في الهجوم على القرى من أجل الحصول على الغذاء أو من أجل حرمان الإيطاليين من الاستيلاء على المحصول الذي قارب النضج . وكانت محاربة هذه العصابات تعد في نظر قواد الجيش الإيطالي عملا حريا جارا يستحق الجنود وقوادهم الصغار عليه مزيدا من التكرم بالألقاب والرتب الحربية ومن أجل ذلك حرص هؤلاء القواد على الإنفاق مع عصابات الشفتا على أن يمثلوا معهم معارك من حين لآخر من أجل إظهار أنفسهم أمام قوادهم بمظهر المجدين في القضاء على الثوار الوطنيين طلبا لمزيد من الرتب والألقاب . وقد بلغ من قوة الوطنيين ومن يعاونهم من عصابات الشفتا أن اضطر كثيرون من المحتلين الإيطاليين إلى أن يحبسوا أنفسهم داخل أسوار معقلهم وقلاعهم . وكانت قوافل السيارات التي تحمل البضائع الإيطالية بين ثغر مصوع وأديس أبابا أكثر ما يغري هذه الفرق والعصابات فيقتضون عليها يقتلون أفرادها ويستولون على ما تحمله من مواد غالية مفيدة ^(٣) وطبعي أن كثيرين من أفراد عصابات الشفتا لم تكن تفهم من هذه الحركات وتعضيد بعض الرؤوس لهم إلا الرغبة العامة في القضاء على الرجل الأبيض أينما كان .

Ethiopia Review Nov. 1944. (١)

Travels in Ethiopia p. 44. (٢)

Travels in Ethiopia p. 45. (٣)

وأن للإحتلال الإيطالي أن يرحل وأن تعود الحكومة الوطنية إلى البلاد في سنة ١٩٤١ بل أن يعود رجال المقاومة الوطنية إلى تسلم بعض المراكز الرفيعة جزاء ما قدموا لبلادهم . ففهم بعض زعماء عصابات الشفتا أن سوف تطلق يدهم في البلاد من جديد فعاثوا فسادا وكانت الحكومة الجديدة بامكانياتها المحدودة أعجز من أن تضرب على يدهم . ولكن ذلك لم يمنعهما من أن تقوم بالواجب فأخذت في مطاردتهم بل لم تتردد في الإستعانة ببعض قوات الجيش من أجل القضاء عليهم . وكانت هذه العصابات قد اتخذت من منطقة الشمال مسرحا لأعمالها . فإذا ما اتجهت إليها قوات الحكومة تطاردها اتجهت وجهة أخرى وسرعان ما وجلت هذه الوجهة في منطقة الأوجادين حيث عسكرت بعض القوات البريطانية إستنادا إلى معاهدة التحالف التي عقدتها الحكومتان في سنة ١٩٤٢ فأخذت في الإغارة عليها معتقدة أن هذا العمل سوف يبعث على رضا الحكومة عنهم . وإذا ما اتجهت الحكومة إليها تطاردها في هذا الميدان الجديد اعتقدت أن مطاردة الحكومة لها ليست إلا على سبيل الترضية للقوات البيضاء الخليفة . ولكن المطاردات الحكومية ازدادت عنفا وقوة . مما دعا عصابات الشفتا إلى ترك الإغارة على القوات البريطانية البيضاء والعودة إلى سياستها القديمة وهي الإغارة على المدن الأنبيوية ونهبها مما اضطر الحكومة في بعض الأحيان إلى وقف التجارة في بعض الطرق والإستعانة بالجيش من جديد للحد من نشاطهم . وفي سنة ١٩٤٤ إستطاع فريق منهم أن يدخل العاصمة تحت سمع الحكومة وبصرها وتهاجم دارا لتاجر أرمني وقتله وولده وتسلمهم ما خف حمله وغلا ثمنه وأن يعود أفراداه إلى مراكزهم سالمين ^(١) ولكن عين الحكومة الساهرة لم تلبث أن قبضت على هذا الفريق وقدمته للمحاكمة فحكم عليهم جميعا بالإعدام وشهدت العاصمة جثثهم تتأرجح على أعواد المشانق في السوق العام .

وكان لسلسلة التشريعات الإدارية التي سنتها الحكومة بين سنتي ١٩٤١ و ١٩٤٨ وخاصة في سنة ١٩٤٢ الفضل الكبير في القضاء على عصابات الشفتا فقد قسمت البلاد إلى إثنتي عشرة مديرية ^(٢) وقسمت كل مديرية إلى عدد من الأجزاء

(١) حريدة بريغاش سلام فبراير سنة ١٩٤٤

(٢) ترجمه الجرائد العربية الأنبيوية كلمة Province بكلمة مديرية وكلمة

District بمعاضده .

Sub Province وقسمت هذه الأجزاء بدورها إلى مقاطعات وقسمت هي الأخرى إلى وحدات صغيرة Sub District . على أن يرأس كلا من هذه المديرية والمقاطعات وأجزأهما موظفون معينون يرأسهم حاكم المديرية المسئول أمام وزير الداخلية وينتسب هذا الجهاز الإداري بأصغر وحداته وهي القرية التي يرأسها الشوم أو العمدة (١) . وهو معين بدوره بواسطة نفس الجهة إلا أنه يراعى فيه أن يكون أحد أعيان القرية فأصبح شعور الأهالي بوجود سلطة قوية للحكومة يجعلهم قادرين على التكاتف في سبيل رد هذه العصابات (٢) وكان لمستشار وزارة الداخلية البريطاني ومن معه من المستشارين الإقليميين في المديرية (هرر - جبا . ديسي) الفضل في المساعدة على قيام الحكومة بواجبها فقد حظيت الإدارة البوليسية بفريق كبير منهم (٣) .

وكان لشبكة الطرق التي شقها الإيطاليون خلال احتلالهم للبلاد الفضل في القضاء على قوات الشغب إذ استطاعت الحكومة الوطنية الجديدة - فوق الإستفادة منها إلى أقصى حد - أن ترسم برنامجا يقوم على صيانة هذه الطرق وشق طرق جديدة مستعينة في ذلك بهيئة النقطة الرابعة الأمريكية . وبلغ ما صرف عليها في سنة ١٩٤٤ أكثر من مليون جنيه .

وكل ذلك عملت الحكومة إلى دفع المرتبات المنتظمة إلى موظفيها في الأقاليم وخاصة لرجال البوليس والجيش (٤) وكان هؤلاء جميعا سرعان ما يتهاوتون في أعمالهم بل ينضمون إلى هذه العصابات إذا ما تأخرت هذه المرتبات إما طلبا للقوت أو إنتقاما من الحكومة على ما اعتقدوه أنه إهمال لهم أو رغبة في الإنضمام إلى من يدفع لهم أجورا أعلى عاجلة . فكان انتظام دفع المرتبات وإن لم يقصد به علاجا مباشرا لكثرة إنتشار عصابات الشغب إلا أنه أدى إلى عدم انتظامهم في أفرادها بل إلى تعاونهم مع عمال الحكومة في القبض على أفرادها .

(١) مرسوم رقم ١ لسنة ١٩٤٢

Travels in Ethiopia p. 118. (٢)

The government of Ethiopia p. 93. (٣)

The government of Ethiopia p. 184. (٤)

ولست هذه الإصلاحات الإدارية ، أو زيادة قوة البوليس ، أو القضاء على نفوذ الأشراف وتجار الرقيق ، أو مد الطرق من أجل سرعة وصول القوات الحكومية المطاردة بكافية وحدها للقضاء على عصابات الشفتا ما لم يقرن ذلك كله بالعمل المتواصل من أجل رفع مستوى الحياة وإيجاد عمل لكل عاطل وغذاء لكل جائع . ولذا كان انجاء الحكومة في العصر الحديث نحو الصناعة والتصنيع والإكثار من المصانع التي تزيد الثروة النقدية من جهة وتستوعب عددا أكبر من المواطنين من جهة أخرى إجراء آخر غير مباشر أدى إلى الحد من نشاط هذه العصابات فقد أدخلت كثير من التحسينات على المصانع التي كانت موجودة من قبل حتى كبرت واتسعت . مثل صناعة الصابون واستخراج الزيت وعمل السجائر وأنشئت أخرى لصناعات جديدة مثل طليح القطن وغزله ونسجه وصناعة الأسمت والسكر وهذه كلها استوعبت عددا كبيرا من العمال بلغ عدهم في سنة ١٩٥١ سبعة آلاف عاملا وارتفع في سنة ١٩٥٤ إلى اثني عشر عاملا كما فتحت الحكومة أبواب البلاد لرؤوس الأموال الأجنبية بين هولندية وأمريكية . ويوغوسلافية وإسرائيلية من أجل استغلالها في إنشاء صناعات جديدة حتى وصل رأس المال المستثمر في الصناعة إلى مائة مليون دولار إتيوبي (١) ولا شك أن أجر العامل الإتيوبي وإن كان متواضعا بالنسبة إلى أجر زميله الأوروبي إلا أن كفايته لمطالبه المتواضعة أدت به إلى حياة أرغد أغتته عن طلب القوات من موارد أخرى كان الإنضمام إلى عصابات الشفتا إحداها . ويتراوح أجر العامل الإتيوبي في الوقت الحاضر بين ١٨٠ و ٢٠٠ ريالاً في السنة . وهو مبلغ لم يكن يحصل عليه لو اشتغل في الزراعة أو الرعى في أقل من خمس سنوات .

وكذلك كان انجاء الحكومة إلى الإكثار من المدارس وخاصة الفنية منها وإقبال الشباب على الإنتاج بها - سوكلمها بالمجان - له الأثر الكبير في صرف نظرهم عن طلب المال من وجوه غير المشروعة فقد وصل عدد المدارس التي أنشأتها الحكومة في اثنتين اثني عشرة من مدرسة ثانوية (٢) عدا المدارس الفنية التي بلغت

(١) Ethiopia To-Day p. 115.

(٢) Ethiopia Observer Magazine, April 1958.

مصاريف إنشائها إلى أكثر من سبعين مليوناً من الدولارات الأمريكية (١) بينما بلغ عدد المدارس الإثيوبية أكثر من ٦١٠ مدرسة (٢) كما أخذت في إصلاح نظام توزيع الأراضي على الفلاحين وكذلك نظام الضرائب العقارية . وهذه الخطوة وإن كانت ولا شك تؤدي إلى الاستقرار وضمان الفلاحين لعيشهم مما ينتج عنها غير مباشر لنشاط عصابات الشفتا إلا أنه يتقصر إجراء أشد فاعلية وهو تملك الأرض للفلاحين . وهو أمر لم تباشره الحكومة الإثيوبية حتى الآن . فإذ زالت الأرض من الوجهة النظرية ملكاً للإمبراطور وله حق وهبا إلى من يشاء ملكية مؤقتة أو دائمة وفقاً لمشيئته (٣) .

فهذه الإصلاحات كلها سوف تساعد على رفع المستوى الإقتصادي للأفراد . الأمر الذي يؤدي ولا شك إلى عدم دفع الناس إلى الإنضمام إلى عصابات الشفتا بل إلى عدم تكوينها أصلاً ولكن هذه المشاريع كلها سوف لا يظهر أثرها سريعاً . فإتقال أمة من حالة الرعي أو الزراعة إلى حالة الصناعة لا يمكن مطلقاً أن يتم قبل قرن من الزمان على الأقل . وتمتع الأهالي بنتائج هذه المشروعات وإن جاء قبل ذلك يقليل إلا أنه بطيء أيضاً ، إلا أن الإصلاح الزراعي أسرع وأقوى أثراً . فإني أظن أن الحكومة الحاضرة تتجه إلى زيادة كمية المحاصيل (٤) ولإجراء التجارب لأجل تحسين أنواعها وكذلك إلى زيادة الرقعة الزراعية أو التغلب على مشكلة المياه ببناء الخزانات الأرضية لتخزين ماء المطر . وقد لقيت بعض هذه المجهودات نصيباً كبيراً من النجاح وكذلك مقاومة أمراض الحيوان وزيادة إنتاجها من الألبان والنسل (٥) . إلا أن هذه الجهود كلها سابقة لأوانها إذ مازالت مساحة الأرض كبيرة بالنسبة لعدد السكان رغم أن ما زرع منها لا تزيد نسبته عن ١٠ ٪ من الأرض القابلة للزراعة (٦) والمحاصيل وإن كثرت وجسنت

(١) Ibid Jan. 1959.

(٢) بحث في الدستور الإثيوبي ص ٩١

(٣) Ethiopia Observer Aug. 1957.

(٤) Ethiopia To-Day pp. 82, 83.

(٥) Ethiopia To-Day p. 85.

(٦) Ibid p. 72.

أنواعها وارتفعت أسعارها مازالت محصورة في يد طبقة خاصة من الإقطاعيين ووحدة الأرض هي الجاشا وهي تقدر بثمانين فدانا (١) ولذا كانت النتيجة إشتغال الفلاح الاتيوي في الأرض أجيرا لا يشعر بدافع يدفعه إلى بذل الجهد ما دام لا يعمل إلا بالأجر أو المشاركة . هنا إلى ضعف الضريبة الزراعية إذ لا تزيد عن خمسين دولارا إتيويا (٦ جنيهات) عن الأرض الجيدة وأربعين للأرض المتوسطة الجودة وخمسة عشر للأرض الضعيفة مما جعل نصيب ضريبة الأرض الزراعية من إيرادات الدولة التي بلغت في سنة ١٩٥٨ مائة وأربعين مليوناً من الدولارات لا تزيد عن ٣,٩٦٠,٥٠٢ أى بنسبة ٢,٥ ٪ هنا إلى أن أرض الكنيسة معفاة من الضرائب فتوزيع الأرض على الفلاحين هو الطريق الطبيعي لاستقرار الأحوال والقضاء على عصابات الشفتا عن طريق رفع المستوى الاقتصادي إلى جانب إنقاص وحدة الأرض الزراعية من الجاشا إلى الفدان وفرض الضريبة الزراعية على الوحدة الأخيرة . ولا شك أن هذه الخطوة تخلق من الاتيويين (وجلمهم من الزراع والرعاة) ملاكا للأرض يقومون على خدمتها تدفعهم إلى ذلك دوافع المصلحة الشخصية فيقبلون على زراعتها بنفس راضية حين يشعرون أنهم سوف يجنون نتيجة تعبهم وكدهم فيقبلون على دفع ضريبتها بنفس راضية أيضا فيزداد إيراد الحكومة فتصرفه على بناء الخزانات الأرضية أو النهرية . أو حفر الآبار والسواقي . وحينئذ لن يجد المواطن الاتيوي ما يدفعه إلى تكوين عصابات الشفتا إذ لا يمكن أن تكون الحكومة راغبة في الإصلاح تواقه إليه لئيم هذا الإصلاح بينا يدها مغلوله عن القيام بالتزاماتها في حدود مواردها الضيقة ومستوى الأهالي المنخفض . واضطرابها في بعض الأوقات إلى التجاوز عن الضرائب الزراعية مشاركة منها للأهالي في التغلب على النكبات التي تنزل بهم (٢) .

Ibid p ٢١. (١)

١٢١ حريدة العلم يوليو سنة ١٩٥٩

ثبت بمصادر البحث

مصادر عربية :

- ١ - اعلام الطراز المنفوس لعلى بن ابراهيم الشافعى (مخطوط) .
- ٢ - الالام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الاسلام لتقى الدين احمد ابن على القريرى .
- ٣ - بحث فى الدستور الانبوى لزاھر رياض - القاهرة سنة ١٩٥٨
- ٤ - السودان بين المهدي وكشنر لابراهيم فوزي - القاهرة سنة ١٩٠١
- ٥ - سيرة الحبشة للحمى حسن بن احمد - القاهرة سنة ١٩٥٨
- ٦ - فتوح الحبشة لشهاب الدين بن احمد - كامبردج سنة ١٨٩٥
- ٧ - الكامل فى التاريخ لابی الحسن بن على المعروف بابن الاثير - القاهرة سنة ١٩٢٢
- ٨ - اللطائف السنوية فى أخبار المالك اليمنية لمحمد بن اسماعيل الكبى الحميرى (مخطوط) .

مصادر اجنبية :

1. Alexander McLeish (Editor) ; Light and Darkness in East Africa, London 1927.
2. Bruce, James ; Travels to Discover the Sources of the Nile, London. 1922.
3. S. W. Budge ; History of Ethiopia, London 1928.
4. Cerulli ; Rossegna di Studi Etiopici, Anno I.
5. Conti Rossini ; Storia d'Etiopia, Rome.
6. Luca dei Sabelli ; Storia d'Abyssinia, Rome IXV.
7. David Buxton ; Travels in Ethiopia, London 1958.
8. Ernest Luther ; Ethiopia To-Day London 1958.
9. Jean Dorresse ; L'Empire du Prêtre Jean, Paris 1957.
10. Mergery Perham ; The Government of Ethiopia, 1938.
11. Ohrvalder ; Ten Years in Mehdi's Camp, London.
12. Spencer Trimingham ; Islam in Ethiopia, London 1952.

جرائد ومجلات :

- ١٢ - جريدة العلم الانبوية تصدر اسبوعيا باللغة العربية فى اديس ابابا .
- ١٤ - برهانا سلام تصدر اسبوعيا باللغة الامهرية فى اديس ابابا .
15. Ethiopian Magazine, Monthly Magazine, Addis Ababa.
16. Ethiopia Observer, Monthly Magazine, Addis Ababa.

مطبعة جامعة القاهرة ٢١ / ١٩٦١ / ٤٥٠

تم طبع هذه المجلة بمطبعة جامعة
القاهرة في يوم الخميس ١٣ من رجب
سنة ١٣٨١ الموافق ٢١ من ديسمبر
سنة ١٩٦١

مدير المطبعة
على حسين عاصم

what journeying in the desert feels like. From morn till eve you sit aloft upon your voyaging camel ; the risen sun, your task-master, still lenient on your left, mounts vertical and dominant : «then for a while, and a long while, you see him no more, for you are veiled and shrouded, and dare not look upon the greatness of his glory, but you know where he strides over head by the touch of his flaming sword. No words are spoken, but your Arabs moan, your camels sigh, your skin glows, your shoulders ache, and for sights you see the pattern and the web of the silk that veils your eyes, and the glare of the outer light. Time labours on—your skin glows, your shoulders ache, your Arabs moan, your camels sigh, and you see the same pattern in the silk, and the same glare of light beyond ; but conquering time marches on, and by-and-by the descending sun has compassed the heaven, and now softly touches your right arm, and throws your lank shadows over the sand». Then begins your time for resting—your veil is thrown aside, your tent is pitched, books, maps, cloaks, toilet luxuries litter your spread-out rugs, you feast on scorching toast and fragrant tea, sleep sound and long ; then again the tent is struck, the comforts packed, civilization retires from the spot shehad for a single night annexed, and the Genius of the Desert stalks in. In such subjective, familiar confidences as these lies a part of the spell that Kinglake casts upon us—while we read we are in the East.

In his review of *Eothen*, Warburton did justice to Kinglake and his work. His estimate was fair and sound. «Other books» he says, «contain facts and statistics about the East ; this book gives the East itself in vital actual reality. Its style is conversational ; or the soliloquy rather of a man convincing and amusing himself as he proceeds, without reverence for others' faith, or lenity towards others' prejudices». He goes into further details and sums up in these words : «It is a real book, not a sham ; it equals ANASTASIOUS, rivals VATHEK ; its terseness, vigour, bold imagery, recall the grand style of Fuller and South to which the author adds a spirit, freshness, delicacy, all his own». (see *The Quarterly Review* ; 1845 ; Vol. LXXV. 29).

characteristic of the book, as we have said before, is its individuality. «Whether he writes well or ill» says Prof. Elton, «he is always himself, and little debt to Bedford . . . or other forerunners can be detected». (Survey ; 1830-1880. I. 176) The least that can be said in favour of *Eothen* is that it is the expression of an engaging personality—boisterous in tone here and there, it is true ; but the plain style and familiar language put the author on terms of easy fellowship with his readers, who consequently travel through the whole work in pleasant company.

Eothen's success and enduring popularity have not been easily attained. The book shows every sign of care and labour. From the author's Preface we learn how he had begun the task of writing some account of his Eastern tour more than once without success, and how at last the idea had occurred to him of shaping his narrative as a series of informal talks or letters to a friend (Eliot Warburton in fact) who was then projecting a similar tour to the East. Even then he was so critical of his own work that he took much trouble in revising, re-touching and re-polishing it before submitting it to the publishers. When it finally appeared, it did not at once have a spectacular success, but later it began to grow rapidly in popularity. At present, the best judges have pronounced that as a lasting monument of literary force the work is over-refined.

Eothen differs in many respects from *The Crescent and the Cross*. In fact it is unique among English travel books for its genuine literary qualities, which soon made it a classic and brought its author well-deserved and lasting fame. Its popularity is, strictly speaking, a paradox. It fascinates by violating all the rules which convention assigns to narrative accounts. It traverses the most interesting regions of the world, yet it never aims at giving a clear description of any one of them. The Troad provokes only the author's recollections of his childish raptures over Homer's *Iliad* ; Stamboul elicits only an account of the murderous services rendered by the Golden Horn to the Sultan, whose 'seraglio', palace and council chambers it washes ; in Cairo the plague shuts out all other thoughts ; while in Jerusalem we hear only how pilgrims have vulgarized the Holy Sepulchre, turning it into a 'Bartholomew Fair', Kinglake's has been a sentimental journey and so he gives us everywhere not history, antiquities, geography, statistics, but only Kinglake, only his own sensations, thoughts and experiences. We are told, for example, not what the desert looks like, but

features of both works, let us now turn our attention to *Eothen*, which we intend to place in juxtaposition with Warburton's book, in order to assess the literary value of the latter in a more effective manner.

The place that *Eothen* holds at present in the literature of travel has vindicated its claim to literary merits. Style, form, spirit, diction, all have combined to make the book stand the test of time. Like all other works of art it is universal, honest and sincere; by these qualities it is distinguished from *The Crescent and the Cross* which—as admitted by its author—was written for an English public that was evidently of a certain epoch (*i.e.* the Victorian), with certain habits of thought and a peculiar religious and political outlook on the East. These habits and this outlook, we must always bear in mind, were but little changed from those of the preceding century. Warburton seems to have been an ardent champion of those conservative ideas, and in his work a zealous propagator of them. That they found favour is shown by the comment of a contemporary magazine, the *Britannia*, which ends its review by saying: «We are proud to claim him as a countryman, and are content that his book shall go all the world over, that other countries may derive a just impression of our national character». Thus, to a very great extent, *The Crescent and the Cross* reflects the Victorian type of writer and could be appreciated best, or rather only, by a contemporary public. So from a purely literary view-point it is no longer regarded as interesting or possessing a high value. In *Eothen*, Kinglake describes the East with elegance and yet with genuine sincerity. Though not full of dry details and 'measurements true', the book conveys a clearer picture of the East and gives a truer impression of all that is Oriental than *The Crescent and the Cross* or any other of the usual type of travel books. Warburton himself was one of the most enthusiastic admirers of *Eothen* and took every opportunity of bearing witness to its great literary merits. After quoting from one of its passages describing Eastern travel, Warburton declares it to be a «work containing more vivid, truthful, and brilliant description, more delicate and subtle humour, than any other book upon the East». The book's great success is equally due to the author's literary talents and his particular qualifications as a traveller in the East equipped with a tolerant attitude, sympathetic understanding, wide imagination, impartial reasoning and a fair knowledge of human nature. A distinct

the Camels seemed as if they had just come from the East with gifts : and the palm—tree offered its branches to strew the holy ground : every shepherd appeared to have a mystic character ; and, when 'night came with stars', I looked eagerly for His, and tried to trace it over Bethlehem». (P. 144).

Individuality and originality are the main characteristics of *Eothen*, and are another point of difference between this work and *The Crescent and the Cross*. In his usual modest way Kinglake forewarns us that the book is superficial in its character as he has earnestly tried to discard from it all valuable matter derived from the works of others. «I believe I may truly acknowledge» he declares in the Preface «that from all details of geographical discovery, or antiquarian research—from all display of 'sound learning and religious knowledge'—from all historical and scientific illustrations—from all useful statistics—from all political disquisitions—and from all good moral reflections, the volume is thoroughly free». All this is absolutely true and herein lies *Eothen's* real greatness. As a literary product, it has not suffered at all from the absence of all that 'useful and valuable information' ; on the contrary it has gained considerably in artistic beauty, elegance and charm. All trace of 'sound learning, and religious knowledge' was banished not because the author lacked interest or the necessary equipment to supply them, but because he was firmly resolved on originality and independence of judgement ; and these are the graces of his narrative. Warburton's plan is quite the reverse. He seems to have made special efforts to parade his knowledge of classics, history, politics and religion on every possible occasion. He wanted to be erudite and sparkling at the same time, to display an interest in both the realistic and the romantic aspects of life in the countries he visited. His ambition was to make of his one book a compendium of romance and information on the countries of the Near East, a romantic narrative and a guide-book full of useful information for those who proposed to visit the East. Originality and individuality were bound to be sacrificed under these conditions, and the author anticipates what his readers would soon find for themselves. Acknowledging his indebtedness to various writers, he says: «I have not (intentionally) followed in the foot-steps, or used the thoughts of any other ; but I confess to have borrowed freely, in other respects, from as many as seemed suited to my purpose». Having said that much about the general

the perfectly worldly tone in which I speak of Jerusalem and Bethlehem». It is impossible for Warburton to be so independent, genuine and candid. On a certain occasion, as he describes Jerusalem and its various localities of traditional sanctity, he recounts how his guide pointed out such scenes as the house where Mary dwelt, where 'Dives' revelled, and where dogs licked the sores of Lazarus ; the spot where the cock crew, the cavern where Peter wept—to all this incredible talk he listened with reverence, without any attempt or apparently any desire to examine, scoff or condemn ; when in the Holy Land he felt that he ought inevitably to experience a manner of pilgrim enthusiasm, and this feeling he endeavoured to cultivate and cherish as though it had been a religion in itself. It is difficult to speak of such things gravely, he admits ; and yet, he says, «I would not have one light feeling or expression intermingled with the solemn subjects of which this chapter attempts to treat». To justify this rigid scholastic attitude he goes on to say : «when we visit Marathon or Salamis, it would shame us to be insensible of their heroic associations ; and the pilgrim who can scoff within the walls of Jerusalem does his heart as little justice». (*The Crescent and The Cross* Vol. II, P. 100). Contrast this with the fleeting mood of the author of *Eothen* who, in the chapter dealing with the Holy City candidly owns that the enthusiasm which had glowed (or seemed to glow) within him, for one blessed moment when he knelt and kissed the shrine of the Virgin at Nazareth, was not rekindled at Jerusalem, amid the hum and the bustle of active life. So too, in Bethlehem, he forgets all about the sacred associations of the place and indulges in a description of the pleasant mischief and coquetry of the romping girls, with their pretty faces and large burning eyes whose sight would gladden any man's soul. He ends his account of this innocent and light-hearted scene by maintaining that though such behaviour may seem wrong or impious yet, «loving the truth, you will not so disown sweet Bethlehem you will not disown, or dissemble your right good hearty delight, when you find, as though in a Desert, this gushing, spring of fresh and joyous girlhood». (*Eothen*, P. 240) Describing his feelings on his visit to the same place under similar circumstances, Warburton says, «The reader may smile ; but it was with something like grave respect I looked upon each carpenter in Bethlehem ; the very donkeys assumed an additional interest ; and the cross, with which they are so singularly marked, a meaning ;

Unlike Warburton's and the majority of travel-books on the East, *Eothen* is neither solid nor formal; it is light, witty and elegant. In other words, it is the «sentimental journey» of a traveller who did travel for the sake of enjoying the experiences of the journey.

'Sentimental truth' is the core of difference between the two books and it is this which constitutes the literary merit of *Eothen* as a work of art and renders it different from other commonplace records of Eastern travel. In its author we find not a teacher but a companion, an agreeable fellow-traveller who effectively displays wit and humour in every subject he handles, placing it in happier relief. Compare, for example, Warburton's uniformly solemn attitude with, that of Kinglake, whose response varies with the varying associations of places. The notion of adhering to 'sentimental' truth and of dwelling only upon those matters which happened to interest the author, disregarding all else, would certainly have been unforgivable in an ordinary record of travels through lands not previously explored. But, as Kinglake himself says, in the Preface to the first edition, «where the countries which one visits have been thoroughly and ably described, and even artistically illustrated by others, one is fully at liberty to say as little as one chooses». Kinglake's excuse for *Eothen* is truth, and the outstanding peculiarity of the work is its freedom from any sort of prejudice. He tells us of objects not as he knows them to be but as they actually seemed to him. The result is that *Eothen* conveys not those impressions which ought to have been produced upon ordinary people, but those which were in fact, received on the spot by the writer, whose predisposition to share other people's notions was very slight.

The seemingly perverse manner of treating certain subjects has apparently been forced upon the author by his plan of adhering to 'sentimental' truth. «As I have felt so I have written» he says, «and the result is, that there will often be found in my narrative a jarring discord between the associations properly belonging to interesting sites, and the tone in which I speak of them». He ought, for instance, as he himself pointed out, to have felt as strongly in Judaea as in Galilee, but this was not so. «The religious sentiment (born in solitude) which had heated my brain in the Sanctuary of Nazareth was rudely chilled as the foot of Zion, by disenchanting scenes, and this change is accordingly disclosed by

difference between the two authors is that Kinglake tells you of objects not as he knows them to be, but as they seemed to him on the spot—while Warburton obviously does the reverse.

Both narratives are an account of a tour in the Near East, including Egypt, Palestine, Syria, Turkey and Greece. But as a work of art, Warburton's book, with its melodramatic and selfconscious tone, can hardly compete with the fine literary and scholarly quality of *Eothen*, which still holds its eminent place as a classic, and is, perhaps, the best book of travel in the English language. Yet in the beginning, at least during its author's life-time, *The Crescent and the Cross* enjoyed a far greater popularity than its rival. In the *Dublin University Magazine* (Feb. 1852) a contemporary writer suggests one reason for this. In *Eothen*, he says, «Passages of beauty, almost of sublimity, stand isolated from our sympathies by the interposed cynicism of a few caustic remarks ; and scenes of the World's most ancient reverence and worship become needlessly disenchant-ed under the spell of some sceptical sneer». He attributes this weakness, «which prevents the indisputable power and grace of *Eothen* from having their full effect with the public, «to Kinglake's lack of what he calls 'a changeful truth'—versatile propriety of feeling which enables the author to enter the heart of each successive subject. It is precisely this quality, he maintains, which made Warburton's book so attractive to the public. Such an attitude did not, however, last for long and though *Eothen* did not immediately have the success of *The Crescent and the Cross*, it soon outstripped Warburton's book in popularity and has ever since remained a favourite among thousands of readers for whom its one-time rival possesses little more than antiquarian interest. Two reasons have been suggested for the later popularity of this most charming travel account : (a) *Eothen* is youthful—vivaciously, even boisterously youthful—and after over a hundred years it has not lost the power to communicate the zest and lightheartedness with which Kinglake invested his wanderings in the East ; and (b) the second and more important factor—unlike the majority of travel-books, *Eothen* is not a record of outward, objective facts, but a series of personal impressions by a keen and shrewd observer, with an eye for colour and adventure, a never-failing sense of humour, and the charm and chivalry that win the confidence of strangers.

The Crescent and the Cross ; or, Romance and Realities of Eastern Travel.

If one is asked to give one's general impression of *The Crescent and the Cross* after a reading of *Eothen*, one is bound to concede many a point against Warburton. His book is neither as brilliant nor as clear as *Eothen* : it is, indeed, dull in parts.

Though written with more of sincerity, it does not necessarily contain more of truth. In it we look in vain for the rapid glance, the subtle humour, the sudden thought, the accidental association or sentimental truth ; instead we have a sober, solidly digested narrative—a statement of facts, ostensibly directed to the positive end of instruction, but failing of its purpose. Warburton's attitude and method were quite different from Kinglake's, who may have held the same moral and political convictions, but never attempted to press upon his reader, as Warburton did, upon every occasion. In *Eothen* (originally subtitled "Traces of Travel brought Home from the East") the author estimates things not by their general relative importance but by the degree in which, whether by disposition or accident, they interested him at the time. His work is characterised by its subtle, indirect way of revealing foibles, and by an amusing method of criticizing Oriental manners and customs while at the same time giving us an abundance of useful and interesting information. His imaginary conversation between the Turkish Pacha and an English traveller, his humorous impressions of Lady Hester Stanhope, his interesting account of the Greek consul and the cock, or of the Plague in Cairo, and finally his amusing, inflated raptures in the presence of the Pyramids and the Sphinx, are suitable examples to illustrate the truth of our claim.

They are, superficially, a mixture of light comedy and pleasant ranting. but if we read them intelligently and without prejudice we shall be impressed with the realities of Eastern life and thought in a far better and more enjoyable way than from the reading of an ordinary travel book. Add to all these elements of fascination the unbroken luxuriance of style and the easy flow of casual epigram or negligent simile (Greek holy days not kept holy "but kept stupid"; the mule who "forgot that his rider was a saint and remembered that he was a tailor"). With these points in mind we shall show how different were Warburton's attitude towards the East and his treatment of the subject. The major

A LITERARY ESTIMATE OF "EOTHEN"
IN RELATION TO "THE CRESCENT
AND THE CROSS"

BY

Dr. MOHAMMED SAMIR ABDEL-HAMID

The fourth decade of the nineteenth century dawned on a procession of Oriental pilgrims—variously qualified or disqualified to hold the gorgeous East in fee—who, with 'bakshish' (tips) in their purses, a theory in their brains, an unfilled diary-book in their portmanteaus, sought out the Holy Land, the Sinai peninsula or the valley of the Nile. With very few exceptions these travellers, who went to the East with no purpose but to vindicate or realize what they had previously read, returned home after a few months of hurried and superficial visits to fill up hundreds of pages with well-known facts and insignificant details. That type of traveller is facetiously treated in contemporary magazines in an age when everybody seemed to have written an Eastern book. A humorous writer claimed that there was scarcely anybody in society who had not then been up to the Second Cataract (of the Nile).

The nature of these multifarious accounts of Eastern travel varied according to the writer. Some were honest, others amusing, poisonous, or sentimental. Honesty, fun, piety or artificial colouring, all failed to attain success and in due course were destined to an unregrettable oblivion.

Only two of the vast multitude of books on the Near East made a spectacular and durable success. The first is Kinglake's classic *Eothen* which, on account of its intrinsic merits, remained unyielding to the vicissitudes of fortune. Its stubborn rival, published almost at the same time (1844), was Eliot Warburton's

CONTENTS

OF THE EUROPEAN SECTION

	PAGE
MOHAMMED SAMIR ABDEL-HAMID	
A Literary Estimate of "Eothen" in Relation to "The Crescent and the Cross" 	1

The Bulletin of the Faculty of Arts is issued twice a year, in May and December. All requests for copies should be made to the Cairo University Librarian, Giza. Communications regarding contributions should be addressed to the Editor of the Bulletin Dr. W. H. El-Bakry, Faculty of Arts, Giza, Egypt.

Back numbers of this Bulletin are available
at 30 P.T. for each Part.

BULLETIN
OF
THE FACULTY OF ARTS



VOL. XIX—PART II

DECEMBER 1957

MEMORIAL NUMBER

for

THE LATE PROFESSOR MANSOUR FAHMY

CAIRO UNIVERSITY PRESS
1961



Bibliotheca Alexandrina



0542790